تفسير الباليساني
المعروف
في حسن البيان
تأليف
المرحوم العلامة الشيخ محمد ابن الشيخ
طه الباليساني (رحمة الله عليه)
١٣٢٦هـ/١٩١٨م - ١٤١٥هـ/١٩٩٥م
الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
دار أحياء التراث العربي

حسن البيان
في
تفسير القرآن

حسن البيان في تفسير القرآن

تأليف

المرحوم العلامة الشيخ محمد بن الشيخ طه آل باليساني
(رحمة الله عليه)

المجلد الثالث

(هذا التفسير)

قام بجمعه وإدخاله الحاسوب على حسابه الخاص والإشراف عليه
والتصحيح الأولي الأستاذ المساعد الدكتور حسين الباليساني

وقام بالمراجعة والتصحيح النهائي وبعض الأحاديث وبعض التعليقات في
الهامش الأستاذ الدكتور أحمد الباليساني، وكلاهما نجلا الشيخ المفسر.
نسأل الله لهما العفو والعافية والأجر والثواب.

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان

سورة الأنفال

(مدنيّة، وآياتها خمس وسبعون، نزلت بعد البقرة، وسميّت بالأنفال لما فيها من حكم الأنفال أي الغنيمة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾

إنّ هذه السّورة الشّريفة أكثرها تدور حول ما جرى في معركة بدر الكبرى، فلذلك من الأحسن أن نذكر قصّة هذه الغزوة أولاً؛ ليكون القارئ أكثر بصيرة في فهم الآيات المتعلّقة بها في السّورة.

قصّة معركة بدر: قصّة معركة بدر كما هي في سيرة ابن هشام وإبن كثير وغيرهما هي: أنّ رسول الله (ﷺ) سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشّام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش وتجارة من تجارتهم، فلمّا سمع رسول الله (ﷺ) بذلك، ندب المسلمين إليهم وقال: (هذه عير لقريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلّ الله ينفلكموها)، أي يجعلها غنيمة لكم، بدل ما أخذوا هم من أموالكم وقاموا بإيذائكم، فانتدب النّاس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، حيث إنّهم لم يظنّوا أنّ رسول الله (ﷺ) يلقي حرباً. وكان أبو سفيان يتحسّس النّاس وأخبارهم، ويسأل من لقي من الرّكبان أمر النّاس فأصابه خبر أنّ محمّداً (ﷺ) قد استنفر أصحابه له ولعيره، فاستأجر ضمضُم بن عمرو الغفاري أن يأتي قريشاً في مكّة فيستنفرهم إلى أموالهم وأنّ محمّداً قد عرض لها، فخرج (ضمضم) إلى مكة سريعاً ليخبر أهلها بذلك.

رؤيا عاتكه: وقبل قدوم (ضمضم) مكّة بثلاث ليال، رأت عاتكه بنت عبدالمطلب

رؤيا أفزعتها، فبعث إلى أخيها العبّاس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) فقالت: يا أخي والله لقد رأيت اللّيلة رؤيا أفزعتني وأخاف أن يدخل عليّ قومك شرفاً أكتم عنّي ما أحدّثك به، فقال لها: وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتّى وقف بالأبطح، ثمّ صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا إلى مصارعكم في ثلاث، فرأيت النّاس اجتمعوا له، ثمّ دخل المسجد والنّاس يتّبعونه، فبينما هم حوله قام به بعيره على ظهر الكعبة، ثمّ صرخ بأعلى صوته: ألا إنفروا لمصارعكم في ثلاث، ثمّ قام به بعيره على جبل إلى قبيس فصرخ بمثلها، ثمّ أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت الصخرة تهوي حتّى إذا كانت بأسفل الجبل انفجرت فما بقي بيت من بيوت مكّة ولا دار إلّا دخلتها فلقة منها، فقال العبّاس (رضي الله عنه): والله إنّ هذه لرؤيا فاكتميها ولا تذكريها لأحد. ثمّ خرج العبّاس فلقى الوليد ابن عتبة بن ربيعة وكان صديقاً له فذكر الرّؤيا له وقال له: أكتمه، فذكرها الوليد لأبيه عتبة: ففشا الحديث في مكّة حتّى تحدثت به قريش في أنديتها.

ما جرى بين أبي جهل والعبّاس بعد ذلك: قال العبّاس رضي الله عنه: فغدوت لأطوف بالبيت وأبو جهل في رهط قعود يتحدّثون برؤيا عاتكة، فلمّا رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل إذا فرغت من الطّواف فأقبل إلينا، فلمّا فرغت أقبلت حتّى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا ابن عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبيّة؟ قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرّؤيا من عاتكة؟ فقلت: وما رأت شيئاً، قال أبو جهل: يا بني عبد المطلب أمّا رضيتم أن يتنبّأ رجالكم حتّى تنبّأ نساؤكم؟ فسنتربّص بكم ثلاثاً، فإن يك حقّاً ما رأت فسيكون، وإن لم يكن شيء نكتب عليكم كتاباً أنّكم أكذب أهل بيت في العرب، قال العبّاس رضي الله عنه: ثمّ تفرّقنا.

لوم نساء بنى عبد المطلب عبّاساً لسكوته عن أبي جهل: فلمّا أمسى عباس (رضي الله عنه) لم تبق إمراة من بني عبد المطلب إلّا أتته، فقالت كلّ واحدة منهنّ: أرضيت من هذا الفاسق أن يقع في رجالكم؟ وما كان منك ردّ عنيف له؟ قال العباس (رضي الله عنه): قد والله فعلت، وكذلك وأيم الله لأتعرضنَّ له غداً فإن عاد لأكفيتّكنه.

تحقّق الرؤيا: قال العبّاس (رضي الله عنه): فغدوت في اليوم الثّالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أحبّ أن أدرك أبا جهل لأشتمه، فدخلت المسجد وأشدّ نحوه لأتعرّضه، وكان رجلاً خفيفاً، فرأيته إذ خرج نحو باب المسجد يشتدّ، فقلت في نفسي: ماله! أكلّ هذا فراراً منّي أن أشاتمه؟!، وإذا هو قد سمع مالم أسمع، صوت ضمضم بن عمرو

الغفاري، وهو يصرخ ببطن الوادي ويقول: يا معشر قريش اللّطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمّد في أصحابه، الغوث الغوث. قال العبّاس (رضي الله عنه): فشغلتني عنه الأمر وشغله عنّي.

تجهّز قريش للخروج: فتجهّز النّاس سراعاً وقالوا: أيظنّ محمّد وأصحابه أنّ تكون كعير ابن الحضرمي؟ كلّا، والله ليعلمنّ غير ذلك. فكان كلّ منهم إمّا خرج بنفسه أو بعث أحداً مكانه، ولم يتخلّف من أشراف قريش أحد إلّا أبا لهب، بعث مكانه العاص ابن هشام بن المغيرة، وأراد أميّة بن خلف أن يقعد، وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً، فأتاه عَقبة بن معيط وهو جالس في قومه، فوضع عقبة مجمرة فيها نار بين يديه فقال: يا أبا علي إستجمر، فإنّما أنت من النّساء!، فقال أميّة: قبَحَك الله وقبّح ما جئت به، فتجهّز وخرج مع النّاس.

مشاورة الرّسول أصحابه: وقد وصل الرّسول (صلى الله عليه وسلم) إلى واد يقال له زفران، فقطعه عرضاً، ثمّ نزل، وأتاه الخبر أنّ قريشاً خرجوا ليمنعوا عيرهم، فعلم (صلى الله عليه وسلم) أنّ الحرب قد كادت، فاستشار النّاس، فقام أبوبكر وأجاد، ثمّ قام عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) فقال وأحسن، ثمّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله إمض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون، ولكن إذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالّذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد،– وهو موضع بناحية اليمن وقيل إنّها مدينة الحبشة–، لجالدنا معك حتّى تبلغه، فقال له (صلى الله عليه وسلم) خيراً ودعا له، ثمّ قال (صلى الله عليه وسلم): أشيروا عليّ أيّها النّاس ويريد الأنصار، فقال سعد بن معاذ: لكأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال (صلى الله عليه وسلم): أجل، فقال: فإنّا قد آمنا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة، فامض لما أمرت فوالّذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه، وإنّا صبر في الحرب صدق في اللّقاء لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسرّ بنا على بركة الله تعالى، فانسرّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقوله وقال: سيروا على بركة الله تعالى وأبشروا، فالله تعالى وعدني إحدى الطّائفتين العير أو الذّخير، والله لكأنّي انظر إلى مصارع القوم، ثمّ ارتحل الرّسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أن وصل قريباً من بدر، فنزل هناك، وبلغه أنّ قريشاً قد خرجوا لمقابلته، وبعث عليّ ابن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص (رضي الله عنهما) إلى بدر ليأتوا له بخبر، فأتوا إليه بغلامين من سقاة قريش، فسألهما

الرّسول (ﷺ)عن قريش؟ فقالا: هم والله وراء هذا الكثيب الّذي ترى بالعدوة القصوى. فقال (ﷺ): كم عدّتهم؟ قالا: كثير. قال (ﷺ): كم ينحرون كلّ يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً؟ فقال (ﷺ): فيما بين التّسعمائة والألف، ثمّ قال لهما: فمن فيهم من الأشراف فلمّا ذكروا أسماءهم أقبل رسول الله (ﷺ) على النّاس فقال: هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها، ثمّ ذهب سبسب بن عمرو الجهني وعديّ ابن أبي الزعباء (رضي الله عنهما) بسرّ إلى بدر يستقيان فسمعا جاريةً تقول لأخرى: إنّ العير تأتي غداً أو بعد غد، فرجعا إلى رسول الله (ﷺ) بهذا الخبر.

رسالة أبي سفيان إلى قريش: وأقبل أبو سفيان فتقدّم العير حتّي ورد هو الماء ببدر، فقال لرجل كان هناك إسمه مجدي بن عمرو: هل رأيت أحداً؟ فقال: قد رأيت راكبين قد أتانا إلى هذا التّل جاءآ فاستقيا شنّاً لهما فانطبقا، فجاء أبو سفيان إلى مناخمها فأخذ من أبعار بعيريهما ففتّه فإذا فيه النّوى فقال: هذه والله علائقُ أهل يثرب. فرجع إلى أصحابه وضرب وجه عيره، فترك هذا الطّريق وسلك طريق السّاحل وانطلق سريعاً. ثمّ أرسل إلى قريش إنّكم إنّما خرجتم لتمنعوا عيركم وأموالكم ورجالكم فقد نجّاها الله تعالى فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتّى نرد بدراً فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزور ونطعم الطّعام ونسقي الخمر، وتعزف عليه القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا بعدها فامضوا، فمضت قريش حتّى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي. وخرج الرّسول (ﷺ) يبادرهم إلى الماء حتّى إذا جاء أدنى ماء من بدر فنزل به، فقال له الحباب بن المنذر: أهذا منزل أنزلك الله به ليس لنا أن نتقدّمه أو نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال (ﷺ): بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله (ﷺ) فإنّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالنّاس حتّى تأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثمّ نغور ما وراءه من القليب، ثمّ نبني عليه حوضاً، فنملأه ماءً ثمّ نقابل القوم فنشرب ولا يشربون. فنهض رسول الله (ﷺ) ومن معه، حتّى إذا نزل بأدنى ماء من القوم، فنزل عليه ثمّ أمر بالقُلب فحُفرت، وبنى حوضاً على الماء الّذي نزل عليه، فملأه ماءً ثمّ قذفوا فيه الأواني.

بناء العريش: بعد أن نزل الرّسول (ﷺ) وأصحابه منزلهم ببدر، قال سعد بن معاذ: يا نبيّ الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك؟ ثمّ نلقِي عدوّنا، فإن أعزّنا الله تعالى عليهم كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك

فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلّف أقوام ما نحن بأشدّ لك حبّاً منهم، ولو ظنّوا أنّك تلقى حرباً لما تخلّفوا، ويمتّعك الله بهم ويجاهدون معك. فأثنى عليه الرّسول (ﷺ) فبنى عريشاً فنزل فيه. فجاءت قريش فلمّا رآها رسول الله (ﷺ) تصوّب من التّل إلى الوادي قال: أللهّم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك فتكذّب رسولك، اللّهم فنصرك الّذي وعدتني، أللّهم أحنهم الغداة. ثمّ بعد ذلك وقع القتال، وقبل أن يشتدّ القتال قتل النّاس من المشركين.

مقتل الأسود المخزومي: خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي فقال: أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه، فخرج إليه حمزة بن عبدالمطلب، فلمّا التقيا ضربه حمزة، فأطار قدمه بنصف ساقه. فوقع على ظهره تشخب رجله دماً. ثمّ حبا إلى الحوض حتّى اقتحم فيه يريد أن يبرّ بيمينه فأتبعه حمزة بضربة فقتله.

مقتل شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة: ثمّ خرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وإبنه الوليد بن عتبة، ونادوا إلى المبارزة، فخرج إليهم فتية من الأنصار فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم حاجة فليخرج إلينا أكفاؤنا من قومنا، فقال رسول الله (ﷺ): قم يا عبيدة بن الحارث وقم ياحمزة وقم ياعلي، فبارز عبيدة (رضي الله عنه) عتبة وحمزة (رضي الله عنه) شيبة، وعلي (رضي الله عنه) الوليد، فأمّا حمزة (رضي الله عنه) فلم يمهل شيبة بل قتله سريعاً، وكذا قتل علي (رضي الله عنه) الوليد، وأمّا عبيدة (رضي الله عنه) وعتبة فاختلف بينهما ضربتان كلاهما لم يقتل من أصابه، فكر حمزة (رضي الله عنه) وعليّ (رضي الله عنه) بسيفهما كلاهما، فقتلا عتبة وحملا عبيدة (رضي الله عنه) حيث كان جريحاً إلى المنزل.

الهجوم والتقاء الفريقين: ثمّ تزاحم النّاس ودنا بعضهم من بعض، وأمر الرّسول (ﷺ) وأصحابه أن لا يحملوا عليهم حتّى يأمرهم وقال: إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنّبل، ثمّ خرج رسول الله (ﷺ) فعدّل صفوف أصحابه ثمّ عاد إلى العريش وكان معه أبو بكر فقط فقال(ﷺ) : أللّهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، وأبو بكر (رضي الله عنه) يقول: يا نبيَ الله أنشد ربّك فإنّ الله منجز لك ما وعدك، فتعب رسول الله (ﷺ) فنام قليلاً ثمّ إنتبه فقال: أبشر يا أبابكر أتاك نصر الله تعالى، هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النّقع أي الغبار. وقد رمى مهجع مولى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بسهم فقتل، ثمّ رمى حارثة بن سراقة بسهم فقتل أيضاً، ثمّ خرج رسول الله (ﷺ) إلى النّاس فحرّضهم على القتال، وقال: والّذي نفس محمد بيده لا

يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلّا أدخله الله تعالى الجنّة، فقال عمير بن الحمام (رضي الله عنه) وفي يده تمرات: بخٍ بخٍ ليس بيني وبين الجنّة إلّا أن يقتلني هؤلاء، فرمى التّمرات وأخذ سيفه فقاتل حتّى قتل، وقال عوف بن الحارث بن عفراء (رضي الله عنه) لرسول الله: ما يضحك الرّب اليوم؟ قال غمس اليد في العدوّ حاسراً، فنزع عوف رضي الله عنه درعه ثمّ أخذ سيفه فقاتل حتّى قتل.

رمى الرّسول (ﷺ) للمشركين بالحصباء: ثمّ إنّ رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فرمى بها قريشاً وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم إلّا ودخل عينه منها بشيء. ثمّ أمر الرّسول (ﷺ) أصحابه بالهجوم فقال: شدّوا، فشدّ الأصحاب الهجوم على المشركين، فكانت الهزيمة للكفّار والنّصر للمسلمين الأبرار، فقتل سبعون من صناديد قريش وأسّر من أشرافهم سبعون.

* * *

ثمّ أمر رسول الله (ﷺ) أن يجمعوا ما جمعه النّاس من الغنائم من أموال المشركين، فجمعوه، فاختلف المسلمون فيه فقال من جمعه: هو لنا نحن جمعناه، وقال الّذين قاتلوا: والله لولا نحن قاتلناهم ما جمعتموه، فنحن شغلنا عنكم القوم حتّى جمعتم ما جمعتم، فقال الّذين كانوا يحرسون النّبيّ (ﷺ) مخافة أن يصل إليه العدوّ: والله ما أنتم بأحقّ به منّا، والله لقد رأينا أن نقتل العدوّ، رأينا أن نأخذ المتاع ولم يكن أحد يمنعنا من ذلك، ولكن خفنا على رسول الله (ﷺ) كرّة العدوّ فقمنا دونه، فما أنتم بأحقّ به منّا، فتدخّل الرّسول (ﷺ) في الموضوع وحسم النّزاع، ونزلت مقدّمة هذه السّورة مبيّنة كيفيّة تقسيم الغنائم، وما جرى في هذه الغزوة فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ ﴾

(يسألونك) أي يسألك أيّها النّبيّ المجاهدون معك في غزوة بدر الكبرى فيسألون **(عن الأنفال)** لمن هي؟ ومن الّذي يستحقّها؟ وذلك لأنّ الصّحابة (رضي الله عنهم) كانوا ثلاثة أقسام: قسم أحاطوا بالنّبيّ (ﷺ) في العريش يحرسونه، وقسم أحاطوا بأسلاب العدوّ وأموالهم لما انهزموا، وقسم قتلوا بعض المشركين وأسرّوا بعضهم واتّبعوهم، فاختلف

هؤلاء الفرق، فكلّ فرقة تقول: نحن أحقّ بهذه الأنفال، فنزلت الآية وحسمت الخلاف بينهم، فقال جلّ وعلا: (**قل الأنفال**) جمع نفل بفتح النّون والفاء: وهو الغنيمة، أي قل يا محمّد إنّ الغنائم هي (**لله**) تعالى فهي ملكه لأنّه هو الّذي خلقها وهو الّذي مكّنكم من أخذها (**و**) فوض أمرها (**للرّسول**) يقسّمها حسب ما أمر الله تعالى به (**فاتّقوا الله**) ولا تخالفوا أمره وأمر رسوله، وطيّبوا نفساً بتقسيم الرّسول بينكم (**وأصلحوا ذات**) حال (**بينكم**) وليكن حالكم الوفاق والإئتلاف، وإنّما احذروا كلّ خلاف ونزاع، ولا يكون ذلك الوفاق والائتلاف إلّا بوحدة المنهج والنّظام وإطاعته، ولا نظام حقّاً إلّا نظام الله تعالى المبلّغ إليكم من الرّسول فلذا قال: (**وأطيعوا الله**) ولا يمكن إطاعة الله إلّا بإطاعة الرّسول فلذا قال: (**ورسوله**) فبإطاعة الرّسول تكون إطاعة الله تعالى، ويكون وحدة المنهج والنّظام، ويسود الحبّ والوئام بين المسلمين والمؤمنين، بل وبيّن أفراد الإنسان كلّهم وبدون ذلك فلا. فأطيعوا الله ورسوله (**إن كنتم مؤمنين**) فالمعنى: إنّ الإيمان يجب أن يحمل المؤمن على إطاعة الله والرّسول وإلّا فإيمانه لا قيمة له، فإنّ الإيمان ليس بالتّمنّي بل ما وقر في القلب وصدّقه العمل. واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال عكرمة في معنى الآية: إنّ الغنائم أصبحت أمرها إلى الرّسول (ﷺ) فيقسمها كيف شاء، فقسّمها على السّوية ثمّ نسخت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٤١. فجعل الله تعالى خمس الغنيمة لله وللرّسول ولأقرباء الرّسول ولليتامى والمساكين وإبن السّبيل، لكلّ طائفة خمس الخمس. والباقي يقسّم بين المشاركين في القتال. وستأتي الآية وتفسيرها في هذه السّورة بعد آيات إن شاء الله تعالى، وقال بعضهم: هذه الآية ناسخة لشرع من قبلنا فإنّ الغنائم كانت محرمّة عليهم، فأبيحت لأمّة محمّد (ﷺ) ومنسوخة بقوله: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء....﴾ إلخ، وقال عبدالرحمن بن زيد: أنّ الآية محكمة لا منسوخة إلّا أنّها مجملة ففصلت إجمالها بقوله تعالى: ﴿واعلموا أنّ ما غنتم...﴾ إلخ، وهذا القول رواية عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما)، وهذا القول أحسن لأنّ النّسخ لا يصار إليه إلّا إذا لم يمكن الجمع بين النّصين، قال ابن كثير في السّيرة: قد زعم أبو عبيد بن سلام (رحمه الله) أنّ الرّسول (ﷺ) قسّم غنائم بدر بالسّوية ولم يخمّسها، ثمّ نزل بيان الخمس ناسخاً لما تقدّم. ولكنّ هذه الآية وقوله: ﴿واعلموا أنّ ما غنمتم﴾ كلتاهما نزلتا في قصة بدر، فلا يمكن نسخ الأولى بالأخرى، وإنّ ما في الصّحيحين عن عليّ (رضي الله عنه) من أنّ إحدى شارفيه كانت من الخمس يوم بدر يردُّ

صريحاً على من قال: إنّ غنائم بدر لم تخمّس، وأنّ الآية منسوخة والله تعالى أعلم. وقال بعض العلماء: إنّ الأنفال هو جمع نفل بمعنى الزّيادة فكان الرّسول يعطي بعض المجاهدين زيادات على حقّهم فيقول: هذه لمن فعل كذا، أو يزيدهم دون شرط، لما كان يرى فيهم من بسالة أو أمر آخر يستحقّ به الزيادة، فكأنّ الأصحاب كرهوا ذلك فقال تعالى: ﴿قل الأنفال﴾ أي إعطاء الزّيادات حقّ **(لله وللرّسول)** فعلى هذا تكون الآية لبيان حكم الزّيادات وقوله تعالى: ﴿واعلموا أنّ ما غنمتم﴾ هو لبيان تقسيم الغنيمة، فلا تعارضه، ليكون إحداهما منسوخة والأخرى ناسخة، أو إحداهما مجملاً والآخرى مبيّناً، وهذا أحسن الأقوال. فإعطاء الزيادة جائز للرّسول وللأئمّة بعده. وإختلف العلماء فيما يعطى منه النّفل، وقال مالك: يعطى من خمس الإمام. وقال بعضهم من الأربعة والأخماس، وقال بعضهم: يعطى من رأس الغنيمة قبل إخراج الخمس.

ثمّ بعد أن قال الله تعالى: **(إن كنتم مؤمنين)** أراد أن يذكر أنّه كيف يجب أن يكون الإيمان؟ وما هو الإيمان الصّحيح الصّادق الكامل؟ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾

(إنّما المؤمنون) إيماناً صادقاً وكاملاً هم **(الّذين إذا ذكر الله وجلت)** خشعت وخافت **(قلوبهم)** ولا تنافي هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب)** لأنّ المراد هنا إذا ذكر عذاب الله تعالى خافت قلوبهم، وهنالك أنّه بذكر رحمة الله وقدرته تطمئنّ قلوب المؤمنين، وقد جمع المعنيان في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ﴾ أي تخاف وتضطرب ﴿مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ سورة الزمر الآية/ ٢٣. **(وإذا تليت عليهم آياته)** أي آيات الله تعالى **(زادتهم إيماناً)** فالّذين يقولون: إنّ الإيمان يزيد وينقص مشى على ظاهر الآية، والّذين يقولون: إنّه لا يزيد ولا ينقص لأنّه تصديق، وهو كيفيّة لا تقبل الزّيادة والنّقصان، قالوا: زيادة الإيمان عبارة عن زيادة متعلّقاته، فالإيمان المتعلق بآية أقل تعلقاً من الإيمان المتعلق بآيتين وهكذا. أو يقال: إنّ المراد بالآيات هنا الأحكام، أي إذا

تليت عليهم أحكام الله تعالى زادتهم إيماناً أي إنقياداً وعملاً وامتثالاً. وقد استعمل الإيمان بمعنى العمل والإنقياد في كثير من الأحاديث والآيات **(وعلى ربّهم يتوكّلون)** في الأمور فلا يرون موجداً ولا مؤثراً إلّا الله تعالى، وأنّه مهما جمعوا من الأسباب لم يعتمدوا على الأسباب لأنّهم عرفوا أنّ الأسباب كلّها لا تعمل شيئاً بدون إرادة الله تعالى **(الّذين يقيمون الصّلاة)** ذكرها بعد الإيمان لأنّها أفضل الأعمال بعده **(وممّا رزقناهم ينفقون)** في سبيل الخيرات والأخذ بأيدي المحتاجين، فالإنفاق في سبيل الخير بعد الصّلاة أفضل الأعمال. ولا يخفى أنّ الاسلام ليس هو الصّلاة والإنفاق فقط، بل هناك أمور كثيرة إلّا أنّ الله تعالى ذكر الصّلاة وأراد بها أداء جميع العبادات البدنيّة لأنّ الصّلاة رمزها، لأنّه من المفروض أن من يصلّي يؤدّي العبادات الأخرى ويتجنّب المحرّمات فـ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ سورة العنكبوت الآية/ ٤٥. وذكر الإنفاق وأراد به أداء جميع العبادات والواجبات الماليّة، وبذلك ذكر جميع أعمال الإسلام، وهو إيمان وأعمال بدنيّة رمزها الصّلاة وأعمال ماليّة شعارها الزّكاة **(أولئك)** المتّصفون بالصّفات السّابقة من الخوف عند ذكر الله والإنقياد قلباً وبدناً لآيات الله، وأداء الواجبات البدنيّة والواجبات الماليّة **(هم المؤمنون)** إيماناً **(حقّاً)** أي موافقاً للواقع ولحقيقة الإيمان **(لهم درجات)** حسب إخلاصهم وجودتهم في الأعمال **(عند ربّهم)** في الجنّة **(ومغفرة)** عما يصدر منهم من الزّلل **(ورزق كريم)** أي ذو قدر ومنزلة وشرف.

سؤال: إنّ هذه الآية تفيد أنّ من لم يكن فيه هذه الصّفات المذكورة فليس بمؤمن حقاً فيكون إيمانه باطلاً، مع أنّه من القاعدة أنّ الإيمان لا يحبط إلّا بالكفر فكيف التّوفيق؟.

الجواب: أنّ المراد بالمؤمن الحقّ هو النّاجي من العذاب كلّه فلا يرى شيئاً من العذاب، فمن لم يكن بهذه الصّفات بأن وجد منه تقصير في الأعمال فهو يرى العذاب ثمّ ينجو، إلّا أن يغفر الله تعالى له والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾

(كما أخرجك ربّك) في كاف (كما) عشرة أقوال تقريباً أَولاها: أنّها متعلقة بمحذوف مقدّر يدلّ عليه السّياق؛ فالتّقدير جعل الله تعالى حكم الأنفال إليك وبعض المؤمنين كارهون لذلك **(كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ)** أي أخرجا ملتبساً بالحقّ والحكمة، حيث كان فيه مصلحة الإسلام **(وإنّ فريقاً)** جماعة **(من المؤمنين كارهون)** حينما علموا أنّ هنالك قتالاً مع جيش أكثر منهم عدة وعدداً، وإنّ كرههم لكلا الأمرين النّفل ومواجهة العدوّ كان حسب الطّبيعة البشريّة لا كره كفر أو نفاق أو عصيان، بل انقادوا للأمر بكلّ قوّة وعزيمة وإيمان، وإن كان في قلبهم حبّ للمال أو خوف من العدوّ، كما قال تعالى: **(يجادلونك في الحقّ)** الّذي أردته وهو مقابلة قريش في بدر **(بعد ما تبيّن)** الحقّ **(لهم)** وهو **أنّك** لا تعمل أمراً إلّا بأمر ربّك فقالوا: لم لم تعلّمنا إنّا نلقى العدوّ للقتال؟ كان شديداً، فكانوا **(كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون)** إلى الموت، فكان القتال الّذي يساقون إليه مكروهاً لهم كالموت لعدم استعدادهم له، ولم يعلموا أنّ الله تعالى فعل ذلك لينصرهم، وليظهر قدرته لهم في نصر فئة قليلة على فئة كثيرة يزيدون عليهم ثلاثة أضعاف، بل أكثر فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

(وإذ) أي واذكروا أيّها المسلمون **(يعدكم الله)** أن تغلبوا **(إحدى الطّائفتين)** العير أو النّفير و**(إنّها لكم)** تفعلون بهم ما لا يرضي الكافرين **(وتودّون)** أنتم **(أنّ غير ذات الشّوكة)** أي القوّة والسّلاح **(تكون لكم ويريد الله ان يحقّ)** أن يقوّي الحقّ وينصره **(بكلماته)** بتقديراته وإرادته **(ويقطع دابر الكافرين)** يقال قطع دابرهم أي لم يبق فيهم أحد، وحرب بدر وإن لم يكن قطع فيه دابر الكافرين إلّا أنّه أصبحت سبباً لتلاحق الأحداث فحدثت إلى أن لم يبق منهم أحد، فإنّهم كلّهم إمّا قتلوا أو أسلموا أو ماتوا، وأصبح الأمر للأسلام، ولذلك قال: ويقطع بصيغة المضارع، ثمّ علّل تعالى قطع دابر الكافرين بقوله: **(ليحقّ)** أي يثبت ويرسخ **(الحقّ)** في الأرض **(ويبطل)** ويزيل **(الباطل)** أي الكفر؛ وذلك بإعلاء راية الإسلام وتقوية المسلمين **(ولو كره المجرمون)** الكافرون عزّة الإسلام والمسلمين. وفي الآية دليل على أنّه لا يثبت الحقّ ولا يزول الباطل إلّا إذا

حكم بالإسلام وطبّق منهج الله تعالى وشريعته في الشّؤون جميعاً فقال جلّ وعلا:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

(إذ) أي أذكروا أيّها المؤمنون **(إذ تستغيثون ربّكم)** أي تطلبون منه الغوث والعون والنّصر لقلتكم وكثرة عدوّكم. جاء في صحيح مسلم عن ابن عبّاس قال: حدثني عمر ابن الخطّاب (رضي الله عنه) قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائه وبضعة عشرة رجلاً؛ فاستقبل نبيّ الله القبلة ثمّ مدّ يده؛ فجعل يهتف بربّه يقول: اللّهم أنجز لي ما وعدتني، أللّهم آتني ما وعدتني، أللّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد. فمازال يهتف بربه مادّاً يديه حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر (رضي الله عنه) فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثمّ التزمه من ورائه وقال: يا نبيّ الله كفاك منّا شدّتك ربّك فإنّه سينجز لك ما وعدك[1] **(فاستجاب لكم)** ربّكم وتقبّل دعاءكم فأخبركم على لسان نبيّكم **(أنّي ممدّكم بألف من الملائكه مردفين)** أي يتبع بعضهم بعضاً وعدّهم أولاً بألف، ثمّ بثلاثة آلاف ثمّ بخمسة آلاف، كما يفهم من سورة الأنعام وهنا؛ ولذا قرئ وألف على وزن أفلسٍ وخففت الهمزة بقلبها ألفاً.

عن ابن عبّاس (رضي الله عنه) قال: بينما رجل من المسلمين يشتدّ يومئذ في أثر مشرك إذ سمع ضربة بالسّوط، وسمع صوت فارس يقول أقدم يا حيزوم، فنظر إلى المشرك فرآه خرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد حطّم أنفه وشقّ وجهه، وجاء فحدّث بذلك رسول الله (ﷺ) فقال: صدقت ذلك من مدد السّماء الثّالثة[2]، فقتلوا في ذلك اليوم سبعين وأسّروا سبعين **(وما جعله الله)** أي وما جعل الله هذا الإمداد بالملائكة **(إلّا بشرى لكم)** بالنّصر **(ولتطمئنّ به قلوبكم)** وإلّا فلم يكن الله بحاجة إلى هذا الإمداد لنصركم، فالنّصر ليس بالملائكة ولا بالقوّة ولا بالعدّة أو العدد بل **(وما النّصر إلّا من الله)** تعالى وبإرادته كان ويكون **(إنّ الله عزيز)** يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء وينصر من يشاء **(حكيم)** لا

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٤ الحديث رقم ١٧٦٤.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٣٨٤، الحديث رقم ١٧٦٤.

يعمل شيئاً من ذلك إلّا لحكمة باهرةٍ ومصلحةٍ وافرةٍ بالنّسبة للنّظام العام وإدارة هذا الكون العظيم لا يطلع على كلّ حكمة إلّا هو؛ فهو العليم الخبير.

تمهيد: لمّا وصل الرّسول (ﷺ) وأصحابه بدراً وجدوا أنّه لا ماء هناك، وكان بعضهم جنباً وكان في نفوسهم قلق، فدخل في نفوسهم وسوسة لعدم الماء، فسلّط الله تعالى عليهم النّعاس فناموا، فلمّا استيقظوا وجدوا في أنفسهم طمأنينة وذهب القلق عنهم، وأنزل تعالى مطراً فسالت الأودية فأخذوا كفايتهم من الماء وتطهّر المجنبون وذهبت الوسوسة عن قلوبهم، وكان المكان الّذي نزلوا فيه رملاً يصعب المشي والحركة عليه، فلمّا نزل المطر تلبّد وأصبح كالشّارع المبلط، وأما جانب الكفار فكان تراباً، فلمّا نزل المطر أصبح طيناً صعب عليهم المشي عليه جداً، فيذّكر الله تعالى المؤمنين بهذه النّعم؛ فيقول جلّ وعلا:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾

(إذ) أي واذكروا أيّها المؤمنون **(إذ يغشيكم)** الله تعالى **(النّعاس)** حينما نزلتم ببدر **(أمنة)** أي ليكون سبباً للأمن وإطمئنان النّفوس وإستقرار حال **(منهُ)** من الله تعالى، واذكروا أيضاً حيث كان **(وينزل عليكم)** يوم بدرٍ (من **السّماء ماءً**) مطراً **(ليطهّركم به)** فيغتسل فيه الجنب وليتوضأ المحدث منه **(ويذهب)** أي ولأن يذهب **(عنكم)** عن نفوسكم بهذا المطر **(رجز الشّيطان)** أي وسوسته الحاصلة بسبب عدم الماء **(وليربط)** وليشدّ (على **قلوبكم**) الصّبر والثّبات **(ويثبّت به)** أي بالماء **(الأقدام)** بأن يتلبّد الرّمل فلا تغوص الأقدام في الأرض ويسهل المشي على الرّمل.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

(إذ) أي واذكروا أيّها النّبي **(إذ يوحي ربّك إلى الملائكة)** ويقول لهم **(أنّي معكم)**

بقدرتي وإرادتي لنصركم **(فثبّتوا)** أي قوّوا **(الّذين آمنوا)** بإلقاء الخير والصّبر في قلوبهم - ويسمّى ذلك لُمّة المَلَكِ كما يسمّى ما يلقى الشّيطان من الشّر ووسوسته - فقوّوهم بالحضور معهم، وببشارتهم أنّ النّصر لهم، فكان الملك يمشي في صورة الرّجل ويقول للمؤمنين: أبشروا فإنّ الله ناصركم. ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة كونه مع المؤمنين فقال تعالى: **(سألقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب)** أي الخوف فلا يقوون على القتال **(فاضربوا)** من الكافرين **(فوق الأعناق)** وهو الرأس **(واضربوا منهم كلّ بنان)** والبنان رؤوس الأصابع، فأمر تعالى بضرب الرأس ليهلك المضروب وبضرب بنانه ليتعطل عن الحركة والقتال، وبهذا روي عن أبي داود المازني وكان شهد بدراً وقال: إنّي لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه فاذا وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي؛ فعرفت أنّه قد قتله غيري[١].

وعن سهل بن حنيف قال: لقد رأيتنا يوم بدر وأنّ أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه[٢]، فدلت هذه الأحاديث وأحاديث أخرى صحيحة على أنّ الملائكة جاؤوا ليقاتلوا، وقاتلوا فعلاً، ولم يأتوا للإمداد فقط كما ذهب بعض النّاس هذا المذهب، وظاهرة هذه الآيات تؤيّد قتالهم فعلاً والله تعالى أعلم.

(ذلك) الإمداد والنّصر للمؤمنين وإلقاء الرّعب في قلوب الكافرين وقع **(بأنّهم)** بسبب أنّهم أي الكافرين **(شاقّوا الله)** أي خالفوا الله وعادوه، ثمّ فسر الله تعالى معاداتهم لله فقال: **(ورسوله)** فمشاقّة الرّسول وعداوته عداوة لله تعالى لأنّه المبلّغ عن الله تعالى شريعته وأوامره، وهو الدّال عليه تعالى **(ومن يشاقق الله)** يذلّ ويعاقب **(فإنّ الله شديد العقاب)** لكلّ من عاداه وعادى رسوله الكريم، ومعاداة الرّسول هو معاداة ومخالفة الشّريعة الّتي جاء بها والمنهج الّذي جاء به وبلّغه إلى النّاس، وما أكثر هؤلاء الأعداء اليوم، وإنّ الله سينزل بهم عقابه الشّديد حتما **(ذلكم)** العذاب الّذي رأيتموه من الذّل والإهانة والقتل والأسر هو عذاب الدّنيا **(فذوقوه)** وليس هذا فحسب بل **(وأنّ للكافرين)** بعد العذاب في الّدنيا **(عذاب النّار)** في الآخرة.

تنبيه: إنّ الله تعالى عدّد على المؤمنين هذه النّعم والوقائع ليعلموا أنّ النّصر كلّ النّصر من الله تعالى، وأنّ تمكينهم من الكافرين وأموالهم كان بنصره وإرادته، فذكر الله تعالى كلّ ذلك ليثبت أنّ الأمر في الأنفال والغنائم لله تعالى وقد فوّضه إلى الرّسول (ﷺ) ليطمئنّ

---

(١) مسند أحمد ٥/ ٤٥٠ الحديث رقم ٢٣٨٢٩.

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٦/ ٧٤ الحديث رقم ٥٥٥٦.

قلوب المؤمنين ويرضوا بما حكم الله في الأنفال والغنائم من كيفيّة التّقسيم والتّوزيع، كما ويأتي تعداد نعم أخرى لذلك أيضاً، وليشكر المؤمنون ربّهم ويتوكّلوا عليه ويمتثلوا أمره في كلّ شيء وإلّا فيعرض عنهم ربّهم فلا ينصرون، وهذا ما نحن فيه وللأسف الشّديد.

* * *

ثمّ بعد أن قال الله تعالى فاضربوا فوق الأعناق واضربوا كلّ بنان أراد أن يذكر واجباً آخر من واجبات المعركة فقال جل وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا) في ساحة القتال ومواقعه **(زحفاً)** أي متزاحفين متقاربين يمشي بعضكم إلى بعض ليهجم عليه فيقتله **(فلا تولّوهم الأدبار)** أي فلا تنهزموا **(ومن يولّهم يومئذٍ)** يوم إشتداد القتال **(دبره)** إليهم **(إلّا متحرفاً)** أي مائلاً **(لقتال)** بنوع آخر دقيق وهو أن يرى عدوّه أنّه انهزم فيغفل عدوّه عنه فيكرّ عليه فيقتله **(أو متحيّزاً)** أي مبدّلاً مكانه منضمّاً **(إلى فئةٍ)** أخرى من المؤمنين المقاتلين، فمن إنحرف لغير هذين الأمرين وفرّ من الزّحف **(فقد باء بغضب من الله)** تعالى **(ومأواه)** ومرجعه يوم القيامة **(جهنّم وبئس المصير)** المرجع هو جهنّم.

تنبيه: نفهم من قوله تعالى: (ومن يولّهم يؤمئذٍ دبره فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير) أنّ الفرار من الزّحف من الكبائر؛ فلذلك كان الرّسول حينما يعدّ الكبائر المهلكات، يذكر منها الفرار من الزّحف من صفّ القتال.

* * *

ثمّ بعد هذا الإنتصار العظيم دخل في قلوب بعض المؤمنين تباهٍ وافتخار وغفلة عن تأييد الله تعالى لهم فقال تعالى منبّهاً لهم.

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

(فلم) أي إن تفتخروا بنصركم وقتلكم للكافرين **(فلم تقتلوهم)** أنتم لتفتخروا لأنّه ليس من المعقول أن ينتصر ثلاث مائة على ألف يزيدون عليهم عدّة وسلاحاً **(ولكنّ الله قتلهم)** حيث أدخل في قلوبهم الرّعب والخوف **(وما رميت)** الحصباء أيّها النّبي رمياً مؤاثراً **(إذ رميت)** إليهم وقلت: شاهت الوجوه[1] فدخلت الحصباء في عيونهم فانهزموا **(ولكنّ الله)** تعالى **(رمى)** أي خلق الشدّة والتّأثير في هذه الحصباء؛ إذ ليس من المعقول أن يدخل كفّة من الحصباء عيون المقاتلين كلّهم فتؤثّر فيهم لولا تأثير الله تعالى في ذلك **(و)** فعل الله تعالى ذلك كلّه **(ليبلي)** لينعم على **(المؤمنين بلاءً حسناً)** من النّصر والغلبة والغنائم و**(إنّ الله موهن)** مضعف **(كيد الكافرين)** أي تدابيرهم السّيئة إن عمل المؤمنون لله وتوكّلوا على الله، وإلّا فلا فرق بين الكافرين والمؤمنين، فيبقى الأمر موكولاً على العدّة والعدد فينتصر من أكثر من ذلك والله تعالى أعلم. ثمّ ذكر في السّير والتّفاسير أنّ المشركين حينما نفروا تعلّقوا باستار الكعبة وقالوا اللّهم انصر أحبّ الطّائفتين إليك فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

(إن تستفتحوا) أي إن تطلبوا الفتح وانتصار أحب الطّائفتين إلى الله تعالى **(فقد جاءكم الفتح)** أي انتصار أحبّ الطّائفتين وهم المسلمون **(وإن تنتهوا)** بعد هذا الحرب عن عداوة الرّسول والمسلمين **(فهو)** أي الإنتهاء والسّلم **(خير لكم)** أي أسلم لكم **(وإن تعودوا)** إلى الحرب والقتال **(نعد)** إلى نصر المؤمنين **(ولن تغني)** تدفع **(عنكم فئتكم)** جماعتكم **(شيئاً)** من تذليلنا لكم **(ولو كثرت)** جماعتكم جداً؛ فإنّ العبرة ليست بالعدد والعدّة بل بقوة الإيمان والتوكّل على الله تعالى والإنتصار للحقّ **(وأنّ الله)** بفتح همزة أنّ فتقديره ولأنّ الله تعالى **(مع المؤمنين)** فينصرهم، وبكسر الهمزة تكون كلمة أنّ للتّعليل والمآل واحد، ولا يخفى أنّه يفهم من هذه الآية أنّ مسلمي عصرنا هذا حينما

---

(١) يشير إلى ما ورد عن عن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن فاطمة (رضي الله عنها) قالت: اجتمع مشركو قريش في الحجر فقال رسول الله (ﷺ) يا بنية اسكني، ثم خرج فدخل عليهم المسجد فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا، فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم ثم قال: شاهت الوجوه، فما أصاب رجلا منهم إلا قتل يوم بدر. / المستدرك على الصحيحين ٣/ ١٧٠ الحديث رقم ٤٧٤٢.

لا ينتصرون ليس معناه أنّ الله لا ينصر المؤمنين، فإنّ الله تعالى لا يخلف الوعد بل معناه أنّهم ليسوا مؤمنين حقّاً، وليس حروبهم لنصرة دين الله تعالى، ولا لنشر شريعته، بل يحاربون بأسماء أخرى غير ما أراد الله تعالى أن يقاتل المؤمنون باسمه وله، فالمسلمون اليوم هم الكاذبون، أعادنا الله تعالى إلى الحقّ وهو الإيمان والإسلام، ليعيد إلينا النّصر والسّيادة والعزّة والكرامة الّتي فقدناها بسوء أعمالنا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

(**ياأيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله**) في كلّ ما يأمركم به حسب الوسع والقدرة (**ولا تولّوا**) أصله لا تتولّوا حذفت إحدى التّاءين للتّخفيف كما هو القياس، أي لا تعرضوا عنه أي الرّسول بمخالفة أمره حيّاً أو الخروج عن منهجه حيّاً أو ميّتاً (**وأنتم تسمعون**) القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة سماع إيمان وإيقان (**ولا تكونوا كالّذين قالوا سمعنا**) أي سمعنا قول الرّسول وقبلناه كذباً حيث (**وهم لا يسمعون**) أي لا يستجيبون ولا يعملون به وهم المنافقون.

ثمّ ذمّ الله تعالى كلّ من ينحرف عن منهج الله تعالى وطريقة رسوله الكريم لكي يبتعد النّاس عنهم وعن أخلاقهم فقال جلّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(**إنّ شرّ الدّواب**) جمع دابّة إسم لكلّ ما يدبّ ويمشي على الأرض فشرّ كلّ دابّة (**عند الله الصمّ**) عن الحقّ فلا يسمعونه سماع إنقياد وخضوع (**البكم**) عن الحقّ فلا ينطقون به (**الّذين لا يعقلون**) الحقّ فيتّبعوه، وكأن قائلاً يقول: فلماذا لا يسمعهم الله تعالى؟ أليس الله تعالى بقادر على ذلك؟ فقال تعالى: (**ولو علم الله فيهم**) أي ولو وجد الله فيهم (**خيراً لأسمعهم**) ولكن لم يجد فيهم خيراً فلذلك لم يسمعهم. ثمّ بين الله تعالى عدم وجود الخير فيهم فقال: (**ولو أسمعهم**) سماع تصديق وإيقان (**لتولّوا**) لأنّ عدم إنقيادهم ليس لخفاء الأمر عليهم بل إنّما ذلك لاستكبار وحسد منهم، وحبّ

للرّياسة ومطامع الدّنيا، أو حفاظاً على التّقاليد الموروثة، أو لأسباب أخرى منعتهم عن قبول الحقّ بعد العلم به، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة البقرة الآيتان/ ٨٩، ٩٠. فهؤلاء الّذين يكفرون حسداً واستكباراً لا خير فيهم فلو أسمعهم لتولّوا **(وهم معرضون)** عن الحقّ وإن ظهر ظهور الشّمس في رابعة النّهار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا استجيبوا) أطيعوا وانقادوا **(لله وللرّسول إذا دعاكم)** أي الرّسول لم يذكر الله هنا لأن دعوة الله هي دعوة الرّسول وبالعكس **(لما يحييكم)** في الدّنيا والآخرة، وهو منهج الإسلام ونظامه وشريعته والجهاد في سبيل نشره وإعلائه. فأمّا إحياؤه للنّاس في الدنيا فلأنه لا حياة لأمّة بدون نظام يمنع القويّ من الضّعيف والغنيّ من الفقير والظّالم من المظلوم، ويفصل النّزاع بين النّاس، ولانظام خيراً من نظام الله تعالى، وأمّا إحياؤه في الآخرة، فإنّ كلّ نظام وان أقام للنّاس بالعدل والصيانة فلا يكون سبباً للثّواب في الآخرة، ولكنّ الإسلام وبشريعته يكون العمل به سبباً في الآخرة لحياة لا تفنى ولا تزول في جنّة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد من البشر **(واعلموا أنّ الله يحول)** أي يعلم بنوايا الإنسان وما في قلبه كالّذي **(يحول)** أي يكون

حائلاً أي فاصلاً (**بين المرء وقلبه**)[١] وهذا قبل قوله تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ سورة ق الآية/١٦. فيعلم تعالى كلّ ما في قلوبكم واعلموا (**أنّه**) أنّ الشّأن هو أنّكم جميعاً (**إليه**) إلى الله (**تحشرون**) فيحاسبكم ويجازيكم حسب إخلاصكم ونياتكم وعقائدكم، ولا يخفى عليه شيء من ذلك (**واتّقوا**) المعاصي والذّنوب والابتعاد عن الشّريعة؛ فلا ترتكبوا ذلك وخذوا على أيدي من انحرف عن دين الله، وقفوهم عند حدّهم لتتّقوا بذلك (**فتنةً**) أي عذاباً ومصيبةً تعمّكم جميعاً فإنّها إن جاءت (**لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصة**) بل تصيب الجميع، أمّا الظّالمين فلظلمهم، وأمّا غيرهم فلسكوتهم عنهم وعدم إيقافهم عند حدّهم (**واعلموا أنّ الله شديد العقاب**) لكلّ من انحرف عمّا يدعو إليه الرّسول من اتّباع المنهج والنّظام (**واذكروا**) نعمة الله عليكم (**إذ أنتم**) جمع (**قليل مستضعفون في الأرض**) أي في مكّة أو الأرض كلّها (**تخافون**) دائماً ومستمراً (**أن يتخطّفكم**) يأخذكم بسرعة (**النّاس**) الكافرون والأعداء لكم (**فآواكم**) الله تعالى وجمعكم في المدينه (**وأيّدكم بنصره**) يوم بدر (**ورزقكم من الطّيبات**) من ثمار المدينة ومن الغنائم (**لعلّكم تشكرون**) لكي تشكروا هذه النّعمة فتحافظوا على الإسلام وتضحّوا في سبيله، فإنّ كلّ هذه النّعم أنعم الله عليكم بها لأجل الإسلام؛ فإذا انحرفتم فتنقلب النّعمة نقمةً والنّصر هزيمةً والعزّ ذلّةً والسّيادة عبوديّةً وإنقياداً للأعداء، وهكذا وقع ووقعنا فيه، ويا للأسف الشّديد، قال رسول الله: إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمّهم الله بعقاب من عنده[٢]، سألت زينب بنت جحش: يا رسول الله أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

(**ياأيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله**) فأطعتموه وأطعتم رسوله ولم تخونوا ولم تكسبوا

(١) تمثيل لغاية قربه من العبد فيطلع على مكنونات قلبه التي قد يغفل عنها صاحبها./ تفسير البيضاوي ٣/ ٩٩.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٤٦٧ الحديث رقم ٢١٦٨. وقال هذا حديث صحيح.

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٢٢١ الحديث رقم ٣١٦٨. وهو جزء من حديث.

(**يجعل**) الله (**لكم فرقاناً**) بينكم بالإعزاز والنّصر وبين الكفار بالهزيمة والخذلان (**ويكفّر عنكم سيئاتكم**) أي ويستر ذنوبكم بالمغفرة والعفو (**ويغفر لكم**) ما سبق منكم (**والله ذو الفضل العظيم**) فيدرّ فضله عليكم بفضله هذا ويزيد في إنعامه عليكم. وقد أنجز الله تعالى وعده للمسلمين فأعزّهم ونصرهم مدّة إستقامتهم؛ فأصبحوا سادة الأرض كلّها وفتحوا البلاد جميعاً إلى أن تفرّقوا وخان بعضهم بعضاً؛ فأصبحوا كما ترى وما الله بظلّام للعبيد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نعمهُ الّتي أنعمها على المؤمنين كافّة ووعظهم مواعظ مفيدة ووعدهم مواعد حسنة، أراد أن يذكر نعمته على الرّسول خاصّة فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

(**وإذ**) أي واذكر أيّها النّبيّ (**إذ يمكر بك الّذين كفروا**) أي يقرر الّذين كفروا فأجتمعوا (**ليثبتوك**) أي ليحبسوك في بيت حتّى تموت لتموت دعوتك (**أو يقتلوك**) فلا يبقى من يدعو للتّوحيد (**أو يخرجوك**) من أرضهم ليستريحوا منك وأصبح قرارهم بالإتّفاق على قتلك (**ويمكرون**) ويتّخذون الأهبّة لقتلك (**ويمكر**) أي ويقدر (**الله**) تعالى إنجاءك وحفظك منهم (**والله خير الماكرين**) أي المقدّرين، ففاق تقديره تقديرهم وغلبهُ، فلم يقدروا على قتلك، فخابوا وخسروا خسراناً مبينا، وهذه الآية تشير إلى قصّة الهجرة ذكرها الله تعالى هنا. ليعلم الرّسول أنّ الله لا يتركه ولا يسلّمه لأعدائه، وينصره في مواقفه كلّها، هذا وإن قصّة الهجرة تأتي في سورة التّوبة إن شاء الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مساوئ المشركين الّتي استحقّوا بها هذا الذّل والعذاب؛ فقال جل وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ

﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةًۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(**وإذا تتلى عليهم**) على الكافرين (**آياتنا**) وهو القرآن الكريم، فبدل أن يؤمنوا بها ويطبّقوها قاموا يكذّبونها ولم يؤمنوا بأنّها من الله تعالى بل (**قالوا قد سمعنا**) ما تقرأونه (**لو نشاء لقلنا مثل هذا**) وقد كذبوا فإنّهم لم يستطيعوا كلّهم فصحاؤهم وبلغاؤهم وخطباؤهم أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه، وقالوا أيضاً (**إنْ**) أي ليس (**هذا إلّا أساطير الأوّلين**) جمع أسطورة أي أخبار وحكايات الأوّلين الكاذبة والباطلة (**وإذ**) أي واذكروا (**إذ قالوا**) لشدّة تعنّتهم وكفرهم (**اللّهم إن كان هذا**) الّذي يقوله محمّد (**هو الحقّ فأمطر**) فانزل كالمطر (**علينا حجارة من السّماء**) كما فعلت بقوم ثمود (**أو ائتنا بعذاب أليم**) مؤلم غير الحجارة أرادوا بذلك عذاب تدمير واستئصال، فنفى تعالى أن يعذّبهم ويبيّن سبب ذلك، فقال جل وعلا: (**وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم**) لأنّ سنّة الله تعالى جرت أن لا يعذّب أمّة إلّا بعد خروج رسوله من بينهم، فهذا كان سبب عدم عذابهم حينما كان الرّسول بمكّة. ثمّ ذكر الله تعالى أنّهم لو استغفروا وتابوا بعد خروج الرّسول من بينهم لما عذّبهم الله تعالى، ولكن لم يستغفروا فعذّبهم هذا العذاب الّذي جرى في بدر؛ فقال جلّ وعلا: (**وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون**) أي في حال أنّهم استغفروا الله تعالى وتابوا وأسلموا، ولكن لم يستغفروا فعذّبهم الله هذا العذاب. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن سبب عذابهم؛ فقال جل وعلا: (**وما لهم**) أي وأي سبب مانع لهم من أن (**ألّا يعذبهم الله**) هذا العذاب (**وهم**) يقومون بأمر عظيم وهو أنّهم (**يصدّون**) أي يمنعون المسلمين (**عن**) زيارة (**المسجد الحرام**) ويعتقدون أنّهم (**أولياؤه**) أي أصحاب المسجد الحرام والمتولّون عليه وهم كاذبون حيث (**إنْ**) أي ليس (**أولياؤه**) أي أصحابه والمتولّون عليه حقيقة (**إلّا المتّقون**) عن الشّرك بالله تعالى، لأنّ هذا البيت بناه إبراهيم (عليه السلام) ليعبد الله تعالى فيه وحده ولا يشرك به فيه، حيث قال عند بنائه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٣٥. فالبيت بيت الموحّدين (**ولكنّ أكثرهم لا يعلمون**) ذلك أو لا يؤمنون (**وما كان صلاتهم**) الّتي ورثوها من شريعة سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) صلاة موافقة لصلاة إبراهيم (عليه السلام) حيث غيّروها فلم تكن

صلاتهم (**عند البيت إلا مكاءً**) صفيراً فيصفرون (**وتصديةً**) أي تصفيقاً؛ فكانوا يصفرون ويصفّقون ويحسبونها صلاة الله تعالى؛ ولذلك استحقّوا العذاب فعذّبوا وقيل لهم (**فذوقوا العذاب بما**) بسبب ما (**كنتم تكفرون**) بالله من أنّه واحد وبالرّسول من أنّه من الله تعالى وبالبيت من أنّه بنى للتّوحيد وبالصّلاة من أنّها عبادة لا التّصفير والتّصفيق، فكلّ ذلك كان سبباً لعذابهم هذا.

ثمّ ذكر الله تعالى سيئةً أخرى استحقّوا بها العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾

(**إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا**) أي ليمنعوا بذلك (**النّاس عن**) الدّخول (**في سبيل الله**) وليمنعوا دعوة الإسلام (**فسينفقونها**) في المستقبل كما أنفقوا في الماضي (**ثمّ تكون أموالهم**) الّتي صرفوها في هذا الأمر (**حسرةً**) سبب حسرة وندامة في الدّنيا بعدما ظهر لهم الحقّ، وفي الآخرة حينما عذّبوا بسبب ذلك إن لم يؤمنوا (**ثمّ**) لا يفيدهم هذا الإنفاق لأنّهم (**يغلبون**) فتذهب كلّ محاولاتهم وإنفاقاتهم هذه بدون فائدة وعائدة، وهذا الإخبار من معجزات القرآن لأنّه أخبر عن المستقبل ووقع الأمر كما أخبره، وأنّ الغلبة عليهم وذلّهم هو جزاؤهم في الدّنيا (**والّذين كفروا**) أي بقوا على الكفر وماتوا عليه جزاؤهم في الآخرة أنّهم (**إلى جهنّم يحشرون**) فيجمعون فيها ويحشر الكافرون إلى جهنم (**ليميز**) ليفصل (**الله**) تعالى (**الخبيث**) بإدخاله النّار (**من الطيّب**) بإدخاله الجنّة (**ويجعل الخبيث**) وهو الكافر (**بعضه فوق بعض فيركمه**) فيجعله كتلةً واحدةً (**جميعاً**) مجتمعين (**فيجعله**) كلّه دفعةً واحدةً (**في جهنّم أولئك**) الخبثاء (**هم الخاسرون**) لأنّهم خسروا الدّنيا والآخرة، ولكنّ المؤمن وإن خسر الدّنيا فإنّه رابح، حيث يجد حياة أحسن منها وأدوم، هذا ومع هذا الوعيد الشّديد وخبث الكافرين هذا الخبث الفظيع فتح الله تعالى لهم أبواب رحمته؛ فقال جلّ وعلا: (**قل**) أيّها النّبيّ والمسلم وبلغ

(للّذين كفروا) كلّهم مهما كان نوعهم وأعمالهم **(إن ينتهوا)** عن الكفر ويعتنقوا الإسلام **(يغفر لهم ما قد سلف)** أي سبق من أعمالهم الخبيثة **(وإن يعوودا)** إلى العداء والحرب للإسلام ورسوله **(نعد)** إلى نصر المؤمنين وخذلان الكافرين وليعتبروا بمن سبق **(فقد مضت سنة)** الله تعالى مع الأقوام **(الأولين)** فإنّ الله تعالى أهلكهم ونصر رسله ومن تبعهم فليعتبروا بهم، فحالهم كحالهم ومآلهم مثل مآلهم إن لم يؤمنوا ولم يتوبوا هذا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن حكمة الأمر بالجهاد وقتال الكفّار فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾

تمهيد: إنّ مذاهب العلماء في حكم الجهاد الإسلامي وقتاله ثلاثة مذاهب: **المذهب الأول**: أنّه يجب على المسلمين أن يقاتلوا كافّة الشّعوب والأقوام حتى لا يبقى كفر ولا شرك **(ويكون الدّين كلّه لله)** وفي كلّ بقاع الأرض، فإنّ الكفر مرض وخبث يجب إزالته وغسله من وجه الأرض كلّها، وفسّروا هذه الآية فقالوا: **(وقاتلوهم)** أي الكافرين جميعاً **(حتّى لا تكون فتنة)** أي لا يبقى كفر وشرك في وجه الأرض **(ويكون الدّين كلّه لله)** أي في كلّ بقاع الأرض لله بمعنى أن يكونوا كلّهم مسلمين.

وفي رأيي: أنّ هذا القول غير صحيح لأنّه لو كان كما يقولون لما قبل من الكافرين بقاؤهم على كفرهم ودينهم تحت راية الإسلام، بشرط أن يعطوا الجزية للسّلطة الإسلامية، أو مجاورين للإسلام كأن يكونوا كتلة أضعف من الإسلام، فيبقوا على دينهم بشرط إعطاء الجزية لسلطان الإسلام؛ لأنّ القرآن ينص على قبول ذلك قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٠، فدلّت الآية هذه على أنّ القتال ليس لإزالة الكفر من الأرض، كما ودلّ قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٦، على أنّ الإسلام لا يريد إكراه النّاس على الإسلام وأنّ القتال ليس لإزالة الكفر. وإن أرادوا أنّ المراد بإزالة الكفر والشّرك إزالة سلطانهما ونظامهما فيعود هذا المذهب إلى المذهب الثّاني الّذي يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

المذهب الثّاني: إنّ المسلمين يجب عليهم أن يجاهدوا ويقاتلوا لله تعالى، ويهاجموا كلّ شعب وكلّ قوم لهم نظام غير نظام الله تعالى وشريعة غير شريعة الله وسلطان غير سلطان الله تعالى، حتّى تسقط كلّ الأنظمه الأرضيّة والقوانين الوضعيّة والدّساتير الّتي وضعها النّاس، ويضعوا موضعها نظام الله وشريعته وحكمه فيكون الحكم بشريعة الله في الأرض كلّه ويترك الأفراد على إختيارهم، فمن قبل الإسلام ودخل فيه فذاك وإلّا فلا يتعرّض له مادام يكون خاضعاً لسلطة الإسلام وحكمه، عملاً بقوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدّين ... الخ﴾.

وبرأيي: هذا القول أيضاً بعيد لأنّه لو كان الأمر كذلك لما جاز الوقوف مع أي قوم أو أي شعب أو كتلةٍ إلى أن يسقطوا سلطتهم ونظامهم وأن يضعوا موضعها سلطة الإسلام ونظام الله وشريعته وهذا ينافي آيات السّلم وهي:

١- قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ـ سورة الأنفال ألآية/ ٦١ ـ والمراد بالسّلم هو الصّلح والمعاهدة، ولا يكون ذلك إلّا بين سلطتين وقوّتين.

٢- قال تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ سورة النساء الآية/ ٩٩. **المذهب الثّالث**: هو أنّه لا يجوز للمسلمين أن يقاتلوا إلّا دفاعاً عن المسلمين فيقاتلون من قاتلهم حتّى يكفّوا عن القتال ويجنحوا للسّلم بوضع معاهدة بين الطّرفين حسبما اتّفقا وحسب مصلحة الإسلام، بحيث لا يكون فيه خضوع ولا خنوع، ويقاتلون من يؤذي المسلمين على إسلامهم ويضغطون عليهم ويجبرونهم على الرّجوع والإرتداد عن الإسلام، فكلّ قوّة أرادت القتال مع المسلمين يجب على المسلمين أن يقاتلوهم حتّى يجنحوا للسّلم أو يكون الفتح، وكلّ قوّة منعت أفرادها عن إعتناق الإسلام أو آذتهم على ذلك وأجبروهم على الإرتداد عن الإسلام يجب على المسلمين أن يقاتلوهم حتّى يكون الفتح أو الجنوح للمسلم وإطلاق الحريّة للعقيدة وإعتناق الإسلام لمن هو تحت حكمها وقوّتها لكي تكون حريّة العقيدة وعدم الإكراه في الدّين.

فيكون تفسير هذه الآية على هذا المذهب كالآتي: **(وقاتلوهم)** أي قاتلوا كلّ الكافرين **(حتّى لا تكون فتنة)** أي تعذيب للمؤمنين بسبب إيمانهم وإيذائهم للرّجوع والإرتداد عن هذا الدّين **(ويكون الدّين)** أي ويترسّخ ويثبت **(الدّين كلّه)** أى خالصاً عن كلّ شرك ويوجد ذلك الدّين. فالقتال واجب إلى أن تكون هناك دولة إسلامية تحكم

دين الله تعالى وشريعته، وتبثّ الدّعوة وتنشرها في الأرض، وبعد ذلك كلّ من أراد قتالها يجب عليها أن تقاتله دفاعاً، وكلّ من منع الدّعوة وأذّت وعذّبت أو قتلت الّذين يقبلون هذه الدّعوة ويؤمنون يجب عليها أن تقاتله دفاعاً عن هؤلاء المسلمين وعن عقيدتهم، فالقتال في الإسلام لا يكون إلّا دفاعاً عن المسلمين سواء منهم المسلمون الّذين هم تحت سلطتهم وأرادت قوّة أن تسيطر عليهم، أو المسلمين الّذين هم تحت سلطة الغير وأرادت السّلطة منهم الإرتداد عن الإسلام وآذتهم على الإسلام، وإنّ هذا المذهب هو الحقّ والّذي تستسيغه العقول والضمائر، فإنّ العقل يحكم قطعاً بأنّ من قاتلك يجب عليك أن تقاتله، فإنّ الإنسان خلق ليكون عزيزاً فلا يجوز له قبول الذّل والهوان إن كان عنده القدرة والاستطاعة كما قال الشاعر:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلّان عير الحيّ والوتد

هذا على الخسف مربوط برمّته وذا شبح فلا يرثي له أحد

فالدّفاع واجب ومقدّس في العقل وفي كلّ الشّرائع والقوانين، وكذلك الإنسان خلق حرّاً، فيجب أن يعيش حرّاً في حدود ما لا يضرّ بالغير، ومن أشرف أنواع الحرّيّة حرّيّة العقيدة؛ فمن سلب حرّيّة النّاس عن إعتناق العقيدة سيما إذا كانت العقيدة من الله تعالى وبأمره؛ فيجب أن يقاتل حتّى يخضع ويطلق حرّيّة النّاس في عقيدتهم، وأنّ هذا المذهب يلائم كلّ آيات القتال الّتي وردت في القرآن الكريم فإنّ كلّها تفيد القتال لهاتين الحالتين فقط: حالة الدّفاع عن الهجوم وحالة الدّفاع عن إيذاء المسلمين وفتنتهم ومنعهم من هذا الدّين، ويظهر ذلك من إستعراض تلك الآيات كلّها فنقول:

١- قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ سورة البقرة الآيتان/ ١٩١-١٩٢. فخصّ الله تعالى في الآيتين القتال مع الّذين يقاتلون المسلمين ومع الّذين يفتنون المسلمين بسبب إسلامهم.

٢ ـ قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٣٩١. أمر الله تعالى بالقتال لرد الفتنة ولترسيخ دين الله في الأرض وثبوت كيان للمسلمين.

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ

لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ سورة النساءالآية/ ٧٥. فالآية في حقّ المشركين الّذين كانوا يؤذون الرّجال والنّساء والولدان من المؤمنين المستضعفين لا لشيء إلّا لأنّهم آمنوا، وكان هؤلاء المشركون مقاتلين مع المؤمنين بدليل قوله تعالى بعده: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ سورة النساءالآية/ ٧٦. فالآيتان واردتان فيمن كانوا يقاتلون المؤمنين.

٤ ـ هذه الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها قيد القتال فيها بالفتنة وبثبوت كيان المؤمنين.

٥ ـ إعلان القتال في أول سورة التّوبة إلى الآية/ ١٥٠، كلّها في حقّ الّذين نقضوا العهود أو أرادوا نقضها، والقتال مع المسلمين بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة التوبة الآية/ ١٣.

٦- قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ سورة التوبة الآية/ ٧٣ ـ وهذا صريح في أنّه أمر بالقتال مع المقاتلين.

٧- قال تعالى: (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ـ سورة التوبة الآية/ ٣٠. وهذه الآية وإن كانت بظاهرها عامّاً ومطلقاً إلّا أنّها نزلت في رواية في حقّ بني قريظة وهم الّذين خانوا ونقضوا العهد في أحرج وقت وأرادوا قتال المؤمنين. وفي رواية نزلت في الرّوم وثبت أنّ الرّسول (ﷺ) ذهب مع أصحابه إلى أن وصل إلى تبوك فلمّا رأى أن لا تحرّك مع الرّوم رجع، فعلى كلتا الرّوايتين تكون الآية في حقّ من يريد القتال. وأمّا قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ سورة التوبة الآية/ ١٢٣. وفسّرها المفسّرون بقولهم الأقرب فالأقرب، وذلك لأنّ المسلمين كانوا كلّما دنوا من قوّة معادية لهم واستولوا عليهم كانت تشكّل قوّة أخرى وراءهم تتهيّأ لقتالهم، فأمروا أن يقاتلوا الأقرب الّذي يريد قتالهم ثمّ الّذين يريدون القتال، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولهذا السّبب نفسه أصبح قتال المسلمين عاماً.

بعد هذا البيان تبيّن لنا أمران: **الأمر الأوّل**: إنّ القتال في الإسلام إنّما يكون دفاعاً عن المسلمين، وذلك حينما هاجم العدوّ أو أراد الهجوم أو لمنع القوّة الّتي تفتن المسلمين في دينهم فيعذّبونهم أو يقتلونهم، وهذا دفاع عن المسلمين في دينهم فيعذّبونهم أو يقتلونهم وهذا دفاع عن المسلمين أيضاً.

الأمر الثّاني: هو أنّه لا تعارض بين آيات القتال وآيات السّلم كلّها فنحتاج إلى أن نحكم بنسخ بعضها ببعض؛ لأنّ النّسخ لا يصار إليه ما دام يمكن الجمع بين الآيات كما قرر ذلك في الأصول، وبما ذكرنا تمّ الجمع والتّوفيق بين الآيات الواردة في القتال كما علمت، وبطل مذهب من ينسخ كثيراً في الآيات بآية السّيف.

* * *

تنبيه: إنّ المذهب الثّاني والثّالث يتّفقان في النّتيجة والوقوع ويكون مآلهما واحداً وذلك لأمور:

الأوّل: إنّ الإختلاف في المبدأ والعقيدة تورث الحقد والعداوة، فكلّ أمّة إختلفت عقيدتها مع الأخرى أصبحت عدوّة لها لأنّ كلّ واحدة تريد السّيطرة والسّيادة والإنتشار لعقيدته، فمن الطبيعي أن تصطدم هاتان الأمتان ويقع بينهما القتال، فحينما ظهر الإسلام وكانت هناك عقائد مختلفه كعقيدة المشركين واليهود والنّصارى والمجوس وكلّ عقيدة كانت لها كتلة تحميها وتدافع عنها وتروّجها. فأصبح أصحاب هذه العقائد كلّها كارهةً للإسلام وقاموا بصد النّاس عنها بكلّ ما استطاعوا فاصطدم الإسلام معهم، فأوّل من إصطدم معهم هم المشركون لأنّهم كانوا أكبر قوّة تدانيهم، ثمّ اليهود، ثمّ الرّوم المسيحين، ثمّ المجوس. فاضطرّ المسلمون أن يقاتلوا الّذين كفروا واصطدموا معهم الأقرب فالأقرب. فكانت حروبه دفاعاً عن المسلمين أي عن دولتهم وشوكتهم.

الثّاني: إنّه حينما ظهر الإسلام وأصبحت قوّة ودولة وثبتت عقيدة الإسلام وانتشرت بين النّاس، وكان مبدأ صالحاً للحياة وعادلاً وحقاً وواقعياً يوافق العقل والضّمير والوجدان أصبح النّاس يعتنقونه من سائر الأمم، وكان لكلّ أمّة سلطان له مبدؤه ونظامه يعيش عليه ويسوس به رعيته ويستغلهم في بقاء سلطانه الظّالم وسيادته القادرة، فلا يروق له أي مبدأ يخالف مبدأه مخافة أن يسلب منه سلطانه؛ ولذا كان يقوم بمنع هذه الدّعوة دعوة الإسلام ويفتن ويعذّب ويقتل من يعتنقه، فكان من واجب الإسلام أن يدافع عن هؤلاء المسلمين ويقضي على هذا السّلطان الجائر فتنشبّ الحرب بين المسلمين وبين مرتزقة السّلاطين، وبهذا أصبح القتال عاماً لإزالة كلّ سلطة تصدّ النّاس عن الإسلام وتفتن المسلمين عن دينهم بالقوّة والقهر والإجبار. فطبّقوا قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ ولا يبقى سلطان يفتن من آمن عن دينه أو يريد القضاء على دولة الإيمان، ولذلك امتدّت الفتوحات الإسلامية وفتحت أكثر المعمورة، وأنجز الله تعالى وعده حيث قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ

الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٣. فغلب الإسلام على جميع الأديان واستولى أهله على أهلها وعاش النّاس في ظل الإسلام إلى أنّ حاد المسلمون عن حقيقة دينهم وتوجهوا إلى الدّنيا وانتشرت التّفرقة بينهم؛ فعمّ الفساد في الأرض وآل أمرهم إلى ما نرى، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم. هذا ماوصل إليه ذهننا القاصر والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن أمر لله تعالى المؤمنين بقتال الكفار منعاً وإيقافاً لهم عن أن يفتنوا المؤمنين ولينتشر دين الله تعالى في الأرض. أمرهم بالكفّ عن القتال إن امتنع الكفّار عن فتنة المؤمنين أو عن قتال دولة الإيمان فقال جلّ وعلا: **(فإن انتهوا)** أي الكافرون عن القتال وعن فتنة المؤمنين في دينهم وجواب الشّرط محذوف تقديره: فانتهوا عن قتالهم ولا تستمرّوا في قتالهم بحجّة أنّهم يكذبون **(فإنّ الله بما يعلمون بصير)** فينتقم منهم إذا خانوا وغشّوكم بخذلانهم ونصركم عليهم فعليكم بالظّاهر والله يتولى السّرائر فإن انتهوا فانتهوا **(وإن تولّوا)** عن السّلم وأرادوا القتال **(فاعلموا أنّ الله مولاكم)** فهو يتولّى أموركم **(نعم المولى)** هو الله **(ونعم النّصير)** هو فينصركم عليهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله القتال لا بدّ أن يذكر حكم الغنائم فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

إعلم أنّه إن كان المراد بالأنفال في قوله تعالى في أوّل السّورة: (قل الأنفال لله ..إلخ) الغنائم فهذه الآية بيان لما أجمل هناك، وإن كان المراد بالأنفال هناك الزّيادات والجوائز الّتي كان رسول الله (ﷺ) يعطيها لبعض أفراد الجيش[١] فهذه الآية مستقلة

(١) ذكر ذلك لأن العلماء اختلفوا في المراد بالأنفال خمسة أقوال: الأول: أنها الغنيمة.. والثاني: أنها الخمس. والثالث:أنها خمس الخمس. الرابع: أنها خصوص ما شذ عن الكفار الحربيين من الدواب كالفرس والبعير فأخذها المسلمون بغير حرب، والخامس: أنها أنفال السرايا. ورجح الشيخ رحمه الله تعالى كونها غنيمة وهو قول الجمهور. / أنظر التفسير الكبير للرازي ١٥ / ٩٢ أضواء البيان ٢/ ٤٨.

جيء بها لبيان حكم الغنائم فقال جلّ وعلا: **(واعلموا أنّ ما غنمتم)** أي فزتم به من أموال الكفار بسبب القتال فأخذتم **(من شيء)** منها **(فإنّ لله خمسه)** أي يقسّم تلك الغنيمه خمسة أقسام؛ فأربعة أخماسها تقسّم بين أفراد المجاهدين وخمس يعطى **(لله وللرسّول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السّبيل)** فقسّموا أيّها المؤمنون هكذا وارضوا به **(إنّ كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا)** محمّد (ﷺ) من النّصر والغلبة والملائكة **(يوم الفرقان)** أي يوم بدر، سميّ يوم الفرقان لأنّه فيه فرّق الله بين الحقّ ونصره مع قلّة أهله وبين الباطل وهو الشّرك، فهزمه مع كثرة أتباعه، فالمعنى يوم الفرق بين الحقّ والباطل. ثمّ بيّن تعالى ذلك اليوم فقال جلّ وعلا: **(يوم التقى الجمعان) أي** جمع فريق المؤمنين وفريق المشركين **(والله على كلّ شيء قدير)** وبهذه القدرة نصر المؤمنين مع قلّتهم وهزم الكافرين مع كثرتهم.

كيفيّة تقسيم الغنائم: قد ذكرنا أنّ الغنيمة تقسّم خمسة أخماس، فأربعة أخماس تقسّم بين الحاضرين والمشتركين في الجهاد، للفارس سهمان وللرّاجل سهم واحد وههنا مسائل:

الأولى: إنّ العبد إذا قاتل لم يسهم له ولكن يرضخ له بالإتّفاق، والرّضخ هو إعطاء شيء له.

الثّانية: إذا قاتل الكافر فعند المالكيّة ثلاثة أقوال: الإسهام وعدم الإسهام، الثّالث إن كان المسلمون بحاجة إليه يسهم لهم وإن لم يكونوا بحاجة إليه لا يسهم لهم، وعند أبي حنيفة لا يسهم لهم، ووافقه أصحابه بل يرضخ لهم، وعند الشّافعي يستأجرهم الإمام فإن لم يستأجرهم يرضخ لهم، وأمّا إذا لم يقاتلوا فلا شيء لهم وإن حضروا بالإتّفاق.

الثّالثه: المرأة لا يسهم لها ولا يرضخ لها عند مالك وعند الجمهور يرضخ لها، وقال الأوزاعي: إذا قاتلت يسهم لها.

الرّابعة: من حضر المعركة للمهنة كالأجراء والصانع لا يسهم لهم لأنّهم لم يقصدوا قتالاً، وقيل: إن قاتلوا يسهم لهم، وقال بعض: لا يسهم لهم وإن قاتلوا.

الخامسة: الصبيان إذا حضروا القتال فعند المالكيّة إن كان مطيقاً للقتال فيه ثلاثة أقوال: الإسهام، وعدم الإسهام، الثّالث: الإسهام إن قاتل وإلّا فلا، وقال أبو حنيفة والشّافعي (رضي الله عنهما): لا يسهم لهم مطلقاً حتّى يبلغوا.

السّادسة: من شرط الإسهام حضور المعركة، فمن حضر حتّى آخرها استحقّ، ومن إنهزم فلا إلّا إذا تحيّز إلى فئة أخرى، ومن حضر بعد القتال فلا.

وأمّا الخمس فقد إختلف العلماء فيه، فقال بعضهم: يقسّم ستّة أقسام، قسم لله ويصرف في عمارة الكعبة، وسهم للرّسول (ﷺ)، وبعده للوالي، قيل لنفسه وقيل يصرف في مصالح الإسلام والمسلمين، وسهم لذوي القربى وهم أقارب الرّسول (ﷺ) وسهم لليتامى، فقال البعض لا فرق بين الفقراء والأغنياء منهم، وعند البعض يعطى للفقراء فقط. وسهم للمساكين أي الفقراء. وسهم لإبن السّبيل، وقال البعض يرد سهم الله تعالى إلى مصالح المسلمين أو ذوي الحاجة. وعند الشّافعي قوله تعالى: (لله) ذكر للتّبرك فقط فإنّ الله لا يحتاج إلى شيء، فيقسّم الخمس خمسة أقسام، قسم للرّسول وقسم لذوي القربى وقسم لليتامى وقسم للمساكين وقسم لإبن السّبيل. وعند أبي حنيفة (رحمه الله) يقسّم ثلاثة أقسام: لليتامى والمساكين وابن السّبيل فقط، وأما سهم الرّسول فسقط بوفاته، وذوو القربى يعطون لفقرائهم ويسقط أغنياؤهم. وعند الإمام مالك رحمه الله الخمس كلّه يفوّض إلى رأي الإمام يأخذ منه كفايته ويصرف الباقي في مصالح المسلمين، وهناك تفصيلات أخرى في الغنائم مذكورة في كتب الفقه، فمن أراد الإستزادة فليراجعها.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض أحوال معركة بدر فقال جلّ وعلا:

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

(إذ) العامل في (إذ) إمّا التقى فالتّقدير يوم التقى الجمعان **(إذ أنتم بالعدوة الدّنيا)** والعدوة هي حافّة الوادي أي إذ أنتم نزلتم بالحافّة الأقرب من المدينة **(وهم بالعدوة القصوى)** أي الأبعد من المدينة المنوّرة، والحاصل أنّهم نزلوا في وادى بدر بالجانب الّذي يلي المدينة وهم بالجانب الّذي يلى مكّة **(والرّكب)** وهو عير أبي سفيان كان **(أسفل منكم)** حيث اتّجه طريق ساحل البحر لينجو من أصحاب الرّسول (ﷺ) وقد التقيتم بدون ميعاد وتوقّع للحرب **(ولو تواعدتم)** وعيّنتم أنتم وأهل مكة موعداً للقتال

(لاختلفتم في الميعاد) فالّذي اتّفقتم عليه لأمر كان يعلمه الله تعالى قبل لقلة المؤمنين وكثرة الكافرين، وهذا بعيد لأنّه لو كان الرّسول (ﷺ) عين ميعاداً لما خالف ولم يكن المؤمنون ليخالفوه، وقيل لهيبة رسول الله (ﷺ) في قلوب الكافرين، وهذا أحسن، والحاصل أنّ الله أخبر عن الخلف في الميعاد ولم يذكر السّبب فالأولى تفويض العلم بالسّبب إلى الكفّار أو إلى تقدير من تقديرات الله تعالى لا يعلمه إلّا هو، ولكنّ الله تعالى قدّر هذا الإلتقاء بينكم **(ليقضي الله)** أي لينفّذ الله تعالى وينجز **(أمراً)** وهو نصر المؤمنين وإذلال الكافرين **(كان)** ذلك الأمر في الأزل **(مفعولاً)** مقضياً به ومقدّراً عند الله تعالى وكانت الحكمة من هذا الالتقاء **(ليهلك)** ليموت **(من هلك)** من مات **(عن بيّنةٍ)** أي علم بحقيّة الإسلام بعد ما رأى هذه المعجزات الّتي وقعت في بدر **(ويحيى من حيّ)** بياء واحدة مشدّدة أو بياءين بفكّ الإدغام لغتان، أي ويعيش من يعيش **(عن بيّنةٍ)** أي علم بذلك **(وإنّ الله لسميع)** بأقوال الكلّ **(عليم)** بأفعالهم بعد أن أرى الكلّ هذه البيّنة والمعجزة فيجازي الكلّ حسب أقواله وأعماله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

(إذ) أي واذكر**(إذ يريكهم الله في منامك قليلاً)** فبشّرت بذلك المؤمنين فانسروا وتشجّعوا **(ولو أراكهم كثيراً)** فأخبرتهم بذلك **(لفشلتم)** أي جبنتم **(ولتنازعتم في الأمر)** أي في أمر القتال فيريده البعض ولا يريده الآخرون لكثرة العدوّ والخوف منهم **(ولكنّ الله سلّم)** إيّاكم من الفشل والتّنازع بما أراكم **(إنّه عليم بذات الصّدور)** أي بما فيها، فكان يعلم أنّ بعض الصّدور يخافون ويتنازعون إن ظنّوا بالعدّ والكثرة **(وإذ)** أي واذكر **(إذ يريكموهم إذ التقيتم)** أي حينما التقيتم **(في أعينكم قليلاً)** فكان المؤمنون يرون الكافرين قليلاً جداً **(ويقلّلكم)** أيها المؤمنون **(في أعينهم)** أي الكفار فكان كلّ فريق يرى الآخر قليلاً جداً، فما خاف أحد من الفريقين من القتال، وكلّ يرى أنّ عدوّه أكلة جزور لا يستطيع المقاومة أبداً وقدر تعالى ذلك **(ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)** تقدم معناه **(وإلى الله ترجع الأمور)** كلّها فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وهنا تبرز لدينا أسئلة.

السّؤال الأول: قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ﴾ أي يرون الكافرون المؤمنين ﴿مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٣١ ـ ـ تفيد الآية أنّ الكافرين رأوا كثيراً، وهنا تفيد الآية أنّهم رأوهم قليلاً فكيف التّوفيق بين الآيتين؟

الجواب: إنّ المؤمنين رأوا الكافرين قبل الدّخول في المعركة قليلاً ليتشجّعوا فينشئوا القتال، وكذلك رأى الكافرون المؤمنين قبل المعركة قليلاً ليقدّموا على القتال، هذا ما هنا، وأمّا بعد الدّخول في المعركة رأى الكافرون المؤمنين مثليهم رأى العين ليدخل الرّعب في قلوبهم وليجبنوا فينهزموا وهذا ما في الآية الّتي أوردناها من سورة آل عمران، فلا منافاة بين الآيتين ولله في خلقه شؤون.

السّؤال الثّاني: إنّ رؤيا الأنبياء حقّ ومن الوحي لا مخالفة فيه، فكيف رأى الرّسول الكافرين قليلاً وهم أكثر منهم بكثير؟

الجواب: إنّ رؤيا الأنبياء حقّ إلّا أنّه ليس معناه أنّها تكون كما رأى دائماً بل قد تقع الرؤيا كما رأى، مثل ما رأى الرّسول (ﷺ) أنّه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه محلّقين الرؤوس ومقصّرين دون خوف من المشركين كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ سورة الفتح الآية/ ٢٧ ـ فكان كما رأى. وقد لا تقع الرّؤيا كما رأى بل إنّما يقع تفسيرها وتعبيرها مثل رؤية سيدّنا يوسف(عليه السلام) أنّه سجدت له الشّمس والقمر وإثنا عشر كوكباً، فوقع تعبير ذلك فسجد له أبواه وإخوته الإثنا عشر. وكرؤيا الرّسول (ﷺ) هذه حيث رأى الكافرين قليلاً، فوقع تعبيرها وهو قلّتهم المعنويّة وضعفهم. وكما رأى الرّسول (ﷺ) أنّه أعطي قدحاً من حليب فشرب منه وأعطى فضلته لعمر(رضي الله عنه)، فقيل له: بماذا فسّرته؟ قال: بالعلم. ورأى أبوبكر(رضي الله عنه) يجد إزاره، فقيل: بماذا فسرت؟ قال: بالتّقوى.

السّؤال الثّالث: لماذا قال تعالى: (وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا) والرّؤية لا تكون إلّا بالعين؟.

الجواب: قال ذلك لئلّا يظنّ أحد أنّ الإراءة كانت في المنام لا في اليقظة، فإنّ هذه الإراءة كانت في العين والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يصدّر أوامر وإرشادات للمؤمنين في كلّ الحروب فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئةً) جماعة من العدوّ في ساحة المعركة **(فاثبتوا)** ولا تنهزموا **(واذكروا الله كثيراً)** فادعوه واطلبوا منه النّصر وخافوا عقابه إن فررتم **(لعلّكم تفلحون)** لكي تفوزوا بالنّصر في الدّنيا والثّواب في الآخرة أي بذلك الثّبات تفوزون إن شاء الله تعالى **(وأطيعوا الله ورسوله)** فيما يأمركم به من القتال وشؤونه وغير ذلك **(ولا تنازعوا)** فيما بينكم **(فتفشلوا)** بسبب ذلك النّزاع **(وتذهب ريحكم)** أي قوّتكم وشوكتكم **(واصبروا)** أي على الطّاعة والثّبات وعدم التّفرقة **(إنّ الله مع الصّابرين)** فينصرهم، ولعمري لو أخذ المؤمنون بهذه الإرشادات لما آل أمرهم إلى ما نرى ولكنّ تفرّقوا ففشلوا فذهبت شوكتهم فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، ولذا قال تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾

(ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم) للقتال **(بطراً)** أي متكبّرين **(ورئاء النّاس)** أي ولأجل أن يظهروا للنّاس أنّهم أبطال وهم أهل مكّة حيث قالوا: والله لا نرجع حتّى نشرب الخمر وننحر الجزور وتضرب علينا القيان ببدر فتسمع النّاس بذلك. أي بل اخرجوا متواضعين وللحقّ وإعلائه وللدّين ونشره، وكان أهل مكة أرادوا بهذا الحرب أنّهم يقهرون المؤمنين **(ويصدّون)** النّاس **(عن)** الدّخول في **(سبيل الله)** وهو الإسلام

دين الحقّ وهو دين الله تعالى **(والله بما يعملون)** ضدّ الإسلام والمسلمين وضدّ دينه القويم **(محيط)** علمه فانتقم منهم فأذلّهم ونصر المؤمنين. وهكذا يفعل الله تعالى للمؤمنين إن صدقوا وعملوا بصدق وإخلاص لله تعالى **(و)** أي واذكر **(إذ زيّن الشّيطان لهم)** للمشركين **(أعمالهم)** هذه من الخروج بطراً ورئاء النّاس ولصدّ النّاس عن سبيل الله تعالى **(وقال)** لهم أعداء وتشجيعاً **(لا غالب لكم اليوم)** وأنتم بهذه القوّة **(وإنّي جار لكم)** أي معين لكم **(فلمّا تراءت الفئتان)** أي رأت كلّ واحدة منها الأخرى **(نكص)** رجع قهقرياً **(على عقبيه وقال)** للمشركين **(إنّي بريء منكم)** فلا أستطيع أن أعينكم حيث **(إنّي أرى ما لاترون)** وهم الملائكة أنزلوا وقاتلوا مع المؤمنين ضدّ أعدائهم **(إنّي أخاف الله)** أن يهلكني **(والله شديد العقاب)** لمن عادى رسوله ومن معه من الّذين يجاهدون لله تعالى وفي سبيله. روي أنّ إبليس تمثل لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم في جند من الشّياطين في صورة الآدميين معه راية فلمّا رأى الملائكة تنزل نكص على عقبية، فقال له الحرث بن هشام: أتخذُلُنا في هذه الحالة، فقال: إنّي أرى ما لا ترون، فلمّا إنهزموا وبلغوا مكّة قالوا: هزم النّاسَ سراقةُ، فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتّى بلغتنى هزيمتكم، فلمّا أسلموا علموا أنّه كان الشّيطان فعل بهم ما فعل، فعلم من ذلك أنّ حرب بدر إشترك فيه الملائكه والمؤمنون والشّياطين والمشركون فإنهزم الشّياطين وانتصر الملائكه والمؤمنون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المشركين في معركة بدر أراد أن يذكر حال المنافقين فقال جلّ وعلا:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

(إذ) أي واذكر **(إذ يقول المنافقون)** في المدينة **(والّذين في قلوبهم مرض)** أي ضعف في الإيمان حينما رأوا أنّ ثلاثمائة وثلاثة عشر نفراً من الأصحاب خرجوا ويريدون مقابلة قريش وهم أكثر منهم بكثير فقالوا: **(غرّ هؤلاء دينهم)** أي عقيدتهم بأنّ من قتل منهم في المعركة يكون شهيداً، والشّهداء عند ربّهم يرزقون. فيريدون أن يقتلوا ليفوزوا بالشّهادة فقال تعالى في جوابهم: **(ومن يتوكّل على الله)** يكون له النّصر والغلبة، وإنّ النّصر ليس بكثرة العدد والعدّة بل بإرادة الله وقدرته **(فإنّ الله عزيز)** غالب على

أمره لا يمنعه شيء من تنفيذ إرادته فينصر من يشاء ويذلّ من يشاء **(حكيم)** ولا يعمل ذلك إلّا لحكمة باهرة ومصلحة وافرة يعلمها من يعلمها ويجهلها الجاهلون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ذلّة الكافرين في ذلك اليوم ليعلّم النّاس أنّ النّصر لمن يتوكّل على الله ويجاهد في الله فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾

(ولو ترى) أيّها المخاطب ويا من يوجد منه الرّؤية حال الكفار **(إذ)** وقتما **(يتوفّى)** يأخذ أرواح **(الّذين كفروا الملائكة)** وهم ملائكة الموت **(يضربون وجوههم وأدبارهم)** ويقولون لهم **(ذوقوا عذاب الحريق)** وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً فظيعاً حينئذٍ.

وهنا سؤالان:

السّؤال الأوّل: قال تعالى: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها والّتي لم تمت في منامها﴾ ـ سورة الزمر الآية/ ٢٤ ـ فتفيد الآية أنّ الله يأخذ أرواح النّاس حين موتها وهنا تفيد أنّ الملائكة يقبضون الأرواح فكيف التّوفيق؟

الجواب: إنّ الملائكة يأخذون الأرواح بأمر الله تعالى فصحّ نسبة القبض والأخذ إلى الله أو إلى الملائكة، مثل ما تقول: فتح السّلطان هذه البلدة أو فتح الجيش هذه البلدة.

السّؤال الثّاني: إنّ النّاس لا يدخلون جهنّم إلّا في يوم القيامة فكيف تقول الملائكة بعد الموت للكافرين ذوقوا عذاب الحريق؟

الجواب: إنّ العذاب ثابت بعد الموت وإنّ لم يدخل جهنّم قال رسول الله (ﷺ): (القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران)[1].

* * *

(١) سنن الترمذي ٤/ ٦٣٩ الحديث رقم٢٤٦٠.

(**ذلك**) العذاب حصل لهم (**بما**) بسبب ما (**قدمت**) أي عملته (**أيديهم**) نسبة الأعمال إلى الأيدب وإن كان منها ما يعمل بغيرها، لأنّ أكثر الأعمال تكون بالأيدي أو تشترك الأيدى فيها. أو المراد بالأيدب القدرات أي عملوا بقدراتهم وقواتهم (**و**) عذّبوا هذا العذاب بسبب (**أنّ الله ليس بظلّام للعبيد**) فلا يظلمهم.

وهنا سؤالان:

السّؤال الأول: إنّ الله نفى الظّلامية عن نفسه والظّلاميّة هي كثرة الظّلم والمبالغة فيه، فتفيد الآية نفي الشّدة والمبالغة لا نفي الظّلم لأنّ النّفي إذا سلّط على القيد والمقيّد فإنّما ينفي القيد، فكيف ذلك؟

الجواب: عن هذا السؤال بوجوه: **الأوّل**: إنّ الله تعالى لو فرض أنّه ظالم يكون ظلاماً لأنّ صفات الله تعالى كلّها في درجة الكمال. **الثاني**: إنّ المبالغة تتوجّه إلى النّفي لا إلى المنفي فتفيد أنّ الظّلم منفي عنه بشرّه. **الثّالث**: إنّ النّفي قد يتوجّه إلى القيد لأنّ المقيّد لم يوجد فيكون المعنى أنّ الله ليس بشديد الظّلم لأنّه ليس له ظلم، كما تقول: فلان ليس له ولد بارّ حيث لا ولد له، وأمثال هذه العبارات تفيد التّأكيد في نفي القيد فكأنّه يقول: لا بارّ له لأنّه ليس له ولد ليكون بارّاً، وهنا معناه: ليس له ظلم ليكون شديداً.

السّؤال الثّاني: كيف يكون نفي الظّلم عن الله تعالى سببا في تعذيبهم؟

الجواب: إنّ نفي الظّلم يفيد إثبات العدل لله تعالى والعدل يورث التّعذيب للمجرم.

* * *

(**كدأب**) أي أنّ حالهم كحال (**آل فرعون والّذين من قبلهم**) كقوم عاد وثمود في أنّهم (**كفروا بآيات الله فأخذهم**) فعذبهم (**الله بذنوبهم**) والمعنى: أنّ هذه سنّة الله تعالى في عبارة فكلّ أمّة كذبت بآياته فيأخذها ويعذبّها في الدّنيا والآخرة (**إنّ الله قوي**) لا يعجز عن شيء (**شديد العقاب**) لمن استحقّ عقابه بسبب الكفر والظّلم والطغيان.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

(**ذلك**) أي أن عادة الله تعالى في إهلاك المجرمين جرت (**بأنّ**) بسبب أنّ (**الله**) تعالى (**لم يك مغيّراً**) مزيلاً (**نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم**) من الإيمان

إلى الكفر ومن التّوحيد إلى الشّرك ومن الطّاعة إلى العصيان والفسق والفجور ومن العدل إلى الظّلم **(وأنّ الله)** أي وبسبب أن الله**(سميع)** لأقوال الأمم **(عليم)** بأحوالهم وأفعالهم. فينتقم منهم حسب الأعمال الفاسدة والأقوال الباطلة فيهلكهم أو يعذّبهم **(كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم)** من الأمم الّتي طغت وخرجت عن أمر ربّها و**(كذّبوا بآيات ربّهم)** رغم حسن تربيته لهم وإنعامه عليهم **(فأهلكناهم بذنوبهم)** بسبب ذنوبهم **(وأغرقنا آل فرعون)** بسبب طغيانهم وكفرهم **(وكلّ)** من آل فرعون والأقوام من قبلهم **(كانوا ظالمين)** متجاوزين حدود الله وخارجين عن أمره تعالى؛ ولذلك أهلكهم وعذّبهم، وأعاد تعالى هذه الاية لأنّ الأولى كانت نسبة لما بعد الموت وعذاب الآخرة، وهذه بالنّسبة للدّنيا والعذاب فيها؛ إشارة إلى أنّ الإنحراف عن دين الله تعالى وإكماله يكون سبباً للعذاب في الدّنيا والآخرة لا في إحداهما فقط.

ثمّ أراد الله تعالى أن يخطّط ويبيّن للنّبيّ (ﷺ) كيفيّة تعايشه وتعامله مع الكتل الكافرة الّتي كانت تحيط بالمدينة المنوّرة من أهل الكتاب والمشركين وغيرهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

(إنّ شرّ الدّوابّ) جمع دابّة وهي كلّ ما يمشي ويدبّ على الأرض من عالم الأحياء فشرّهم وأحقرهم وأقلّهم إحتراماً **(عندالله)** تعالى هم **(الّذين كفروا)** واستمرّوا على الكفر **(فهم لا يؤمنون)** بعد وضوح الحقّ لهم وظهور الحجّة والبراهين **(الّذين عاهدت منهم)** واتّفقتم فيما بينكم أن لا يكونوا لكم ولا عليكم **(ثمّ ينقضون عهدهم)** هذا **(في كلّ مرة)** وقع بينك وبين الأعداء حرب فيؤيّدون أعداءك **(وهم لا يتّقون)** الله تعالى ولا الخيانة ولا بطشكم بهم **(فأمّا)** أي فإن **(تثقفنّهم)** تلقّيتهم **(في الحرب فشرّد بهم)** فشرّد مضاف بمعنى نفر، يقال شرّدت النّاقة أي نفرت **(فشرّد بهم)** أي نفّر **(بهم)** أي بما تفعل بهم من قتل وأسر وتنكيل **(من خلفهم)** من ورائهم من أن يقاتلوك فيكون

المعنى: إن لقيتهم في الحرب فافعل بهم ما تنفّر أي تخوّف غيرهم عن قتالك فلا يقدّموا عليه (**لعلّهم يذّكرون**) أي لكي يتّعظ ويعتبر من وراءهم بهم، فلا يقاتلوك بل يؤمنون أو يعاهدوا معاهدة لا ينقضونها (**وإمّا**) وإن (**تخافنّ**) تظنّ بسبب علامات (من **قوم خيانة فانبذ**) أي فاردد (**إليهم عهدهم على سواء**) أي على عدل وإستقامة في الأمر بأن تعلّمهم علناً، ثمّ علّل الله تعالى الأمر بنبذ العهد فقال جلّ وعلا: (**إنّ الله لا يحبّ الخائنين**) ولذلك أمر بنقض العهد معهم عند ظهور علامات الخيانة منهم.

ثمّ أمر الله تعالى المؤمنين أن يتهيّأوا ويعدّوا العدّة للقتال استعداداً للدّفاع بعد نقضه العهد، كما وأخبر الكافرين الّذين يخونون بأنّهم لا ينتصرون؛ فقال جلّ وعلا تخويفا لهم:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾

(**ولا يحسبنّ**) أي ولا يظنّنّ (**الّذين كفروا**) من أهل مكّة (**أنّهم سبقوا**) أي نجوا من بطش المؤمنين (**أنّهم لا يعجزون**) الله فيذلّهم تحت سطوة المؤمنين وهذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين (**وأعدّوا**) أي وهيّئوا لهم للكافرين (**من قوّة**) مادّية ومعنويّة (**ومن رباط**) أي ومن حبس الخيل وربطها للجهاد (**ترهبون به**) أي بما استطعتم من الإعداد (**عدوّ الله**) وهم الّذين يشركون به أو يكفرون به أو بشريعته (**وعدوّكم**) أيّها المؤمنون، تفيد الآية بأنّ عدوّ الله عدوّ للمؤمنين وبالعكس (**وآخرين**) أي وترهبون به أقواماً آخرين غير الّذين أعلنوا العداء لكم (**لا تعلمونهم**) أنّهم أعداء لله ولكم بل (**الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء**) في إعداد القوّة للجهاد (**في سبيل**) نشر دين (**الله**) تعالى ورفع راية شريعته (**يوفّ إليكم**) في الدّنيا بالغنائم وفي الآخرة بالثّواب (**وأنتم لا تظلمون**) بأن ينقص منكم شيء.

ثمّ حيث إنّ الإسلام لا يحبّ القتال إلّا دفاعاً وللضّرورة، أمر الله تعالى في هذه الشّدة بالسّلم إن أراد العدوّ السّلم فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(**وإن جنحوا**) أي مالوا (**للسّلم**) أي الصّلح والمعاهدة وطلبوها (**فاجنح لها**) وأوقف الحرب والقتال (**وتوكّل على الله**) فلا تخف من أن يكون طلبهم للسّلم خداعاً ومكيدة (**إنّه**) أي الله (**هو السّميع**) يسمع أقوالهم (**العليم**) يعلم أعمالهم فينتقم منهم إن أرادوا الخدعة كما قال: (**وإن يريدوا أن يخدعوك**) بطلب السّلم فلا تبال بذلك ولا يضرّونك (**فإنّ حسبك الله**) فهو يكفيك خداعهم، ثمّ برهن الله تعالى على أنّه حسبه فقال: (**هو الّذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين**) فمن فعل لك ذلك فهو حسبك. ثمّ بيّن الله تعالى أنّه كيف أيّده بالمؤمنين فقال جلّ وعلا: (**وألّف بين قلوبكم**) وقد كانوا أعداءً أشدّاء (**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً**) لتأليفهم (**ما ألّفت بين قلوبهم**) لشدّة عداوتهم وهم الأوس والخزرج (**ولكنّ الله ألّف بينهم**) فمن جمع لك هئولاء الأعداء كأخوة فهو حسبك (**إنّه عزيز**) وبعزّته يكفيك (**حكيم**) وبحكمته يقدّر لك النّصر والغلبة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(**يا أيّها النّبيّ حرّض**) أي حثّ (**المؤمنين على القتال**) وشجّعهم بأنّه (**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**) من الكفّار بتقدير الله تعالى (**وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الّذين كفروا**) والحاصل أنّ الواحد منهم يقاوم عشرة من الكافرين

(بأنّهم) بسبب **(أنّهم)** أي **(الكافرون قوم لا يفقهون)** أنّ النّصر بيد الله تعالى، فلا يتوكّلون عليه ولا يريدون ثواباً ودخول الجنّة فلا يشجّعون. هذا وإنّ مقاومة واحد من المؤمنين مقابل العشرة من الكافرين كان واجباً، فلم يكن جائزاً أن يفرّ الواحد من العشرة، فشقّ ذلك على المؤمنين وقد كثروا، فلم يبق الحاجة إلى هذا التّجلّد فخفّف الله تعالى عنهم فقال تعالى: ﴿**الآن خفّف الله عنكم**﴾ حيث **(وعلم أنّ فيكم ضعفاً)** أي مشقةً وهوناً **(فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين)** فليقاوم الواحد منكم إثنين منهم **(وإن يكن ألف يغلبوا ألفين)** وكلّ ذلك بإذن الله تعالى وتقديره **(والله مع الصّابرين)** فاصبروا لينصركم الله تعالى. ثمّ أنه بعد ما إنتهى حرب بدر ووقع في الأسر سبعون رجلاً من المشركين إستشار الرسول محمّد (ﷺ) أصحابه فيهم، فقال أبوبكر (رضي الله عنه): هم قومك وأهلك فاستعفهم لعلّ الله أن يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تكون لنا قوّة على الكفّار. وقال عمر رضي الله عنه: إنّهم كذّبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم لكي لا تبقى للكفر شوكته، فمكّن عليّاً من أخيه عقيل فليضرب عنقه، ومكّن حمزة من أخيه العبّاس فليضرب عنقه، ومكّني من فلان، نسيب له، أضرب عنقه. فقال (ﷺ): مثلك يا أبا بكر (رضي الله عنه) كمثل إبراهيم (عليه السلام) حيث قال: (وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، ومثلك ياعمر (رضي الله عنه) كمثل نوح (عليه السلام) إذ قال: (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) وإن الله ليلين قلوباً حتّى تكون ألين من اللّين، ويشدّ قلوباً حتّى تكون أشدّ من الحجارة.

ثمّ أخذ (ﷺ) برأي أبي بكر (رضي الله عنه) فأخذ منهم الفداء فنزل قوله جلّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾

فجاء عمر رضي الله عنه فاذا أبو بكر (رضي الله عنه) ورسول الله (ﷺ) يبكيان، فقال يارسول الله: ممّ بكاؤكما؟ فإن وجدت بكاءً أبكي وإلّا فأتباكى، فقال (ﷺ): أبكي على أخذ أصحابك الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشّجرة، أشار إلى شجرة قريبة، فقوله

تعالى: (**ما كان لنبيّ**) أي ما صحّ لنبيّ (**أن يكون له أسرى حتّى يثخن**) أي بكثرة قتل الكافرين (**في الأرض**) لكي لا تبقى لهم شوكة (**تريدون**) بأخذ الفداء (**عرض**) متاع الدّنيا وأموالها (**والله يريد الآخرة**) لكم، والخطاب للأصحاب لأنّهم هم حملوا الرّسول (ﷺ) على أخذ الفداء (**والله عزيز**) يستطيع أن يقهر بقدرته إلّا أنّه فرض عليكم القتال لأنّه (**حكيم**) ولحكمته الّتي أرادها فرض عليكم القتال (**لولا كتاب**) أي حكم (**من الله سبق لمسكم في ما أخذتم**) من الفداء (**عذاب عظيم**) جداً، والحكم الّذي سبق من الله قبل هو أن يغفر لأهل بدر، وقيل: أنّه لا يعذّب من عمل بالإجتهاد فيما لا نصّ فيه، وقيل: إنّه يحلّ لأمّة محمّد (ﷺ) الفداء والغنائم، والكلّ صحيح فيجوز أن يراد به الكلّ حيث لا منافاة بينها إلّا أنّ قوله تعالى: (**فكلوا مما غنمتم**) يؤيد القول الثّالث (**حلالاً طيّباً واتّقوا الله**) في كلّ الأمور، فلا تأكلوا ممّا لم يبيّن الله لكم حلّه، وقد كان الفداء والغنائم محرمّة على الأمم قبلهم فأحلت لأمّة محمّد (ﷺ)، وهذه من خصائص هذه الأمّة (**إنّ الله غفور**) لمن اتّقى (**رحيم**) ولرحمته يغفر لا لأمر آخر.

كان العبّاس عمّ الرّسول (ﷺ) مسلماً، فخرج هو ونفر من المسلمين مع المشركين إلى بدر، فوقعوا في الأسر في أيدي المسلمين فأمر النّبيّ (ﷺ) العبّاس أن يفدى عن نفسه وعن إبني أخويه عقيلاً ونوفل وعن حليفه عتبة ابن عمرو، فقال يارسول الله: قد كنت مسلماً فقال (ﷺ): الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فإنّ الله يجزيك وأمّا ظاهرك فكان علينا، قال ما ذاك عندي؟ وقال (ﷺ): فأين المال الّذي دفنته أنت وأمّ الفضل؟ وقلت لها: إن أصبت فهذا لأبنائي الفضل وعبد الله؟ فقال العبّاس: والله إنّي لأعلم إنّك رسول الله حيث ما علم هذا أحد غيري وغير أمّ الفضل! فاحسب لي يارسول الله ما أصبتم من عشرين أوقيّة من مال كان معي، فقال (ﷺ): فإنّما ذلك شيء أعطانا الله منك، فسعد العبّاس عن نفسه وإبني أخويه وحليفه، فأنزل الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

(**يا أيّها النّبيّ قل لمن في أيديكم من الأسرى**) وقرئ أسارى أراد بهم العبّاس وغيره من المسلمين (**إن يعلم الله**) أي إن يجد الله تعالى (**في قلوبكم خيراً**) الثّبات

على الأسلام (**يؤتكم خيرا ممّا أخذ منكم ويغفر لكم**) إشتراككم مع الكافرين في بدر (**والله غفور رحيم**) فقدم على رسول الله مال من البحرين ثمانون ألفاً فتوضّأ لصلاة الظهر وما صلّى حتّى فرّقه كلّه، وأمر العبّاس فأخذ منه ما قدر على حمله، فكان يقول: هذا خير ممّا أخذ منّي، وأرجو المغفرة حيث أنجز الله تعالى أحد الوعدين وسينجز الآخر، فكان له عشرون عبداً وأدنى عبد يتّجر له بعشرين ألفاً (**وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل**) حيث خرجوا مع المشركين (**فأمكن الله**) المسلمين (**منهم**) فأسّروهم فسيمكّنكم منهم أيضاً (**والله عليم**) بخيانتهم وإن خانوا (**حكيم**) يعامل النّاس حسب حكمته والله تعالى أعلم.

ثمّ أمر الله تعالى المؤمنين أن يقطعوا صلتهم مع الكافرين وإن كانوا أقرباء لهم وبين لهم أنّه لا موالاة بينهم، وبيّن لهم الّذين لهم يصحّ لهم أن يوالوهم ويصادقوهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾﴾

(**إنّ الّذين آمنوا**) بالله ورسوله واعتنقوا الإسلام ديناً لهم بصدق (**وهاجروا**) دار الكفر إلى دار الإسلام (**وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل**) إعزاز دين (**الله**) ورفع راية التّوحيد والحكم بشريعة الله تعالى، وهؤلاء كانوا أهل مكّة الّذين هاجروا إلى المدينه وسمّوا بالمهاجرين (**والّذين آووا**) المهاجرين (**ونصروا**) دين الله ورسوله وهم أهل المدينة المسلمون وسمّوا بالأنصار (**أولئك**) المهاجرون والأنصار(**بعضهم أولياء**

بعض) حسب الحقيقة والواقع والدّين، فلينصر بعضهم بعضاً **(والّذين آمنوا ولم يهاجروا)** من بلد الكفر سواءً مكّة أوغيرها إلى بلد الإسلام سواءً المدينة أو مكاناً آخر تحت ولاية الإسلام **(ما)** ليس **(لكم من ولايتهم من شيء حتّى يهاجروا)** إليكم **(و)** لكن **(إن استنصروكم في الدّين)** بأن كان يمنعهم الكافرون عن دينهم ويفتنونهم **(فعليكم النّصر)** لهم ومقاتلة من يفتنهم **(إلّا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)** لا تقاتلوهم إلى أن ينتهي الميثاق وطريق نجاة المستنصر الهجرة **(والله بما)** بكلّ ما **(تعلمون)** من مولاة الكافرين وغيرهم وعدم الموالاة **(بصير)** لا يخفى عليه شيء فيحاسبكم على حسب علمه بأعمالكم **(والّذين كفروا بعضهم أولياء بعض)** يؤيّدونهم وينصرونهم، وهذا تعبير عن الواقع فكأنّه قال: كما أنّ الكافرين هم بعضهم أولياء بعض ولا يوالون المؤمنين فليكن المؤمنون كذلك، وبهذا قطع الله تعالى بين معسكر الكفر والاسلام وأمر بالإنقطاع فقال جلّ وعلا: **(إلّا تفعلوه)** أي هذه المقاطعة وترك موالاة الكفار بنصرة المؤمنين بعضهم بعضاً **(تكن)** تنتشر**(فتنة)** أي كفر **(في الأرض وفساد كبير)** وهو ضعف الإسلام، ولعمري إنّه ما ضعف المسلمون وما استعمر الكفار بلادهم إلّا بعد أن اتّخذ مأجورين من المسلمين فاتّخذهم جسوراً عبروا عليهم إلى بلاد الإسلام والمسلمين، كلّ ذلك بسبب تفرقة المسلمين وعدم الموالاة بينهم، فباع بعضهم دينهم وديارهم للكفرة بثمن بخس دراهم معدودة ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ سورة الشعراء الآية/ ٢٢٧ ـ اللّهم فافعل آمين. وأفادت الآية أنّ التّناصر والموالاة والأخوّة والحركة يجب أن يقوم كلّ ذلك على حسب العقيدة الإسلامية، وإذا انحرف إلى الجنس والدّم والعصبيّة والمصالح تكن فتنة وفساد كبير، وهذا ما نرى وصدّق الواقع ذلك فينا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يمدح المهاجرين والأنصار فقال جلّ وعلا: **(والّذين آمنوا وهاجروا والّذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقّاً)** لأنّهم كانوا يبثّون كلّ شي على أساس الإيمان ويتّصفون بنكران الذّات في سبيل الإسلام وعقيدته، ولذلك وعدهم الله تعالى وعداً حسناً فقال جل وعلا: **(لهم مغفرة)** عما صدر عنهم من الخطايا **(ورزق كريم)** يوم القيامة على هذا التّناصر في الدّين والتّماسك على العقيده والتّضحية في سبيلها، فلنكن مثلهم لنكون مثلهم منتصرين أيّها المسلمون، وهذا ما ورد في المهاجرين السّابقين. ثمّ ذكر الله تعالى بعدهم وفي المرتبة الثّانية الّذين هاجروا من بعدهم فقال جلّ وعلا: **(والّذين آمنوا من بعد)** أي السّابقين وهذا يشمل كلّ من آمن **(وهاجروا وجاهدوا معكم)** أيّها المسلمون لتعزيز الإسلام فأولئك منكم **(وأولوا الارحام)** أي

أصحاب القرابات (**بعضهم أولى ببعض**) قال تعالى ذلك لأنّ هذه الموالاة أصبحت سبباً للتّوارث بين المسلمين، أي من كان له ذو قرابة من الكفّار كان إرثه للمسلمين لا لهم؛ فجاءت هذه الآية تبيّن أنّ أصحاب القرابات من المسلمين وهم مسلمون هم أولى بالإرث من غيرهم، وبعضهم أولى من بعضهم حسب القرب والبعد، لكي لا يتوهّم أنّ التّوارث بالموالاة فقط لا بالقرابة، وأنّ القريب لا يرث وإن كان مسلماً، واختلف العلماء فقال بعضهم: هذه الآية نزلت في الولاية في التّوارث، وقال بعضهم: في التّناصر والتّصادق، وحينما ننظر إلى سياق السّورة وإنّ كلّها تتعلق بالقتال والحرب والعداء بين المسلمين والكافرين، نجزم بأنّ المراد هي الولاية في التّناصر لكي ينقطع المسلم عن كلّ كافر فلا ينصره ولا يصادقه مادام معادياً للإسلام. ثمّ ألحق الرّسول (ﷺ) الإرث بذلك أيضاً فقال: (لا يتوارث أهل ملّتين ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلماً ثمّ قرأ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٧٣. وقال أيضاً: من جامع المشرك وسكن معه فإنّه مثله، ومعنى جامع هنا: اجتمع، (**وأولوا الأرحام**) من المسلمين (**بعضهم أولى ببعض في كتاب الله**) أي في حكمه (**إنّ الله بكلّ شيء عليم**) يعلم حسب علمه هذا؛ فلا تخالفوا حكمه، فإنّ خلاف حكمه جهل وضلال، والتّماسك بأمره في كلّ الأمور سبب للنّجاح في الدّنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

سورة التّوبة

(مدنيّة، إلّا الآيتين الأخيرتين فمكيّتان، نزلت بعد المائدة، وآياتها مائة وتسع وعشرون، سميّت سورة التّوبة لأنّ فيها البشارة بقبول التّوبة، وسميّت بالفاضحة لأنّها فضحت أسرار المنافقين، ولها ثمانية أسماء أخرى).

سؤال: لماذا لم تكتب البسملة في أوّل هذه السّورة؟

الجواب: قال عثمان بن عفان (رضي الله عنه): حينما جمعنا القرآن أشبهت معانيها[١] بمعاني الأنفال، وكانتا تدعيان القرينتين في عهد رسول الله (ﷺ)، فلذلك قرنت بينهما فوضعتهما في السّبع الطّوال، وقد إختلف الصّحابة هل هما سورتان أو سورة واحدة، فتركت البسملة بينهما لذلك؟، ويروى عن عليّ (رضي الله عنه) أنّه قال: البسملة أمان وبراءة نزلت بالسّيف؛ فلذلك لم تبدأ بالأمان. **وعندي:** أنّ هذه الرّاوية عن عليّ (رضي الله عنه) ليست بصحيحة وإلّا تركت البسملة في أوّل المطفّفين والهُمزة وتبّت، فالقول الأوّل هو الّذي يعتمد عليه، واختلاف الأصحاب كان حيث توفّي الرّسول (ﷺ) قبل أن يبيّن أنّها مستقلّة أو لا، ولشبهها بالأنفال قال البعض: إنّها والأنفال سورة واحدة، وقال البعض مستقلّة وهي آخر سورة نزلت من القرآن.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ

(١) أي معاني سورة التوبة...

ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

حينما ينظر بعض أصحاب النّفوس القاصرة إلى هذه الآيات يعتقد ويقول: إنّ الإسلام كالسّبع الشّرس المفترس، وإنّه القتل والسّفك للدّماء، ولكنّ الّذي يطّلع على الواقع والحقيقة يرى أنّ الإسلام سلم وأمان وحلم، وأهل الكفر هم أهل الخيانة والغدر، والإسلام جاء لإزالة الغدر والخيانات؛ وذلك لأنّ هذه الآيات نزلت بعد فتح مكة، وفتح مكة كان نتيجة خيانة المشركين ونقضهم العهد مع الرّسول (ﷺ)، كما يعلم ذلك في قصّة الفتح، وبعد أن فتحت مكّة أراد أهل الطّائف أن يقاتلوا رسول الله (ﷺ) والمؤمنين، وتهيّأوا لذلك، فسقطت الطّائف ووقعت تحت أيدي المسلمين أيضاً. فبعد سقوط مكّة الّتي كانت تعتبر عاصمة الجزيرة العربيّة وسقوط الطّائف الّتي كانت تعتبر البلدة الثّانية في الجزيرة العربية بعد مكة لم تبق شوكة المشركين، وتغلغل الإسلام والإيمان في قلوب النّاس، فكانت تأتي الوفود إلى رسول الله (ﷺ) ويدخل النّاس في دين الله أفواجاً، وبقي بعض القبائل لهم رؤساء منتفعون من رئاستهم وكفرهم، فمنعوا رعاياهم عن الإسلام وكانت تؤيدهم مرتزقتهم والمنافقون، وكانوا قد عقدوا معاهدة مع الرّسول (ﷺ)، فلمّا خرج الرّسول إلى تبوك، كان المنافقون يبثّون البلبلة ضدّ الرّسول (ﷺ)، وكانت تلك القبائل تقوم بالخيانة ضدّ المؤمنين، فلمّا رجع الرّسول (ﷺ) أنزل الله تعالى براءته والرّسول عن معاهدة تلك القبائل، وجدّد لهم مدة أربعة أشهر ليتفكّروا في هذه المدّة، فإن أسلموا فذاك وإلّا فيقاتلون حيث لم يبق للإسلام ثقة بهم، ولتستطيع الرعيّة المحبّة للإسلام أن تعمل عملها للدّخول في الإسلام، وأمّا الّذين لم يخونوا فأمهلوا إلى إنقضاء عهدهم، فبعد ذلك يخيّرون بين الإسلام وبين القتال إزالة لصدّ رؤسائهم ومنعهم قومهم من الإسلام الّذي كان يتعشّق إليه النّاس، وبهذا الإنذار فسح المجال، فأسلم النّاس ولم يحصل حرب بعد ذلك إلّا نادراً، ومع المرتزقة فقط.هذه مقدمة.

ولنأت إلى تفسير الآيات: قال تعالى: **(براءة)** أي هذه براءة صادرة من الله ورسوله **(إلى الّذين عاهدتم من المشركين)** الّذين خانوا ونبذوا لعهدهم عملاً بما سبق في الأنفال **(وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم)**. ثمّ بعد أن فسخ الله تعالى

معاهدة الّذين خانوا، فسح لهم المجال للتّفكير في أمورهم، ولم يأمرهم بقتالهم فوراً فقال جل وعلا: **(فسيحوا)** أي فسيروا أيّها المشركون **(في الأرض)** آمنين دون قتال **(أربعة أشهر واعلموا أنّكم)** إذا أردتم القتال بعد هذه المدّة **(غير معجزي الله)** أي غير معجزي جيشه، وهم المؤمنون من أن يتغلّب عليكم **(وأنّ الله مخزي الكافرين)** في الدّنيا بالقتل والتّنكيل وفي الآخرة بالعذاب الأليم **(وأذان)** أي إعلام (من **الله ورسوله إلى النّاس)** يعلمون به **(يوم الحجّ الأكبر)** وهو يوم عرفة في عرفات أو يوم النّحر أو الحجّ الأكبر وهو الحج، والحج الأصغر هو العمرة **(إنّ الله بريء من المشركين ورسوله)** وهذا بيان للأذان، كأنّه قيل: ما هو ذلك الأذان والإعلام؟ فقال: (إنّ الله ... إلخ) جواباً له، وقد أعلم النّاس بذلك **(يوم الحجّ الأكبر)** حيث بعث الرّسول (ﷺ) عليّاً (رضي الله عنه) فأذّن بهذه الآيات، وبهذه البراءة، وبأنّ لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وحقّ للإسلام أن يحكم هذا الحكم، لأنّ مكّة أصبحت تحت حكمه وإمارة الحجّ أصبحت بيده؛ فله أن ينظّم الحجّ كما هو في الإسلام وكما يأمره الله تعالى **(فإن تبتم)** أيّها المشركون وأسلمتم **(فهو)** هو أي التّوبة، وذكّر الضّمير لأنّ المراد به الإسلام، أو لأنّه مصدر يجوز تذكيره، كما قال تعالى: ﴿(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢)﴾ سورة عبس الآية/ ١١، ١٢. فإذن التّوبة **(خير لكم)** أيّها المشركون في الدّنيا حيث تصونون به أنفسكم وأموالكم، وفي الآخرة حيث يغفر الله لكم ويدخلكم الجنّة **(وإن تولّيتم)** وأردتم قتال المؤمنين **(فاعلموا أنّكم غير معجزي الله)** عن أن ينصر المسلمين في الدّنيا وأن يجزي الكافرين، وهذا عذابه في الدّنيا لهم، وبالنّسبة للآخرة؛ فقال تعالى: **(وبشّر الّذين كفروا)** أي وبشّرهم، وجيء بهذه العبارة لتفيد أنّه لكفرهم يبشّرهم **(بعذاب أليم)** يوم القيامة، وسمّي الإنذار البشارة تهكّماً وتحضيراً لهم واستهزاءً.

ثمّ بعد أن نبذ الله تعالى ونقض معاهدة الّذين خانوا، استثنى الّذين لم يخونوا فقال جلّ وعلا:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

(إلّا الّذين عاهدتم من المشركين ثمّ لم ينقصوكم شيئاً) من شروط العهد بل وفّوا

بها جمعياً **(ولم يظاهروا)** أي ولم يعاونوا **(عليكم)** من أعدائكم **(أحداً)** فهؤلاء لا تنقضوا عهدهم ولا تنبذوها بل **(فأتمّوا عهدهم إلى مدّتهم)** المعلومة بينكم **(إنّ الله يحبّ المتّقين)** عن نقض العهد دون وجود خيانة من المعاهدين، وهؤلاء كانوا بني نضرة من كنانة، لم يخونوا وبقي مدّة عهدهم تسعة أشهر، فأمر الله تعالى بإتمام عهدهم.

ثمّ أمر الله تعالى بقتال من نبذ عهدهم بعد تمام أربعة أشهر إن لم يسلموا فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

(فإذا انسلخ) أي خرج **(الأشهر الحرم)** وهي الأشهر الأربعة لمن حدّد له هذه المدّة للتّفكير والتّشاور في أمرهم، وتسعة أشهر لمن بقي مدّة عهدهم ولم ينقض عهدهم، كبني نضرة فاذا أنتهت هذه المدّة **(فاقتلوا المشركين)** جميعاً إلّا ما يأتي إستثناؤهم بعد **(وخذوهم)** بالأسر **(واحصروهم)** في القلاع والحصون حتّى يسلّموا أو يقتلوا **(واقعدوا لهم كلّ)** أي بكلّ **(مرصد)** أي طريق **(فإن تابوا)** أي أسلموا **(وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فخلّوا سبيلهم)** فإنّهم يكونوا حينئذٍ منكم **(إنّ الله غفور)** لهم بعد الإسلام **(رحيم)** بهم ولذلك يغفر لهم، وفي الآية دليل على أنّ من لم يصلّ يقتل، وكذلك من أبى عن إيتاء الزّكاة بدليل قول الرّسول (ﷺ)، أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله، ويقيموا الصّلاة ويؤتوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحقّ الإسلام وحسابهم على الله[1]. وقوله (ﷺ): بين الرجل وبين الشّرك والكفر ترك الصّلاة[2]. وبعد هذه الشّدة فسح الله المجال للتّفكير أكثر، فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح البخاري ١/١٧ الحديث رقم ٢٥.صحيح مسلم ١/٥٢ الحديث رقم ٢١.

(٢) صحيح مسلم ١/٨٨ الحديث رقم ٨٢.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

(وإن) أي وإن استجارك أي استأمنك **(أحد من المشركين)** فقوله: **(استجارك)** تفسير للمحذوف سابقاً **(فأجره)** فاقبل استجارته **(حتّى)** لكي **(يسمع كلام الله)** ويفهم دينه **(ثمّ)** بعد أن سمع كلام الله وفهم الإسلام ولم يسلم **(أبلغه مأمنه)** مكان أمنه وبين قومه، وقاتله بعد **(ذلك)** أي قبول استجارتهم **(بأنّهم)** بسبب أنّهم **(قوم لا يعلمون)** دين الله، فلو علموا دخلوا فيه إلّا من طغى عليه الكبر والحسد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يمنع الرّسول من أن يبقى أو ينشيء عهداً مع المشركين إلّا من إستثناه، فقال جلّ وعلا:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ۝١٢﴾

(كيف) إستفهام للإنكار فيكون بمعنى ليس أي لا **(يكون للمشركين عهد)** أي بقاء العهد **(عند الله وعند رسوله)** أي لا يبقى في عهودهم أبداً **(إلّا الّذين عاهدتم)** معهم **(عند المسجد الحرام)** وهم قبائل بنى بكر، وقيل هم قريش، وهذا خطأ لأنّ الآية نزلت

بعد الفتح[١] (فـ) هؤلاء (**ما استقاموا لكم**) في عهدهم (**فاستقيموا لهم**) ولا تنقضوا عهدهم (**إنّ الله يحبّ المتّقين**) عن نقض العهد مادام المعاهد صادقاً، وهؤلاء آمنوا بعد ذلك وأسلموا وحسن إسلامهم. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن على أنّ المشركين لا يصدّقون في عهودهم، فقال (**كيف**) أي كيف يكون لهم عهد (**وإن يظهروا عليكم**) أي يقدروا ويظفروا بكم (**لا يرقبوا فيكم**) أي لا يراعوا فيكم (**إلاّ**) قرابة (**ولا ذمّة**) ولا عهداً بل يستأصلونكم (**يرضونكم بأفواههم**) أي بأقوالهم الكاذبة (**وتأبى قلوبهم**) الوفاء بما يقولون (**وأكثرهم فاسقون**) خارجون عن مقتضى كلّ العهود والمواثيق (**إشتروا**) أي أخذوا بآيات الله أي بدل الاتباع لآيات الله ودينه وهو الإسلام (**ثمنا قليلاً**) وهو رئاستهم ومنافعهم في البقاء على الشّرك (**فصدّوا**) من تحت أيديهم من الرّعية (**عن سبيله**) أي عن الدّخول في سبيل الله وإعتناق الإسلام مع رغبتهم في ذلك (**إنّهم ساء**) قبح (**ما كانوا يعملون**) ضدّ الإسلام والمسلمين، ومن منع النّاس عن أن يسلموا (**لا يرقبون**) لا يراعون (**في مؤمن إلاّ**) قرابةً (**ولا ذمّةً**) ولا عهداً بل يقتلونه إن قدروا عليه (**وأولئك هم المعتدون**) أي الظّالمون المتجاوزون مراعاة العهود والمواثيق والحقد والنّظم، فلا تبقوا معهم عهداً ولا تنشئوا معهم ميثاقاً، بل قاتلوهم حتّى يسلموا، كما قال جلّ وعلا: (**فإن تابوا**) بأن أسلموا (**وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة**) هم (**فإخوانكم في الدّين**) لهم ما لكم وعليهم ما عليكم حسب الشّريعة والإسلام (**ونفصّل الآيات**) أي نبيّن الأحكام (**لقوم يعلمون**) الحقّ ويؤمنون به، ثمّ قال تعالى في من قال في حقّهم، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم: (**وإن نكثوا**) أي نقض هؤلاء (**أيمانهم**) وما استقاموا (**من بعد**) أئمّة الكفر (**عهدهم وطعنوا في دينكم**) بالعيب وذمّه وصدّ النّاس عنه (**فقاتلوا**) أي سادة ورؤساء الكفر جميعاً (**إنّهم لا أيمان لهم**) بعد ذلك (**لعلّهم ينتهون**) لكي ينتهوا عن الكفر، وأشار تعالى إلى أن الرّؤساء هم الّذين يعادون الإسلام حفاظاً على منافعهم ورئاستهم، وهم ومرتزقتهم يقاتلون فقط. وإنّ هؤلاء لم ينقضوا العهد بل أسلموا كما ذكرنا سابقاً.

ثمّ حرض الله تعالى على قتال المشركين الّذين نقضوا عهودهم فخانوا فقال جلّ وعلا:

---

(١) أي أن قريشا قد أسلموا حين الفتح

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

(ألا) ألاستفهام للإنكار أي من المنكر جدّاً حينما **(لا تقاتلون قوماً نكثوا)** أي نقضوا **(أيمانهم)** وعهودهم **(وهمّوا بإخراج)** الرّسول (ﷺ) من المدينة يوم الأحزاب، فاجتمعت القبائل لحرب الرّسول في المدينة وإخراجه منها، فحفر الرّسول (ﷺ) خندقاً حول المدينة فلم يستطع الأحزاب العبور من الخندق، وهزمهم الله تعالى شرّ هزيمة، وقصّة ذلك في سورة الأحزاب تأتي إن شاء الله تعالى **(وهم بدءوكم)** بالإيذاء والقتال **(أول مرّة)** والبادئ أظلم فلم لا تقاتلوهم؟ وهذه الدّواعي للقتال موجودة **(أتخشونهم)** ولذلك لا تقاتلونهم ؟ فإنّ كان ذلك فأنتم مخطئون حيث **(فالله أحقّ أن تخشوه)** حيث يأمركم بالقتال فينتقم منكم إن تخالفوا أمره فخافوا الله تعالى ولا تخافوهم فاذاً **(قاتلوهم)** فإن تقاتلوهم **(يعذّبهم الله بأيديكم)** بالقتل **(ويخزهم)** بالأسر **(وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين)** وهم حلفاء الرّسول الّذين كان هؤلاء الكفرة يعادونهم، أو المؤمنون الّذين كانوا تحت سيطرتهم، أو يراد المعنيان فإنّهما مطلوبان ولا تنافي بينهما**(ويذهب غيظ قلوبهم)** أي قلوب المؤمنين حيث كان هؤلاء الكفّار يؤذونهم، فإذا رأوا ذلّهم يفرحون ويذهب غيظهم **(ويتوب الله على من يشاء منهم)** من الكافرين نتيجة القتال؛ حيث يؤمنون **(والله عليم حكيم)** بمصالح وحكم أخرى، فرض الجهاد على المؤمنين لذلك. وفي هذه الآية معجزة وهي أنّ كلّ ما أخبرت به وقع كما أخبرت.

ثمّ أراد الله تعالى أن يخبر عن حكمة أخرى في فرض الجهاد وهو التّمييز بين المجاهدين وغيرهم والصّادقين ومن سواهم، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

(أم) بمعنى الهمزة للإستفهام، والإستفهام للإنكار **(حسبتم)** بمعنى ظننتم، فالمعنى: من المنكر والمستعبد أن تظنّوا **(أن تتركوا)** فلا تؤمروا بالجهاد **(ولمّا يعلم الله الّذين جاهدوا منكم)** من غيرهم، والمعنى: أن يعلم الله المجاهدين وغيرهم علماً يتعلق بالواقع المحقّق، كما كان يعلم ذلك في الأزل علماً متعلقاً بما يقع في ما لا يزال، فالمراد هنا نفي تعلق العلم بالموجود لا نفي العلم **(و)** الّذين أي ولمّا يعلم الله الّذين (لم يتّخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين **وليجةً**) صديقاً ووليّاً له، فالحاصل أنّ الله فرض الجهاد ليتميّز المجاهد من غيره، ويتميّز المؤمن الصّادق الّذي لا يتحاسب إلّا مع الله ورسوله والمؤمنين والمسلمين؛ فإنّه لا يتبيّن ذلك إلّا بالجهاد والقتال، ولهذا قال (ﷺ): (لا تكرهوا الفتن فإنّ فيها حصاد المنافقين)[1] أو كما قال، فالقتال كالمحكّ يظهر المؤمن الخالص من المؤمن المزيّف **(والله خبير بما)** أي بكلّ ماتعملون خفيةً وعلانيةً، فليس بحاجة إلى الإختبار إلّا أنّه يريد أن يظهر المنافق من غيره والمجاهد من المتكاسل للنّاس؛ فيعلموا ذلك حتّى لا ينخدعوا باكاذيب الأقوال وأباطيل الأعمال.

ثمّ إنّ المشركين كانوا يفتخرون بأنّهم يعمّرون بيت الله الحرام ويحجّونه ويخدمونه فقال جلّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ اللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى النَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

(ما كان) أي لا يصح ولا يقبل ولا يجزئ **(للمشركين)** أي للكافرين جميعاً بدليل مايأتي: فلا يقبل منهم **(أن يعمروا مساجد الله)** أي البيت الحرام، وجمع لأنّه أصل المساجد، فهو كالكلّ، أو ليعلم أنّ عمارة المساجد كلّها لا تقبل من المشركين[2]

---

(١) هذا الحديث ضعيف وقد روي بألفاظ مختلفة / أنظر فتح الباري ١/ ٥٤٣، عمدة القاري ٢٤ / ٩٨، وهو يعارض ما ورد في أحاديث صحيحة من الأمر بالتعوذ من فتنة الدنيا ومن فتنة النار فلا يؤخذ به، والشيخ الوالد رحمه الله تعالى ربما استشهد به بناء على أن بعض العلماء كابن حجر قال بأنه روي في أحاديث جيدة الإسناد / أنظر فتح القدير ٢/ ١٢٤، ولكن مع ذلك لا يقوى على معارضة ما ورد في صحيح البخاري من الأمر بالتعوذ من فتنة الدنيا ومن فتنة المسيح الدجال وغيرهما/ أنظر صحيح البخاري ٣/ ١٠٣٨.

(٢) واولها وأولاها المسجد الحرام.

شاهدين **على أنفسهم بالكفر)** ومعترفين، فعلم أنّ عمارة المساجد لا يقبل من الكافرين جميعاً ولا يثابون عليها ولا على أي عمل خيري، لأنّ شرط العمل الإيمان وبدون الإيمان لا يجزى عليه، فكلّ عمل بدون إيمان كالبناء بدون الأساس والبناء على الماء فينهدم ويحبط كما قال جلّ وعلا: (**أولئك**) الّذين كفروا (**حبطت**) بطلت أعمالهم كلّها ولا يثابون عليها حيث لم يوجد شرط صحتها وهو الإيمان وهم (**في النّار خالدون**) لكفرهم أو شركهم أو إلحادهم.

ثمّ أراد الله تعالى الّذين يصح منهم عمارة المساجد وتقبل منهم ويتابون عليها فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

(**إنّما يعمر مساجد الله**) تعميراً مقبولاً ومثاباً عليه وصحيحاً (**من آمن بالله**) ولم يشرك به شيئاً (**واليوم الآخر**) أي وآمن بالحياة بعد الموت والحساب هناك والثّواب والعقاب فيه (**وأقام الصّلاة**) أي واعتنق الإسلام (**وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة ولم يخش إلّا الله**) أي يعتقد أن كلّ تأثير وإيجاد من الله تعالى في الدّنيا، وكلّ ثواب وعقاب فهو لله تعالى في الآخرة، فلا يخشى غيره لا بالنّسبة للدّنيا ولا بالنسبة للآخرة، ولا يطمع في أحد فإنّ خشي غير الله تعالى فإنّما ذلك لأنّ الله تعالى جعل ذلك سبباً وأنّه لا ينفع ولا يضرّ إلّا بإذن الله تعالى، وأنّ أي سبب لا يعمل إلّا إذا أراد الله تعالى، فهو مسبّب الأسباب وخالق آثارها، فالخشية كلّها من الله تعالى لا من غيره، فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادّ لما قضى ولا ينفع ذا الجدّ منه الجدّ وهو الفعّال لما يريد (**فعسى**) كلمة عسى في كلام الله تعالى للتّحقيق فالمعنى فحقّ (**أولئك**) المتّصفون بهذه الصّفات (**أن يكونوا من المهتدين**) الواصلين إلى الحقّ في الدّنيا والجنّة في الآخرة، أي فهم الواصلون دون شكّ وإرتياب.

ثمّ استفهم الله تعالى الكافرين إستفهام إنكار فقال جلّ وعلا:

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

الوقف هنا واجب لئلّا يتوهّم أنّ قوله تعالى الّذي بعده هو بيان للظّالمين، فقف أيّها القارئ هنا (**أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام**) وبدون إيمان واعتبرتم من فعل ذلك فهو (**كمن**) آمن بالله وباليوم الآخر وجاهد في سبيل (**الله**) لا تعتقدوا ذلك أبداً حيث (**لا يستوون**) هؤلاء وهؤلاء (**عند الله**) تعالى حيث إنّ هؤلاء ساقطون عند الله ومرفوض كلّ أعمالهم، وهؤلاء المؤمنون مقبولون ومحبوبون عند الله (**والله لا يهدي**) إلى رحمته ولا يوصله إلى جنّته ورضاه (**القوم الظّالمين**) لكفرهم وشركهم وإن عملوا خيراً لا يقبل منهم أبداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن من له درجةً عنْد الله فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

(**الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم**) فهؤلاء (**أعظم درجةً عند الله**) من غيرهم، وغيرهم يشمل المؤمنين القاعدين والكافرين، فقوله أعظم بالنّسبة للمؤمنين القاعدين معناه: أنّ درجتهم فوق درجة القاعدين، فالقاعدون أجرهم أقلّ بكثير منه عند الله تعالى، وبالنّسبة للكافرين معناه أعظم، إذن لا درجة للكافر عند الله تعالى (**وأولئك**) المؤمنون المهاجرون المجاهدون (**هم الفائزون**) نهاية الفوز وغيرهم من المؤمنين فوزهم أقلّ بكثير منهم، والكافرون لا فوز لهم. ثمّ بين الله تعالى فوزهم الأعلى والّذي لا يصله غيرهم فقال جلّ وعلا: (**يبشّرهم ربّهم**) على لسان الرّسل (**برحمة**) التّنكير للتّعظيم أي برحمة عظيمة لا يدرك كنه عظمتها إلّا الله تعالى لأنّ تلك الرّحمة (**منه**) تصدر من الله تعالى نفسه (**ورضوان**) صيغة مبالغة من الرّضا أي رضاء الله الأعلى والّذي بلغ الحدّ الأعلى (**وجنّات لهم فيها نعيم**) عظيم (**مقيم**) ذلك النّعيم أي دائم لا زوال ولا نفاذ له (**خالدين فيها**) لا يَخرجون ولا يُخْرجون (**أبداً إنّ الله عنده أجر عظيم**) لهم أعظم ممّا ذكر وهو لقاؤه ورؤية جماله وإدراك كماله حقيقة الإدراك وحقّ اليقين. أللّهم ارزقنا بفضلك آمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن كيف يجب أن يكون المؤمن نجاة الكفار وكيف يكمل إيمانه وصدقه فيه فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾

(**ياأيّها الّذين آمنوا**) إن صدقتم في إيمانكم ودينكم (**لاتتّخذوا آباءكم وأبناءكم أولياء**) أحبّة لكم وأصدقاء ومتولّي أموركم (**إن استحبّوا**) أي إن اختاروا (**الكفر على الإيمان**) فبقي على كفره (**ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظّالمون**) أي المتجاوزون حدود الله وأوامره وحكمه، والظّالمون لعقيدتهم وإيمانهم والخائنون لهما، فإنّه كما لا يجتمع الكفر والإيمان بل هما ضدّان فلا يجتمع الكافر والمؤمن، ولا يتحابّان بل يعاديان إن صدق المؤمن في إيمانه (**قل**) يا أيّها النّبيّ ويا أيّها الدّاعي إلى الإسلام، قل للمؤمنين كلّهم (**إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم**) أي قوميّتكم وعصبيّتكم (**وأموال اقترفتموها**) اكتسبتموها (**وتجارة تخشون كسادها**) أي عدم رواجها(**ومساكن**) أي أوطاناً (**ترضونها**) تحبّونها (**أحبّ إليكم**) مجموع هذه الأشياء أو بعضها (**من الله**) أي اتباع الله وتنفيذ أمره وحكمه ورسوله فتخالفون أمره وحكمه لأجلهم ولإرضائهم وللحفاظ عليهم (**وجهاد في سبيله**) للبقاء معهم أو للحفاظ على ذلك فإن فعلتم ذلك واخترتم كلّ ذلك أو بعضه على حكم الله ودينه وجهاد في سبيله (**فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره**) أي فانتظروا أن يأتي الله بعذابه عليكم حيث إنّكم تكونون فاسقين بذلك (**والله لا يهدي القوم الفاسقين**) إلى خيرهم وسلامتهم بل يوصلهم عذابه، فالمسلمون أصيبوا بعذاب الله تعالى في الدّنيا بزوال سلطانهم وقوّتهم وسيطرة الأجنبي عليهم لأنّهم كانوا يختارون هذه الأشياء على أمر الله وتنفيذ حكمه، فيبطلون حكم الله لأجل الآباء والأمّهات أو الإخوان أو الأبناء أو العشيرة أو الأموال أو الوطن فكانوا يخرجون عن كثير من أحكام الله تعالى وخرجوا بسبب ذلك فأتاهم الله بالعذاب الّذي وقعوا فيه من الذّل والهوان وسلطان الأجنبيّ المستعمر العدوّ اللّدود، فليرجع المسلمون إلى دينهم والعمل لله وبحكم الله ليرجع الله إليهم سيادتهم وسعادتهم، أللّهم فافعل برحمتك يا أرحم الراحمين.

سؤال: إن الكافر المستعمر ليس خيراً من المسلمين فلماذا سلّطهم الله تعالى عليهم ؟.

الجواب: إنّ المسلمين حينما كانوا يعملون لله ويحكمون بشريعة الله يضحّون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيل نشر دين الله والعمل بشريعته وبسط سلطان دين الله تعالى في الأرض، وكانوا متوكّلين على الله كان الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم بالملائكة ويعزّهم بما يخرق العادة وبما يفوق الأسباب الماديّة من العدد والعدّة فينصرهم، وهم قليلون ويعزّهم وهم لا سلاح لهم ولا عدّة بقدر ماكان عند أعدائهم، ولكن حينما تركوا التّوكل على الله ومالوا إلى الدّنيا ومنافعها، وتركوا أمر الله ورسوله فحينئذٍ لا يبقي الله معهم فتكون الغلبة لمن هو أكثر عدة وأقوى عدّة، فيذلّ المسلمون ويعزّ أعداؤهم حسب الأسباب والمعدات.

* * *

وأشار الله تعالى إلى ذلك الجواب فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾

(لقد نصركم الله في مواطن كثيرة) على قلّتكم عدداً وعدّة كما في بدر ومع بني النّضير وقريظة وغيرها؛ إذ كنتم تتوكّلون على الله تعالى فقط، وكنتم تقاتلون لله فحسب، ولم يدخل الطّمع وحطام الدّنيا في قلوبكم **(و)** لكنّ **(يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم)** فوثقتم بأنفسكم وقلّ التّوكل على الله تعالى وتركتم امتثال قول الرّسول (ﷺ) حيث تركتم مواضعكم لجمع الغنائم وحبّ المال **(فلن تغن عنكم كثرتكم شيئاً)** بل انهزمتم شرّ هزيمة **(وضاقت عليكم الأرض بما)** فما مصدرية والباء بمعنى على أي ضاقت الأرض عليكم **(بما رحبت)** مع سعتها **(ثمّ ولّيتم مدبرين)** وانهزمتم **(ثمّ)** بعد أن

رجعتم إلى الله ورسوله وعادت إليكم الثّقة بالله فحسب وتوكّلتم عليه **(أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين)** فكرّوا على الكافرين **(وأنزل)** الله **(جنوداً لم تروها)** وهم الملائكة **(وعذّب الّذين كفروا)** بالقتل والأسر والإنهزام **(وذلك جزاء الكافرين)** يجزيهم الله تعالى إن صدق المسلمون فعملوا للإسلام ولله وتوكّلوا عليه **(ثمّ يتوب من بعد ذلك)** أي بعد ذلّ الكافرين ونصر المؤمنين **(على من يشاء)** من الكفار فيهديهم للإسلام إن أحبّوا فيسلمون ويقبل الله منهم **(والله غفور)** يغفر لهم **(رحيم)** ولرحمه يغفر لا لحاجته إليهم ولا إلى توبتهم. فتبيّن من هذه الآيات أنّ مدار عزّ المسلمين على اتّباع الله ورسوله وشريعته، فمهما استقاموا نصرهم الله، وإذا انحرفوا ذلّوا قال الرّسول (ﷺ): (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزّرع وتركتم الجهاد سلّط الله عليكم ذلّاً لا ينزعه حتّى ترجعوا إلى دينكم)[1] صدق رسول الله (ﷺ).

ثمّ بعد أن ظهرت الخيانات من المشركين فبعضهم نقضوا العهود وبعضهم نقض الرّسول (ﷺ) العهد معهم لخيانتهم وأصبحت مكّة تحت راية الإسلام وصارت إمارة الحجّ بيد المسلمين أمر الله تعالى أن يمنع المشركون من زيارة المسجد الحرام فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا إنّما المشركون نجس) المراد به نجاسة العقيدة والمذهب لا نجاسة العين. فالفقهاء اتّفقوا على طهارة الأبدان إلّا ما روي عن بعض الظّاهرية والزّيدية أنّهم أنجاس كالكلب والخنزير، قال الحسن البصري: من مسّ مشركاً فليتوضّأ، والمراد بالمشركين عبدة الأصنام فقط، وقيل: بل المراد منهم الكافرون جميعاً سواء منهم المشركون وأهل الكتاب كلّهم فحيثما كانوا نجسين **(فلا يقربوا)** الخطاب للمسلمين أي فلا تأذنوا لهم أن يقربوا **(المسجد الحرام بعد عامهم هذا)** وامنعوهم منعاً باتاً **(وإن خفتم عيلة)** أي فقراً بأن تظنّوا أنّ منع هذا العدد الهائل من الحجّ

(١) سنن أبي داود ٣/ ٢٧٤ الحديث رقم ٣٤٦٢.

وزيارة البيت يضرّ بواردات المؤمنين سيما بتجارة أهل مكّة فلا يمنعكم هذا الخوف عن منعهم حيث **(فسوف يغنيكم الله من فضله)** من جوانب أخرى غير واردات الحجيج الكفرة **(إن شاء)** فإنّ كلّ شيء بمشيئته وإرادته **(إنّ الله عليم)** بمضرّة دخول المشركين المسجد الحرام وبما يغنيكم به **(حكيم)** ويعمل كلّ ذلك حسب حكمته الوفيرة وعلمه الشّامل الأشمل. **فائدة:** الحكم المستفاد من الآية على اختلاف المذاهب: ذهب مالك إلى: أنّ المراد بالمشركين كلّ الكافرين وبالمسجد الحرام وكلّ المساجد قياساً؛ فلا يجوز إفساح المجال للمشرك ولا لأهل الكتاب دخول أي مسجد من المساجد كان، وقصّر الأحناف المنع على النّص فيجوز لأهل الكتاب دخول المسجد الحرام وغيره من الحرم والمساجد الأخرى، وللمشرك دخول المساجد كلّها غير المسجد الحرام للحجّ والعمرة فقط ولغير ذلك جائز. وعند الشّافعي (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): لا يجوز للمشرك ولا لأهل الكتاب دخول المسجد الحرام وأباح لهما دخول غيره من سائر المساجد، ووافقه أحمد (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) على ذلك، والمراد بالمسجد الحرام كلّه فلا يجوز دخول الكافر فيه هذا فيما يتعلق بالحرم، وأمّا الحجاز فقال العلماء: جملة بلاد الإسلام ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: الحرم، فلا يجوز للكافر مطلقاً أن يدخله بحال ذمياً كان أو مستأمناً لظاهر قوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ...إلخ﴾ فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام في الحرم فلا يأذن له في دخول الحرم بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته، وهذا عند مالك والشّافعي وأحمد (رحمهم الله تعالى). وجوّز أبوحنيفه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم ويقيم فيه مقام المسافر ثلاثة أيام فقط ولايستوطنه، ويجوز عنده دخول واحد منهم الكعبة أيضاً.

القسم الثّاني: من بلاد الإسلام الحجاز وحده ما بين اليمامة واليمن ونجد، وأمّا المدينة المنوّرة قيل: فنصفها تهامي ونصفها حجازي، وقيل: كلّها حجازي، وقال الكلبي: حدّ الحجاز ما بين جبل طي وطريق العراق، سميّ حجازاً لأنّه يحجز بين تهامة ونجد، وقيل: لأنّه حجز بين نجد والسّراة، وقيل: لأنّه حجز بين نجد وتهامة والشّام، وقال الحربي: إنّ تبوك من أرض الحجاز فيجوز للكافر دخول أرض الحجاز بالإذن ولكن لا يقيم بها أكثر من مقام المسافر ثلاثة أيام. وقال أبو حنيفة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): لا يمنعون من الإقامة بها ولا من الإستيطان بها، وحجّة الجمهور ما روى مسلم (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عن ابن عمر أنّه

سمع رسول الله (ﷺ) يقول: (لأخرجنّ اليهود والنّصارى من جزيرة العرب)[١] وفي رواية قال: (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)[٢] ويوجد غير ذلك من الأحاديث، ولذلك أجلى عمر الكافرين كلّهم من جزيرة العرب.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قتال المشركين أراد أن يأمر بقتال أهل الكتاب أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(قاتلوا) أيّها المؤمنون **(الّذين لايؤمنون بالله)** إيماناً صحيحاً **(ولا باليوم الآخر)** إيماناً صحيحاً حيث لا يؤمنون بحشر الأجساد **(ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله)** كالخمر والخنزير والرّبا وغير ذلك **(ولا يدينون دين الحقّ)** من التّوحيد الخالص وهؤلاء

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٣٨٨ الحديث رقم ١٧٦٧ وتكملته: حتى لا أدع إلا مسلما.

(٢) صحيح البخاري ٣/١١٥٥ الحديث رقم ٢٩٩٧، صحيح مسلم ٣/١٢٥٨ الحديث رقم ١٦٣٧.

هم (**من الّذين أوتوا الكتاب**) وهم اليهود والنّصارى فقاتلوهم (**حتّى يعطوا الجزية**) أي حتّى ينقادوا لسلطان الإسلام ويعطوا الخراج[١] الّذي تضرب عليهم عطاء (**عن يد وهم صاغرون**) منقادون لسلطان الإسلام والمسلمين. ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت عدم إيمانهم الصحيح بالله تعالى فقال جلّ وعلا: (**وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النّصارى المسيح**) وهو عيسى ابن مريم (**ابن الله ذلك**) القول (**قولهم بأفواههم**) فقط لا دليل لهم على ذلك بل يقولون إفتراءً (**يضاهئون**) أي يشابهون ويقلّدون (**قول الّذين كفروا من قبل**) من آبائهم (**قاتلهم الله أنّى**) كيف (**يؤفكون**) يصرفون عن الحقّ إلى الباطل. ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت أنّهم لا يدينون دين الحقّ ولا يحكمون بشريعة الله تعالى فقال جلّ وعلا: (**اتّخذوا أحبارهم**) وهم علماء اليهود (**ورهبانهم**) وهم علماء النّصارى (**أرباباً**) يطيعونهم (**من دون الله**) تعالى فيحرّمون لهم ويحلّلون فيطيعونهم في ذلك، وحينما نزلت الآية قال عدي بن حاتم: ما كنّا نعبدهم يا رسول الله، قال (ﷺ) أجل ولكن يحلّون لهم ماحرم الله فيستحلّونه ويحرّمون عليهم ما أحلّ الله فيحرّمونه فتلك عبادتهم[٢]. فتفيد الآية والحديث أنّ كلّ من عدل عن حكم من أحكام الله تعالى إلى حكم غير الله وما يضعه العباد من الأنظمة فقد عبد غير الله تعالى واتّخذ غيره إلهاً له (**وما أمروا**) أي اليهود في التّوراة والنّصارى في الإنجيل (**إلّا ليعبدوا**) ليطيعوا (**إلهاً واحداً**) ولا ينحرفوا عن حكمه إلى حكم غيره وأنّه (**لا إله**) لا حاكم تكويناً ولا تشريعاً (**إلّا هو سبحانه**) أي تنزّه تعالى (**عن**) كلّ (**ما يشركون**) به غيره في إعتقاد أنّه يوجد شيئاً أو أنّ له حقّاً في التّشريع ووضع النّظام إلّا إستنباطاً وإجتهاداً من الكتاب والسّنة وما وضع من الأصول العامّة للأحكام، فمن وضع نظاماً يصادم نصّاً من الكتاب والسّنة فقد ادعى الألوهيّة ومن امتثله فقد عبده. ثمّ علّل الله تعالى الأمر بقتالهم فقال جلّ وعلا: (**يريدون**) أي قاتلوهم لأنّهم (**يريدون ليطفئوا نور الله**) وهو الإسلام وليقضوا عليه (**بأفواههم**) بأقوالهم الكاذبة في حقّه وبالأمر بمقاومة وصدّ النّاس عنه (**و يأبى الله إلّا أن يتمّ نوره**) وينشره في الأرض (**ولو كره الكافرون**) ذلك النّور (**هو**) أي الله (**الّذي أرسل رسوله**) محمّداً (ﷺ) (**بالهدى ودين الحقّ ليظهره**) أي ليغلبهُ ويغلب دينه (**على الدّين كلّه**) أي على جميع الأديان في الأرض (**ولو كره المشركون**) وهم المشركون واليهود والنّصارى.

---

(١) أي الجزية وهو مقدار من المال يؤخذ سنويا من كل ذكر بالغ عاقل مقابل أمانهم والدفاع عنهم.

(٢) سنن البيهقي ١٠ / ١١٦ الحديث رقم ٢٠١٣٧.

فائدة: الآية أنّ اليهود والنّصارى مشركون وذلك لأمور:

الأمر الأوّل: نسبوا إلى الله الإبن وإن ابن الإله يجب أن يكون إلهاً.

الأمر الثّاني: أطاعوا الأحبار والرّهبان في التّحريم والتّحليل والتّشريع، وهذا من خواص الله تعالى فجعلوهم آلهةً وبذلك عبدوهم.

الأمر الثّالث: إنّهم يقدّسون غير الله تعالى ويعظّمونهم بنسبة التّأثير إليه ويرون فيه أنّه ينفع ويضرّ. إلى غير ذلك من الأمور، وقد حقّق الله تعالى وعده، فغلب الإسلام كلّ الأديان واستولى على مشارق الأرض ومغاربها، إلى أن تقهقر المسلمون عن دينهم وابتعدوا عن حقيقة الإسلام، فخسروا هذه السّيادة المرموقة وهذا السّلطان العظيم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

* * *

وأفادت تلك الآيات أنّ قتال المسلمين لأهل الكتاب كان دفاعاً لا هجوماً، وذلك لأنّهم كانوا يعادون الإسلام ويريدون القضاء عليه وإطفاء نوره، وكانوا يصدون النّاس عن الدّخول كما صرّح تعالى بذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(ياأيّها الّذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرّهبان ليأكلون أموال النّاس بالباطل) فيأخذون منهم الرّشوة في الحكم فيبدّلونه، وكانوا يكتبون كتباً محرّفة ويقولون: هذا من عند الله، وكانوا يحرّفون التّوراة ويغيّرون أوصاف النّبيّ ليبقوا على رئاستهم وأكلهم المنافع من هذه الرّئاسة **(ويصدّون)** النّاس **(عن)** الدّخول في **(سبيل الله)** أي دينه وهو الإسلام وكان هؤلاء الأحبار والرهبان يكنزون نتيجة أعمالهم هذه الأموال من الذّهب والفضّة فقال تعالى: **(والّذين يكنزون الذّهب والفضّة)** فيحتكرونها **(ولا ينفقونها في سبيل**

الله) أي الأمور المشروعة **(فبشّرهم بعذاب أليم)** أي مؤلم. ثمّ بين الله تعالى نوعيّة ذلك العذاب المؤلم، فقال جلّ وعلا: **(يوم)** أي يعذّبون **(يوم يحمى عليها)** أي على الأموال المكنوزة **(في نار جهنّم)** فتجعل صحائف محميّة **(فتكوى بها جباههم)** جمع جبهة وهو الجبين **(وجنوبهم)** جمع جنب **(وظهورهم)** جمع ظهر، ويقال لهم حين الكوي **(هذا ما كنزتم لأنفسكم)** لتنتفعوا بها **(فذوقوا)** جزاء وعذاب جرم **(ما كنتم تكنزون)** انقلب عليكم المنفعة ضرراً وخاب ظنّكم فيما تعملون، قيل: إنّ هذا الوعيد خاص بالأحبار والرّهبان لأنّه ورد في حقّهم، والحقّ أنّه عامّ، ولو كان خاصّاً لقال: **(الّذين)** دون **(والّذين)** فيفيد الفصل إنّ الكلام مستقلّ وعام إلّا أنّه ذكرهم بعد ذكرهم لأنّهم متّصفون بهذه الصّفة.

فائدة: قد إختلف العلماء والأصحاب في الكنز المحرّم، فقال الجمهور: ما أدّيت زكاته فليس بكنز، وما لم يؤدّ منه الزّكاة فهو كنز، وذكروا في هذا التّفسير حديثاً من الرّسول (ﷺ)، وقال أبو ذر وجماعة من الزّهد كلّ ما فضل عن حاجتك فهو كنز فيجب صرف ما فضل عن الحاجة في سبيل الله تعالى وإلّا فيشمله الوعيد.

وأقول: إنّ ما لم يؤدّ زكاته فهو كنز بالإتّفاق، وأمّا ما أدّي زكاته ففيه تفصيل وهو: أنّ الذّهب والفضّة ثمن الأموال وبدل المعاملات، وبهما ينتعش العمل والكسب والتّجارة، فلو كان لأحد من الذّهب والفضّة أو نقود الوقت فاحتكره ووضعه في البنوك أو في صناديق في بيته، فلا شكّ أنّه يضعف حركة العمل والتّجارة بقدر ما حبسه من النّقود، ولو أخرجه إلى السّوق واشترى به وباع ونمّى فيزيد من حركة العمل والتّجارة وجلب الأرزاق والحوائج للنّاس بقدر ما أخرجه، فلو وضع كلّ النّاس نقودهم وحبسوها لتعطّلت التّجارة والعمل ولوقع النّاس في ضيق، ومن هذا قال الرّسول (ﷺ): (المحتكر ملعون والجالب مرزوق)[1] فمن كنز الذهب والفضة أي نقود الوقت فقد احتكر وارتكب ما يضرّ النّاس وذلك حرام، سواء أدّى منه الزّكاة أو لا، ومن أخرج النّقود وتعامل بها فقد نفع النّاس لأنّه ينتفع بذلك البائع والمشتري والحمّال والسّواق وتتّسع السّوق ويكثر الجلب ويكثر الطّعام والحاجات، فيسود البلد الرخاء فيثاب بذلك صاحب النّقود وينتفع هو أيضاً؛ فيصدق قول الرّسول: (والجالب مرزوق) أي يرزق المال والرّبح في الدّنيا والأجر والثّواب في الآخرة. ثمّ لا خلاف في أنّه إذا كان عند أناس فضل مال

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٨/ ٢٠٤ الحديث رقم١٤٨٩٣.

وكان هناك من لا مال لهم يجب عليهم صرفها إليهم، قال الرّسول (ﷺ): (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له)[١] وقال أيضاً: (لا يؤمن أحدكم بات شبعاناً وجاره جائع)[٢] وهذا ما أرى والله تعالى أعلم.

* * *

فائدة: لقد جاء الإسلام وفي الجاهليّة تقاليد وعادات يعملونها وكانت ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كانت تقاليد جاهليّة محضة فرفضها الإسلام وأبطلها.

القسم الثاني: كانت تقاليد ورثوها من دين سيّدنا ابراهيم (ﷺ) ولم يعتريها تغيير وتحريف من الجاهليين فأقرها الإسلام وحكم بها.

القسم الثالث: كانت أحكاماً دينيّة إلّا أنّ الجاهلين أحدثوا فيها تبديلاً وتغييراً فنظّمها الإسلام وطهّرها من تغييرات الجاهليّة ثمّ أقرها وعمل بها كما كانت في الأصل، ومن هذا القسم أنّ القتال كان حراماً في الأشهر الحرم في دين الإسلام دين سيّدنا إبراهيم (ﷺ) ولكن أحدثوا في هذا الحكم تبديلاً وهو أنّهم كانوا إذا احتاجوا إلى القتال في الشهر الحرام حلّلوه وجعلوا شهراً آخر بدله حراماً مكانه ويسمّون ذلك النّسيء.

* * *

ثمّ لما جاء الإسلام حرم ذلك النّسيء وأبطله فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٤ الحديث رقم ١٧٢٨.

(٢) الحديث روي بألفاظ مختلفة أشهرها (ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعان وجاره جائع إلى جنبه) / المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٥ الحديث رقم ٢١٦٦.

ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

(**إنّ عدّة الشّهور**) في السّنة (**اثنا عشر شهراً**) قمريةً وذلك واقع (**في كتاب الله**) أي في حكمه التّكويني (**يوم خلق السّماوات والأرض**) فإنّه كوّن في هذا النّظام أنّ القمر يكمل الدّورة إثني عشر مرةً فكلّ دورة سمّي شهراً (**منها**) من تلك الشّهور (**أربعة حرم**) حرّم الله القتال فيها وهي ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم ورجب (**ذلك**) التّحريم للقتال في تلك الأشهر هو (**الدّين**) أي الشّرع (**القيم**) والمستقيم (**فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم**) بالقتال فيها إلّا دفاعاً (**وقاتلوا المشركين كافّة**) وفي كلّ شهر (**كما يقاتلونكم كافّة**) أي لأنّهم يقاتلونكم عموماً وفي كلّ الأشهر والأوقات، فالدّفاع حلال بل واجب في كلّ وقت وفي الشّهر الحرام أيضاً شرعاً وعرفاً وعقلاً ونقلاً (**واعلموا أنّ الله مع المتّقين**) الّذين لا ينشئون القتال، وفي الأشهر الحرم خاصّةً (**إنّما النّسيء**) أي تأخير حرمة القتال في شهر حرام إلى شهر آخر (**زيادة في الكفر يضلّ به الّذين كفروا**) لأنّهم (**يحلّونه**) أي يحلّون القتال فيه عاماً إذا إحتاجوا إلى القتال فيه (**ويحرّمونه عاماً**) لا يحتاجون فيه إلى القتال (**ليواطئوا**) أي ليتمّوا (**عدّة ما حرّم الله**) فبذلك (**يحرّموا ما أحلّ الله**) تعالى وهو الشّهر الّذي يجعلونه حراماً بدل الّذي جعلوه حلالاً (**زيّن لهم سوء أعمالهم**) وهو تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحلّه وبذلك كفروا (**والله لا يهدي القوم الكافرين**) أي لا يوصلهم إلى رحمته يوم القيامة وهي الجنّة. وهذه الآية نصّ في أنّ من حكم خلاف حكم الله فهو كافر لعنه الله تعالى.

حكاية لطيفة: كنت مدّرساً في المعهد الإسلامي في بغداد والّذي كان تابعاً لوزارة الأوقاف، وقد فوّض إليّ أن أدرّس التّفسير فدرّست الطّلاب سورة الأنفال والتّوبة فلمّا وصلنا هذه الآية سألتهم عن أسماء هذه الشّهور العربيّة والإسلاميّة فلم يعرفها أحد منهم، فعددت لهم الأسماء مراراً بأنّها: محرّم وصفر وربيع الأوّل وربيع الثّاني وجمادي الأولى وجمادي الثّانية ورجب وشعبان ورمضان وشوّال وذوالقعدة وذوالحجّة، وكرّرت لهم هذا التّعداد أيّاماً، وذكرت لهم أنّ الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذوالحجّة ومحرّم ورجب، ثمّ حينما جاء وقت الامتحان جعلت أحد أسئلة الامتحان ما يلي: س: كم هي

الشّهور العربيّة والإسلاميّة؟ وما هي أسماؤها؟

فلم يعرف الجواب على السّؤال إلّا ثلاثة من ستّين شخصاً، فقلت لهم: قد تبيّن الآن أنّ جاهليّة اليوم أشدّ من الجاهليّة الأولى؛ لأنّهم كانوا يعرفون أسماء شهورهم وأسماء المحرّم منها فصدّقني الجميع.

* * *

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم) أيّ سبب عرض لكم في أنّه **(إذا قيل لكم انفروا)** أي اخرجوا للجهاد والقتال **(في سبيل)** نشر دين **(الله)** ورفع راية الإسلام **(اثّاقلتم)** أي تباطأتم وتكاسلتم وقعدتم قعود الثّقيل الّذي يقع ويميل **(إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدّنيا)** واخترتموها بدلاً **(من الحياة الآخرة ولقد أخطأتم)** في هذا الإختيار حيث **(فما)** فليس **(متاع الدّنيا)** ولذّتها وحياتها **(في)** جنب ومقابل **(الآخرة)** وحياتها **(إلّا قليل)** جدّاً كواحد من ملايين، بل أقلّ وإنّما هذا للتصوير. حيث إنّ حياة الدّنيا تزول وحياة الآخرة أبديّة لا تزول، ثمّ بعد أن عاتبهم الله تعالى هذا العتاب أنذرهم فقال جلّ وعلا: **(إلّا)** أصله إن لا **(تنفروا يعذبكم)** الله تعالى **(عذاباً أليماً)** في الدّنيا والآخرة **(ويستبدل قوماً غيركم)** يؤمنون بالرّسول (ﷺ) **(ولا تضروه)** أي الرّسول بترك الجهاد معه **(شيئاً)** فإن الله ينصره وإنّما تضرّون أنفسكم حيث تستحقّون بذلك عذاب الدّنيا والآخرة **(والله على**

كلّ شيء قدير) وبقدرته ينصر رسوله، ثمّ أظهر الله تعالى إستغناء الرّسول (ﷺ) عن نصرتهم فقال جلّ وعلا: **(إلّا تنصروه)** أي الرّسول فهو مستغن عنكم وليس بحاجة إلى نصركم له فإنّ الله تعالى ينصره، ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر برهاناً ودليلاً على أنّه ينصر رسوله فقال جلّ وعلا: **(فقد نصره)** أي نصر الله رسوله ولم يكن معه قوّة ولاجيش **(إذ أخرجه الّذين كفروا)** من مكّة حينما هاجر وهو **(ثاني إثنين)** ليس معه إلّا شخص واحد وهو أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه) **(إذ يقول)** الرّسول **(لصاحبه)** أبي بكر حينما رأى جيش المشركين وصلّوا إلى الغار ووقفوا عليه وقال أحدهم: والله إنّهم لفي هذا الغار، فردّ عليه الآخر منهم قائلاً: والله لم يدخل الغار أحد منذ ولادة محمّد، فقال أبوبكر(رضي الله عنه) للرّسول (ﷺ): يا رسول الله إن أحدهم لواقف على الغار لو نظر تحت قدميه لرآنا، فقال له الرّسول (ﷺ): **(لا تحزن)** يا أبا بكر حيث **(إنّ الله معنا)** وينصرنا وينجينا من شرّهم ما بالك بإثنين الله ثالثهما، فدخل في قلوب المشركين التيّقنّ بأنّه لم يدخل الغار أحد فرجعوا خائبين، فبعد ما قال الرّسول (ﷺ) لأبي بكر (رضي الله عنه): **(لاتحزن إنّ الله معنا)** أكرم الله تعالى أبا بكر(رضي الله عنه) **(فأنزل الله سكينته عليه)** على أبي بكر (رضي الله عنه) وذهب كلّ حزنه واطمأنّ قلبه **(وأيّده)** أي أيّد الله رسوله **(بجنود لم تروها)** وهم الملائكة دخلوا الغار فأدخلوا الصّبر والطّمأنينة في قلبه وقلب صاحبه **(وجعل)** الله **(كلمة)** إرادة **(الّذين كفروا)** حيث أرادوا أن يدركوا محمّداً (ﷺ) وصاحبه فيقتلوهما جعل تعالى إرادتهم هذه **(السّفلى)** أي مغلوبة حيث فوق كلّ الإرادات وقد أراد الله تعالى إنجاء رسوله (ﷺ) وصاحبه **(والله عزيز)** غالب على أمره لا يعجزه عن تنفيذ إرادته كلّ الكون وما فيه **(حكيم)** بحكمته ينفّذ كلّ ما أراده حتماً.

وهنا مسائل:

الأولى: قوله **(اثّاقلتم)** أصله تثاقلتم، والقاعدة إنّها إذا كان فاء تفاعل إحدى حروف **(أنشد ذز سشص ضططوي)** تقلب تاؤه فاءً، فقلبت التاء ثاءً، فأدغم الثاء في الثّاء؛ فصار الإبتداء بالسّاكن فجيء بهمزة الوصل فصار إثّاقلتم.

الثّانية: كلمة إلّا في: إلّا تنفروا وإلّا تنصروه، أصلها إن لا مركبّة من إن للشّرط ولا للنّفي فأدغم النّون في اللّام فصارت إلّا.

الثالثة: قال (ﷺ) لأبي بكر (رضي الله عنه) لا تحزن، ولم يقل لا تخف، لأنّه كان يعلم أنّ أبا بكر (رضي الله عنه) كان لا يخاف من نفسه، فإنّه كان يحبّ الشّهادة في سبيل الحقّ، وإنّما كان يحزن على أن يصيبوا الرّسول (ﷺ)، ويدلّ على ذلك أنّه حينما كان في

الطّريق إلى الغار كان يمشي أمام الرّسول (ﷺ) ثمّ يتحوّل إلى يمينه ثمّ إلى خلفه ثمّ إلى يساره فيسأله الرّسول (ﷺ) عن ذلك؟ فيقول: أخاف أن يأتيك العدوّ من الأمام فأمشي أمامك ليصيبوني بسهمهم ولا يصيبوك، ثمّ أخاف أن يأتي سهمهم من اليمين فأتحوّل إلى اليمين، ثمّ أخاف من الخلف فأتحوّل إليه ثمّ إلى اليسار كذلك، فإنّه بقتلي يموت شخص واحد ولكن بقتلك يموت الدّين والمسلمون والإسلام جميعاً. وحينما وصلا إلى الغار أبى أن يدخله الرّسول (ﷺ) قبله مخافة أن تؤذية حشرة كعقرب أو حيّة، فدخل الغار فنظّفه وشقّ ثوبه؛ فسدّ به كلّ الثّقب فبقيت ثقبة واحدة فوضع عقبه عليها، فدخل الرّسول بعد ذلك فوضع رأسه على فخذ أبي بكر (رضي الله عنه) فنام فلدغت الحيّة عقب أبي بكر (رضي الله عنه) فنزلت دمعة من عينه لشدّة الوجع فوقعت الدمعة على وجه الرّسول (ﷺ) فانتبه فقال: ما بك يا أبا بكر؟ فقال أبوبكر (رضي الله عنه): لدغت، فمسح الرّسول (ﷺ) على مكان اللّدغ بريقه فطاب وذهب الوجع.

الرّابعة: كفى في فضل أبي بكر أنّ الله أنزل سكينته عليه، فبقت تلك السّكينة إلى وفاته، وقال بعض النّاس: إنّ الضّمير في السّكينة راجع إلى الرّسول (ﷺ) لا إلى أبي بكر (رضي الله عنه)، وهذا غلط لأنّه يلزم أنّه لم تكن السّكينة للرّسول قبل ذلك ويردّه قوله قبل ذلك لأبي بكر (رضي الله عنه) لا تحزن إنّ الله معنا، ونفي السّكينة عن الرّسول من إساءة الأدب في حقّه؛ فإنّه كان صاحب سكينة قبل ذلك بدليل أنّه خرج من بين الشّبان دون خوف وقلق، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى، هذا وإنّ الآية تذكّرنا وتذكّر النّاس بقصّة هجرة الرّسول (ﷺ) ولذلك نريد أن نذكر خلاصة القصّة إن شاء الله تعالى.

* * *

خلاصة القصّة: لمّا رأت قريش أنّ رسول الله (ﷺ) قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بالمدينة المنوّرة ورأوا أصحابه هاجروا إليهم علموا أنّه صار لهم قوة ومنعة فإن يخرج الرّسول (ﷺ) إليهم فإنّه يشكّل قوّة ويتهيّأ لحربهم، فاجتمعوا في دار النّدوة يتشاورون في أمر رسول الله (ﷺ) فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلمّا رأوه قالوا: من الشّيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالّذي استعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل، فدخل معهم، وقد اجتمع أشراف قريش فقال بعضهم: إنّ هذا الرّجل، يقصدون محمّداً (ﷺ)، قد كان من أمره ما رأيتم، فوالله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن اتّبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه

رأيكم، فقال أحدهم: أحبسوه في بيت وأغلقوا عليه الباب ثمّ تربّصوا به ما أصاب أمثاله من الشّعراء من الموت فنستريح منه، فقال الشّيخ النّجدي: لا والله ما هذا برأي والله لئن حبستموه ليسمع به أصحابه فلأوشك أن يثبّوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثمّ يكاثروكم به فيغلبوكم على أمركم. فقال قائل آخر: ننفيه من بلادنا فلا نبالي أين ذهب وحيث وقع ونستريح منه، فقال النّجدي: والله ماهذا برأي أيضاً، ألا ترون حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب النّاس، والله لو فعلتم ذلك فسيجعل العرب أتباعه بحسن حديثه ثمّ يسير بهم إليكم فيفعل بكم ما أراد، فقال أبو جهل: فو الله أنّ لي رأياً لا أرى غيره، قالوا: وما هذا يا أبا الحكم؟ قال: نأخذ من كلّ قبيلة شابّاً جلداً ونعطي كلّ واحدٍ منهم سيفاً صارماً فليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل كلّها، فلا يقدر بنو مناف حرب الكلّ فيرضون بالعقل أي الدّية فعقلناه، فقال النّجدي: القول ما قال الفتى والرّأي هو رأيهُ لا رأي غيره، فاتّفقوا على هذا الرأي.

مجيء جبريل وخروج الرّسول (ﷺ) **من بيته**: فأتى جبريل رسول الله (ﷺ) فقال: لا تبت هذه اللّيلة على فراشك وفي بيتك، فلمّا أظلم اللّيل اجتمع شبّان قريش على بابه ينتظرونه حتّى ينام فيقتلونه، فلمّا رآهم رسول الله (ﷺ) قال لعليّ ابن أبي طالب (رضي الله عنه): نم أنت على فراشي وتسجّ ببردتي فنم فيه، فإنّه لن يصلك منهم ما تكرهه، وكان من بين الشّبان أبو جهل، فقال: إنّ محمّداً يزعم أنّكم إن تبعتموه كنتم ملوك العرب والعجم، واذا متم تبعثون من بعد موتكم، فتعطى لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تتّبعوه كان لكم ذبح ثمّ تبعثون بعد موتكم فتقذفون في النّار فتحرقون فيها، فخرج رسول الله (ﷺ) فأخذ حفنة من تراب ثمّ قال: أنا أقول ذلك وأنت أحدهم وأخذ الله على أبصارهم فلم يروه، حيث كان ينثر التّراب على رؤوسهم وهو يتلو: ﴿يس والقرآن الحكيم. إنّك لمن المرسلين على صراط مستقيم. تنزيل العزيز الرّحيم. لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لايؤمنون. إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون﴾ فلمّا فرغ من هذه الآيات إذا كلّ واحد منهم نام ووضع التّراب على رؤوسهم وخرج حيث أراد، ثمّ أتاهم آت ممّن لم يكن معهم فقال: ماذا تنتظرون هاهنا؟ قالوا: محمّداً، قال لهم: خيّبكم الله! قد والله إنّه خرج عليكم وما ترك واحداً منكم إلّا ووضع على رأسه التّراب!، فوضع كلّ رجل يده على رأسه فإذا عليه تراب! فوقعوا في الخيبة والخسران، ثمّ فتّشوا فرأوا عليّاً على الفراش ومتسجّياً

ببردة النّبيّ (ﷺ) فلم يبرحوا بالباب حتّى أصبحوا، فقام عليّ(رضي الله عنه) فقالوا: والله لقد صدقنا الّذي حدّثنا.

حصول أمنيّة أبي بكر: وكان أبوبكر (رضي الله عنه) رجلاً ذا مال فكان كلّما يستأذن رسول الله (ﷺ) في الهجرة يقول الرّسول (ﷺ) لا تعجل لعلّ الله يجد لك صاحباً، فطمع أنّ رسول الله (ﷺ) يعني بالصّاحب نفسه فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك، فتقول عائشة (رضي الله عنها): كان لا يخطيء رسول الله (ﷺ) أن يأتي بيت أبي بكر (رضي الله عنه) أحد طرفي النّهار إمّا بكرة وإمّا عشيّة، حتّى إذا كان اليوم الّذي أذن الله فيه لرسوله (ﷺ) في الهجرة فأتانا رسول الله (ﷺ) بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، فلمّا رآه أبوبكر (رضي الله عنه) تأخّر له عن سريره فجلس عليها، وليس عند أبي بكر (رضي الله عنه) الّا أنا وأختي أسماء، فقال (ﷺ): أخرج من عندك، فقال يا رسول الله! إنّما هما بنتاي، فما ذاك بأبي أنت وأمي؟ وماذا حدث يا رسول لله (ﷺ)؟ فقال (ﷺ): إنّ الله تعالى أذن لي في الهجرة، فقال أبوبكررضي الله عنه: الصّحبة يا رسول الله (ﷺ)، قال (ﷺ): الصّحبة. قالت عائشة (رضي الله عنها): فوالله ما شعرت قطّ قبل ذلك اليوم أنّ أحداً يبكي من الفرح حتّى رأيت أبابكر (رضي الله عنه) يبكي يومئذٍ فرحاً بصحبة رسول الله (ﷺ)، ثمّ قال: يا نبيّ الله إنّ هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا السّفر، فاستأجرا عبدالله بن أريقط ليدلّهما على الطّريق، وكان مشركاً، فكانت الرّاحلتان عنده يرعاهما لميعادهما، ولم يعلم بخروج الرّسول (ﷺ) للهجرة إلّا عليّ وأبو بكر وآل أبي بكر (رضي الله عنهم).

سبب تخلّف عليّ (رضي الله عنه) عن الرّسول (ﷺ) يوم الهجرة: أمر رسول الله (ﷺ) عليّاً (رضي الله عنه) أن يتخلّف بعده بمكة حتّى يؤدّي عنه الأمانات والودائع الّتي كانت عنده إلى أهلها، و لم يكن أحد بمكّة إلّا وعنده شيء يخشى عليه ووضعه عنده (ﷺ) لما علم من صدقه وأمانته.

خروج الرّسول مع أبي بكر إلى الغار: فلمّا أجمع الرّسول (ﷺ) وأبوبكر (رضي الله عنه) الخروج، خرجا من خوخة لأبي بكر رضي الله عنه في ظاهر بيته، ثمّ عمدا إلى غار بجبل ثور وهو جبل بأسفل مكة فدخلا الغار، فكان أبوبكر (رضي الله عنه) حينما كان مع رسول الله (رضي الله عنه) أصبح يمشي ساعة بين يدي الرّسول (ﷺ) وساعة يمينه وساعة خلفه وساعة يساره، فقال الرسول (ﷺ): مالك يا أبابكر؟ فقال: أخاف أن يأتيك العدوّ من خلفك فأمشي خلفك، ثمّ أخاف أن يأتيك من الأمام فأمشي أمامك، ثم أخاف من يمين فأمشي يمينك. ثمّ أخاف من اليسار فأتحوّل هناك، فلما انتهيا إلى الغار قال للرّسول (ﷺ):

والله لا تدخله حتى أدخله قبلك، فإن كان فيه شيء أصابني دونك، فدخله وحده ووجد في جانبه ثقباً فشقّ إزاره فسدّ الثقب به فبقى ثقبان فألقمها رجليه، ثمّ قال للرّسول (ﷺ) إنزل، فدخل ووضع رأسه في حجره فنام فلدغ أبوبكر (رضي الله عنه) في رجله، من الثّقبة فلم يتحرّك مخافة أن ينتبه رسول الله (ﷺ) فسقطت دموعه من شدّة الوجع على وجه الرّسول (ﷺ) فانتبه وقال: مالك يا أبا بكر؟ فقال: لدغت فداك أبي و أمّي، فمسح رسول الله (ﷺ) مكان اللّدغ بريقه فذهب كلّ ما يجده من الألم، فلمّا استقرّ في الغار بعث الله حمامتين فعشعشتا على الغار وباضتا في العشّ وبعث العنكبوت فنسج على الغار.

موقف المشركين بعد خروج الرّسول (ﷺ): بعد أن خرج الرّسول (ﷺ) أصبحوا يفتّشون عنه، فذهبت جماعة إلى بيت أبي بكر (رضي الله عنه) وفيهم أبو جهل فوقفوا بالباب، فخرجت إليهم بنته أسماء، فقالوا: أين أبوك؟ قالت: والله لا أدري أين أبي، فرفع أبو جهل وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدها لطمة طرحت منها قرطها، فعلموا أنّه خرج مع أبي بكر، فوجدوا أثرهما فاتّبعوا الأثر إلى أن وصلوا الغار، فقال أحدهم: والله إنه لا يتجاوز الأثر هنا وأنّهما لفي الغار، وقال الآخر منهم: والله لم يدخل هذا الغار منذ ولادة محمّد ولو دخله أحد لانشقّ نسيج العنكبوت ولانكسرت بيض الحمامة، وكان أحدهم واقفاً على الغار فقال أبو بكر (رضي الله عنه): يا رسول الله إنّ أحدهم لواقف على الغار لو نظر تحت قدميه لرآنا، فقال الرّسول (ﷺ): لا تحزن إنّ الله معنا، ما ظنّك يا أبابكر بإثنين الله ثالثهما، فلم يرهما أحد ورجعوا خائبين ومن هنا يقول البويصري:

وما حوى الغار من خير ومن كرم	**وكلّ طرف من الكفّار عنه عمي**
فالصّدق في الغار والصّديق لم يرما	**وهم يقولون ما بالغار من أرم**
ظنّواالحمام وظنّوا العنكبوت على	**خير البريّة لم تنسج ولم تحم**

أعمال أبي بكر في هذه الأيام:

١- أمر إبنه عبدالله أن يسمع لهما أخبار قريش نهاره ثمّ يأتي إليهما في المساء بما يقولون.

٢ ـ أمر بنته أسماء أن تأتيهما كلّ مساء بما يصلحهما من الطّعام، فكان كلّ مساء يأتيهما عبدالله بالأخبار وأسماء بالطّعام.

٣ ـ أمر عامر بن فهيره راعي غنمه أن يرعى غنمه في رعي أهل مكة، فإذا أمسى

أراح عتمة عليهما ليحتلب منه، وإذا أصبح أتّبع عامر بالغنم أثر عبدالله وأسماء ليمحى أثرهما.

خروج الرّسول (ﷺ) وأبي بكر من الغار وذهابهما، نحو المدينة: بعد أن قضيا ثلاثة أيام في الغار وسكن عنهما النّاس أتاهما عبدالله بن أريقط الّذي استأجراه بعيريهما، ولبعير له، وأتتهما أسماء بالطّعام ونسيت أن تأتي بعصام تربط له الطّعام، فلمّا ارتحلا ذهبت لتعلّق السّفرة بالبعير فإذا ليس لها عصام فحلّت نطاقها فشقّته شقّين فعلّقت بأحدهما الطّعام وتمنطقت بالآخر، ولهذا سمّيت بعد بذات النّطاقين.

خبر الهاتف: قالت أسماء بنت أبي بكر: فانصرف رسول الله (ﷺ) فمكثنا ثلاث ليال لا ندري أين توجّه رسول الله (ﷺ)، فأقبل بعد ثلاثة أيام رجل من الجنّ يتغنّى بأبيات من شعر غناء العرب يتبعونه وهو يقول:

جزى الله ربّ النّاس خير جزائه   رفيقين حلّا خيمتي أمّ معبد

هما نزلا بالبرّ ثمّ تروّحا   فأفلح من أمسى رفيق محمّد

ليهن بن كعب مكان فتاتهم   ومقعدها للمؤمنين بمرصد

فلمّا سمعنا هذه الأبيات عرفنا أنّ رسول الله (ﷺ) توجّه إلى المدينة وكان معه ثلاثة أبوبكر (رضي الله عنه) وعامر بن فهيره مولى أبي بكر ليخدمهما وعبدالله بن أريقط ليدلّهما على الطّريق.

قصّة أمّ معبد: إنّ أمّ معبد بنت كعب إمرأة من بني كعب من خزاعة، ويحكى أنّ رسول الله (ﷺ) مرّ هو ومن معه على خيمة أم معبد فسألوهما لحماً وتمراً يشترونه فلم يجدوا عندها شيئاً، فنظر رسول الله (ﷺ) إلى شاة بكر في الخيمة، فقال (ﷺ): ما هذه الشّاة يا أمّ معبد؟ قالت: شاة خلّفها الجهد عن الغنم، فقال (ﷺ): هل بها لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال (ﷺ): أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: بأبي أنت وأمي إنّ رأيت بها حلباً فاحلبها، فدعا بها رسول الله (ﷺ) فمسح بيده ضرعها فسمى الله تعالى ودعا لها في شأنها فتفاجت عليه ودرّت وإجترت، ودعا بإناء يربض الرّهط فحلب فيه شجّاً حتّى علاه لبنها ثمّ سقاها، أي أم معبد، حتّى رويت وسقى أصحابه حتّى رووا وشرب آخرهم، ثمّ حلبها ثانيةً فملأ الإناء ثمّ تركه عند أم معبد وبايعها على الإسلام، ثمّ ارتحلوا، فما لبث أن جاء أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً فلمّا رأى اللّبن قال؟ من أين

لك هذا اللّبن يا أمّ معبد والشّاة عازب حيال ولا حلوب في البيت؟ قالت: مرّ بنا رجل مبارك وذكر القصّة، فقال: صفي لي الرّجل؟ فوصفته في كلام طويل، فقال أبو معبد: هذا والله صاحب قريش الّذي ذكر لنا من أمره كذا وكذا، لقد هممت أن أصحبه ولأفعلنّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، فبارك الله تعالى في الشّاة وعاشت إلى خلافة عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه) وعنا آمين.

قصّة سراقة: يروى عن سراقة بن مالك بن جعشم أنّه قال: لما خرج رسول الله (ﷺ) مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش مئة ناقة لمن ردّه إليهم حيّاً أو ميتاً، فبينا أنا جالس في نادي قومي إذ أقبل رجل منّا فقال: والله لقد رأيت ركبة ثلاثة إنّي لأراهم محمّداً وصحبه. فأومأت إليه أن اسكت وقلت: إنّما هم بنو فلان يبتغون لهم ضالّة فسكت، ثمّ مكثت قليلاً، ثمّ قمت فدخلت بيتي، فأمرت بفرسي فقيّد لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي فأخرج لي ثمّ أخذت قداحي فاستقسمت بها فخرج السّهم الّذي أكرهه وهو لا يضرّه، وكنت أرجو أنّ أردّ محمّداً فآخذ المائة ناقة، فركبت على أثره فبينما فرسي يشتدّ بي إذ عثر بي فسقطت عنه، فأخرجت قداحي فخرج ما أكرهه، فأبيت إلّا أن أتبعه فلمّا بدا لي القوم عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض وسقطت عنه، ثمّ انتزع بيديه من الأرض فتبعهما دخان كالإعصار، فعلمت حينما رأيت ذلك أنّه منع منّي، فناديت القوم فقلت: أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلّمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم منّي شيء تكرهونه، فقال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر (رضي الله عنه): قل له وما تبتغي منّا؟ قلت: تكتب لي كتاباً يكون آيةً بيني و بينك، قال لأبي بكر (رضي الله عنه): أكتب له، فكتب لي كتاباً ثمّ ألقاه إليّ، فأخذته ثمّ رجعت. فحينما فتح رسول الله (ﷺ) مكّة وفرغ من الطّائف وحنين خرجت ومعي الكتاب لألقاه فلقيته بالجعرانة، فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار، فجعلوا يقرعونني بالرّماح ويقولون: إليك إليك ماذا تريد؟ فدنوت من رسول الله (ﷺ) فرفعت يدي بالكتاب فقلت: يا رسول الله (ﷺ) هذا كتابك أنا سراقة بن جعشم، فقال رسول الله (ﷺ) يوم وفاء وبرّ ادنُ، فدنوت منه فأسلمت، هذا وحينما رجع سراقة حينما اتّبع الرّسول (ﷺ) يوم الهجرة بدون شيء لامه أبو جهل فقال له سراقة هذه الأبيات:

أباحكم والله لو كنت شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

علمت ولم تشكك بأنّ محمّداً ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه

عليك بكفّ القوم عنه فإنّني أرى أمره يوماً سيبْدو معالمه
بأمر يودّ النّاس فيه بأسرهم بأنّ جميع النّاس طرّاً يسالمه

قدوم الرّسول قباء: لقد كان أهل المدينة سمعوا بخروج الرّسول (ﷺ) فأصبحوا ينتظرون قدومه، فكانوا يخرجون بعد صلاة الصّبح إلى الحرّة ينتظرونه، فما يرجعون حتّى تغلبهم الشّمس، حتّى كان اليوم الّذي قدم فيه، فجلسوا كسائر الأيام حتّى إذا لم يبق ظلّ فدخلوا بيوتهم وقدم الرّسول (ﷺ)، فأوّل من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة هذا جدّكم قد جاء، فخرجوا إليه وهو في ظلّ نخلة ومعه أبو بكر (رضي الله عنه) في مثل سنّه، فما كانوا يعرفون الرّسول حتّى زال الظّل، فقام أبو بكر (رضي الله عنه) يستظلّه بردائه فعرفوا أنّه هو. وكان وصول رسول الله (ﷺ) قباء يوم الإثنين لإثني عشر من ربيع الأوّل، فأقام بقباء أربعة أيام وأسّس مسجده هناك. ثمّ خرج من قباء فاعترضه في الطّريق عتبان بن مالك وعبّاس بن عبادة في رجال من بني سالم، فقالوا: يارسول الله: أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعة، قال (ﷺ): أخلوا سبيلها، أي سبيل ناقته فإنّها مأمورة، فخلّوا سبيلها، فنطلقت حتّى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة ابن عمر في رجال بني بياضة، فقالوا: يا رسول الله هلمّ إلينا إلى العدد والعدّة، فقال: خلّوا سبيلها فإنّها مأمورة، وهكذا كلّما مرّ بقبيلة إستقبله رئيسها ورجالها، وقالوا: إنزل عندنا يا رسول الله في العدد والعدّة والمنعة، فيقول لهم: خلّوها فإنّها مأمورة، حتّى إذا أتت دار بني مالك بن النّجار بركت على موضع هو باب مسجده الآن وهو مربد لغلامين يتيمين من بني النّجار، فلمّا بركت ورسول الله (ﷺ) عليها لم ينزل، فوثبت وسار غير بعيد ثمّ التفتت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها الأول، فبركت فيه ثمّ تحلحلت ورزمت ووضعت جرانها، فنزل عنها رسول الله (ﷺ)، فاحتمل أبو أيّوب وهو خالد بن زيد رحلة فوضعه في بيته ونزل (ﷺ) وسأل عن المربد؟ فقال معاذ بن عفراء: هو لسهل وسهيل يتيمان لي وسأرضيهما منهنّ، فأمر رسول الله (ﷺ) أن يبني مسجداً ونزل رسول الله (ﷺ) على أبي أيّوب حتّى بنى مسجده ومساكنه فانتقل إليها، وكان رسول الله يعمل بنفسه في بناء المسجد ليرغب المهاجرين والأنصار في العمل فيه، فدأبوا على العمل فيه ويقولون:

لئن قعدنا والنبيّ يعمل لذاك منّا العمل المضلّل

وكان الرّسول وأصحابه يرتجزون ويقولون:

لا عيش إلّا عيش الآخرة ألّلهم ارحم الأنصار والمهاجرة

فسكن الرّسول (ﷺ) وأصحابه المهاجرون في المدينة واستقرّوا بها وبنوا دولة الإسلام وفتحوا البلاد والعباد وأقاموا العدل في هذه المعمورة، فصلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتّبعهم بإحسان إلى يوم القيامة، وكتب لنا حسن القيام والخاتمة آمين.

※ ※ ※

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

(انفروا) أيّها المؤمنون أي أخرجوا للجهاد **(خفافاً)** شباباً **(وثقالاً)** وشيوخاً **(وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل)** نشر دين **(الله)** تعالى وإعلاء كلمته وحكمه **(ذلكم)** أي الجهاد **(خير لكم)** من تركه بالنّسبة للدّنيا حيث تسودون ويكون لكم العزّة في الآخرة حيث يثيبكم الله تعالى على ذلك أجراً عظيماً.

تنبيه: حيث إن الآية سبقت التّنبيه، والآيات بعدها إلى آخر السّورة تتعلّق بغزوة تبوك، ولذلك نودّ أن نذكر قصّة هذه الغزوة لتكون على بصيرة في معنى الآيات المتعلّقة بها فنقول: في آخر شهر رجب من السّنة التّاسعة للهجرة أمر الرّسول (ﷺ) النّاس وناداهم بالتهيّؤ لغزو الرّوم، وكان ذلك في وقت عسرة وشدّة من الحرّ وجدب من البلاد، وحينما طابت الثّمار والنّاس يحبّون المقام في المدينة بين ثمارها وظلالها، وكان رسول الله (ﷺ) قلّما يخرج في غزوة إلّا كنى عنها ولم يصرّح بها إلّا ما كان من غزوة تبوك، فإنّه قد بيّنها للنّاس لبعد الشّقة وشدّة الزّمان وكثرة العدوّ الّذي يصمد له ليتأهّب النّاس لذلك أهبتهم، فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنّه يريد الرّوم، فجاء جدّ بن قيس رسول الله (ﷺ) فقال يا جدّ: هل لك العلم في بلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنّه ما من رجل أشدّ عجباً بالنّساء منّي، فأخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهنّ، فأعرض رسول الله (ﷺ) وقال: قد أذنت لك، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين﴾ سورة التوبة الآية/ ٤٩. وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: (لا تَنْفِروا فِي الْحَرِّ) فأنزل الله تعالى إليهم: ﴿قُلْ نارُ جهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ

كانوا يَفْقَهون﴾ سورة التّوبة الآية/ ٨١. ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) جد في سفره وأمر النّاس بالجهاد وحضّ أهل الغنى على النّفقة والحملان، فحمل رجال واحتسبوا؟، فأنفق عثمان بن عفّان في ذلك نفقة عظيمة، فقال رسول الله (ﷺ): (اللّهم ارض عن عثمان فإنّي راض عنه)[١]. وجاء جماعة رسول الله (ﷺ) وهم من الأنصار فطلبوا من رسول الله (ﷺ) أن يحملهم حيث كانوا أهل حاجة لم يجدوا أهبّة السّفر فقال (ﷺ): لا أجد ما أحملكم (فَتَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفيضُ مِنَ الدَّمْعِ)، وجاء بعض النّاس فاعتذروا إليه (ﷺ) فلم يعذرهم الله تعالى، فأجمع رسول الله (ﷺ) السّير وقد أبطأ نفر من المؤمنين وتخلّفوا عنه من غير شك وإرتياب ونفاق، وكانوا أهل صدق لا يتّهمون في إسلامهم، فخرج رسول الله (ﷺ) واستعمل على المدينة محمد بن سلمة الأنصاري وضرب عسكره بثنية الوداع. وضرب عبدالله بن أبي عسكره أسفل منه، فلما سار رسول الله (ﷺ) تخلّف عنه فيمن تخلّف من المنافقين، وخلّف رسول الله (ﷺ) علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على أهله وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف المنافقون وقالوا: ما خلفه إلّا تخفّفاً منه، فلمّا قال المنافقون ذلك أخذ عليّ (رضي الله عنه) سلاحه وخرج حتّى أتى رسول الله (ﷺ) وهو بالجرف فقال له: زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني إستثقالاً منّي فتخفّفت منّي؟ فقال (ﷺ): كذبوا، ولكنّي خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي أفلا ترضي أن تكون منّي بمنزلة هرون من موسى إلّا أنّه لا نبيّ بعدي، فرجع عليّ (رضي الله عنه) إلى المدينة، ومضى رسول الله (ﷺ).

شأن أبي خيثمة:

تخلّف أبو خيثمة عن رسول الله (ﷺ)، فبعد أن مضى الرّسول (ﷺ) رجع أبو خيثمة إلى أهله في يوم حارّ فوجد إمرأتيه قد رّشت كلّ واحدة منهما عريشها له وبرّدت له فيه ماء وهيأت له طعاماً، فقام على باب العريش ونظر إلى ما صنعت له! فقال: رسول الله (ﷺ) في الشّمس والحرّ وأبو خيثمة في الظّل والبرد، ما هذا بالإنصاف، وقال: والله لا أدخل على واحدة منكما. فهيّئا لي زاداً لألتحق برسول الله (ﷺ) ففعلتا، فخرج حتّى أدركه وهو نازل بتبوك. فلمّا دنا من تبوك قال النّاس: هذا راكب على الطّريق مقبل فقال الرّسول (ﷺ): كن أبا خيثمة، فقالوا له: والله هو أبو خيثمة، فلمّا

---

(١) الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ٢/ ٢٧٢.

أناخ راحلته أقبل فسلمّ على رسول الله (ﷺ) فقال له: أولى لك يا أبا خيثمة، أي دنوت من الهلاك، ثمّ قصّ للرّسول (ﷺ) قصّته فدعا له بخير، فأنشد أبو خيثمة وإسمه مالك بن قيس هذه الأشعار:

ولمّا رأيت النّاس في الدّين نافقوا ... أتيت الّتي كانت أعفّ وأكرما

وبايعت باليمنى يدي لمحمّد ... فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرّما

تركت خضيبا في العريش وصرمة ... صفايا كراماً بسرها قد تحمّما

وكنت إذا شك المنافق أسمحت ... إلى الدّين نفسي شطره حيث يمّما

النّبيّ والمسلمون بحجر ثمود: مرّ رسول الله (ﷺ) بحجر ثمود فنزلها فاستغنى النّاس من بئرها فقال (ﷺ): لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضّؤوا للصّلاة منها، وما عجنتم بماءها من عجين فأعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً، ولا يخرجنّ أحد اللّيلة إلّا ومعه صاحب له، وامتثل النّاس أمره إلّا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته فخنق على مذهبه، وخرج الآخر في طلب بعير له فاحتمله الرّيح حتّى طرحته في بني طي، فأخبروا بذلك رسول الله (ﷺ) فقال: ألم أنهكم أن لا يخرج إلّا ومعه صاحب له، ثمّ دعا للّذي خنق فشفاه الله تعالى. وأمّا الآخر فأخذه بنو طي وأهدوه إلى رسول الله (ﷺ) بعد قدومه المدينة. وعن الزّهري أنّه لما مرّ رسول الله (ﷺ) بالحجر سجى ثوبه على وجهه وأسلخت راحلته وقال: لا تدخلوا بيوت الّذين ظلموا أنفسهم إلّا وأنتم باكون. فلمّا أصبح النّاس ولا ماء لهم شكوا ذلك إلى رسول الله (ﷺ)، فدعا الله تعالى فأرسل الله تعالى سحابة فأمطرت حتّى ارتوى النّاس وملأوا أوعيتهم.

حديث أبي اللّصيت: إنّ رسول الله (ﷺ) سار حتّى إذا كان ببعض الطّريق ضلّت ناقته فخرج أصحابه في طلبها وكان في رحله زيد بن اللّصيت القينقاعي، وكان منافقاً، فقال: أليس يزعم محمّد أنّه نبيّ ويخبركم عن خبر السّماء وهو لا يدري أين ناقته، فقال محمّد (ﷺ) وهو بين أصحابه: إنّ رجلاً قال هذا محمّد يخبركم أنّه نبي ويزعم أنّه يخبركم بأمر السّماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنّي والله ما أعلم شيئاً إلّا ما علّمني الله، وقد دلّني الله تعالى عليها وهي في شعب كذا حبستها شجرة بزمامها، فذهبوا فوجدوها كما قال (ﷺ)، فرجعوا بها، فأقبل عمارة على زيد وهو ابن اللّصيت فكان يجافي عنقه وهو يقول: هلمّوا إليّ عباد الله فإنّ في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج يا عدوّ الله من رحلي فلا تصحبني فطرده، ويقال إنّ زيداً تاب بعد ذلك.

قصة أبي ذرﷺ: كان النّاس يقولون في هذا السّفر لرسول الله (ﷺ): تخلّف فلان، فيقول: دعوه فإن يك فيه خير فيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتّى قيل: يا رسول الله قد تخلّف أبو ذر، فقال: دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه، ومكث أبو ذر على بعيره، فلمّا أبطأ به نزل عنه، وأخذ متاعه فحمله على ظهره، ثمّ خرج يتبع أثر رسول الله (ﷺ) ماشياً ونزل رسول الله (ﷺ) في بعض منازله، فنظر أحد من المسلمين فقال: يا رسول الله إنّ هذا لرجل يمشي على الطّريق وحده فقال (ﷺ): كن أبا ذر، فلمّا تأمّله القوم قالوا: يا رسول الله (ﷺ) هو والله أبو ذر، فقال (ﷺ): رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده[1]، فعاش أبو ذر إلى خلافة سيّدنا عثمان (ﷺ) فنفاه عثمان (ﷺ) لأمر ما إلى الربذة وأصابه بها قدر الله تعالى، ولم يكن معه إلّا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن إغسلاني وكفّناني ثمّ ضعاني على قارعة الطّريق فأوّل ركب مرّ بكم فقولوا: هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ﷺ) فأعينونا على دفنه، فأقبل عبدالله بن مسعود (ﷺ) في رهط من أهل العراق ذاهبين إلى العمرة، فلم يرعهم إلّا بالجنازة على قارعة الطّريق كادت الإبل أن تطأها، فقام إليهم الغلام فقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله (ﷺ) فأعينونا على دفنه، فاستهلّ عبدالله بن مسعود (ﷺ) يبكي ويقول: صدق رسول الله (ﷺ) حين قال: (تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك)، ثمّ نزل هو وأصحابه فدفنوه ثمّ حدّثهم عبدالله بن مسعود (ﷺ) ما قاله رسول الله (ﷺ) في مسيره إلى تبوك.

تخذيل المنافقين: كان رهط من المنافقين يشيرون إلى رسول الله(ﷺ) وهو يسير إلى تبوك، فيقول بعضهم لبعض: أتحسبون جلّاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعضهم؟ والله لكأنّنا بكم غداً مقرّنين في الجبال، ويقولون ذلك لبث الأراجيف والخوف بين المسلمين، فقال أحدهم وهو مخشن بن حمير: والله لوددت أنّي أُقاضيَ على أن يضرب كلّ منّا مئة جلدة وأن ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، فقال رسول الله (ﷺ) لعمّار بن ياسر: أدرك القوم فإنّهم احترقوا فسلهم ما قالوا؟ فإن أنكروا فقل لهم: بلى قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمّار، فقال ذلك لهم؛ فأتوا رسول الله (ﷺ) يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله إنّا كنّا نخوض ونلعب فأنزل تعالى قوله: ﴿ولئن سألتهم ليقولنّ إنّا كنّا نخوض ونلعب﴾ وسيأتي تفسير الآية وما يتعلق بها إن شاء الله تعالى.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣/ ٥٢ الحديث رقم ٤٣٧٣. وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

مآل السّفر إلى تبوك: لمّا وصل رسول الله (ﷺ) تبوك أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة، فصالح رسول الله (ﷺ) على أن يعطيه الجزية، فكتب الرسول الله (ﷺ) كتاباً ليحنة هذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمّد النّبي رسول الله ليحنة ابن رؤبة وأهل أيلة سُفنهم وسيّارتهم في البرّ والبحر، لهم ذمّة الله تعالى وذمّة محمّد النّبي ومن كان معهم من أهل الشّام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنّه لا يحول ماله دون نفسه، وأنّه طيب لمن أخذه من النّاس، وأنّه لا يحلّ أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من برّ وبحر. فرجع رسول الله (ﷺ) ولم يلق حرباً. والحمد لله ربّ العالمين. القصّة ملخّصة من سيرة ابن هشام.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يلوم الّذين قعدوا عن الجهاد ويعتذرون، فقال جلّ وعلا:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

إعلم أنّ هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ نزلت في غزوة تبوك حينما تثاقل بعض المؤمنين عنه حينما دعاهم الرّسول إلى جهاد الرّوم، واعتذر المنافقون فقال جلّ وعلا: **(لو كان)** بدل ما دعوا إليه من جهاد الرّوم في تبوك **(عرضاً)** مالاً **(قريباً وسفراً قاصداً)** أي سهلاً **(لاتّبعوك)** هؤلاء الّذين تخلّفوا عنك رغم أنّ دعوتهم **(ولكن بعدت عليهم الشّقة)** أي السّفر، سمّي شقّةً لأنّ فيه المشقّة **(وسيحلفون)** أي المنافقون **(بالله)** ويقولون

والله **(لو استطعنا لخرجنا معكم)** إلى هذه الغزوة **(يهلكون أنفسهم)** بالأيمان الكاذبة حيث **(والله يعلم إنّهم لكاذبون)** في هذه الأيمان فيهلكهم بها، وحينما اعتذروا وحلفوا لرسول الله آنّهم معذورون أذن لهم رسول الله (ﷺ) في عدم الخروج معه فقال تعالى: **(عفا الله عنك)** أيها النّبيّ ف **(لم أذنت لهم)** فما كان من حقّك أن تأذن لهم **(حتّى)** تحقّق من حالهم و**(تبيّن لك الّذين صدقوا)** في اعتذارهم **(وتعلم الكاذبين)** منهم في الإعتذار، وقدّم تعالى قوله: **(عفا الله عنك)** لئلّا يتألم قلب الرّسول بقوله: **(لم أذنت لهم)** فيعلم قبل هذا العتاب أنّه عفا الله عنه ولا إثم عليه، ثمّ أخبره الله تعالى بأنّ الّذين استأذنوه لم يكونوا مؤمنين بل منافقين فقال جلّ وعلا: **(لا يستأذنك)** في التّخلّف عن الجهاد بعد ما دعوت اليه **(الّذين يؤمنون بالله)** إيماناً صادقاً **(واليوم الآخر)** يقيناً فلا يتخلّفون عن **(أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين)** عن التّخلف عن الأمر وعن الخروج معك للجهاد فيثيبهم ثواباً جزيلاً في الدّنيا والآخرة **(إنّما يستأذنك)** في التّخلف عن الجهاد **(الّذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر)** إيماناً صادقاً بل هم منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، فهؤلاء يعتذرون عن أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم **(وارتابت قلوبهم)** أي وشكّت قلوبهم في أنّك رسول الله تعالى **(فهم في ريبهم)** أي شكّهم **(يتردّدون)** يتحيّرون. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر علامة كذبهم في أنّهم يريدون الخروج إلّا أنّهم معذورون فقال جلّ وعلا: **(لو أرادوا الخروج)** معك **(لأعدّوا له)** للخروج **(عدّة)** هي ما يهيأ للسّفر للجهاد من السّلاح والمتاع **(ولكن)** لم يعدّوا شيئاً لأنّ الله تعالى **(كره إنبعاثهم)** خروجهم مع المؤمنين لخبث نيّتهم وعقيدتهم **(فثبّطهم)** فكسّلهم عن الخروج **(وقيل)** لهم من الله قولاً تكوينياً **(اقعدوا مع القاعدين)** فلم يخرجوا والقاعدون هم الصبيان والمرضى والنّساء فيكون ذمّاً لهم أي كونوا مثلهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّه لماذا ثبّطهم عن الخروج فقال جلّ وعلا:

﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

(**لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً**) أي ضرراً، وذلك لأنّهم لو خرجوا معكم أفسدوا (**ولأوضعوا**) أي أسرعوا في المشي ليقعوا ويمشوا (**خلالكم**) بين المؤمنين (**يبغون**) بالمشي بينكم (**الفتنة**) التّفرقة بينكم بالنّميمة والأقوال الباطلة (**وفيكم سمّاعون لهم**) من ضعفاء الإيمان (**والله عليم بالظّالمين**) أي بهم وبظلمهم، ولهذا لم يرد أن يخرجوا معكم (**لقد ابتغوا الفتنة**) أي الحاق الضّرر بكم (**من قبل**) أي من قبل هذا الوقت (**وقلّبوا**) أي ودبّروا (**لك**) أي لعداوتك وصدّ النّاس عنك أنواع (**الأمور**) من المكايد والحيل عند أوّل مجيئك إلى المدينة (**حتّى جاء الحقّ**) أي ثبت الإسلام في قلوب النّاس (**وظهر**) أي وغلب (**أمر الله**) عليهم بأن فشى الإسلام في المدينة وقوّاه الله تعالى (**وهم كارهون**) لقوّة الإسلام وغلبته (**ومنهم من يقول ائذن لي**) في التّخلّف عن غزوة تبوك (**ولا تفتنّي**) ولا توقعني في الإثم بسبب التّخلف بدون إذنك، وقيل: إنّ الجدّ بن قيس قال: ائذن لي في القعود ولا تفتنّي فإنّي رجل مغرم بالنّساء، فأخاف إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر عنهم، فأقع في الفتنة فقال تعالى لهم: (**ألا في الفتنة**) سقطوا في النّفاق وهو أكبر إثماً من الإثم الّذي يحترزون منه كذباً وزوراً (**وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين**) أي بهم وإنّما ذكروا بلفظ الكافرين للأشعار بأنّهم كفار وإنّ جهنّم محيطة بهم لكفرهم ونفاقهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما في نفوسهم من الحقد والكراهيّة للرّسول (ﷺ) والمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(**إن تصبك**) أيّها النّبيّ (**حسنة**) من النّصر والغلبة على الأعداء (**تسؤهم**) تحزنهم ذلك (**وإن تصبك مصيبة**) من غلبة الأعداء عليكم (**يقولوا قد أخذنا أمرنا**) أي إحتياطنا وحرزنا (**من قبل**) قبل وقوع المصيبة حيث لم نخرج معهم (**ويتولّوا**) عنك (**وهم**

فرحون) بمصيبتكم هذه **(قل لن يصيبنا)** من خير وشر **(إلّا ما كتب الله لنا)** ونحن راضون بما قدر الله تعالى **(وهو مولانا)** أي متولّي أمورنا يتولّانا حيث يشاء **(وعلى الله فليتوكّل المؤمنون)** لأنّه هو المتولّي لكلّ الأمور والمتصرّف في العباد والبلاد **(قل هل تربّصون بنا)** الإستفهام للإنكار أي ما تنتظرون بنا **(إلّا إحدى الحسنين)** إمّا النّصر والغلبة على الأعداء أو الشّهادة ولقاء الله تعالى بالرّضاء، فأيّتهما وقعت فهي خير لنا **(و)** لكن نحن **(نتربّص بكم)** أيّها المنافقون إحدى السّوءين فإمّا **(أن يصيبكم الله بعذاب من عنده)** فهذه أحدهما **(أو)** بعذاب **(بأيدينا)** بأن يأمرنا بقتالكم ويظفرنا عليكم **(فتربّصوا)** أنتم ذلك **(إنّا معكم متربّصون)** ذلك، ففعل الله تعالى ذلك وأظهر عليهم المؤمنين فأذلّوهم فأجلوا بعضهم وقتلوا بعضهم، وكان بعض المنافقين يعتذرون عن الخروج ويقولون للرّسول (ﷺ): نحن لا نستطيع فأذن لنا بالتّخلف ونعينك بأموالنا، فقال جلّ وعلا في حقّهم:

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

(قل) لهم أيها النّبيّ **(أنفقوا)** أموالكم للجهاد **(طوعاً)** بإختياركم **(أو كرهاً)** وتخلّصاً من المسلمين ومن الذهاب للجهاد، فعلى كلّ حال **(لن يتقبّل منكم)** في الدّنيا فلا يأخذ الرّسول (ﷺ) ولا في الآخرة لأنّ من شرط قبول الأعمال في الآخرة والثّواب عليها الإيمان، وهو لم يوجد منهم كما صرح تعالى بذلك، فقال جلّ وعلا: **(إنّكم كنتم قوماً فاسقين)** أي خارجين عن الطّاعة والإنقياد إلى الحقّ **(وما منعهم)** أي هؤلاء المنافقين من **(أن تقبل منهم نفقاتهم إلّا أنّهم)** أي كونهم **(كفروا بالله)** فلا يؤمنون به إيماناً صحيحاً، حيث ينسبون إليه ما لا يليق به **(ورسوله)** أي وكفروا برسوله محمّد (ﷺ) **(ولا يأتون إلى الصّلاة إلّا وهم كسالى)** لأنّهم لا يؤدّونها إيماناً بل خوفاً وتستراً من المسلمين **(ولا ينفقون)** الأموال في سبيل الخير **(إلّا وهم كارهون)** الإنفاق حيث **لا** يؤمنون بهذا الإنفاق فيعدّونها مغرماً.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾

إنّ كثيراً من النّاس يتعجّب حينما يرى ثروة الكافر وغناه وقوّته وكثرة أمواله ويقول كيف يعطيه الله هذه النّعم وهو كافر؟ فقال تعالى: **(فلا تعجبك)** أيّها المسلم **(أموالهم)** أي أموال الكافرين الكثيرة **(ولا أولادهم)** الكثيرون فإنّ الله تعالى لم يهبهم هذه الأموال والأولاد حبّاً لهم وإنعاماً عليهم حيث **(إنّما يريد الله)** تعالى بهبته النّعم للكافر والفاسق **(ليعذّبهم بها)** أي بتلك النّعم **(في الحياة الدّنيا)** لأنّ الأموال والأولاد يورث التّعب والمشقّة لصاحبها في الدّنيا، ويريد الله بإعطائهم هذه النّعم إستدراجهم لأن يغتروا **(وتزهق)** أي تخرج **(أنفسهم)** أرواحهم حين الموت **(وهم كافرون)** لأنّهم يغترّون بتلك النّعم فلا يؤمنون فيموتون وهم كفار. هذا ما قاله المفسرون **وعندي**: أنّ اللّام في قوله تعالى ليعذّبهم لام العاقبة، فالمعنى: لا تعجبك أموال الكافر وأولاده لأنّ عاقبة أموالهم وأولادهم أنّهم يتعبون بها في الدّنيا ويموتون وهم كفار فلا يستفيدون منها سوى التّعب في الدّنيا والعذاب في الآخرة. ومعنى إرادة الله تعالى ذلك خلقه التّعب في الدّنيا لهم والموت كفاراً بسبب خبث نيّتهم وقبح أعمالهم وسوء إرادتهم وكرههم للحقّ.

ثمّ أراد الله تعالى أن يكشفهم ويخبر بأنّهم يكذبون الرّسول فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(ويحلفون) أي يقسمون ويقولون **(إنّهم لمنكم)** أي هم مسلمون **(وما هم منكم)** أي ليسوا من المسلمين **(ولكنّهم قوم يفترون)** لأنّهم يخافون من المسلمين، فلذلك يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر **(لو يجدون ملجأً)** مكاناً أو قوّة يلجأون إليها فيحفظهم منكم **(أو مغارات)** أي كهوفاً يدخلونها ليتستروا عنكم **(أو مدخلاً)** متدخّلاً أي مكاناً للدّخول فيه ليختفوا عنكم قلبت التّاء دالاً فأدغمت فيه **(لولّوا)** لأعرضوا عنكم وذهبوا إلى ما ذكر **(وهم يجمحون)** أي يسرعون في المشي واللّحوق بذلك المكان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّهم يطعنون في الرّسول ويلومونه فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(ومنهم من يلمزك) أي يعيبك **(في)** تقسيم **(الصّدقات)** أي أموال الزّكاة **(فإن أعطوا منها)** من الصّدقات بقدر ما يريدون **(رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)** أي يغضبون ويلومونك يا محمّد (ﷺ) **(ولو أنّهم رضوا)** إقتنعوا حيث أخذوا **(ما آتاهم الله ورسوله)** من الغنائم **(وقالوا حسبنا الله)** وماقدر لنا **(سيؤتينا الله من فضله)** ونعمه ورزقه **(ورسوله)** من الغنائم وقالوا: **(إنّا إلى الله)** أي إلى رضائه وحكمه **(راغبون)** لكان خيراً لهم ممّا قالوا في حقّ الرّسول والعيب عليه في تقسيمه الصّدقات، فإنّهم لا حقّ لهم في الصّدقات لأنّهم أغنياء، والصّدقات لا يعطى للأغنياء بل إنّ الصّدقات خصّت بجماعات هم ليسوا منها. فبيّن الله تعالى تلك الجماعات الّذين يستحقّون الزّكاة فقال جلّ وعلا:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾

(إنّما الصّدقات) جمع صدقة وهي الزّكاة، سميّت صدقةً لأنّ الصّدقة هي كلّ ما أنفق في سبيل الله تعالى فرضاً أو نفلاً، لأنّها علامة على صدق المسلم في إسلامه والمؤمن في إيمانه. فالصّدقات الواجبة لا تعطى إلّا **(للفقراء)** جمع فقير وهو ما يملك من حاجاته من العشرة ثلاثاً ويحتاج إلى سبع **(والمساكين)** جمع مسكين وهو من يملك سبعاً ويحتاج إلى ثلاث **(والعاملين عليها)** أي على الزّكاة وهم الجباة **(والمؤلّفة)** أي والجماعة الّتي يريد الإمام تأليف قلوبهم، وجعلهم يحبّون الإسلام، وهم الّذين أسلموا من جديد، أو جماعات من الكفرة قريبين من الحدود يعطى لهم ليحبّوا المسلمين ويمنعوا الحدود أو يسلموا في المستقبل، أو أشخاص يجلبون إلى الإسلام والإيمان بالعطايا والإحسان إليهم **(وفي)** تحرير **(الرّقاب)** أي العبيد من الرّق يعطون ليحرّروا به أنفسهم من الرّق **(والغارمين)** أي والمديونين يعطون بقدر ما يفي ديونهم ثمّ يعطون من حصّة الفقراء إن كانوا منهم **(وفي سبيل الله)** أي وفي المشاريع العامة ومصالح الإسلام ويدخل فيها تجهيز الجيوش وتسليح الغزاة وإعداد المسيرة لهم **(وابن السبيل)** من نفذ ماله وهو في السّفر بعيداً عن أهله وإن كان في بيته وبلده غنيّاً **(فريضةً)** أي فرض هذا التّقسيم **(من الله)** تعالى فلا دخل للرّسول فيه، فلماذا يلومه المنافقون **(والله عليم)** بحال العباد **(حكيم)** في تقسيم العطايا والصّدقات بينهم هذا.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: إنّ الآية نصّت على أنّ الزّكاة مختصّة بهذه الأصناف الثّمانية، فلا يجوز إعطاؤها لواحد لم يتّصف بصفة من هذه الصّفات الثّمانية: الفقر أو المسكنة أو جباية الزّكاة أو مؤلّفة القلوب أو المديونيّة أو الرّقاب أو السّفر أو كان الصّرف في عمل هو في سبيل الله ومن المصالح العامّة.

المسألة الثّانية: إختلف العلماء في تفسير (في سبيل الله) فقال بعضهم: سهم في سبيل الله يصرف للجيش فقط ولا يعطى لغير ذلك. وقال بعضهم: يجوز إعطاؤه لمن يريد أن يحجّ ولا نفقة لديه، ويروي ذلك عن الحسن البصري (ﷺ)، وإليه ذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه (ﷺ). وقال بعضهم: إنّ اللّفظ عامّ في كلّ ما كان في الأمور العامّة ومصالح المسلمين، فيجوز صرفه في جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الجسور والحصون والمساجد والمدارس الدّينيّة وغير ذلك من المصالح العامّة.

المسألة الثّالثة: من كان عليه الزّكاة يجب عليه أن يوزع المقدار الّذي عليه ويستوعب الأصناف الثّمانية فلا يجوز صرفه لصنف واحد و يجب أن يستوعب من كلّ صنف ثلاثة أشخاص على الأقل، فلا يجوز الإقتصار على شخص واحد حيث إنّ الآية قسّمت بين هذه الأصناف وذكر كلّ صنف بالجمع، وأقلّ الجمع ثلاثة إلّا أنّه إذا إنعدم صنف أو أكثر فيوزّع على الأصناف الموجودين، وهذا مذهب الشّافعي (ﷺ). وقال بعضهم: إنّما سمّى الله تعالى هذه الأصناف الثّمانية إعلاماً منه أنّ الصّدقة لا تَخرُج عن هذه الثّمانية لا إيجاباً لقسمتها بين الجميع[١]، وهذا مذهب أحمد بن حنبل والأحناف، ونقل عن عمر وبن عباس من الصّحابة وبه قال سعيد بن جبير وعطاء وسفيان الثوري (ﷺ) آمين. وقال أحمد (ﷺ): إلّا أنّ تفريقها على الأصناف أولى. وقال إبراهيم النّخعي (ﷺ): إن كان المال كثيراً وزّعها وإن كان قليلاً وضعه في صنف واحد أو شخص واحد حسب القلّة والكثرة، وقال مالك (ﷺ): يتحرّى موضع الحاجة منهم ويقدم الأولى فالأولى.

المسألة الرّابعة: لا يجوز صرف الزّكاة إلى كلّ من يجب على المزكّي نفقته عند مالك وأحمد (ﷺ). وقال أبو حنيفة والشّافعي (ﷺ): لا يجوز للأصل وإن علا ولا للفرع وإن نزل ولا للزّوجة ويعطى من عداهم.

---

(١) أي لا تصرف لغير هذه الأصناف ولكن يجوز صرفها لصنف واحد منها. فلا يدل على وجوب استيعاب جميع الأصناف.

المسألة الخامسة: كره أكثر أهل العلم نقل الزّكاة من بلد إلى بلد آخر مع وجود المستحقين في البلد المنقول منه، ولم يكرهه البعض، واتّفق الكلّ على أنّه لو نقل سقط الفرض عن النّاقل، إلّا أنّ عمر بن عبدالعزيز (رضي الله عنه) ردّ صدقة حملت من خراسان إلى الشّام فردّها إلى مكانها من خراسان والله تعالى أعلم.

* * *

فائدة: في بيان الحكمة في وجوب الزّكاة وهي أمور: الأول: إيجاد الحبّ والتّرابط بين الأغنياء والفقراء وإزالة الكراهة والحسد من بينهم.

الثّاني: التّقليل من صفة البخل وحبّ المال من الأغنياء، فإنّ البخل صفة مذمومة عند الله تعالى وعند النّاس أجمعين.

الثّالث: إيجاد صفة البذل والجود في قلوب الأغنياء، فإنّ الجود صفة من صفات الله تعالى وبه يكون العبد محبوباً عند الله تعالى وعند النّاس.

الرّابع: إنّ الجمعة الإنسانية كلّها عائلة واحدة، فمن الدّناءة والخساسة عدم مواساة بعض أفرادها بعضاً. ومن الواجب الإنساني أن يقوم الإنسان بسدّ حاجة أخيه الإنسان قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات الآية/ ١٣. أي أتقاكم وأحوطكم في الحفاظ على هذا التّعارف والتّحابب والتّرابط البشري والإنساني.

الخامس: أن يتقلّل الإفراط في الغنى، فإنّ الثّروة إذا كثرت توجب الطّغيان قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ سورة القلم الآيتان/ ٦، ٧.

السّادس: إنّ المال كلّه لله تعالى يوسع على من يشاء ويقتر على من يشاء وأصحاب الأموال وكلاء عن الله تعالى فأمرهم بأن يسدّ الغني من مال الله الّذي عنده حاجة المحتاجين وبعكس ذلك يستحقّ العذاب الأليم ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ سورة التّوبة الآية/ ٣٦[١].

* * *

(١) وثمة أمر آخر هو أن الزكاة طريقة من طرق توزيع الثروة بين الناس لإيجاد حد الكفاية لجميع أفراد المجتمع.

تنبيه: ليس حقّ المحتاجين في أموال الأغنياء الزّكاة فقط، بل كلّما وجد محتاج يجب على الأغنياء سدّ حاجته، فإن امتنعوا أجبرهم الحاكم على ذلك، وأخذ منهم قهراً إن لم يف بذلك بيت المال، فالدّولة مسؤولة عن حاجته، فإن لم تفعل فيجب على المسلمين إجبار الدّولة على ذلك، فإن لم يستطيعوا يجب أن يجمع الأغنياء من بينهم ما يكفي لسدّ حاجات المحتاجين، ويجب صرف جميع ما زاد عن حاجتهم في سدّ حاجة المحتاجين إن إقتضى الأمر ذلك، قال تعالى: ﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٩. أي قل لهم فلينفقوا كلّ ما زاد عن حاجاتهم إذا إقتضى الأمر ذلك. وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له قال: فذكر (ﷺ) من أصناف المال ما ذكر حتّى رأينا أنّه لا حقّ لأحد منّا في فضل)[1]، وهذا إجماع الصّحابة (رضي الله عنهم)، وقال عمر رضي الله عنه: لو إستقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول مال الأغنياء فقسّمتها بين الفقراء. وقال عليّ رضي الله عنه: إنّ الله تعالى فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء حقّهم، فحقّ على الله أن يحاسبهم يوم القيامة ويعاقبهم[2]، وقال (ﷺ): (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً)[3]، فهذا تعريف المؤمن ومن لم يكن كذلك فليس بمؤمن، وإذا كان هناك محتاج فلم يشدّوه ولم يدفعوا حاجته فلا تشادّ بينهم فلا يسمّون مؤمنين. وقال (ﷺ): (مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى)[4] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الّتي توجب على المؤمنين دفع حاجة المؤمن من أي جهة كانت حاجته وبعكس ذلك فلا يعتبر المجتمع مجتمعاً إسلاميّاً ومن أظهر ما يدلّ على أنّ الواجب في مال المسلم ليس الزّكاة فقط قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٤ الحديث رقم ١٧٢٨.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٧/ ٢٣ الحديث رقم ١٢٩٨٥.

(٣) صحيح البخاري ١/ ١٨٢ الحديث رقم ٤٦٧.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٩ الحديث رقم ٢٥٨٦.

الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧٧. فذكر إيتاء الزّكاة بعد الأمر بإيتاء المال لهؤلاء يدل على أنّ هذا الإيتاء غير الزّكاة بدليل أنّه ذكر في المؤتى له ذوي القربى واليتامى والسّائلين وهم ليسوا من الأصناف الّذين يصرف لهم الزّكاة كما سبق.

والحاصل أنّ الإسلام لا يقبل أن يكون في مجتمعه محتاج، فما ترى من المجتمعات الإسلاميّة والّذين يوجد فيهم المحتاجون فليسوا إسلاميين حقّاً وصدقاً، بل كذباً وافتراءً، فهل لك يا أخي في الدّنيا نظام كهذا النّظام؟ كلّا ثمّ كلّا.

* * *

ثمّ ذكر الله تعالى آخرين يؤذون النّبيّ محمّداً (ﷺ) فقد كان جماعة من المنافقين يسبّون الرّسول (ﷺ) ويقولون فيه ما يشاءون من الكلام القبيح، وإذا قيل لهم لا تفعلوا ذلك فإنّه إذا علم بذلك محمّد (ﷺ) فإنّه يعاقبكم يقولون: نقول ما نشاء وإنّما محمّد مثل الأذن يسمع كلّ شيء، فإذا سألنا عن ذلك ننكر ما قلنا ونحلف له فيسمع ويقبل منّا ذلك، فكشف الله تعالى سرّهم هذا فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

(ومنهم) أي وبعض من المنافقين هم **(الّذين يؤذون)** يسبّون النّبيّ (ﷺ) ويقولون فيه ما شاؤوا من السّب والغيبة والبهتان **(ويقولون)** حينما يقال لهم: إنّ محمّداً لو سمع بذلك لانتقم منكم إنّما **(هو)** أي الرّسول **(أذن)** أي كالأذن يسمع كلّ شيء ويصدّقه، فإذا قيل له ما نقول، ننكر ما قلنا ونحلف له فيصدّقنا ولا يؤذينا **(قل)** هو **(أذن خير لكم)** فيصدّق الخير إذ يسمعه ولا يصدّق الشّر والفساد، بل يظهر له ذلك ويطلع عليه **(يؤمن بالله)** إيماناً

صادقاً (**ويؤمن**) ويصدّق (**للمؤمنين**) ما يقولون له ولا يصدّق المنافقين وهو (**رحمة**) أي ذو رحمة ولين (**للّذين آمنوا منكم**) بصدق وإخلاص فيعفو عمّا سلف منكم (**و**) لكنّ (**للّذين يؤذون رسول الله**) ولا يتوبون ولا يؤمنون بصدق (**لهم عذاب أليم**) في الدّنيا والآخرة (**يحلفون بالله لكم**) أيّها المؤمنون بأنّهم مؤمنون صادقون مخلصون (**ليرضوكم**) فلا تتعرّضوا لهم بالإيذاء عقاباً على نفاقهم (**والله ورسوله أحقّ أن يرضوه**) منكم بأن يصدّقوا في إيمانهم ولا يكذبوا ولا ينافقوا (**إن كانوا مؤمنين**) كما يدّعون ووحدّ الضّمير في أن يرضوه لأنّ رضا الله تعالى والرّسول واحد (**ألم يعلموا**) هؤلاء المنافقون (**أنّ**) كلّ (**من يحادد**) أي يعاند (**الله ورسوله**) ويخرج عن طاعتهما (**فإنّ له نار جهنّم خالداً فيها ذلك**) العذاب وهو الخلود في النّار (**الخزي**) الذّل (**العظيم**) والفضيحة.

ثمّ أخبر الله تعالى عمّا في قرارة نفوسهم فقال جلّ وعلا: (**يحذر**) أي يخاف المنافقون بشدّة (**من أن تنزل عليهم**) أي على المؤمنين (**سورة**) من الله تعالى (**تنبّئهم**) تخبرهم (**بما في قلوبهم**) أي قلوب المنافقين من النّفاق وعداوة المؤمنين (**قل**) لهم (**استهزؤا**) أيّها المنافقون بالإسلام ورسوله والمسلمين، والأمر للتّوبيخ والتّهديد (**إنّ الله مخرج**) أي مظهر (**ما كنتم تحذرون**) منه من علم المؤمنين بنفاقكم؛ فيطلعون على حقيقة حالكم وسوء نفاقكم. هذه الآيات كلّها إخبار عن المغيبات وما في قلوب النّاس؛ فتكون من المعجزات في القرآن يعلمها المتدبّرون فيه. وممّا كشف الله من إستهزائهم فوراً ما ورد أنّه كان ركب من المنافقين يسيرون بين يدي النّبيّ (ﷺ) في غزوة تبوك، فكانوا يشيرون إلى الرّسول (ﷺ) ويقولون: انظروا هذا يفتح قصور الشّام ويأخذ حصون بني الأصفر؟ فأخبر الله تعالى الرّسول (ﷺ) بقولهم هذا فقال الرّسول (ﷺ) لعمّار بن ياسر رضي الله عنه: (أدرك القوم فإنّهم قد احترقوا فاسألهم عمّا قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى وقلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمّار فقال لهم ذلك فأتوا الرّسول (ﷺ) يعتذرون)[1] فنزل قوله جلّ وعلا:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(١) السيرة الحلبية ٣/ ١٠٣.

(**ولئن سألتهم**) لماذا تستهزئون هذا الاستهزاء (**ليقولن إنّما كنّا نخوض**) في الكلام لنقطع به الطّريق (**ونلعب**) وما كنّا نريد به الحقيقة (**قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون**) أي تلعبون، والإستفهام للتّوبيخ والتّقريع فيفيد التّوبيخ عن الهزل في أمور الدّين ولذا قال الرّسول (ﷺ): (ثلاث جدّهن جد وهزلهن جدّ النّكاح والطّلاق والعتق)[١] وألحق بهذه الثّلاث كلّ عقد ومعاملة بين النّاس، وكلّ معاملة مع الله تعالى كالكفر والإشراك معاذ الله تعالى برحمته (**لا تعتذروا**) أي لا يفيدكم الإعتذار لأنّكم (**كفرتم**) أي أظهرتم الكفر (**بعد إيمانكم**) الّذي أظهرتموه قبل فتبيّن نفاقكم (**إن نعف عن طائفة منكم**) لأنّهم تابوا وندموا وصدقوا في الإيمان وخرجوا من النّفاق (**نعذّب طائفة بأنّهم كانوا مجرمين**) أي مصرّين على النّفاق ولم يتوبوا، فالّذي عفا الله تعالى عنه كان رجلاً يقال له: مخاشن بن حمير الأشجعي، ويقال: إنّه كان يضحك ولا يقول شيئاً، وقيل: إنّه كان ينكر بعض ما يسمع، فلمّا نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع إلى الإسلام وقال: اللّهم إنّي لا أزال أسمع آيةً أعني بها تقشعرّ منها الجلود اللّهم إجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد: أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت. فأصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه ومقتله.

ثمّ أراد الله تعالى أن يفصل بين مجتمع المنافقين ومجتمع المؤمنين، وبين خصائص كلا المجتمعين في الدّنيا وجزاؤهما في الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(١) سنن ابن ماجة ٣/ ٦٥٨ الحديث رقم ٢٠٣٩.

(المنافقون) جمع منافق وهو الّذي يظهر إيمانه عند المؤمنين ويستر كفره، فالمنافقون من الرّجال وكانوا ثلاثمائة كما قال النّسفي **(والمنافقات)** من النّساء كنّ مائة إمرأة فهؤلاء **(بعضهم من بعض)** تأكيد كما قال تعالى قبل: **(وما هم منكم)** وتكذيب لقولهم: **(إنّهم لمنكم)** فالمعنى: إنّهم ليسوا منكم بل **(بعضهم من)** شاكلة **(بعض)** ومن مثله ديناً وكفراً ونفاقاً ومن صفاتهم **(يأمرون بالمنكر)** عند الله تعالى وفي دينه فيأمرون النّاس بالكفر والمعاصي ومعاداة الإسلام **(وينهون عن المعروف)** أي عن ما يستحسنه الإسلام كالإيمان والطّاعات ومحاسن الإسلام، فتفيد الآية: أنّ كلّ من روّج أمراً خلاف الإسلام وأنكر أمراً إستحسنه الإسلام فهو منافق وليس من المسلمين، وما أكثر هؤلاء الّذين يروّجون السّفور والرّبا وغير ذلك من أمور تخالف الإسلام ودين الله تعالى **(ويقبضون أيديهم)** عن العطاء في سبيل الخير وفي سبيل إعلاء كلمة الإسلام ورفع رايته **(نسوا)** أي تركوا أمر **(الله)** تعالى **(فنسيهم)** فتركهم الله تعالى من رحمته وهدايته **(إنّ المنافقين)** والمنافقات ولم يذكرهنّ لدلالة السياق عليهم **(هم الفاسقون)** الخارجون عن طاعة الله تعالى ودينه. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر عقابهم فقال جلّ وعلا: **(وعد الله المنافقين والمنافقات)** كلهم **(والكفّار)** وهم المصرّحون بالكفر ولا يخفونه كما يخفيه المنافقون، فوعد تعالى الكلّ **(نار جهنّم خالدين)** ماكثين **(فيها هي)** أي جهنم **(حسبهم)** عقاباً وعذاباً **(ولعنهم الله)** أي طردهم من رحمته **(ولهم عذاب مقيم)** أي ثابت لا ينتهي ولا يزول، ثمّ حول الله تعالى كلامه من الغيبة إلى الخطاب فخاطب المنافقين زجراً وتقريعاً فقال جلّ وعلا: **(كـ)** أي مثلكم أيّها المنافقون كمثل **(الّذين من قبلكم)** من الأمم السّابقة **(كانوا أشدّ منكم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا)** أي تمتّعوا في الدّنيا **(بخلاقهم)** بنصيبهم ثمّ أهلكوا في الدّنيا بسبب كفرهم وأعمالهم وعذّبوا في الآخرة **(واستمتعتم)** أنتم **(بخلاقكم)** بنصيبكم الّذي في أيديكم **(كما استمتع الّذين من قبلكم بخلاقهم)** من الشّهوات والمعاصي **(وخضتم)** في الكفر ومعاداة الرّسل والدّين الحقّ كالّذين خاضوا في ذلك قبلكم **(أولئك)** الّذين يعادون الرّسل ودين الله تعالى ويخوضون في الكفر والمعاصي منكم وممّن قبلكم **(حبطت أعمالهم في)** الدّنيا فلا يعتدّ بها لبنائها على الكفر والعصيان **(والآخرة)** فلا يثابون على ما عملوا من الصّالحات لأنّ شرط الثّواب على الأعمال وقبولها هو الإيمان **(وأولئك هم الخاسرون)** حيث خسروا الدّنيا والآخرة وهذه هي الخسارة الّتي لا تعوّض ولا تجبر.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر لهم حال الأمم السّابقة ليعتبروا بهم فاستفهم إستفهام إنكار وتوبيخ فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(**ألم يأتهم نبأ**) أخبار الأقوام (**الّذين من قبلهم**) والإستفهام للإنكار فالمعنى: قد أتاهم تلك الأخبار وعلموا بها، فلم لم يعتبروا بهؤلاء الأقوام، فلا يسلكوا سلوكهم لكي لا يهلكوا كهلاكهم. ثمّ بيّن الله تعالى الأقوام، فقال جلّ وعلا: (**قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين**) وهم قوم شعيب ﷺ (**والمؤتفكات**) أي وقوم القرى المؤتفكات وهي قرى قوم لوط ﷺ سميّت مؤتفكات لأنّها إنقلبت بأهلها يقال: ائتفكت البلدة بأهلها أي انقلبت. فهؤلاء الأقوام كلّهم (**أتتهم**) جاءتهم (**رسلهم**) من الله تعالى **بالبيّنات** بالمعجزات والدّلائل الواضحة على أنّهم رسل الله تعالى فكذّبوهم وعادوهم وإستهزؤوا بهم فأهلكوا بسبب كفرهم وتكذيبهم (**فما كان الله ليظلمهم**) بإهلاكهم أي لم يكن إهلاكه لهم ظلماً من الله تعالى (**ولكن كانوا**) هم (**أنفسهم يظلمون**) حيث جعلوها مستحقّة للهلاك في الدّنيا والآخرة حيث كذّبوا الرّسل ولم يتّبعوا شريعة الله ولم يعملوا بها، فليعتبر بهم كلّ جيل من الأجيال وليعلموا أنّ الإنحراف عن دين الله تعالى وعدم العمل بشريعته وعدم اتباع ما جاء به الرّسل يكون سبباً لهلاكهم ودمارهم في الدّنيا إن آجلاً أو عاجلاً، ولعذاب الآخرة حينما يبعثون يوم القيامة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المنافقين وصفاتهم ومصيرهم في الدّنيا والآخرة أراد أن يذكر المؤمنين الصّادقين وصفاتهم وثوابهم من الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾

(والمؤمنون) من الرّجال **(والمؤمنات)** من النّساء **(بعضهم أولياء بعض)** والأولياء جمع ولي، والوليّ يقال لمن ينصر غيره ولمن يتولى أمر غيره، فالمؤمن للمؤمن وليّ بالمعنيين؛ لأنّه ينصره ويتولّى أمره؛حيث يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، كما قال تعالى: **(يأمرون بالمعروف)** أي يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف **(وينهون)** أي ينهى بعضهم بعضاً **(عن المنكر)** شرعاً وديناً **(ويقيمون الصّلاة)** أي يؤدّونها بأنفسهم ويجبرون غيرهم على أدائها ويعاقبونهم على تركها **(ويؤتون الزّكاة)** ولا يقبضون أيديهم عن العطاء كالمنافقين **(ويطيعون الله)** وحيث لا يمكن إطاعة الله إلّا بواسطة الرّسول فإنّه المبلّغ أوامره قال: **(ورسوله)** أي ويطيعون رسوله فبإطاعته تكون إطاعة الله تعالى **(أولئك)** المتّصفون بهذه الصّفات والمتميّزون بهذه الخصائص **(سيرحمهم الله)** تعالى في الدّنيا بالعزّة والنّصر وفي الآخرة بالثّواب والأجر **(إنّ الله عزيز)** لا يعجز عن شيء **(حكيم)** يعمل كلّ شيء وفق الحكمة والحكمة الباهرة. والآية تفيد أنّ أيّ مجتمع لم يكن فيه الأمر بالمعروف وعقاب النّاس على تركه ونهي عن المنكر والإنتقام على فعله وإقامة الصّلاة وإجراء الحدّ على تاركها وأداء الزّكاة والأخذ بأيدي المحتاجين وإسعاف حاجة المعوزين وتطبيق شريعة الرّسول فليس ذلك المجتمع مجتمعاً إسلاميّاً وإن ادّعوا ذلك وكلّ مجتمع يكون فيه هذه الخصّائص كلّها فهو مجتمع إسلامي وإنّ الله وعدهم بالنّصر والعزّة، فثبت أنّ المسلمين اليوم ليسوا مسلمين كمجتمع إسلامي بل إنّما هناك أفراد مسلمون فلا مجتمع إسلامي موجود اليوم ولذلك لا ينتصرون حيث لا يعملون للإسلام ولا باسمه ولا لرفع رايته بل يعملون بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفات المؤمنين أراد أن يذكر ثوابهم فقال تعالى: **(وعد الله المؤمنين والمؤمنات)** المار ذكرهم وأوصافهم **(جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين)** مؤبدين فيها **(ومساكن طيبةً في جنّات عدنٍ)** أي إقامة سميت بذلك لأنّها دار لا يخرج أهلها منها ولا يخرجون **(ورضوان من الله)** عنهم **(أكبر)** إقامة نعمة من هذه النّعم كلّها **(ذلك)** الجزاء والثّواب والرّضوان **(هو الفوز العظيم)** الّذي لا فوز أعظم منه، والفوز نيل مطلوب الخير والسّعادة والنّجاة من الشّقاء. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المنافقين وصفاتهم وذكر المؤمنين وحسناتهم وكان يحيط بالمؤمنين قسمان من النّاس:

القسم الأوّل: الكافرون علناً دون تقيّةٍ وكانوا يتهيّأون دائماً لقتال المؤمنين والقضاء عليهم.

القسم الثّاني: المنافقون داخل المدينة وخارجها، وهؤلاء كانوا يظهرون الإيمان إلّا

أنّهم كافرون حقيقة، ويكيدون كلّ كيد للقضاء على الإسلام وأهله، ويتربّصون بهم الدّوائر، وكان الرّسول يجاملهم ويلاينهم لعلّهم يصلحون ويهتدون، وحيث إنّ خباثتهم بلغت النّهاية أمر الله تعالى رسوله أن يترك هذا اللّين وأن يشتدّ عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾﴾

(**يا أيّها النّبيّ جاهد الكفّار**) بالقتال (**والمنافقين**) قيل: بالقتال، وقيل: بالغلظة وكشف أسرارهم وعدم الملاينة معهم، وحيث إنّ الرّسول لم يقتل المنافقين بعد، فالقول الثّاني أصحّ (**واغلظ عليهم**) أي على الكفّار بالقتل وعلى المنافقين بمحاسبتهم الشّديدة، وهذا عذابهم في الدّنيا (**ومأواهم**) يوم القيامة (**جهنّم وبئس المصير**) هي جهنّم. ثمّ أراد الله تعالى أن يكشف خبث المنافقين وأسرارهم السّيئة فقال جلّ وعلا: (**يحلفون بالله**) عندك أنّهم (**ما قالوا**) ما ذكر عنهم من أنّهم قالوا: إن كان ما يقول محمّد حقّاً فنحن شرّ من الحمير، يريدون بذلك الاستهزاء بما يقول الرّسول (ﷺ) فجاؤوا الرّسول وحلفوا أنّهم لم يقولوا ذلك، ولقد كذبوا حيث (**ولقد قالوا كلمة الكفر**) الّتي حكى عنهم (**وكفروا**) أي وأظهروا كفرهم (**بعد إسلامهم**) ظاهراً وتقيةً (**وهمّوا بما لم ينالوا**) من أن يقضوا على الإسلام ورسوله (ﷺ) فلم ينالوا ذلك ولم يقدروه. قال الإمام أحمد (رضي الله عنه): حدّثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبدالله ابن جميع عن أبي الطّفيل قال: لمّا أقبل رسول الله (ﷺ) من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى: إنّ رسول الله (ﷺ) أخذ العقبة، وهي مرتفع الطّريق، وسلكها فلا يسلكها أحد، فبينما رسول الله (ﷺ) يقوده حذيفة ويسوق جمله عمّار، إذ أقبل رهط متلثّمون على الرّواحل غشوا عماراً وهو يسوق برسول الله أي بجمله، فأقبل عمّار (رضي الله عنه) يضرب وجوه الرّواحل فقال الرّسول (ﷺ) لحذيفة: (قد قد) حتّى هبط رسول الله (ﷺ) ورجع عمّار، فقال (ﷺ): يا عمّار هل عرفت القوم؟ قال: لقد عرفت عامّة الرّواحل والقوم متلثّمون، قال (ﷺ): هل تدري ما

أرادوا؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال (ﷺ): أرادوا أن ينفروا برسول الله راحلته فيطرحوه منها، فسأل عمّار رجلاً من الأصحاب: كم كان أصحاب العقبة؟ قال أربعة عشر، قال: إن كنت منهم فهم خمسة عشر رجلاً، فعدّد رسول الله ثلاثة منهم فخلف هؤلاء الثّلاثة والله ما سمعنا منادي رسول الله (ﷺ) وماعلمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أنّ الإثني عشرة الباقية حرب لله ورسوله في الدّنيا والآخرة[1] **(وما نقموا)** أي وما أغضبهم على الرّسول (ﷺ) شيء **(إلّا أن أغناهم الله ورسوله من فضله)** فالمعنى: قابلوا الإحسان بالسّوء والنّعمة بالكفران، حيث إنّهم كانوا قبل أن يأتي الرّسول (ﷺ) المدينة في ضنك من العيش، فبعد ذلك أصبحوا أغنياء ممّا أعطاهم الرّسول (ﷺ) من الغنائم فكان عليهم أن يشكروا رسول الله (ﷺ) ويخلصوا له إلّا أنّه كتب الله على كلّ نفس خبيثة أن تسيء إلى من أحسن إليها، فأساؤوا إلى الرّسول المحسن عليهم **(فإن يتوبوا يك خيراً لهم)** في الدّنيا لأنّ الله تعالى يعزّهم بعزّة الإسلام، وفي الآخرة حيث يثيبهم الجنّة والنّعيم المقيم. فأتى الجلاس بن سويد فقال: يا رسول الله! والله لقد قلت ما قلنا فتاب وآمن وحسنت توبته **(وإن يتولّوا)** عن التّوبة وأصرّوا على النّفاق **(يعذّبهم الله عذاباً أليماً في الدّنيا)** بأيدي المؤمنين **(والآخرة)** بعذاب جهنّم **(وما لهم في الأرض من وليّ)** يتولّى أمرهم **(ولا نصير)** ينصرهم وينقذهم من أيدي المؤمنين.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

في سبب نزول هذه الآيات روايات، وحاصل الكلّ أنّ بعض المنافقين عاهدوا الله وقالوا: لئن آتانا الله من فضله ورزقه لنفعلنّ منه أفعال الخير والبرّ والصلّة في ما أتانا، فلمّا آتاهم الله من فضله ووسّع عليهم رزقه لم يفوا بما وعدوا الله، بل بخلوا به فلم

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٤٥٣ الحديث رقم ٢٣٨٤٣.

يصرفوا منه شيئاً في ما هو برّ أو صدقة أو صلة، فقال الله تعالى في حقّهم: **(ومنهم)** أي وبعض من المنافقين **(من)** أي جماعة **(عاهد الله)** أي عاهدوا الله، وأفرد عاهد لإفراد من لفظاً فعاهدوا وحلفوا وقالوا والله **(لئن آتانا الله من فضله)** أي من رزقه ووسّع علينا **(لنصّدّقن)** أصله لنتصدقنّ، قلبت التّاء صاداً لأنّه من حروف البيت، وأدغم في الصّاد فصار لنصّدّقن أي لنصرفنّ منه في الخيرات والبرّ والإحسان **(ولنكوننّ من الصّالحين)** بصرف المال في الخيرات **(فلمّا آتاهم)** الله **(من فضله)** ووسّع عليهم رزقه وكثر أموالهم **(بخلوا** به) فلم يؤدّوا منه حقّ الزكاة ولم يصرفوا منها في وجوه البرّ والخير والصلّة **(وتولّوا)** وأعرضوا عما عاهدوا الله **(وهم معرضون)** ثابتون ومصرون على الأعراض **(فأعقبهم)** الخلق عن العهد والطاعة لأمر الله تعالى أي أورثهم كلّ ذلك **(نفاقاً)** راسخاً **(في قلوبهم)** ومستمراً ذلك النّفاق **(إلى يوم يلقونه)** أي يلقون عقاب هذا النّفاق يوم القيامة وذلك **(بما أخلفوا الله)** أي بسبب إخلافهم مع الله تعالى **(ما وعده)** فلم ينفذوا **(وبما كانوا)** أي وبسبب كونهم **(كاذبين)** مع الله تعالى حيث لم ينجزوا الوعد والعهد. فتفيد الآية أنّ الكذب وخلف الوعد من النّفاق ولذا قال الرّسول (ﷺ): (علامات المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب واذا أؤتمن خان وإذا وعد أخلف)[1]. ثمّ إستفهم الله تعالى إستفهام تقريع وإنذار؛ فقال جلّ وعلا: **(ألم يعلموا)** هؤلاء **(أنّ الله يعلم سرّهم)** من قصد الإخلاف بالوعد **(ونجواهم)** وما يتكلمون سرّاً فيما بينهم ضدّ الإسلام فيعاقبهم على كلّ ذلك **(وأنّ الله علّام الغيوب)** أي كلّ غيب فلا يغيب عليه حالاتهم السّيئة فينتقم منهم أشدّ الانتقام.

سؤال: إنّ الله تعالى كان يعلم أنّهم يخلفون الوعد فلم آتاهم من فضله؟

الجواب: أعطاهم إمتحاناً لهم وليظهر حالهم السّيء وكذبهم بين النّاس أجمعين.

ثمّ أنّه بعدما أمر الله تعالى بالصدقات وإعداد العدّة لغزوة تبوك فجاء عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه) بأربعة آلاف درهم وقال: كان لي ثمانية آلاف فأقرضت ربّي أربعة آلاف وأمسكت لعيالي أربعة آلاف، فقال (ﷺ): بارك الله فيما اقترضت وفيما أمسكت. فبارك الله تعالى في ماله حتّى أنّه بعدما توفّي صولحت امرأته تماضر عن ربع الثّمن

---

(١) صحيح البخاري ٢١/١ الحديث رقم ٣٣، صحيح مسلم ٧٨/١ الحديث رقم ٥٩. بلفظ آية المنافق ثلاث...

حيث كانت عنده أربع زوجات على ثمانية ألف درهم. وجاء عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر فقال: يا رسول الله عملت ليلتي بصاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأتيتك بالآخر فلامهم المنافقون فكانوا يقولون إن ما جاء به عبد الرحمن وعاصم إنّما جاء به رياءً وإنّما جاء به أبو عقيل فإنّ الله غنيّ عنه ففي حقّ هؤلاء قال جل وّعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

(**الّذين**) مع صلته مبتدأ خبره سخر الله منهم ولهم عذاب أليم (**يلمزون**) أي يعيبون ويلومون (**المطّوعين**) أصله المتطوّعين قلبت التاء طاءً فأدغم فيه ومعناه المتصدّقين بكثير كعبدالرحمن بن عوف وعاصم العجلاني، فقالوا فيها: إنّما تطوّعوا بهذا القدر رياءً، فهكذا كانوا يلومون المتصدّقين بكثير (**في الصّدقات**) أي في صدقاتهم (**والّذين لا يجدون**) من المال (**إلّا جهدهم**) أي إلّا قليلاً وأجرة عملهم اليومي ومشقّتهم،كأبي عقيل وغيره (**فيسخرون منهم**) أي يستهزئون بهم قائلين إنّ الله غنيّ عن ماجاؤوا به (**سخر الله منهم**) أي جازاهم الله تعالى بعقابهم على سخريّتهم هذه (**ولهم عذاب أليم**) يوم القيامة، وعبّر عن عذاب الله إياهم بالسّخرية مشاكلة فسمّى جزاء السّخرية سخريّةً كما سمّى جزاء الكيد كيداً، في قوله تعالى: ﴿إنّهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً﴾ سورة الطارق الآيتان/ ١٥، ١٦. وهذه المشاكلة في القرآن كثير، وعبّر عنه بالماضي وإن كان العذاب يوم القيامة؛ لأنّ المحقّق وقوعه يعتبر وكأنّه مضى لتحقّق وقوعه، وهذا التّعبير أيضاً في القرآن كثير وهو من البلاغة بمكان. وهكذا كانت الآيات تنزل فتفضح المنافقين وتكشف أسرارهم، وهم يأتون إلى رسول الله (ﷺ) يعتذرون ويطلبون من الرّسول (ﷺ) أن يستغفر لهم، فكان الرّسول (ﷺ) لرأفته يستغفر لهم، وصلّى على عبدالله بن أُبيّ رئيس المنافقين، فكان ذلك يزيد المنافقين غروراً فنزل قوله تعالى: (**إستغفر لهم**) للمنافقين أيّها النّبيّ (**أولا تستغفر لهم**) قال المفسرون هذا تخيير للرّسول (ﷺ) بين الإستغفار لهم وعدمه لما رواه البخاري أنّه (ﷺ) قال: إنّي خيّرت

فاخترت الإستغفار، ثمّ بعدما خيّره الله تعالى بيّن الإستغفار وعدم الإستغفار، أعلمه بأنّ إستغفاره لا يفيدهم شيئاً، فقال جلّ وعلا: **(إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم)** قيل: المراد بسبعين المبالغة لأنّ العرب حينما أرادوا المبالغة يقولون سبعين، ويؤيّد هذا المعنى ما رواه البخاري أنّه (ﷺ) قال: (لو أعلم إنّي لو زدت على السّبعين غفر لزدت)[1] والمعنى ولكنّ أعلم أنّه لو أزيد لا يغفر أيضاً، فالمعنى: لا يغفر لهم مهما أكثرت من الإستغفار لهم، وقيل: المراد به العدد المخصوص، وأيّدوا هذا المعنى بما روى عنه (ﷺ) أنّه قال: (وسأزيد فبيّن له وحسم المغفرة)[2] بقوله تعالى: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ سورة المنافقون الآية/٦، ومعنى حسم: نسخ، كما صرّح به في بعض التّفاسير، ولكنّ هذا القول خطأ لأمور:

الأوّل: إنّ آية (المنافقون) نزلت قبل هذه الآية في حرب بني المصطلق، وهذه غزوة تبوك، ولا يكون المتقدّم ناسخاً للمتأخّر ولا بياناً له، كما هو مقرّر في الأصول.

الثّاني: لا يوجد منافاة بين الآيتين حتّى تكون إحداهما ناسخة للأخرى، فإنّ كلتا الآيتين تفيد أنّ الإستغفار وعدم الإستغفار لا يفيدهم، فإنّ الله لا يغفر لهم، وليس في آية (المنافقون) نهي عن الإستغفار حتّى تكون مناقضة للتّخيير الّذي أفادته هذه الآية، وحديث البخاري سوّى بين الإستغفار وعدمه، فلا تنسخ تلك هذه، وكذلك ليست هذه الآية منافية لقوله تعالى: ﴿ما كان للنّبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشكرين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبيّنَ لهم أنّهم أصحاب الجحيم﴾ سورة التوبة الآية/١١٣. أي من بعد أن علموا أنّهم ماتوا على شرك، وذلك لأنّ النّهي هناك إنّما هو عن الإستغفار للكافر بعد أن تبيّن أنّه مات على الكفر، وكان إستغفار الرّسول للمنافقين في حال حياتهم لا بعد موتهم، وقد نهى عن الصّلاة عليهم بعدما ماتوا على الكفر أيضاً، وعوتب على الصّلاة على عبدالله بن أُبيّ أنّه مات كافراً، فتبيّن أنّ الرّسول (ﷺ) لم يمنع من الإستغفار للمنافقين حال حياتهم؛ فكان يستغفر لهم.

* * *

(١) سنن الترمذي ١٧٩/٥ الحديث رقم ٣٠٩٧، وقال حديث حسن صحيح.

(٢) المعجم الأوسط ١٦/٦ الحديث رقم ٥٦٦٢.

سؤال: حينما أخبره الله تعالى بأنّ إستغفاره لا يفيدهم وأنّ الله لا يغفر لهم فلماذا كان يستغفر لهم؟.

الجواب: كان يستغفر لهم لأمور:

الأول: تطييباً لأقاربهم المؤمنين.

الثاني: جلباً لقلوبهم لعلّهم يؤمنون.

الثّالث: أراد الرّسول (ﷺ) بالإستغفار لهم المغفرة لهم بعد هدايتهم للإيمان، فإنّ عدم المغفرة كان لكفرهم لا لذواتهم.

* * *

ثمّ قال تعالى: (**ذلك**) أي إنّ عدم مغفرة الله تعالى لهم حاصلة (**بأنّهم**) أي بسبب أنّهم (**كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي**) أي لا يوصل (**القوم الفاسقين**) الخارجين عن الإيمان إلى رحمته ومغفرته. وفي الآية دليل على أنّه من مات على الكفر فإنّ الله تعالى لا يغفر له، بخلاف المؤمن الفاسق الّذي مات على الإيمان، فإنّه يغفر الله تعالى له قال تعالى: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً مبياً﴾ ـ سورة النساء الآية/ ١١٦. وقال (ﷺ): (من قال لا إله إلا الله دخل الجنّة)[1]. اللّهم إنّي أشهد أنّ لا إله إلا الله وأن محمّداً رسول الله فأمتني يا ربّ برحمتك يا أرحم الرّاحمين على هذا.

قال جلّ وعلا:

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

(**فرح**) وانسر (**المخلّفون**) وهم المنافقون الّذين طلبوا من الرّسول (ﷺ) أن يخلفهم ويأذن لهم في عدم المسير إلى تبوك؛ فخافهم فسمّوا مخلّفين، ففرح هؤلاء (**بمقعدهم**) أي بقعودهم (**خلاف رسول الله**) حيث لم يذهبوا معه وعلّل فرحهم بقوله: (**وكرهوا أن**

(١) صحيح ابن حبان ١/ ٣٦٤ الحديث رقم ١٥١.

يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل) نشر دين **(الله)** تعالى وإعلائهم كلمته، ولذلك فرحوا بعدم المسير مع رسول الله (ﷺ) **(وقالوا)** لغيرهم ممّن كانوا يسمعون كلامهم **(لا تنفروا)** لا تخرجوا **(في الحرّ)** للجهاد وقتال الرّوم قل لهم **(نّار جهنّم)** الّتي تدخلونها بسبب تخلّفكم عن هذا الجهاد **(أشدّ حرّاً)** من حرّ الدّنيا في هاجرة الصّيف **(لو كانوا يفقهون)** حرّ جهنّم إنّهم يدخلونها نتيجة التّخلّف لما تخلّفوا، قال رسول الله (ﷺ): (نار بني آدم الّتي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم)[1] هذا وكانوا يضحكون من فرحهم، حيث تخلّفوا عن المسير مع رسول الله (ﷺ) فقال تعالى فيهم: **(فليضحكوا قليلاً)** بسبب راحتهم بالتّخلّف عن المسير، فإنّ هذه الرّاحة قليلة جداً بالنّسبة لعاقبتها السّيئة **(وليبكوا كثيراً)** من عاقبة هذا التّخلف وعذابه الكثير، ويأتيهم هذا العذاب **(جزاءً بما كانوا يكسبون)** من الإعتذار الكاذب عند رسول الله (ﷺ) وتخلّفهم عنه وحثّ النّاس على التّخلّف وإثارة البلبلة بين النّاس ومن النّفاق والكفر بالرّسول (ﷺ).

ثمّ أمر الله تعالى رسوله أن لا يأخذهم إلى القتال والجهاد أبداً فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

(فإن رجعك) أي أعادك **(الله)** سالماً من تبوك **(إلى طائفة منهم)** من المخلّفين في المدينة **(فاستأذنوك للخروج)** معك في قتال آخر **(فقل)** لهم **(لن تخرجوا معي أبداً)** لأي قتال كان **(ولن تقاتلوا معي عدواً)** وذلك حيث **(إنّكم رضيتم بالقعود)** عن القتال **(أوّل مرةٍ)** حينما دعيتم إليه **(فاقعدوا مع الخالفين)** وهم النّساء والأطفال والعجزة وهذه مذمّة لهم **(ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً)** صلاة الجنازة **(ولا تقم على قبره)** للدّعاء بالمغفرة له، وذلك حيث **(إنّهم كفروا بالله ورسوله)** ولم يتوبوا بل **(وماتوا وهم**

(١) صحيح البخاري ٣/ ١١٩١ الحديث رقم ٣٠٩٢، بلفظ ناركم جزء....

فاسقون) مصرّون على الكفر، نزلت هذه الآية حينما مات رئيس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول؛ فجاء ولده الصّحابي الجليل الرّسول (ﷺ) وسأله أن يعطيه قميصه ليكفن فيه، فأعطاه قميصه فكفنه فيه وصلّى عليه، ووقف عمر بن الخطّاب (رضي الله عنه) وقال له: أتصلّي على عدوّ الله؟ فقال (ﷺ): تأخّر عنّي يا عمر فصلّى عليه، فنزل قوله تعالى (ولا تصلّ على أحد منهم ... إلى آخره)[١] **(ولا تعجبك)** أيّها النّبيّ وأيّها المسلم **(أموالهم)** الكثيره **(وأولادهم)** الكثيرون لأنّ هذا ليس رحمة بهم، بل إنّ ذلك غضب من الله عليهم وإستدراج حيث **(إنّما يريد الله)** لهذه الأموال والأولاد **(أن يعذّبهم بها في الدّنيا)** والآخرة **(وتزهق)** وتخرج روحهم عند الموت **(وهم كافرون)** مستحقّون للعذاب الشّديد، وقد مرّ تفسير هذه الآية قبل قليل، ويؤيّد ماقلنا هناك أنّ اللّام لام العاقبة، أنّه تعالى قال: هنا (أن يعذبهم) بدون اللّام، والله تعالى أعلم بمراده وأرحم بعباده.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(وإذا أنزلت) من الله تعالى على رسوله **(سورة)** طائفة من القرآن سميّت سورة لأنّها إمّا سورة كاملة أو بعضها، وأمر في تلك السّورة **(أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله)** وبلّغت النّاس بذلك أيّها النّبيّ **(استأذنك أولوا الطّول)** أي أصحاب المال والثّروة **(وقالوا)** لك أيّها النّبيّ **(ذرنا)** أي اتركنا **(نكن مع القاعدين)** عن الجهاد وهم الصّبيان والنّساء، وهذا تشهير لهم **(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف)** جمع خالفة وهي جماعة النّساء الّلاتي يخلفن الرّجال في البيوت **(وطبع على قلوبهم)** بسبب نفاقهم وحبّهم للرّاحة والمال، فلا يدخل فيها حبّ الخير وأدراكه، ولذلك **(فهم لا يفقهون)** أي لا يفهمون ما هو خير لهم، ولا يميّزون بين الخير والشرّ والصّلاح والفساد، وقوله تعالى: أن آمنوا، بالنّسبة للمؤمنين، أثبتوا على إيمانكم واعملوا بمقتضاه وهو الجهاد وللمنافقين أصدقوا في إيمانكم.

ثمّ بعد أنّ ذمّ الله تعالى هؤلاء مدح الرّسول والمؤمنين فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح ابن حبان ٧/٤٤٩ الحديث رقم ٣١٧٦ بهذا المعنى بلفظ مختلف.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

(**لكن الرّسول والّذين آمنوا معه**) سرّاً وعلانيّةً وبصدق وإخلاص، امتثلوا ما أنزل إليهم حيث (**جاهدوا بأموالهم**) وصرفوها في أمور الجهاد وإعداد العدّة (**وأنفسهم**) فتسلّحوا وقاتلوا (**وأولئك**) الممتثلون لأمر الله تعالى (**لهم الخيرات**) في الدّنيا بالعزّة والنّصر والسّيادة في الأرض (**وأولئك هم المفلحون**) أي الفائزون. ثمّ بين الله تعالى فوزهم فقال جلّ وعلا: (**أعدّ**) أي هيّأ (**الله لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك**) الإعداد ووصولهم لما أعدّ لهم هو (**الفوز العظيم**) الّذي لا يدرك عظمته إلّا الله ربّ العالمين.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى منافقي المدينة ذكر منافقي الأعراب فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾

(**وجاء المعذّرون من الأعراب**) أصله المعتذرون قلبت التّاء ذالاً لأنّها من حروف البيت وهو (اتثد ذز سشص ضططوي) فأدغم الذّال في الذّال وهم القبائل من أعراب البوادي، كلّ قبيلة كانت تأتي فتعتذر عن المسير إلى تبوك كذباً (**وقعد**) عن الجهاد (**الّذين كذبوا الله ورسوله**) في إدعائهم الإيمان، فلم ينفروا ولم يعتذروا (**سيصيب الّذين كفروا منهم**) من الأعراب والقاعدين لعذاب أليم في الدّنيا بالقتل والأسر وفي الآخرة بالعذاب بالنّار.

ثمّ بعد أن شدّد الله تعالى النّكير على كلّ من تخلّف عن الجهاد أراد أن يذكر عقب ذلك المعذورون وأنّهم لا لوم عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

(**ليس على الضّعفاء**) وهم العاجزون عن المسير للشّيخوخة أو الزّمانة (**ولا على المرضى**) جمع مريض وهو المريض مؤقّتاً فهو معذور مدّة بقاء مرضه أو المريض مرضاً مزمناً، فهو كالزّمن لا حرج عليه أبداً (**ولا على الّذين لا يجدون ما ينفقون**) أي ما يحتاجونه في سفر الجهاد من السّلاح والزّاد والرّاحلة، فهؤلاء معذورون عامّة إن لم يؤمن لهم ذلك من جهة خاصّة أو عامّة (**حرج**) أي ليس على هذه الأصناف الثّلاثة حرج أي إثم في عدم الخروج للجهاد لأنّهم معذورون، وليس نفي الإثم عنهم مستلزماً لنفي الثّواب عنهم أيضاً، إذ هؤلاء الّذين يحبّون الجهاد ويقصدونه إلّا أنّه لم يتمكّنوا منه لهذه الأعذار مثابون حيث قال رسول الله (ﷺ) (لقد خلّفتم في المدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً ولا نلتم من عدوّ نيلاً إلّا وقد شركوكم في الأجر، ثمّ قرأ (ﷺ): (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ) قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: نعم حبسهم العذر)[1]، هذا وحيث إنّ بعض الضّعفاء والمرضى والمعذورين بقوا في المدينة وهم منافقون يبثّون البلبلة والدّعايات ضدّ جيش الإسلام، قال تعالى لإخراجهم واستثنائهم من عدم الأثم: (**إذا نصحوا**) هؤلاء المعذورون وأخلصوا (**لله ورسوله**) وأمّا الّذين لم يخلصوا فليسوا داخلين في هؤلاء ولهم أثم عدم الإخلاص (**ما على المحسنين**) المؤمنين المعذورين المخلصين لله ورسوله (**من سبيل**) للّوم والموآخذة (**ولا على الّذين إذا ما أتوك لتحملهم**) وتؤمن لهم نفقة الجهاد من الزّاد والرّاحلة والسّلاح وهم فقراء (**قلت**) لهم معتذراً (**لا أجد ما أحملكم عليه**) كناية عن عدم إمكانه تأمين نفقة السّفر لهم من الرّاحلة والزّاد والسّلاح. و(**تولّوا**) رجعوا (**وأعينهم تفيض**) تسيل (**من الدّمع حزناً**) من (**ألّا**) أصله (**أن لا**) أدغم النّون مع اللّام (**يجدوا**) من عند أنفسهم (**ما ينفقون**) للسّفر ولم يجدوه عندك (**إنّما السّبيل**) اللّوم والمؤاخذة (**على الّذين يستأذنوك**)

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦١٠ الحديث رقم ٤١٦١ .بلفظ مختلف.

في التّخلف **(وهم أغنياء)** يجدون أهبّة السّفر والجهاد **(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف)** أي مع جماعة النّساء فلا يخرجوا مثلهن **(وطبع على قلوبهم)** لخبث نيّتهم وطويّتهم **(فهم لا يعلمون)** ما للجهاد من فائدة في الدّنيا وهي العزّة والسّيادة وفي الآخرة وهي الفوز بجنّات النّعيم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المنافقين والمتخلّفين قبل ذهاب الرّسول إلى تبوك، أراد الله تعالى أن يخبر رسوله (ﷺ) حالهم بعد رجوعه إلى المدينة المنوّرة أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

(يعتذرون) أي يذكرون كثيراً من الأعذار عن تخلّفهم عن المسير معكم ويقدّمون تلك الأعذار **(إليكم إذا رجعتم)** إلي المدينة المنوّرة **(قل لهم)** أيّها النّبيّ **(لا تعتذروا)** فإنّنا أبداً **(لن نؤمن)** لن نصدق **(لكم)** كلّ عذر من الأعذار حيث (قد **نبّأنا الله** من **أخباركم)** من الكذب والنّفاق **(وسيرى الله عملكم ورسوله)** في الدّنيا فيذلّكم بسببه ويخزيكم إن لم تتوبوا **(ثمّ تردّون)** يوم القيامة **(إلى عالم الغيب)** أي كلّ ما غاب عن النّاس **(والشّهادة)** وهي ما علمه النّاس **(فينبّئكم)** فيخبركم **(بما)** بكلّ ما **(كنتم تعملون)** في الدّنيا سرّاً أو علناً ويعاقبكم عليه **(سيحلفون بالله لكم)** كذباً على ما يعتذرون به **(إذا انقلبتم)** أي رجعتم إليهم أنّهم كانوا معذورين في التّخلف ويكذبون وذلك **(لترضوا عنهم)** فلا تؤذوهم **(فأعرضوا عنهم)** أي فلا تجادلوهم ولا تعاتبوهم حيث **(إنّهم رجس)** خبيثون طبيعة وخلقاً؛ فلا تفيد عتابهم ولا يرجّعهم عن غيهم ويكفيهم ما قدّر لهم من العذاب حيث **(ومأواهم جهنّم)** وجوّزوا هذا **(جزاء بما كانوا يكسبون)** في الدّنيا من النّفاق والأخلاق الكاذبة والخروج عن طاعة رسول الله (ﷺ). ثمّ ذكر الله تعالى سبب

أحلافهم هذه فقال جلّ وعلا: (**يحلفون لكم**) كذباً (**لترضوا عنهم**) ولا يفيدهم رضاؤكم حيث (**فإنّ ترضوا**) أنتم (**عنهم**) بسبب إيمانهم الكاذبة وتقتنعوا بها (**فإنّ الله**) تعالى عالم بكذبهم، وبأنّ تخلفهم ما كان لعذر بهم بل لفسقهم وخروجهم عن الطّاعة وإنّ الله (**لا يرضى عن القوم الفاسقين**).

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى رسوله بأحوال من في المدينة من المنافقين، أراد أن يطلعه على أحوال الأعراب الّذين كانوا خارج المدينة، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

(**الأعراب**) وهم البدو سكان البادية (**أشدّ كفراً ونفاقاً**) من أهل الحضر (**وأجدر**) أي وأحقّ (**ألّا يعلموا**) أي لا يطبّقوا (**حدود ما أنزل الله**) أي أحكام الله الّتي أنزلها (**على رسوله والله عليم**) بحالهم (**حكيم**) في أفعاله (**ومن**) أي وبعض (**الأعراب من يتّخذ**) أي ويعتقد ويحسب (**ما**) المال الّذي (**ينفق**) ويدفعه لرسول الله والمؤمنين (**مغرماً**) خسارةً لا فائدة فيها (**ويتربّص**) أن تنزل (**بكم الدّوائر**) المصائب فتهلكوا ويستريحوا منكم (**عليكم**) أي تنزل عليهم (**دائرة السّوء**) أي المصيبة السّيئة (**والله سميع**) لأقوالهم (**عليم**) بأفعالهم وعلى حسب هذا العلم أخبركم بهم وهؤلاء الأعراب وإن لم يذكر الله إسمهم وقبيلتهم، إلّا أنّه أعلم الرّسول بهم عند نزول الآية. قال رسول الله: (من سكن البادية جفا، ومن أتّبع الصّيد غفل، ومن أتى السّلطان افتتن)[١].

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أن بعض الأعراب ليسوا مثل من سبق ذكرهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

(١) سنن الترمذي٤/٥٢٣ الحديث رقم ٢٢٥٦.وقال هذا حديث حسن صحيح غريب.

(و) بعض **(من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر)** بصدق دون نفاق **(ويتّخذ)** ويحسب **(ما ينفق)** ويقدّم للرّسول (ﷺ) قرباتٍ أسباباً للقربة **(عند الله)** تعالى **(و)** سبب **(صلوات)** أي دعوات من **(الرّسول)** لأنّ الرّسول (ﷺ) كان يدعو للمتصّدقين، ثمّ صدق الله تعالى عقيدتهم فقال جلّ وعلا: **(إلّا أنّها)** أي إنّ النّفقة الّتي يقدّمونها للإسلام **(قربةٌ)** أي سبب قربةٍ من الله تعالى **(لهم)** أي في جنّته **(إنّ الله غفور)** لمن صدق في إيمانه وأخلص في أعماله **(رحيم)** يرحم بهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى إجمالاً أنّ المجتمع الإسلامي فيهم مؤمنون صادقون وغيرهم، أراد أن يفصلهم فقسّمهم إلى خمسة أصناف وذكر لكلّ صنف حكمه، فذكر الصّنف الأوّل وحكمهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

(والسّابقون) إلى الإيمان والإسلام **(من المهاجرين)** من مكّة إلى المدينة **(والأنصار)** من أهل المدينة الّذين نصروا المهاجرين **(والّذين)** جاؤوا من بعدهم إلى يوم القيامة من المؤمنين الّذين **(اتّبعوهم بإحسان)** بإيمان وإخلاص في العمل، فهؤلاء كلّهم **(رضي الله عنهم)** لصدقهم في الإيمان وإخلاصهم في العمل **(ورضوا عنه)** أي عن الله تعالى لحسن ثوابه العظيم **(وأعدّ)** وهيّأ الله تعالى **(لهم)** لمن ذكروا **(جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً)** ذلك الجزاء والثّواب هو **(الفوز العظيم)** الّذي لا أعظم منه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الصّنف الثّاني وحكمه فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

(وممّن) يسكن **(حولكم)** أي حول المدينة من الأعراب **(منافقون)** يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر وهم بنو أسلم وأشجع وغفار **(ومن أهل المدينة)** أناس **(مردوا)** إستمروا **(على النّفاق لا تعلمهم)** أنت أيّها النّبيّ **(نحن نعلمهم)** فنخبركم **(سنعذبهم مرّتين)** مرّةً

في الدّنيا بالذّل ومرّةً في القبر **(ثمّ)** بعد القبر **(يردّون إلى عذاب عظيم)** في جهنّم. أتى حرملة إلى النّبيّ (ﷺ) فقال له: (الإيمان ههنا، وأشار إلى لسانه، والنّفاق ههنا، وأشار إلى قلبه، ولا أذكر الله إلّا قليلاً، فقال النّبيّ (ﷺ): اللّهم اجعل له لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وارزقه حبّي وحبّ من يحبّني وصيّر أمره إلى خير، فقال يا رسول الله: إنّه كان لي أصحاب من المنافقين وكنت رأساً فيهم أفلا آتيك بهم؟ فقال (ﷺ): من أتانا إستغفرنا له ومن أصرّ فالله أولى به، ولا تخرقنّ على أحد ستراً[١].

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الصّنف الثّالث وحكمهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

(وآخرون) أي قوم آخرون **(اعترفوا بذنوبهم)** بسبب التّخلف ولم يعتذروا وقالوا: بئس ما فعلنا، فلمّا سمعوا ما نزل في المتخلّفين ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وأقسموا أنّه لا يحلّهم إلّا رسول الله (ﷺ)، فقال رسول الله (ﷺ): وأنا أقسم لا أحلّهم حتّى أؤمر، فنزلت الآية: **(وآخرون إعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً)** وهو خروجهم للجهاد قبل ذلك **(وآخر سيئاً)** وهو تخلّفهم عن تبوك **(عسى الله)** وعسى في كلام الله تعالى للتّحقيق، فالمعنى: هنا قدر الله تعالى **(أن يتوب عليهم)** فحلّهم الرّسول (ﷺ). **(إنّ الله غفور)** لكلّ من تاب واعترف بذنبه **(رحيم)** ولرحمته يتوب ويغفر. فلمّا حلّهم الرّسول (ﷺ) قالوا: يا رسول الله إنّ هذه أموالنا تخلّفنا لأجلها فتصدّق بها وطهّرنا فاستغفر لنا، فقال (ﷺ): لا آخذ حتّى أومر، فنزل قوله تعالى: **(خذ من أموالهم)**

---

(١) مسند الشهاب ٢/ ٨٤ الحديث رقم ٩٣٤.

أي من بعض أموالهم (**صدقةً**) ما تتصدّق به على المحتاجين وهذه الصّدقة (**تطهّرهم**) من الإثم حيث تكون كفارةً عمّا فعلوا (**وتزكّيهم**) عن البخل وحبّ المال، لأنّ هذا الحبّ خلّفهم عن الجهاد (**وصلّ عليهم**) أي أدع واستغفر لهم (**إنّ صلاتك**) دعاءك (**سكن**) سبب طمأنينة (**لهم**) وثقتهم بقبول التّوبة (**والله سميع**) لأقوالهم (**عليم**) بما في قلوبهم من التّوبة الصّادقة والنّدامة ممّا فعلوا. ثمّ قال تعالى لهم لماذا آذوا أنفسهم هذا الإيذاء وخافوا هذا الخوف (**ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التّوبة عن عباده**) بمجرد التّوبة دون أن يؤذوا أنفسهم. (**ويأخذ الصّدقات**) كفارةً عن بعض الذّنوب وإنّ الحسنات يذهبن السّيئات (**وأنّ الله هو التّواب**) يقبل توبة عباده كلّما تابوا (**الرّحيم**) بهم وللرّحمة هذه يقبل توبتهم. ثمّ أمر الله تعالى رسوله أن ينصحهم ويأمرهم بالعمل والإخلاص في ما بعد فقال تعالى: (**وقل**) أيّها النّبيّ لهم (**اعملوا**) لله بإخلاص فيما بعد (**فسيرى الله عملكم**) فيثيبكم ويجزيكم عليه (**ورسوله**) سيرى عملكم أيضاً فيدعو لكم ويقدّركم (**والمؤمنون**) فيحبّونكم (**ثمّ تردون**) يوم القيامة إلى (**عالم الغيب والشّهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون**) ويجزيكم عليه، وهذا الأمر عامّ لكلّ النّاس وإن كان الورود في حقّ هؤلاء، لأنّ مورد النّزول لا يخصّص كما قرّر في الأصول.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر القسم الرّابع وحكمهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾

(**وآخرون**) أي وقوم آخرون (**مرجون**) أصله مرجئون وقريء به أيضاً، ومرجئون من الإرجاء أي التّأجيل فحذفت الهمزة للتّخفيف أي مؤجّلون (**لأمر الله**) لحين نزول أمر الله فيهم (إمّا **يعذّبهم**) الله على التّخلف (**أو يتوب عليهم**) ويغفر لهم (**والله عليم**) بصلاحهم للعذاب أو التّوبة عليهم (**حكيم**) لا يعمل أحد الأمرين إلّا لحكمة، فإنّ كلّ أموره مليء بالحكمة أو يأتي أمر الله تعالى فيهم.

ثمّ أراد تعالى أن يذكر الصّنف الخامس وحكمهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

ذكر ابن كثير: أنّ سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنّه كان بالمدينة رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وله شرف كبير. وقد تنصّر في الجاهليّة وقرأ علم أهل الكتاب، فلمّا قدم رسول الله (ﷺ) المدينة مهاجراً واجتمع عليه المسلمون وصارت للإسلام كلمة عالية؛ كره ذلك أبو عامر وفرّ إلى مكّة يمالئ المشركين على حرب رسول الله (ﷺ)، فاجتمعوا بأحياء العرب فقدّموا إلى حرب أحد، فكان هذا الفاسق حفر حفائر فيما بين الصّفين فوقع في إحداهنّ رسول الله (ﷺ) فجرح وجهه الشّريف وكسرت رباعيّته اليمنى السّفلى وشجّ رأسه، وفي أوّل المبارزة تقدّم أبو عامر إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى موافقته في حرب رسول الله (ﷺ) فسّبوه وشتموه، فرجع وهو يقول: لقد أصاب قومي بعدي شر، وبعد أن رأى أنّ أمر رسول الله في علوٍّ وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الرّوم يستنصره على النّبيّ (ﷺ)، فوعده هرقل، وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من أهل النّفاق أنّه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله (ﷺ) ويغلبه ويردّه عمّا هو فيه، وأمرهم أن يبنوا له معقلاً يقدم ويسكن فيه من يرسلهم إليهم ومرصداً له، فشرعوا في بناء المسجد مجاوراً لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه قبل خروج رسول الله (ﷺ) إلى تبوك، فسألوا رسول الله (ﷺ) أن يأتي إليهم فيصلّي في مسجدهم، وذكروا أنّهم بنوه للضعفاء، فعصمه الله تعالى أن يصلّي في مسجدهم فقال: أنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله تعالى، فلمّا رجع من تبوك نزل جبريل قبل أن يصل المدينة، فأخبره بمسجد الضّرار وأنّ أهله بنوه للكفر والتّفريق بين جماعة المؤمنين في مسجد قباء. فبعث رسول الله (ﷺ) أناساً فهدموا المسجد المذكور مسجد الضّرار، وإلى هذا أشار الله تعالى فقال: **(والّذين)** أي ومنهم الّذين **(اتّخذوا)** أي بنوا **(مسجداً ضراراً)** أي لأجل إلحاق الضّرر

بمسجد قباء وأهله والمؤمنين **(وكفراً)** أي ولأجل الكفر ونشره وترويجه بزعامة أبي عامر **(وتفريقاً)** وللتّفريق بين المؤمنين **(وإرصاداً)** أي مكاناً للترقّب للنّيل من المسلمين ومنزلاً **(لمن حارب الله)** وحيث إنّ محاربة لله لا يكون قال: **(ورسوله)** فالمعنى: أنّ محاربة الرّسول (ﷺ) ودينه محاربة الله تعالى **(من قبل)** وهو أبو عامر **(وليحلفنّ)** هؤلاء المنافقون (إن) أي ما **(أردنا)** ببناء هذا المسجد **(إلّا الحسنى)** أي الخصلة الحسنى وهي إيواء الضّعفاء فيه في الشّتاء البارد **(والله يشهد إنّهم لكاذبون)** في قولهم هذا، ويعلم الغرض السّيئ الّذي بنوه له، وهو أن يكون مأوى ومعسكراً لأعداء الرّسول (ﷺ).

تنبيه: قال المفسّرون والعلماء: ويلحق بمسجد الضّرار كلّ مسجد بني بقرب مسجد دون الحاجة إليه، وكلّ مسجد بني للتّباهي به والتّفاخر أو ليكون وسيلةً لعيشةٍ، بأن يجمع المال باسمه ويصرفه في أموره. وكلّ مكان اتّخذ معبداً لا باسم المسجد بل بأسماء أخرى لأن يجمع النّاس فيه إلى نفسه لمصالح تعود إليه، وما أكثر تلك المساجد وتلك المعابد.

* * *

ثمّ نبّه الله تعالى رسوله أن لا يصلّي في ذلك المسجد فقال: **(لا تقم)** من القيام بمعنى العبادة أي لا تصلّ **(فيه)** أي في مسجد الضّرار **(أبداً)** فأرسل جماعة فهدموه **(لمسجد أسّس على التّقوى من أوّل يوم)** وضع حجر أساسه **(أحقّ أن تقوم فيه)** من هذا المسجد الّذي بني على النّفاق والمعصية، وليس معنى**(أحقّ)** أن يكون في القيام في المسجد الآخر نوع حقيّة لأنّه ثبت أنّ القيام فيه باطل بقوله: **(لا تقم فيه أبداً)**. ثمّ بعد أن مدح الله تعالى مسجد قباء مدح من فيه فقال: **(فيه)** أي في مسجد قباء **(رجال يحبّون أن يتطهّروا)** ذكر مطلقاً فيفيد أنّهم يحبّون التّطهر من الكفر والنّفاق والمعاصي والنّجاسات المعنويّة والماديّة **(والله يحبّ المطّهرين)** أي يحبّهم، ذكروا بهذا اللفظ إشارة إلى أنّ محبّة الله تعالى لهم لهذه الصّفة، فيفيد أنّه يحبّ كلّ من اتّصف بهذه الصّفة إلى آخر الدّهر، وروى ابن خزيمة في صحيحه عن عويمر بن ساعده: أنّ النّبيّ (ﷺ) أتاهم في مسجد قباء فقال: إنّ الله تعالى قد أحسن عليكم الثّناء في الطّهور في قصّة مسجدكم فما هذا الطّهور الّذي تتطهّرون به؟ قالوا: والله يا رسول الله (ﷺ) ما نعلم شيئاً إلّا أنّه كان لنا جيران من اليهود وكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما

غسلوا[١]. وفي حديث رواه البزّاز فقالوا: نتبع الحجارة بالماء، فقال (ﷺ): هو ذاك[٢]، أي الاتباع بالماء الحجارة، وليس معنى هو ذاك كلّه بل هو بعضه. وفي مدح هؤلاء الرّجال تعريض بالذّم للّذين بنوا مسجد الضّرار وإنّهم ناس متّجسون بالنّفاق والكفر والمعاصي، وقد صرّح تعالى بذلك فقال: **(أفمن أسّس بنيانه)** كأهل قباء الّذين أسّسوا بنيانهم أي مسجدهم **(على تقوى)** أي على خوف **(من الله)** تعالى وإجتناب معاصيه **(ورضوان)** وطلب رضوان من الله بسبب ذلك البناء **(أم من أسّس بنيانه)** وهم أهل مسجد الضّرار بنوا مسجدهم **(على شفا)** أي على طرف **(جرف)** وهو ما حفر الماء تحته من الوادي فأوشك أن يقع ويسقط، كما قال: أي **(هار)** مائل إلى السّقوط **(فانهار)** أي سقط الجرف نفسه وسقط البناء الّذي بني عليه ووقع البناء **(في نار جهنّم)** وهذه إستعارة تمثيليّة شبّه عقيدتهم الّتي بنوا عليها المسجد بطرف جرف وادي جهنّم، فلمّا بنوا عليه وقع وسقط البناء والجرف أي المسجد والعقيدة الّتي بني عليها المسجد **(في نار جهنّم)** أي صار سبباً لدخولهم جهنّم بذلك **(والله لا يهدي)** أي لا يوصل **(القوم الظّالمين)** إلى مطالبهم ومقاصدهم وإلى رحمته وجنّته. والمراد لا يهديهم أي أهل المسجد الضّرار، إلّا أنّه ذكر بهذه العبارة إشارة إلى أنّ عدم هدايتهم كان لظلمهم ببناء هذا المسجد، والإستفهام للإنكار أي ليس أهل مسجد قباء كأهل مسجد الضّرار، فيفيد أنّ مسجدهم ليس كمسجدهم أيضاً، بل هم ومسجدهم خير منهم ومن مسجدهم، وتفيد الآية أنّ المسجد الّذي بناه لملتقى أفضل من مسجد بناه غيره، وقوله في الآية: **(والله يحبّ المطّهرين)** أصله المتطهّرين قلبت التّاء طاءً فأدغمت فيه، ومضى محبّة الله لهم حسن ثوابه لهم ورحمته ومغفرته لهم. ثمّ ذكر الله تعالى برهاناً على أنّ أهل مسجد الضّرار ليسوا كأهل قباء فقال عزّ وجلّ: **(لا يزال بنيانهم)** أي مسجدهم بعدما هدم **(ريبةً)** سبب كفر ونفاق **(في قلوبهم)** فلا يزال ذلك النّفاق منهم **(إلّا أن تقطّع أمعاؤهم)** بمعنى أنّ النّفاق إختلط بدمهم وأمعائهم فلا يزال حتّى يموتوا عليه **(والله عليم)** بما في قلوب النّاس **(حكيم)** في مجازاته لهم.

---

(١) صحيح ابن خزيمة ١/٤٥ الحديث رقم ٨٣.

(٢) رواه البزار وفيه وفيه محمد بن عبد العزيز بن عمر الزهري ضعفه البخاري والنسائي / أنظر مجمع الزوائد ١/٢١٢، ولكن الحديث روي بلفظ (ونستنجي بالماء) /أنظر المستدرك على الصحيحين ٢/٣٦٥ الحديث رقم ٣٢٨٧ وقال هذا حديث صحيح الإسناد. سنن أبي داود ١/١١ الحديث رقم ٤٤.

ثمّ أراد الله تعالى أن يحثّ المؤمنين كلّهم على الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾

(**إنّ الله اشترى من المؤمنين**) الّذين يجاهدون (**أنفسهم**) الّتي يضحّون بها (**وأموالهم**) الّتي ينفقونها (**بأنّ لهم**) بدل ما يبذلون من الأنفس والأموال (**الجنّة**) وذلك لأنّهم (**يقاتلون في سبيل**) نشر دين (**الله فيقتلون**) فيكونون غزاة (**ويقتلون**) فيكونوا شهداء وللكلّ الجنّة (**وعداً**) أي كان هذا الجزاء وعداً (**عليه**) على الله تعالى وعد به (**في التّوراة والإنجيل والقرآن**) وسائر الكتب السّماوية، وفي كلّ دين أنزله على عباده (**ومن**) الإستفهام للإنكار أي لا يوجد أحد (**أوفى بعهده من الله**) تعالى فيفي بوعده هذا دون شك (**فاستبشروا**) أي فافرحوا أيّها المؤمنون (**ببيعتكم**) أي ببدل بيعكم (**الّذي بايعتم به**) وهو الجنّة حيث (**وذلك**) أي دخول الجنّة (**هو الفوز العظيم**) لا شيء أعظم منه من النّعم (**التّائبون**) وهو وما بعده كلّها مبتدآت خبرها لهم الجنّة بقرينة قوله تعالى: وبشّر المؤمنين (**التّائبون**) أي النّادمون من الذّنوب والعازمون على عدم العود إليها والمقتلعون عنها (**العابدون**) أي المطيعون لله تعالى (**الحامدون**) أي الّذين يصفون الله تعالى بجميع أوصاف الكمال ويعتقدون اتّصافه بها (**السّائحون**) أي السّائرون في درجات الكمال من العلم والعبادة لله (**الرّاكعون السّاجدون**) أي المصلّون، جمع بين الركوع والسّجود كناية عن الصّلاة لأنّ صلاة اليهود لا ركوع فيها، أي المصلّون صلاة الإسلام. ثمّ بعد أن ذكر الصّفات المتعلّقة بذات المسلم ذكر تعالى صفاته السّارية إلى النّاس، إشارة إلى أنّ حصر المرء الخير في نفسه لا ينتج، بل يجب أن يسرى خيره إلى من سواه أيضاً؛ فقال جلّ وعلا: (**الآمرون**) غيرهم (**بالمعروف**) باتباع شريعة الله تعالى (**والنّاهون**) غيرهم (**عن**

المنكر) أي الإبتعاد عن دين الله تعالى وحكمه، وللأمر بالمعروف درجات، فلأصحاب القوّة يجب أن يخضع غيره لأحكام الله ويحملوهم على أداء واجباته واجتناب منهيّاته، ومن لا قوّة له فيعظ بالقول واللّسان ويرشد النّاس بالحال والقال، ومن لم يستطع ذلك أيضاً فليكره المنكر ولا يشارك فاعله ولا يصادقه ولا يجالسه ولا يحاببه ولا يعاونه، بدليل قول رسول الله (ﷺ): (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فليكره بقلبه وذلك أضعف الإيمان)[١] **(والحافظون لحدود الله)** أي لأحكامه؛ فهؤلاء لهم الجنّة والفلاح **(وبشّر المؤمنين)** كلّهم بذلك ليتّصفوا بهذه الصّفات ليفلحوا.

تنبيه: إنّ ما سبق من الآيات لكلام يصوّر المجتمع الإسلامي في زمان الرّسول (ﷺ) إلى يوم القيامة تصويراً كاملاً، ويصنّف المجتمع إلى أصناف ويبين لكلّ صنف خصائصه وميزته وحكمه، ففي كلّ وقت يوجد مؤمنون مخلصون متفانون في إيمانهم، ويوجد منافقون في دينهم ومؤمنون متوسّطون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، وبانون لمساجد الضّرار والرّياء وللإنتفاع الدّنيوي، وتائبون عابدون إلى آخر الصّفات الّتي ذكرت، فتستطيع أن تعرف أفراد المجتمع معرفة حقيقيّة وتعطى لكلّ حكمه بهذه الآيات، وبذلك تبتعد عن الإغترار بهذا وذلك، حيث وجد الميزان المستقيم فزن به من شئت ثمّ أعطه حكمه تسلم من كلّ مكّار وخداع، والله الموفق وهو يهدي السّبيل.

* * *

بعد أن ذكر الله تعالى كيفيّة علاقة الرّسول والمؤمنين بالأحياء أراد أن يذكر علاقتهم بالأموات فقال جلّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ

(١) صحيح مسلم ٦٩/١ الحديث رقم ٤٩.

يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾

(ما كان) أي لا يجوز (للنبيّ و) لا **(الّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين)** أو يحنوا عليهم ويرقّوا لهم **(ولو كانوا)** هؤلاء المشركين **(أولي)** أصحاب **(قربى)** قرابة لهم، كآبائهم وأمهاتهم وأبنائهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم وغير ذلك من أصحاب القرابات، فلا يجوز الإستغفار لهم **(من بعدما تبيّن لهم)** أي للمؤمنين **(أنّهم)** أي المشركين **(أصحاب الجحيم)** بأن عملوا أنّهم أصرّوا على الكفر إلى أن ماتوا، وهنا كأنّ سائلاً يسأل فيقول: فإذاً لماذا إستغفر ابراهيم (عليه السلام) لأبيه؟ فقال تعالى: **(وماكان إستغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن)** أي لأجل **(موعدةٍ وعدها إيّاه)** بقوله له قبلُ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ سورة مريم الآية/٤٧. وكان إستغفاره له في حياته لعله يهتدي **(فلمّا تبيّن له)** أي لإبراهيم **(أنّه)** أي إيّاه **(عدوّ لله)** ومات على الكفر **(تبرّأ)** إبراهيم (عليه السلام) **(منه)** من أبيه في الحياة وبعد الممات **(إنّ إبراهيم لأوّاهٌ)** كثير التّضرع إلى الله تعالى **(حليم)** محتمل للأذى في سبيل العقيدة والإسلام، فما كان يختار شيئاً ولا أحداً على عقيدته ودينه، فظهر من هاتين الآتين ومن الآية **(قل إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم .... إلخ)** إنّ واجب المسلم هو أن يتبرّأ عن كلّ أحد، وعن آبائه وأبنائه وإخوانه وعشيرته حينما رآه أنّه حاد عن الدّين وعصى ربّ العالمين، حتّى يتوب ويرجع، ومن ليس كذلك فهو ضالّ ويستحقّ العذاب الأليم، ولذا قال تعالى: **(وما كان الله يضلّ قوماً)** أي يتحكّم عليهم بالضّلال ويعذّبهم **(بعد إذ هداهم)** للإسلام وأرشدهم إلى الحقّ **(حتّى يتبيّن لهم)** كلّ **(ما يتّقون)** أي يجب أن يجتنبوا عنه، فإذا بيّن لهم فلم يتّقوا يحكم عليهم بالضّلال ويعذّبهم **(إنّ الله بكلّ شيء عليم)** فيعلم من يستحقّ الضّلال والعذاب. ثمّ حيث إنّ كلّ إرتباط وصداقة وحبّ مع الكافر والفاجر إنّما يكون لأمور دنيويّة، ولمصالح وقتيّة قال تعالى: **(إنّ الله له ملك)** كلّ **(السّماوات)** وجميع ما في **(الأرض)** فيعطي لمن يشاء ويمنع عمن يشاء **(يحيي ويميت)** بيده الحياة والموت **(وما لكم من دون الله من وليّ)** يتولّى أموركم **(ولا نصير)** ينصركم في الدّنيا والآخرة، فإذا كان الأمر كذلك ويكون كلّ المنافع بيد الله، وكلّ المضارّ تحت قدرته، وليس في قدرة أحدٍ شيء إلّا ما قدّر الله على يده، وبيده الموت والحياة والولاية والنّصر، فلا يليق بالمؤمن الّذي آمن هذا الايمان أن يوالي الكفرة والفسقة جلباً لمصالح، أو خوفاً

من المضارّ أو طمعاً في ولايتهم ونصرتهم، ومن فعل ذلك فهو ليس بمؤمن حقّاً، بل هو ضالّ ومضلّ ويستحقّ العذاب الأليم، وحينما تليت هذه الآيات فليفضح وليخجل المسلمون، ومنهم من يحسبه النّاس من الدّعاة وإنّه واصل إلى الله وموصل إليه، أو هو من أولياء الله فليخجل هؤلاء وليخجل معتقدوهم حينما يرون أبناءهم فسقة، ومنهم كفرة وبناتهم سافرات، وليعلموا بأنّ هؤلاء ضالّون مضلّون حيث لم يتبرّأوا من هؤلاء الأبناء والبنات، بل يحبّونهم بكلّ قلوبهم ويساعدونهم حتّى في ما يرتكبونه من الحرام ولا يستحيون من الله ولا من النّاس، ولا يخجلون ولا يطيعون أمر الله تعالى، فيتبرّؤوا من هؤلاء الأبناء والبنات إمتثالاً لأمر الله تعالى وتطبيقاً لحكم الله. فحقّاً هؤلاء ضالّون مضلّون، وأتباعهم جاهلون بالدّين، فأصلحهم الله أجمعين أو لعنهم وهو خير الحاكمين.

ثمّ بعد أن علم النّاس كلّ صنف من الأصناف في المجتمع الإسلامي واطّلعوا على حكم الله في كلّ صنف، وطال إنتظار النّاس إلى حكم الله فيمن أرجأ أمرهم بقوله: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ بعد ذلك الإنتظار الشّديد أظهر الله تعالى حكمه فيهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾

(لقد تاب) أي تجاوز **(الله)** وأنزل رحمته **(على النّبيّ)** محمّد ومضى توبته عليه مع أن التّوبة تكون على العاصي، ولا معصية صدرت عن الرّسول (ﷺ) لأنّه معصوم هو أنّه أذن للمنافقين بعد أن اعتذروا كذباً؛ وذلك كان بإجتهاد منه، وقد أصاب في ذلك لأنّ ذهابهم معهم كان ضرراً على المسلمين كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ سورة التوبة الآية/ ٤٧. إلّا أنّه لو لم يأذن لهم إلّا بعد التّحقيق من عذرهم لتبيّن الصّادقون منهم من الكاذبين، كما قال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى

يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ سورة التّوبة الآية/٤٣. وهذا ليس بذنب إلّا أنّه ترك للأفضل فقوله: (لَقَدْ تابَ اللهُ عَلى النَّبِيِّ) كقوله قبل: ﴿عَفا اللهُ عَنْكَ﴾ وقد فسرنا ذلك في موضعه (**والمهاجرين والانصار**) عطف على النّبيّ (ﷺ) فالمعنى: لقد تاب الله تعالى على الأنصار والمهاجرين أي بعضهم وهم الّذين تناقلوا عن الخروج أوّل الأمر ثمّ بعد ذلك أطاعوه كما قال تعالى: (**الّذين اتّبعوه**) أي اتّبعوا الرّسول (**في ساعة العسرة**) أي في وقت العسرة، أي الشّدة، لأنّهم كانوا في قلة من الظّهر والزّاد والماء؛ فكانوا يتعقب عشرة من المؤمنين على بعير واحد، وكانوا يقسّمون التّمرة بين إثنين إلى غير ذلك من ضعف مالهم (**من بعد ما كاد يزيغ**) أي يميل قلوب (**فريق منهم**) عن الإطاعة والثّبات واتّباع الرّسول (ﷺ) لمّا رأوا من هذه الشّدة والقلّة في الميرة والزّاد (**ثمّ تاب عليهم**) أي ثبّتهم الله تعالى على المضي فيما أمروا واتباع الرّسول (ﷺ) (**إنّه**) أي الله (**بهم**) بالمهاجرين والأنصار (**رؤوف رحيم**) والفرق بين الرّؤوف والرّحيم أنّ الرأفة رحمة مع الشّفقة والرّحمة تكون عامّة (**وعلى الثّلاثة**) عطف على المهاجرين والأنصار، فالمعنى لقد تاب الله على الثّلاثة (**الّذين خلّفوا**) وهم الّذين ذكرهم الله تعالى بقوله قبل: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله﴾ أي مؤجّلون إلى أن يأتي حكم الله فيهم فقوله: (**خلّفوا**) أي أجّل حكمهم فخلّفوا ولم يأت حكمهم (**حتّى ضاقت بهم الأرض بما**) ما مصدرية فيجعل (**رحبت**) مصدراً والباء بمعنى: مع، أي ضاقت بهم الأرض مع سعتها الّتي يراها النّاس (**وظنّوا**) وآمنوا (**أن**) أي أنّه (**لا ملجأ من الله إلّا إليه**) أي إلى الله تعالى فلم يقبلوا أيّ ملجأ ولم يحاولوا أيّ محاولة، بل توكّلوا على الله و فوّضوا أمرهم إليه (**ثمّ تاب**) أي أدام توبتهم (**عليهم ليتوبوا**) أي ليستقيموا فيما يستقبل في حياتهم، واللّام لام العاقبة أي استقاموا فيما بعد (**إنّ الله هو التّواب**) كثير القبول لتوبة عباده (**الرّحيم**) بهم ولذلك يقبل توبتهم كثيراً فكلّما أذنبوا وتابوا يقبل توبتهم، وفي الحديث: (إنّ الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر)[1] أي مالم يصل إلى حالة نزع روحه وتيقّنه الموت، فحينئذٍ لا تقبل التّوبة ولا الإيمان.

قصّة الثلاثة الّذين خلّفوا: ذكر أهل السّير والتّفاسير عن الزّهري محمد بن مسلم بن شهاب عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أنّ أباه عبدالله وكان قائد أبيه

(١) سنن الترمذي ٥/٥٤٧ الحديث رقم ٣٥٣٧.

حين أصيب بصره قال: سمعت أبي كعب بن مالك يحدّث حديثه حين تخلّف عن رسول الله (ﷺ) في غزوة تبوك، حديث صاحبيه مرارة بن الربيع وهلال بن أمية قال: ما تخلّفت في غزوة عن رسول الله (ﷺ) قطّ غير أنّي تخلّفت في غزوة بدر، ولم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلّف عنها لأنّه (ﷺ) خرج يريد عير قريش، فآل الأمر إلى أن جمع الله بينه وبين عدوّه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله (ﷺ) العقبة وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في النّاس أي أعظم قدراً، وكان من خبرى في غزوة تبوك أنّي لم أكن قطّ أقوى ولا أيسر حين تخلّفت عن رسول الله (ﷺ)، ووالله ما اجتمعت لي رحلتان قطّ واجتمعتا لي عند تلك الغزوة، وكان رسول الله (ﷺ) قلّما يغزو إلّا ورّى بغيرها إلّا أنّه صرّح بتلك الغزوة لأنّه غزاها في حرّ شديد، واستقبل سفراً بعيداً وعدوّاً كثيراً، فكشف للنّاس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبّته، فأخبرهم بالمكان الّذي يريده وكان المسلمون ممّن تبع رسول الله (ﷺ) كثيرين، ولم يكن سجل يكتب فيه أسماؤهم، فقل رجل يريد أن يتغيّب يظنّ أنّه سيعلم بذلك رسول الله (ﷺ) إلّا أن ينزل فيه وحي، وكان الوقت حينما طابت الثّمار وأحبّ النّاس الظّلال، فتجهّز الرّسول (ﷺ) وتجهزّ المسلمون، وكنت أريد أن أتجهّز معهم إلّا أنّي ماطلت، فكنت أقول في نفسي وأنا قادر في أي وقت شئت تجهزت، فتمادى بي الأمر إلى أن علمت أنّ رسول الله (ﷺ) أصبح غادياً ولم أفقد من جهازي شيئاً، فقلت: أتجهّز بعده بيوم أو يومين ثمّ ألتحق بهم، وياليتني فعلت إلّا أنّه تمادى بي الأمر حتّى أسرعوا وعلمت أنّي لا أدركهم، فكنت إذا خرجت يحزنني أنّي لا أرى إلّا رجلاً مغموصاً في النّفاق أو رجلاً ممّن عذره الله من الضّعفاء ولم يذكرني الرّسول (ﷺ) حتّى بلغ تبوك، فسأل القوم: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: حبسه بردائه والنّظر في عطفه، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا منه إلّا خيراً، فسكت رسول الله (ﷺ) فلمّا بلغني أنّ رسول الله (ﷺ) قفل راجعاً من تبوك جعلت أتفكّر في الكذب وأقول: بماذا أنجو من سخط رسول الله (ﷺ) وأستعين بكلّ ذي رأي في أمري، فلمّا قيل لي أنّه (ﷺ) قد أطلّ قادماً، زاح عني كلّ باطل وعرفت أنّي لا أنجو منه إلّا بالصّدق فأجمعت أن أصدّقه. وصبّح رسول الله (ﷺ) المدينة، وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثمّ جلس للنّاس، فلمّا فعل ذلك جاء المخلّفون فجعلوا يحلفون ويعتذرون وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم علانيّتهم وإيمانهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتّى جئت

فسلّمت عليه فتبسّم تبسّم المغضب ثمّ قال لي: تعال، فجئت أمشي حتّى جلست بين يديه، قال لي: ما خلّفك؟ قلت: يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدّنيا لرأيت أنّي كيف أخرج من سخطه حيث أعطيت جدلاً، ولكن والله لقد علمت لئن أحدّثك اليوم حديثاً كذباً فترضيني به عنّي ولكنّي ليوشكنّ أن يسخطك الله عليّ بإعلامك بكذبي، ولئن حدّثتك الصّدق فغضبت عليّ فسأرجو الله تعالى أن يرضيك عنّي، والله ما كان لي عذر وما كنت أقوى ولا أيسر منّي حينما تخلّفت عنك فقال (ﷺ): أمّا هذا فقد صدقت فيه، فقم حتّى يقضي الله فيك، فقمت فاتّبعني رجال من بني سلمة فقالوا لي: لقد علمناك ما أذنبت ذنباً، فهل عجزت أن تعتذر كما اعتذر المخلّفون؟ فقد كان يكفيك استغفار رسول الله (ﷺ)، فما زالوا بي حتّى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي ثمّ قلت لهم: هل قال أحد مثلي؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقال رسول الله (ﷺ) لهما مثل ما قال لك، قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أميّة الواقفي، فقلت: هما رجلان صالحان ولي فيهما أسوة؛ فنهى رسول الله (ﷺ) النّاس أن يكلّمونا نحن الثّلاثة من بين من تخلّف، فاجتنبنا النّاس وتغيّروا لنا حتّى تنكّرت لي نفسي، والأرض فما هي بالأرض الّتي كنت أعرف، فبتنا كذلك خمسين ليلة. فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأمّا أنا فكنت أخرج وأشهد الصّلوات مع المسلمين وأطوف بالأسواق ولا يكلّمني أحد، وآتي رسول الله (ﷺ) فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصّلاة فأقول في نفسي: هل حرّك بردّ السّلام عنّي أم لا؟ ثمّ أصلّي قريباً منه فأسارقه النّظر فاذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ، وإذا التفتّ نحوه أعرض عنّي، فطال عليّ جفوة النّاس فمشيت وتسوّرت جدار بستان ابن عم أبي قتادة وهو أحبّ النّاس إليّ، فسّلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السّلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدتك بالله هل تعلم أنّي أحبّ الله ورسوله؟ فسكت، فناشدته ثانية فسكت، فناشدته ثالثة فسكت، فرابعة فقال: الله ورسوله أعلم، فخرجت من عنده إلى السّوق فبينما أمشي إذا نبطي من أنباط الشّام يسأل عني، فأشاروا له إليّ، فجاء ودفع لي كتاباً من ملك غسّان، فإذا فيه: أمّا بعد قد بلغنا أنّ صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك، فبعدما قرأتها قلت: وهذا هو البلاء قد بلغ حالي إلى أن يطمع رجل مشرك أن أتّبعه، فعمدت بالكتاب إلى تنّور فأحرقته فيه، فأقمنا على ذلك حتّى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، فإذا رجل من رسول الله (ﷺ) يقول أن تعتزل امرأتك، قلت: أطلّقها؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، فأرسلتها إلى أهلها،

وأخبروا صاحبي بمثل ذلك، فذهبت إمرأة هلال إلى رسول الله (ﷺ) فقالت له: إنّ هلال شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال (ﷺ): لا أكره ذلك ولكن لا يقربنّك، قالت: والله ما به من حركة إليّ وما زال يبكي ولقد تخوّفت على بصره، قال كعب فقال بعض أهلي: لو استأذنك أن تخدمك امرأتك كما استأذنت إمرأة هلال، قلت: لا، فلا أدري ما يقول لي رسول الله (ﷺ). ثمّ أنّي رجل شابّ أخاف الوقوع في الخطيئة، فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل خمسون ليلة، ثمّ صلّيت الصّبح على ظهر بيت لي، وكنت كما قال تعالى: (وضاقت بي الأرض بما رحبت) فسمعت صوت صارخ يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أنّه قد جاء الفرج، وأعلم النّاس رسول الله (ﷺ) بتوبة الله تعالى علينا حينما صلّى الصّبح، فجاء النّاس يبشّرونني وذهب مبشّرون نحو صاحبي، فانطلقت أتيمّم نحو رسول الله (ﷺ) ويبشروني من يلقاني حتّى دخلت المسجد والنّاس حول رسول الله (ﷺ)، فقام طلحة بن عبيدالله إليّ فحيّاني وهنّأني ولم يقم غيره من المهاجرين، فكان كعب لا ينسى ذلك لطلحة، قال كعب: فلمّا سلّمت على رسول الله (ﷺ) قال ووجهه برق من السّرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك، قلت: أمن عندك أم من الله؟ قال: بل من عند الله تعالى، قلت: يا رسول الله أأخرج من مالي كلّه صدقةً إلى الله ورسوله؟ قال (ﷺ): أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قلت: إنّي ممسك بسهمي من خيبر، وقلت: يا رسول الله إنّ الله قد نجّاني بالصّدق وإنّ من توبتي إليه أن لا أحدّث إلّا صدقاً ما عشت، فوالله ما تعمّدت من ذلك اليوم كذبة إلى يومي هذا، وإنّي لأرجو أن يحفظني فيما بعد، ووالله ما أنعم الله عليّ نعمة بعد الإسلام أعظم من أنّه جعلني أصدق عند رسول الله (ﷺ)، ولم يجعلني أكذب كما كذب غيري، فأهلك كما هلكوا وينزل فينا كما نزل فيهم: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.... إلى آخر الآيات)[١] اللّهم تب علينا يا أرحم الرّاحمين يا الله.

* * *

ثمّ بعد أن بيّن الله أنّ المجتمع الإسلامي منهم المؤمنون الصّادقون ومنهم

---

(١) صحيح البخاري ٤/١٦٠٣ الحديث رقم ٤١٥٦، صحيح مسلم ٤/٢١٢٠ الحديث رقم ٢٧٦٩.

المؤمنون المنافقون ومنهم الكاذبون، أمر تعالى كلّهم بالصّدق؛ فقال جل وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) النّداء يشمل المؤمنين والمنافقين، لأنّ كلّهم آمنوا ظاهراً وباطناً أو ظاهراً فقد **(اتّقوا الله)** بالإجتناب عن الكذب والنّفاق والخروج عن الطّاعة والتّخلف عن الجهاد **(وكونوا مع الصّادقين)** أي من ضمنهم فاصدقوا في الأقوال والأعمال والإيمان وفي المعاملة مع الله ومع النّاس جميعاً، قال رسول الله (ﷺ): (عليكم بالصّدق فإنّ الصّدق يهدي إلى البّر، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنّة، ولا يزال العبد يصدق ويتحرّى الصّدق حتّى يكتب عند الله صدّيقاً، وإيّاكم والكذب فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار، ولا يزال العبد يكذب حتّى يكتب عند الله كذاباً)[(١)].

ثمّ بدأ الله تعالى أنّه لا يليق بأحدٍ أن يتخلّف عن الجهاد وهو في هذه المنزلة من الفضل فقال جلّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

(ما كان) أي وما صحّ وما حسن **(لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب)** من القبائل فما صحّ لهؤلاء جميعا **(أن يتخلّفوا عن رسول الله)** حينما خرج للجهاد **(ولا)**

(١) سنن الترمذي ٤/ ٣٤٧ الحديث رقم ١٩٧١.

حسن لهم **(أن يرغبوا)** أي يبخلوا بأنفسهم **(عن)** مصاحبته **(نفسه)** أي نفس الرّسول (ﷺ) والدّفاع عنه **(ذلك)** أي عدم جواز وحسن التّخلف ثابت **(بأنّهم)** أي بسبب أنّهم **(لا يصيبهم ظمأ)** أي عطش **(ولا تعب)** أي تعب **(ولا مخمصة)** أي جوع **(في سبيل)** إعلاء كلمة **(الله ولا يطئون)** أي لا يضعون أقدامهم أو حوافي مراكبهم **(موطئاً)** أي مكاناً **(يغيظ)** يغضب **(الكفّار ولا ينالون)** أي لا يجدون **(من عدوّ نيلاً)** أي شيئاً من قتلهم أو مسّهم أو مالهم بالغنيمة **(إلّا كتب لهم به)** أي بكلّ ما ذكر **(عمل صالح)** عند الله تعالى والعمل الصّالح يجزى بعشر أمثالها ويصل إلى سبعمائة فأكثر، قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما): (لكلّ روعة سبعون ألف حسنة)[1] وقد بلغوا من درجات الإحسان أعلاها ومن الحسنات أعلاها **(ولا يُنفقون نفقةً صغيرةً ولاكبيرةً)** في الجهاد **(ولا يقطعون وادياً)** بالسّير فيه نحو العدوّ **(الا كُتِبَ لهم)** كلّ ذلك **(ليجزيهم الله)** به جزاءً مثل جزاء **(أحسن ما)** أي عمل **(كانوا يعملون)** في الدّنيا، هذا وبعد أن حثّ الله تعالى النّاس على الجهاد هذا الحثّ، ولام المتخلّفين هذا اللّوم أصبح المؤمنون كلّما يرسل الرّسول (ﷺ) السّرايا يطلبون من الرّسول النّصر والجهاد، فلا يبقى أحد إلّا ويلّح على الرّسول أن يرسله مع السّرية، فلو أذن الرّسول (ﷺ) للكلّ لخلت مدرسته عن الأصحاب، فلا يبقى عنده من يكتب الوصيّ أو يتعلّم أمور الإسلام الّتي تتجدّد وأحكامه الّتي تنزل تترى، فقال تعالى: **(وما كان المؤمنون)** يحقّ لهم ويصحّ **(أن ينفروا)** أي يخرجوا للجهاد **(كافّة)** أي كلّهم **(فلولا نفر من كلّ فرقة)** من كلّ قبيلة **(طائفة منهم)** للجهاد ويبقى الباقون **(ليتفقّهوا)** أي الباقون عند رسول الله ويتعلّموا **(في الدّين)** الّذي ينزل يوماً فيوماً **(ولينذروا)** أي وليعلموا **(قومهم)** الّذين نفروا **(إذا رجعوا إليهم)** بعد الغزو **(لعلّهم يحذرون)** فعل ما حرّم وترك ما وجب، ولم يعلموا بذلك حيث كانوا غائبين، وبهذا التّفسير تنسجم الآية وترتبط بما قبلها كما لا يخفى، وأمّا على تفسير من قاله: **(فلولا نفر)** أي سافر **(من كلّ فرقة)** من كلّ قبيلة **(طائفة منهم)** إلى بلاد العلم فيدرسوا العلوم الدّينية **(ليتفقّهوا)** أي يتعلّموا الشّريعة **(ولينذروا قومهم إذا رجعوا)** أي المتفقّهون من بلاد العلم إليهم إلى قومهم **(لعلّهم يحذرون)** ترك ما وجب وفعل ما حرّم، فلا تنسجم الآية مع قبلها، وإن سلمت من تفكيك الضّمائر والحذف الّذي ارتكب في التّفسير الأول، وإن قيل أنّ الإنسجام حاصل لأنّ طلب العلم يعتبر من الجهاد وفي سبيل الله تعالى أيضاً،

---

(١) تفسير النسفي ٢/ ١١٤.

فلا يصلح هذا المعنى في زمان الرّسول لأنّ العلم عند الرّسول (ﷺ) فلا نفر ولا خروج، ويقال كان النّاس الخارجيون ينفرون إلى الرّسول (ﷺ) كلّهم لطلب العلم منه، فشقّ ذلك على الرّسول (ﷺ) فأمر تعالى أن يأتي بعضهم فيتعلّموا ويعلّموا الباقين من قومهم إذا رجعوا إليهم، وبهذا يصح الكلام إلّا أنّ الإنسجام غير تامّ، حيث لم يسبق أمر بالعلم وتعلّمه في هذه السّورة كما لا يخفى، وإنّما الموضوع كلّه موضوع الجهاد والله تعالى أعلم وهو الموفّق ويهدي السّبيل.

خاتمة: لقد كشف الله تعالى بهذه الآيات المنافقين وميّزهم عن المؤمنين فتاب منهم من تاب ولم يبق إلّا قلّة لا قيمة لها، وأصبح للمؤمنين داخل المدينة وخارجها كيان مستقلّ وميزة خاصّة، وأنشأوا دولة فتيّة ذات شوكة ورونق وجمال، وأصبحت الدّعوة للإسلام تنتشر وتسري كالنّار في الهشيم فتحرق العقائد الفاسدة وتقضي على الأباطيل والخرافات، وتسري في قلوب الشّعوب سراية الماء في عروق الظّمأ إلى الحقّ والعدل والقيم والإنصاف، فأحسّ كلّ طاغية ومرتزقتهم للوقوف دون نشر هذا الدّين فنصبوا راية العداء للمؤمنين، وأعدّوا العدّة لقتالهم وللفتك بهم والقضاء عليهم وعلى كيانهم ودولتهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

والآية واضحة في معناها فنقول: إنّ الإسلام ليس كالسّبع الشّرس يفتك بالنّاس بمجرّد الهوى وحبّ الذّات وكراهة الغير، بل الإسلام كلّه سلم وسلام وهدوء ومحبّة ووئام، إلّا أنّه لا يجوز له أن يكون كمطيّة يمتطيها كلّ سافل ودنيء، وكفراش يدوسه كلّ خبيث ولئيم بل يجب عليه أنّه إذا أراد أحد أن يعتدي عليه أن يزأر كالأسد الزئير فيكسر عظمه ويأكل لحمه أو يوقفه عند حدّه، وهذا معنى وليجدوا فيكم غلظة أي شدّة، فلا ينتهكوا حرمتكم ولا يمدّوا عيونهم إلى النّيل منكم، بل يقفوا عند حدّهم فلا يطمعوا في أحد من المؤمنين ولا يصدّوا عن دعوة الإيمان في الأرض دعوة ربّ العالمين، وهذا واجب الإسلام من الدّفاع عن كرامته وكرامة دعوته بين النّاس، فإذا ما فعل المسلمون ذلك فيكون الله معهم كما قال تعالى: **(واعلموا أنّ الله مع المتّقين)** فينصرهم، فهل المسلمون كذلك اليوم لينصرهم الله تعالى؟ كلّا، ثمّ كلّا، ولذلك ذلّوا واستعمروا في الأرض وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال المنافقين حين نزول القرآن فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

(**واذا ما أنزلت سورة**) أي قطعة من القرآن (**فمنهم**) أي فبعض من المنافقين (**من يقول**) لأصحابه (**أيّكم زادته هذه**) الآيات (**إيماناً**) يريدون بذلك الاستهزاء بالقرآن والرّسول (ﷺ) قال تعالى ردّاً عليهم: (**فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم إيماناً**) باعتبار زيادة متعلّقات الإيمان، أو معناه، زادت إيمانهم نوراً واتّقاداً كما تزداد قوّة العين وإدراكها ببعض الأشياء وتنقص ببعض (**وهم**) أي المؤمنون (**يستبشرون**) يفرحون بكلّ ما ينزل من الآيات وإن كان فيه تكليف؛ لأنّ زيادة التّكليف تورث زيادة الأجر والثّواب (**وامّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم**) الآيات والسّورة (**رجساً**) كفراً مضموماً (**إلى رجسهم**) كفرهم السّابق (**وماتوا وهم كافرون**) بما أنزل، وهم المنافقون الّذين استمرّوا على نفاقهم فلم يتوبوا.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّههم على المعجزات الّتي يرونها مستمراً والّتي تدلّ على نبوّة الرّسول ورسالته فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

(**أو لايَرونَ أنّهم يفتنون**) أي يخبرون ويمتحنون بإراءتهم المعجزات (**في كلّ عام مرّة أو مرّتين**) بوقوع الجهاد وظهور دلائل النّبوّة في أسفار الجهاد، كتكثير الطّعام والشّراب وإنتصار المؤمنين وكشف الرّسول ما في قلوبهم وما يقولون (**ثمّ**) بعد كلّ هذه الآيات (**لا يتوبون**) عن النّفاق (**ولا هم يذكرون**) أي يتذكّرون في هذه المعجزات فيتعلّموا الحقّ فيتّبعوه والباطل فيجتنبوه، بل إنّهم حينما تظهر المعجزات الّتي تتعلّق بأنفسهم بذكر نيّاتهم وفضح أسرارهم، فبدل أن يعتبروا ويتوبوا يعرضون عنها قال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

(**واذا ما أنزلت سورة**) تكشف أسرارهم (**نظر بعضهم إلى بعض**) فتغامزوا بعيونهم وقالوا (**هل يراكم من أحد**) إن قمتم وخرجتم من المجلس (**ثمّ**) حينما وجدوا الفرصة (**انصرفوا**) خرجوا من المجلس بدل أن يعتبروا ويتوبوا وذلك لأنه (**صرف الله قلوبهم**) عن اتّباع الحقّ (**بأنّهم**) أي بسبب (**أنّهم قوم لا يفقهون**) لا يفهمون الحقّ أي لا يريدون ذلك ولا يحبّونه. ثمّ في آخر النّقاش أعلن الله تعالى إستغناء الرّسول عن إيمان النّاس وأنّ إيمانهم يعود عليهم بالنّفع لا على الرّسول وكفرهم يعود عليهم بالضّرر لا على الرّسول وإنّ الرّسول غنيّ عنهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

(**لقد**) اللّام جواب لقسم محذوف تقديره وبعزّتي (**لقد جاءكم**) أيّها النّاس (**رسول من أنفسكم**) من جنسكم ليس من الجنّ فتستنكروا منه ولا من الملك، فيصعب التّفاهم والتّخاطب والمعاشرة معه، إنّما هو إنسان تستأنسون به ويستأنس بكم (**عزيز**) أي صعب ومكروه (**عليه ما عنتم**) ما مصدرية تؤول ما بعده مصدراً، أي يكره عنتكم أي هلالكم وضلالكم بسبب الإنحراف عن الحقّ (**حريص عليكم**) أي على إيمانكم لتسعدوا في الدّنيا والآخرة، ثمّ التفت إلى الرّسول مسليّاً له فقال: (**فإن تولّوا**) أي أعرضوا عن الإيمان فأظهروا وأعلنوا الإستغناء عنهم (**فقل حسبي الله**) أي أنّ الله يكفيني ولست أنا بحاجة إليكم (**لا إله**) لا معين ولا نصير ولا مسعد ولا معزّ ولا مغني لي (**إلّا هو**) أي الله ولذلك (**توكّلت عليه**) فقط لا على غيره منكم، أو من سواكم حيث (**وهو ربّ العرش العظيم**) أي عظيم ذاته إذا قرئ العظيم بالضّم، أو عظيم عرشه إذا قرئ بالكسر، والكلّ صحيح والمآل واحد، فالعظيم عظيم عرشه ومن عظم عرشه فهو عظيم، والمراد بالعرش الحكم عند الّذين يتولّون المتشابهات أو السّرير عند السّلف المفوضين معناها إلى الله تعالى فيقولون: له العرش كما يليق به، فالعرش موجود له دون أن نعلم كيفيّة ذلك،

وحيث إنّ الله عظيم وعرشه عظيم يجب أن يتوكّل عليه كلّ أحد لا على غيره، وفي كلّ الأمور لا في بعضها، فإنّه بيده الأمور كلّها من أمور الدّنيا والآخرة، وهو الرّب ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. والحمد لله ربّ العالمين.

سورة يونس

(مكيّة، وهي مائة وتسع آيات، نزلت بعد الإسراء، وسميّت بسورة يونس لما ورد فيها من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ **وهذا خلاف عادة الله في الأقوام حيث ما كان يقبل إيمانهم عند معاينتهم للعذاب).**

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾

(ألر) قد تكلّمت على مثل هذه الحروف في أوّل سورة البقرة **(تلك)** إشارة إلى الآيات الّتي سيتلوها الرّسول (ﷺ)، أي أنّ هذه الآيات هي آيات **(الكتاب)** قالوا: المراد بالكتاب القرآن، ولكنّ هذا القول لا يرضينا؛ وذلك لأمرين:

الأمر الأوّل: إنّ كلّ أحد كان يعلم أن ما يتلوه الرّسول هو آيات، وأنّها آيات من كتاب يسمّيه القرآن الحكيم. فيكون الكلام مثل ما يقال زيد زيد؛ إذ المآل أنّ آيات القرآن هي آيات القرآن، ولا فائدة في هذا الخبر كما لا يخفى.

الأمر الثّاني: إنّ الرّسول حينما كان يتلو هذه الآيات كان يتعجّب النّاس منه وما كانوا يتعجّبون من تلاوة ما يسمّيه بالآيات وبأنّها آيات الكتاب الّذي يسمّيه القرآن، بل كانوا يتعجّبون من أنّه يقول: إنّها ممّا يوحى إليه من الله تعالى، نزل به جبريل من اللّوح المحفوظ، كما يصرّح تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا ...﴾ إلخ.

فالّذي يرتضيه البال هو: أنّ المراد بالكتاب هو اللّوح المحفوظ، فالمعنى: تلك الآيات الّتي يتلوها محمّد هي **(آيات الكتاب الحكيم)** وهو اللّوح المحفوظ ويوحى إلى محمّد وليست من عند غيره من البشر، وقوله: **(الحكيم)** أي المحكم والمحفوظ عن إستراق الشّياطين ومردة الجنّ، والمراد المملوء بالحكمة، والأوّل أولى.

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى أنّ هذه الآيات هي تعجّب إنكار لأن يوحى إلى محمّد (ﷺ)؛ قال جلّ وعلا:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

(أكان للنّاس عجباً) قوله: **(عجباً)** خبر كان مقدّم على إسمه وهو **(أن أوحينا)** فالتّقدير: أكان وحينا إلى رجل .... الخ، عجباً للنّاس، أي سبب تعجبّ النّاس، والإستفهام للإنكار، أي من المنكر والمستبعد أن يتعجّب النّاس من **(أن أوحينا إلى رجل منهم)** وهو محمّد (ﷺ) وأن أمرناه **(أن أنذر النّاس)** بالعذاب لإنحرافهم عن الحقّ وإشراكهم بالله تعالى وإبتعادهم عن دينه **(وبشّر الّذين آمنوا)** بك واتّبعوك وتركوا الشّرك وعبدوا الله وحده بشّرهم **(أنّ لهم قدم)** أي ما يقدّمون عليه من الثّواب يوم القيامة وإضافة إلى **(صدق)** من إضافة المسبّب إلى السّبب أي ثواباً بسبب صدقهم في التّوحيد والإيمان، فيقدّمون على هذا الثّواب **(عند ربّهم)** يوم القيامة ويوم نجزي كلّ نفس ما عملت وهم لا يظلمون. ثمّ بيّن تعالى كيفيّة تعجّبهم من الرّسول (ﷺ) وإنكارهم أنّه رسول، أوحي إليه وما يقولون فيه فقال جلّ وعلا: **(قال الكافرون إنّ هذا)** أي محمّد **(لساحر مبين)** من آيات المزيد بمعنى بأنّ المراد أي اتّضح، فالمعنى لساحر واضح، أو بمعنى المزيد أي أظهر، فالمعنى حينئذ مبين أي مظهر سحرهِ وشرّهِ بين النّاس.

تنبيه: إنّ الله تعالى أخبر بأنّ هذه الآيات هي من اللّوح المحفوظ دون أن يؤكّد الخبر ويبرهن عليه، لأنّ حال الآيات وحال محمّد (ﷺ) هو البرهان القاطع على أنّ هذه الآيات والقرآن من الله تعالى وذلك أمور:

الأوّل: إنّ القرآن بلغ في الفصاحة والبلاغة حدّاً عجز كلّ العرب وغيرهم عن الإتيان ولو بمثل أقصر سورة منه، مع ما فيهم من الخطباء والشّعراء والمتكلّمين ومن يشار إليه بالبنان.

الثّاني: يخبر القرآن عن الماضي كما كان، وعن المستقبل كما يكون، وعن أسرار الكون كما يشهد به العلم ويصدّقه يوماً بعد يوم.

الثّالث: كان يخبر عمّا في قلوب المنافقين ويكشف أسرارهم وعن أمور أخرى كانت بين الزّوج وزوجته فقط، أو بين الصّديق وصديقه فقط، أو بين المرء ونفسه

فحسب، فهذا القرآن الّذي يأتي به محمّد (ﷺ) وهو أمّي لم يدرس يوماً، ولم يتعلّم كتاباً، ولم يباشر قراءةً، ولم يمارس شعراً ولا خطابةً؛ يدل بوضوح على أنّه من الله تعالى، ولذا لم يؤكّد الأخبار عن كونه من الله تعالى ولم يبرهن عليه.

تنبيه ثانٍ: أنكر الله تعالى تعجّبهم من الوحي إلى محمّد (ﷺ) لأمور:

١- إن كان تعجّبهم من الوحي مطلقاً فهو منكر، لأنّ الوحي كان أمراً متعارفاً من يوم خلق الله تعالى آدم إلى أن بعث محمّد (ﷺ)، فلماذا يتعجبون؟.

٢ ـ إن كان تعجّبهم من أنّه أوحي إلى بشر وأرسل بشر إلى النّاس، وأرادوا أن يكون الرّسول من الملائكة كما قالوا: (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)(١) فقد جرت عادة الله تعالى أن يختار من البشر عباداً خاصّاً ويجعلهم رسلاً إلى البشر؛ ليبلّغوهم دينه وشريعته ويهديهم إلى الحقّ والصّراط المستقيم، ولم يجعل الرّسل إلى البشر ملائكة لعدم إمكان التّفاهم والتّعايش بين الملائكة والبشر، وكانت هذه العادة معروفة عندهم، فقد كانوا يؤمنون بنبوّة إبراهيم وإسماعيل وموسى وغيرهم (عليهم السّلام) فلماذا يتعجّبون.

٣ ـ إن كان تعجّبهم من أنّه أوحي إلى محمّد (ﷺ) وهو من أوساط النّاس وليس عظيماً من العظماء وغنيّاً من الأغنياء، كما قالوا: ألم يجد الله رسولاً يرسله إلى النّاس إلّا يتيم أبي طالب. وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ سورة الزخرف الآية/ ٣١. فقد جرت عادة الله أن يرسل من أوساط النّاس لأنّه لو كان الرّسول من العظماء أو الأغنياء لأتّهم بأنّه جمع النّاس بقوّته وماله لا بنبوّته، سيّما وأنّ الله تعالى مختار في أمره، وإختياره من شاء للرّسالة، فيرسل حسب إختياره لا إختيارهم، فلماذا يتعجّبون؟ فعلى كلّ تقدير كان تعجّبهم من الوحي إلى محمّد (ﷺ) وإنكارهم له بعدما أظهر الحجّة وأتى بالمعجزات أمراً منكراً جدّاً، ويعاقبون في الآخرة عليه كما يلامون عليه في هذه الدّنيا والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أمرين أساسيين ممّا بعث به محمّد (ﷺ):

---

(١) الفرقان ٧.

الأمر الأوّل: التّوحيد فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

(إنّ ربكم) أي إنّ الّذي يربّيكم هو الله تعالى فقط لا أحد سواه، والتّربية نوعان.

النّوع الأوّل: التّربية التّكوينية وهي خلق الإنسان وتربيته من إيصال النّمو والزّيادة والحياة إليه، ودفع الآلام والعاهات والمضرّات عنه، وجلب الخير والمنافع إليه، فلا نفع ولا ضرر ولا خير إلّا من الله تعالى وبإرادته.

النّوع الثّاني: التّربية التّكليفيّة وهي أمره بأشياء ونهيه عن أشياء وتخييره بين أشياء[١]، ويسمّى هذا تشريعاً، فلا طاعة لأمر أحد ولا خضوع له إلّا بقدر ما أمر الله تعالى وفي حدود ما أمر الله تعالى به، فإطاعة الوالدين مثلاً يجب أن تكون الإطاعة فيما أحلّه، فلو أطاعهما لذاتهما أو فيما حرم الله تعالى فقد أشرك وعصى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ سورة لقمان الآية/ ١٥. ويقاس بذلك كلّ من أمر الله تعالى بإطاعته، والتّربية بالمعنيين مختصّة بالله تعالى لا حقّ لأحد فيها، فالتّأثير له وحده والتّكليف له وحده، فمن إعتقد في من سواه تأثيراً وإيجاداً، أو اعتقد في أحد أنّ له حقّ التّكليف أو التّشريع فقد أشرك بالله تعالى. ثمّ ذكر الله تعالى الدّليل على أنّ التّربية بالمعنيين المذكورين تختصّ بالله تعالى لا حقّ فيهما لأحد فقال: **(الّذي خلق السّماوات)** كلّها والمراد بالسّماوات كلّ ما فوق الأرض من الأجرام **(والأرض)** أي وخلق الأرض وهي ما تحت السّماوات من الأرض وما فيها من المعادن والنّباتات والحيوانات والأشجار والمياه والعيون والأنهار والجبال والوديان والتّلال وغير ذلك ممّا في الأرض، أو عليها ممّا كشف أو لم يكشف، ويجري البحث والتّنقيب عليه يوماً بعد يوم. خلق الله تعالى كلّ

---

(١) ذكر أنواع التربية بالنسبة إلى الله تعالى، وهناك نوع ثالث يجوز أن ينسب إلى البشر وهو القيام على الشيء بما يصلحه وينميه كتربية الولد والزرع والحيوان.

ذلك (**في ستّةِ أيام**) والمراد بالأيّام أيّامنا هذه، فالمعنى في مدّة تقدّر بستّة أيّام من هذه الأيّام، حيث لم تكن هذه الأيّام موجودة في بدء الخلق، أو المراد بها أيّام الله تعالى، ويوم الله تعالى ذكر في القرآن مرّتين:

المرّة الأولى: قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ سورة المعارج الآية / ٤. فإن كان المراد بالأيّام السّتة مثل هذا اليوم؛ فيكون خلق السّماوات والأرض وتمام ذلك وظهورها كما ترى في ثلاث مائة ألف سنة من سنواتنا هذه.

المرة الثانية: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ سورة الحج الآية / ٤٧. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ سورة السجدة الآية ٥. فإن كان المراد بالأيّام السّتة مثل هذا اليوم فيكون خلق هذا الكون في ستّة آلاف سنة من سنواتنا هذه، ويحتمل أن يراد من الأيّام السّتة أيام أخرى لا يعلمها إلّا الله تعالى. والحاصل إنّ الأيام السّتة غير معلوم حقيقتها ومدتّها إلّا عند الله تعالى، وأقول ذلك لكي لا نكفّر علماء الطّبيعة حينما يقولون بالتّطور إن لم يسندوا التّطور إلى الطّبيعة[١]. بأن يقولوا بالتّطور بأنّ الخالق لهذا التّطور والواضع له هو الله تعالى، فإنّا لا ننكر التّطوّر بل نقول به. إلّا أنّنا نحن المسلمون نقول: إنّ التّطوّر وضعه الله تعالى وخلقه، ولو أراد عدم التّطوّر لخلق الكون في طرفة عين وبأمر كن فيكون. وأمّا من يقول بأنّ التّطوّر هو من تأثير الطّبيعة وليس الله خالقاً له، أو إن الطّبيعة تجبر الله تعالى على التّطوير، أو أنّ الله تعالى لا يستطيع الخلق إلّا بالتّطوّر فهو كافر بالإجماع، هذا وإنّ الله تعالى خلق الكون في هذه الأيّام لا دفعةً واحدةً ليعلم عباده على التّدرّج في الأعمال، وأن لا يكلّفوا أنفسهم بالطّفرة والإستعجال والله تعالى أعلم.

(**ثمّ**) بعد أن خلق الله تعالى السّماوات والأرض (**إستوى**) الله تعالى (**على**

---

(١) من الفلاسفة من قال بالتطور وكان مؤمنا بالله تعالى كسقراط وأفلاطون قديما وهيجل حديثا وغيرهم ممن جعلوا العقل مؤثرا في المادة فسموا بأصحاب الفلسفة المثالية، ومنهم من قال بالتطور وطرح الإيمان بالله تعالى من الحسبان فألحد وكفر كفيورباخ وماركس وأنجلس وهم أصحاب المادية الجدلية الذين قالوا بتأثير المادة في العقل. والشيخ رحمه الله هنا يقصد أصحاب الفلسفة المثالية الذين دافع عنهم نديم الجسر في كتابه (قصة الإيمان) الذي طالعه الشيخ حسب علمي.

العرش) ومعنى الاستواء على العرش: إستلام زمام حكم الكون كلّه وإدارة الخلق جميعاً، هذا عند المتأخّرين، وأمّا عند السّلف فالإستواء على العرش معلوم والكيفيّة مجهولة والسّؤال عنها بدعة والخوض في مثل هذه الآيات من مزالق الأقدام ومن مهالك الأوهام، والله تعالى أعلم بكنه ذاته وكيفيّة أفعاله وصفاته **(يدبّر الأمر)** أي يقدر الله تعالى الأمور كلّها ويخلقها ليس في قدرة أحد غيره تدبّر أي أمر من الأمور ولا إيجاد شيء من الأشياء **(ما من شفيع إلّا من بعد إذنه)** الشّفيع من يريد ويحاول أن يدفع ضرراً عن غيره أو يجلب خيراً له فقوله: (ما **من شفيع)** معناه لا يستطيع أحد أن يدفع ضرراً عن غيره ولا أن يجلب له خيراً **(إلّا من بعد إذنه)** تعالى وإرادته ذلك. هذا ومن الجدير أن نذكر معنى الشّفاعة هنا ونبيّنها للنّاس فنقول: الشّفاعة تكون في الدّنيا وتكون في الآخرة، فالشّفاعة في الدّنيا تكون بالأمور الماديّة وبالأمور المعنويّة. فأمّا الشّفاعة في الدّنيا بالأمور الماديّة وهي المحاولة والسّعي لإيصال خير إلى أحد أو دفع ضرر عنه أو إلحاق ضرر به ـ فتكون بمباشرة الأسباب الماديّة الّتي جعلها الله تعالى سبلاً للإيصال إلى مسبّباتها وأجرى من عادته أن يخلق المسبّبات بعد وجود هذه الأسباب، وهذه الشّفاعة لا تتمّ إلّا بإذن الله تعالى، فإنّ خلق المسبّب بعد السّبب يعود إلى الله تعالى، فلو لم يرد خلقه لا يوجد وإن وجد جميع أسبابه، فمن اعتقد أنّ الأسباب موجودة للمسبّب أو تجبر الله تعالى على خلقه فهو كافر، ومن باشر الأسباب واعتقد أنّ الله تعالى يجعل من عادته خلق المسبّب بعد السّبب وتوكّل عليه في خلق المسبّب فهو مؤمن موحّد لا خلل في إيمانه، وذلك مفهوم من قوله تعالى حكاية عن يعقوب (عليه السلام): (وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٦٧. بهذا التدبير (ما أغني عنكم من) قدر (الله من شيء) حيث (إنّ الحكم) ليس القضاء والقدر والتّكوين (إلّا لله) تعالى ولكن اتّخاذ الأسباب لازم وبعد ذلك يجب التّوكل على الله تعالى في خلق المسبّب فلذلك (عليه توكّلت) في حفظكم باتّخاذ هذه الطّريقة في دخول مصر (وعليه) أي على الله وحده (فليتوكّل المتوكّلون) أي إذا أرادوا أن يتوكّلوا على شيء فعلى الله فليتوكّلوا لا على غيره، فإنّه لا موجد إلّا الله ولا موفّق إلّا الله تعالى، وأمّا الشّفاعة في الدّنيا بطريق المعنويّات فلا توجد إلّا بالدّعاء والتّضرع إلى الله تعالى أن يوصل الخير إلى أحد أو يدفع عنه ضرّاً أو يلحق به ضرراً، فمن دعا لغيره بشيء جاز ومن طلب الدّعاء من غيره لشيء جاز، ومن اعتقد أن

لأحد سوى الله سلطة غيبيّة تدفع بها الضّرر ويجلب بها الخير للغير فهو شرك بالله، لأنّ هذه السّلطة مختصّة بالله تعالى لم يعطها لأحد من عباده مهما كانت درجته من الصّلاح، وذلك مفهوم من قوله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ سورة الجنّ الآية/ ٢١.

وأمّا الشّفاعة في الآخرة فهي محاولة زيادة ثواب لأحد أو رفع عذاب أو دفعه، وذلك لا تكون إلّا بإذن الله تعالى، وذلك بأن يأذن الله تعالى لأنبيائه أو أوليائه أو صلحاء النّاس أن يتضرّعوا إليه ويسألوه ذلك، وذلك تكرمة لهم، وهذه الشّفاعة بهذا النّوع ثابتة بالآيات والأحاديث الصّحيحة منها:

١- قال تعالى هنا كما جاء أعلاه: (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) أي ما من شفيع يشفع وتفيد شفاعته إلّا بإذنه، وأما بإذنه فموجودة ومفيدة.

٢ ـ قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٥. فيفيد أنّه يشفع عنده بإذنه.

٣ ـ قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ سورة مريم الآية/ ٨٧. أي إذناً بالشّفاعة، فيفيد أنّ الشّفاعة بإذنه موجودة.

٤ ـ قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ سورة طه الآية/ ١٠٩. فتفيد الآية أنّ شفاعة من أذن له الرّحمن تفيد وتنفع، ومن يأذن الله الشّفاعة له وهو المؤمن، فالكافر لا يؤذن له بالشّفاعة، وهذا القدر كاف في وجود الشّفاعة ونفعها يوم القيامة.

سؤال: فإذا كانت الشّفاعة موجودة فلماذا يلام المشركون حينما يقولون لأصنامهم وآلهتهم هؤلاء شفعاؤنا؟ ويحتجّون بقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ سورة يونس الآية /١٨.

الجواب: هؤلاء ملامون وكافرون لأمرين:

الأمر الأوّل: أنّهم عبدوا هؤلاء الشّفعاء بأن اعتقدوا فيها القدسيّة وعظّموها كتعظيم الله تعالى، وعملوا لها أعمالاً تخصّ الله تعالى كالسّجود لها والنّذر لها وتقديم القرابين إليها، والتّقرب إليها، فكلّ من فعل شيئاً من هذه الأمور لغير الله تعالى فهو كافر مشرك اتّخذ غير الله تعالى إلهاً آخر.

الأمر الثّاني: أنّهم اعتقدوا في أصنامهم أنّها تشفع بدون إذن الله، وأنّ لها حقّاً في ذلك لوجود شركة لها مع الله تعالى، وهذا كفر وإشراك بالله تعالى، وأمّا الشّفاعة في الإسلام؛ فهي تكرمة من الله تعالى لبعض عباده أن يشفعوا لمن هو راض بالشّفاعة لهم، فهذا أمر لا شرك فيه. وكذلك اعتقد المشركون أنّ لآلهتهم سلطة غيبيّة يضرّونهم بها وينفعونهم بها؛ ولذلك كانوا يتضرّعون إليهم ويتقرّبون إليهم بالنّذور والقرابين وذلك أيضاً كفر وإشراك بالله تعالى.

* * *

هذا ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه هو الّذي خلق السّماوات والأرض وأنّ بيده زمام الأمور وتدبيرها كلّها، ولا أحد ينفع أو يضرّ في الدّنيا والآخرة إلّا بإذنه قال: **(ذلكم)** العظيم **(ربّكم)** إليه يعود تربيتكم تكويناً وتكليفاً **(فاعبدوه)** فأطيعوه ولا تطيعوا غيره إلّا من أمر هو بإطاعته وفي حدود ما أمر. ولا تعتقدوا في غيره النّفع والضّرر إلّا بإذنه **(أفلا تذكّرون)** أفلا تعلمون أنّه لا يليق بالعبادة غير هذا القادر العظيم، وغير من بيده الخير والنّفع والضّرر كلّه[1] فتتركوا عبادة الآلهة والأصنام من الهياكل أو الأشخاص أو الأجرام؟ والإستفهام للتّوبيخ والتّهديد فمن لا يذكر هذا التّذكّر فإنّه يستحقّ العذاب الأليم والله تعالى أعلم.

الأمر الثّاني: من الأمرين الأساسيّين الّذي بعث الرّسول (ﷺ) هو الإيمان بيوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤﴾

(إليه) أي إلى الله تعالى **(مرجعكم)** مصدر ميمي أي إلى الله رجوعكم بعد الموت للحساب **(جميعاً)** مجتمعين في ساحة الحشر والحساب **(وعد الله)** أي وعد الله بذلك الرّجوع وعداً حقّ ذلك وثبت **(حقاً)** لا شكّ فيه **(إنّه)** أي الله تعالى **(يبدؤا**

---

(١) أي الله.

الخلق) أي خلق الإنسان إبتداءً **(ثمّ)** بعد موته **(يعيده)** كما بدأ إلى الحياة، وليست الإعادة بأعجب من الإبداء **(ليجزي)** اللّام لام العاقبة فالمعنى: إنّ عاقبة الإعادة هي أنّ الله تعالى **(يجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** على إيمانهم وأعمالهم **(بالقسط)** بالعدل دون أن ينقص من أعمالهم شيئاً **(والّذين كفروا لهم شراب من حميم)** أي ما بلغ من الحرارة أشدّها **(وعذاب أليم بما)** ما مصدرية تؤول ما بعدها مصدراً أي بسبب كونهم **(يكفرون)** بشريعته وعقابه يوم القيامة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما يدلّ على وجوده ووحدته وحسابه يوم القيامة. فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

(هو الّذي جعل الشّمس ضياءً) أي مضيئةً **(والقمر نوراً)**أي منيراً، وهنا معجزة وهي أنّ الضّياء يقال لما كان نوره من ذاته، والنّور يقال لما كان نوره من غيره يقتبس منه ويعكسه لغيره كالمرآة، وبعد نزول القرآن وفي زمن الدّولة العبّاسية حينما وضعت المراصد واكتشفت بعض أجرام السّماء علم أنّ الشّمس نورها من ذاتها ولكن القمر جسم كمد[1] مظلم يأخذ النّور من الشّمس ويعكسه إلى الأرض، فمن أين علم محمّد هذا الفرق. ليعبّر هذا التّعبير إن لم يكن القرآن من عند الله تعالى **(وقدّره)** أي قدر سير القمر **(منازل)** وهي ثمان وعشرون منزلاً، يكون الهلال فيها مرئياً، وبعد الشّمس، وفي منزل آخر يكون مع الشّمس لا يرى إذا كان الشّهر تسعاً وعشرين يوماً، وإذا كان الشّهر ثلاثين يكون يومين قريباً من الشّمس فلا يرى، فيكون الهلال كلّ ليلة في منزل، وهذه المنازل هي: ١ ـ الشّرطان ٢ ـ والبطين ٣ ـ والثّريا ٤ ـ والدّبران ٥ ـ والهقعة ٦ ـ والهنعة ٧ ـ والذّراع ٨ ـ والنّثرة ٩ ـ والطّرف ١٠ ـ والجبهة ١١ ـ والزّبرة ١٢ ـ

(١) أي محزن غير صاف./ لسان العرب ٣/ ٣٨١ مادة كمد.

والعرفة ١٣ ـ والعوّا ١٤ ـ والسّماك ١٥ ـ والغفر ١٦ ـ والزّبانى ١٧ ـ والإكليل ١٨ ـ والقلب ١٩ ـ والشّولة ٢٠ ـ والنّعائم ٢١ ـ والبلدة ٢٢ ـ وسعد الذّابح ٢٣ ـ وسعد بلع ٢٤ ـ وسعد السّعود ٢٥ ـ وسعد الأخبية ٢٦ ـ وفرغ الدّلو المقدّم ٢٧ ـ وفرغ الدّلو المؤخّر ٢٨ ـ وبطن الحوت. فهذه منازل القمر وهي مقسومة على البروج الإثني عشر: الحمل والثور والجوزاء والسّرطان والأسد والسّنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدّلو والحوت، ولكلّ برج منزلان وثلث منزل، فينزل القمر كلّ منزل ليلة ثمّ يستتر ليلتين تحت ضوء الشّمس لقربه منها إن كان الشّهر ثلاثين، وليلةً واحدةً إن كان تسعاً وعشرين، ولم يعتبر المنزل الّذي يختفي فيه لأنّ المعتبر المنازل الّتي يرى فيها الهلال، فيقطع القمر هذه المنازل والبروج الإثني عشر كلّ ثلاثين يوما أو تسعة وعشرين، فتعدّ شهراً. ودورة الشّمس أي قطعها للبروج في سنة شمسية ولكلّ برج في شهر شمسي. وكلّ دورة يقطع القمر فيها البروج الإثني عشر يعدّ شهراً قمرياً، وحيث إنّ القمر يقطع البروج في السّنة الشّمسية إثني عشر برجاً وثلث برج زادت السّنة الشّمسية على القمريّة بعشرة أيام تقريباً، ولذلك تدور الشّهور القمريّة في الفصول والأشهر الشّمسيّة، والمعتبر في الشّرع هي السّنة القمريّة والأشهر القمريّة لا الشمسيّة فكلّ حكم شرعي يناط بالأشهر كالعدّة والحمل وغير ذلك، فالمعتبر الشّهور القمريّة وذلك لأنّ الشّهور القمريّة تعرف بظهور الهلال وإختفائها، فيستطيع أن يعرفها القرويّ والحضري والأمّي، بخلاف الأشهر الشّمسيّة فإنّها مربوطة بحساب البروج والفلك، فلا يعرفها إلّا أهل الحساب، وكذلك ربط الله تعالى الحساب بسير القمر وشهوره فقال جلّ وعلا: (**لتعلموا عدد السّنين**) بحركات القمر ولتعلموا (**بذلك**) الحساب لمعاملاتكم وأموركم وتجارتكم وأعماركم (**ما خلق الله ذلك**) النّظام البديع والخلق العجيب (**إلّا بالحقّ**) أي للحقّ وإقامته ولأن يضع نظاماً حقّاً وعدلاً لمن يعيش في هذا الكون ليحكموا به ويعيشوا وفق تعليماته وإرشاداته (**يفصّل**) أي يبيّن الله تعالى (**آياته**) أي دلائله الدّالة على وجوده ووحدته ونظامه وحسابه يوم القيامة وتفيد هذه الآيات (**لقوم يعلمون**) أي يحبّون العلم بحقائق الأمور فيستدلّون بالدّلائل على مدلولاتها ويأخذون بها، وأمّا من لا يحبّ العلم ولا يسعى له سعيه، فأولئك كالأنعام لا يستفيدون من كلّ دليل ولا برهان (**إنّ في اختلاف اللّيل والنّهار**) إنّ في مجيء أحدهما خلف الآخر باستمرار الزّمان دون تخلّف وتوقّف من أحدهما (**وما**) أي وفي (**ما خلق الله في السّماوات**) من هذه الأجرام الموقوفة في الفضاء والّتي لا يحصيها إلّا الله تعالى كمّاً وكيفاً (**والأرض**) أي وفيما

خلقه في الأرض من النّباتات الّتي لم تحص أنواعها إلى الآن، والحيوانات الّتي لم تحص أنواعها إلى الآن، والمعادن الّتي لم يكشف كلّها ولا عشر معشارها إلى الآن، وغير ذلك من الوديان والتّلال والصّحارى والجبال والعيون والأنهار والثّمار والأشجار **(لآيات)** لبراهين تدلّ على وجود الله تعالى ووحدته ومجيء يوم حسابه، وتفيد تلك الآيات **(لقوم يتّقون)** أي يحبّون معرفة الباطل ليتجّنبوه والشّر فيبتعدوا عنه، وأمّا غيرهم فلا يفيدهم شيء من الآيات بل هم صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون.

تنبيه: قال تعالى في الآية الأولى والثّانية: **(لآيات)** بالجمع لا بالإفراد إشارة إلى أنّ هذا النّظام من حيث مجموعه آية، وكلّ ما فيه من الشّمس والقمر وسيرها واللّيل والنّهار واختلافهما، وما في السّماوات والأرض كلّ واحد من هذه الأمور آية مستقلّة فهي آيات كثيرة ولذلك يقول الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

* * *

تنبيه آخر: كيفيّة الإستدلال بما في هاتين الآيتين على وجود الله تعالى ووحدته ومجيء يوم الحساب تكون كالآتي: حينما يرى العاقل وينظر إلى هذا النّظام العجيب والكون العظيم والصّنع البديع يعلم أنّ هذا النّظام لا يمكن أن يوجد بدون إيجاد صانع عليم بلغ علمه النّهاية، وقدير بلغت قدرته الغاية، وإنّه متّصف بالسّمع والبصر والحياة والتّدبير والإختيار، لأنّ كلّ صنعة تحتاج إلى أن يكون صانعها حيّاً عالماً قديراً سميعاً بصيراً ومدبّراً، وإنّ الطّبيعة الصّماء لا علم ولا قدرة ولا إختيار ولا تدبير لها، فلا إيجاد للطّبيعة ولا تكوين لها، فيعترف هذا العاقل بأنّ صانع هذا الكون ذات له علم شامل وقدرة شاملة وسمع وبصر واختيار وهو الله تعالى، فإذا عرف الله تعالى بهذه الصّفة يعلم أنّه واحد لا شريك له لأنّ الشّريك إنّما يتّخذه العاجز عن عمله أو الجاهل به، والله ليس كذلك فما اتّخذ شريكاً فلا شريك له، فإذا علم بذلك يعلم أنّ من صنع هذا النّظام التّكويني البديع، وهذا الصّنع العجيب، وأسكن فيه الإنسان المختلف في ميوله وطبائعه وفي تفكيراته وتصوّراته والمتنافس على حياته ومنافعه وسلطاته وإرادته لا يعقل ولا يتصوّر أن يترك الله هذا الإنسان وأن لا يضع له نظاماً تكليفيّاً يتقيّد به في حلّ منازعاته وفي كيفيّة إدارة شؤونه وأولاده ومجتمعه وقوميّاته، ويبيّن له ما يضرّه وينفعه ويصلح ويفسد، وإنّه خير أو شرّ وحقّ أو باطل، فإنّ رئيس بيت يضع نظاماً لأهل بيته ورئيس قرية يضع نظاماً لسكان قريته، وحاكم بلدة يضع نظاماً لمن في بلدته، فكيف لا

يضع الله تعالى نظاماً لخلقه؟ وهو أحكم الحاكمين فهو أحقّ بوضع النّظام لا غيره لأنّه هو صاحب الخلق كلّه وهو العليم بما يصلح لهم وينفع ويضرّ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ سورة الملك الآية/ ١٤. فيعترف أنّ لله نظاماً وشريعة أرسلها إلى رسله وبلّغوا النّاس بها، فإذا علم ذلك يعلم أنّ كلّ نظام يقضي بثواب من أطاعه وعقاب من ابتعد عنه، ويرى أنّ هذا الثّواب والعقاب لا ينفذان كليّاً في الدّنيا، حيث يموت كثير من الصّالحين دون أن يلقوا ثواباً لأعمالهم الصّالحة وكثيراً من الطّالحين يموتون دون أن يلقوا عقاباً على سيئاتهم، فلو لم يكن يوم يلقى النّاس فيه جزاء أعمالهم والصّالح ثوابه والفاسق عقابه لما تحقّق عدالة الله تعالى وهو محال، فلابدّ من مجيء يوم ينفّذ فيه هذا الثّواب والعقاب وهو يوم القيامة، وإلى هذا أشار الله تعالى في كثير من الآيات منها:

١- قال تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ سورة التين الآية/ ٨،٩.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سورة (ن) الآيات/ ٣٤، ٣٥، ٣٦. راجع تفسيرنا لهاتين الآيتين تجد ما يثلج البال والحمد لله ذي الجلال والإفضال.

* * *

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى عن يوم القيامة وأثبت مجيئه أراد أن يذكر حال الكافرين بذلك اليوم فيه فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

(**إنّ الّذين لا يرجون**) لا يتوقّعون (**لقاءنا**) يوم القيامة حيث لا يؤمنون به فلا يخافون عقابه، ولا يأملون ثوابه، فلا يعملون لذلك اليوم (**ورضوا بالحياة الدّنيا**) فيعملون لها لا لضدها (**واطمأنّوا بها**) لإنكارهم غيرها (**والّذين هم عن آياتنا**) أي عن دلائلنا الدّالة على وجود يوم القيامة وعن أحكامنا وشرائعنا (**غافلون أولئك**) إشارة إلى الّذين لا يرجون اللّقاء وإلى الّذين هم غافلون عن الآيات، جيء بها لجمعها في شيء واحد والحكم عليهم بحكم واحد وهو قوله تعالى: (**مأواهم**) أي مرجع ومصير هؤلاء جميعاً (**النّار**) يوم القيامة (**بما كانوا يكسبون**) من عدم الإيمان بيوم الجزاء وعدم التّفكر في

الدّلائل الدّالة عليه، والعمل للدّنيا فقط وترك العمل للآخرة، فتفيد الآية أنّ النّظر في الدّلائل للوصول إلى الحقّ واجب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

(إنّ الّذين آمنوا) بالله واليوم الآخر **(وعملوا الصّالحات)** وهي الأعمال الّتي اعتبرتها الشّريعة صالحة لا العقل والعرف والبيئة **(يهديهم ربّهم)** إلى منازل حسنة **(بإيمانهم)** أي بسبب إيمانهم **(تجري من تحتهم الأنهار)** لسقي بساتينهم أو للشّرب منها، وهي أنهار اللّبن والعسل والخمر والماء والزّلال، أو المراد كلاهما، حيث كلاهما موجودان. وتلك المنزل والأنهار **(في جنّات النّعيم)** إضافة الجنّات إلى النّعيم إضافة المكان إلى ما فيه، إشارة إلى أنّ في تلك الجنّات النّعيم فقط، بخلاف جنّات الدّنيا، فإنّ فيها المشقّة أزيد من النّعيم **(دعواهم)** أي كلّ عبادتهم ودعواتهم وذكرهم فيها **(سبحانك)** أي ننزّهك تنزيهاً عن تخلّف الوعد، فقد أنجزته ومننت به علينا، وهذه العبادة عبادة تلذّذ وإعتراف بالفضل لا عبادة تكليف، حيث لا تكليف هناك **(وتحيّتهم)** فيها فيما بينهم ومن الملائكة لهم هي **(سلام)** عليكم أي لا كراهة بعد اليوم ولا مشقّة ولا موت، وإنّما هو نعيم دائم وحياة خالدة **(وآخر دعواهم)** بعد كلّ نعمة ولذّة **(أن)** مخففة من الثّقيلة فتعمل في ضمير الشّأن المقدّر فالتّقدير **(أنّه)** أي أنّ الشّأن هو **(الحمد)** أي كلّ الثّناء والشّكر **(لله ربّ العالمين)** الّذي ربّانا في الدّنيا بالإسلام وأثابنا عليه بهذا التّكريم والإنعام.

ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) كان يستمرّ في الدّعوة ويتلو على النّاس آيات الإنذار والتّبشير، وما كان يثنيه عن ذلك كلّ ما يلقاه من إنكار وتكذيب واستهزاء وصعوبات، فكان الكافرون يتحدّونه ويقولون له ما أورده تعالى في قوله: ﴿وإذ قالوا اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو إئتنا بعذاب أليم﴾ سورة الأنفال الآية/ ٣٢. ففي جواب تحدّيهم هذا قال جلّ وعلا:

﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

(**ولو يعجّل الله للنّاس الشرّ**) فأتى به عليهم مثل (**إستعجالهم**) أي مثل إستعجاله تعالى (**بالخير**) لهم (**لقضي**) قرئ ببناء المجهول وبناء المعلوم وعلى التّقديرين معناه: لنفّذ تعالى (**أجلهم**) بالرفع على القراءة الأولى وبالنّصب على الثّانية، أي لأتى بأجل هلاكهم وأهلكهم الآن، والله تعالى لا يستعجل بالأمور، وجعل لهلاك وعذاب كلّ أمّة أجلاً؛ فيترك النّاس مستمرّين على عتوّهم وضلالهم وفسادهم ولذلك (**فنذر**) أي فنترك هؤلاء (**الّذين لا يرجون لقاءنا**) ويتحدّون الرّسول استهزاءً به نتركهم (**في طغيانهم يعمهون**) أي يتردّدون إستدراجاً لهم إلى أن يأتى أجلهم، فاذا جاء أجلهم أخذناهم بغتةً وهم لايشعرون. قال رسول الله (ﷺ): (لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا لإجابة السّاعة فيستجيب لكم)[١].

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن طبيعة النّاس غير المستقيمة كأمثال المشركين فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

(**وإذا مسّ**) يقال مسّ للشّيء القليل فالمعنى وإذا أصاب (**الإنسان**) ولو قليلاً (**الضرّ دعانا**) وتضرّع إلينا في كلّ حال (**لجنبه**) أي على جنبه مضطجعاً (**أو قاعداً أو قائماً**)

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٣٠٤ الحديث رقم ٣٠٠٩ ونصّ الحديث عن جابر بن عند الله قال: (سرنا مع رسول الله في غزوة بطن بواط وهو يطلب المجدي بن عمرو الجهني وكان النّاضح يعقبه منّا الخمسة والسّتة والسّبعة فدارت عقبة رجل من الأنصار على ناضح له فأناخه فركبه ثمّ بعثه فتلدن عليه بعض التلدن فقال له شأ لعنك الله!فقال رسول الله من هذا اللّاعن بعيره؟ قال: أنا يارسول الله، قال: إنزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم ولا على أولادكم ولا تدعوا على أموالكم لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم.)

وأو بمعنى الواو أي تضرّع في كلّ حال إلينا لأنّ ندفع عنه ضرّه **(فلمّا كشفنا)** أي دفعنا **(عنه ضرّه)** نسانا وطغى ثمّ غمر واستمرّ على كفره أو فسقه **(كأن)** مخففة من الثّقيلة فإسمه ضمير الشأن مقدّر تقديره كأنه **(لم يدعنا إلى)** كشف **(ضرّ مسّه كذلك)** مثل ما ترى من حال الإنسان غير المستقيم **(زيّن)** أي زيّن الشّيطان **(للمسرفين)** أي للمتجاوزين الحقّ والحدّ **(ما كانوا يعملون)** من الجزع عند الشّدة والطّغيان ونسيان حقّ المنعم عليهم عند الرّخاء، وأمّا الإنسان المستقيم، فإذا أصابه الضرّ دعا وصبر، وإذا أصابه الخير ذكر الله تعالى وتشكّر.

ثمّ أراد الله تعالى أن يلفت أنظار النّاس المنحرفين من قوم محمّد (ﷺ) ممّن آمنوا به أو لم يؤمنوا إلى الأمم الّتي أهلكوا قبلهم نتيجة الكفر والعصيان والفسوق ليعتبروا بهم فيرجعوا عما بهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(ولقد) اللّام جواب قسم محذوف أي وبعزّتي لقد **(أهلكنا القرون)** جمع قرن أي أهل القرون والقرون هو جيل **(من قبلكم)** أيّها المنحرفون عن دين محمّد وغير التّابعين له فأهلكناهم **(لمّا ظلموا)** وتجاوزوا الحقّ ولم يتّبعوا رسولهم، ولم يعملوا بشرعه الّذي جاء به **(وجاءتهم رسلهم بالبيّنات)** بالمعجزات والدّلائل الدّالة على رسالتهم **(وما كانوا)** بعد هذه المعجزات **(ليؤمنوا)** وليتّبعوهم ويطّبقوا شرع الله تعالى **(وكذلك)** مثل ما ذكرنا **(نجزي المجرمين)** بانحرافهم عما جاء به الرّسل وعدم العمل به **(ثمّ جعلناكم)** يا من أرسل إليهم محمّد **(خلائف)** جمع خليفة أي أتينا بكم خلف هؤلاء الأقوام ومكنّاكم **(في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون)** هل تتّبعون رسول الله تعالى وتعملون بشريعته، فيمنّ الله تعالى أنعامه عليكم في الدّنيا ويثيبكم في الآخرة بالجنّة، أو تنحرفون عمّا جاء به الرّسول فيعذّبكم الله تعالى في الدّنيا مثل من سبقكم بالبلايا والمصائب، وفي الآخرة بنار جهنّم وبئس المصير، ولقد صدق الله تعالى وعيده هذا فينا فعذّبنا بالذّل والإستعمار في الدّنيا، وما ندري ماذا يفعل بنا يوم القيامة من العذاب إن لم يغفر لنا ويرحم، فإنّا للعذاب مستحقّون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سوء أدب من يخاطبهم الرّسول في وقته وكيف يجيبونه حينما يتلو عليهم آيات الله تعالى وقرآنه فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨)﴾

(وإذا تتلى عليهم) أي على الكافرين **(آياتنا)** أحكامنا من قبل محمّد (ﷺ) وكانت تلك الآيات **(بيّنات)** واضحات عند العقل السّليم بأنّها حقّ وعدل **(قال الّذين لا يرجون لقاءنا)** أي لا يتوقّعون الثّواب والعقاب يوم القيامة ولقاء الله تعالى فيه فلا يؤمنون بالحشر والحساب، وهؤلاء الكافرون في كلّ زمان يقولون لمن بين لهم حكم الله تعالى حين لا يوافق هواهم ومصلحتهم **(ائت بقرآن غير هذا)** أي بحكم غير هذا من عند الله تعالى **(أو)** إذا لم تأت به من عنده **(بدّله)** أي هذا الحكم من عندك، فإنّه لا يوافق المصلحة والعصر وتطوير الزّمان **(قل)** في جوابهم (ما **يكون)** أي ما يمكن ويصحّ **(لي أن أبدّله من تلقاء)** أي من عند **(نفسي)** فإنّ حكم الله تعالى لا يُغَيَّر **(إن أتّبع إلّا ما يوحى)** من الله تعالى من القرآن أو من الأحاديث، وذلك حيث **(إنّي أخاف إن عصيت ربّي)** بتبديل حكم من أحكامه **(عذاب يوم عظيم)** وهو يوم القيامة **(قل)** لهم يا محمّد **(لو شاء الله ما تلوته)** أي ما قرأت هذا الحكم **(عليكم ولا أدراكم)** ولا أخبركم الله **(به)** أي بهذا الحكم، ولكنّ الله تعالى أمرني بذلك؛ فهو من ربّي لا منّي، والدّليل على أنّه ليس منّي بل هو من ربّي هو تأريخ حياتي فيكم **(فقد لبثت)** أي عشت **(فيكم)** بينكم **(عمراً)** مديداً أربعين سنة ما أمرتكم بشيء ولا أخبرتكم بحكم **(أفلا تعقلون)** أن

واحداً مثلي عاش بينكم أميناً صادقاً ما كلّفكم بشيء ولا دعاكم إلى أمر أو حكم هذه المدّة من العمر، وبعد ذلك يفاجئكم بالعودة وبيان الأحكام، إنّ ذلك هو من الله تعالى وليس من عندي (**فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً**) بأن أسند حكماً إليه ولم يحكم هو به (**أو كذّب**) أي لعب (**بآياته**) بأحكامه فبدّلها أو أوّلها حسبما يراه هواه أو هوى غيره أو إرضاءً لغنيّ أو سلطان؟ والإستفهام للإنكار أي لا يوجد أحد أظلم من هذا النّوع من النّاس وإنّهم مجرمون والحال (**أنّه**) أي أنّ الشأن (**لا يفلح المجرمون**) أي لا يفوزون برحمة الله تعالى يوم القيامة، فكيف أبدله؟ وهذه الآية أشدّ وعيد ولوم لمن أوّل أحكام الله تعالى أو انحرف عنه لمصلحته أو مصلحة غيره أو لهواه أو لهوى غيره إرضاءً له، وما أكثر اليوم هؤلاء المجرمون (**ويعبدون من دون الله**) أي الكافرون ويعبدون (**ما لا يضرّهم**) شيئاً (**ولا ينفعهم**) شيئاً (**ويقولون**) حينما يقال لهم كيف تعبدون هؤلاء الهياكل أو الأشخاص أو الأجرام (**هؤلاء شفعاؤنا**) يشفعون لنا (**عند الله**) تعالى فينقذوننا من عذابه ولهم حقّ على الله تعالى في ذلك (**قل**) لهم (**أتنبّئون**) أي أتخبرون الله وتقولون (**بما**) بأمر وهو شفاعتهم لكم وإنّ هذا الأمر (**لا يعلم**) أي لا يعلمه الله موجوداً لا (**في السّماوات ولا في الأرض**) وهذا مبالغة في عدم صحّة هذا الأمر وعدم وجوده، فإنّه لو كان موجوداً لعلمه الله تعالى، فمعناه: أتنبّئون بما هو ليس موجوداً لا في السّماوات ولا في الأرض وتكذبون؟ (**سبحانه**) أي تنزه الله تعالى عن أن يشاركه أحد أو يشفع عنده أحد إلّا بإذنه وتنزّه (**عمّا**) أي عن كلّ ما (**تشركون**) به في العبادة أو الأمل في أن ينقذكم من عذابه أو يحظيكم بثوابه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حكمته في إرسال الرسل واحداً بعد الآخر فقال جلّ وعلا وعمّنا لطفه ونواله:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

(**وما كان النّاس إلّا أمةً واحدةً**) متفقةً على الإسلام دين الله من لدن آدم إلى آخر الزّمان (**فاختلفوا**) بعد ذلك الزّمان؛ فمنهم من ثبت ومنهم من كفر، فبعث الله رسولاً ليبيّن المحقّ منهم من المبطل، ويعيد بالدّين إلى أصله وينقّيه من أباطيل ألصقت به (**ولولا كلمة سبقت**) أي حكم من الله تعالى سبق أنّه لا يعذّب قوماً حتّى يبعث لهم

رسولاً ويوضّح لهم الحقّ ويظهر المعجزة ويبلّغهم بأمر الله تعالى ويبّشرهم وينذرهم **(لقضي)** أي لقضى الله تعالى **(بينهم)** أي بين المحقّين والمبطلين **(فيما فيه يختلفون)** بأن يهلك الكافرين عقب كفرهم فوراً، ولكن لم يهلكهم حيث حكم أنّ لا يهلك قوماً إلّا بعد الإنذار والتّبشير، كما قال تعالى: ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥.

ثمّ بعد أن أثبت الله تعالى لمنكري الرّسول أنّ العصر أصبح بحاجة إلى أن يرسل الله تعالى رسولاً يهديهم إلى الحقّ لوجود الاختلاف في العقائد والأحكام بين النّاس، اتّخذوا جانباً آخر في معارضة الرّسول كما قال عنهم جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(ويقولون لولا أنزل عليه) أي على محمّد **(آية من ربّه)** أي خارقة كخوارق موسى من فلق البحر وتفجير العيون من الصّخرة، وكناقة صالح إلى غير ذلك **(فقل)** يا محمّد **(إنّما الغيب)** كلّه **(لله)** فهو يعلم الحكمة في عدم إنزاله مثل هذه الآيات عليَّ، وتخصيصي بآيات أخرى أنزلها تعالى، فإن أبيتم إلّا الكفر وما أقتنعتم بما أوتيت من الآيات كلّها **(فانتظروا)** حكم الله تعالى بيني وبينكم **(إنّي معكم من المنتظرين)** ذلك فأتى الله تعالى بحكمه بينهم فأذلّ الكافرين ونصر المؤمنين، وتبيّن الحقّ للجميع، فكانوا

يسمّون زمانهم قبل الإسلام بزمان الجاهليّة فيقولون: كنّا في الجاهليّة كذا وكذا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن طبيعة بعض النّاس تسليّة للرّسول(ﷺ) وتخفيفاً من حرصه عليهم فقال جلّ وعلا: **(وإذا أذقنا النّاس)** اللّام إمّا للعهد فيراد بعض النّاس المعهودين، وهم قساة القلوب والغافلون عن الله تعالى، أو اللّام للإستغراق، فيراد كلّ النّاس إلّا من حقّهم الله تعالى بلطفه، فطبيعة النّاس أنّهم إذا أذقناهم **(رحمةً)** نعمةً ورخاءً **(من بعد ضرّاء مسّتهم)** كالقحط أو الجدب أو مكروه آخر غير ذلك **(إذا لهم)** بدل أن يشكروا الله تعالى على كشف النّعمة وإسدال النّعمة **(مكر)** أي تبديل وتأويل لهذه النّعمة الّتي أصابتهم يقولون: كان الضرّ بسبب كذا والكشف بسبب كذا، مثلاً إذا أمسك الله تعالى المطر عنهم كانوا يأتون إلى الرّسول (ﷺ) ويطلبون الدّعاء والإستسقاء منه، فيدعو فيأتيهم المطر، ثمّ بعد ذلك يقولون: مطرنا حيث طلع النّجم الفلاني أو وصل الكوكب الفلاني ذلك المكان، وهكذا يؤوّلون **(في آياتنا)** أي على ما يدلّ على قدرتنا من كشف البلاء عنهم وإسدال النّعمة عليهم، فيصرفونها وينسبونها إلى غير الله تعالى **(قل)** أيّها النّبيّ وأيّها المسلم لهؤلاء الكفرة **(الله)** تعالى **(أسرع مكراً)** أي إنتقاماً منك على كفرانكم هذه النّعم وإنكاركم آيات الله تعالى حيث **(إنّ رسلنا)** وهم الكرام الكاتبون **(يكتبون ما تمكرون)** من إنكار قدرة الله تعالى ونسبة ما هو من خلقه إلى غيره وعدم شكره سبب ذلك. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مثالاً من واقعهم الّذي يدلّ على طبيعتهم هذه فقال: **(هو)** أي الله تعالى **(يسيركم في البرّ والبحر حتّى إذا كنتم)** ركبتم **(في الفلك)** أي السّفن على البحر **(وجرين)** أي سارت السّفن **(بهم)** أي بمن فيها جرياً طيباً **(بريح)** أي بسبب أن سقنا تلك السّفن بريحٍ طيبةٍ موافقةٍ لجريها **(وفرحوا بها)** أي بهذه الرّيح الطيّبة وسوقها للسّفن وغفلوا لفرحهم هذا عن الله تعالى، وأسندوا الجري وسلامة السّفن إلى الرّياح، فبعد ذلك قدّر الله تعالى أنّه **(جاءتها)** أي تلك السّفن **(ريح عاصف)** فهيّجت أمواج البحر **(وجاء الموج)** الّذي يغيّر سير السّفن **(من كلّ مكان)** أي جهة **(وظنّوا)** وأيقنوا **(أنّهم أحيط بهم)** أي أهلكوا؛ فحينئذ تذكّروا الله تعالى وأصبحوا **(دعوا الله)** وتضرّعوا إليه **(مخلصين)** مطهّرين **(له)** أي الله تعالى **(الدّين)** أي العقيدة من كلّ مشرك قائلين والله **(لئن أنجيتنا)** يا ربّنا **(من هذه)** التّهلكة **(لنكوننّ من الشّاكرين)** بتوحيدك والتّمسك بأوامرك والإجتناب عن ما نهيت عنه **(فلما أنجاهم)** من هذه التّهلكة ووصلوا إلى البرّ سالمين **(إذا هم يبغون)** يظلمون فيرجعون إلى شركهم ومعاصيهم وينسبون سير السّفن إلى الأنواء، وإضطرابها إلى أنواء، وسكونها إلى أنواء أخرى، وينسون قدرة الله تعالى ونعمته عليهم والإنجاء من

الغرق، وفي الحديث أنّه (ﷺ) أصبح على أثر مطر كانت من اللّيل قال: أتدرون ماذا قال ربّكم اللّيلة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأمّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب)[١] إنّ الإسلام لا ينكر أنّ الله تعالى خلق هذا الكون ويجري الأمور فيه، وجعل فيه أسباباً ومسبّبات وأنّه تعالى يخلق المسبّبات بعد الأسباب، وقد صرّح الله تعالى في آيات بأنّ المطر سببه السّحاب والسّحاب تسوقه الرّيح إلى حيث شاء الله، وأنّ النّبات ينبت بالماء إلى غير ذلك، فلا يقال: إنّ علم النّجوم والأنواء كفر، بل إنّ الإسلام يجعل الأسباب كلّها من خلق الله تعالى، وإنّ وجود المسبّب بعد وجودها بأمر الله تعالى، وإنّ الموجود والمؤثّر هو الله تعالى وحده، والأسباب أمور عاديّة لا تجبر الله تعالى على خلق المسبّب، ولا هي توجد المسبّب، بل يستطيع الله تعالى أن لا يخلق المسبّب بعد السبب أو يبدّل الأسباب، وإنّما الكفر يأتي من إعتقاد أنّ السّبب هو الموجود أو أنّ السّبب فرض على الله تعالى خلق المسّبب، وأمّا من يعتقد بأنّ الله تعالى يمطر ويخلق المطر بعد طلوع النّجم الفلاني، أو يخلق المسّبب الفلاني بعد السّبب الفلاني، وأنّه أجرى سنّته كذلك فقليلاً ما تختلف تلك السّنة أي سنة الله تعالى، فلا بأس بذلك، ومن هذا ورد في الحديث أنّ الرّسول (ﷺ) قال: (كذب المنجّمون وإن صدقوا)[٢] فنسب إليهم الكذب في حال صدقهم، فالمعنى: إنّ لهم صدق في أقوالهم ويقع ما يقولون إلّا أنّهم كاذبون لأنّهم يقولون: إنّ النّجم يوجد كذا ويؤثر كذا، ويعتقدون أن التّأثير والإيجاد من النّجم، ولذلك كذبوا حال صدقهم، ولو قالوا: إنّ الله يخلق هذا عند ظهور نجم كذا مثلاً، وذلك حسب إرادته فلا ملامة لهم، وقد يصدّقون عقيدته وأخباره إذا أجادوا ذلك العلم وأتقنوه هذا، ولله في خلقه شؤون. وقد قال تعالى في سيّدنا إبراهيم (ﷺ): ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ سورة الصّافات الآيتان/٨٨، ٨٩. فاستدلّ إبراهيم بالنّجوم على أنّ الله تعالى سيجعله سقيماً ويخلق له السّقم هنا.

* * *

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٩٠ الحديث رقم ٨١٠، صحيح مسلم ١/ ٨٣ الحديث رقم ٧١، واللفظ لمسلم.

(٢) لم أجد هذا حديثا في مضانه سوى ما وجدت في تفسير الرّازي ما روي عن النّبيّ: (كذب المنجّمون وربّ الكعبة).ولم أجده في غيره. / التفسير الكبير ٢٩/ ٧٣.

وقال تعالى: (**يبغون بغير الحقّ**) وذلك لأنّ البغي هو التّجاوز عن العدل والتّجاوز عن العدل يكون بحقّ وبغير حقّ، فالمجاوزة عن العدل إلى الفضل والعفو والإحسان مثلاً حقّ، والتّجاوز عن الواجب أي الزّيادة عليه إلى التّطوع حقّ، وعلى هذا فقس. ثمّ خاطب الله تعالى هؤلاء الّذين يتجاوزون الحقّ في العقيدة والعمل فقال: (**يا أيّها النّاس إنّما بغيكم**) هذا وغيره هو بغي (**على أنفسكم**) لأنّكم تجعلونها بهذا البغي مستحقّةً للعذاب في الدّنيا والآخرة، وترتكبون هذا البغي (**متاع**) أي لأجل متاع (**حياة الدّنيا**) ومنافعها (**ثمّ**) بعد هذا المتاع (**إلينا مرجعكم**) بعد الموت (**فينبّئكم بما كنتم تعملون**) أي نعاقبكم بسببه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن قيمة الدّنيا ومتاعها، وأنّها لا تليق بأن يهتمّ الإنسان بها إهتماماً ينسيه الآخرة والحقّ والعدل، ويؤثرها على الحياة الآخرة، وأنّ وراءها ما هو خير منها بدرجات لا نهاية لها، فيجب الإهتمام بذلك أكثر من هذه الدّنيا بكثير فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(**إنّما مثل**) صفة وشبه (**الحياة الدّنيا كماء**) أي كمطر (**أنزلناه من السّماء فاختلط به**) بسبب ذلك المطر (**نبات الأرض**) بعضه ببعض، وذلك أنّه بعد نزول المطر تنبت النّبات وتكثر ويختلط بعضها ببعض، وذلك كناية عن كثرة النّباتات (**ممّا**) أي من النّباتات الّتي (**يأكل**) منها (**النّاس والأنعام**) فإنّ النّاس يأكلون من حبوب النّباتات والأنعام من نبتها ومن حبوبها كالشّعير فزادت النّباتات ونمت (**حتّى**) أي إلى أن (**أخذت الأرض زخرفها**) حسنها وبهجتها (**وازّينت**) أصله وتزينت قلبت تاء تزينت بالزّاي وأدغم فيها وجيء بهمزة الوصل للإبتداء بالسّاكن فصار ازّينت أي تزينت الأرض بالنّباتات

والزّهور والأوراد **(وظنّ أَهلها)** أي أهل الأرض أو أهل النّباتات **(أنّهم قادرون)** متمكّنون **(عليها)** أي على الإنتفاع بها، وفي هذه الحالة وشدّة أمل النّاس في نبات الأرض **(أتاها)** أي النّباتات **(أمرنا)** بهلاكها **(ليلاً أو نهاراً)** أي في اللّيل أو النّهار **(فجعلناها حصيداً)** أي مستئصلاً من أصلها ومهلكة **(كأن لم تغن)** لم تكن ولم توجد **(بالأمس)** لعدم بقائها **(كذلك)** مثل هذا التّشبيه **(نفصل الآيات)** أي نبيّن الأمثلة ولكنّها لا تفيد إلّا **(لقوم يتفكّرون)** في الأمثلة فيعتبرون بها ويتّعظون، فكذلك حياة الإنسان يوجد مثل ما يوجد النّبات وينمو حتّى إذا فرح الإنسان بوجوده وظنّ أنّهم يستفيدون من حياته هذه، فيأتيه أمر الله تعالى فيموت فيصير كأنّه لم يوجد، ولذلك ولأنّ المرء ليس مخلّداً في الدّنيا ينهى الله تعالى عباده أن ينهمكوا في الدّنيا ويجعلوها غاية، بل يأمرهم أن يجعلوا الدّنيا وسيلة للحصول على دار السّلام كما قال: **(والله يدعو)** عباده كلّهم **(إلى)** العمل لدخول **(دار السّلام)** بأن يعمروا الدّنيا وفق أمره ويعيشوا فيها وفق شريعته ويحكموا فيها كما أمر، فبذلك ينعمون بدنياهم وسيحصلون لهم دخول دار السلام، وهي الجنة سمّيت دار السّلام حيث لا مكروه فيها، بل كلّها أمن وطمأنينة ونعمة وصحّة وسلامة من كلّ مكروه جسدياً وروحيّاً ماديّاً ومعنويّاً رزقنا الله تعالى إيّاها **(والله يهدي)** أي يوصل **(من يشاء)** من عباده **(إلى صراط مستقيم)** يوصلهم إلى دار السّلام بأن يوفقهم للعمل الصالح والإيمان الكامل؛ فيؤمنون ويعملون، وبه إلى الجنّة يصلون، وهم الّذين في قلوبهم حبّ الخير، ويسعون له، وحبّ الإيمان فيحاولون إتقانه وحبّ الصّلاح، ولذلك يوفّقهم الله ويهديهم. وأمّا من أبى فإلى النّار وبئس المصير. ثمّ بيّن الله تعالى ما للمؤمنين في دار السّلام فقال جلّ وعلا: **(للّذين أحسنوا)** في إيمانهم وأعمالهم **(الحسنى)** أي المنزلة والأحسن من كلّ المنازل **(وزيادة)** على ذلك وهي رؤية الله تعالى في الجنّة، قال رسول الله (ﷺ): (إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار نادى مناد: يا أهل الجنّة إنّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقّل الله موازيننا ويبيّض وجوهنا ويدخلنا الجنّة ويجرنا من النّار؟ قال: فيكشف الله لهم الحجاب فينظرون إليه! فوالله ما أعطاهم شيئاً أحبّ إليهم من النّظر إليه ولا أقرّ لأعينهم)[١] ولا **يرهق)** أي ولا يمسّ **(وجوههم)** أي وجوه المؤمنين في الجنّة **(قتر)** وهو سواد يأتي على الوجه من الحزن أو الخوف **(ولا ذلّة أولئك)** الّذين ينعم الله تعالى عليهم هذه

(١) سنن ابن ماجة ١/ ٦٧ الحديث رقم١٨٧.

النّعم (**أصحاب الجنّة هم فيها خالدون**) ماكثون أبداً لا يبغون عنها حولاً ولا يحولهم أحد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المؤمنين الصّالحين أراد ن يذكر حال الفاسقين للجمع بين الوعد والوعيد كما دأبه في القرآن الكريم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(**والّذين كسبوا السّيئات**) أي الكفر والمعاصي. والكفر أنواع والمعاصي كثيرة، ولذا قال جلّ وعلا: (**جزاء سيئةٍ**) أي جزاء كلّ سيّئة تقدر (**بمثلها**) أي بمثل تلك السّيئة (**وترهقهم**) أي تغشاهم يوم القيامة (**ذلّة**) أي أثر ذلّة ومهانة من تغيّر الوجه وتغطية (**ما لهم من الله من عاصم**) يعصمهم من عذاب الله تعالى، كما كانوا يأملون في الأشياء أن تعصمهم كالنّسب والآباء أو الأصنام أو الّذين اعتقدوا فيهم ذلك من الأشخاص، وإن أثر ذلّتهم تظهر على وجوهم (**كأنّما أغشيت**) أي ألبست (**وجوههم قطعاً من اللّيل**) اللّيل الّذي كان (**مظلماً**) واللّيل مظلم بطبيعته، فوصفه بمظلماً للمبالغة مثل: (نارٍ حامية) أي مظلماً كثيراً كثيرا، فتكون وجوههم في نهاية السّواد (**أولئك**) الّذين مرّ وصف حالهم (**أصحاب النّار هم فيها خالدون**) أي مؤبّدون إن كانت سيّئاتهم الكفر أو الشّرك، أو ماكثون مدّة مديدة إن كانت سيّئاتهم غير الكفر والشّرك، وبقدر ما يستحقّون لتطهير ذنوبهم. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى جزاء مرتكبي السّيئات من الكافرين والمشركين والعصاة المؤمنين أراد أن يصوّر حال المشركين في ذلك اليوم مع الشّركاء فقال جل وعلا: (**ويوم**) أي واذكر لهم حالهم (**يوم نحشرهم جميعاً**) أي الكفّار مجتمعين (**ثمّ نقول للّذين أشركوا**) أي يقول لهم ملك قفوا (**مكانكم**) فلا تبرحوا (**أنتم وشركاؤكم**) جميعاً للمحاكمة (**فزيّلنا بينهم**) أي فقطعنا التّرابط والموالاة والمودّة الّتي كانت بينهم

(وقال شركاؤهم) الّذين عبدوهم في الّدنيا للمشركين **(ما كنتم إيّانا تعبدون)** والشّركاء كثيرون، فمنهم عيسى وعزير ومريم والرّجال الصّالحون الّذين يعتقد فيهم النّاس ما لا يليق بهم من العظمة والقداسة، ويعاملونهم معاملة العبد مع الله تعالى من السّجود لهم أو النّذر لهم أو تقديم القرابين إليهم أو التّقرب إليهم أو الإعتقاد فيهم أنّهم ينفعون ويضرّون فيطلبون منهم جلب الخير ودفع الشّر؛ فهؤلاء صادقون في قولهم: **(ما كنتم إيّانا تعبدون)** لأنّهم ما أمروهم بذلك، والعبادة والطّاعة هي ما كان بأمر المطاع كما يدل على ذلك قولهم بعد: **(إن كنّا عن عبادتكم غافلين)** أي ما أمرناكم بها، ومن الشّركاء الأصنام وهم أيضاً صادقون، حيث لم تأمر الأصنام أحداً بعبادتهم، وأمّا قول الاصنام هذا فيفسر بنوعين:

النّوع الأوّل: إنّ الله تعالى ينطق الأصنام فيقولون ذلك.

النّوع الثّاني: إنّ كلّ صنم يعبد فإنّما كان يعبد لأنّه كان هيكلاً لرجل صالح أو لملك، ففي الحقيقة كانوا يعبدون ذلك الرّجل الصّالح، وذلك الملك فهم يؤتى بهم ويقولون ذلك.

ومن الشّركاء أصحاب المبادئ الفاسدة والدّعاة إلى الإنحراف عن دين الله تعالى والعمل بغير شريعته، فهؤلاء يقولون لأتباعهم هذا القول كذباً فيكذبون كما كذبوا في الدّنيا، ويعاقبون على كلا الكذبين، وحينما يشتدّ التّخاصم بين المشركين ومعبوديهم في ذلك اليوم، يقول المعبودون لهم **(فكفى)** أي فاكتفينا **(بالله)** تعالى **(شهيداً بيننا وبينكم)** إنّنا صادقون في قولنا **(إن)** أي إن الشأن **(إنا كنّا عن عبادتكم)** لنا **(لغافلين)** وما أمرناكم بها **(هنالك)** في ذلك المكان نفسه **(تبلو)** فيه قراءتان: الأولى **(تتلو)** من التّلاوة بمعنى القراءة فالمعنى **(تتلو كلّ نفس)** صحيفة (ما **أسلفت)** من الأعمال السّيئة الّتي عملها وسجلّها كرام الكاتبين فيها، أو من التلوِ أي تتبع كلّ نفس عقاب ما أسلفت من السّيئات، والثّانية: قرئ تبلو بالتّاء ثمّ الباء من البلاء، أي تذوق جزاء ما أسلفت **(وردّوا)** بعد أن رأوا مصيرهم **(إلى مولاهم الحقّ)** وهو الله تعالى، أي رجعوا إليه وعملوا أنّه هو المولى، الّذين كانوا يعتقدون فيهم الولاية والنّصر ليسوا بشيء **(وضلّ)** أي ضاع **(عنهم)** أي عن إفادتهم شيئاً **(ما كانوا يفترون)** من أنّ ما عبدوه واتّبعوه ينفعهم، وظهر لهم الحقّ إلّا أنّه لا يفيدهم هذا العلم وإدراك الحقّ وإعترافهم، لأنّ الموقف موقف اليأس، والإيمان هناك لا يعتبر، فإنّ الآخرة دار الجزاء، وإنّما العمل والإيمان في الدّنيا لا في الآخرة.

ثمّ أمر الله تعالى رسوله ودعاة الحقّ أن ينبّهوا المشركين على خطئهم ويبرهنوا لهم أنّهم على باطل فقال جلّ علا:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(**قل**) يا أيّها المناقش مع المشركين لهم (**من يرزقكم**) الرّزق النّاشيء (**من السّماء والأرض**) وكلّ رزق منشؤه السّماء والأرض، وذلك لأنّ الرّزق إمّا مأكول أو ملبوس أو مشروب. فالمأكول من الحبوب والأقوات والأطعمة والثّمار كلّها يكون من النّباتات والأشجار، وهي تكون وتنبت بسبب الماء الّذي ينزل من السّماء وقوة الإنبات المذكورة في الأرض. وأمّا اللّحوم فهي من الحيوان والحيوانات من النّطفة والنّطفة من الغذاء والغذاء من النّباتات، وهي تنبت من الأرض بسبب الماء الّذي ينزل من السّماء، وأمّا الملبوس فما كان من الصّوف أو الشّعر أو الوبر فهو من الحيوان، وذكرنا أن الحيوان من الأرض. وما كان من القطن أو نباتات أخرى أو من المواد النّفطية فظاهر أن كلّ ذلك ناشيء من الماء الّذي ينزل من السّماء، وقوة الإنبات من الأرض (**أمّن**) أصله (أم من) أدغم النّون في الميم (**يملك السّمع والأبصار**) لكم بخلقها وإدامتها، والحكمة في إفراد السّمع وجمع الأبصار ذكرناها في الآية (٧) من سورة البقرة والآية (٢٣) من سورة الملك (**ومن يخرج الحيّ من الميت**) فالإحياء كلّها من الميّت لأنّ الحيوان من النّطفة والنّطفة ميتة، والمراد بالميت ما لا يكون له النّماء والزّيادة؛ فلا يرد أنّ النّطفة فيها مواد حيويّة، والنّباتات والأشجار كلّها من الحبوب والبذور وهي ميتة (**ويخرج الميت**) وهي النّطفة والحبوب والبذور (**من الحيّ**) وهو الحيوان والنّبات والشّجر، وهذه العمليّة مستمرّة مشاهدة للإنسان بداهة، ولذلك عبر عنها بفعل المضارع الدّال على الإستمرار (**ومن يدبّر الأمر**) كلّه في الكون وما فيه (**فـ**) بعد سؤالك هذا (**يقولون**) أي المشركون يقولون: من يفعل كلّ ذلك (**الله**) لأنّهم يؤمنون بالله وبخلقه إلّا أنّهم يعتقدون أنّ غيره شريك معه (فـ) بعد أن إعترفوا هذا الإعتراف (**قل أفـ**) بعد هذا الإعتراف (**لا تتّقون**) هذا الله العظيم فتوحّدوه وتعبدوه وحده ولا تعبدوا غيره معه

(فذلكم الله) العظيم القدير **(ربّكم الحقّ)** وحده وبيده تربيتكم كلّها مادياً ومعنوياً، جسميّاً وروحيّاً دينيّاً ودنيويّاً، وليس في يد أحد غيره إلّا ما أعطاه الله من التّربية في الماديّات بإستعمال الأدوية والأسباب، وفي المعنويّات بالتّعليم والدّعوات فقط، فإذا كان الله هو الربّ الحقّ فغيره ضلال حيث **(فماذا بعد الحقّ إلّا الضّلال)** هما شيئان لا ثالث لهما: الحقّ والضّلال، فلما كان الله الحقّ فما سواه ضلال أن يتّخذ شريكا ويعتقد فيه التّربية، وما يفعلونه من مباشرة الأسباب والتّعليم هو يعود إلى الله تعالى أيضاً، لأنّه بخلقه وإرادته ومن مخلوقه وصنعه **(فـ)** بعد ظهور هذه الحجّة وأنّ من بيده هذه الأمور كلّها هو الرّب وحده لا ربّ سواه **(أنّى)** كيف **(تصرفون)** عن التّوحيد إلى الإشراك، وبعد ظهور الحقّ والباطل بالحجة والبرهان. ثمّ بعد أن نوقش المشركون هذا النّقاش واستمرّوا على شركهم قال تعالى: **(كذلك)** أي مثل ما ترى أيّها المسلم المناقش **(حقّت)** ثبت **(كلمة ربّك على الّذين فسقوا)** والكلمة هي **(أنّهم لا يؤمنون)** لفسقهم وخبث قلوبهم أو تركز الباطل في نفوسهم، أو ترسّخ التّقليد في طبيعتهم، أوجب الحفاظ على بعض المصالح في قلوبهم، فلا تحزن أيّها الرّسول والمسلم ولا تذهب نفسك حسرات عليهم، فإنّك قد أدّيت واجبك في الإرشاد، وبقي العتب عليهم فقط، وإنّك مأجور ومغفور بما فعلت.

ثمّ ذكر الله تعالى للرّسول (ﷺ) والداعية أن يناقش المشركين بنوع آخر فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

إنّ تفسير هذه الآيات يحتاج إلى تمهيد، وهو أنّه كان عند المشركين شركان:

الشّرك الأوّل: أنّهم كانوا يعتقدون في غير الله تعالى التّأثير والنّفع والضّرر.

الشّرك الثّاني: أنّهم كانوا يتّبعون أنظمة وتقاليد وضعها غير الله تعالى واعتبروا ذلك ديناً وعبادة.

فقال بالنّسبة للشّرك الأوّل: **(قل)** أيّها النّبيّ وأيّها الموحّد لهؤلاء المشركين الّذين يعتقدون في غير الله تعالى التّأثير والنّفع والضّرر فيلتجئون إليهم لدفع الشّر وجلب الخير قل لهم: **(هل من شركائكم)** هؤلاء الّذين تعبدونهم **(من)** أحد **(يبدأ الخلق)** أي ينشيء خلق الأشياء أولاً وإبتداء من العدم **(ثمّ)** بعدما فنى **(يعيده)**؟ والجواب هو: كلّا، فإنّهم كانوا يعترفون أنّ الخلق كلّه بيد الله وحده إلّا أنّهم كانوا يلتجئون إلى آلهتهم ويعبدونهم لأنّهم كانوا يعتقدون أنّهم لقربهم من الله تعالى ينفعون ويضرّون فقل لهم: **(فـ)** بعد هذا الإعتراف بأنّه لا خالق إلّا الله تعالى **(أنّى)** كيف **(تصرفون)** عن التضرّع إليه وحده وطلب الحاجات منه فحسب فتعتقدون أنّ لغيره سلطة غيبيّة وراء الأسباب بها ينفعون ويضرّون فتعبدونهم لذلك، فهل هذا إلّا ضلال مبين.

وبالنّسبة للشّرك الثّاني وهو الشّرك في الحكم والتّشريع قال تعالى: **(قل)** أيّها النّبيّ وأيّها المسلم لمن يتّبع غير شريعة الله تعالى والأنظمة الّتي يضعها العباد **(هل من شركائكم)** الّذين اتّخذتموهم آلهةً تطيعون أوامرهم خلاف أمر الله تعالى ونظامهم الّذي ما أنزل الله به من سلطان هل منهم **(من)** أحد **(يهدي)** أي يعرف الأمور ليرشد **(إلى الحقّ قل)** لهم إذا سكتوا **(الله يهدي إلى الحقّ)** وحده حيث هو يعلم الحقّ وكانوا يعترفون بذلك إلّا أنّهم سكتوا خجلاً وشعوراً بالنّقص فقل لهم إذاً **(أفـ)** بعد إعترافكم هذا فشريعة **(من يهدي إلى الحقّ)** وهو الله **(أحقّ أن يتّبع أمّن)** أصله أم من، أدغم الميم في النّون، أي أم نظام من **(لا يهِدّي)** أصله لا يهتدي قلبت التاء دالاً وأدغم في الدال وكسرت الهاء فصار **(يهِدّي)** بتشديد الدال أي لا يصل إلى معرفة الحقّ وهم رؤساؤهم واضعو التّقاليد لهم **(إلّا أن يهِدّي)** من قبل الله تعالى بأن يوحى إليه الحقّ والشّرع، وهؤلاء لم يوح إليهم **(فـ)** بعد هذا البرهان والدليل الدّال على بطلان نظامهم **(ما لكم)** أيّ دليل لكم بحقيقة تقاليدهم وعاداتهم، والإستفهام للإنكار أي ليس لكم أي دليل فإذا **(كيف تحكمون)** بباطلهم الّذي ظهر بطلانه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبين سبب شركهم الأوّل والثّاني فقال جلّ وعلا: **(وما يتّبع أكثرهم إلّا ظنّاً)** أي تقليد الآباء وما درجوا عليه واعتادوه. وقال: أكثرهم لأنّ بعضهم كان يتفكّر فيترك الشّرك فيؤمن ويوحّد ويعتنق الإسلام **(وإنّ الظّن)** أي التّقليد **(لا يغني)** أي لا يفيد ولا يثبت **(من الحقّ شيئاً)** فلا يجوز العمل به **(إنّ الله عليم بما يفعلون)** من اتّباع الباطل فيعاقبهم على ذلك، وهذا ذم للتّقليد والتّبعية بدون دليل، وأكثر من

هلك قد هلك حيث اتّبع بعض النّاس تقليداً وثقةً بهم، واعتقاداً بأنّهم لا يخطئون فهلكوا ؛لأنّ العصمة لله وحده ولرسوله الّذي وهبه الله العصمة، فالتّقليد المحض لا يجوز، بل على العالم أن يتّبع الأدلّة، وعلى العامّي أن لا يعطي كلّ ثقته لشخص واحد، بل يسأل هذا وذاك إلى أن يتيقّن من صحّة قول من قال. فقول القائل: من قال لشيخه لم فقد كفر خطأ أضلّ النّاس به، فالصّواب ما قالوا: (من لم يقل لشيخه: لم؟ لمْ يفلح) فكم من جاهل اتّبعه العوام بثرثرة كلامه لنسبه ومقامه، أو بألاعيبه الفتّانة وحيله الميّتة فضلّ وأضلّ أناساً كثيراً، ولو قال لهم قائل: إنّه لمخطئ أقاموا عليك القيامة، ولكن لو فتّشوا وحقّقوا لظهر عليهم النّدامة، ولذلك قال سيّدنا على ابن أبي طالب (ﷺ): أعرف الرّجال بالحقّ ولا تعرف الحقّ بالرّجال[١]. هذا فأصلح الله المضلّين وهداهم وهدانا برحمته إلى الحقّ في المقال والتّمسك بخير من قال، ورزقنا حسن الخاتمة والمآل إنّه غفور رحيم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ هداية الله تعالى وشريعته أحقّ أن يتّبع وما سواها ضلال، وأراد تعالى بشريعته ما أنزله إلى الرّسول (ﷺ) في القرآن الكريم، أراد أن يثبت أنّ هذا القرآن هو من الله تعالى وأنّ محمّداً رسوله جاء بشريعته إلى النّاس فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

(وما كان) أي وما أمكن **(هذا القرآن)** فيه تقديم وتأخير والتّقدير وما أمكن **(أن يفترى هذا القرآن)** العظيم **(البالغ)** في البلاغة حدّ الإعجاز والمخبر عمّا مضى كما كان وعن المستقبل كما يقع وعن أسرار الكون كما هو، إلى غير ذلك ممّا فيه من معجزات لا تعدّ ولا تحصى، فما أمكن أن يؤتى به **(من دون الله)** من البشر وينسب إلى الله تعالى إفتراءً كما يزعم الكافرون لأنّه ليس في وسع البشر أن يأتي به **(ولكنّ)** مخفّفة من الثّقيلة إسمها ضمير الشّأن مقدّر تقديره ولكنّ الشّأن أنّه كان القرآن **(تصديق)** لكتاب **(الّذي)** جاء **(بين يديه)** أي قبله وهو التّوراة والإنجيل ؛ إذ أخبر الله فيها بمجيء الرّسول ونزول القرآن عليه، فجاء القرآن وصدّق ذلك **(و)** كان القرآن **(تفصيل)** أي بيان

(١) قواعد التحديث ١/ ٢٩١.

(الكتاب) أي الأحكام المكتوبة والمفروضة على النّاس من العقائد والشّرائع والأخلاق **(لا ريب)** أي لا شكّ **(فيه)** أي في القرآن أنّه **(من ربّ العالمين)** خبر آخر لكان أي كان القرآن آتياً من **(ربّ العالمين)** لتربيتهم أخلاقاً وعقيدةً وأحكاماً وسلوكاً، وإصلاحهم أفراداً ومجتمعات مهما اختلفوا ألواناً وأوطاناً وقوميّاتٍ من جميع أبناء حواء وآدم **(إنّ هذا القرآن يهدى)** النّاس جميعاً **(للتّي هي أقوم)** فمن انحرف عنه فقد انحرف إلى جهنّم وبئس المصير، ومن تمسّك به قاده إلى الفوز بجنّات النّعيم، اللّهم فاجعلنا به من الفائزين آمين إنّك أرحم الرّاحمين.

ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

(أم) للإستفهام والاستفهام للتّقرير والتّثبيت فالمعنى: بل **(يقولون افتراه)** أي أنشأ محمّد هذا القرآن من عنده أو عمله رجل آخر فأتى به ونسبه إلى الله تعالى افتراءً **(قل)** أيّها النّبيّ ويا كلّ من يدافع عن القرآن، إن كان هذا القرآن من عند البشر كما تقولون **(فأتوا بسورة مثله)** في الفصاحة والبلاغة وفيكم الفصحاء والبلغاء من الشّعراء والخطباء، فإنّ البشر لا يعجز عن أن يأتي بمثل ما يأتي به البشر **(وادعوا من استطعتم)** من الفصحاء والبلغاء لمعاونتكم في هذا الأمر بشرط أن يكون من تدعونه **(من دون الله)** تعالى فاعلموا هذا الإتيان وعارضوا هذا القرآن **(إن كنتم صادقين)** في قولكم: إنّه من البشر وليس من الله تعالى، وإنّ محمّداً مفترٍ، فحيث ما استطعتم ولن تستطيعوا إلى يوم القيامة ولو اجتمعتم كلّكم من إنسكم وجنّكم، فآمنوا بأنّه من الله تعالى وليس من كلام البشر **(بل)** أي ليس تكذيبهم عن فكر وتدبّر وتعقّل **(بل كذّبوا بما)** أي بالقرآن قبل أن يتفكّروا **(لم يحيطوا بعلمه)** أي لم يحيطوا بمعرفته حقّ المعرفة **(ولمّا يأتهم)** أي وقبل أن يأتيهم **(تأويله)** أي المعرفة بما يؤول إليه القرآن من البلاغة والفصاحة وما فيه من الهدى، وقبل أن يعرفوا حقيّة ما ينطق به فكذّبوه أوّل ما سمعوه دون تحقيق وتفكّر؛

وذلك حسداً وكرهاً لأن يتّبعوا محمّداً (ﷺ) **(كذلك)** أي مثل ما فعل قومك **(كذّب الّذين من قبلهم)** من الأقوام السّابقين حيث كذبوا برسلهم حسداً وكرهاً، دون أن يتفكّروا في معجزاتهم وما أتوا به من الحقّ **(فلينظروا)** أي فلينظر هؤلاء الّذين يكذبون بالقرآن ورسالة محمّد (ﷺ) **(كيف كان عاقبة الظّالين)** قبلهم بسبب تكذيبهم للرّسل من إهلاكهم نتيجة ذلك وتدميرهم، لكي لا يفعلوا ما فعلوا من التّكذيب لئلّا يهلكوا مثل ما أهلكوا، وليعتبروا بهم **(ومنهم)** أي ومن النّاس **(من يؤمن به)** أي بالقرآن حيث يتأمّل فيه حقّ التأمّل **(ومنهم من لا يؤمن به)** حيث لا يتفكّر فيه حقّ التّفكّر ولا يتأمل فيه حسداً وكرهاً. فلا يحزنك أيّها النّبيّ وأيّها المسلم تكذيب المكذّبين وإنكار المنكرين حيث **(وربّك أعلم بالمفسدين)** وبإفسادهم فينتقم منهم ويعاقبهم على ذلك، وكلّ شيء مرهون بوقته، وفي هذه الآية إشارتان: **الإشارة الأولى:** الإستدلال على أنّ تكذيبهم وإنكارهم ليس ناشئاً عن التأمّل والتفكّر بل عن الحسد والكراهيّة للرّسول محمّد، فإن من تفكّر وتأمّل في القرآن دون حسد فقد آمن، وإلى هذا إشار بقوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ).

الإشارة الثّانية: الأمر بتسلّي الرّسول (ﷺ) والصّبر وعدم إستعماله القوّة تجاه المكذّبين، وإلى هذا أشار بقوله الآتي: (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِين) كما وأكّد ذلك بقوله جلّ وعلا:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

(وإن كذّبوك) أيّها الرّسول (ﷺ) وأيّها الدّاعي إلى الإسلام في كلّ زمان ومكان فلا تحزن، واصبر ولا تستعمل القوّة، ولا تتوسّع في الجدال معهم **(فقل لي)** جزاء **(عملي)** ولكم جزاء **(عملكم)** فكلّ يجزى حسب عمله **(أنتم بريئون ممّا أعمل)** من التّوحيد والعمل بالإسلام فلا تعملونه **(وأنا بريء ممّا تعملون)** من الشّرك والعمل بنظام لم يأت من الله تعالى فلا أعمل به وفي هذه الآية نهاية الأمر بالسّلام، وقال المفسرون إنّها منسوخة بآية السّيف وفي ذلك نظر فإنّ الإسلام لا يشهر السّيف إلّا مع من يشهر السّيف على الإسلام والمسلمين، كما حقّقنا ذلك في سورة التّوبة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يزيد في تسلية الرّسول (ﷺ) وأن يعلمه أنّه ما قصر في رسالته بل أدّى رسالته قولاً وعملاً، وإنّما التّقصير من النّاس الّذين لا يتّبعونه فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(ومنهم من يستمعون إليك) حينما تعظهم وترشدهم إلى الحقّ والأفعال الحسنة والخصال الحميدة إلّا أنّهم لا يسمعون سماع الاستجابة والتأمّل وطلب الحقّ واتّباعه، فإذن لا تقصير منك في الإرشاد والتّبليغ حيث لست مكلّفاً بإسماعهم وإتيانهم إلى الحقّ، وليس ذلك من وظيفتك **(أفأنت تسمع الصّم جبراً ولو كانوا)** هم **(لا يعقلون)** أي لا يريدون تعقّله وقبوله، والإستفهام للإنكار أي إنّك لا تستطيع إسماعهم وإنّما ذلك موكول إلى إختيارهم ذلك وإرادة الله تعالى له **(ومنهم من ينظر إليك)** إلى أحسن أعمالك ومحمود خصالك إلّا أنّهم لا يتأسّون بل ولا يقتدون، فهم مثل العمى إلّا أنّهم لا يستفيدون من رؤيتهم للحقّ شيئاً **(أفأنت تهدي العمى)** إلى الحقّ **(ولو كانوا)** هم **(لا يبصرون)** لا يريدون إدراك الحقّ واتّباعه، والإستفهام للإنكار، أي إنّك لا تستطيع ذلك بل أنّ ذلك موكول إلى الله تعالى وإختيارهم للحقّ. ثمّ إنّ ههنا ينشأ سؤال وهو: إنّ الله تعالى لماذا لا يُسمعهم ولا يهديهم ولا يُبصرهم؟ فجواباً على ذلك قال تعالى: **(إنّ الله لا يظلم النّاس شيئا)** بعدم إسماعهم جبراً وعدم هدايتهم قهراً، لأنّ الله تعالى لم يجعل الجبر من عدته، بل خلق النّاس وأعطاهم عقولاً وسمعاً وأبصاراً ونصب لهم الأدلّة على الحقّ والباطل، ثمّ نبّههم على ذلك بإرسال الرّسل وإرشادهم إلى الحقّ، ثمّ جعل الإختيار بيدهم، فمن أراد الحقّ واتّباعه يسّره له، ومن لا تركه كما أراد، فالّذين لا يتّبعون الحقّ بعد البين الواضح وإلزام الحجّة فهم الّذين ظلموا أنفسهم كما قال تعالى: **(ولكنّ النّاس أنفسهم يظلمون)** بعدم اتّباع الحقّ وباتّباع الحسد والكبرياء والتّقاليد ومصالح الدّنيا ومطامعها، والتّي تسدّ الآذان عن سماع الحقّ واتّباعه والإبصار عن رؤية الصّواب والتّمسك به.

وفي تقديم **(أنفسهم)** على **(يظلمون)** إفادة الحصر أي يظلمون أنفسهم فقط، حيث يجعلونها مستحقّة للعذاب ولايظلمون الله ولا الرّسول ولا أحداً غيرهم.وفي هذه الآيات تنبيهان:

الأوّل: إنّه يجب أن يكون الدّاعي بحيث يرشد النّاس بأقواله الرّشيدة وأفعاله

الحميدة بأن يتّبع قوله العمل، وإلّا فلا يكون لدعوته الفائدة والتّأثير.

الثّاني: إنّ الهدى والضّلال منوطان بإختيار العبد وإرادة الله تعالى له؛ فلا يجبر الله تعالى على واحد منهما ولا إستقلال للعبد في تحصيل أعماله، كما صرّح تعالى بذلك إذ يقول: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٥.

ثمّ أراد الله تعالى أن يخبر الرّسول (ﷺ) بسوء مصير المكذّبين وعذابهم في الدّنيا والآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

(**ويوم**) منصوب بفعل محذوف تقديره (و) يستقلّون (**يوم يحشرهم**) مدّة لبثهم في الدّنيا وفي القبور (**كأن**) أي كأنّهم (**لم يلبثوا**) في الدّنيا وفي القبور (**إلّا ساعةً من النّهار**) أي قسماً من النّهار ليطابق قوله تعالى: ﴿كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشيّةً أو ضحاها﴾ سورة النّازعات الآية/ ٤٤. وقوله: (**يتعارفون**) يتنازع في العمل في يوم أي يوم يحشرهم (**يتعارفون بينهم**) أي يعرف بعضهم بعضاً (**قد خسر**) ينازع في نصب[1] يوم أيضاً. فالمعنى: ويوم يحشرهم (**قد خسر الّذين كذبوا بلقاء الله**) تعالى في ما كسبوها في الدّنيا حيث لم يفدهم شيئاً (**وما كانوا مهتدين**) في الخير و النّعيم، وتقدير الآية أنّ هؤلاء حينما يحشرون ويستغلون مدّة حياتهم في الدّنيا وفي البرزخ ويعرف بعضهم بعضاً، ويخسرون فوائد أعمالهم ولا يصلون خيراً ونعيماً من الله تعالى رغم أنّهم كانوا يترقّبون ذلك. وهذا بالنسبة لمصيرهم في الآخرة وأمّا لعذابهم في الدّنيا فقال جلّ وعلا: (**وإمّا نرينّك بعض**) العذاب الّذي (**نعدهم**) في الدّنيا (**أو نتوفينّك**) قبل ذلك العذابّ فالعذاب واقع بكلّ من كان يكذب بالرّسول (ﷺ) من أهل الجزيرة العربية وغيرها،

(١) أي أن الفعلين (يتعارفون) و(خسر) يتنازعان في نصب يوم على الظرفية. على تقدير يتعارفون يوم يحشرهم أو خسر الذين كذبوا بلقاء الله يوم يحشرهم...

فبعضهم عذّبوا بالقتل والأسر في حياته، وبعضهم بعد وفاته، حينما قام الخلفاء الرّاشدون بالفتوحات الإسلامية بعده. ثمّ أشار الله تعالى إلى أن من عذّب من الكفّار في الدّنيا لا ينجو بذلك من عذاب الآخرة فقال: **(فإلينا)** بعد هذا العذاب **(مرجعهم)** يوم القيامة **(ثمّ)** بعد رجوعهم إلينا **(الله شهيدٌ)** ومطّلعٌ **(على ما يَفعلون)** فيعاقبهم. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ هذا هو سنّة الله تعالى في عباده وليس أمراً جديداً ومختصّاً بأمّة محمّد (ﷺ) فقال جلّ وعلا: **(ولكلّ أمّة رسول)** في تقدير الله تعالى بإرساله إليهم **(فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط)** بتعذيب المكذّبين لهم في الدّنيا والآخرة والإحسان إلى المؤمنين فيهما **(وهم لا يظلمون)** فلا يعذّب الكافرون إلّا حسب أعمالهم، ولا ينقص من المؤمنين أي حسنة من حسناتهم.

ثمّ بعد أن أخبرهم الرّسول (ﷺ) والمؤمنون بهذا الإنذار كانوا يقولون متى ذلك العذاب إنكاراً له، فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

(ويقولون) إنكاراً واستهزاءً **(متى هذا الوعد)** أي وعد عذابنا في الدّنيا والآخرة **(إن كنتم صادقين)** في هذا الإنذار **(قل)** أيّها النّبيّ وأيّها المسلم في جوابهم إنّي **(لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً إلّا ما شاء الله)** أن يضرّني به أو ينفعني، فكيف أملك لكم فآتي بعذابكم، فكلّ أمر بيد الله تعالى، وحكم الله هو أنّه **(لكلّ أمّة أجل)** وقت معلوم عنده لعذابهم **(إذا جاء أجلهم)** المعلوم **(فلا يستأخرون)** أي لا يستطيعون أن يتأخّروا عنه وإذا لم يجئ **(لا يستقدمون)** لا يستطيعون تقديمه.

ثمّ بعد هذا، كان الكافرون يطلبون من الرّسول (ﷺ) أن يأتيهم بالعذاب ويستعجلون به استهزاء وإنكاراً، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ

ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

(قل) لهم تهديداً وتخويفاً **(أرأيتم)** أي أخبروني **(إن أتاكم عذابه)** أي عذاب الله الموعود، سواءً في الدّنيا بالهلاك والدّمار، أو في الآخرة بالعذاب بالنّار، فإن أتاكم هذا العذاب دون أن تعلموا به فإنّ عذاب الله تعالى يأتي بغتةً **(بياتاً)** في اللّيل **(أو نهاراً)** في النّهار لا يدري أحد متى يأتي، فإذا جاء **(ماذا)** ما العمل الّذي **(يستعمل منه المجرمون)** الإتيان به، وماذا تعملون وقت ذاك فوراً؟ والمراد بالـ **(مجرمون)** هم وإنّما وضع الظّاهر موضع الضّمير؛ للإشعار بأنّ سبب العذاب الإجرام، ليعمّهم الكلام وسائر المجرمين. ثمّ أشار الله تعالى إلى ما يعملون عند مجيء العذاب فوراً، وهو أنّهم يؤمنون ولكنّه لا يفيدهم هذا الإيمان شيئاً؛ فقال جلّ وعلا: **(أثمّ)** أي أبعد هذه الإجرامات **(إذا ما وقع)** العذاب **(آمنتم به)** والإستفهام للتّقدير أي تؤمنون به حينما جاء فوراً، ولكن لا يفيدكم هذا الإيمان ولا يقبل بل يقال لكم **(آلآن)** أي أفي هذه السّاعة وبعد مجيء العذاب تؤمنون؟ **(وقد كنتم به تستعجلون)** استهزاءً وكفراً به وإنكاراً له، والإستفهام لإنكار قبول إيمانهم فالمعنى: لا يقبل هذا الإيمان **(ثمّ)** بعد أن أُخبروا بأنّ إيمانهم لا يقبل **(قيل للّذين ظلموا)** بسبب الكفر والتّكذيب **(ذوقوا عذاب الخلد)** الخلد مصدر بمعنى إسم الفاعل أي الخالد وإضافة العذاب إليه من إضافة الموصوف إلى الصّفة، أي ذوقوا العذاب الخالد، ولا حقّ لكم في الإعتراض حيث **(هل تجزون)** الإستفهام للإنكار أي لا تجزون **(إلّا بما)** أي مقابل **(ما كنتم تكسبون)** فلا إعتراض ولا إعتذار لكم أبداً، حيث جنيتم أنتم على أنفسكم وما الله بظلّام للعبيد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الّذين كانوا يتنبؤون عن يوم القيامة استهزاءً وإنكاراً، أراد أن يذكر الّذين يسألون عن ذلك للإستيقان وللإطمئنان، فقال جلّ وعلا:

﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

(ويستبنئونك) أي ويستخبرك بعض النّاس ويقولون **(أحقّ)** أي أو واقع وآت **(هو)** أي يوم القيامة **(قل)** لهم **(أي)** أي نعم إنّه يأتي قسماً **(وربّي)** لاشكّ **(إنّه لحقّ)** وآت

وواقع (**وما أنتم بمعجزين**) بمانعين الله تعالى من الإتيان به وعذابكم فيه إن كنتم مستحقين. ثم أخبر الله تعالى عن حال الظالم في ذلك اليوم فقال: (**ولو أنّ لكلّ نفس ظلمت**) وجدت كلّ (**ما في الأرض**) ملكاً له (**لافتدت به**) بكلّ ذلك لتنجو من عذاب ذلك اليوم إلّا أنّها لا تنجو ولو افتدت بكلّ ذلك، كما ولا تجد شيئاً تفتدي به، حيث لا يملك هنالك أحد شيئاً (لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار) وحده في ذلك اليوم وفي الدّنيا، إلّا أنّه يوجد للمرء ملك مجازي وهو لا يبقى أيضاً في الآخرة (**وأسرّوا**) أي أخفى الظّالمون (**النّدامة**) عن ظلمهم، ملأت النّدامة قلوبهم بحيث لا يستطيعون النّطق بها لشدّتها فخنقتهم تلك النّدامة عن النّطق بها (**لمّا رأوا العذاب وقضي بينهم**) بالعذاب (**بالقسط**) قضاءً ملتبساً بالعدل (**وهم لا يظلمون**) حيث لم يُجزَوا إلّا حسب أعمالهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما يثبت مجيء هذا اليوم مبتدئاً بالإستدلال بما في الآفاق فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

(**ألا**) هو حرف تنبيه، أي تنبّهوا وتيقّظوا وتفكّروا لتعلموا وتقولوا (**إنّ لله**) كلّ (**ما في السّماوات والأرض**) فإنّ من تفكّر في هذا النّظام المتقن والكون العظيم والصّنع البديع، يعلم أن من صنع له القدرة الأعلى والعلم الأشمل، فإنّ ما لا علم له لا يعلم أن يصنع، وما لا قدرة له لا يستطيع أن يصنع، فيعترف بأنّ صانع هذا الكون هو العليم القدير، وهو الله، ومن خلق شيئاً فهو ملكه بالضّرورة والبداهة، فيقول بعد هذا التّفكير: (**إنّ لله**) كل (**ما في السّماوات**) من الكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار وغير ذلك من كلّ ما في العلّو، وبعد ذلك الإعتراف أمره الله تعالى بأن ينتبه ويتيقّظ ويتفكّر ليعترف ويقول: إنّ وعد الله تعالى بمجيء يوم القيامة حقّ، فقال: (**ألا**) أي تنبّهوا وتفكّروا ما في السّماوات والأرض ولتعلموا وتقولوا: (**إنّ وعد الله حقّ**) فإنّ من تفكّر في هذا الكون العظيم يعلم قطعاً أنّ خالقه لا يترك من يعيش ويحيا فيه دون نظام يعملون به وشريعة يحكمون بها؛ فيؤمن بشريعة الله، وإن الشّريعة تحكم بثواب المطبّق لها وعقاب المنحرف عنها، وحيث إنّ الثّواب والعقاب لا يوجد في الدّنيا كليّاً فكثير من

العصاة يموتون دون عقاب وكثير من التّقاة يموتون دون ثواب؛ فلابد أن يأتي يوم يلقى فيه المطيع ثواب طاعته والعاصي عقاب جريرته، فيعترف بعد هذا التّفكير ويقول: **(إنّ وعد الله حقّ)** بمجيء ذلك اليوم **(ولكنّ أكثرهم)** أي أكثر النّاس **(لا يعلمون)** حيث لا يتفكّرون ولا يتدبّرون. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الدّليل من الآفاق أراد أن يذكره من الأنفس أيضاً فقال جلّ وعلا: **(هو)** أي الله **(يحيي ويميت)** فإنّ كلّ إنسان يعلم أنّ الحياة والموت أمران موجودان ليس تحت قدرة أي أحد، لا من الجنّ ولا من الإنس، فيعلم أنّ هناك سلطة عليا بيده الموت والحياة، والّذي بيده ذلك هو الخالق والمالك، فيكون الإنسان ملكاً لله، والمملوك يجب عليه إطاعة المالك وعدم مخالفته، وإنّه يثاب على الطّاعة ويعاقب على المعصية، وهناك مطيعون لم ينالوا ثواب طاعتهم في الدّنيا، وعصاة لم يلقوا عقاب معصيتهم، فلابد أن يأتي يوم يرجع النّاس كلّهم إلى الله، وليجزوا حسب أعمالهم كما قال تعالى: **(وإليه ترجعون)** يوم القيامة للحساب والثّواب والعقاب حسب الأعمال والاخلاق والعقائد والنّيات.

ثمّ بعد هذه الإنذارات والتّبشيرات والوصايا وبيان الحقائق خاطب الله تعالى النّاس جميعاً فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

(ياأيّها النّاس قد جاءتكم موعظة) مصدر ميمي أي وعظ وإرشاد **(من ربّكم)** والمراد بها آيات التّبشير والإنذار والقصص والعبر والأمثال **(وشفاء لما)** للأمراض الّتي تكون **(في الصّدور)** من العقائد الفاسدة، شبّهت بالأمراض لأنّ بها تضيع الحياة الآخرة كما تضيع الحياة الدّنيا بالأمراض، والمراد به الآيات الّتي تبيّن العقائد الصّحيحة لتعتقدها، والفاسدة لتتركوها **(وهدى)** أي ما تهتدون به إلى الحقّ، والمراد به الآيات الّتي تثبت وتبرهن على وجود الله ووحدته والرّسالة وحقيّة رسالة الرّسول (ﷺ) ومجيء يوم القيامة وأنّ القرآن من الله تعالى **(ورحمة)** أي وما رحم به الله تعالى **(للمؤمنين)** من بيان المنهج المستقيم للحياة، والمراد بها آيات الأحكام والأخلاق؛ لأنّ في العمل بها سعادة الدّارين **(قل بفضل الله ورحمته)** جاءتكم هذه الأمور وهذه النّعم **(فبذلك)**

المنهج والإرشاد **(فليفرحوا)** ويعتزّوا ويتمسّكوا لا بغيره **(هو)** أي جاءكم **(خير)** أحسن **(ممّا يجمعون)** من منافع الدّنيا لأنّها سبب الحياة الدّنيا والآخرة والسّعادة فيهما، وما يجمعون للفوائد وقتيّة فانية فقط وتملؤها الغموم والهموم والكدور.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بطلان بعض ما تمسّك به النّاس وجعلوه عبادةً وشريعةً ونسبوه إلى الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

(قل) لهؤلاء الكافرين وهم الّذين يحكّمون حسب عقولهم وهواهم فيحلّون ويحرّمون قل لهم **(أرأيتم)** الإستفهام للتقرير أي لقد علمتم **(ما أنزل الله لكم)** من السّماء **(من رزق)** أي مما ترزقون منه، فالرزق كلّه يأتي من السّماء لأنّ المطر ينزل من السّماء فيختلط بالتّراب وينبت منه النّباتات ومن النّباتات الحبوب يتقوّى بها الإنسان، وكذلك النّباتات تصير غذاءً لحيوان، والغذاء يصير نطفة والنطفة تقذف في رحم الأنثى فيصير حيواناً، فكلّ الأرزاق من الأطعمة والأشربة واللّحوم من المطر وهو ينزل من السّماء فقوله: **(ما أنزل لكم من رزق)** معناه ما أنزل من ما يصير رزقاً لكم، فهذا من الله تعالى، فإذن بيده تحليله وتحريمه وليس بيد العبيد شيء من مخالفة ذلك **(فجعلتم منه حراماً)** أي وجعلتم بعضه حراماً كالبحيرة والسّائبة والحامي، وقد ذكرنا معنى هذه الأسماء في سورة الأنعام **(وحلالاً)** وجعلتم بعضه حلالا كالميتة، **(قل آلله أذن لكم)** في هذا التّحليل والتّحريم، والإستفهام للإنكار، أي لم يأذن الله تعالى ذلك **(أم)** أي بل **(على الله تفترون)** تكذبون في نسبة هذا التّحريم والتّحليل إليه تعالى، فقال جلّ وعلا: **(وما ظنّ الّذين يفترون على الله الكذب)** بأن يحكموا وينسبوا ذلك الحكم إلى اللهّ فما ظنّهم بالّذي يفعل بهم **(يوم القيامة)** إنتقاماً على هذا الافتراء **(إنّ الله لذو فضل على النّاس)** حيث أنعم عليهم بهذه النّعم وأنزل لهم هذه الأرزاق اللّذيذة **(ولكنّ أكثرهم لا يشكرون)** هذه النّعم لأنّهم يتصرّفون فيها أو يستعملونها على خلاف ما أمر الله تعالى به أو أذن فيه.

ثمّ أخبر الله تعالى أنّ كلّ أعمال العباد وكلّ الأمور معلومة عند الله تعالى، ومسجّل في كتاب واضح، ويحاسبهم الله وفق هذا الكتاب، ويجزي بها عباده إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشرّاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

(**وما تكون**) يا محمّد ويا كلّ مخاطب (**في شأن**) في أي عمل أو حال (**وما تتلو منه**) أي من شأن (**من قرآن**) من التّكلم به أو القول به أو الإخبار عنه أو الأمر به أو النّهي عنه (**ولا تعملون من**) أي (**عمل**) كان (**إلّا كنّا عليكم شهوداً**) جمع شاهد أي عالمين به (**إذ**) أي وقتما (**تفيضون**) تدخلون (**فيه**) في ذلك العمل (**وما يعزب**) أي يغيب (**عن ربّك**) أيّها العبد (**من**) مقدار (**مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السّماء ولا أصغر من ذلك**) أي مثقال ذرةٍ (**ولا أكبر**) منه (**إلّا**) هو مسجل (**في كتاب مبين**) أي واضح يتلوه كلّ من إطّلع عليه، أو موضح كلّ الأمور كما هي، فتحاسبون حسب هذا الكتاب، وتجزون وفق ما فيه من أعمالكم، وحينما يتلو المسلم هذه الآية تقشعرّ جلوده ويذوب قلبه خوفاً من هذا الكتاب ومن هذا الحساب، كيف لا وكلّ أعماله مسطورة، وهو محاسب عليه، فكيف النّجاة، ويا من خجلٍ وفضيحةٍ في ذلك اليوم؛ فلذلك سلّاهم الله تعالى وهدأ شيئاً من خوفهم فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

(**ألا**) أي إنتبهوا واعلموا (**أنّ أولياء الله**) الأولياء جمع وليّ والوليّ جاء لمعان:

الأوّل: النّاصر، فإذا أريد هذا المعنى فمعنى الآية: ألا إنّ الّذين ينصرون دين الله (**لا خوف عليهم**) يوم القيامة من عذاب جهنّم (**ولا هم يحزنون**) على فوات الدّنيا

لأنّهم وجدوا خيراً منها، بخلاف من سواهم فإنّهم يخافون العذاب لأنّه يصيبهم، ويحزنون على فوات الدّنيا لأنّهم سوقوا إلى شرّ منها وهو جهنّم.

الثّاني: القائم بالأمور والمدبّر لها، فعلى هذا المعنى تفيد الآية: ألا إنّ الّذين يقومون بأمور دين الله تعالى ويعملون بها ويطبقونها على أنفسهم وعلى من تحت قدرتهم لا خوف عليهم ... إلخ.

الثّالث: الصّديق والحبيب، فمعنى الآية: ألا إنّ أحبّاء الله تعالى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويجوز أن يراد كلّ هذه المعاني، فإنّ كلّ من ينصر دين الله أو يتولّى أمور دينه أو يحبّ الله تعالى أو يحبّه الله تعالى هم داخلون تحت هذا الحكم وهو لا خوف عليهم ... إلخ.

ثمّ أراد الله تعالى أن يعرّف الولّي ويبيّن شخصيّته لأمرين:

الأوّل: ليعرف النّاس من هو الوليّ فلا يغرّروا بكلّ مدّع وبكلّ من يبثّ الدّعاية لفلان أو فلان، ويكون عند المسلم ميزان الولي ليزن به النّاس فيعرف الوليّ من غيره، ويميّز بين الصّادق والكاذب في دعوى الولاية له، أو لغيره.

الثّاني: ليعلم المسلم السّبيل الّذي يصير به وليّاً لله تعالى، ليسلك ذلك السّبيل ليكون وليّ الله تعالى؛ فيفوز بما يفوز به أولياؤه، فلهذين الأمرين بيّن تعالى شخصيّة الوليّ فقال جلّ وعلا: (**الّذين**) أي أنّ أولياء الله تعالى (**هم الّذين آمنوا**) بجميع ما يجب الإيمان به إيماناً صحيحاً غير مشوّب بما يخالفه (**وكانوا**) أي وأصبحوا بعد الإيمان (**يتّقون**) المعاصي وما يخالف مقتضى ما آمنوا به وهو الإسلام من أصوله وفروعه جميعاً، فالمؤمنون كلّهم أولياء الله تعالى، وتكون درجاتهم صاعدة ونازلة حسب التّقوى والأعمال الصّالحة، قال رسول الله (ﷺ): (إنّ الله تبارك وتعالى قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا إفترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به وبصره الّذي يبصر به ويده الّتي يبطش بها ورجله الّتي يمشي بها، وإن سألني **لأعطيّنه** ولئن إستعاذني لأعيذنه)[1] ومعنى كنت سمعه الّذي يسمع به: أي لايسمع شيئاً إلّا لأجلي (وبصره الّذي يبصر به) أي لا يرى شيئاً إلّا من أجلي (ويده الّتي يبطش بها)

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٨٤ الحديث رقم ٦١٣٧.

أي لا يبطش إلّا لي (ورجله الّتي يمشي عليها) أي لا يمشي إلّا لي، فإذا كان العبد كذلك فلا يرتكب حراماً ويؤدي كلّ ما عليه ويقصد بكلّ ما يعمل العبادة، فيأكل ليتقوّى على الطّاعة، ويكسب ليحصل المال فينفقه فيما أمر الله تعالى به، وينام لإعادة القوّة على الطّاعة ويجامع ليحصن نفسه وأهله من الزّنا إلى غير ذلك. فكلّ عمل بنيّة الخير عبادة وكلّ عمل بدون نيّة الخير لا تكون عبادة حتّى العبادات المحصنة قال الرّسول (ﷺ): (إنّما الأعمال بالنّيات)[1] وليس معنى الحديث كما فهمه بعض النّاس: أنّ الولي يسمع كلّ شيء ويبصر كلّ شيء ويقدر على كلّ شيء وذلك بدليل قوله: (ولئن سألني لأعطيّنه ولئن إستعاذني لأعيذنّه) فافهم فإنّه دقيق وبالتّحقيق حقيق حتّى لا تجعل العبيد كالآلهة فتكون أخس من الزّنديق **(لهم)** أي لأولياء الله تعالى **(البشرى)** بالسّعادة **(في الحياة الدّنيا وفي الآخرة)** أي في كلتا الحياتين. وما قال المفسرون من أنّ البشرى في الدّنيا هي الرّؤيا الصّالحة وذكروا في هذا المعنى حديثاً، فالرّؤيا الصّالحة داخلة في ضمن السّعادة وجزء منها وليس في الحديث ما يشعر بحصر البشرى في الرّؤيا الصّالحة، ويؤيد أنّ المراد بالبشرى في الدّنيا هي البشرى بالسّعادة فيها كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة النحل الآية/ ٩٧. ولا يبعد أن يكون اللّام في البشرى هنا للإشارة إلى ما فيه آية النّحل والله تعالى أعلم. **(لا تبديل)** أي لا تغير **(لكلمات الله)** أي لإرادته وقضائه ومواعيده **(ذلك)** الجزاء الّذي ذكر لأولياء الله تعالى هو **(الفوز العظيم)** لا فوز أعظم منه.

ثمّ لمّا كان الرّسول (ﷺ) يبلّغ هذه البلاغات والإنذارات والبشارات بصفة أنّه رسول من الله تعالى، كان المنكرون يقولون له: لست مرسلاً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

(ولا يحزنك) أي بلّغ أيّها النّبيّ هذه البلاغات ولا يحزنك **(قولهم لك)** لست مرسلاً أو غيره من كلماتهم البذيئة، فلا يحزنك حيث **(إنّ العزة لله جميعاً)** فيعزّك عليهم وينتقم منهم **(هو)** أي الله تعالى **(السّميع)** بأقوالهم **(العليم)** بأفعالهم فيعاقبهم عن ذلك كلّه إن لم يتوبوا.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣ الحديث رقم ١.

ثمّ إنّ الكافرين حينما كان الرّسول (ﷺ) ينذرهم بالعذاب ويخوّفهم، كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم الّتي يعبدونها تنقذهم من العذاب؛ فأراد الله تعالى أن يذكر أنّه ليس لله أي شريك يستطيع أن ينقذ أحداً من عذابه، وشدّد النّكير على عقيدة المشركين هذه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(**ألا إنّ لله من في السّماوات ومن في الأرض**) مُلكاً وملكاً وأشار الله تعالى بهذا إلى أمرين:

الأمر الأوّل: إنّ من له هذا الملك العظيم لا يحتاج إلى شريك ولا يقبل الشّريك أيضاً، لأنّ الشّريك لا يريده إلّا المحتاج والعاجز.

الأمر الثّاني: إنّ كلّ ما في السّماوات والأرض ملك لله تعالى، والمملوك لا يكون شريكاً للمالك.

وبهذين الأمرين أثبت أنّه ليس لله تعالى شريك فإذن (**وما يتّبع الّذين يدعون**) ينادون أو يعيشون أو يعبدون ويعتقدون (**من دون الله**) تعالى أشخاصاً كانوا أو أصناماً أو هياكل أو نجوماً أو كواكب (**شركاء**) وهم في ذلك(**إن**) ليسوا هم (**يتّبعون إلّا الظّن**) والتّقليد، وليس لهم أيّ دليل على ذلك (**وإن هم**) أي ليسوا هم (**إلّا يخرصون**) يكذبون فيما يعتقدون ويقولون، (**هو الّذي جعل لكم اللّيل**) أي خلقه مظلماً (**لتسكنوا فيه**) عن العمل وتستريحوا، لأنّه لو كان الزّمان كلّه نهاراً لهلكتم من كثرة العمل والحركة

(والنّهار) وخلق لكم النّهار **(مبصراً)** أي مضيئاً يبصر فيه النّاس لتعملوا فيه وتتحرّكوا لكسب الرّزق **(إنّ في ذلك)** الصّنع العجيب لآيات على وجود الله ووحدته. أمّا على وجوده فلأن كلّ عاقل يعلم أنّ هذا الصّنع لا يستطيع صنعه إلّا عليم قدير وهو الله تعالى، وإنّ من يقدر على هذا الصّنع العجيب بلغت قدرته النّهاية، فلا يحتاج إلى شريك ولا يقبله. وبعد أن نفى أن يكون لله تعالى شريك، وكان بعض النّاس يعبدون الأصنام لأنّها تماثيل للملائكة، ويعتقدون أنّهن بنات الله تعالى، فلذلك يعبدون الأصنام، وبعض النّاس كانوا يعبدون المسيح لأنّه ابن الله تعالى في عقديتهم، أراد الله تعالى أن يردّ عليهم فقال جلّ وعلا: **(قالوا اتّخذ لله ولداً)** فنعبد ولده، وهنا يقف القارئ لئلّا يظنّ أنّ قوله: **(سبحانه)** من مقولهم إذ هو ليس من مقولهم بل هو قول الله ردّاً عليهم، أي تنزّه الله تعالى عن أن يكون له ولد **(هو الغني)** عن كلّ شيء، والغنيّ المطلق لا يحتاج إلى ولد ولا ولد له، ولا نسبة بينه وبين الولد لأنّ الولد إنّما يكون لمن يحتاج إلى الخدمة، فيتزاوج ليكون له ولد أو يكون محتاجاً إلى قضاء شهوة الجنس فيتزاوج فيكون، والله تعالى منزه عن كلّ ذلك. ثمّ استدل على غنائه فقال جلّ وعلا: **(له)** أي إنّه غنيّ مطلق حيث له كلّ **(ما في السّماوات وما في الأرض)** فمن كان كذلك لا يحتاج إلى ولد، كما وإنّ ما في الكون هو مملوكه، والمملوك لا يكون ولداً للمنافاة بين الملك والولد؛ فلا يكون الأب ملكاً لإبنه ولا الإبن ملكاً لأبيه ولا مالكاً أحدهما للآخر، فكيف يكون لله ولد وكلّ شيء ملكه **(إن)** أي ليس **(عندكم من سلطان)** دليل **(بهذا)** الّذي تقولونه من أنّ هؤلاء أبناء الله تعالى. ثمّ استفهم تعالى إستفهام توبيخ فقال: **(أتقولون على الله ما لا تعلمون)** من نسبة الولد إليه، ثمّ أنذرهم فقال: **(قل إنّ الّذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون)** أبداً إلّا أن يتوبوا **(متاع قليل)** لهؤلاء في الدّنيا **(ثمّ)** بعد ما ماتوا **(إلينا مرجعهم)** أي رجوعهم **(ثمّ)** بعد رجوعهم **(نذيقهم العذاب)** الشّديد **(بما كانوا يكفرون)** أي بسبب كفرهم بإسناد ما لا يليق إلى الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الأمم السّابقة وما أحاط بهم من الهلاك والدّمار نتيجة الكفر والإشراك وتكذيب الرّسل ليتّعظوا ويعتبروا بهم، فلا يكفروا ولايشركوا ولا يكذبوا الرّسول، فقال جلّ وعلا:

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ

أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

(واتل) واقرأ **(عليهم)** يا محمّد **(نبأ)** خبر **(نوح)** (عليه السلام) **(إذ)** وقتما **(قال لقومه يا قوم إن كان كبر)** أي شقّ وصعب وكرهتم **(مقامي)** وجودي فيكم **(وتذكيري)** إياكم **(بآيات الله)** تعالى من دلائل التّوحيد وآيات وأحكام، وأردتم الكيد بي وعدائي **(فعلى الله)** وحده **(توكّلت)** ولا أخاف منكم مثقال ذرّة **(فأجمعوا)** أي فاعزموا **(أمركم وشركاءكم)** على ما تريدون بي من قتلي أو تعذيبي، والمراد بالشركاء الآلهة، أراد إفعلوا ما استطعتم بقوّتكم المادّيّة والقوى الروحيّة الّتي تزعمونها لدى الآلهة **(ثمّ)** بعد هذا العزم **(لا يكن أمركم عليكم غمّة)** أي مستوراً بل أعلنوا عداءكم علناً وجهاراً **(ثمّ)** بعد ذلك **(اقضوا)** أي أمضوا وأتوا **(إلي)** لتفعلوا ما تريدون بي **(ولا تنظرون)** أي لا تمهلوني لحظةً، فإنّي لا أبالي بكم ولا أخاف منكم أبداً، حيث إنّ الله تعالى يمنعكم عنّي، وفي هذا نهاية الصّمود على الحقّ وعدم الخوف من العدوّ والتوكّل على الله تعالى، ذكره الله تعالى هنا ليصمد الرّسول (صلى الله عليه وسلم) ولا يخاف ويتوكّل على الله، فيمضي في دعوته ولا يخاف أحداً، ويكون هكذا الدّعاة أيضاً في كلّ مكان وزمان. ثمّ بعد أن أعلن سيّدنا نوح (عليه السلام) للقوم أنّه لا يخاف منهم، أراد أن يعلن لهم أنّه لا يطمع فيهم أيضاً فقال: **(فإن توليتم)** كلّكم عن الإيمان فلا أبالي حيث **(فما سألتكم)** عن هذه الدّعوة ولا أطمع من ورائها **(أجراً)** منفعة منكم **(إن أجري إلّا على الله)** تعالى الّذي يؤجرني على هذه الدّعوة فيسعدني في الدّنيا والآخرة، فلا أدعوكم خوفاً ولا طمعاً بل أدعوكم حيث أمرني الله تعالى بذلك **(وأمرت)** من قبل اللّه تعالى **(أن أكون من المسلمين)** وأن أدعو النّاس كلّهم إلى الإسلام وفي هذه الآية إشارات:

الأولى: إنّه يجب أن يكون الداعيّة صامداً في دعوته متوكلاً على الله تعالى لا يخاف سطوة جبارٍ أو غضب النّاس وكراهيّتهم أجمعين.

الثّانية: أن لا يطمع الداعيّة وراء دعوته وإرشاده في مال أو منصب أو أي منفعة من منافع الدّنيا ولا يجمع في طي دعوته الدّنيا بل يريد في الدّعوة الحقّ ونشره وإعلاء

كلمة الله تعالى ورفع راية الإسلام فحسب وليس إلّا، وبذلك تنجح في الدّعوة ويجزيه الله تعالى السّعادة في الدّارين وبعكس ذلك فلا ينجح، وإن نجح في الدّنيا فلا ينجح في الآخرة.

الثّالثة: إنّ الإسلام هو دين الله تعالى منذ مجيء آدم إلى الأرض وإلى يوم القيامة وهو دين الأنبياء والمرسلين أجمعين فكلّهم جاؤوا بالإسلام ودعوا إلى الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ الدّينَ عِنْدَ الله الإِسْلام﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩.

(**فكذّبوه**) أي فكذّب القوم نوحاً بعد هذه الدّعوة الصّريحة والصّامدة والبريئة من الأطماع، والّتي دامت قريباً من ألف عام. وبكفرهم هذا وتمرّدهم على رسول الله تعالى، أردنا هلاكهم فأرسلنا عليهم الطّوفان (**فنجّيناه**) أي نوحاً (**ومن معه**) من المؤمنين (**في الفلك**) الّذي صنعه بأمر من الله تعالى وتعليمه إيّاه (**وجعلناهم**) نوحاً ومن معه وذريّتهم (**خلائف**) جمع خليفة (**في الأرض**) وأبقيناهم وذريّتهم على الأرض (**وأغرقنا الّذين كذّبوا بآياتنا**) أي بمعجزاتنا الّتي آتيناها نوحاً، وبدلائل وحدتنا وبأحكامنا الّتي بلّغهم نوح إيّاها (**فانظر**) أيّها السّامع نظر عظة وإعتبار (**كيف كان عاقبة المنذرين**) الّذين لم يعملوا بمقتضى الإنذار ولم يؤمنوا به، انظر لتعتبر وتتّعظ بهم فلا تفعل ما فعلوا فتهلك كما أهلكوا.

تنبيه: قوله تعالى (وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ ... إلخ) الضّمير راجع إلى نوح (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين، فيدلّ على أنّ الله تعالى خلّف نوحاً (عليه السلام) وأهله ومن معه وأهلهم، وتناسل منهم النّاس بعد ذلك خلاف ما اشتهر من أنّه لم يبق إلّا ذريّة نوح (عليه السلام)، ولذلك يسمّى بآدم الثّاني، ولا ينافي ما قلنا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِين﴾ سورة الصافات الآية/ ٧٧. فإنّ ضمير الفصل لا يفيد الحصر دائماً بدليل قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ سورة الحشر الآية/ ٨. حيث هناك صادقون آخرون غير المهاجرين، وهم الأنصار وباقي المؤمنين، وكذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الحشر الآية / ٩. ولا ينحصر المفلحون في: (وَمَنْ يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) كما لا يخفى. والآيات الّتي فيها ضمير الفصل دون إفادة الحصر كثيرة،

ويؤيّد ما قلنا ما ذكر في حاشية الجمل على الجلالين فيقول، بعد ذكر الرأي المشهور وهو: إنّ النّاس كلّهم من ذريّة نوح، وقال قوم بعد: كان لغير أولاد نوح أيضاً نسل وذريّة بدليل قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نوحٍ﴾ سورة الإسراء الآية/٣. هذا والله تعالى أعلم.

* * *

فائدة مهمة: قد مرت خلاصة قصّة نوح في سورة الأعراف، وورد ذكر نوح (عليه السلام) وغيره من الأنبياء (صلوات الله على نبيّنا وعليهم) وكيفيّة حياتهم في قومهم في سور كثيرة، والحكمة في ذلك أنّ القرآن لا يريد من القصص روايتها بل يريد أموراً منها:

الأوّل: أن يكون معجزة للرّسول (ﷺ) حيث إنّه كان أميّاً لم يطّلع في يوم من الأيام على قراءة ولا دراسة لكتاب، ولا له علم بالتّاريخ وكان غافلاً هو وقومه عن مثل هذه الأخبار، فإطلاعه عليها وعلى ما فيها ممّا كان يخفى حتّى على الإختصاصيين من الأحبار والرّهبان وإخباره بها لا يكون إلّا من وحي من الله تعالى.

الثّاني: أن يأخذ النّاس العبر منها وليتّعظوا بها.

الثّالث: أن يكون تسلية للرّسول (ﷺ) ممّا يلاقي من قومه من الإيذاء والتّكذيب وليعلم أنّ هذا سنّة كلّ رسول، فليصبر كما صبروا فإنّ النّصر والعاقبة له.

الرّابع: الوعد للمؤمنين بالنّصر والإنذار للكافرين بالخزي والخسران ولذلك كلمّا يشتدّ نقاش الرّسول مع الكافرين، يذكر الله تعالى نبذة من قصّة أحد الرّسل لذلك، وحسب ما يقتضي المقام، ومن الجدير بالذّكر أنّ كلّ نبذة فيها عظة وعبرة ومعان لا توجد في غيرها، وإن كانت فيها إعادة لبعض ما في غيرها. وبهذه النّبذة المختصرة تتمّ القصّة وكبريات ما جرياتها، فافهم هذه الفائدة لتكون على بصيرة في القصص الواردة في القرآن، ولتعلم العبرة المقصودة من كلّ نبذة، ولا تفوتك تلك العبر والعظات، والله الموفّق وهو يهدى السّبيل.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى رسوله بنبذة من حياة قوم نوح (عليه السلام) في قومه أراد أن يذكر من بعده من الرّسل إجمالاً، وإنّ كلّاً منهم لاقوا من قومهم ما يلاقي هو من قومه من التّكذيب والعتوّ والإستكبار ليتسلّى الرّسول بذلك وليصمد، ولئلّا تثنيه كلّ الإعتبارات عن المضيّ في دعوته والقول بالحقّ والصّدع بما أمر، رغم أنف كلّ متكبّر؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

(ثمّ بعثنا من بعده) أي من بعد نوح إلى مجيء موسى **(رسلاً)** كثيرين **(إلى قومهم)** فكلّ رسول أُرسل إلى قومه **(فجاءوهم بالبيّنات)** بالمعجزات الواضحة والدّلائل الظاهرة عن رسالتهم **(فما كانوا)** أي الأقوام **(ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل)** أي من قبل مجيء الرّسل وهو وحدانيّة الله تعالى والبعث بعد الموت، فأصرّوا على ما كانوا عليه قبل مجيء الرّسل **(كذلك)** مثل ما علمت أو مثل ما ترى من قومك من عدم الإيمان وعدم فتح قلوبهم له **(نطبع)** نختم **(على قلوب المعتدين)** فلا يدخل فيها الإيمان، وذلك لإعتدائهم أي أنّ إعتداءهم عن الحقّ وحبّهم للباطل كان سبباً لختمنا على قلوبهم وعدم فتحها للإيمان حيث نحن لا نفتح قلب أحد جبراً وإنّما نفتح قلب من يريد الفتح ويحبّه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حياة موسى (عليه السلام) في قومه وفصل فيه بعض التّفصيل لما لموسى من زيادة المساس بالحكمة من القصص حيث كان هناك من أتباعه من اليهود قسم كثير فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

(ثمّ بعثنا من بعدهم) أي من بعد هؤلاء الرّسل الكثيرين **(موسى وهارون إلى فرعون وملئه)** أي وجماعته **(بآياتنا)** أي بمعجزاتنا الدّالة على رسالتهما وبأحكامنا **(فاستكبروا)** عن اتّباعهما والإيمان بهما وفي هذا دلالة على أنّهم عرفوا الحقّ إلّا أنّهم لم يتّبعوه إستكباراً **(وكانوا قوماً مجرمين)** بسبب هذا الإستكبار، فالإستكبار عن الحقّ من أكبر الجرائم **(فلمّا جاءهم)** من المعجزات ما يثبت به **(الحقّ)** وهو أنّهما رسولان

(من عندنا) أي عند الله تعالى **(قالوا)** لتلك المعجزات **(إنّ هذا لسحر مبين)** أي واضح في أنّه سحر **(قال موسى)** لهم **(أتقولون للحقّ لمّا جاءكم)** أن هذا سحر، ثمّ إستفهم إستفهام إنكار يجلب دقّة النّظر فقال: **(أسحر هذا)** الّذي أتيت به؟ أي كلّا إنّه ليس بسحر حيث **(ولا يفلح السّاحرون)** في دعواهم وقد أفلحت أنا فإنّي كلّما أردت آتي به بخلاف السّحرة، فإنّ مقدورهم وعلمهم محصور في فنّ واحد وشأن واحد لا يتعدّاه، فكلّ ساحر يعلم شيئاً يستطيع الإتيان به لا بغيره **(قالوا)** أي الملأ من قوم فرعون **(أجئتنا لتلفتنا)** أي لتزيّلنا **(عمّا وجدنا عليه آباءنا)** وهو عبادة الفراعنة ونتبعكم **(وتكون لكما الكبرياء)** أي الرّئاسة والسّلطان **(في الأرض)** أي أرض مصر ولا نقبل ذلك فلذا **(وما نحن بمؤمنين)** بتابعين لكما ومن هنا يفهم أمران:

الأوّل: أنّ الجهلين حينما أفحموا ولم يبق لديهم دليل من المنطق والعقل إلتجؤا إلى العصبيّة والكبرياء والتّقليد تجاه الحقّ وكلّ ذلك ليس من حقّ العاقلين، فالتّقليد والعصبيّة ليس لهما أي وزن عند الله تعالى وعند العقلاء جميعاً.

الثّاني: أنّ المال وحبّ الرّئاسة هي الّتي تصدّ النّاس غالباً عن اتّباع الحقّ والإنقياد له، وأن التّقليد الأعمى من أقوى الأسباب للضّلال والحرمان من العلم، وحيث كان فرعون أعقل من القوم عرف أنّ التّمسك بالعصبيّة والتّقليد ليس من دأب العقلاء، أراد أن يناقش ويناقش موسى بمثل ما أتي به، فأراد أنّ يجمع السّحرة ويبطل بسحرهم ما أتى به موسى و يعارضه ويثبت أنّ **موسى** ليس رسولاً وإنّما هو مفتر وإنّما أتي به هو السّحر كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

(وقال فرعون ائتوني بكلّ ساحر عليم) بالسّحر وعمله ليعارضوا موسى (عليه السلام) ويظهروا أنّ ما أتى به هو السّحر وليس بمعجزة كما يدّعى، فذهب أعوانه وجمعوا السّحرة وأثوابهم **(فلمّا جاء السّحرة)** تذاكروا وقالوا: من الّذي يلقي ما لديه قبل؟ هل

السّحرة أم موسى؟ (**قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون**) أي تريدون إلقاءه قبلي وأنا ألقي ما أريد بعدكم (**فلمّا ألقوا**) سحرهم وكان حبالاً ألقوها فتخيّل النّاس أنّها حيّاتٍ لأنّها كانت تتحرّك وتسعى حيث دهّنوها بما يسوقها ويحرّكها كالحيّات (**قال موسى**) لهم (**ما جئتم به**) هو السّحر أي التخيّل والتّمويه حيث لم تصر الحبال حيّاتٍ بالفعل ولا تنجحون بهذا السّحر حيث (**إنّ الله سيبطله**) أي يظهر بطلانه للنّاس (**إنّ الله لا يصلح**) أي لا يديم (**عمل المفسدين**) بل يزيله ويظهر (**ويحقّ الله**) فساده أي ويثبت ويرسخ (**الحقّ بكلماته**) بإرادته (**ولو كره المجرمون**) أي المنكرون للحقّ، وقد أنجز الله تعالى قول موسى (عليه السلام) فأمر موسى (عليه السلام) فألقى عصاه فأصبحت ثعباناً فابتلعت حبال السّحرة كلّها وظهر للنّاس كلّهم أنّ الحقّ مع موسى (عليه السلام) وآمن السّحرة حيث علموا أنّ ما فعل موسى (عليه السلام) لم يكن سحراً بل كان معجزة وأنّه رسول من الله تعالى، وبعد ظهور الحقّ ورؤية النّاس، هذا ومعجزات موسى (عليه السلام) الكثيرة فما آمن بموسى (عليه السلام) إلّا أناس قليلون كما قال جلّ وعلا:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

(**فما آمن لموسى إلّا ذريّة من قومه**) أي من قوم موسى (**على خوف**) يحتمل أنّ المراد أنّهم كانوا على خوف من فرعون (**أن يفتنهم**) أن يعذّبهم حيث آمنوا، ويحتمل أن يكون المراد أنّ النّاس لم يؤمنوا غير هؤلاء لخوف من فرعون (**أن يفتنهم أن آمنوا وملئهم**) وخوف من جماعتهم الّذين كانوا يوالون فرعون أن يخبروا فرعون بإيمانهم، أو أن يعاونوا فرعون في عذابهم (**وإنّ فرعون لعال في الأرض**) فكان يستطيع أن يعذّبهم إلى أن يعصمهم الله تعالى منه (**وكان من المسرفين**) فلا يبالي بتعذيبهم متى أراد (**وقال موسى**) لقومه الّذين آمنوا وكانوا يخافون فرعون (**يا قوم إن كنتم آمنتم بالله**) وإنّه لا

يكون شيء إلّا بإرادته وتقديره **(فعليه توكّلوا)** فإنّه يعصمكم من فتنة فرعون **(إن كنتم مسلمين)**[١] حقّاً فإنّ الله لا يضيّع عباده **(فقالوا على الله توكّلنا ربّنا لا تجعلنا فتنةً)** أي موضع عذاب وفتنة **(للقوم الظّالمين)** من فرعون وملئهم **(ونجّنا برحمتك من)** سيطرة **(القوم الكافرين)** علينا وهم فرعون وأعوانه، ومن قومهم الّذين كانوا يوالون فرعون ويرتزقون منه، فاستجاب الله دعاءهم وسلّاهم، وأمرهم بإخفاء أمرهم من فرعون وأعوانه وبشّرهم بالنّصر والغلبة وأمرهما **(أن تبوّءا)** أي تخصّصا **(لقومكما بيوتاً)** للعبادة الماديّة والتّوعية الرّوحية **(واجعلوا بيوتكم)** هذه **(قبلةً)** تقبلون عليها وتتوجّهون إليها وتجتمعون فيها، غير بيوت عبدة فرعون **(وأقيموا الصّلاة)** في تلك البيوت إلى أن يأتي أمر الله تعالى بالنّصر **(وبشّر المؤمنين)** بأنّ النّصر لهم والخزي والهوان لأعدائهم، وإنّ الله تعالى مع المؤمنين إن صدقوا، فالآية تفيد أنّ الإعتزال عن الفاسدين والتّربية الرّوحية والتّوجه إلى الله تعالى بالصّلاة هي من أقوى أسباب الإطمئنان والرّاحة وجلب الرّحمة والمعونة والنّصر من الله تعالى، وفي الحديث: (كان رسول الله (ﷺ) إذا حزَبَه أمر فزع إلى الصّلاة)[٢].

ثمّ بعد أن يئس موسى (عليه السلام) من إيمان فرعون وإستسلامه للحقّ وشدّد فرعون للإيذاء على المؤمنين، توجه إلى الله تعالى بالدّعاء كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

(وقال موسى ربّنا) أي يا ربّنا **(إنّك آتيت فرعون وملأه زينةً)** أي أسباب الزّينة **(وأموالاً)** كثيرةً **(في الحياة الدّنيا ربّنا ليضّلوا)** اللّام لام العاقبة، أي فأصبح عاقبة هذه النّعم أن ضّلوا **(عن سبيلك)** أي دينك وعبادتك **(ربّنا اطمس على أموالهم)** أي أزل آثارها بالمحو والهلاك **(واشدد على قلوبهم)** أي اجعلها قاسية **(فلا يؤمنوا)** أي لا يأتوا إلى الإيمان **(حتّى يروا العذاب الأليم)** وهو الهلاك وعذاب الإستئصال، وحينئذٍ لا يقبل

---

(١) هذا دليل على أنه كان معلوما لدى بني إسرائيل أنّ موسى كان مسلما يدعوهم إلى دين لإسلام.

(٢) الثقات ٨/ ١٦٨ الحديث رقم ١٢٧٩٢، وفي سنن أبي داود ٢/ ٣٥ الحديث رقم ١٣١٩ بلفظ (إذا حزبه أمر صلى).

إيمانهم وإنّما دعا موسى (عليه السلام) هذا الدّعاء لأنّه يئس منهم، وهذا مثل ما قال نوح (عليه السلام) ﴿ولا تزد الظّالمين إلّا ضلالاً﴾ سورة نوح الآية/ ٢٤. فتدلّ الآية على أنّ الرّضاء بكفر الغير ليس كفراً، وإنّما الرّضاء بالكفر أي الإتصاف به كفر، فأجاب الله تعالى موسى كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

(قال) الله تعالى لموسى وهارون حيث كان موسى يدعو وهارون يؤمّن فلذا قال: **(قد أجيبت دعوتكما)** التّثبيتية **(فاستقيما)** على الدّعوة والعبادة لله تعالى **(ولا تتّبعان)** بالنّون المشدّدة وهي نون التّأكيد ونون تثبيتية حذفت بالجزم بلا **(سبيل الّذين لا يعلمون)** وهو الإستعجال بالأمور، وكان قد استعجل موسى خوفاً من قومه أن يتراجعوا عن دينه، إذ أدام الله تعالى فرعون وملأه في نعيمهم، وكان إمهال الله تعالى لإمتحان ثبات المؤمنين على العقيدة وعدم ثباتهم وليؤمن الّذين قدّر الله تعالى أنّهم يؤمنون وحكمة الله تعالى أولى.

ثمّ إنّ رسالة موسى (عليه السلام) إلى فرعون وطلبه أن يأذن لبني إسرائيل أن يذهبوا مع موسى (عليه السلام) إلى الأرض المقدسّة، فأبى فرعون أن يأذن لهم، وحينما ضاق الأمر ببني إسرائيل أمر الله موسى (عليه السلام) أن يذهب بقومه ليلاً في خفيةٍ فارتحلوا، فلمّا سمع فرعون رحيلهم، إتّبعهم فلمّا وصلوا البحر رأى بنو إسرائيل فرعون وجيشه، فخافوا أن يدركوهم، فأمر الله تعالى موسىٰ أن يضرب بعصاه البحر؛ فضرب البحر فصار قطعتين وبينهما فراغ عبر فيه موسىٰ وقومه فنجوا، وتبعهم فرعون مع جنوده فلمّا وصلوا وسط البحر إنطبقت عليهم القطعتان فغرقوا أجمعين. كما قال الله جلّ وعلا:

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

(وجاوزنا ببني إسرائيل البحر) بأن شقّ له البحر شقّين بينهما يابس فعبروا فيه **(فأتبعهم فرعون)** ودخل بين شقّي البحر هو **(وجنوده بغياً)** أي يبغي أن يدرك بني إسرائيل **(و)** ليعدوا عليهم **(عدواً)** فيقتلهم كلّهم، فما زال مصرّاً على هذا الكفر والعداء لموسى وقومه ولدينه **(حتّى إذا أدركه الغرق)** ووصل الماء إلى فيه **(قال)** لينجو من الغرق **(آمنت أنّه لا إله إلّا الّذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين)**[١] لهذا الإله ولدينه الّذي أرسل به موسى (عليه السلام) فقيل له من قبل الملائكة **(آلآن)** تؤمن **(وقد عصيت قبل)** حتّى وصلت إلى حال اليأس والهلاك **(وكنت من المفسدين)** فلا يقبل منك الإيمان في هذا الوقت؛ لأنّ الإيمان في حال اليأس لا يقبل **(فاليوم ننجّيك)** من البحر **(ببدنك)** فقط بلا روح **(لتكون لمن خلفك آية)** يعتبرون بها ويتّعظون ومثل هذه الآيات كثيرة **(وإنّ كثيراً من النّاس عن آياتنا لغافلون)** فلا يتّعظون بها، ولا تزال جثّة فرعون في أهرام مصر موجودة ومحنّطة إلى اليوم **(ولقد بوّأنا بني إسرائيل)** أي أنزلناهم **(مبوّأ صدقٍ)** منزل كرامةٍ وسعةٍ في الرّزق في الشّام وفلسطين **(ورزقناهم من)** أنواع الثّمار والأطعمة **(الطيّبات فما اختلفوا)** في دينهم **(حتّى جاءهم العلم)** بالدّين الصّحيح فاختلفوا، فأوّل بعضهم أحكام التّوراة وغيّروها حسب مصلحتهم ومنافعهم في الزّمان الماضي، واختلفوا في نبوّة الرّسول (صلى الله عليه وسلم) من بعد أن جاءهم العلم به وبعث، فكفروا به وقد كانوا من قبل يبشّرون ويستفتحون به على الّذين كفروا من أعدائهم المشركين فيقولون لهم: لقد حان أن يأتي النّبيّ الموعود به في التّوراة فنقتلكم معه إرباً إرباً، فلا تحزن أيّها الرّسول من تكذيبهم حيث **(إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)** بأن يعذّب المنحرفين عن التّوراة وأحكامه وعن أمرها بالإيمان بالرّسول ويثيب المطبّقين لها ولما فيها.

ثمّ بعد أن ذكر تعالى قصّة موسى (عليه السلام) وفرعون وكان بعض النّاس يشكّون في صدق ما يرويه الرّسول (صلى الله عليه وسلم) من أمثال هذه القصص قال تعالى مخاطباً لرسوله للتّعريض بمن يشكّ في ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ

(١) هذه الآية دليل على أن موسى كان يبلغ بالإسلام لا غيره لذلك أعلن فرعون إسلامه.

لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

(فإن كنت) الخطاب لغير الرّسول (ﷺ) من السّامعين لأنّ الرّسول (ﷺ) لم يكن عنده شكّ[1] فالمعنى: **(فإن كنت)** أيّها السّامع **(في شكّ ممّا أنزلنا إليك)** بواسطة الرّسول (ﷺ) من أمثال هذه القصص **(فسأل)** أهل الكتاب **(الّذين يقرأون الكتاب)** أي التّوراة **(من قبلك)** من الأحبار الصّادقين فإنّهم يخبرونك بصدق ما قال الرّسول (ﷺ) ويقولون والله **(لقد جاءك الحقّ من ربّك)** في ذكر هذه القصص **(فلا تكوننّ من الممترين)** أي من الشّاكين في أنّها من الله تعالى، وأنّها وقعت كما أخبر النّبيّ بها **(ولا تكوننّ من الّذين كذّبوا بآيات الله)** الّتي أرسلها مع الرّسول لتدلّ على صدق رسالته من الإخبار بما مضى، كما هو دون أن يتعلّم أو يقرأ كتاباً أو روايةً وهو أمّي **(فتكوننّ)** بسبب تكذيبك بآيات الله **(من الخاسرين)** من عزّ الدّنيا وسعادة الآخرة، هذا وقد ذكرنا قصّة موسى (عليه السلام) مفصّلة في سورة الأعراف والحمد لله تعالى.

ثمّ كان بعض النّاس يسألون الأحبار الصّادقين فيقولون: كلّ ما يقول محمّد (ﷺ) حقّ وموافق للتّوراة والكتب السّماوية السّابقة ومع ذلك يصرّون على الكفر فلا يؤمنون فقال فيهم جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

(إنّ الّذين حقّت) ثبت **(عليهم كلمة)** قضاء **(ربّك)** بالعذاب **(لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية)** أي برهان ودليل على حقيّة ما تدعو إليه **(حتّى يروا العذاب الأليم)** أي عذاب الإستئصال، فحينئذٍ يؤمنون إلّا أنّه لا يفيدهم الإيمان حينئذٍ؛ لأنّ الإيمان حال اليأس وكذا التّوبة غير مقبول. وعذاب الإستئصال نوعان: فردي فكلّ فرد قبل أن يموت وحينما تحقّق موته يظهر له الحقّ فيؤمن ولا يفيده هذا الإيمان، وجماعي كاستئصال قوم ثمود وعاد ولوط مثلاً، فإيمانهم حين مجيء العذاب غير مقبول، وهذه قاعدة كليّة إلّا

---

(١) أي أنه من باب (إياك أعني واسمعي ياجارة) إذ قد يوجه الكلام إلى شخص ويقصد به غيره، أو أنه من باب تطمين القلب كما حصل لإبراهيم عليه السلام إذ قال (ولكن ليطمئن قلبي)،

أنّ الله تعالى إستثنى قوماً من هذه القاعدة فقبل إيمانهم، وكشف عنهم العذاب كما قال جلّ وعلا:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

(فلولا كانت) أي فلم توجد **(قرية آمنت)** حين معاينة العذاب **(فنفعها إيمانها)** بأن يقبل منهم وينجوا من العذاب **(إلّا قوم يونس لما آمنوا)** حينما رأوا علامات العذاب **(كشفنا)** أي أزلنا **(عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا ومتّعناهم إلى حين)** أجلهم المحتّم لهم. وإنّ قصّة يونس (عليه السلام) تأتي في سورة الصّافات إن شاء الله تعالى. والحكمة في قبول إيمان قوم يونس حين معاينته العذاب خلاف الأقوام الآخرين أنّ رسولهم خرج من بينهم هو بدلاً عنهم ووقع في بطن الحوت، كما يأتي، ومن هنا ضاق صدر رسول الله وأراد أن يكره النّاس على الإيمان قبل أن يأتيهم العذاب رحمةً بهم؛ فسلّاه الله تعالى وهدّأ من أعصابه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(ولو شاء ربك) أن يجبر النّاس على الإيمان لأجبرهم وحينئذٍ **(لآمن من في الأرض كلّهم جميعاً)** أي مجتمعين، ولكنّ الله تعالى لا يريد الجبر لا على الإيمان ولا على الكفر، بل جعل للنّاس عقولاً يتفكّرون بها وآذاناً وأبصاراً يدركون بها، ونصب لهم الأدلّة الّتي تدلّ على الحقّ ونبّههم على الحقّ بإرسال الرّسل، ثمّ جعل الإختيار لهم، فمن أراد الإيمان وأحبّه يسّره له ومن لا فلا، فالله تعالى لا يكره أحداً على الإيمان لأنّ الإيمان إكراهاً وجبراً لا فضل فيه، وإنّما الإيمان الفاضل هو ما كان عن تدبّر وإختيار **(أفأنت تكره النّاس حتى يكونوا مؤمنين)** والإستفهام للنّهي أي لا تفعل ذلك فإنّ الله هو مع قدرته لا يفعل ذلك ويفهم من هذه الآية أمران:

الأوّل: إنّه لا إكراه في الدّين والعقيدة وإنّما هناك الدّعوة والإرشاد والإنذار والتّبشير، فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها.

الثّاني: إنّها تردّ على مذهب الجبريّة الّذين يعتقدون أنّ الله يجبر النّاس على الأعمال، وأنّه لا إختيار للعبد، وإنّما هو كالقلم بين يدي الكاتب، هذا ثمّ بعد ما أبطل الله تعالى الجبر وجعل الأمر إلى إختيار العبد يعتقد النّاس أنّ العبد مستقل في عمله، وأنّه خالقه ولا دخل لله تعالى في ذلك، وهذا مذهب القدرية، فأراد الله تعالى أن يرد على هذا المذهب أيضاً فقال جلّ وعلا: **(وما كان)** أي وما أمكن **(لنفس أن تؤمن إلّا بإذن الله)** وإرادته وخلقه، وبهذا ظهر حقيّة مذهب أهل السّنة، وهو أنّ فعل العبد دائر بين إرادتين، إرادة العبد له وإرادة الله تعالى لخلقه، فالعبد يسعى ويريد، والله تعالى يخلق له قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٥ - فالقلوب الطّاهرة الّتي تحبّ الخير والإيمان ينوّرها الله تعالى بالإيمان والأعمال الصّالحة، وأمّا القلوب النّجسة الّتي لا تريد إلّا الكفر فأولئك يبقيهم الله تعالى على خبثهم كما قال: **(ويجعل الرّجس)** أي يبقيه ويديمه **(على)** قلوب **(الّذين لا يعقلون)** أي لا يريدون فهم وتعقّل الحقّ واتّباعه.

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى أنّه ليس من وظيفة الرّسول إكراه النّاس على الإيمان، أراد أن يبيّن له أنّ وظيفته الإرشاد والتّنبيه على دلائل الحقّ والوجود والوحدانيّة لله والإنذار والتّبشير؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

(قل انظروا ما في السّماوات والأرض) من الآيات والدّلائل الّتي تدلّ على وحدة الله تعالى وقدرته، وأنّه لا شريك له، أي أرشدهم إلى هذه الآيات والدّلائل، وهنا شيء محذوف تقديره وأنذرهم بدليل قوله: **(وما تغني)** أي وما تدفع العذاب **(الآيات)** الدّلائل **(والنّذر عن قوم لا يؤمنون)** لا يحبّون الإيمان ولا يتفكّرون في الآيات، ولا يسمعون النّذر سماع تدبّر وقبول. ثمّ ذكر الله تعالى أنّه ليس لهؤلاء الكفرة إلّا الهلاك والعذاب كالأمم السّابقة، فقال: **(فهل)** الإستفهام للإنكار **(أي فلا ينتظرون)** هؤلاء من سوء العاقبة

(إلّا مثل أيام الّذين خلوا من قبلهم) من الأقوام وهو نزول العذاب عليهم **(قل فانتظروا)** أيّها الكفرة هلاكنا **(إنّي معكم من المنتظرين)** أن يأتيكم عذاب أليم، وإنّ إنتظارنا هو الّذي يفيد وسيأتيكم من ذلك العذاب **(ثمّ)** بعد **(ننجّي رسلنا والّذين آمنوا)** من بعده وما تريدون بهم من الأذى **(كذلك)** مثل ما قلنا **(حقّاً علينا)** وهو أنّا **(ننج المؤمنين)** وما عليهم إلّا الصّبر وعدم الإستعجال في الأمور، فإنّ كلّ أمر مرهون بوقته، وفي هذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين، فعلى المؤمنين العمل والثّبات والاستقامة وإنتظار الفرج فإنّ الله لا يخلف الميعاد، وقوله: **(ننج)** أصله ننجي سقطت الياء لإلتقاء السّاكنين وهما: الياء ولام المؤمنين، وقوله: حقّاً أي وجب وجوباً هو أوجبه على نفسه أي حتّمه وأراده إرادة حتم لا تخلّف عنه.

ثمّ أمر الله تعالى رسوله (ﷺ) أن يخاطبهم بالحكمة والهجر الجميل فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ للقوم جميعاً **(يا أيّها النّاس إن كنتم في شكّ من ديني)** فلذلك لا تتّبعونني فلست أنا في شكّ في بطلان دينكم ولذلك **(فلا أعبد الّذين تعبدون)** أنتم **(من دون الله)** تعالى **(ولكن أعبد الّذي يتوفّاكم)** إلتفت من المتكلّم إلى الخطاب للإشارة إلى أنّه يجب عليكم أن تعبدوه أنتم أيضاً لأنّه هو الّذي يتوفّاكم فهو حقيق بالعبادة **(وأمرت)** من الله تعالى **(أن أكون من المؤمنين)** به وحده وأمرني تعالى **(أن أقم وجهك للدّين)** للتّوحيد ولا تعدل عنه **(حنيفاً)** أي حال كونك عادلاً عن الباطل وهو الشّرك الّذي عليه القوم إلى الحقّ الّذي أنزل إليك وهو التّوحيد **(ولا تكوننّ من المشركين)** بالله شيئاً لا في التّكوين ولا في التّشريع **(ولا تدع)** أي ولا تطلب دفع حاجة وردّ مضرّة ولا جلب منفعة **(من دون الله ما)** أي أصناماً وهياكل وأشخاصاً **(لا ينفعك)** حيث لا ينفعك غير الله من هذه الأشياء **(فإن فعلت)** وناديت غيره واستغنيت به **(فإنّك إذاً)** إذا فعلت ذلك **(من الظّالمين)** أي المتجاوزين الحقّ إلى الباطل.

ثمّ علّل الله تعالى عدم دعاء غير الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

(وإن يمسسك الله بضرّ) وإن كان قليلاً كما يدلّ على ذلك لفظ المسّ فكيف بالكثير **(فلا كاشف)** فلا مزيل **(له)** لذلك الضرّ **(إلّا هو)** أي الله تعالى **(وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله)** أي لا يزيل نعمته سواه **(يصيب به)** بذلك الفضل **(من يشاء من عباده)** أي هو مختار في إنعامه فلا أحد ولا شيء يلزمه الإنعام كما يعتقد المشركون من أنّ آلهتهم أو من يعتقدون فيه هم شفعاء ووسطاء يجلبون الخير لهم من الله تعالى في الدّنيا والآخرة، ولذلك يقدّسونهم أو يعبدونهم أو يتقرّبون إليهم بالنّذور والقرابين، فالفضل كلّه بيد الله لا يتدخّل في إفضاله على النّاس غيره فلماذا ندعوهم؟ نعم إنّ للصّالحين الدّعاء ليس إلّا، والله مختار في استجابة دعائهم أولا، ليس في أيديهم سوى ذلك، والدّعاء من وظيفة كلّ مسلم لا يخصّ به أشخاص أو جماعات، فالأدنى يدعو للأعلى كما قال سيّدنا محمّد (ﷺ) لعمر(رضي الله عنه) عندما كان متوجّهاً إلى العمرة: (يا أخيّ لا تنسانا)[1]، والأعلى يدعو للأدنى والمساوي، لا إختصاص ولا إختيار. ثمّ لما بيّن الله أنّ النّفع في الدّنيا والضّرّ بيد الله تعالى، أراد أن يذكر أنّه في الآخرة كذلك أيضاً، فقال جلّ وعلا: **(وهو الغفور)** الّذي يغفر لمن يشاء يوم القيامة **(الرّحيم)** من يشاء بالمغفرة له، لا يتدخّل في ذلك أحد، وليس لأحد تأثير في ذلك، نعم إنّ الشّفاعة للأنبياء والصّالحين موجودة إلّا أنّه بإذن الله تعالى تكرمة لهم وبعد إذنه يشفعون، وهو مختار في قبول شفاعتهم أو لا، فليتوجّه العبد إذاً إلى الله تعالى لا إلى غيره، حيث لا يملك غيره شيئاً ﴿والأمر يومئذ لله﴾ سورة الإنفطار الآية/ ١٩.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

(قل يا أيّها النّاس قد جاءكم الحقّ من ربّكم) من العقائد والأحكام والأخلاق

---

(١) أخبار مكة للفاكهي ١/ ٤٠٧ الحديث رقم ٨٧٥ بلفظ (لا تنسانا من دعائك يا أخي)

(فمن اهتدى) بهذا الحقّ والهدى واتّبعه **(فإنّما يهتدي لنفسه)** إذ ينفع نفسه لا غيره بهذا الاتباع والإهتداء، فإنّي لا أريد أن آخذ منكم أجراً على إيمانكم وإهتدائكم، ولا أثاب بذلك بل أثاب بدعوتكم وهي حاصلة حيث أدعوكم قبلتم أو لا **(ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها)** حيث يضرّ نفسه بضلال لا غيره، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وإثم دعاة الضّلال ليس في مقابلة ضلال الضّال وإنّما على دعوته المضلّة، والآباء والأمهات وأولياء الأمور حينما يثابون على توجيه من تحت قدرتهم إلى الخير ويعاقبون على إهمالهم ذلك، فثوابهم على توجيههم وعقابهم على الإهمال لا على أفعال مواليهم **(وما أنا عليكم بوكيل)** أي لم يوكل أمركم إليّ فآتيكم إلى الخير بالجبر والإكراه أو بخلق الخير فيكم، وإنّما ذلك بيد الله تعالى وإرادته، وهو يعمل حسب ما تختارون، فإذا أردتم الخير يسرّه لكم وإلّا فلا.

ثمّ بعدما وصى الله تعالى رسوله أن يقول للنّاس هذه الحقائق أمره بالصّبر إن لم يقبلوا مواعظه فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

(واتّبع) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم **(مايوحى إليك)** في القرآن من العقائد والأحكام ولا يزحزحك عنه ذلك أو ذاك وكيفما كان النّاس **(واصبر)** على كفر النّاس وابتعادهم عن الحقّ وإستهزائهم وسخريّتهم منك **(حتّى يحكم الله)** بينك وبينهم بنصر الحقّ وهزيمة الباطل **(وهو)** أي الله **(خير الحاكمين)** فيحكم بالخير لك وللمؤمنين والنّصر إن علمتم واستقمتم واصطبرتم في آخر الأمر والعاقبة الأخيرة، والله الموفق وهو يهدي السّبيل وفيها الوعد بالنّصر وحسن العاقبة وقد فعل، اللّهم افعل لنا أيضاً وأنت أرحم الرّاحمين آمين.

سورة هود

(مكيّة، نزلت بعد سورة يونس، وهي مائة وثلاث وعشرون آية، سميّت بسورة هود لما فيها من قصّة هود)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾

(الر) مرّ الكلام على مثل هذه الحروف في أول سورة البقرة بتفصيل ولله الحمد **(كتاب)** خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا الّذي يتلى عليك أيّها النّبيّ ويا كلّ سامع **(كتابٌ)** والتّنوين فيه للتّعظيم أي كتاب عظيم. ثمّ بين سبب عظمته فقال جلّ وعلا: **(أحكمت)** أي أتقنت **(آياته)** أي أحكامه الإعتقاديّة والعمليّة والأخلاقيّة للأفراد والجماعات وفي جميع شؤون الحياة **(ثمّ فصّلت)** أي بينت للنّاس **(من لدن)** أي من عند **(حكيم)** بلغت حكمته النّهاية **(خبير)** بلغ علمه وخبرته الحدّ الأعلى، ومن كان في مثل هذا الوصف، وهو الله تعالى، فكتابه أعظم الكتب وأحكامه أعدل الأحكام وأقومها وفصلت تلك الأحكام **(أن)** أي لأن **(لا تعبدوا)** ولا تطيعوا **(إلّا الله)** ولا تعملوا بنظام غير نظامه ولا كتاب غير كتابه فبلغ يا محمّد هذا وقل: **(إنّني لكم منه)** أي من الله **(نذير)** أي رسول أنذركم بعذابه إن عبدتم غيره واتّبعتم غير نظامه وكتابه **(وبشير)**

أبشركم بالجنّة إن اتّبعتم كتابه وطبّقتم نظامه وبسعادة الدّارين **(وأن استغفروا)** عطف على أن لا تعبدوا، أي فصلت تلك الآيات أن لا تعبدوا إلّا الله **(وأن استغفروا ربّكم)** ممّا عملتم من قبل خلاف أمره وحكمه، **(ثمّ)** بعد الاستغفار **(توبوا)** إرجعوا **(إليه)** أي إلى حكمه واتّباع كتابه وشريعته، فإن فعلتم ذلك **(يمتّعكم)** الله **(متاعاً حسناً)** أي حياةً حسنةً **(إلى أجل مسمّى)** لإنتهائكم وهذا جزاؤكم في الدّنيا **(ويؤت كلّ ذي فضل)** أي ذي عمل فاضل صالح **(فضله)** أي ثواب فضله وعمله في الآخرة **(وإن تولّوا)** أي تتولّوا حذفت إحدى التّاءين أي إن تعرضوا عن كتاب الله تعالى وشريعته **(فإنّي أخاف عليكم عذاب يوم كبير)** في الدّنيا مثل أيام عاد وثمود وقوم نوح، وبالنّسبة للآخرة **(إلى الله مرجعكم)** أي رجوعكم فينتقم منكم **(وهو)** أي الله **(على كلّ شيء)** من رجوعكم والإنتقام منكم **(قدير)** لا يعجز عنه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن موقف الكفار مع هذا الكتاب العظيم حينما يتلوه الرّسول (ﷺ) ويبلغهم إياه ويلومهم على هذا الموقف فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾

(ألا) أي إعلم يا محمّد **(إنّهم)** أي الكّفار **(يثنون)** يحوّلون **(صدورهم)** عنك حينما تتلو عليهم هذا القرآن **(ليستخفوا)** أي ليستروا أنفسهم **(منه)** من قائل هذا الكتاب وهو الله، وكأنّهم لم يسمعوا كلامه **(ألا حين يستغشون ثيابهم)** فيجعلونها على رؤوسهم لكي لا يراهم أحد، وكأنّهم لم يبلّغوا ولم يعلّموا حينما يثنون صدورهم ويستغشون ثيابهم، إنّه **(يعلم)** الله بهم وحالهم وبـ **(ما يسرّون)** من القول والعمل **(وما يعلنون)** منهما، وهنا صنعة احتباك فإنّه حذف ويستغشون ثيابهم أولاً بقرينة ما يأتي، وحذف يثنون صدورهم ثانياً بقرينة ما سبق، وفي قوله يعلم الله وعيد لهم، إذن المعنى: إنّه ينتقم منهم على كلّ ذلك حسب علمه به، ولا يخفى عليه شيء من ذلك. هذا وكان هناك بعض النّاس ينحرفون عن القرآن ولا يؤمنون خوفاً على مصالحهم ومنافعهم الّتي كانت مربوطة بدينهم الباطل فقال تعالى: **(وما من دابّةٍ)** تدبّ على الأرض من إنسان وحيوان وحشرات وطيور وزحائف **(إلّا على الله رزقها)** فلا ينبغي ولا يجوز لأحد أن

ينحرف عن الحقّ خوفاً على رزقه فإنّ الله حينما يرزقه وهو على الباطل فلا يهمله إذا انحرف منه إلى الحقّ بل يرزقه أحسن من ذي قبل (**ويعلم مستقرّها**) محلّ قرارها الدّائمي (**ومستودعها**) أي محلّ قرارها الوقتي (**كلّ**) من رزقها واستقرارها وإستيداعها (**في كتاب مبين**) عند الله تعالى لا يخفى عليه شيء.

تنبيه: ليس معنى كون الرزق على الله تعالى وبيده أنّه ينزل من السّماء المطعومات والمشروبات والملابس، فيجمعها النّاس ويتمتّعون بها، بل معناه: أنّ الله تعالى خلق موارد ومنابع وأصول كلّ رزق في الأرض، وجعل للوصول إليه سبلاً وأسباباً ومسالك؛ فعلى العبد اتّخاذ السّبل وأنّ الله يوصله إلى الرّزق، فمن أراد أن يبسط له ألهمه سلوك سبيل تؤدي إلى سعته ومن لا فلا، فاتّخاذ الأسباب والعمل والسّعي لتحصيل الرّزق واجب، ووصوله وحصوله على الله تعالى؛ ولذلك حينما رأى سيّدنا عمر رضي الله عنه جماعة كانوا ملتزمين وعاكفين في المسجد دون كسب وعمل فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن متوكّلون على الله، فطردهم بدرّته وقال: بل أنتم متآكلون إنّ الله لا ينزل ذهباً ولا فضةً من السّماء إذهبوا واعملوا.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ رزق كلّ شيء عليه وبيده فهو يرزقهم، أراد أن يذكر أنّ رزقه للإنسان وإسكانه على الأرض وخلق السّماوات والأرض لأجله، وليسكن فيها ليس أمراً عبثاً ودون حكمة بل خلق هذا الرّزق وهذه الكائنات كلّها للأنسان ولأجل حياته ولسعادته؛ فنظم له هذا النّظام البديع والكون العجيب وكذلك نظّم له نظاماً تكليفيّاً للعمل به والحياة وفق تعليماته وإرشاداته ليسعد بذلك، وجعل لمن يطبّق هذا النّظام يوماً يبعث فيه بعد الموت ويحيا حياةً أبديّةً سعيدةً لا يضلّ ولايشقى فيها، ومن لا فإنّه في ذلك اليوم في العذاب الأليم يخلد ويبقى فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

وهو الذي خلق (**السّماوات**) كلّها و(**الأرض**) وما فيها (**في ستّة أيام**) تقدّم الكلام عليه في سورة يونس (ﷺ) (**وكان عرشه**) قبل خلق السّماوات والأرض (**على الماء**) فقط، فلم يكن شيء آخر موجوداً غير الماء، والمراد بالعرش عرشه كما يليق به دون تشبيه وتعطيل وتفصيل، فإنّ صفات الله كلّها وما ينسب إليه ليس كصفاتنا، فلا يقاس بما لدينا ولا يصل إلى معرفة كنهها وحقيقتها وكيفيتها عقولنا وأذهاننا، فله ما يثبت له حسب ما يليق به، وقد خلق الله تعالى هذا الكون كلّه ليعيش الإنسان فيه وليطبّق حكم الله تعالى فيه (**وليبلوكم**) أي ليمتحنكم (**أيّكم أحسن عملاً**) بموافقته لشريعتنا وأيّكم أقبحه لمخالفته لحكمنا وأمرنا، وقد ذكرنا معنى إمتحان الله تعالى مراراً، ونتيجة الإمتحان وهو الثّواب والعقاب وللثّواب والعقاب يوم وهو يوم القيامة فمعنى (**ليبلوكم**) أي ليمتحنكم ويجزيكم حسب نجاحكم ورسوبكم ولكنّ الكافرين لا يؤمنون بهذا الثّواب والعقاب بل (**ولئن قلت إنّكم مبعوثون**) أي تحيون (**بعد الموت**) للثّواب والعقاب (**ليقولنّ الّذين كفروا إن هذا**) أي ليس هذا القول بالبعث بعد الموت (**إلّا سحر**) أي تخييل (**مبين**) واضح لا أساس له وقرئ (**إلّا ساحر**) فحينئذٍ يكون (**هذا**) إشارة إلى النّبيّ أي ليس هذا القائل بهذا القول إلّا **ساحر** مبين. وبعد أن ذكر الله تعالى جلّ وعلا: (**ولئن أخّرنا عنهم العذاب**) في الدّنيا (**إلى أمّة**) أي إلى أوقات (**معدودة**) أي قليلة (**ليقولنّ ما يحبسه**) أي العذاب، ولم لا يأتي استهزاءً وإنكاراً له (**ألا**) فليعلموا (**يوم**) منصوب بقوله مصروف الآتي أي (**يوم يأتيهم**) ذلك العذاب المنذر به (**ليس مصروفاً**) مدفوعاً (**عنهم**) في ذلك اليوم أي لا يرده أحد (**وحاق**) وأحاط (**بهم**) حينئذٍ عقاب (**ما كانوا به يستهزئون**) العقاب الّذي كانوا ينكرونه ويستهزئون به.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن طبيعة الإنسان وجبلّته فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

بعزّتي (**ولئن أذقنا الإنسان**) الّذي هو غير مستقيم (**منّا**) أي من فضلنا (**رحمةً**)

نعمةً (**ثمّ**) بعد ذلك (**نزعناها**) أي سلبناها (**منه**) إمتحاناً له هل يصبر أو لا؟ (**إنّه ليوس**) من رحمتنا (**كفور**) بالله تعالى (**ولئن أذقناه نعماء بعد ضرّاء**) أي فقراً وفاقةً (**مسّته ليقولنّ ذهب السّيئات عنّي**) فيتكبّر ولا يخاف مصائبنا (**إنّه لفرح**) فرح بطراً وكبرياءً بدل فرح الشّكر لله تعالى والتّواضع له على ما أعطاه (**فخور**) بنعمة غير شاكر واهبها ومسديها وهو الله تعالى، فكلّ النّاس كذلك (**إلّا الّذين صبروا**) حينما سلبناهم النّعمة (**وعملوا الصّالحات**) حينما وهبناهم النّعماء شكراً لله تعالى (**أولئك لهم مغفرة وأجر كبير**) من الله تعالى بخلاف الأوّلين فهم أهل الشّقاء والعذاب الشّديد.

ثمّ إنّه كان هؤلاء الكافرون حينما يتلو الرّسول عليهم القرآن ويبلّغهم ما أنزل إليه يقولون: لماذا لم ينزل عليه كنز بدل هذا؟ أو جاء معه ملك ليشهد له بالرّسالة؟ فسلّاه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

(**فـ**) بعد تمرّد هؤلاء وكفرانهم النّعم (**لعلّك**) يا محمّد (**تارك بعض ما يوحى إليك**) فلا تبلّغهم خوفاً من تهاونهم واستهزائهم به، ومعنى لعلّ هنا: أنّه كاد أن يفعل الرّسول ذلك، فأمره أن لا يمنعه تكذيب المكذّبين وإنكار المنكرين، وأن لا يشطّه ذلك من الدّعوة، فعليه الدّعوة قبلوا أو لا واستهزأوا به أو لا، وليكن كما يقول القائل: (القافلة تمشي والكلاب تنبح)[1] (**وضائق به**) الضّمير راجع إلى ما يفسّره ما بعده فالتّقدير: وضائق بقولهم (**صدرك**) وهو (**أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز**) يدل هذا القرآن

(١) أو (القافلة تمشي ولا يهمّها نبح الكلاب عليها) أي كما أنّه لا تأثير لنبح الكلاب على مسار القافلة فكذلك لا تاثير لاستهزاء وادعاءات ومكر الكافرين على المسيرة الإسلاميّة الصّادقة والمبدئيّة المتّسمة بالجرأة والصّدق والإعتداد بالشّخصيّة الإسلاميّة الثّابتة.

(أو جاء معه ملك) بصدقه في دعواه الرّسالة، فلا يضق صدرك بهذه الأقاويل لأنّك لست مكلّفاً بإقناعهم بكلّ ما يريدون وبإظهار كلّ معجزة يقترحونها بل **(إنّما أنت منذر)** عليك الإنذار فقط، فإن قبلوا فلهم الأجر والثّواب وإلّا فلهم الوزر والعقاب، وأنت مؤدّ واجبك ونلت أجر الرّسالة والمرسلين، وحينما ينظر الإنسان إلى هذه الآية يرى أنّ طبيعة الكفر واحدة والجاهليّة هي الجاهليّة قديماً وحديثاً، فإنّه كثيراً ما ترى اليوم حينما تعظ أحداً وتنهاه عن منكر أو تأمره بمعروف يقول: وصل النّاس إلى القمر وأنت تقول هكذا وهكذا. فقل له: يا أخي إنّ هذه عقيدة وأمر من الله وليست صناعةً وفنّاً، فالفنّ لمن اكتسبه ولكن الدّين لكلّ أحد، وواجب على كلّ إنسان وحقّ لله على النّاس، ولا يمنعك هذا الدّين عن أن تصعد على المريخ أو تصنع الذّرة بل يأمرك به، وإنّ الّذين صعدوا على المريخ وصنعوا[١]، ما صنعوها بالخلاعة والميوعة والتّفسخ في الإخلاق بل بالجدّ والعمل، فأنت يا حبيبي ضيّعت الإثنين فلا الأخلاق أبقيت ولا الصّناعة أتقنت، ولذلك ضيّعت الدّنيا والآخرة، بل وضاعت الأمّة بهدر الاخلاق والتّفسخ قال الشّاعر:

فإنّما الأمم الاخلاق ما بقيت فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا[٢]

(أم) أي بل **(يقولون)** هؤلاء الكفرة للرّسول (ﷺ) **(افتراه)** أي أتى بهذا القرآن من عنده أو من أحد غيره ونسبها إلى الله تعالى افتراءً **(قل)** إن كان القرآن من عندي أو من عند أحد غيري وليس من الله تعالى **(فأتوا بعشر سور)** من عندكم أو من عند أحد من البلغاء تكون **(مثله)** مثل القرآن فصاحةً وبلاغةً وروعةً في الحسن في البيان والتّعبير **(مفتريات)** وانسبوها إلى الله تعالى افتراء **(وادعوا من استطعتم)** من الشّعراء والخطباء والبلغاء لمعارضة القرآن بشرط أن يكون من تدعونه **(من دون الله)** تعالى **(فإن لم يستجيبوا لكم)** أي لم يستطع أحد أن يأتي بمثله **(فاعلموا)** فآمنوا أنّه **(أنّما أنزل)** القرآن من اللّوح المحفوظ **(بعلم الله)** وأذنه وأنّه من كلام الله تعالى، فإذاً ثبت أن القرآن من الله تعالى وفيه التّوحيد فاعلموا **(وأنّ)** الشّأن أنّه **(لا إله إلا هو)** أي الله تعالى **(فهل أنتم مسلمون)** بعد إظهار الحجّة هذه وإفحامكم الواضح، والإستفهام للأمر أي فاسلموا،

---

(١) أي وصنعوا الصّناعات. و(ما) الّتي بعدها نافية.

(٢) بل: (إنما الأمم الإسلام ما بقي...فإن ذهب إسلامهم ذهبوا) لأنّ مفهوم وماهيّة الأخلاق مختلفة حسب الملل ومبادئهم وبيئاتهم.فعلى سبيل المثال إن مفهوم الزنا في الإسلام غيره لدى العلمانيين والملحدين وهكذا فقس.

هذا. وكان بعض النّاس يفترون وينخدعون بما للكفّار من النّعمة والمال والثّراء، وربّما يقولون: لو لم يكونوا على الحقّ فكيف أنعم الله تعالى عليهم هذه النّعم؟ فردّ الله تعالى على هذا الزّعم بأنّ الدّنيا دار الأسباب وأنّ المال والثّروة يحصل عليها من اتّبع الأسباب سواء كان مؤمناً أو كافراً، وليس المال والغنى علامة السّعادة بل المال الّذي ينسى صاحبه الآخرة هو سبب شقاوة وعذاب يخلد فيها في الدّنيا والآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

أي نوصل إليهم نتيجة (**أعمالهم**) وثمراتها من الغنى والثّروة حسب عادتنا في أن نخلق المسبّبات بعد الأسباب، فيحصلون على فوائد أعمالهم (**فيها**) في الدّنيا فقط (**وهم فيها لا يبخسون**) أي لا ينقصون من ثمرات أعمالهم، وأمّا في الآخرة فلا شيء لهم، حيث لم يعملوا لها ولم يؤمنوا بها كما قال عز وجل: (**أولئك الّذين**) يعملون للدّنيا فقط هم (**ليس لهم في الآخرة إلّا النّار وحبط ما صنعوا**) فيها من مكارم الأخلاق فلا يجزون عليها لأنّ شرط الجزاء من الثّواب على المكارم والفضائل هو الإيمان، وهو لم يوجد لهم في الدّنيا (**وباطل ماكانوا يعملون**) لبنائه على الكفر وعدم الإيمان فلا يعبأ به. ثمّ بعد أن ذكر حال الكافرين من حبط أعمالهم أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال: (**أفمن كان على بيّنة من ربّه**) فآمن كمثل هؤلاء؟ كلّا، فإن من كان على بينةٍ، أي عقل وتفكّر وتدبّر في الأمور وحبّ للخير واتّباعه وحصلت له هذه البيّنة (**من ربّه**) بخلقها له (**و**) بعد ذلك التفكّر والفعل (**يتلوه**) يأتيه بعد البيّنة (**شاهد من ربّه**) وهو القرآن الّذي يدل بنفسه على إنّه هو الحقّ وإنّ **من** أتى به رسول الله تعالى (**ومن قبله كتاب موسى إماماً**) أي مقتدى به (**ورحمةً**) للنّاس حيث فيها بيان أوامر الله تعالى والمنهج المستقيم، فهذا الكتاب أيضاً يشهد بأنّ محمّداً رسول من الله تعالى بما فيه من الأخبار عنه وبيان

أوصافه والأمر بالإيمان به واتباعه، فهؤلاء ليسوا كالكافرين حيث **(أولئك يؤمنون به)** أي بمحمّد وبالإسلام فيثابون على ذلك بالجنّة والنّعيم والسّعادة في الدّارين **(ومن يكفر به)** أي بالرّسول والقرآن أو الاسلام **(من الأحزاب)** أي من أي حزب كان هو **(فالنّار موعده)** للعذاب فيها **(فلاتك)** أيّها السّامع **(في مريةٍ)** شكّ من الرّسول أنّه رسول أو من القرآن أنّه من الله تعالى، والمآل واحد، فلا شكّ فيه بعد وضوح هذه الأدلّة كلّها **(إنّه الحقّ من ربّك ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون)** ولو ظهر لهم الحقّ وشهد به كلّ دليل؛ لأنّ كفرهم ليس عن تدبّر وعقل وإنّما هو عن حسد وإستكبار وتقليد واتّباع للمصالح؛ فيصدّهم كلّ ذلك عن التّفكير في الحقّ ودلائله واتّباعه فلا يؤمنون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض أعمال الكافرين السّيئة وعقابهم عليها فمنها أنّهم يكذبون على الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

(ومن) الإستفهام للإنكار، أي ليس أحد هو **(أظلم)** أشنع وأشدّ ظلماً **(ممّن افترى على الله)** أي نسبت إليه ما لا يليق به **(كذباً)** كأن يقول لله ولد أو بنات، كاليهود يقولون: عزير ابن الله وكالنّصارى القائلين: المسيح ابن الله، وكالمشركين يقولون: إنّ الملائكة بنات الله. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً **(أولئك)** الّذين يفترون هذه الافتراءات **(يعرضون)** يوم القيامة **(على ربّهم)** للمحاكمة **(ويقول الأشهاد)** أي من أوتي به للشّهادة عليهم وهم الملائكة والرّسل فيقولون: **(هؤلاء الّذين كذبوا على الله)** بنسبة ما لا يليق به إليه فقالوا: كذا وكذا، فيقضي الله تعالى عليهم بالبعد عن رحمته فينادي مناد **(ألا)** أي اعلموا يا أهل المحشر **(لعنة الله على الظّالمين)** أي المتجاوزين الحدّ بنسبة ما لا يليق بالله إليه، كالولد والبنات والفقر، كما قال اليهود **(إنّ الله فقير ونحن أغنياء)** ومن أعمالهم أنّهم يمنعون النّاس عن الدّخول في دين الله أو يريدون أن ينحرفوا بالدّين حسب هواهم ومصلحتهم فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(**الّذين يصدون عن سبيل الله**) أي يمنعون النّاس عن الدّخول في دين الله (**ويبغونها**) أي يريدون في دين الله (**عوجاً**) أن يتعوّج حسب هواهم ومنافعهم، وتصدق هذه الآية على أهل الزّيغ الّذين سيأوّلون آيات القرآن إلى حيث توافق زيغهم وضلالهم وبدعهم (**وهم بالآخرة**) أي العقاب يوم القيامة (**كافرون**) ولذلك يجرأون على هذه الأعمال وغيرها من أعمال الشرّ، فإنّ من لا يؤمن بالحساب لا يبالي ولا يراعي، فيتّبع هواه ويضلّ عن الصّراط المستقيم، ويعمل كلّ شيء (**أولئك**) المتّصفون بهذه الصّفات (**لم يكونوا معجزين**) الله وما يبغيه من أن يعذّبهم (**في الأرض**) وفي الحياة الدّنيا كمّا عذب الأقوام السّابقة بالهلاك والدّمار (**وما كان لهم من دون الله من أولياء**) ينصرونهم وينقذونهم من عذاب الله تعالى، كما يعتقد المشركون أنّ آلهتهم ينقذونهم ويحفظونهم من المصائب والبلايا، وكبعض المسلمين المنحرفين يعتقدون في أشخاص أنّهم بقدسيّتهم ينفعونهم أو يضرّون بسلطتهم الغيبيّة، فلا وليّ ولا نصير من عذاب الله إلّا هو فهؤلاء (**يضاعف لهم العذاب**) يوم القيامة وذلك لأنّهم (**ما كانوا يستطيعون السّمع**) للحقّ فيتّبعوه (**وما كانوا يبصرون**) الحقّ إبصار التّدبر واعتناق الحقّ بل كانوا يبصرون ويتعامون عن الحق وإن ظهر ظهور الشّمس في رابعة النّهار.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(**أولئك**) الّذين افتروا على الله الكذب ويمنعون النّاس عن سبيل الله ويحرّفون دين الله ويأوّلونه لمصالحهم وهواهم، ولا يؤمنون بالآخرة، ويتعامون عن الحقّ ويتصامون عنه، فأولئك هم (**الّذين خسروا أنفسهم**) أي أوقعوها في الخسارة في الدّنيا فلا ملامة إلّا عليهم (**وضلّ**) غاب (**عنهم ما**) الآلهة الّتي (**كانوا يفترون**) أي يقولون: إنّهم شفعاؤنا فهم ينقذوننا عن العذاب في الدّنيا والآخرة (**لا جرم**) أي لا شكّ (**أنّهم**) لصفاتهم هذه وأعمالهم تلك (**في الآخرة هم الأخسرون**) أي أكثر خسارةً من خسارتهم في الدّنيا حيث يخسرون النّعيم الأبدي ويبتلون بالعذاب المخلّد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(**إنّ الّذين آمنوا**) بالإسلام واعتنقوه مبدءاً وعقيدةً (**وعملوا**) الأعمال (**الصّالحات**) أي الّتي اعتبرها الله تعالى صالحةً وحقّةً وحسنةً (**وأخبتوا**) أي تابوا إلى ربّهم أي إلى حكمه وشريعته فيرجعون إليها في أعمالهم الفرديّة والإجتماعية وفي جميع نواحي الحياة. فما استحسنها حكمه وشريعته أقاموا عليها وما لا تركوها (**أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون**) لا يخرجون منها ولا يخرجون (**مثل الفريقين**) أي الكافرين والمؤمنين في الوصول إلى ما ينفعهم ويسعدهم (**كالأعمى والأصمّ**) فالكفار عميٌ عن الحقّ وصمّ عنه فلا يهتدون إلى ما ينفع ويسعد (**فالبصير والسّميع**) وهم المؤمنون يسمعون الحقّ ويبصرونه ويتّبعونه فيهتدون إلى ما يسعدهم في الدّنيا والآخرة (**هل**) الإستفهام للإنكار، أي لا (**يستويان مثلاً**) هذان الفريقان في الإهتداء إلى ما ينفع ويسعد (**أفـ**) بعد هذه الأدلّة والأمثلة والوعد والوعيد (**لا تذكّرون**)[1] فتذكّروا الحقّ فتتّبعوه والباطل فتجتنبوه، وهذا الإستفهام للتّهديد والتّوبيخ والتّقريع.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر فقرات من حياة نوح وهود و موسى (عليهم السلام) ليعلم النّاس أنّ الكفر ملّةٌ واحدةٌ وطبيعتها واحدة وحججها واحدة في كلّ زمان ومكان، وليكون وعداً للمؤمنين بالنّصر ووعيداً للكافرين بالخزي والهوان وتسليةً للرّسول وأمراً له بالصّبر كما صبر أولئك والمضيّ في الدّعوة كما فعلوا وأنّ العاقبة له حتماً، هذا وإنّ هذه الفقرات فيها من الأمور مالم يذكر في الفقرات الأخرى من حياة هؤلاء الرّسل (عليهم السلام) وإن كان فيها بعض ما ذكر وحسب مقتضى المقام فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

(**و**) بعزّتي أقسم (**لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه**) فأتاهم فقال لهم: (**إنّي لكم نذير**) رسول من الله تعالى أنذركم بالعذاب على ما أنتم عليه من الكفر والإشراك والفسق

---

(١) أي أفلا تتذكرون، وقرئ بالتخفيف تذكرون.

والفجور (**مبين**) موضّح رسالتي بآيات الله ومعجزاته وأرسلني الله تعالى عليكم (**أن**) أي لأن لا تعبدوا (**إلّا الله**) ولا تعملوا بغير نظامه وشريعته (**إنّي أخاف عليكم**) إن لم تطيعوني (**عذاب يوم أليم**) مؤلم ذلك العذاب جدّاً.

ثمّ لمّا بلّغهم نوح (ﷺ) هذه الرّسالة أجابوه كما قال جلّ وعلا:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(**فقال الملأ**) أي الجماعة (**الّذين كفروا**) به (**من قومه ما نراك**) يا نوح (**إلّا بشراً مثلنا**) ولا يرسل الله البشر إلى البشر بل يجب أن يكون الرّسول من الله تعالى ملكاً من ملائكته. وهذه حجّة كلّ قوم مع رسوله، ينكرون أن يرسل الله من البشر إلى البشر، بل يزعمون أنّ الرّسول يجب أن يكون من الملائكة، فكلّ قوم زعم هذا وجادل به رسوله، وقد فصّلنا الكلام على ذلك مع الرّد عليهم في سورة التّغابن والحمد لله تعالى (**وما نراك اتّبعك إلّا**) الأشخاص (**الّذين هم أراذلنا**) أي أسافلنا وليسوا من الأعيان والوجهاء (**بادي الرأي**) أي يبدون بالرأي دون تفكّر وتعمّق، فهم أسفلنا أي أقل منّا مالاً وعقلاً ومكانة بين القوم (**وما نرى لكم علينا من فضل**) لا في المال ولا في العقل ولا في المكانة فيخصّكم الله تعالى بالهداية أو بالرّسالة دوننا؛ فلست برسول (**بل نظنّكم كاذبين**) في دعواكم أنّ هذا الدّين من الله تعالى وأنّه دينه ونظامه وشريعته. فأجابهم نوح كما حكى عنه فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

(قال نوح) في جواب قومه إذ قالوا: **(بل نظنّكم كاذبين)** كما ذكر في الآية السّابقة **(يا قوم أرأيتم)** مشتقّ من رأى بمعنى الرأي، أي أخبروني برأيكم **(إن كنت على بيّنة من ربّي)** أي برهان واضح يشهد صدق دعواي، والبيّنة هي ما كانت تحيط بدعوة نوح (عليه السلام) من المعجزات الّتي تدلّ على صدق دعواه من الدّلائل العقلية الّتي تدلّ على صحّة ما يقول ويأمر به **(وأتاني)** ربّي **(رحمة منه)** وهي النّبوة والشّريعة الّتي أتى بها **(فعمّيت)** تلك الدّلائل والمعجزات **(عليكم)** فلم تنظروا إليها إلّا عبثاً، ولم تتفكّروا فيها تفكّراً لإظهار الحقّ؛ حيث أعماكم الكبرياء والحسد وحبّ منافع الدّنيا والتّقليد، فكلّ ذلك صدّكم عن النّظر في الحقّ والتّفكر فيه والأخذ به، فإذن أبدوا لي رأيكم وأخبروني ماذا أفعل **(أنلزمكموها)** أي أجبركم على الشّريعة وقبول الدّعوة بالقوّة الماديّة والرّوحيّة من إظهار خوارق لا تدع مجالاً إلّا الإيمان، والإستفهام للإنكار، أي لا نفعل ذلك الإجبار **(وأنتم لها)** لشريعتنا ودعوتنا **(كارهون)** لأنّ الدّعوة لابد وأن تدخل في القلوب وتتقبّلها إختياراً وحسب الإقتناع وإلّا فلا فائدة فيها **(ويا قوم لا أسألكم مالاً)** وأجراً على قبول دعوتي كما تزعمون من أنّنا نحن فقراء وأنتم الأغنياء، فنريد أن نكسب منكم مالاً وراء هذه الدّعوة كما يشير إليه قولهم: **(ما نرى لكم علينا من فضل)** أي في المال والعقل والنّسب فلا نريد أجراً **(إن أجري إلّا على الله)** في الدّنيا والآخرة **(وما أنا بطارد الّذين آمنوا)** كما تريدون من ذلك حيث تقولون: **(هم أراذلنا)** فنستنكف أن نجتمع معهم فاطردهم من عندك إن أردت إيماننا فلا أطردهم حيث **(إنّهم ملاقوا ربّهم)** فينتقم الله منّي على طردهم **(ولكنّي أراكم قوماً تجهلون)** حيث تتكبّرون على الفقراء والكسبة بالمال أو القوّة، فهذا جهل عظيم فإنّ الإنسان لا يتفاضل أفراده بعضهم على بعض إلّا بالتّقوى والعمل الصّالح، وهو ينافي الاستكبار والإستعلاء على النّاس، فإنّ كلّ النّاس من آدم وآدم من تراب **(ويا قوم من ينصرني من)** عذاب **(الله)** يوم القيامة **(إن طردتهم أفلا تذكّرون)** بأنّ الدّين، دين الله تعالى فلا يمكن لأحد أن يطرد أحداً منه إذا إعتنقه وآمن به، وإنّي حينما أدعوكم إلى هذه العقيدة إنّما أدعوكم لأنّ الله تعالى أمرني بذلك، وليس لأنّي أدعي فضلاً عليكم حيث لا أدّعي ذلك **(ولا أقول لكم)** لإظهار فضلي عليكم وادعائه **(عندي خزائن الأرض)** ومعادنه فأنا أفضل منكم مالاً **(ولا أعلم الغيب)** إلّا ما علّمني الله تعالى، فكيف أدّعي الفضل عليكم؟ **(ولا أقول)** لكم **(إنّي ملك)** حتّى تردّوا عليّ بقولكم ما نراك إلّا بشراً مثلنا **(ولا أقول للّذين تزدري)** أصله تزتري قلبت تاؤه دالاً من إزتراه وهو افتعل من زرى يقال زراه أي عابه وحقّره، فالمعنى: **(ولا أقول**

للّذين تزدري) أي تحتقرهم **(أعينكم)** حيث تقولون: هم أراذلنا بادي الرّأي **(لن يؤتيهم الله خيرا)** فجعلهم به أفضل منكم، بل أعطاهم الله تعالى الخير والهداية والوصول إلى الحقّ والمنهج المستقيم **(الله أعلم بما في أنفسهم)** هل أسلموا عن صدق وفكر ورؤية؟ أو لا ؟ كما تقولون لهم أنّهم بادي الرأي لا يعتبر برأيهم **(إنّي إذاً)** أي إنّي إذا فعلت ما تطلبون من طردهم وازدرائهم **(لمن الظّالمين)** وما يليق بنا الظّلم.

فلمّا جادلهم نوح هذا الجدال وألزمهم الحجّة- ومن عادة الجهلة أنّهم إذا لم يبق لهم حجّة وأُفحموا إلتجأوا إلى الاستهزاء وإستعمال القوّة أو أمورٍ أخرى. لأنّهم ليسوا على المنطق ولا النّقل، ولا هم أولو الألباب- أجابوا نوحاً كما حكى تعالى عنهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

(قالوا) لنوح بعد ما لم يبق لهم حجّة وأفحموا **(يا نوح قد جادلتنا)** بالأدلّة **(فأكثرت جدالنا)** بالأدلّة فلا نقتنع بهذه الأدلّة. ولا نتّبعك فلا تتعبنا ولا تتعب نفسك بالجدال والبراهين أكثر من ذلك **(فأتنا بما تعدنا)** وتخوّفنا به من عذاب الدّنيا أو الآخرة **(إن كنت من الصّادقين)** بأنّك رسول وأنّ من لم يتبعك له العذاب، وقالوا له هذا استهزاءً وسخريةً منه **(قال)** نوح لهم **(إنّما يأتيكم به)** أي بالعذاب الموعود **(الله إن شاء)** فهو بيده وليس في يدي من ذلك شيء[1] **(وما أنتم)** حينما جاءكم العذاب **(بمعجزين)** الله من أن يعذّبكم ولا بدافعي عذابه عنكم. ثمّ إنّه بعدما أخبرهم أنّهم لا يستطيعون دفع العذاب عنهم حينما جاء، وأخبرهم بأنّه هو أيضاً لا يستطيع لهم شيئاً فقال: **(ولا ينفعكم نصحي)** أي إخلاصي وحبّي لكم حينما جاء العذاب **(وأردت أن**

(١) هذا منتهى التوحيد من أن البشر مهما بلغ من مرتبة حتى مرتبة النبوة فليس في مقدوره أن يعمل أمراً مما هو تكويني غيبي بل هو لله تعالى فقط، لذلك أعلمهم أن مايعدهم به هو آت من الله تعالى لا من عنده.

أنصح) أي أخلص **(لكم)** بدفع شيء من العذاب فلا ينفع كلّ ذلك **(إن كان الله يريد أن يغويكم)** أي يهلككم بعذابه؛ لأنّه هو ربّكم ومالككم، والمالك يفعل بمملوكه ما شاء ولا يمنعه أحد، وهذا في الدّنيا، وبالنّسبة للآخرة **(وإليه)** إلى الله **(ترجعون)** فيجازيكم حسب أعمالكم ولا يخفى منها عليه شيء، فيجزي المسيء على إساءته والمحسن بالخير وحسن الختام. اللّهم ارحمنا يا أرحم الرّاحمين.

ثمّ ختم سيدنا نوح كلامه فقال للقوم كما حكى عنه تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(أم) بمعنى الهمزة للإستفهام التّقريري فمعناه بل **(يقولون)** عدل نوح عن الخطاب إلى الغيبة إشارة إلى أنّه أعرض عنهم، حيث إنّهم لا يصدّقونه بل **(يقولون افتراه)** أي إفترى ما قال وكذب حينما وعدنا بالعذاب من الله تعالى، ثمّ بدأ يخاطب نفسه فقال: **(قل)** لهم **(إن افتريته)** الوعيد بالعذاب أو بأنّي يوحى إليّ **(فعليّ إجرامي)** وهو هذا الافتراء، وسأنال عقابه فلا يضرّكم إجرامي، وإن لم أفتر فعليكم إجرامكم حيث لا تؤمنون **(وأنا بريء ممّا)** من عذاب ما تجرمون لا يصيبني شيء من ذلك، بل إنّما تعاقبون عليه أنتم، حيث ليس عليّ إلّا البلاغ، وقد أدّيته فعليّ الأجر والثّواب إن شاء الله تعالى. ويقال: إنّ الآية ليست من كلام نوح بل هو من كلام الرّسول (ﷺ)، يخاطب به أهل مكّة وأكثر التّفاسير على القول الأوّل، ويؤيده السّياق والله تعالى أعلم.

ثمّ لما سئم نوح من دعوة قومه وأيس من إيمانهم دعا عليهم فاستجاب الله تعالى دعاءه وأخبره بأنّه قد قدّر إهلاكهم وغرقهم بالطّوفان كما قال جلّ وعلا:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

(وأوحي) أي أوحى الله تعالى إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك بعد **(إلّا من قد آمن)** قبل **(فلا تبتئس)** فلا تحزن **(بما كانوا يفعلون)** من الإيذاء والاستهزاء والتّكذيب

فإنّا ننتقم منهم ونرسل عليهم طوفاناً نغرقهم فيه أجمعين **(واصنع)** أنت الفلك أي السّفينة **(بأعيننا)** أي برعايتنا **(ووحينا)** وتعليمنا إياك كيفيّة صنعه لتنجو بها أنت ومن معك من الغرق **(ولا تخاطبني في الّذين ظلموا)** بأن تشفع لهم حيث قدّرنا **(إنّهم مغرقون)** كلّهم فبدأ نوح يصنع السّفينة وعلّم النّاس أنّ نوحاً أخبرهم بالطّوفان **(ويصنع الفلك)** لينجو هو ومن معه فكذّبوه **(وكلّما مرّ عليه ملأ)** جماعة **(من قومه سخروا منه)** أي استهزأوا به وضحكوا منه ومن الإنذار وصنعه السّفينة **(قال)** نوح لهم **(إن تسخروا)** تضحكوا **(منّا)** تكذيباً لنا **(فإنّا نسخر)** نضحك **(منكم)** حيث لا تعلمون مصيركم فنسخر **(كما تسخرون)** إلّا أنّ سخريّتنا منكم في مكانه وحقّ لأنّه:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾

(فسوف تعلمون) حينما يأتيكم ما توعدون **(من يأتيه عذاب يخزيه)** يذلّه **(ويحلّ)** وينزل عليه **(عذاب مقيم)** لا يرتحل حتّى يقضي عليهم جميعاً.

ثمّ مضى نوح في صنع الفلك والقوم في السّخرية من عمل نوح وفي خبره؛ فقال جلّ وعلا:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

(حتّى إذا جاء أمرنا) أي دامت السّخرية بين نوح وقومه **(حتّى إذا جاء أمرنا)** بهلاكهم **(وفار التّنور قلنا)** قال بعضهم: عيّن الله تعالى لنوح تنّوراً بأنّه إذا فار بالماء فهو

علامة الطّوفان. وقال بعضهم: المراد بالتّنور الصّبح أي إذا طلع الفجر قلنا. وقال بعضهم: المراد بالتّنور الأرض أي إذا فارت الأرض بالماء كالتّنور قلنا. وعلى الكلّ معناه: حتّى إذا بدأ الطّوفان (**قلنا**) لنوح (**إحمل فيها**) أي في السّفينة (**من كلٍّ**) التّنوين عوض عن المضاف إليه أي من كلّ حيوان، والمراد من كلّ أنواع الحيوانات، حتّى الطّيور والوحش والحشرات أو الحيوان الّذي يحتاجه النّاس وهو الأهلي فقط. مشى كلّ الرّوايات على الأوّل، ولعلّ الثّاني هو المراد، والله تعالى أعلم.

والحاصل أنّ الله تعالى أمر نوحاً أن يحمل من كلّ الحيوان (**زوجين**) أي فردين، كلّ واحد يزواج الآخر، وهو الذّكر والأنثى وقال: (**إثنين**) لئلّا يحمل الزّوج على ضدّ الشّفع فيكون المأمور بحمله أربعة، ولم يقل من كلّ إثنين لأنّ الإثنين يصدق بذكرين أو أنثيين أو ذكر وأنثى، فقال ذلك ليكون نصّاً في ذكر وأنثى (**وأهلك**) أي واحمل فيها أهلك وعيالك (**إلّا من سبق عليه القول**) أي حكمنا بهلاكه كزوجته وأحد أبنائه (**ومن**) أي واحمل فيها كلّ من آمن (**وما آمن معه إلّا قليل**) كأنّ هذا جواب لسؤال وهو: أنّه كيف وسعت السّفينة كلّ من آمن وهذا الحشد الكبير؟ فقال: وما آمن معه إلّا قليل، فيؤيّد هذا المعنى أنّ المأمور بحمله من الحيوانات كانت هي الأهليّة فقط (**وقال**) نوح للنّاس المؤمنين (**اركبوا فيها بسم الله**) أي بقدرة الله تعالى يكون (**مجراها**) أي جريها وسيرها على الماء (**ومرساها**) أي وقوفها، وكأنّ القوم لم يعرفوا قبل ذلك السّفن، وتردّدوا في ركوبها، وأنّها كيف تجري وتقف ولا تغوص في الماء، فقال نوح لهم ذلك وطمأنهم فدخلوا (**إنّ ربّي لغفور**) لمن آمن فيحفظهم وينعم عليهم في الدّنيا والآخرة (**رحيم**) ولرحمته بهم يغفر لهم ويحميهم من العذاب في الدّارين (**وهي**) الجملة حال ممّا دلّ عليه السّياق بهم فالتّقدير فدخلوها (**وهي تجري بهم**) فرأى نوح إبنه خارج السّفينة (**ونادى نوح إبنه وكان في معزل عن**) أبيه غير داخل في السّفينة فناداه نوح (**يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين**) فتغرق (**قال**) ابنه (**سآوي إلى جبل**) من الجبال الرّفيعة (**يعصمني من الماء**) يعلوه حيث لا يعلو عليه الماء (**قال**) نوح له لا عاصم اليوم من أمر الله حيث يعلو الماء فوق كلّ عال (**إلّا من رحم**) الله إياه وهو من دخل في السّفينة فقط (**وحال**) فصل (**بينهما**) بين نوح وإبنه (**الموج**) الهائل من الماء (**فكان**) الإبن (**من المغرقين**) وبعدما هلك النّاس كلّهم أراد الله تعالى أن ينتهي الطّوفان (**وقيل**) للأرض (**يا أرض إبلعي ماءك**) أي إبلعيه وانشفيه وللسّماء (**ويا سماء أقلعي**) أمسكي ماءك فلا تمطريه، والأمر للأرض والسّماء أمر تكويني لا تكليفي (**وغيض الماء**) أي

ونقص **(وقضي الأمر)** أي وانتهى أمر الطّوفان وعمله من إهلاك المجرمين **(واستوت)** أي السّفينة **(على)** جبل **(الجوديّ)** وهو جبل بالجزيرة قرب موصل **(وقيل بعداً)** أبعد الله بعدا أي أهلكهم إهلاكاً **(للقوم الظّالمين)** وهم الكفرة، وهذا إمّا اخبار قاله نوح والّذين آمنوا إظهاراً للفرح بهلاكهم ونجاتهم، أو دعاء لكلّ ظالم، فكأنّهم قالوا: اللّهم أهلك كلّ من ظلم كما أهلكت من ظلم من قومنا، فمنزل السّفينة معلوم وهو جبل الجوديّ، وأمّا محلّها الّذي جرت منها وهو مسكن نوح وقومه لم يذكر في القرآن. وفي بعض الرّوايات أنّه كان في الكوفة والله تعالى أعلم.

وبعد أن سكنت السّفينة واستقرّت تفقّد نوح أهله، فلم يجد إبنه الّذي ناداه أن يركب السّفينة وغيّبه عنه الموج، فكأنّه ظنّ أنّه دخل في زاوية السّفينة فبعد أن لم يجده توجّه إلى الله تعالى كما قال عنه الله جلّ وعلا:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(ونادى نوح) (عليه السلام) **(ربّه)** جلّ وعلا **(فقال)** في دعائه **(ربّ إنّ ابني من أهلي)** وقت وعدتني بأن تنجني وأهلي كلّهم **(وإنّ وعدك الحقّ)** أي ثابت لا تخلّف فيه، فليرجع إليّ إبني سالماً **(وأنت أحكم الحاكمين)** فإن حكمت حكماً آخر فأنت أعدل الحاكمين في حكمك ولا إعتراض لي، فأجابه الله تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

(قال) الله تعالى **(يا نوح إنّه)** أي إنّ إبنك **(ليس من أهلك)** أي من أهلك الّذين وعدتك بنجاتهم وهم المؤمنين؛ حيث **(إنّه عمل)** ذو عمل **(غير صالح)** وهو الكفر؛ فلا يشمله وعدي **(فلا تسألن)** بعد الآن **(ما ليس لك به علم)** من أنّه محظور أولاً، فإن سؤال المحرّم وطلبه من الله تعالى حرام **(إنّي أعظك)** أي أنهاك **(أن تكون من الجاهلين)** بالحلال والحرام **(قال)** نوح (عليه السلام) **(ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك)** في

المستقبل **(ما ليس لي به علم)** فاعذرني يا ربّ **(وإن لا تغفر لي)** عمّا صدر عني في الماضي **(وترحمني)** بالمغفرة **(أكن من الخاسرين)** فتقبّل الله دعاءه وغفر له؛ لأنّ فعله لم يكن معصيةً بل خطأً في الإجتهاد، فإنّه حمل الأهل على العموم وأراد الله الأهل المؤمنين فقط.

وهنا ينشأ **سؤال** وهو: كيف سأل نوح نجاة ولده وقد خاطبه الله تعالى قبل بقوله: ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون؟

الجواب: إنّ نوحاً لم يكن يعلم أنّ إبنه كان كافراً ولذلك دعا له، فلمّا تبيّن له كفره ندم من ذلك وتاب، وإن كان علم بكفره فقد إستثناه باجتهاده من عموم النّهي عن الشّفاعة بوعد الله إنجاء أهله الظّاهر في العموم، ولم يعلم أنّ الثّاني مخصّص بالأوّل، والإجتهاد لا يعصي المرء بالخطأ فيه[١]، وإنّما توبته وطلب مغفرته هو طلب عصمته عن الخطأ فيما بعد، والله تعالى أعلم.

ثمّ لما استقرّت السّفينة على الجودي أمر الله تعالى نوحاً أن ينزل هو ومن معه إلى الأرض فقال جلّ وعلا:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

(١) عدم علم نوح بعدم اسلام ابنه أمر مستبعد، لأنّه كيف يدعو الآخرين وهو غافل عن أفراد أسرته وهو مكلف بهم جميعا؟ وإن كان اجتهادا فقهيّا منه، فالمجتهد إن أصاب له أجران وإن أخطأ له أجر واحد، ففي حالة الخطأ فيه ليس ذنبا حتّى تترتّب عليه المغفرة، بل الأمر أنّ الطّبيعة البشريّة لنوح وعاطفته الأبويّة جعلته يعدّ ابنه من أهله كما هو الواقع النّسبيّ للأسرة، واجتهاده كان أنّه لما فهم أنّ ابنه من أهله الموعود بنجاتهم طمع فيه أن يؤمن وينجو بذلك، فدعاه للإيمان والرّكوب معا رجاء إيمانه، لكنّ الله تعالى هنا اعتبر الأصل هو الحقيقة الإيمانيّة لا الواقع النّسبيّ، لذلك كان الحكم في الإسلام أن لايرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم، لأنّ الرّابطة الإيمانيّة أقوى من الرّابطة النّسبيّة، فنبّه الله تعالى نوحاً (ﷺ) هنا إلى هذا تحقيقا للعدل بين النّاس خلافا لما ظنّه نوح من اعتبار كون خصوصيّة نبوّته سبباً لنجاة ابنه الّذي هو من أهله نسباً. والله أعلم .

(قيل) من قبل الله تعالى **(يا نوح اهبط)** أي إنزل من السّفينة إلى الأرض **(بسلام)** من الغرق **(منّا)** حيث نجّيناك **(وبركات)** تنزل **(عليك وعلى)** مع **(أمم)** جماعات **(ممّن معك)** من القوم **(وأمم)** يأتون بعدكم **(سنمتّعهم)** في الحياة مدّة **(ثمّ يمسّهم منّا عذاب أليم)** لأنّهم يكفرون ويشركون، وهؤلاء مثل قوم عاد وثمود الّذين جاؤوا بعد قوم نوح (عليه السلام). **(تلك)** الأخبار الّتي نتلوها **(من أنباء الغيب)** أي غابت وخفيت عليك وعلى قومك **(نوحيها إليك)** لتكون معجزة لك وموعظة لقومك وعبرة يعتبرون بها **(ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا)** الإيحاء **(فاصبر)** كما صبر نوح، فإنّ العاقبة والنّصر لك حيث **(إنّ العاقبة للمتّقين)** عن مخالفة دين الله والمتّقين لشريعته.

ثمّ بعد أن إنتهى ذكر نوح (عليه السلام) وقومه أراد الله تعالى أن يذكر قصّة هود (عليه السلام) مع قومه فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

(وإلى) أي ولقد أرسلنا إلى **(عاد أخاهم هوداً)** ليعظهم ويهديهم وينقذهم من الشّرك إلي التّوحيد، ومن حكم الجاهليّة وهو كلّ حكم ما أتى من الله تعالى، ومن الفسق إلى الصّلاح فكلّ رسول جاء لذلك، فلمّا جاء هود قومه **(قال)** لهم **(يا قوم اعبدوا الله)** ولا تعبدوا غيره واعملوا بشريعته لا بما تنتظمون من عندكم من أنظمة حسب عقولكم، وذلك لأنّه **(ما لكم من إله)** من أحد يليق بالعبادة والطّاعة والتّشريع **(غيره إن أنتم)** أي لستم في اتّباع شرائع غيره **(إلّا مفترون)** على الحقّ لأنّه لا يعلمه إلّا الله تعالى. ثمّ لما رأى تكاسل القوم عن الإيمان والإتّباع خاف أنّهم يعتقدون أنّ وراء هذه الدّعوة طلباً للمال فلا يتكاسلون فقال لهم هود **(يا قوم لا اسألكم عليه)** أي على هذا الدّين والدّعوة إلى الله **(أجراً)** من المال والسّيادة أو السّلطان **(إن أجري إلّا على الّذي فطرني)** وهو الله فهو يؤجرني فيسعدني في الّدنيا بالرّزق الرّغيد وفي الآخرة بالخلود في دار النّعيم **(أفــ)** بعد هذه النّزاهة في الدّعوة **(لا تعقلون)** أنّي محقّ فيها،

فإنّ من علامة حقيّة الدّعوة أن لا يطلب الدّاعي من وراء دعوته نفعاً له أو أجراً أو مصالح دنيويّة يبتغيها[١] **(ويا قوم استغفروا ربّكم)** ممّا كنتم عليه من الشّرك وعدم العمل بشريعة الله تعالى فإنّ الله يغفر لكم **(ثمّ توبوا)** إرجعوا **(إليه)** أي إلى توحيد الله والعمل بشريعته، فإن تفعلوا ذلك **(يرسل)** الله تعالى عليكم **(السّماء)** أي المطر **(مدراراً)** أي منصباً بكثرةٍ وحسب الحاجة **(ويزدكم قوّة)** بكثرة الأولاد والأموال من الرّجال والمال، فهو وعد بكثرة النّسل والمال وببقاء الموجود وسلامته من العذاب والدّمار **(ولا تتولّوا)** أي ولا تعرضوا عن ما أقوله لكم وأبلّغكم فتكونوا **(مجرمين)** بهذا الإعراض. وتفيد هذه الآية وأمثالها أنّ الاستغفار سبب لكثرة الأموال والأولاد وطول العمر، قال رسول الله (ﷺ): (من لزم الاستغفار جعل الله له من كلّ ضيق مخرجاً ومن كلّ هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب)[٢] وقال أيضاً: (من قال: أستغفر الله الّذي لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم وأتوب إليه، غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الزّحف)[٣].

ثمّ لمّا نصحهم هو هذه النّصيحة وبلّغهم رسالة الله تعالى أجابوا نوحاً وكذّبوه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾

(قالوا يا هود ما جئتنا ببيّنة) أي بمعجزة تدلّ على صدقك في دعوى الرّسالة، ولقد كذّبوا فإنّه قد جاءهم بالمعجزات ولكن أرادوا معجزاتٍ حسبما يختارونها

---

(١) بعكس الدعوات والأحزاب السياسية الدنيوية القائمة على المنافع وابتغاء المكاسب والمناصب.

(٢) سنن أبي داود ٢/ ٨٥ الحديث رقم ١٥١٨.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٢٨ الحديث رقم ٢٥٥٠.

ويريدونها لا كما يريدها الله تعالى **(وما نحن بتاركي)** عبادة **(آلهتنا)** أصنامنا تركا ناشئاً **(عن)** مجرد **(قولك)** دون الإتيان بما تريد من المعجزات **(وما نحن لك بمؤمنين)** في أنّك رسول **(إن نقول)** أي ما تقول فيما أنت فيه **(إلّا)** إنّه **(إعتراك)** أصابك **(بعض آلهتنا بسوء)** بمرض وهو الجنون، فلذلك تقول هذه الأقوال وتهذي هذا الهذيان **(قال)** هود في جوابهم **(أشهد الله واشهدوا)** أنتم كلّكم واعلموا **(أنّي بريء من)** عبادة وتعظيم وتقديس **(ممّا تشركون من دونه)** أي دون الله من آلهتكم الّتي تعتقدون فيهم التّأثير والسّلطة الغيبيّة والوساطة بين الله وبين العباد **(فكيدوني)** أي دبّروا وأعملوا كلّ ما تريدون ضدّي **(جميعاً)** كلّكم مجتمعين **(ثمّ)** بعد ما قرّرتم شيئاً ضدّي **(لا تنظرون)** أصله لاتنظروني، حذفت الياء للتّخفيف أي لا تمهلوني، فإنّي لا أبالي ولا أخاف من كلّ ما تقدرون وما تريدون ضدّي حيث **(إنّي توكّلت)** أي سلّمت أمري إلى الله واعتمدت **(على الله)** في حفظي ورعايتي، فإنّه **(ربّي وربّكم)** فبيده كلّ أموري وأموركم فلا يسلّمني إليكم **(ما من دابّةٍ)** أي حيّ يمشي على الأرض **(إلّا هو آخذ بناصيتها)** أي مسخّرة تحت قدرته يسيّرها كيف ما أراد **(إنّ ربّي على صراط مستقيم)** أي طريق حقّ وعدل في كلّ ما يفعل بالأحياء وبي أو بكم؛ وحينما يحكم ويأمر وينهي فلا يظلم أحداً إن أصابه بالضّرّ أو أصابه بالنّفع، ولا نفع ولا ضرّ إلّا منه، وهكذا يجب أن يكون المسلم سيّما الدّاعية، فيجب عليه أن يتبرّأ من كلّ ما عليه الكفّار ويعلن لهم متاركته لهم و عدم موالاتهم، ولا يخاف من أحد ويتوكّل على الله ويمضي في دينه ودعوته، فكلّ من فعل ذلك فإنّ الله ينصره على الأعداء ولا يتّخذ له ولا يخزيه **(فإن تولّوا)** أصله فإن تتولّوا حذفت أحدى التّاءين، ومعناه: فإن تعرضوا عن قبول دعوتي وديني واتّباعي فلا أثم عليّ حيث قمت أنا بواجبي **(فقد أبلغتكم ما أرسلت به)** من الله تعالى **(إليكم)** وإنّما يكون الإثم والملامة عليكم؛ فينتقم الله تعالى منكم فيهلككم **(ويستخلف ربّي قوماً غيركم)** يأتي بهم فيؤمنون **(ولا تضرّونه)** أي الله تعالى شيئاً بكفركم وإنّما تضرّون أنفسكم **(إنّ ربّي على كلّ شيء حفيظ)** رقيب يحفظه ويسجّله وينتقم على المعاصي ويثيب على الطّاعات ولا يخفى عليه ما تعملون فلا يهملكم وإن أمهلكم، بل يعذّبكم كما عذّب من قبلكم ويدمّركم كما دمّرهم. فاستمرّ هود في دعوته وأصر القوم على الكفر والمعاصي إلى أن إستحقوا العذاب فأرسل الله تعالى عليهم ريحاً صرصراً عاتية فأهلكتهم كلّهم وقبل أن يأتي العذاب أمر هوداً أن يخرج من بينهم فخرج هود ومن آمن معه ونجّاهم الله تعالى كما قال جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

(ولمّا جاء أمرنا) بعذابهم أي عذاب القوم وهلاكهم **(نجّينا هوداً والّذين آمنوا معه)** من ذلك العذاب **(برحمة منّا)** حيث لا يستحقّ أحد فضلاً ونعمةً إلّا برحمته تعالى، قال رسول الله (ﷺ): **(لا** يدخل أحدكم الجنّة بعمله إلّا من تغمدّه الله برحمته، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا)[1] وذلك لأنّ عمل العبد هو ملك لله تعالى ومن خلقه أيضاً. وكما نجّى تعالى هوداً وقومه من عذاب الدّنيا وهم أربعة آلاف نجاهم أيضاً من عذاب الآخرة كما قال: **(ونجّيناهم من عذاب غليظ)** أي عذاب الآخرة حيث لا عذاب أغلظ منه. ثمّ بيّن الله تعالى سبب هلاكهم، وأشار إليه تنبيهاً للنّاس ليعتبروا فقال جلّ وعلا: **(وتلك عاد)** أي طائفة عاد الّذين تعلمونهم كالمحسوسات لا يخفون عليكم **(جحدوا)** أنكروا واستهانوا **(بآيات)** معجزات **(ربّهم)** وأحكامه وشريعته الّتي أتى بها هود **(واتّبعوا أمر كلّ جبار)** أي من يريد الإستعلاء والجبروت على النّاس وهم الرّؤساء **(عنيد)** المعاند للحقّ والعدل، لأنّه يخالف هواه وجبروته، فلذلك عذّبهم الله تعالى **(وأُتبعوا)** أي الحقّ بهم في هذه الدّنيا **(لعنةً)** أي بعداً من رحمة الله تعالى فلم يرحم بأحد منهم، بل أمات كلّهم بالرّيح المرسلة عليهم **(ويوم القيامة)** ينادي منادٍ **(ألا إنّ عاداً كفروا ربّهم)** فلم يؤمنوا به، أو كفروا نعمه الّتي أنعمها عليهم **(ألا بعداً)** أي لعنةً وبعداً من رحمة الله تعالى في هذا اليوم أيضاً **(لعادٍ قوم هود)** قيّدوا بقوم هود؛ لأنّ العاد عادان الأولى: وهم هود، والثّانية: إرَم، والمراد بهم هنا الأولى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذةً من حال قوم ثمود ورسولهم صالح، فقال جلّ وعلا:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٢٥٦ الحديث رقم ٧٣٧٣. وتكملته: (إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل ووضع يده على رأسه)

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

(وإلى) أي ولقد أرسلنا إلى **(ثمود أخاهم صالحاً قال)** فقال لهم حينما جاءهم **(ياقوم اعبدوا الله)** وحده ولا تشركوا به شيئاً، ولا تعملوا بغير شريعته لأنّه **(ما لكم)** في الواقع والحقيقة **(من إله)** من معبود ومطاع يستحقّ العبادة والطّاعة **(غيره)** أي غير الله تعالى، فهو الّذي يجب أن يطاع حكمه، وتقديس ذاته كما بين علّة استحقاق الله تعالى للعبادة والطّاعة وحده فقال: **(هو الّذي أنشأكم)** أي أوجدكم **(من الأرض واستعمركم فيها)** أي أسكنكم فيها لتعميرها، والعمل والحياة فيها، ومن أسكنه الله في ملكه ليعمّره يجب أن يعمّره ويسكنه وفق أوامره ونواهيه، وحسب تعليماته وإرشاداته، وأن يعيش فيه مطيعاً لنظامه وشريعته **(فاستغفروه)** ممّا فعلتم من قبل من الإنحراف عن دين الله تعالى وعبادته **(ثمّ)** بعد الاستغفار **(توبوا)** أي إرجعوا **(إليه)** إلى الحكم بدينه والحياة وفق شريعته **(إنّ ربّي قريب)** يعلم باستغفاركم وتوبتكم **(مجيب)** يقبل توبة التّائبين واستغفار المستغفرين **(قالوا)** أي قوم صالح **(يا صالح قد كنت فينا)** أي بيننا **(مرجوّاً)** أي رجلاً يرجى منه الخير وأن يأتي به **(قبل هذا)** الأمر الّذي إستحدثته، فقد عكست القضيّة وخيّبت آمالنا فيك **(أتنهانا)** الإستفهام للتعجّب والإستنكار **(أن نعبد ما يعبد آباؤنا)** من الآلهة والأصنام، فهذا أمر عجيب ومنكر جداً، وما كان يليق أن يصدر منك وقد كنّا نأمل فيك الخير والصّلاح **(وإنّنا لفي شكّ)** أي حيرة **(ممّا تدعوننا إليه)** من ترك عبادة آلهتنا **(مريب)** ذلك الشّك، وذكر ذلك مبالغة في شدّة الشّك.

ثمّ لمّا أجاب القوم صالحاً بهذا الجواب، أجابهم صالح كما قال جلّ وعلا:

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ

عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

(**قال**) صالح (**يا قوم**) لقومه بعد أن كذّبوه وأرادوا منه أن يترك دعوته (**أرأيتم**) أي أخبروني عن رأيكم في (**إن كنت على بيّنة**) يقيني (**من ربّي**) أنّ ما أدعو إليه هو الحقّ وأنّ ما أنتم عليه هو الباطل (**وآتاني**) ربّي (**منه**) من عنده (**رحمةً**) هدايةً ونبوّةً ورسالةً فهل أترك هذه الهداية والدّعوة إليها؟ فان فعلت ذلك (**فمن ينصرني**) ينقذني (**من**) عذاب (**الله إن عصيته**) بترك الدّعوة وتبليغ أمره إليكم، والإستفهام للإنكار، أي لا أحد ينقذني من عذابه، فإذا كان الأمر كذلك (**فما تزيدونني**) بأمركم بتركي هذه الدّعوة (**غير تخسير**) تضليل يوجب الخسارة في الدّنيا والآخرة (**ويا قوم**) إن أردتم معجزةً منّي فإليكم المعجزة وهي (**هذه**) النّاقة الّتي ترونها قد خرجت من صخرة (**ناقة الله**) أي ناقةً خلقها الله تعالى بدون ترتيب أسباب، بل بأمر كن فيكون، وأخرجها بقدرته من الصخّرة فهذه النّاقة (**لكم أية**) أي معجزة دالّة على صدقي في دعواي الرّسالة والهداية إلى الحقّ (**فذروها**) أي أتركوها (**تأكل في أرض الله**) كما شاءت وأين أرادت (**ولا تمسّوها بسوء**) أي بضرب أو قتل أو نحر (**فـ**) بسبب ذلك (**يأخذكم عذاب قريب**) لا يتأخّر عن الإساءة إليها، فلم يعملوا بقول صالح ولم يطبقوا وصيته تجاه النّاقة بل مسّوها (**فعقروها فقال**) لهم صالح بعد عقرها (**تمتّعوا في داركم ثلاثه أيام**) لا يصيبكم شيء لعلكم تتوبون وتؤمنون وتستغفرون الله تعالى عن معصية عقرها، فبعد ثلاثة أيام إن لم تتوبوا يأتكم العذاب (**ذلك الوعد**) بمجيء العذاب (**وعد غير مكذوب**) لايتخلّف بل يأتي ويقع حتماً، فما تابوا بعد الثّلاثة، وما آمنوا، بل اجتمعوا وأرادوا قتل صالح، فنجّى الله تعالى صالحاً حيث أمره بالخروج قبل مجيء العذاب، فخرج هو ومن آمن معه، كما قال جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

(فلمّا جاء أمرنا) بهلاكهم **(نجّينا صالحاً والّذين آمنوا معه)** كلّهم في العذاب، حيث أمرناهم بالخروج من القرية قبل العذاب وذلك **(برحمة منّا)** لهم، وكما نجّيناهم من عذاب الدّنيا فقد نجّيناهم من عذاب يوم القيامة كما قال: **(ومن)** أي ونجّيناهم من **(خزي)** عذاب وفضيحة **(يومئذ)** يوم إذ تقوم القيامة **(إنّ ربّك هو القويّ)** الّذي يقدر على كلّ شيء **(العزيز)** الغالب الّذي لا يمنعه من تنفيذ إرادته أحد **(وأخذ الّذين ظلموا)** بالكفر وتكذيب صالح وعقر النّاقة أخذتهم **(الصّيحة)** الشّديدة، وهي إمّا صيحة ملك صاح عليهم فماتوا كلّهم، أو صاعقة نزلت بهم فأماتتهم **(فأصبحوا)** بعد الصّيحة **(في ديارهم)** كلّ واحد في داره **(جاثمين)** واقعين ميّتين لا حراك لهم فاصبحوا **(كأن لم يغنوا)** لم يسكنوا **(فيها)** في القرية قط **(ألا إنّ ثموداً كفروا ربّهم)** فلم يشكروا نعمته ولم يتّبعوا شريعته، وكذّبوا رسله واستهانوا بمعجزاته فلذلك **(ألا بعداً)** هلاكاً وبعداً من رحمة الله في الدّنيا والآخرة **(لثمود)** بسبب أعمالهم، وجعل الله تعالى العاقبة للمؤمنين، وأعدّ لهم حسن الختام، وهذه سنّة الله تعالى في العباد، فليعتبر المعتبرون وليتّعظوا ليكونوا من المفلحين هذا. وقد فصّلنا قصّة ثمود في سورة الأعراف، والحمد لله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من قصّة لوط (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

(ولقد جاءت رسلنا) وهم الملائكة **(إبراهيم بالبشرى)** بأنّ الله يرزقه ولداً وبإهلاك قوم لوط أو بهما معاً **(قالوا سلاماً)** أي نسلّم عليك سلاماً **(قال)** إبراهيم لهم **(سلام)** عليكم **(فما لبث)** أي ما توقّف واستعجل **(أن جاء بعجل حنيذٍ)** مشويّ ووضعه بين أيديهم فلم يأكلوا **(فلمّا رأى أيديهم لا تصل)** أي لا تمتدّ **(إليه)** إلى أكل العجل **(نكرهم)** أي لم يحبّ عملهم هذا، فإنّ الضّيف إذا لم يأكل الطّعام فله نيّة سوء مع المضيف **(وأوجس)** وأضمر في نفسه **(منهم خيفة)** حيث لم يأكلوا طعامه **(قالوا)** له **(لا**

تخف إنّا) ملائكة فلذلك لا نأكل، وفي هذا دليل على أنّ الملائكة وإن تمثّلوا بصورة البشر لا يتّصفون بصفاتهم ولا بطبيعتهم **(أرسلنا إلى قوم لوط)** لنهلكهم **(وامرأته)** أي أمرأة إبراهيم قائمة عندهم **(فضحكت)** من هذه المحاورة **(فبشّرناها)** على لسان الملائكة **(بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)** وفي هذه بشارة بأنّها تعيش إلى أن ترى ولد ولدها **(قالت يا ويلتا)** أصله يا ويلتي كلمة يقال عند التّعجب أو التّحسّر **(أألد وأنا عجوز)** وكان عمرها تسعين سنة **(وهذا بعلي)** أي زوجي **(شيخاً)** وكان عمره مئة وعشرين سنة **(إنّ هذا)** الّذي تبشّروننا به **(لشيء عجيب)** خارج عن العادة وطبيعة الإنسان.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾

(قالوا) أي الملائكة لسارة زوج إبراهيم **(أتعجبين من أمر الله)** أي من حكمه هذا بأن يرزقك ولداً، والإستفهام للإنكار أي لا تعجبي منه لأنّ هذه البشارة **(رحمة الله وبركاته عليكم)** أي خصّكم بها **(أهل البيت)**[1] **(إنّه حميد)** أي حسن كلّ أفعاله **(مجيد)** ذو كرم كثير **(فلمّا ذهب عن إبراهيم الرّوع)** أي الخوف **(وجاءته البشرى)** بالولد أصبح **(يجادلنا)** أي يشفع **(في قوم لوط)** أن لا يعذّبوا **(إنّ إبراهيم لحليم)** ولحلمه كان يشفع ولم يغضب على القوم **(أوّاه)** كثير التأوّه خوفاً من الله تعالى **(منيب)** راجع إلى الله تعالى تائباً. فقالت له الملائكة: **(يا إبراهيم أعرض عن هذا)** أي عن الشّفاعة في قوم لوط حيث **(إنّه قد جاء)** أي صدر بذلك **(أمر ربّك)** وقضى به **(وإنّهم آتيهم عذاب غير مردود)** لا يردّه أحد ولا يردّه الله أيضاً، لأنّه قضى به وانتهى الأمر. هذا وفي القصّة دليل حقيّة الضّيافة وحسن الإستعجال بها، بدليل قوله رسول الله (ﷺ): (الضّيافة ثلاثة أيام حقّ لازم فما كان بعدها فصدقة)[2] وقال أيضاً:

---

(١) أي أهل بيت إبراهيم (عليه السلام) إذ أن زوجته من أهل بيته ولأنها كانت ابنة عمه أيضا.

(٢) صحيح ابن حبان ٢١/ ٨٧ الحديث رقم ٥٢٨١، وفي البخاري بلفظ مختلف ٥/ ٢٣٧٨الحديث رقم ٦١١١.

(العجلة من الشّيطان)[١] فقال العلماء: إلّا في ثلاث في الضّيف إذا حضر يهيّأ له طعامه حالاً؛ لقوله تعالى: **(فما لبث أن جاء بعجل حنيذ)**، وفي البنت إذا بلغت يُعجّل في زواجها، وفي الميّت يُعجّل في دفنه.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾

(ولمّا جاءت رسلنا) الملائكة **(لوطا سيء)** أي حزن لوط **(بهم)** بسبب الملائكة، لأنّه علم أنّ قومه لا يتركونهم ويتعرّضون إليهم لأن يفعلوا بهم الفاحشة[٢] ؛ لأنّهم جاؤوا في صورة شبّان مرد حسان **(وضاق)** لوط **(بهم)** بمجيئهم **(ذرعاً)** أي صدراً فالتّقدير ضاق بهم صدره خوفاً من الفضيحة **(وقال هذا يوم عصيب)** أي شديد **(وجاءه)** أي جاء لوط **(قومه يهرعون)** أي يسرعون إليه دون خجل وإستحياء **(ومن قبل كانوا يعملون السّيئات)** وهو الفاحشة، فعلم لوط أنّهم جاؤوا ليتعرّضوا إلى ضيوفه **(قال يا قوم هؤلاء بناتي)** فإمّا أراد أزواجهم لأنّ نساء القوم بنات الرّسول في التّخاطب **(هنّ أطهر لكم)** فاقضوا شهوتكم منهنّ، أو أراد بناته حقيقة، فالمعنى: هؤلاء بناتي أزوّجكم أياهنّ فافعلوا بهن بدل الضّيوف، وكان القوم بعدد بناته، لأنّه لم يأته لهذا الفعل إلّا رؤساء القرية، فالرّؤساء دائماً هم دعاة الفساد وأهله، وليس معنى قوله: **(هنّ أطهر)** أي أكثر طهارة، ليفيد أنّ في السّوء بالرّجال طهارة أيضاً، بل معنى أطهر صفة مشبّهة أي هنّ طاهرات، أي العمل معهنّ وفق النّكاح طاهر وما تريدون نجس **(فاتّقوا الله)** أي اتّقوا عذابه بترك العمل والشّر **(ولا تخزون)** أي ولا تفضحوني **(في ضيفي)** فاتركوهم، فلمّا ألحّ القوم ولم يريدوا إلّا السّوء قال: **(أليس منكم رجل رشيد)** أي عاقل يردعكم عمّا تريدون من السّوء.

ويؤيد أن المراد بالبنات بناته قوله جلّ وعلا:

---

(١) المغني عن حمل الأسفار ١/ ٣٦٤ الحديث رقم ١٣٧١.

(٢) يقصد بالفاحشة هنا وفي القرآن هو إتيان الرجل الرجل من الخلف.

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

(قالوا) يا لوط **(لقد علمت ما لنا في بناتك من حقّ)** أي رغبة **(وإنّك لتعلم ما نريد)** فلا نتركهم حتّى نقضي منهم حاجتنا، وهنالك تحسّر لوط على أنّه ليس عنده قوّة تدفعهم بها ولا جماعة يدافعون عن ضيفه، فلذا **(قال)** تحسّرًا **(لو)** أي ليت **(أنّ لي بكم قوّة)** أدفعكم بها **(أو آوي)** ألتجئ **(إلى ركن)** جانب **(شديد)** أي قويّ يؤدّبكم ويمنعكم عن هذا الأمر.

فلمّا ضاق بلوط الذّرع أظهر الملائكة له أنفسهم وطمأنوه وهدّأوا أعصابه كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

(قالوا) أي الملائكة **(يا لوط)** لا تحزن ولا تخف منهم حيث **(إنّا رسل)** ملائكة **(ربّك)** جئنا لإهلاكهم **(فلن يصلوا)** أي لا يستطيعون أن يصلوا إليك بسوء وإيذاء أو أي ضرر **(فأسر)** أي إرحل بأهلكم واذهب بهم **(بقطع)** أي في قسم **(من اللّيل)** قبل الصّبح **(ولا يلتفت منكم أحد إليهم)** لينظر إليهم لكي لا يرى عظيم ما نزل بهم. أو معناه: فلا يرحم بهم أحد منكم ولا يحزن عليهم **(إلّا امرأتك)** إستثناء من الأهل أي إلّا امرأتك لا تذهب بها معك حيث **(إنّه)** أي إنّ الشّأن **(مصيبها)** من العذاب **(ما أصابهم)** أي ما يصيبهم عبّر عنه بالماضي لتحقّق وقوعه. أو المراد أصابها ما أصابها من الكفر فتهلك معهم **(إنّ موعدهم)** أي موعد هلاكهم **الصّبح (أليس الصّبح بقريب)** الجواب بلى أي قريب جداً **(فلمّا جاء أمرنا)** بالعذاب **(جعلناها)** أي قريتهم مقلوبة **(عاليها سافلها)** وأمطرنا عليهم **(حجارةً من سجيل)** أي الطّين المتحجّر **(منضود)** متتابع بعضها بعضاً

كالمطر **(مسوّمةً)** معلمةً كلّ منها إنّها تقع على من تقع **(عند ربّك)** فجاء العذاب وأهلكوا جميعاً؛ فليعتبر بهم قومك وكلّ جبار وليتّعظوا حيث **(وما هي)** أي قرية قوم لوط **(من الظّالمين)** وهم منكرو رسول الله (ﷺ) **(ببعيد)** بل قريب يشاهدونها ويعلمون أخبارها، فلم لا يتّعظون بهم، هل هذا إلّا غلوّ في الضّلال والإستكبار، وقد سبقت قصّة لوط في تفسيرنا لسورة الأعراف أيضاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من قصّة شعيب (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

(وإلى) أي ولقد أرسلنا إلى **(مدين)** أي إلى قوم مدين **(أخاهم شعيباً)** لأنّهم انحرفوا عن دين الله تعالى ليعيدهم إلى الدّين الصّحيح، وأدخلوا في دين الله أموراً فيطهّره ممّا ليس منه، وألصق به من قبل المضلّين **(قال)** لهم شعيب **(يا قوم اعبدوا الله)** ولا تعبدوا غيره، فتعتقده إلهاً ولا تتّبعوا غير شريعته **(ما لكم)** حسب الحقّ والواقع **(من إله)** يستحقّ الطّاعة والعبادة **(غيره)** غير الله تعالى **(ولا تنقصوا المكيال)** فتكيلوا للنّاس أقلّ من حقّهم **(والميزان)** فتزنوا لهم أقلّ ممّا يستحقّون وذلك بالحيل الّتي يستعملها النّاس في السّرقة في الميزان والكيل **(إنّي أراكم بخير)** أي في نعمة من الله تعالى في المال والغنى والثّروة **(وإنّي أخاف عليكم)** إن لم ترجعوا إلى دين الله تعالى وعبادته وحده والعدل في الكيل والوزن **(عذاب يوم محيط)** يحيط بالكلّ، فلا يخرج منه أحد لأنّه من سنّة الله تعالى أنّ كلّ أمّة عصت وانحرفت عن دينه وتمادى في غيّه وانحرافه ولم يرجع ولم يتب يرسل الله تعالى عليهم عذاباً عامّاً يصيب الصّغير والكبير والنّاس جميعاً **(ويا قوم أوفوا المكيال)** أي كِلوا للنّاس حقوقهم وافياً **(والميزان)** وزنوا لهم تماماً **(بالقسط)** بالعدل **(ولا تبخسوا)** ولا تنقصوا **(النّاس أشياءهم)** الّتي تكيلونها أو تزنونها لهم **(ولا تعثوا)** أي ولا تفسدوا **(في الأرض مفسدين)** متقصّدين الفساد ومتعمّدين له،

فإنّ الفساد بالسّهو والنّسيان والخطأ لا يؤاخذ به النّاس **(بقيّة الله)** أي إطاعة الله الّتي تبقى ذخراً ليوم القيامة **(خير)** من هذا المال الحرام الفاني الّذي تكسبونه من الخيانة في الكيل والوزن **(إن كنتم مؤمنين)** بالثّواب والعقاب **(وما أنا عليكم بحفيظ)** فأعاقبكم على أعمالكم بل إنّما أنا نذير؛ فأنذرتكم بعذاب الله وإنّ الله هو الّذي يأتي بعقابكم وعذابكم إن شاء ومتى شاء.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

(قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك) أن تأمرنا **(أن نترك ما يعبد آباؤنا)** من الأصنام، قالوا ذلك استهزاءً به لأنّه كان يكثر من الصّلاة لأنّها تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء **(أو)** نترك **(أن نفعل في أموالنا ما نشاء)** في الزّيادة أو النّقصان **(إنّك لأنت الحليم الرّشيد)** قالوا ذلك أيضاً استهزاءً كما يقال لمن قال شيئاً خطأً: إنّك لأنت المفتي الكبير، أو أنت العاقل مثلاً. **(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة)** أي تبيّن **(من ربّي)** أنّه لا يعبد غيره ولا يضع سواه، ومن فعل ذلك فهو ضال، هل أخالف ذلك فأشرك به، والإستفهام للإنكار، أي كلّا فلا أفعل ذلك **(ورزقني)** أي أرأيتم إن رزقني الله تعالى **(منه)** من فضله **(رزقاً حسناً)** حلالاً فهل أجعله حراماً بالتّطفيف في الكيل والميزان كلّا وإنّي أنهاكم عن ذلك وأطبّقه على نفسي حيث **(ولا أريد أن أخالفكم إلى)** فعل **(ما أنهاكم عنه)** وفي هذا إشارة إلى أنّه يجب على الواعظ أن يتّعظ ويعمل بما يقول وإلّا فيكون وعظه بدون فائدة، ويتّهم بالكذب في الدّعوة قال تعالى: **(كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)** ويقول صاحب الزّبد:

وعالم بعلمه لم يعملن معذّب من قبل عباد الوثن

(**إن**) أي الّذي (**أريد**) من وعظي لكم (**إلّا الإصلاح**) لعباداتكم ومعاملاتكم، ولا أريد غير ذلك من نفع أو مصلحة لي، فأسعى لذلك الإصلاح (**ما استطعت**) مهما استطعت أو بقدر ما استطعت (**وما توفيقي**) أي وما وصولي لهذه النّتيجة وهي الإصلاح (**إلّا بالله**) وحسب إرادته (**عليه توكلّت**) في كلّ أمر فإنّه الموجد والخالق لكلّ شيء، ولا مؤثّر ولا موجد ولا موفّق سواه. وفي هذا إشارة إلى توحيد الله تعالى في التّكوين وإنّه لا تكوين إلّا له (**وإليه**) إلى حكمه وشريعته ونظامه (**أنيب**) أرجع في عملي ومعاملاتي كلّها فلا أخالف حكمه ونظامه، وفي هذا إشارة إلى توحيد الله تعالى في الحكم والتّشريع. وهذان التّوحيدان هدف كلّ نبيّ ورسول وداعية إلى الحقّ والإيمان بالله تعالى (**ويا قوم لا يجرمنّكم**) أي لا يسوقنّكم (**شقاقي**) مخالفتكم لي إلى إلى (**أن يصيبكم**) عذاب (**مثل ما**) أي عذاب (**أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح**) وهذا إنذار لهم في ألطف العبارات إذ معناه: إن مخالفتكم لي ليسوقكم إلى العذاب كما ساق الأقوام قبلكم إلى العذاب، فاحذروا مخالفتي (**وما قوم لوط منكم ببعيد**) زماناً ومكاناً فأهلكوا لمخالفتهم لرسولهم فاعتبروا بهم واتّعظوا؛ وإلّا فتلاقون ما لاقوا وتصابون بما أصيبوا ولا ملام إلّا عليكم (**واستغفروا ربّكم**) ممّا فعلتم قبل (**ثمّ توبوا إليه**) بالعمل وفق شريعته (**إنّ ربّي رحيم**) يرحم بكم إن فعلتم بنصحي (**ودود**) يحبّ عباده ولا يريد ضرّهم ما لم يتمرّدوا عن أمره ويجعلوا أنفسهم مستحقّة لعذابه.

إلّا أنّه رغم هذه المواعظ الحسنة والكلام المليء بالحكمة لم يقتنع القوم ولم يؤمنوا، وحيث لم يكن لهم حجّة يقابلون به حجج شعيب إلتجأوا إلى القوّة كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

(قالوا يا شعيب ما نفقه) أي ما نفهم **(كثيراً ممّا تقول)** أي لا يدخل في عقولنا وتصوّرنا ولا يستسيغه ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا وتقاليدنا **(وإنّا لنراك فينا ضعيفاً)** فكيف تواجهنا بما يخالف مقدّساتنا ومعتقداتنا وتستهين بها **(ولولا رهطك)** أي عشيرتك **(لرجمناك)** لقتلناك رمياً بالحجارة **(وما أنت علينا بعزيز)** أي بغالب تستطيع أن تمنعنا من قتلك **(قال يا قوم أرهطي)** وعشيرتي **(أعزّ عليكم من الله)** تعالى فتخافونهم ولا تخافون الله تعالى **(واتّخذتموه)** أي جعلتم الله تعالى **(وراءكم ظهريّاً)** كناية عن نسيانهم وتركهم له وعدم المبالاة به، كالشّيء الّذي يطرح وراء الظّهر فجعلتم الله كذلك لا تراعونه ولا تخافون منه **(إنّ ربّي بما تعملون محيط)** بعلمه ولا يخفى عليه شيء فينتقم منكم عليه إن لم تتوبوا إليه وتؤمنوا بي **(ويا قوم اعملوا)** في صدّي وفي صدّ النّاس عن اتّباعي **(على مكانتكم)** أي بقدر تمكّنكم من العمل ولا تألوا جهداً **(إنّي عامل)** وماضٍ في دعوتي والإستبصار بالله تعالى فقط **(سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه)** أنتم أو أنا **(ومن هو كاذب)** منا **(وارتقبوا)** أي انتظروا هلاكي **(إنّي معكم رقيب)** أنتظر عذابكم. وهكذا المؤمن الموحد لا يعتزّ ولا ينتصر إلّا بالله تعالى، والمشرك يعتزّ و ينتصر بالرّهط والعشيرة والقوم، وإلى غير ذلك من الإشراكات، نعم إنّ الموحّد يرى هذه الأشياء أسباباً ولكنّ ثقته واعتماده على الله تعالى وحده لأنّ كلّ ما في الكون لا يؤثّر إلّا بإرادة الله تعالى.

ثمّ استمر شعيب في دعوته وأصرّ النّاس على الكفر والاستهزاء والتّكذيب، إلى أن حقّ عليهم كلمة الله بالعذاب فأهلكهم الله تعالى ونجّى شعيباً والمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

(ولما جاء أمرنا) بإهلاكهم **(نجّينا شعيباً والّذين آمنوا)** حيث أمروا بالخروج من القرية قبل مجيء العذاب **(وأخذت الّذين ظلموا الصّيحة)** صوت ملك أو صاعقة فأصبحوا في **(ديارهم جاثمين)** واقعين على الرّكب ميّتين لا حراك لهم وأصبحوا **(كأن لم يغنوا)** أي لم يقيموا **(فيها)** في القرية أبداً، وهذا عذابهم في الدّنيا. وفي الآخرة

ينادي منادٍ (**ألا بعداً لمدين**) من رحمة الله (**كما بعدت ثمود**) منها، هذا وقد فصّلت قصّة شعيب في سورة الأعراف.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من قصّة موسى وهارون مع فرعون وملئه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾

(**ولقد**) أي وبعزّتي (**لقد أرسلنا موسى بآياتنا**) بأحكامنا وشرائعنا (**وسلطان**) برهان (**مبين**) مثبت أنّه رسول من الله تعالى أرسلناه (**إلى فرعون وملئه**) أي وجماعته المحيطة به والمنتفعة منه (**فاتّبعوا**) أي القوم (**أمر فرعون**) فلم يؤمنوا بموسى ولم يتّبعوا شريعة الله تعالى (**وما أمر فرعون**) ونظامه (**برشيد**) بحقّ بل هو باطل، وهكذا فكلّ حكم ونظام غير حكم الله باطل من الأنظمة الأرضيّة كلّها (**يقدم**) أي فرعون وكلّ من يدعو إلى نظام غير نظام الله تعالى (**قومه يوم القيامة**) ويسوقهم (**فأوردهم**) أي أدخلهم النّار وهي نار جهنّم (**بئس الورد**) وهو ما يرده النّاس (**المورود**) الّذي ورده قوم فرعون وهو جهنّم (**وأُتبعوا في هذه الدّنيا لعنةً**) بعداً من رحمة الله تعالى حيث أهلكوا (**يوم القيامة**) أي وأتبعوا اللّعنة يوم القيامة أيضاً حيث يدخلون النّار ويخلدون فيها (**بئس الرّفد**) أي العطاء (**المرفود**) أي المعطى لهم. وهذا العطاء هو اللّعنة في الدّارين.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١)﴾

(**ذلك**) الّذي ذكرنا لك بعض من أنباء القرى (**نقصّه عليك**) تسليةً لك ووعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين (**منها**) أي بعض القرى (**قائم**) أي باقٍ وإنّما أهلك أهلها فقط، كمصر مثلاً، هلك فرعون وأتباعه وبقي بلد مصر (**و**) بعض القرى (**حصيد**) أي

محصودة كالزّرع الّذي يحصد فلا يبقى له أثر، فهلك هو وأهله كقرية قوم ثمود مثلاً **(وما ظلمنا)** حينما أهلكناهم **(ولكن)** هم **(ظلموا أنفسهم)** حيث جعلوها مستحقّةً للهلاك فعصوا الله ورسوله، واعتمدوا على آلهتهم أن ينقذهم من العذاب إذا جاء **(فما أغنت)** أي ما دفعت **(عنهم آلهتهم الّتي يدعون من دون الله من شيء)** من العذاب لا في الدّنيا ولا في الآخرة **(لمّا جاء أمر ربّك)** بعذابهم **(وما زادوهم غير تتبيب)** أي تخسير وإهلاك.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

(وكذلك) مثل ما سمعت من الإهلاك **(أخذ ربّك)** أي إهلاكه **(إذا أخذ)** أي إذا أراد إهلاك **(القرى)** ثمّ بين وجه الشّبه فقال: **(إنّ أخذه)** أي إهلاكه وعذابه **(أليم)** مؤلم **(شديد)** في الإيلام **(إنّ في ذلك)** القصص وما فيها من الأخبار بعذاب أهل القرى **(لآية)** أي لعبرة **(لمن خاف عذاب الآخرة)** لأنّه يعلم أنّه حينما يكون عذاب الله في الدّنيا هكذا، فيكون عذابه في الآخرة أشدّ للمجرمين والعصاة؛ فيتّعظ بهذه الآية ويتوب، ثمّ عرف يوم القيامة فقال: **(ذلك)** أي الآخرة **(يوم مجموع له)** أي للحساب في ذلك اليوم **(النّاس)** كلّهم **(وذلك يوم مشهود)** يشهده أهل الأرض والسّماء لحشرهم وحسابهم أو الشّهادة أو غير ذلك من أمور تجرى في ذلك اليوم **(وما نؤخّره)** أي مجيء ذلك اليوم **(إلّا لأجلٍ معدود)** أي معدود أيّامه أي قلائل ومعلومة عند الله تعالى، وتلك قليلة بالنّسبة الى مقادير الله تعالى وإلّا فهي كثيرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن نبذة ممّا يجري في ذلك اليوم فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ

﴿مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

(يوم) منصوب بقوله: لا تكلّم الآتي أي **(لا تكلّم)** أصله تتكلّم حذفت إحدى التّاءين تخفيفاً فلا تتكلّم يوم يأتي القيامة **(نفس إلّا بإذنه)** أي باذن الله تعالى **(فمنهم)** أي ففي ذلك اليوم بعضهم **(شقيّ)** أي كافر كتب له الشّقاء **(و)** بعضهم **(سعيد)** رزقه الله تعالى السّعادة وهو مؤمن **(فأمّا الّذين شقوا)** نسب الشّقاء إلى الأشخاص والإسعاد إلى الله تعالى إذ يقول فيما يأتي: **(سعدوا)** أي رزقهم الله السّعادة لأمرين:

الأمر الأوّل: إنّه من الأدب أن ينسب الشر إلى العبد والخير إلى الله تعالى وإن كان كل بخلقه فهذا تعليم لهذا الأدب.

الأمر الثاني: إنّ الإنسان بطبيعته مائل للشّر لأنّه فيه من الشّهوات ما يسوقه إليه، وأمّا الخير فبمحض لطف الله تعالى وتوفيقه.

فالّذين شقوا هم **(ففي)** أي فهم في النّار **(لهم فيها زفير)** صوت شديد يخرج من النّاس **(وشهيق)** وصوت خفيف فهم[1] **(في النّار)** داخلون **(خالدين)** ماكثين فيها **(ما دامت السّموات والأرض)** أي مدّة دوامها، والسّماوات والأرض أبديّتان لأنّ هذه السّماوات وإن زالت فأنّها تبدّل بسموات أخرى، والأرض تبقى وتتبدّل هيأتها وكيفيّتها قال تعالى: **(يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات وبرزوا لله الواحد القهّار)** فالمعنى أنّهم خالدون فيها أبداً **(إلّا ما)** أي إلّا مدة **(شاء ربّك)** عدم وجودهم في النّار وهي مدّة حياتهم على الأرض فإنّ الكافر حينما مات يقع في النّار حيث قال رسول الله (ﷺ): (القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّيران)[2] (إنّ ربّك فعّال لما يريد) من تعذيب للكافرين في الآخرة وتنعيمهم بحياة الدّنيا لا يمنعه من تنفيذ إرادته شيء ولا أحد **(وأمّا الّذين سعدوا)** أي الّذين كتب الله لهم السّعادة أي الفوز بالنّعيم آجلاً أو عاجلاً **(ففي الجنّة)** أي فهم في الجنّة خالدين ماكثين **(فيها)** في الجنّة **(مادامت**

---

(١) الزفير هو التنفس باستدخال الهواء بقوة إلى الصدر والشهيق هو إخراج ذلك الهواء الداخل المجتمع في الصدر إلى الخارج.

(٢) سنن الترمذي ٤/٦٣٩ الحديث رقم ٢٤٦٠ وقال حديث حسن غريب.

السّماوات والأرض) أي مدّة دوامها أي أبداً **(إلّا ما)** أي مدّة **(شاء ربّك)** عدم وجودهم في الجنّة وهي مدّة حياتهم في الأرض فقط لمن لا يستحقّ العذاب، ومدّة عذابهم أيضاً لمن استحقّه ثمّ يخرج إلى الجنّة، وأعطى السّعداء هذا **(عطاء)** من الله تعالى **(غير مجذوذ)** أي غير مقطوع وغير منته، أللّهم ارزقناه آمين.

والّذي كتبته من تأويل الإستثناءين هو الجدير بالقبول وفي التّفاسير تأويلات أخرى كلّها مجروح فيه، يعرف الذّكي جرحها حينما يرجع إليها في الخازن وابن كثير، إلّا أنّ الّذي كتبته سلم من الجرح والتّضعيف والله تعالى أعلم.

(فلا) أي فبعد ما علمت حال الشّقاة والسّعداء **(لا تكن في مريةٍ)** في شكّ وضيق **(ممّا يعبد هؤلاء)** المشركون لأنّهم **(ما يعبدون)** عن دليل وبرهان ولا حجة عندهم إلّا التّقليد فهم ما يعبدون هذه الآلهة **(إلّا كما يعبد آباؤهم من قبل)** أي من قبلهم فيقلّدونهم في ذلك دون برهان ودليل **(وإنّا لموفّوهم نصيبهم)** من العذاب **(غير منقوص)** بل بقدر ما يستحقّون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله وأن يأمره بالصّبر وأن لا يحزن بكفر هؤلاء، فإنّ هذا سنّة الله في الكون، فإنّ كلّ رسول جاء كذّب وعودي واستهزئ به؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

(و) أي وبعزّتي **(لقد آتينا موسى الكتاب)** وهو التّوراة كما آتيناك القرآن **(فاختلف)** أي اختلف قوم موسى **(فيه)** أي في التّوراة فبعضهم آمن به وبعضهم كفر، كما اختلف قومك بالتّصديق والتّكذيب في القرآن، فهذا دأب كلّ قوم مع رسوله **(ولولا كلمة)** أي حكم **(سبقت)** من الله تعالى أنّه لا يعذّب قوماً حتّى يأتي أجلهم الّذي حدّد لهم **(لقضي)** أي لقضى الله تعالى **(بينهم)** بين المصدّقين بنجاتهم والمكذّبين بهلاكهم فوراً من كلّ قوم إلّا أنّه لا يستعجل الله عذاب قوم فلا يعذّبهم حتّى يأتي وقته **(وإنّهم)** أي

قوم موسى أو قومك **(لفي شكّ منه)** من التّوراة أو القرآن **(مريب)** أي موقع ذلك الشّك المريب، أي في شكّ كبير، فاصبر يا محمّد فإنّه يأتي يوم لعذاب قومك **(وإنّ كلّاً)** من الفريقين **(لما)** بتخفيف اللام وما بمعنى شيء أي إنّ كلّاً لشيء **(يوفينهم)** يصيبنّهم **(ربّك)** جزاء **(أعمالهم)** فالمكذّب في الدّنيا بالذلّ والهوان وفي الآخرة بالعذاب بالنّيران، والمصدّق في الدّنيا بالنّصر والسّيادة وفي الآخرة بالجنّة والرّضوان **(إنه)** أي ربّك **(بما يعملون خبير)** فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم فيجزيهم عليها **(فاستقم)** على المضيّ في الدّعوة والثّبات عليها وعدم إستعمال القوّة **(كما أمرت)** بذلك كلّه أنت **(ومن تاب)** أي آمن معك، سمّى إيمانهم توبةً لأنّهم رجعوا عن الشّرك والكفر إلى التّوحيد والإيمان **(ولا تطغوا)** أي ولا تتجاوزوا الحدّ الّذي تؤمرون به في كلّ ناحية من النّواحي، وكلّ عمل من الأعمال، والمقصود بالخطاب هم المؤمنون لا الرّسول؛ لأنّ الرسول معصوم عن التّجاوز والطّغيان، أو المراد بالنّسبة إليه دم على ما أنت عليه من الاستقامة وعدم الطّغيان والله تعالى أعلم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ للمؤمنين منهجاً خاصاً يجب عليهم الاستقامة عليه وعدم التّجاوز عنه، أمرهم بمتاركة الكافرين ومنابذتهم وعدم الميل إليهم، والإبتعاد كلّ الإبتعاد عن عقائدهم وأحكامهم وأنظمتهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

(ولا تركنوا) أي ولا تميلوا **(إلى الّذين ظلموا)** أي كفروا لا في حبّهم وصداقتهم ولا في عاداتهم وتقاليدهم البيّنيه ولا في عقائدهم وأحكامهم وشرائعهم وأنظمتهم، ولا في العمل الموحد معهم **(فتمسّكم النّار)** بسبب هذا الميل **(وما لكم من دون الله من أولياء)** نصراء ينصروكم في الدّنيا وينقذونكم من النّار في الآخرة، إن صادقتم الكفّار وملتم إليهم **(ثمّ لا تنصرون)** من قبل أحد، وحيث إنّ الصّلاة تقوّي العقيدة وتأتي بالصّبر على الطّاعة والتزام الأوامر وتصفية القلب فلا يميل إلى الكفار، أمر بالصّلاة بعد

هذه النّصائح والمواعظ فقال: **(وأقم الصّلاة طرفي النّهار)** أي في الصّباح وفيه صلاة الصّبح وفي المساء وفيه صلاة الظّهر وصلاة العصر،وزلفاً من اللّيل أي وفي قسم من اللّيل، وهو المغرب والعشاء وسائر مندوبات اللّيل. ثمّ بيّن سبب أداء الصّلاة فقال: **(إنّ الحسنات يذهبن السّيئات)** له معنيان:

الأوّل: إنّ الحسنات يمحين السّيئات وذلك كما قال تعالى: **(وأتبع السّيئة الحسنة تمحها)**.

الثّاني: إنّ الحسنات تطهّر القلب فلا يميل إلى السّيئات، فالمعنى: إنّ الصّلاة تقوّي القلب فلا يميل إلى الكفار وأعمالهم من الذّنوب والمعاصي، أو إنّها تمحي ما ابتليت ببعض الميل إلى أعمال الكفار وارتكابها من الذّنوب وتكون كفّارة لها.

(ذلك) الّذي ذكر لكم هو **(ذكرى)** أي موعظة **(للذّاكرين)** أي للمتّعظين، وإنّها وإن كانت ذكرى لكلّ النّاس إلّا حيث إنّه لا يستفيد منها إلّا الذّاكرون خصّ بهم **(واصبر)** على متاركة الكفرة والفسقة وإيذائهم وعلى المضيّ في العمل بالإسلام والدّعوة، فإنّ ذلك من كمال الإحسان فتؤجر عليه **(فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين)** بأي إحسان كان فكيف لمن قام بأعلى درجاته؟ قال رسول الله (ﷺ): (أرايتم لو أنّ بباب أحدكم نهراً غمراً يغتسل فيه كلّ يوم خمس مرات هل يبقي من درنه شيء؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: كذلك مثل الصّلوات الخمس يمحو الله بهنّ الذّنوب والخطايا)[١]. وقال رسول الله (ﷺ): (الصّلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر)[٢]. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سبب إهلاكه للقرى وعذابه إياها فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

(١) صحيح مسلم ١/٤٦٢ الحديث رقم ٦٦٧.

(٢) صحيح مسلم ١/٢٠٩ الحديث رقم ٢٣٣.

(فلولا) حرف حثّ وتحضيض، فإذا دخل الماضي يفيد التّنديم والتّحسر على النّفي، فالمعنى: فممّا يتحسّر ويتندّم عليه أنّه ما **(كان)** أي لم يجد **(من القرون من قبلكم أولوا)** أي أصحاب **(بقيّة)** من التّوحيد والدّين الحقّ **(ينهون)** غيرهم من النّاس **(عن الفساد في الأرض)** وهو الإنحراف عن شريعة الله **(إلّا قليلاً ممّن أنجينا منهم)** عن الفساد فأنجيناهم أيضاً عن العذاب **(واتّبع)** غير هؤلاء وهم الّذين ظلموا وتجاوزوا **عن** الدّين وانحرفوا عن شريعة الله تعالى، إتّبع هؤلاء **(ما أترفوا فيه)** أي ما أترفوا به وهو ما كان سبباً لترفهم من أي نوع كان حلالاً أو حراماً، وبأي طريق كان بالفسق أو الفجور أو الخيانة أو الغش أو تأييد الباطل أو الكفر والكفرة، كلّ ذلك لنيل مال أو منصب أو راتب أو مصلحة أو منفعة دنيوية، ولم يبالوا بعاقبة ذلك من عذاب الله تعالى لهم في الدّنيا والآخرة **(وكانوا مجرمين)** بسبب ذلك فاستحقّوا العذاب فأهلكناهم. ثمّ أكد الله تعالى أنّه لا يهلك القرى إلّا بسبب فساد أهلها فقال جلّ وعلا: **(وما كان الله ليهلك القرى)** أي ما كان من عادته تعالى أن يهلك القرى **(وأهلها صالحون)** بل إنّما يهلكها إذا فسد أهلها ولم يتوبوا بعد التّذكير والإنذار والتّبشير وما ظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ولعلّ هنا يسأل سائل فيقول: لم لم يهد الله النّاس كلّهم إلى الإصلاح وعدم الفساد لكي لايستحقّوا الهلاك والعذاب لا في الدّنيا ولا في الآخرة؟ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

(ولو شاء ربّك) أن يجعل النّاس جبراً أمّةً واحدةً على دين الحقّ وعدم الإنحراف عن منهج الله **(لجعلهم أمّةً واحدةً)** مؤمنين كلّهم ومسلمين وصالحين، إلّا أنّ الله تعالى لم يشأ الجبر ولم يجعل الجبر من عادته، فلا يجبر أحداً على الصّلاح ولا على **الفساد**، بل خلق النّاس وجعل لهم الأبصار ليروا الدّلائل الكونيّة ورزقهم السّمع ليسمعوا الدّلائل القوليّة ووهبهم العقل والتّفكير ليتفكّروا فيعرفوا الحقّ من الباطل والخير من الشّر ونصب لهم الأدلّة على ذلك ونبّههم بالرّسل والأنبياء ودعاة الحقّ، ثمّ جعل الاختيار بيدهم، فمن أراد الخير يسّره له ومن أراد الشّر يسّره له، وذلك إمتحاناً لهم هل يتفكّرون في الخير فيميلوا إليه وفي الشّر فيتركونه أم لا؟ وبهذا الاختيار اختلفوا حسب

إختيارهم **(ولا يزالون مختلفين)** حسب شهواتهم وطبيعتهم عن الحقّ **(إلّا من رحم ربّك)** فيكون على الحقّ ويختاره **(ولذلك)** أي لهذا الإمتحان خلقهم كما صرح تعالى في آيات كثيرة نذكر بعضاً منها فيما يأتي:

١- قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ سورة الملك الآية/ ٢.

٢- قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ سورة هود الآية/ ٧.

إلى غير ذلك من الآيات الّتي تدلّ على أنّ الله تعالى خلق الإنسان للإختبار ووهب له من الإختيار. والحكمة في ذلك أنّه فضل في عمل الخير جبراً والهداية قهراً ولا حقّ في الإنكار على الشّر جبراً والضّلالة قهراً، بل كلّ ذلك يكون ويتوقّف على الإختيار، فاختيارهم الله تعالى ليستحقّوا الثّواب والعقاب، وإلى هذا أشار تعالى فقال: **(وتمّت كلمة ربّك)** أي حكمه وقضاؤه **(لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين)** بسبب إختيارهم الشّر والضّلالة. أي ولأملأنّ الجنّة من الجنّة والنّاس أجمعين أيضاً بسبب إختيارهم الخير والهداية، إلّا أنّه خصّ جهنّم بالذّكر لأمرين:

الأوّل: إنّ الإنذار والتّخويف أدعى إلى العمل والإمتثال.

الثّاني: إنّ الجنّة إنّما هي في الحقيقة بفضل الله تعالى لا بالاستحقاق، لأنّ الأعمال الصّالحة لو قوبلت بنعم الدّنيا لا تبقى شيء، فلا يستحقّون النّعيم في الآخرة إلّا بفضل الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى ان يبيّن سبب ذكره قصص الأقوام السّابقة فقال جلّ وعلا:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

(وكلّا) التّنوين عوض عن المضاف إليه أي وكلّ نبأ **(نقص عليك من أنباء الرّسل)** أيّها المسلم وأيّها السّامع المسلم **(ما)** أي إخباراً **(نثبّت به فؤادك)** على الحقّ والإيمان،

فلذلك التّثبيت نقص عليك **(وجاءك الحقّ في هذه)** أي في هذه الأنباء **(و)** جاءك **(موعظةً وذكرى للمؤمنين)** يتّعظون به ويتذكّرون **(وقل للّذين لا يؤمنون)** رغم سمعهم لهذه الأنباء وعملهم بها بل يعادون الحقّ والإسلام فقل لهم: **(إعملوا على مكانتكم)** أي حسب طاقتكم وتمكنّكم ضدّي وضدّ الإسلام **(إنّا عاملون)** للإسلام وللدّعوة إليه والدّفاع عنه **(وانتظروا)** نصركم أو خذلانكم **(إنّا منتظرون)** نصرنا ولنا النّصر والغلبة في الدّنيا ولكم الخزي والهوان فيها، ولنا النّعيم في الآخرة ولكم العذاب فيها، فكأنّه قيل: ومتى هذا؟ فقال تعالى: **(ولله غيب السّماوات والأرض)** فهو **(وإليه يرجع الأمر كلّه)** بنصركم وعذابهم وثوابكم وعقابهم **(فاعبده)** فأطعه أيّها المسلم ودم على إطاعتك ولا شكّ أنّ النّصر يأتيك **(وتوكّل عليه)** في النّصر والثّواب وفي كلّ الأمور **(وما ربّك بغافل عمّا تعملون)** فيثيبكم عليه في الدّنيا بالنّصر والغلبة والسّيادة، وفي الآخرة بالجنّة والنّعيم المقيم وحسن الختام وخير الخاتمة.

وصلّى الله وبارك على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم أجمعين.

سورة يوسف

(مكيّة، وآياتها إحدى عشرة ومائة، سميّت سورة يوسف لورود قصّة يوسف وإخوته فيها)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة:

الحمد لله وحده، والصّلاة والسّلام على من لا نبيّ بعده، وعلى آله وأصحابه ومن كان جنده، أمّا بعد فقد سبق أن إشتركت في لجنة مع جماعة من العلماء شكلّت لتفسير آيات القرآن الحكيم، وكان نصيبي أن نلت شرف المساهمة في هذا العمل المبارك العظيم، بقدر ما أعانني عليه الرّب الرّحيم، بتفسير مجموعة الآيات الواقعة بين الآية الخمسين من سورة يوسف إلى آخر سورة النّحل، وكان التّفسير يقصد منه بيان خلاصة المعنى دون التّفصيل، والإجمال ما أمكن دون تطويل، فلمّا جنّدت قلمي للكتاب، أصبحت كالعطشان الّذي لا يرويه الشّراب، أو كلّما زاد من إرتشافه للماء من ظمأة لذّ له وذاب، فأحببت أن أفصّل ما فسرته مجملاً، وأذكر فيه ما لم يسنح به مبتغى ذلك التّفسير وأروي ظمأي وأشفي الغليل، وأضفت إليه ما أقدرني عليه الباري من التّفاصيل، والأسئلة والأجوبة والحكم المستنبطة وما استخلصته من تعليل، فلعلّه يكون لي زاداً يوم المعاد، ووسيلة لي إلى رحمة ربّ العباد، وبدأت به من أول سورة يوسف وسميته بـ (القول المنصف في تفسير سورة يوسف) وقد وفّقني الله تعالى على الإتمام، وأرجوه أن يوفقني لبقيّة المرام، وصرف وقتي وما بقي على عمري في تفسير أعظم الكلام، وبه التّوفيق والإعتصام، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلّيّ العظيم[١].

---

(١) وقد استجاب الله تعالى دعاءه فبقي حتّى أكمل تفسير القرآن كلّه كما هو أمامنا.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قسّم الرّسول (ﷺ) القرآن الكريم بتعليم من جبريل إلى سور وآيات، فالآية جملة من ألفاظ القرآن الكريم مفصولة عن قريناتها بعلامة مدوّرة الشّكل، والسّورة طائفة من الآيات الشّريفة مفصولة عن أخواتها بالبسملة، وقد سمّى الرّسول (ﷺ) كلّ سورة بإسم واحد أو أكثر بتوفيق من الله تعالى، فالسّور والآيات وأسماء السّور توقيفية، أي تتوقّف معرفتها على سماع من الرّسول (ﷺ) وهو من جبريل، وجبريل من الله تعالى. وأمّا تقسيم القرآن الكريم إلى ثلاثين جزءاً، وكلّ جزءٍ إلى أربعة أحزاب، فمن عمل التّابعين وتابعيهم، إهتماماً منهم بشأن القرآن الكريم، كما قاموا بتشكيل حروفه وكلماته، ووضعوا المدّات في مواضعها والشدّات على الحروف المدغمة، ورسموا علامات الوقف الجائز والواجب والممتنع، كلّ ذلك حفظاً عن وقوع النّاس في الخطأ في القرآن الكريم، فجزاهم الله تعالى عن ملّة القرآن خير الجزاء.

فهذه السّورة تسمّى سورة يوسف، لورود قصّة يوسف وإخوته فيها. تشتمل على مائة وإثنتي عشرة آية، عند من يجعل التّسمية آية في أوّل كلّ سورة، وأمّا عند من لم يجعلها آية في أوّل كلّ سورة ويقول: لم يؤت بها في أوّل كلّ سورة إلّا للفصل بينها وبين سابقتها لا لكونها آية منها، فيعدّها مائة وإحدى عشرة آية فقط، والخلاف في أنّ التّسمية آية في أوّل كلّ سورة، عدا سورة التّوبة، أو لا موجود، فمن أراد الإطلاع على القولين وأدلّة الطّرفين فليراجع المجلد الأوّل من تفسير الرّازي وإبن كثير والخازن عند تفسير سورة الفاتحة، ولكن القول بأنّها آية في أوّل كلّ سورة إلّا سورة التّوبة أصحّ وأولى بالقبول والله أعلم. ثمّ إنّ العلماء قسّموا الآيات والسّور الشّريفة إلى مكيّة ومدنيّة نسبة إلى زمان نزولها، فالمكيّة ما نزل قبل الهجرة وإن نزل بغير مكّة، والمدنيّة ما نزل بعد الهجرة وإن نزل بغير المدينة على أصحّ الأقوال، فسورة يوسف نزلت في مكّة المكرّمة على رسول الله (ﷺ) دفعةً واحدةً، وورد في سبب نزولها ثلاث روايات:

الرّواية الأولى: إنّ السّيدة خديجة الكبرى (رضي الله عنها) زوج الرّسول (ﷺ) توفيت وهي الّتي كانت تسلّي الرّسول (ﷺ) وتقوم بخدمته وتهيئة أسباب راحته في البيت، وكانت أوّل من آمنت به وطمأنته أوّل ما نزل عليه الوحي، حيث كان (ﷺ) يرتجف من أثر

الوحي ويخاف على نفسه، وهي الّتي واسته بمالها وجمالها وكمال عقلها، بعد أن إختارته ليتزوّج بها، فكانت أحسن زوج وأحسن صاحبة وأحسن سند لرسول الله (ﷺ) مدّة حياتها، فترك وفاتها أثراً كبيراً وحزناً كثيراً في قلب الرّسول (ﷺ)، ثمّ لم يمض إلّا مدّة قليلة حتّى توفّيت، وتوفّي في نفس العام عمّه وشقيق والده أبو طالب الّذي ربّاه في صباه بعد وفاة جدّه عبدالمطّلب وهو الّذي خطب له خديجة (رضي الله عنها)، وكان له قوّة يحميه من دسائس قريش وما يردّون به من الإيذاء والتّنكيل، وكان يقوم بوجههم كلّما سوّلت لهم أنفسهم أمراً تجاهه ويقول له:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتّى أوسد في التّراب دفيناً

وكانت قريش تخاف من عمّه هذا أكثر ممّا كانت تخاف من الله تعالى؛ فبوفاة هذا العمّ إزداد حزن الرّسول (ﷺ) فسمّي ذلك العام بعام الحزن، فأنزل الله تعالى هذه السّورة ليتسلّى بها رسوله بأخ له كريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم (عليهم السلام)، وبما جرى عليه من إلقائه في الجبّ وإسترقاقه بعد إخراجه منه وبيعه في سوق الرقيق في مصر بثمن بخس دراهم معدودة، وطلب إمرأة سيدّه منه أن يفعل بها السّوء وإتّهامها له بالسّوء حينما أبى، ولم يلبّ طلبها وإدخاله في السّجن بعد ذلك الإتّهام وبقائه في السّجن بضع سنين. ثمّ أخرجه الله تعالى من السّجن وجعله عزيز مصر يتصرّف في ملك مصر كيف يشاء، وجمع الله تعالى بينه وبين أبويه وأخوته، وانقاد له إخوته وأبواه وخرّوا له ساجدين. وأسكنهم الله تعالى في مصر أجمعين، فكأنّ الله تعالى يقول لمحمدّ (ﷺ) في طيّ هذه القصّة لا تحزن فإنّ هذا سنّة الله تعالى مع أنبيائه (ﷺ)، يبتليهم أوّلاً ثمّ يكشف عنهم أخيراً، وإنّ الفرج حليف الصّبر وإنّ النّصر صنو الإبتلاء، فلا تحزن، فإن العاقبة لك ولمن اتّبعك من المؤمنين، ولسوف يعطيك ربّك فترضى.

الرّواية الثّانية: هي أنّ اليهود قالوا لأهل مكّة سلوا محمّداً عن ما جرى على يوسف وعن سبب إنتقال آل يعقوب من فلسطين إلى مصر. فأنزل الله تعالى هذه السّورة وبيّن فيها قصّة يوسف (عليه السلام) كما هي في التّوراة والإنجيل، ليكون ذلك معجزة لرسول الله (ﷺ)، حيث إنّه كان أميّاً لم يكن له ولا لقومه علم بالكتب السّماوية ولا بروايات التّواريخ، فإخباره عن هذه الوقائع وفقاً لما هو موجود في الكتب السّماوية غير المحرّفة لا يكون إلّا بالوحي من الله تعالى اليه، فيكون معجزة دالّة على صدقه (ﷺ) في دعواه الرّسالة من الله تعالى.

الرّواية الثّالثة: هي أنّه لما أنزل الله تعالى القرآن الكريم، فكان (ﷺ) يتلوه على قومه، قالوا لو ذكّرتنا يا رسول الله، فنزل قوله تعالى: ﴿ألم يأن للّذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله﴾ سورة الحديد الآية/١٦. ثمّ قالوا: لو حدّثتنا يارسول الله. فنزل قوله تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله﴾ - سورة الزمر الآية/٢٣. ثمّ قالوا: لو قصصت علينا يا رسول الله، فأنزل الله تعالى هذه السّورة وبيّن فيها قصّة سيّدنا يوسف (ﷺ)[١].

وأقول: إنّ هذه الأسباب لا يناقض بعضها بعضاً، فيجوز أن اجتمعت كلّها وأصبحت سبباً لنزول هذه السّورة الشّريفة وإن اختلفت الرّوايات لأنّ كلّ راوٍ روى حسب ما أحاط به علمه ووعاه سمعه والله تعالى أعلم.

فائدة في الاستعاذة: قال الله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم﴾ سورة النحل الآية/٩٨. فاستنبط جمهور العلماء من هذه الآية الكريمة وما اقترنتها من أوامر الرّسول (ﷺ) وفعله، أنّه لمن أراد قراءة القرآن الكريم أن يستعيذ بالله من الشّيطان الرجيم، سواء كانت القراءة في الصّلاة أو غيرها، وعند البعض أنّ الإستعاذة واجبة لظاهر الأمر بها في هذه الآية الكريمة والأمر، للوجوب إلّا أن تصرفه قرينة إلى غير الوجوب، والأصحّ قول الجمهور لوجود دلائل دلّت على أنّ الأمر هنا ليس للوجوب، وليس هنا مجال لذكر تلك الأدلّة. هذا وإنّ وقت الإستعاذة قبل الشّروع في القراءة كما هو قول الجمهور، وعند بعض بعد الفراغ منها، وهذا بعيد جدّاً لأنّ المرء يتعوّذ بالله من الشّيطان لكي يمنعه من أن يفسد عليه قراءته وتلاوته بما يلقي في قلبه من الوساوس وأحاديث النّفس؛ وذلك يليق بقبل القراءة لا بعدها. والمرء مخيّر بين الجهر بالإستعاذة والإسرار بها إلّا في الصّلاة السّرية فيخفيها فيها كما يخفي القراءة. والأرجح إستحبابها في الصّلاة في الرّكعة الأولى فقط لأنّ كلّ ما في الصّلاة تعتبر قراءة واحدة تكفيها إستعاذة واحدة. وصيغتها المشهورة هي: (أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم)، وقال بعض: الأحسن أن يقول: أعوذ بالله السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم، لسماعها من الرّسول (ﷺ) كذلك. ومعناها ألتجئ إلى الله تعالى لأن يحفظني من الشّيطان أن

---

(١) تفسير السمعاني ٣/ ٥.

يوسوس في قلبي فيصرفني عن القراءة أو التّدبير فيها. فإنّ أعوذ مضارع عاذ وعاذ معناه: ألتجئ إلى غيره لأنّ يحفظه ممّا يحذره ويخاف منه، كما أنّ لاذ معناه التجأ إلى الغير ليحصل له ما يؤمله ويطلبه، قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمّله كما أعوذ به فيما أحاذره

لا يجبر النّاس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

والشّيطان إسم لكلّ من يدعوك إلى الشّر وإلى مخالفة الشّرع من الإنس أو الجنّ بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ سورة الأنعام الآية/ ١١٢. وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ سورة الناس الآيات/ ٦،٥،٤. ولأنّ الشّيطان إمّا مشتقّ من شطن أي تباعد، سمّي به إبليس لأنّه تباعد عن الحقّ وعن أمر الله تعالى، أو مشتقّ من شاط يشيط أي هلك. فكلّ من ابتعد عن الحقّ أو هلك بسبب الأخذ بالباطل فهو شيطان. وشيطان الإنس أضرّ من شيطان الجنّ؛ لأنّ شيطان الجنّ لا يستطيع إلّا إدخال الوسوسة في القلب ويخنس عند ذكر الله تعالى، ولكنّ شيطان الإنس يواجهك الدّعوة إلى المعصية ويدخلها ويزيّنها في قلبك ويحضر لك أسبابها ولا يخنس عند ذكر الله تعالى، ولذلك قدّمه الله تعالى في الذّكر في هذه الآية فقال: (شَياطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ) وإنّما أخّره في سورة النّاس لأنّ التّرقي هناك من الأدنى إلى الأعلى كما يستفاد من قوله: ﴿بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ﴾ سورة الناس الآيات/ ٣،٢،١ - فإنّ الإله أعلى من الملك والملك أعلى من الربّ كما لا يخفى ذلك، والرّجيم فعيل بمعنى المفعول أي المرجوم، والمرجوم بعمنى المطرود، لقّب به الشّيطان لأنّه طرد من حضرة الرّب ورحمته، وذكره في الإستعاذة للإشارة إلى أنّ كلّ من دعاك إلى شرّ أو إلى خلاف الشرعّ فهو مطرود، ويجب عليك طرده والابتعاد عنه مها كانت منزلته منك وإليك وعليك. فنعوذ بالله من كلّ شيطان رجيم. وتقديم الإستعاذة على التّسمية للدّلالة على وجوب تقديم التّخلي عن الرّذائل على التّحلي بالفضائل، ولذلك قدّم النّفي على الإثبات في كلمة التّوحيد وقدّم الوضوء على الصّلاة.

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مجمل المعنى: أي مستعيناً باسم الله تعالى المنعم على عباده الثّابت إنعامه دائماً وأبداً بهذا العمل.

تفصيل المعنى: كان المشركون يبدأون بأعمالهم باسم آلهتهم فيقولون: باسم اللّات أو باسم العزّى أو غير ذلك من أسماء الأصنام، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة تعليماً للمسلمين أن يبدؤوا بأعمالهم ببسم الله تعالى فيقولوا: (بسم الله الرّحمن الرّحيم) ويقدّر في بسم الله لتعلق الباء به الفعل الّذي يبدأ به، ففي الأكل مثلاً يقدّر آكل وفي الشّرب أشرب وفي القراءة أقرأ وفي السّير أسير وهكذا، ويقدّر ذلك الفعل مؤخّراً ليفيد الحصر، أي باسم الله أبدأ بهذا العمل وحده لا باسم غيره، والإسم بمعنى العلامة فإذا سمّيت شخصاً خالداً فلفظ خالد يكون علامة عليه، به يعرف وبه يمتاز عن غيره، وبهذا المعنى فالموجودات كلّها إسم لله تعالى، إذ هي علامة على وجود الله تعالى، وبها يعرف ويستدلّ على وجود الله تعالى وثبوت صفاته، قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

هذا وإنّ من أقرب الموجودات إلى العبد والدّالة على وجود الله تعالى القدرة الّتي يهبها الله تعالى للعبد فيعمل بها الأعمال وينجز بها الأشغال. فمعنى بسم الله القدرة الّتي يخلقها الله تعالى ويهبها لي أعمل هذا العمل، ولولاها فلا أستطيع أن أعمل أيّ شيء، وفي هذا أمر بالإستمداد للقوّة والقدرة من الله تعالى فقط، فيستفاد من أنّ كلّ من يستمدّ القوّة والقدرة والإمداد المعنوي من غير الله تعالى فقد ضاهى المشركين في عملهم، حيث لا يجوز طلب الإمداد والقوّة المعنوية من غير الله تعالى، فكلّ من بدأ بعمل من الأعمال باسم غير اسم الله تعالى أيّاً كان ذلك الاسم فهو عودة إلى الجاهليّة الأولى والإشراك بالله تعالى، شعر به ذلك الشّخص أو لم يشعر. (الرّحمان الرّحيم) هما صفتان لله تعالى، وهما بمعنى المحسن والمنعم على عباده لأنّهما مشتقّان من الرّحم والرّحم حالة أو حرارة تأتي على القلب تحمل صاحبه على الإحسان والإنعام على الغير، ويعبّر عن هذه الحالة برقّة القلب، وحيث لا يجوز إطلاق هذا المعنى على الله تعالى يجب أن يفسّر بلازمه وثمرته وهي الإحسان والإنعام، وكذا كلّ صفة لا يمكن

إطلاقها بالمعنى الحقيقي على الله تعالى، يفسر باللازم والثّمرة من معناه الأصلي، كالغضب مثلاً فإنّه ثوران في الدّم واضطراب في الأعصاب يحمل صاحبه على إيذاء الغير أو الإنتقام منه لسبب ما، فإذا نسب إلى الله تعالى يفسّر بلازم معناه وهو العقاب والعذاب، فعليك بهذه القاعدة فإنّها مفيدة جداً. وذكر العلماء في الفرق بين الرّحمان والرّحيم وجوهاً شتّى أحسنها والّذي يرتاح له البال أنّ الرّحمان صفة فعل يدل على الكثرة والتّجدد والتّكرار ففي كلّ ثانية ملايين ملايين من إنعامات الله تعالى تنزل على العباد ويتكرّر ويتجدّد ذلك مستمراً إلى الأبد ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٣٤. فهي صفة فعل حادثة تحدث وتتجدّد ولكلّ صفة فعليّة يجب أن تكون صفة ذاتية قائمة بذاته تعالى تكون مصدراً لهذه الصّفة الفعليّة، ولهذه الإحسانات الكثيرة المتكرّرة لا إلى نهاية، فالرّحيم إشارة إلى تلك الصّفة الذّاتية غير المتكرّرة وهي مصدر تلك الإنعامات. فالمعنى: بسم الله الّذي ينعم ويحسن ويتكرّر إحسانه وإنعامه علينا دون عدّ وإحصاء الصّادرة إنعاماته هذه من صفة الإحسان الذّاتي الثّابت القائم بذاته تعالى، والّتي لا تتغيّر ولا تزول أبداً بهذا العمل. وجيء بهما معاً للدّلالة على أنّ إحسانه وإنعامه على العبد بإمداده على عمل غير ذلك من الإنعامات ناشئ عن إحسانه الذّاتي والّذي هو صفة له أي أنّه يحسن وينعم لأنّه محسن لا لحاجة منه إلى الإحسان ولا إلى المحسن عليه ولا لضرورة تلجئه إلى ذلك ولا لإيجاب عليه، بل هو مخيّر في خلقه يعمل ما يشاء ولمن يشاء، ويحسن إلى من يشاء لمجرد الإفضال والإحسان والإنعام لا لأي أمر آخر. كما يظنه الجهلة ويعتقده بعض السّفلة. وخلاصة المعنى: بالقدرة الّتي وهبها الله تعالى ويهبها لي أعمل هذا العمل، وقد أحسن إليّ بأن أقدرني على هذا لأنّه محسن ويحبّ الإحسان، فبه يوفّقني وبقدرته هذه أعمل هذا لا بنفسي، فإنّي لا أقدر شيئاً لولا إقداره لي عليه ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ ـ سورة الصافات الآية/ ٩٦.

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾

مجمل المعنى: يا محمّد تلك الآيات الّتي نوحي إليك هي آيات الكتاب المظهر لأحكام الله تعالى، ولما جرى على الأنبياء وغيرهم من الأمم، والموضّح لغير ذلك من الأمور الكونيّة والأحكام الإعتقاديّة والتّكليفيّة والأخلاق الحسنة والحلال من الحرام والباطل من الحقّ والصّحيح من الفاسد والحسن من القبيح.

تفصيل المعنى: ألف لام را أمثال هذه أسماء لحروف مقطعة من حروف الهجاء جيئ بها في أوائل بعض السّور.

وفيها مسألتان: **الأولى**: هل يجوز تأويلها أم لا ؟ **الثّانية**: ماهي تأويلها ؟

المسألة الأولى: اختلف العلماء في جواز تأويل الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض السّور أي في بيان المعنى الّذي قصد من الإتيان بها وأصبحوا صنفين:

الصّنف الأوّل: قالوا لا يجوز تأويلها لأنّها من الآيات المتشابهات الّتي لا يعلم تأويلها إلّا الله تعالى. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧ ـ فعندهم الوقف على لفظ الجلالة فيفيد: أنّه لا يعلم تأويل المتشابه إلّا الله، فلا يجوز للعبد الخوض فيه سيما وأنّ الله تعالى ذمّ الّذين يتّبعون تأويله ووصفهم بأنّ في قلوبهم الزّيغ والزّيغ هو الميل عن الحقّ، فمن ابتغى تأويل المتشابهات فهو مائل عن الحقّ كما يقولون، وهذا مذهب السّلف، ولكنّ ليس مذهب كلّ السّلف لأنّ كثيراً منهم أولّها وذكر لها معاني كلّ حسب ما ظهر له.

الصّنف الثّاني: وهو مذهب الخلف وكثير من السّلف أنّه يجوز تأويلها ويستدلّون على ذلك بنفس الآية الكريمة بأنّهم يقفون على لفظ العلم في قوله تعالى والرّاسخون في العلم، فالآية تفيد بأنّ الرّاسخين في العلم يعلمون تأويلها أيضاً، وأنّ الله تعالى لم يذمّ الّذين يتّبعون تأويلها مطلقاً بل ذمّ الّذين يتّبعون تأويلها إلى ما يفتنون به النّاس ويبعدونهم عن دينهم فيؤولونها حسب أهوائهم وحسب ما يوافق مذهبهم الفاسد إلى معان لا تتّفق مع الآيات المحكمات الّتي هن أمّ الكتاب، أي أصل الكتاب والمرجع الّذي يجب أن يردّ المتشابهات إلى مدلولاتها ومقتضياتها؛ وبذلك يضلّون ويضلّون أنّاساً عن مقاصد الشّرع وأحكام الإسلام وقواعده وعقائده الثّابتة في المحكمات، وهؤلاء كالفلاسفه الّذين يحملون آيات القرآن على معان بعيدة عن روح الإسلام ويصرفونها عن ظاهرها الواضح المبين كما يفسرون النّار بالغضب في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٦٩ ـ فيقولون: إنّ معناه قلنا لغضب نمرود كن برداً وسلاماً على إبراهيم؛ وذلك لأنّهم يزعمون أنّ قدرة الله تعالى لا تقدّر أن تصرف الحقائق عن مقتضى طبيعتها، فلا يمكن أن تجعل النّار باردة، وكذلك يؤوّلون

كلّ معجزات الأنبياء الّتي خرقن نواميس الطّبيعة إلى ما يوافق مقتضى الطّبيعة، فإنّ الطّبيعة عندهم حاكمة على الله تعالى وليس الله حاكماً على الطّبيعة، فتعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً، وكالباطنيّة الّذين يصرفون الآيات عن ظواهرها ومدلولاتها إلى معان تخالف ما ثبت في محكمات الآيات اللّاتي هنّ أمّ الكتاب، وقصدهم من ذلك نبذ الأحكام الدّينيّة والخروج عن ربقة الدّين، فمثلاً يفسّرون قوله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سورة النساء الآية/٣٦\ - فيقولون: الجار ذي القربى: القلب، والجار الجنب: هو الطّبيعة، والصّاحب بالجنب: هو العقل المقتدي بالشّريعة، وابن السّبيل: هو الجوارح المطيعة لله تعالى، وهكذا يفسّرون الآيات ويحملونها على معان بعيدة عن المعنى الحقيقيّ للألفاظ العربيّة دون قرينة صارفة إليها وحسب أهوائهم.

* * *

قاعدة: إشترط أهل الحقّ في صرف الآيات وحملها على غير ظاهرها أحد الأمور الآتية:

الأوّل: أن يحتمل اللّفظ ذلك المعنى المصروف إليه حقيقة أو مجازاً.

الثّاني: أن تكون قرينة تصرف اللّفظ عن معناه الظّاهر إلى غيره المراد، وتمنع عن إرادة ظاهره، أو تومىء إلى إرادة المعنين معاً كإلتزام بينهما.

الثّالث: أن يكون له شاهد يشهد على صحّته في الكتاب أو السّنة نصّاً أو إلتزاماً.

الرّابع: أن يبيّن المعنى الظّاهر ويؤخذ به، ثمّ يستنبط منه معنى آخر غير الظّاهر، ويقال أمّا ظاهره فهكذا ونأخذ به، وأمّا باطنه فهكذا، ويذكر معنى لطيفاً ينسجم مع لفظ الآية ومقتضى قواعد الدّين، وما ثبت من الآيات المحكمات الّتي هنّ أمّ الكتاب، والمرجع للمتشابه منه، وبدون أحد هذه الشّروط فهو صرف للقرآن عن إفادة الأحكام، وينجرّ أخيراً إلى هدم الإسلام وقواعده وأحكامه، ولذا جاء في رسالة اللّطف الخفّي منظومة متن العقائد للإمام النّسفي[1]:

إنّ النّصوص للظّواهر تردّ ... كفر وإلحاد إذاً تبغي تردّ

إلى معان يدّعيها الباطنون ... فإنّهم عن الصّراط حائدون

(١) هذا الكتاب للشيخ المفسر نفسه رحمه الله تعالى نظم فيه العقائد النسفية ثم شرحها ثانية وسماها بـ(القول الوفي شرح اللّطف الخفي) وسمّاه بعض العلماء بالعقائد الباليسانية.

فكلّ معنى باطني أو فلسفي أو إشاري يراد منه نبذ الظّاهر بدون داع ودليل على ذلك فهو كفر وإلحاد، وإن إريد منه إظهار دقيقة أو لطيفة يشار إليها من ظاهر الآية بعد الأخذ بظاهرها والإلتزام بما فيها من الأحكام والعقائد فلا مانع منه، ولكن يجب أن يُسدّ هذا الباب أيضاً لئلا ينجرّ إلى الخروج عن الصّواب إلّا ما التزمه المعنى الظّاهر كدلالة الإقتضاء، والمفهوم المخالف، وفحوى الخطاب، وغير ذلك من دلالات القرآن الّتي احتجّ بها علماء الأصول، وجعلوها حجّة في الأحكام.

* * *

توضيح: سلك النّاس في تفسير القرآن الكريم مذاهب شتّى، فمنهم من يحمل آيات القرآن كلّها على ظاهرها، ولايؤوِّل شيئاً منها، ويفسّرها تفسيراً حرفيّاً، وهذا مذهب بعض أهل الظّاهر، ووقع بعضهم بذلك في تجسيم الله تعالى وسمّوا بالمجسّمة .ومنهم من يصرف القرآن كلّه عن ظاهره ويقول: إنّ المراد من القرآن ليس ظاهره بل معان لا يفهمها إلّا خواصّ النّاس، وهم الباطنيّة، ومنهم من يؤوِّل كلّ آية تصطدم مع قواعد مذهبه إلى ما يلائم مذهبه وينسجم معه، وهم الفلاسفة والمتعصّبون في المذاهب. ومنهم من يأخذ بظاهر الآيات في أخذ الأحكام ويستخرج منها رموزاً وإشارات إلى معان لطيفة لا تخالف أصل الدّين، ولا تصطدم مع قواعد وأحكام الإسلام، وهم أهل التّصوف والإشارات .ومنهم من يفسّر القرآن كما يقتضيه ظاهر اللّفظ العربي ولا يصرفه عن الظّاهر إلّا لداع إلى ذلك من دليل النّقل أو دليل العقل، وهذا مذهب أهل السّنة والجماعة، ومشى على ذلك الأصحاب والتّابعون. وهذا هو الحقّ والواجب اتّباعه؛ فإنّ القرآن نزل هداية للنّاس كلّهم، فلا يعقل أن يراد به ما يخفى إلّا على خواصّ من النّاس كما يدّعيه الباطنيّون. وليس من المعقول أيضاً أن لا يكون من هذا الكتاب البليغ ما يراد منه غير ظاهره من المجاز أو الكناية أو الإستعارة، وغير ذلك مما يورث الكلام رونقاً وجمالاً كما يقول الظّاهريون، وقد نزل ليكون قيّماً ومهيمناً على الكتب والمذاهب، فيوزن به غيره، فما وافقه فهو حقّ يؤخذ به، وما لا فيترك ولا يعتبر به، ولم يأت[1] لأن يكون تابعاً للنّاس ويكون مذهب النّاس مهيمناً عليه، قال الرّسول (ﷺ): (لا يؤمن احدكم حتّى يكون هواه تابعاً لما جئت به)[2].

---

(١) أي القرآن.

(٢) شرح السنة للبغوي ١/ ٢١٣ الحديث رقم ١٠٤. قال النووي حديث صحيح./ مشكاة المصابيح ١/ ٦٩.

فلا يمكن أن يهيمن على القرآن غيره، ويؤوِّل القرآن إذا اصطدم معه كما يفعله المتفلسفون والمتمذهبون، فالحاصل أنّ تأويل المتشابهات إلى معان لا تخالف قواعد الدّين ولا تصطدم مع عقيدة أو حكم مجمع عليه بين المسلمين، وتتلاءم ومقتضى الآيات المحكمات اللاّتي هنّ أمّ الكتاب اللاّتي يجب أن يردّ إليها المتشابهات؛ فلا مانع من هذا النوع من التأويل سيما وأنّ الله تعالى حثّ المسلمين على مراجعة أهل العلم فيما أشكل عليهم، وذمّهم على ترك ذلك، ومدح أهل العلم بإستنباطهم الأمور من موارد ومعين الكتاب والسّنة؛ فقال وعزّ من قائل: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ سورة النساء الآية/٦٣ ـ وأولو الأمر أهل العلم، فإنّه لا يجوز أن يولّى الأمر إلاّ من كان عالماً بالشرع ومتفقّهاً في الدّين وفاهماً للقرآن الكريم وسنّة سيّدنا محمّد (ﷺ) سيّد المرسلين. وهذا حكم الإسلام وفّقنا الله تعالى وهدانا إليه، وهو على كلّ شيء قدير.

* * *

خاتمة: إنّ لكلّ الصّنفين أي السّلف والخلف عذرهم المقبول ووجهتهم الحسنة فيما ذهب إليه من عدم التّعرض لتأويل المتشابهات من التّصدي والخوض في تأويلها. فإنّ السّلف الصّالحين (رضي الله عنهم)عاشوا في أمّة ثابتة على دينها، راسخة في عقيدتها، ولهم قلوب صافية وخالية عن الشّكوك والأوهام، لم يخوضوا في التوغّل في الأمور، مستسلمين لأمر العلماء دون تلكّؤ منهم وتوقّف وتردّد، فلم يكن السّلف بحاجة إلى الخوض فيما خفي معناه من القرآن الكريم، سيما ولم يتعلق بتلك الآيات حكم من أحكام العباد ولا حاجة من حوائج النّاس، فلم يتصدّوا لتأويل هذه المتشابهات وفوّضوا علمها إلى الله تعالى، مخافة أن يقعوا في خلاف ما أراد الله تعالى من كلامه العزيز، ولم يلجئهم إلى ذلك داع، فمذهب السّلف أسلم، وأمّا الخلف الصّالحون، فقد عاشوا في وقت دخلت الفلسفة بين المسلمين، وانتشرت العقائد الفاسدة بين المؤمنين، وكثر المفسدون في الدّين والمنحرفون عن المنهج المستقيم، فكانوا يثيرون الجدال في المتشابهات ويتمسّكون بها في ترويج أباطيلهم وأضاليلهم، ويؤوّلون المتشابهات حسبما يريدون من الأهواء، فبذلك يفتنون النّاس عن الدّين فأضلّوا كثيراً من بسطاء المؤمنين، فما كان يمكن للخلف أن يقولوا إنّ هذا ممّا استأثره الله تعالى بعلمه، كيف وأنّه كتاب جاء ليخاطب النّاس كافّة لا لمجرّد التّعبد بتلاوته، فكيف يكون الخطاب بما لا يفهم،

ولا يمكنهم القول بأنّ لكلّ ملك شفرات مع خواصه لا يعلمها إلّا الخواصّ، فليكن هذا رموزاً وشفرات بين الله تعالى ورسوله، فإنّه كتاب خالد وعامّ نزل على الرّسول لا له فقط، بل ليبلّغه النّاس ويبقى هذا التّبليغ من جيل إلى جيل إلى أن يحكم الله تعالى على الحياة في الأرض، ويأتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتي الله بقلب سليم؛ فلا يمكن أن يبقى ما فيه غامضاً مدى الدّهور سيّما وأنّ أناساً مفسدين قاموا بتأويلها حسب أهوائهم السّقيمة ويروّجون بها مذهبهم غير المستقيم دون الرّجوع إلى المقتضى العام المفهوم من الآيات المحكمات الّتي هنّ أمّ الكتاب. فاضطرّ الخلق لأنّ يتصدّوا إلى تأويل هذه الآيات وحملها على معان لا تخالف قواعد الدّين، ولا تهدم عقيدة من عقائد المؤمنين، ولا تبطل حكماً مجمعاً عليه بين المسلمين، وبحيث تتلاءم مع المقتضى العام المفهوم من الآيات المحكمات، توقيفاً لحركة العابثين بالقرآن الكريم وإراحة لقلوب المؤمنين الحائرين، فمذهب الخلق أحزم، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٤٨ ـ

المسألة الثّانية: في تأويلها: ذهب المجوّزون لتأويل الآيات المتشابهات في تأويل هذه الآيات المشتملة على الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض السّور إلى مشارب شتّى، بعد الإتفاق من الكلّ على أنّها أسماء لحروف مقطعة من حروف الهجاء، والاختلاف ليس في معناها الموضوع له تلك الحروف، بل في المعنى المقصود من الإتيان بها في أوائل تلك السّور:

فمنهم من قال: إنّها أسماء للسّور المفتتحة بها أي هذه سورة (ألر) أو سورة (ألم) إلى غير ذلك، ولا مانع من أن يكون للسّورة أكثر من إسم واحد، وقيل: إنّها أسماء لله تعالى، أقسم الله تعالى بها لتأكيد صحّة وصدق ما يأتي بعدها، وقيل: أسماء للقرآن جيئ بها للقسم على صدق ما بعدها من الخبر. ويبعد هذه الوجوه الثّلاثة أنّ أسماء الله تعالى وأسماء القرآن وأسماء السّور توقيفيّة، يتوقف إطلاقها على سماع من الشّارع، ولم يسمع من الرّسول (ﷺ) أنّه سمّى الله تعالى أو القرآن أو هذه السّور بهذه الأحرف، وأمّا ما ورد في الصّحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) (قرأ في صلاة الصّبح: بـ حم السّجدة)، وهل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً)[1]

(١) سنن النسائي الكبرى ١/ ٣٣١.

فليس هذا تسمية لهاتين السّورتين بهذين الإسمين لأنّه يقال قرأت تبارك الملك، وإذا وقعت الواقعة، وويل للمطفّفين إلى غير ذلك، وهذه ليست أسماءً لهذه السّور، ولو سلّم أنّه كان تسمية فهو تسمية من أبي هريرة (ﷺ) لا من الرّسول (ﷺ)، وقيل إنّها إختصار لأسماء، فكلّ حرف يشير إلى إسم ففي(ألم) مثلاً يقولون: الألف أنا واللّام الله والميم أعلم، ألم أي أنا الله أعلم وهكذا. وهذا أبعد من السّوابق لأنّ الإختصار لابد منه من أنّه تكون معه قرينة على تعيين المختصر منه، مثل قول الشّاعر:

بالخير خيرات وإن شرّاً فا ولا أريد الشّر إلّا أن تا

فكلمة إنّ شراً تدلّ على أنّ المعنى فشرّاً، وكلمة ولا أريد الشرّ تدلّ على أنّ المعنى إلّا أن تريد، وإن لم تكن قرينة وجوّز الإختصار بدونها، فيذهب المرء كلّ مذهب لتقدير المختصر حتّى يكون هناك مجال للمشرك أن يقول: الألف أنا واللّات والميم أعلم فيكون: أن اللّات أعلم، وهذا باطل. فالإختصار بدون قرينة باطل وقيل: إنّها للتّنبيه أي لتنبيه الرّسول (ﷺ) إلى استماع ما يوحي إليه، وهذا وإن كان معقولاً إلّا أنّه بعيد لأنّ الموضوع للتّنبيه يكون إمّا حسب اللّغة أو حسب الإصطلاح بين المتخاطبين، وعلى التّقديرين يجب أن يكون شيئاً معيّناً مثل: ألا، وهلّا، الموضوعين للتّنبيه لغة أو مثل: هلو الموضوع للتّنبيه حسب إصطلاح المتكلّمين بالهاتف، ولا يكون مثل هذه الحروف تأتي في كلّ سورة بنوع يخالف ما في الأخرى إلّا نادراً. وقيل: إنّها للفصل بين السّور. وهذا ضعيف أيضاً، لأنّه لو كان كذلك للزم أن يؤتي بها أوّل كلّ سورة، على أنّ الفصل حاصل بالبسملة فلا حاجة إلى تلك الحروف للفصل. وقيل أوتي بها لأنّ الإفتتاح بها أمر عجيب فيجلب آذان السّامعين إلى استماع ما بعدها ليقع في قلوبهم موقعه، وضعف هذا أيضاً بأنّه لو كان كذا لجيئ بها في أوّل كلّ سورة لا في بعضها فقط. فالّذي يرتاح له البال هو ما قالوا: أنّها حروف مقطّعة جيئ بها للدّلالة على أنّ ما أنزل على محمّد (ﷺ) وحي من الله تعالى، فكأنّه قال تعالى: إنّ هذا المنزّل على محمّد مؤلّف من نفس الحروف الّتي تؤلّفون أنتم منها خطبكم وأشعاركم، وليس من حروف غريبة أو أجنبيّة، فإذا لم يكن من الله تعالى فلماذا عجزتم عن الإتيان بأقصر سورة من مثله من نفس الحروف وأنتم بلغاء العرب وفصحاؤها وشعراؤها وخطباؤها، فليس ذلك إلّا لأنّه من الله تعالى ولا قدرة للبشر على صوغ الكلام مثل صياغة الله تعالى بلاغةً ورونقاً وجمالاً، هذا أو كأنّه قال تعالى: إنّ محمّداً أمّي والأمّي

يعرف التّلفظ بالحروف ولكن معرفة أسماء الحروف مختصّة بالقرّاء والكتّاب والدّارسين، فحينما يتكلّم محمّد بأسماء هذه الحروف دون وجود أي ممارسة منه للكتابة والقراءة والدّراسة؛ فهو دليل واضح على أنّ ذلك من الله تعالى. ويجوز أن يراد المعنيان معا، فإنّه لا منافاة بينهما. فإن قيل: يضعف هذا أيضاً أنّه لو كان كذا، فلابد من أن يؤتى بها في أوّل كلّ سورة، قلنا: ليس الأمر كذلك بل يقتضي أن يؤتى بها في أوائل السّور اللّاتي يأتي في أوائلها خبر عن القرآن الكريم، أو عن ما يوحى إلى الرّسول (ﷺ)، وعليك بتتّبع تلك السّور المفتتحة بتلك الحروف ليظهر لك أنّ هذه الحروف ما جاءت إلّا ويذكر بعدها مباشرة خبر عن القرآن الكريم، أو تنويه بشأنه، أو خبر عن ما يوحى إلى الرّسول (ﷺ) إلّا نادرا والله أعلم بالصّواب.

* * *

(تلك) إسم إشارة أصله تي وضع للإشارة به إلى المفرد المؤنّث القريب، ثم ألحق به كاف الخطاب فصار تيك، ثمّ اتّصل به اللّام ليشار به للبعيد، فصارت تيلك، فوقع التقاء بين السّاكنين أحدهما الياء والآخر اللّام فحذف الياء فبقي تلك، فهي للإشارة إلى المفرد المؤنّث البعيد المحسوس، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ سورة مريم الآية/ ٦٣ ـ والجنّة وإن لم تكن محسوسة إلّا أنّها بعد ذكر أوصافها السّابقة على الآية أصبحت كالمحسوسة. ويشار بها أيضاً إلى الجمع؛ لأنّ الجمع باعتبار كونه جماعة، فهو مفرد مؤنث سواء كان جمعاً للمؤنث، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٢ ـ أو جمعاً للمذكر كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٣ ـ والآيات والرّسل في الآيتين وإن كانتا غير محسوستين إلّا أنّهما حيث سبق ذكرهما قبلُ أصبحتا كالمحسوس في العلم، فأشير إليهما بما يشار به إلى المحسوس، وقس على ذلك كلّ مالم يكن محسوساً، وأشير إليه بما وضع للمحسوس في أنّه أصبح كالمحسوس لما ذكر من وصفه وأحواله سابقاً، وكذلك يشار بها إلى معنى أو معانٍ؛ لأنّ المعنى من حيث كونه غير محسوس يعتبر بعيداً كما في قوله تعالى المارّ آنفاً (تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عليك.... إلخ) وكما هنا فإنّه أشير بها إلى الآيات الّتي توحى إلى الرّسول (ﷺ) في هذه السّورة وفي غيرها من القرآن الكريم والمعنى: **(تلك)** أي الآيات الّتي توحى إليك في هذه السّورة وفي غيرها من القرآن الكريم هي: **(آيات الكتاب)** والآيات جمع آية، والآية جاءت في القرآن الكريم بمعنى العلامة، كقوله تعالى: حكاية

عن سيّدنا زكريا (عليه السلام) حينما بشّر بولد ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ سورة مريم الآية/ ١٠ ـ أي اجعل لي علامة على هبتك لي ولداً ليطمئنّ قلبي ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سورة مريم الآية/ ١٠ ـ أي علامتك أن لا تكلّم النّاس ...إلخ، وجاءت بمعنى المعجزة والأمر الخارق للعادة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ١١٨ ـ أي لولا يأتينا أمر خارق للمادة. كعصا موسى أو ناقة صالح مثلاً، يصدّقك يا محمّد في دعواك للرسالة والنّبوّة من الله تعالى. وجاءت بمعنى الحكم كقوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ سورة البقرة الآية/ ١٠٦ ـ أي ما ننسخ من حكم أو ننسه نأت بحكم آخر خير منه أو مثله في الحكمة والمصلحة، وجاءت بمعنى الدّليل والبرهان كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ سورة ياسين الآية ـ ٣٣ ـ أي ودليل واضح وبرهان ساطع على وجود الله تعالى وقدرته ووحدته، وعلى إمكان الإحياء بعد الموت أنّ الأرض اليابسة في الشّتاء والّتي لا تنبت شيئاً إذا جاء الرّبيع أحييناها وحرّكنا قواها الإنباتيّة فأنبتناها وأخرجنا منها حبّاً جنس الحبوب الّتي يقتات منها النّاس (فمنه يأكلون) وبه يعيشون. وجاءت إسماً لجملة من كلام الله تعالى مفصولة عن سبقتها ولاحقتها بفصل، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧ ـ أي إنّ الله تعالى هو الّذي أنزل عليك يا محمّد القرآن، بعض منه آيات محكمات أي ظاهرة الدلالة على المعنى. هن أم الكتاب أي هن أصل القرآن يجب أن يرجع إليها وإلى مقتضاها ما خفي من معاني آياتها الأخرى، وبعض منها آيات متشابهات أي خفيّة الدّلالة على معناها. هذا فالمراد بالآيات هنا هي فقرات وجمل من كلام الله تعالى، والمعنى تلك أي هذه الجمل الّتي توحى إليك في هذه السّورة: **(آيات الكتاب المبين)** والمراد بالكتاب عند المفسرين هو القرآن الكريم فيصير المعنى أنّ ما يوحى إليك هي آيات القرآن المبين، ولا يخفى أنّه ليس في هذا الكلام فائدة يرتاح لها البال، لأنّ ما يوحى إلى الرّسول هو بالطّبع آيات القرآن الكريم، فيؤوّل المعنى إلى أن يقال: آيات القرآن المبين. فالّذي يرتاح له البال أنّ المراد بالكتاب المبين هو اللّوح المحفوظ، ويكون المعنى: تلك أي هذه الآيات الّتي توحى إليك في هذه السّورة وفي غيرها هي آيات اللّوح المحفوظ و**(المبين)** مشتقّ من أبان بمعنى أظهر وأوضح؛ فالمعنى الكتاب الموضّح والمظهر للحقّ من الباطل، والصّحيح من الفاسد، والخير من الشّر، والحلال

من الحرام، ولأحكام الله تعالى الإعتقاديّة منها والشّرعية، والأمور الأخلاقية الحسنة منها والقبيحة، ممّا يقوم به الفرد والأمّة، وممّا يتعلّق بجميع نواحي الحياة للفرد والمجتمع جميعاً. فالكتاب المبين سواء كان المراد منه اللّوح المحفوظ أو القرآن فهو موضّح لذلك كلّه وحاصل المعنى: تلك، أي هذه الجمل الّتي توحى إليك يا محمّد هي آيات اللّوح المحفوظ، أو آيات القرآن، وإنّه موضّح الأمور المذكورة كلّها. ويؤيّد القول بأنّ المراد بالكتاب هو اللّوح المحفوظ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ سورة الواقعة الآيتان/ ٧٧، ٧٨ ـ هذا وقد جاء مبين من أبان بمعنى بان، وظهر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٠٧ ـ أي فإذا هي حيّة عظيمة واضحة وظاهرة للعيان. ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة يونس الآية/ ٧٦ ـ أي لسحر واضح لا خفاء في أنّه سحر، فحيث صلح الأوّل ففسّره به، وإلّا ففسّره بالثّاني، ويعرف ذلك حسب ما يوصف به وحسب المقام.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾

مجمل المعنى: إنّا أنزلنا القرآن بلغتكم أيّها العرب لكي تفهموا معانيه وتتفكّروا فيها وتعملوا حسب ما يرشدكم إليه هذا القرآن.

تفصيل المعنى: قال تعالى: **(إنّا أنزلناه)** ولم يقل إنّي أنزلته تعظيماً لشأنه جلّ وعلا، إذ العظيم يعبّر عنه بصيغة الجمع، ألا ترى أنّك حينما تراسل أحداً تكتب له أرجو أن تعملوا كذا، وأنّ الأمراء حينما يصدرون أوامرهم يقولون: قرّرنا كذا وكذا. وهذا الأسلوب شائع في تعابير العرب، وكذا في اللّغات الأخرى غير العربيّة، ولا يخفى على من تتبّع الأدب وآداب الإنشاء. ولي هنا ملاحظة أخرى لطيفة جدّاً وهي: أنّ الله تعالى حينما يذكر في القرآن الكريم شيئاً خاصّاً بذاته تعالى، ولا يليق بغيره أو شيئاً ينفرد هو بخلقه دون توسيطه للأسباب، فإنّه يضيف ذلك إلى نفسه وينسبه إلى إسمه الظّاهر أو إلى ضمير المتكلّم وحده من الياء أو التاء أو أنا أو هو العائد إلى ذاته تعالى كقوله تعالى لموسى (ﷺ): ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ سورة طه الآية/ ١٣، ١٤ ـ وقوله أيضاً: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ سورة طه الآية/ ٣٩ ـ وقال له أيضاً: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ سورة طه الآية/ ٤٦ ـ وغير ذلك من الآيات الّتي يخبر الله تعالى

فيها عن أمور تختصّ بذاته تعالى كإختياره لموسى للرّسالة وكونه إلهاً، وكالعبادة له وإقامة الصّلاة لذكره، أو أمور ينفرد هو بخلقها دون توسيط الأسباب، كإلقاء المحبّة على موسى (عليه السلام) ورعايته المعنويّة له. وأمّا ما يخلقه الله تعالى بتوسيط الأسباب في خلقه فيضيفه تارة إلى نفسه تعالى مباشرة فيضيفه إلى ما وضع للمتكلّم وحده، إشارة إلى أنّ الأسباب كالعدم، فإنّ التّأثير والإيجاد لله تعالى وحده، وأنّ الأسباب أيضاً من خلقه وتقديره تعالى، ويضيف بعض الأعيان إلى السّبب فقط مجازاً تكريماً للسّبب كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ـ سورة الجمعة الآية/ ٢ ـ بإضافة التّزكية للرّسول فقط تكريماً له أو إهانةً للسّبب مثل: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ سورة يوسف الآية/ ٤٢ ـ ومثل: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَما هَدى﴾ سورة طه الآية/ ٧٩ وأمثال ذلك كثير، وفي بعض الأحيان يضيفه إلى ما وضع للمتكلّم مع الغير فيعبّر عنه بنحن أو إنّنا أو إنَّا مثلاً، إشارة إلى توسيطه للأسباب في خلقه لذلك. فمثلاً يقول في سورة إقرأ (العلق): ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ سورة العلق الآيتان/ ٢،١ ـ أضاف خلق الإنسان إلى ضمير نفسه فقط. وقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ سورة الحج الآية/ ٥ ـ بالاضافة الى ضمير الجمع وكذلك يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ سورة الدهرالآية/ ٢ ـ ويقول تعالى فيما يتعلّق بالمطر: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ سورة الحج الآية/ ٥ ـ بالإضافة إلى نون الجماعة. ويقول: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٢ ـ بالإضافة إلى ذاته المفرد وحده، وهكذا فمن تفكّر في آيات القرآن الكريم يرى ذلك الأسلوب واضحاً من نسبة الأشياء إلى ضمير راجع إلى نفسه فقط في بعض الآيات، ونسبتها إلى ضمير الجمع في آيات أخرى، إشارة منه إلى توسيط الأسباب وتقديراً للأسباب أيضاً ونسبتها للسّبب فقط، ولكنّه لا يجوز للعبد أن ينسب الأمور والأشياء إلّا إلى الله تعالى مباشرة، سواء ممّا دخل في خلقه الأسباب أو لا، وذلك تأدّباً مع الله تعالى، ولئلّا يتصوّر أحد أنّ للأسباب دخلاً في الخلق والتّأثير، أو أنّ الأسباب كافية في الإيجاد، أو أنّ الله تعالى ليس له قدرة على خلق الشّيء بدون الأسباب، فإنّ كلاً من هذه التّصورات شرك بالله تعالى أو كفر به. هذا واسمع قول سيّدنا ابراهيم (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي

ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ سورة الصّافات الآية/ ٩٩ ـ ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ سورة الشّعراء الآيتان/ ٧٩،٨٠ ـ وقول الرّجل المؤمن لصاحبه في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٣٧ ـ فالأسباب في عقيدة الإسلام ليست إلّا طرق لجريان المسبّبات فيها، وذلك بجعل الله تعالى لا بذواتها، فإنّ الله يستطيع أن يبدّل الأسباب إلى نوع آخر، أو أن يخلق بدون سبب، فلذلك يرى المسلم أنّ الأسباب كالعدم في الحقيقة، وحينما يأمر الإسلام بالأخذ بالأسباب، فإنّما ذلك لأمر الله تعالى بها فقط دون الإعتماد عليها، بل الإعتماد والتّوكّل ليس إلّا على الله تعالى وحده. هذا وإنّ الآية الّتي نحن نفسّرها نسب الله الإنزال للقرآن فيها إلى ضمير الجمع لأنّه تعالى جعل جبريل (عليه السلام) وسيطاً في الإنزال، حيث أمره الله تعالى أن ينزل القرآن على محمّد (صلى الله عليه وسلم) ولذلك قال: (إنّا أنزلناه) دون إنّي أنزلته مثلاً.

تنبيه: يجوز للعبد أن ينسب الأمور إلى غير الله تعالى بشرط نصب قرينة دالّة على إرادة المجاز حاليّة كالعلم بكونه موحّداً أو مقاليّة كقول أبي النّجم:

قد أصبحت أمّ الخيار تدّعي ... عليَ ذنباً كلّه لم أصنع

من أن رأت رأسي كرأس الأصلع ... ميّز عنه قنزعاً عن قنزع

جذب اللّيالي أبطئي أو أسرعي

نسب إحداث الشّيب وإفناء الشّعر في رأسه إلى جذب اللّيالي وهو الزّمان، ولم يُنكر عليه لأنّه نصب قرينة مقاليّة على إرادته المجاز حيث قال بعد ذلك:

أفناه قيل الله للشّمس اطلعي ... حتّى إذا واراك أفق فارجعي

ولكنّه أنكر على الصّلتان العبدي قوله:

أشاب الصّغير وأفنى الكبير ... كرّ الغداة ومرّ العشيّ

حيث أسند إحداث الشّيب في الصّغير وإفناء الكبير إلى كرّ الغداة ومرّ العشيّ وهو الزّمان، ولم يعلم منه قرينة تدلّ على إرادته المجاز لا حالاً ولا مآلاً، وكذلك ينسب بعض الأمور إلى غير الله تعالى بمعنى إنصاف المنسوب إليه بذلك وكسبه له، لا بمعنى خلقه له وإيجاده، حيث لا موجد إلّا الله تعالى، إنتهى.

والضّمير في: (**إنّا أنزلناه**) يحتمل أن يعود إلى تلك وجعل مذكّراً لأنّ تلك عبارة

عمّا يوحى أي أنزلنا ما يوحى **(قرآناً عربيّاً)** .ويحتمل أن يعود إلى مبهم يفسّره قوله: قرآناً عربيّاً، أي إنّا أنزلنا شيئاً هو قرآن عربيّ، وهذا الأسلوب كثير في كلام العرب، يقال: ربّه رجلاً، ونعم رجلاً زيد، وأكرمته خالداً وغير ذلك. والمعنى: إنّا أنزلنا إليكم شيئاً هو قرآن عربيّ مصوغ بلغتكم يا أهل مكّة (لعلّكم تعقلون) كلمة لعلّ أينما وجدت في القرآن الكريم إن كانت من كلام الله تعالى فهي بمعنى لكي لا الترجي؛ لأنّ التّرجّي والتّمنّي على الله تعالى محالان لأنّ الله على كلّ شيء قدير، فلا يحتاج إلى ترجٍّ ولا إلى تمنٍّ لأيّ شيء من الأشياء وإن كانت حكاية من الله تعالى لكلام الغير، فأحياناً تكون للتّرجّي كقوله تعالى في هذه السّورة حكاية عن سيّدنا يوسف (ﷺ): (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) أي أترجى أن يعرفوا البضاعة المردودة إليهم وأترجّى أن يرجعوا إلينا بعد ذلك مرّة أخرى طمعاً في زيادة الإحسان والتّكريم، وأحياناً تكون بمعنى لكي أيضاً، كقوله تعالى حكاية لقول السّاقي في هذه السّورة: (لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ) والمعنى لكي أرجع بفتواك يا يوسف إلى النّاس لكي يعلموا تعبير رؤيا الملك بفتواك أو يعلموا فضلك حين ما سمعوا فتواك. فهي هنا حيث هي من كلام الله تعالى بمعنى: لكي، أي أنزلنا قرآناً عربيّاً لكي تعقلوا معانيه وتفهموا تعاليمه وإرشاداته، فتعملوا حسبما يرشدكم إليه. وقال: لعلّكم تعقلون دون لعلك تعقل، وإن كان القرآن منزّلاً على رسول الله (ﷺ)، لأنّ القرآن منزّل على الأمّة كافّة بدليل قوله تعالى خطاباً للمسلمين: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٣٦ ـ ولكنّ أنزل على الرّسول أوّلاً ليكون واسطة في التّبليغ، ولذلك خاطب الجميع فقال: لعلّكم تعقلون معانيه وتفهمون ما فيه؛ فإنّه لو أنزل بلغة أخرى لما فهمتم معناه ولما آمنتم به كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ سورة فصلت الآية/ ٤٤ ـ فالخطابات الواردة في القرآن الكريم وإن كانت للمفرد، فهي عامّة وخطاب للأمّة كلّهم إلّا فيما يختصّ برسول الله (ﷺ) مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سورة ياسين الآية/ ٣ ـ وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سورة القلم الآية/ ٣ ـ وغير ذلك ممّا يختصّ برسول الله (ﷺ) ولا يصلح لغيره من الأمّة وذلك يعرف حسب المقام والكلام، فحيثما يصلح للجميع فهو للجيمع، وإن كان مفرداً مثل ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ سورة فصلت الآية/ ٣٤ ـ فإنّ هذا

الخطاب للجميع، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ـ سورة فصلت الآية/ ٣٤ ـ . وما يصلح للرّسول فقط فهو له فقط مثل ما مرّ، وما لا يصلح للرّسول فهو للأمّة وأفرادها مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة الزمر الآية/ ٦٥ ـ فإنّ الرّسول لا يتصوّر منه الإشراك، فالخطاب لغيره إلّا أنّه خوطب هو تعريضاً بالغير فقط، ومثل قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٨ ـ فإنّ الرّسول (ﷺ) لا يتصوّر أن يرعب لو رأى أصحاب الكهف؛ فإنّه رأى أدهش من ذلك ولم يرعب، كما قال تعالى فيه: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ سورة النجم الآية/ ١٧ ـ . هذا والله تعالى أعلم.

* * *

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ③﴾

مجمل المعنى: نحن نقصّ ونبيّن ونعرض عليك يا محمّد أخبار الأمم السّابقة أحسن البيان والعرض وذلك بإيحائنا إليك هذا القرآن، وقد كنت من قبل إيحاء هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه الأخبار كلّها.

تفصيل المعنى: جعل بعض المفسّرين القصص مصدراً بمعنى المفعول، وجعل أحسن القصص مفعولاً به لنقص، فالمعنى: نحن نقصّ عليك أحسن الأنباء والقصص، بكسر القاف، من حيث الأسلوب والعرض والبيان وما يؤخذ منه من العبر والعظات، وهو قصّة سيّدنا يوسف (عليه السلام) ، ولكنّ الحكم على قصّة لسيّدنا يوسف (عليه السلام) بأنّها أحسن من كلّ القصص الواردة في القرآن، لم يقم عليه دليل لأنّ قصص القرآن كلّها في منتهى الحسن من حيث الصياغة والأسلوب والعبر والعظات، وجعل بعضهم القصص مصدراً مؤكّداً لنقصّ بمعنى: البيان والعرض، فيكون مفعولاً مطلقاً لنقصّ والمفعول به محذوف هو قصّة يوسف، فيكون المعنى: نحن نعرض عليك قصّة يوسف أحسن العرض والبيان، وهذا كما لا يخفى لا يتلاءم إلّا مع رواية أنّ سبب نزول هذه السّورة هو السّؤال عن سيّدنا يوسف (عليه السلام) وما جرى عليه، لأنّه على الرّوايات الأخرى يبقى حذف المفعول بدون قرينة، والحذف بدون القرينة لا يجوز. فالّذي يرتاح له البال هو: أنّ أحسن القصص مفعول مطلق والمفعول به محذوف، وهو أمر عامّ يفهم من

كلمة نقصّ، وهو أخبار الأمم السّابقة والأنبياء السّابقين، فالتّقدير نحن نقصّ أي نبيّن ونعرض عليك أخبار الأمم والأنبياء السّابقين أحسن البيان والعرض من حيث الأسلوب والعرض والموافقة للواقع والحقيقة، فيفيد أنّ القصص الواردة في القرآن كلّها أحسن بياناً وعرضاً ممّا ورد في غير القرآن، ككتب التّواريخ وما كتبه أهل الكتاب أو وجدوه في التّوراة وغيرها من الكتب السّماوية، فإنّ بيان القرآن أحسن منها وإن كانت غير محرّفة، لأنّ أسلوب القرآن معجز وغيرها من الكتب لا يوجد فيه إعجاز. وتعدّى نقصّ بعلى لأنّه بمعنى: العرض، وهو يتعدّى بعلى (بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذا الْقُرْآن)، الباء في بما أوحينا متعلّق بنقصّ، وما مصدريّة، والمعنى نعرض عليك هذه الأنباء بإيحائنا إليك هذا القرآن، وفي هذا دلالة على أنّ مصدر علم الرّسول (ﷺ) بهذه الأخبار هو الوحي ليس غيره؛ لأنّه كان أميّاً غافلاً عن هذه الأخبار كلّها. كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِين﴾ أينما وجدت كلمة إنّ يليها اللّام فهي المخففة من الثّقيلة وإسمها ضمير الشّأن المقدّر تقديره: إنّه، ويدلّ على تحقيق مضمون ما بعده من الجمل، فيكون بمعنى قد إن وليها الفعل. وتفترق عن إن الشّرطيّة الّتي تجاب باللّام من أنّ الشّرطيّة تقترن بلام القسم غالباً، وتجب لمضارع المؤكّد بالنّون الثّقيلة مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة يس الآية/ ١٨ ـ أو بالنّون ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٣٢ ـ فالمعنى وقد كنت من قبل إيحاء القرآن لمن الغافلين عن هذه الأنباء والأخبار، لأنّك كنت أميّاً لم تقرأ الكتب السّماويّة والتّاريخيّة ولم تصل إليك هذه الأخبار عن طريق آخر. فإخبارك يا محمّد عن هذه الأمور موافقاً للكتب الصّحيحة السّماوية مع كونك أميّاً دليل واضح على أنّ ذلك صادر عن الوحي، فهو معجزة دالّة على صدقك دعوى الرّسالة والنّبوّة فما أصدق البويصري (رحمة الله عليه تعالى وإيانا) إذ يقول

كفاك بالعلم في الأمّي معجزة   في الجاهليّة والتّأديب في اليتم

الحكم: يستفاد من هذه الآية الكريمة أنّه من الأمور المشروعة والمستحسنة رواية الأخبار الماضية والأمم السّابقة وما جرى عليهم بعد التّأكد من صحّتها مع بيان العبر والعظات منها. لكي يعتبر ويتّعظ النّاس بما جرى على من سبقهم لا لمجرد التّفكّه والتّلهي. هذا. وإنّ خير ما يرويه المسلم هو القصص الواردة في القرآن الكريم والأحاديث الصّحيحة، ويجب التّجنّب عمّا أدخله بعض المفسرين في قصص القرآن من إسرائيليّات يشمئزّ منها القلوب والعقول السّليمة سيّما الّتي تمسّ عصمة الإنبياء والمرسلين (عليهم السلام).

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾

مجمل المعنى: أذكر لهم يا محمّد وقت قول يوسف لأبيه يعقوب يا أبت إنّي رأيت في المنام أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم نزلوا من السّماء في صورة أناس واصطفّوا وسجدوا لي كلّهم أجمعون.

تفصيل المعنى: كلمة إذ أينما وجدتها في القرآن الكريم فهي ظرف زمان بمعنى الوقت، وتضاف إلى جملة وقع مضمونها في الماضي، ولها حالتان: إذ يقرن بها الواو أو لا، فإذا كانت معها الواو فيقدّر للعمل فيها دائماً كلمة (اذكر)، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٦٠ ـ أي واذكر يا محمّد وقت قوله موسى لفتاه لا أزال أسير حتّى أبلغ مجمع البحرين إلى أن أسير حقباً أي أزمنة كثيرة. وأمثال هذه كثيرة في القرآن الكريم جدّاً. وإذا كان بدون واو فقد يكون عاملها مذكوراً صريحاً كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ سورة غافر الآية/ ٧١ ـ أي فسوف يعلمون عاقبتهم أو بطلان عقيدتهم وقت جعل الأغلال في أعناقهم والسّلاسل يسحبون بها إلى النّار وفي النّار .فالعامل في إذ في هذه الآية هو: يعلمون. أو يكون العامل فيها مذكوراً قبلُ ضمناً ودلالة كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ﴾ سورة الحشر الآية/ ١٦ ـ أي حالهم يشابه حال الشّيطان إذ قال.... إلخ. فهنا العامل في إذ هو لفظ - يشابه- حذف لدلالة - كمثل- عليها، وإن لم يذكر قبلها عامل ولا ما يدلّ عليه، فتقدّر كلمة اذكر ليعمل فيها، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ سورة النّمل الآيتان/ ٦،٧ ـ أي أذكر إذ قال موسى لأهله...إلخ. حيث لا يوجد في الآية قبل إذ ما يصلح أن يعمل فيما لا صراحةً ولا ضمناً ولا دلالةً.

ففي هذه الآية الكريمة قال في حاشية الجمل على الجلالين في العامل في إذ أوجهاً أظهرها أنّه منصوب بـ **(قال يا بنيّ)** أي قال يعقوب يا بنيّ وقت قول يوسف لأبيه يا أبت...إلخ. وقيل هو منصوب بنقصّ أي نقصّ عليك وقت قول يوسف لأبيه يا

أبت...إلخ. وقيل منصوب بقوله: لمن الغافلين، أي وقد كنت غافلاً وقت قول يوسف... إلخ. وقيل: هو منصوب بمضمر هو اذكر يا محمّد وقت قول يوسف... إلخ. إنتهى ما قاله الجمل. ولكنّ الأصحّ هو الوجه الأخير، والمعنى: أذكر يا محمّد وقت قول يوسف لأبيه (**يَاأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**) ذكرت الكواكب منكّرة لأنّها لم تكن من الكواكب الّتي يعرفها يوسف (عليه السلام)، وإنّما رأى الشّمس والقمر معروفين له فعرّفهما باللّام. وقد ذكر في بعض التّفاسير أسماء تلك الكواكب إستناداً إلى حديث ضعّفه أهل الحديث، فلا يمكن الإعتماد عليه، فالأولى إبقاؤها كما ذكرها القرآن منكّرة غير معروفة.

مسألة: في تأخير الشّمس والقمر فائدتان:

الأولى: أنّه لو قال: رأيت الشّمس والقمر وأحد عشر كوكباً رأيتهم لي ساجدين، لتوهّم أنّ الضّمير في رأيتهم يعود إلى أحد عشر كوكباً فقط فلم يفد سجود الشّمس والقمر له.

الثانية: أنّه نرى في الإخبار عمّا فيه الشّرف والتّكريم من الأدنى إلى الأعلى كما هو الأسلوب الحسن، فإنّه لا حسن ولا حلاوة في أن تقول: أكرمني الوزير والمدير والكاتب، بل يقال: أكرمني الكاتب والمدير والوزير، فهنا لو قال: رأيت الشّمس والقمر وأحد عشر كوكباً، لم يحل بقدر ما يحلو قوله: (**إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر**). وهذا ظاهر عند أهل الأدب والأذواق، وقدّم الشّمس على القمر لأنّ الشّمس مؤنّث ووقعت عبارة عن الأمّ، والقمر مذكّر وقع عبارة عن الأب على أصحّ الأقوال، والمذكّر أعلى من المؤنّث. قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٢٨ ـ.

* * *

لطيفة: والسّبب في كون الشّمس مؤنّثاً والقمر مذكّراً أنّ الأرض إنفصلت عن الشّمس فأصبحت أمّاً للأرض، وكذلك الأرض إنفصل منها القمر فأصبحت أمّاً للقمر، وبقي القمر مذكّراً لأنّه لم ينفصل عنه شيء من الكواكب.

* * *

فوائد أخرى: وأعاد الفعل على الضّمير العائد إلى الشّمس والقمر والكواكب وقال:

رأيتهم لي ساجدين، لأنّه لو قال: إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر لي ساجدين، لربّما قرئ ساجدين بصيغة المثنّى عائداً إلى الشّمس والقمر، فلم يفد سجود الكواكب له وهذا ظاهر. وقدّم (لي) على ساجدين لفائدتين:

الأولى: المحافظة على اتّحاد فواصل الآية الكريمة.

الثّانية: هي أنّ القاعدة في التّكلم أنّ المهمّ يقدّم فيقال: ضرب الأميرَ زيدٌ، بتقديم الأمير هو مفعول به، لأنّه ليس القصد الإخبار عن ضاربيّة زيد، بل القصد أنّ الأمير أصبح مضروباً، وإنّما ذكر زيد تبعاً لذلك، بخلاف ضرب الأمير زيداً في جواب من ضرب زيداً؟ مثلاً، وهنا لم يكن المهمّ سجود الكواكب والشّمس والقمر، وإنّما المهمّ بيان أنّهم سجدوا ليوسف بالذّات. وكان هذا موقع تعجّب يوسف وإهتمامه به.

* * *

نكتة: إنّ الكواكب والشّمس والقمر من غير العقلاء، ولكن أعيد إليهم ضمير العقلاء في رأيتهم، ووصفوا بصيغة الجمع للمذكّر العاقل وهي ساجدين، وذلك لأنّهم عملوا عمل العقلاء. وهي السّجدة، فاعتبروا منهم وأعطي لهم حكمهم، وبطريق العكس من عمل عمل غير العقلاء يعطى له حكمهم، وإن كان عاقلاً؛ ولذلك يسمّى العاصي جاهلاً لأنّ المعصية لا تصدر من العاقل، قال تعالى حكاية عن قول يوسف لإخوته: (**هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ**) .وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً بِجَهالَةٍ... إلخ)، وذكروا أنّهم نزلوا في صورة أناس واصطفّوا وسجدوا له فيما رأى، فلذا عوملوا معاملة جمع المذكّر العاقل في الإخبار عنهم.

* * *

خاتمة: هل المراد بالسّجود الإنقياد والخضوع أو السّجود الحقيقيّ في هذه الآية؟ الكلّ معقول هنا، لأنّ هذا كان في الرّؤيا ولا مانع من أن يرى النّائم أموراً جائزة أو غير جائزة، لأنّ ما في الرّؤيا ليس أمراً حقيقيّاً بل هو كالظّل للشّيء، ويقع إشارة إلى الشّيء يقع في المستقبل كما هو أو بما يعبّر به عنه أو لا يقع أصلاً.

* * *

لطيفة: ومن اللّطائف أنّه جاء رجل بآخر إلى سيّدنا عليّ (رضي الله عنه) فقال: إنّ هذا

يزعم أنّه زنى بأمّي في المنام، فقال له عليّ (رضي الله عنه): أوقفه بالشّمس واضرب ظلّه مائة جلدة.

وأمّا الكلام على سجود الأخوة والأبوين له في مصر المذكور بقوله تعالى: ﴿وخرّوا له سجّداً﴾ فسيأتي هناك إن شاء الله تعالى.

* * *

الحكم: يستفاد من هذه الآية أنّ من رأى رؤيا يسن له أن يقصّها على من يرى فيه العلم والصّلاح ليعبّرها له. فقد كان (ﷺ) (إذا صلّى الصّبح أقبل عليهم بوجهه فقال: هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟)[١]، يريد أن يذكر الرّائي رؤياه ليعبّرها له. وأمّا إذا كان الرّائي يعرف تعبير رؤياه فإنّ كان خيراً تحدّث بها، وإن كان شرّاً لا يحدّث بها أحداً، قال (ﷺ): (إذا رأى أحد منكم رؤيا يحبّها فإنّما هي من الله تعالى، فليحمد الله تعالى عليه وليتحدّث بها. وإذا رأى غير ذلك ممّا يكره فإنّما هي من الشّيطان، فليستعذ من شرّها ولا يذكرها لأحد فإنّها لا تضرّه)[٢].

مجمل المعنى: لمّا ذكر يوسف رؤياه ليعقوب (عليه السلام) علم يعقوب من هذه الرّؤيا أنّ الله تعالى سيهب ليوسف مكانة عظيمة، وأنّه يسود إخوته وأبويه إلى حدّ أنّهم يسجدون له. وعلم أنّ إخوته لو سمعوا هذه الرّؤيا لعلموا تأويلها بأنفسهم أو بالسّؤال عنها، أو على الأقل يعلمون أنّ هذه الرّؤيا تبشّر يوسف بنعمة جليلة ومكانة عظيمة، فيقع الحسد في أنفسهم ولا تطيب أنفسهم، وهم أكبر من يوسف أن يسود هو عليهم، فيكيدون ويدبّرون تجاه يوسف مؤامرة تحول دون وصوله هذه المرتبة، قال له: يا بنيّ لا تقصص ولا تعرض رؤياك هذه على إخوتك لأنّهم يحسدونك عليها فيكيدون لك كيداً حيث إنّ الشّيطان لأبناء الإنسان عدوّ ظاهر العداوة، فيحاول دائماً ليجد سبباً يدخل به العداوة بين الإنسان وأخيه الإنسان، ويحرّك من حسدهم ليحملهم على العمل في سبيل إزالة نعمة المحسود، وإنّ هذه الرّؤيا تبشّرك بنعمة جليلة يحسد عليها صاحبها.

تفصيل المعنى: يظهر من سياق الآية الكريمة ومن قول يوسف (عليه السلام) في آخر

(١) صحيح مسلم ٤/١٧٨١ الحديث رقم ٢٢٧٥.

(٢) صحيح البخاري ٦/٢٥٦٣ الحديث رقم ٦٥٨٤.

السّورة: (**يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**) أنّ يعقوب (عليه السلام) لم يذكر ليوسف تأويل الرّؤيا مخافة أن يفشيها يوسف فيعلمها إخوته. أو ليقع تأويلها من حيث لا ينتظره يوسف، لكي لا ينشغل به قلبه، وليكون حصوله نعمة غير مترقّبة، فإنّ حصول النّعمة الغير المترقّبة ألّذ. أو لسبب آخر حمل يعقوب على عدم ذكر التّأويل. إلّا أنّه أشار إلى أنّ لهذه الرّؤيا نتيجة عظيمة حيث قال: (**وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**) وقال بعض المفسّرين: أنّه عبّر الرّؤيا له ولكن حذف إختصاراً، وقال البعض: إنّ تعبير هذه الأحلام كان معلوماً لآل يعقوب، ولذلك نهاه عن ذكرها لإخوته، لأنّهم لو ذكرت لهم عرفوا تأويلها فيحسدون يوسف عليها، (**قالَ يا بُنَيَّ**) كلمة بنيّ تصغير، إبن، والإبن أصلة بُنْوٌ، أستثقلت الضّمة على الواو فحذفت، فوقع إلتقاء السّاكنين بين الواو والتّنوين، فحذفت الواو وعوّض عنها الهمزة في الأوّل فصار إبنٌ. فحينما صغّر رجع إلى أصله لأنّ التّصغير يرجع الأشياء إلى أصلها فصار بنيوٌ، اجتمع الواو والياء والسّابق منهما ساكن، أدغمت الواو في الياء حسب القياس فصار بنيّ، أضيف إلى ياء المتكلّم فاجتمعت الياءات فحذف أحدهما وفتح ياء المتكلّم كما هو القياس فصار يابُنيَّ، وهذه قاعدة صرفيّة ذكرتها ليعلم النّاس مدى عمق اللّغة العربيّة ودقّة تصاريفها. هذا والتّصغير وضع في أصله لبيان صغر الشّيء مثل هذا جبل وهذا جبيل، أي هذا جبل كبير وهذا جبل صغير. ثمّ استعمل في معان أخرى منها التّحقير كقولهم: هذا رجيل، أي رجل حقير، والفرق بين التّحقير والتّصغير أنَّ التّحقير تقليل في الرّتبة والشّرف، والتّصغير تقليل في الجسم والمادّة. ومنها التّكبير كقولهم: أنا جذيلها المحكّك وعذيقها المرجّب، وجاء للتّنقيص كقولهم: لم يبق من بني فلان إلّا بييت، وللتّقريب كما يقال: جاءني قبيل الظّهر، وللإستعذاب كما قال الشّاعر:

ما قلت حبيب من التّحقير   بل يعذب إسم الشيء بالتّصغير

وللتّعظيم كقول الشّاعر:

وكلّ أناس سوف يدخل بينهم   دويهية تصفرّ منها الأنامل

أي داهية عظيمة وهو الموت، والفرق بين التّعظيم والتّكبير أنّ التّكبير بيان زيادة في الجثّة[١]، والتّعظيم زيادة في الرتّبة. وجاء أيضاً للتّرحم والشّفقة كما في هذه الآية

(١) يقصد الحجم.

الكريمة: (**لا تقصص رؤياك على إخوتك**) الأخوة كانوا أحد عشر كلّهم إخوته للأب فقط إلّا بنيامين كان شقيقه، ولم يكن بنيامين ليحسد يوسف ولا أن يكيد له كيداً، ولكن يعقوب نهاه أن يذكر رؤياه حتّى لبنيامين مخافة أن يذكرها هو لباقي الأخوة، فالإضافة في إخوتك للإستغراق، ولكن الضّمير العائد إلى الأخوة في: (**فيكيدوا لك**) راجع إلى الأخوة للأب فقط، فيكون في الآية إستخدام حيث أريد بلفظ إخوتك معنى هو جميع الأخوة، وبالضّمير الرّاجع إليه الأخوة سوى بنيامين، وهذا قسم من الإستخدام، فإنّ الإستخدام قسمان:

أحدهما: أن يذكر لفظ بمعنى، ثمّ يذكر في نفس العبارة بمعنى آخر،

والثاني: أن يراد باللّفظ معنى وبالضّمير العائد إليه معنى آخر كما هنا (**فيكيدوا لك كيداً**) أصله فيكيدون نصب بحذف النّون لأنّ الأفعال الخمسة وما يوازنها وهي: (يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وتفعلين) يكون نصبها وجزمها بحذف النّون. وسبب النّصب هنا أنّ الفعل المضارع الواقع بعد فاء السّببية إذا وقع بعد أحد الأمور الثّمانية يكون منصوباً بتقدير أن.

الأوّل: الأمر: كقول الشّاعر:

يا ناق سيري عنقاً فسيحاً إلى سليمان فتستريحا

الثّاني: الإستفهام: مثل قول الشّاعر:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أو من سبيل إلى نصر بن حجاج

الثّالث: النّفي: مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ سورة فاطر الآية/ ٣٦ ـ.

الرّابع: التّحضيض: مثل قوله تعالى: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ سورة المنافقون الآية/ ١٠ ـ.

الخامس: التّمني كقوله تعالى: ﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ سورة النّساء الآية/ ٧٣.

السّادس: التّرجي: مثل قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ ـ سورة غافرالآية/ ٣٧ ـ.

السّابع: الدّعاء: كقول الشّاعر:

ربّ وفّـقـنـي فـلا أعـدل عـن سنن السّاعين في خير السّنن

الثّامن: العرض: كقول الشّاعر:

يـا ابـن الـكـرام ألا تـدنو فـتـبصر مـا قـد حـدّثـوك فـمـا راءٍ كـمـن سـمـعـا

التّاسع: النّهي: كما في هذه الآية، وهذه قاعدة نحويّة ذكرتها ليعلم مدى دقّة اللّغة العربيّة في تراكيبها.

خاتمة: خاف سيّدنا يعقوب (عليه السلام) أن يكيد أبناؤه ليوسف إن اطّلعوا على رؤياه لأنّ الرّؤيا كانت تبشّر يوسف بنعمة تكون سبباً لخضوع وانقياد الإخوة له، وأنّ الحسد كامن في نفس كلّ إنسان إلّا من رحم ربّي، وإنّ الشّيطان يأتيه من طريق الحسد فيحرّكه للعمل على إزالة نعمة المحسود، سيّما إذا كانت النّعمة سبباً لسيادة المحسود على الحاسد، فإنّه لا يجب أن يخضع لأحد سيّما إذا كان ذلك بين كبار الأخوة وصغيرهم، فإنّ الأخ الكبير يأبى أن يخضع لأخيه الصّغير، حيث العادة جرت بإطاعة الأخ الصّغير للكبير، ويزيد ذلك الحسد إذا كان الإخوة من الأب، فإنّ الولد يرث العداء من أمّه تجاه ضّرتها ويسري ذلك إلى الأولاد، فلهذه الأمور كلّها حذّر يعقوب يوسف (عليه السلام) من أن يذكر رؤياه لأخوته مخافة أن يوقع الشّيطان بينهما العداوة وقال: (إنّ الشّيطان للإنسان عدوّ مبين) كلمة مبين من أبان بمعنى أظهر، فالمعنى: إنّ الشّيطان للإنسان عدوّ مظهر عداوته له من أوّل ما خلق أبو الإنسان آدم حيث قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ سورة ص الآيتان/ ٨٣،٨٢ ـ وقد جاء أبان بمعنى: بان، أي ظهر، وعلى هذا فالمعنى إنّ الشّيطان للإنسان عدوّ ظاهر لا شكّ في عداوته له.

* * *

دقيقة وحقيقة: نسب يعقوب (عليه السلام) منشأ كيد الإخوة ليوسف (عليه السلام) إن وقع إلى الشّيطان وعداوته للإنسان، لكي لا يدخل في قلب يوسف تجاه إخوته حقد، ولأنّ ينسب ما يقع منهم إلى الشّيطان أوّلاً وبالذّات ثمّ إليهم بالعرض والتّبعيّة، فلا ينسى العفو والسّماح لهم. وقد فعل يوسف ذلك، فعفى عنهم فقال: (**لا تثريب عليكم اليوم**) ونسب السّوء إلى الشّيطان فقال: (**من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي**). وهكذا يجب أن يكون المسلم مع المسلم، فينسب سوؤه إلى الشّيطان ليسهل عليه العفو فيعفو

عنه إذا أساء إليه. ولذا قال رسول الله : (صل من قطعك واعط من حرمك وأعف عمّن ظلمك)[١]، وهكذا أخلاق الإسلام والمسلمين، خلق الرّسول والقرآن الكريم. خلّقنا الله تعالى بها أجمعين، آمين.

* * *

الحكم: يستفاد من هذه الآية الكريمة حكمان: أحدهما: أنّه يجوز أن يحذر المسلم غيره من شخص يعتقد فيه إرادة الشّر به على نيّة النّصيحة ووجهها، لا على جهة النّميمة والإفساد بينهم، وبطريقة لا تنبت حقداً في لقب المحذّر تجاه المحذّر منه. وهذا إذا لم يظهر من المحذّر منه بوادر السّوء تجاه المحذّر؛ فإنّه إذا ظهرت تلك البوادر فيجب عليه أن يعلمه بذلك، قال الشّاعر:

القدح ليس بغيبة في ستةٍ ... متظلّم ومعرّف ومحذّر

ولمظهر فسقاً ومستفتٍ ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر

ويدلّ على ذلك ما ورد في السّيرة أنّ رسول الله (ﷺ) رجع من غزوة بني المصطلق فنزل هو وأصحابه على ماء، فتشاجر أحد المهاجرين مع أنصاري فنادى الأنصاري: ياللأنصار، ونادى المهاجر: ياللمهاجرين، فاجتمع الأنصار والمهاجرون وكاد أن يقع بينهما حرب، فجاء رسول الله (ﷺ) فقال: (دعوها لأنّها نتنة) أي اتركوا النّزعة العصبيّة والنّخوة القبليّة فإنّها نتنة، فخمدت الفتنة. وسمع زيد بن حارثة: عبدالله بن أبي يقول: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ سورة المنافقون الآية/ ٨ ـ أراد بالأعز نفسه وقومه، وبالأذلّ الرّسول (ﷺ) والمهاجرين، وقصد أنّه يقيم حرباً يخرج بها المهاجرين من المدينة. فذكر زيد ذلك لرسول الله (ﷺ) فأرسل إلى عبدالله فجاء وحلف أنّه لم يقل ذلك وكذّب زيداً، فأصاب زيداً حزن كثير، فنزل القرآن بتصديق زيد وتكذيب عبدالله رئيس المنافقين، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ سورة المنافقون الآية/ ٨ ـ فسرّ زيد وكشف الله كربته بذلك[٢]، فنزول القرآن بما يكشف الغمّ عن زيد

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٤٨ الحديث رقم ١٧٣٧٢.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٨٦٠ الحديث رقم ٤٦٢٠، صحيح مسلم ٤/ ٢١٤٠ الحديث رقم ٢٧٧٢.

ليس إلّا لأنّه أتى بالواجب فيما أخبر به. وذكر تعالى في قصّة موسى (عليه السلام) رجلاً بقوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ سورة القصص الآية/ ٢٠ ـ فمثل هذه الأمور تعدّ من النّصيحة لا من النّميمة. وإنّ النّصيحة واجبة على المسلم.

الحكم الثّاني: هو أنّه لا يجوز لمن رأى رؤيا أن يذكرها لمن لا يأمن عليه ولا لكلّ أحد، لأنّها ربّما تبشّره بنعمة فيحسده عليها من لا يحبّه فيكيد له كيداً لأن يحول دون وصوله إليها .وروي عن قتادة (رضي الله عنه) أنّه قال: كنت أرى الرّؤيا فتمرضني حتّى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (الرّؤيا الصّالحة من الله، فإذا رأى أحدكم ما يحبّ فلا يحدّث بها إلّا من يحبّ. وإن رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثاً وليتعوّذ بالله من شرّ الشّيطان وشرّها، ولا يحدّث بها أحداً فإنّها لن تضرّه)[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾

مجمل المعنى: وكما أراك الله تعالى هذه الرؤيا الحسنة يختارك للرّسالة والنّبوّة ويعلّمك من العلم بعواقب المنامات ومفاهيم الكتب، ويتمّ نعمته في الدّنيا والآخرة عليك، وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنّ ربّك عليم فيعلم من يشاء منهج العمل، حكيم لا يعمل شيئاً ولا يعلم أحداً إلّا بحكمة والحكمة هو يعلمها.

تفصيل المعنى: قوله تعالى **(إنّ ربّك عليم حكيم)** جواب لسؤال ينشأ عما سبق، كأنّ قائلاً يقول: لماذا يجتبيه ربّه من بين سائر إخوته وكلّهم أكبر منه سنّاً سوى بنيامين؟

فأجيب: إنّ ربّك عليم يعلم من يليق بالإجتباء، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، حكيم يعمل كلّ شيء لحكمة وبحكمة، فهو يعلم الحكمة من إختياره دون غيره من الإخوة. وسيأتي الكلام على تحقيق معنى الإجتباء وإتمام النّعمة إن شاء الله تعالى.

الحكم: يستفاد من عرض يوسف الرّؤيا على أبيه، ومنع يعقوب يوسف أن يذكر

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٦٣ الحديث رقم ٦٥٨٥، صحيح مسلم ٤/ ١٧٧٢ الحديث رقم ٢٢٦١ واللفظ له.

رؤياه لإخوته وإخباره يوسف بأن يجتبيه ويتمّ نعمته عليه مستنبطاً هذا الخبر من تلك الرّؤيا، يستفاد من هذا حقيقة الرّؤى والمنامات. وأنّها تدلّ على حصول أمور تقع في المستقبل أو وقعت في الماضي. أمّا على وفق ما رُئي أو على ما يماثلها، ويعبّر به عنها، وقد اعترف القرآن الكريم بالرؤيا في مواضع كثيرة. منها ما يأتي في هذه السّورة أنّ فتيين دخلا السّجن مع يوسف (عليه السلام) ورأى كلّ واحد منهما رؤياً، وعرضاهما على يوسف. فعبّر لهما ووقع الأمر كما عبّر (عليه السلام). ومنها أنّ ملك مصر رأى رؤيا عرضها على علماء بلدته فلم يعرفوا تأويلها، فعرضوها على سيّدنا يوسف (عليه السلام) فأوّلها ووقع الأمر كما أوّل.

ومنها ما رأى سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) من أنّه يذبح إبنه إسماعيل وقال: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة الصافات الآية/ ١٠٢ ـ فعمل سيدّنا إبراهيم (عليه السلام) بهذه الرّؤيا فأخذ إبنه للذّبح وسلّم إسماعيل (عليه السلام) نفسه ولولا أن فداه الله تعالى بكبش يذبح عنه لتمّ الذّبح ولهلك إسماعيل (عليه السلام). ومنها أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى في منامه كفّار مكّة في حرب بدر قليلاً إشارة إلى قلتهم المعنويّة وبشارة بنصر الله تعالى للمؤمنين عليهم، كما ذكر تعالى فقال: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٤٣ ـ ومنها أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأى في منامه بعد حرب بدر أنّه وأصحابه ذهبوا إلى مكّة المكرّمة واعتمروا وطافوا بالبيت، وحلق بعضهم رؤوسهم وقصّر البعض، وكان ذهابهم في ذلك الوقت لمكّة كالمستحيل، لأنّهم قتلوا من أهلها سبعين صنديداً يوم بدر، فلا يسمحون لهم دخول مكّة حتماً. ولكنّ الله تعالى صدق رؤياه بعد سنّة كما ذكر تعالى ذلك فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ سورة الفتح الآية/ ٢٧.

هذا وقد ثبت حقيّة الرّؤيا بأحاديث صحيحة أيضاً، منها ما رواه عبّادة بن الصّامت أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال: (الرّؤيا جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النّبوّة)[١] وعن عائشة

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٦٢ الحديث رقم ٦٥٨٢.

(رضي الله عنها) أنّها قالت: (أوّل ما بدئ به رسول الله (ﷺ) من الوحي الرّؤيا الصّالحة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصّبح)[١] وعن سمرة بن جندب (رضي الله عنه) قال كان النّبيّ (ﷺ): (إذا صلّى الصّبح أقبل عليهم بوجهه فقال هل رأى أحد منكم البارحة رؤياً) رواه الشّيخان وأبو داوود والترمذي[٢]، وزاد أبو داوود: ويقول (ﷺ): إنّه لم يبق من النّبوّة إلّا الرّؤيا الصّالحة[٣].

والأحاديث في الرؤيا كثيرة جداً، فالحاصل أنّ الرؤيا وأثرها ثابتة بالكتاب والسّنة، فمن أنكرها بعد ما اطلع على ذلك فقد كفر. هذا وإنّ واقعنا الّذي نعيش فيه يشهد بحقيّة الرّؤيا حيث نرى ويُرى أحلام كثيرة يقع مضمونها كما هي أو كما يماثلها. بحيث لا يبقى أي مجال لإنكار الرّؤيا وحقيتها. هذا وقد أنكر أهل مدرسة التّحليل النّفسي حقيّة الرّؤيا ودلالتها على الأمور وقالوا: إنّ الرّؤيا صور من الرّغبات المكبوتة والأمور المتخيّلة تنفّس بها الأحلام في غياب الوعي، ولكن يكذّبه أنّه قد يرى النّائم مالم يتصوّره ولم يتخيّله أبداً، ولا تخيّل شبهه يوماً ما وذلك كثير. ونذكر لذلك منامين على سبيل المثال:

الأولى: حكى لي الحاج كَليبان ابن الاخ الحاج حسن البارح[٤] الّذي ينسب إليه الجامع الّذي أخطب فيه الآن، وحين كتابتي لهذا التّفسير قال: كنت في الرّابعة عشرة من عمري، فرأيت في المنام أنّي أمشي بمقبرة الشّيخ السّهروردي ببغداد، حيث فيها قبور أقاربي، فرأيت قبراً مكشوفاً فتعجبت منه، فرأيت شخصاً طلع منه ويتحرّك نحوي، فخفت منه وولّيت هارباً، فرأيت رجلاً كنت أعرفه، فاستنجدت به فقلت عمّي عمّي، فقال: لي لا تخف، فأومأ إلى الشّخص بعصاه فتوقف عن التّحرك نحوي، وقال: لا تخف أنا جدّتك عندي وصيّة، قل لأمّك أطلب من خالك الكبير ثلاثة وستّين ديناراً،

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٤ الحديث رقم ٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٤٦٥ الحديث رقم ١٣٢٠، صحيح مسلم ٤/ ١٧٨١ الحديث رقم ٢٢٧٥، سنن الترمذي ٤/ ٣٤٥ الحديث رقم ٢٢٩٤.

(٣) سنن أبي داود ٤/ ٣٠٤ الحديث رقم ٥٠١٧.

(٤) وهو من أهل بغداد و كان يسكن بجوار المسجد وكان ملازما للمسجد في صلاة الجماعة وراء الشيخ الوالد رحمهما الله تعالى، والجامع في بغداد في منطقة الصليخ حي السبع أبكار التّابع لقضاء الأعظمية شمال بغداد قرب صدر القناة..

فانتبهت مرعوباً فذكرت رؤياي لأمّي فذهبت إلى الخال فاعترف بذلك. فمن أين تخيّل هذا كَليبان حتّى يرجع إليه في المنام.

الثّانية: توفّى الشّيخ عبدالقادر الخطيب الّذي كان خطيباً في جامع الإمام الأعظم **(رحمه الله تعالى)** وترك أولاداً وزوجاً، ثمّ تمرضّت زوجته فكانت تقول في مرضها: من يكفّنني، من يدفنني، من يقوم بتجهيزي، وكان لها أولاد، ولكنّ هذه عقليّة النّساء سيّما إذا غلبهن الشّيب والمرض، فرأت بنتها، وكانت متزوّجة في بيت زوجها، رأت أباها الشّيخ عبدالقادر في المنام، فقال لها: قولي لأمّك لماذا تحزن ولماذا تشكو؟ فقد وضعت لها مائة دينار بين أوراق الكتاب لتصرف على تجهيزها، ففتّشوا المكتبة فأخذوا كتاباً لم يجدوا فيه وأخذوا الثّاني فوجدوا فيه مائة دينار دون زيادة ونقصان، فمن أين تخيّلت بنت الشّيخ هذا الأمر يا أهل مدرسة التّحليل؟. وأمثال هذه المنامات كثيرة ممّا لا يمكن تفسيره حسب ما يدّعى أهل هذه المدرسة، فما أصدق من قال:

قل للّذي يدّعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

تنبيه: الرّؤيا ثلاثة أنواع:

الأوّل: هو أمور يتخيّلها الإنسان في اليقظة فتنتقش صورها في المتخيّلة فيراها النّائم في المنام.

الثّاني: هو أنّ الأدخنة والأبخرة تتصاعد من المعدة إلى الدّماغ فتنقلب صوراً يراها النّائم في النّوم، وهذان النّوعان لا يعتدّ بهما.

الثّالث: هو أنّ الرّوح قوّة لطيفة داركة للأمور، سواء لدى إدراكها الماضي والمستقبل والحاضر والقريب والبعيد زماناً ومكاناً ولا يحجبها عن الإدراك شيء، ولكن إنحسر إدراكها في الأمور المشاهدة أو المعقولة بسبب إنشغالها بالبدن وتدبيره وتكثّفها بكثافة مادّة الجسم والبدن؛ فلا تدرك إلّا في حدود ضيّقة ومحدودة. فإذا نام الإنسان يقلّ تعلّقها بالبدن وترجع إلى طبيعتها الأصليّة جزئياً، فتدرك ما لا تدركه في اليقظة، وإدراكها للأمور حينئذ قد يكون كما هي، كما رأى رسول الله (ﷺ) أنّه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، فدخلوه بعد سنة كما رأى. وقد يكون على صور يعبّر بها عنها كما رأى سيّدنا يوسف (عليه السلام) أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر ساجدين له فعبّر بالإخوة والأبوين، ووقع كذلك وسجدوا له بعد مدّة، وهنا

النّوع الثّالث من الرّؤيا هو الّذي نقول بأنّه حقّ واعترف به القرآن الكريم والحديث الشّريف، وأشار الرّسول (ﷺ) إلى هذه الأنواع الثّلاثة فقال: والرّؤيا ثلاثة فالرّؤيا الصّالحة بشرى من الله تعالى، ورؤيا تحزين من الشّيطان، ورؤيا ممّا يحدّث به المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليصلّ ولا يحدّث بها النّاس. وهذا الأخير لمن يكون عالماً بالتّعبير وعلم أنّ رؤياه شرّ، ولكن الّذي لا يعلم التّعبير فليذكرها لمن يثق به علماً وصلاحاً ليعبّر له بخير، فإنّ كثيراً من المنامات يظنّ الرّائي أنّها شرّ مع أنّها حسب الواقع والتّعبير فيها خير كثير. فمثلاً كنت مسافراً وبعيداً عن أهلي سنة (١٩٣٣م) فرأيت في المنام أنّه سقطت إحدى أسناني وقد كان من الشّائع بين النّاس أنّ من سقطت سنّه في المنام يموت أحد أقاربه، فحزنت على ذلك، ولكن طالعت كتاب تعبير المنام فوجدت فيه: (أنّ من سقطت سنّه في المنام يؤدّي قرضاً عليه) فاطمأننت، فلمّا رجعت إلى أهلي قال أخي الشّيخ عمر: سافرت إلى أربيل ووجدت في دفتر ملا محمّد الخطّي ديناً عليك فوفّيته عنك. وقد ذكر لي شخص بأنّه رأى في النّوم أنّه واقع أمّه، وكان قلقاً من الرّؤيا هذه، فلمّا نظرت إلى كتاب (تعبير المنام) قال: إنّ من رأى أنّه واقع أمّه في المنام فإنّه يحصل مقصوده وينال مطلوبه.

وهكذا فليس كلّ رؤيا يظنّها الرّائي شرّاً هو شرّ، بل ربّما يكون تعبيرها خيراً، فلذا يسنّ عرضها على من يوجد فيه الصّلاح والعلم بالتّعبير.

مسألة: رؤيا الأنبياء وحي يجب عليهم العمل حسب مقتضاها، ولذلك عزم سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) على ذبح سيّدنا إسماعيل (عليه السلام) وسلم الولد نفسه تطبيقاً لما رأى سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) في المنام من أنّه يذبح إبنه .وأمّا رؤيا غير الأنبياء فلا تكون حجّة شرعيّة ولا يجوز العمل بها حتّى لو رأى أحد رسول الله (ﷺ) أمره بشيء أو نهاه عنه، يعرض ذلك على الشّرع فإن وافق حكمه عمل به بحجّة الشّرع لا بحجّة الرّؤيا، وإن خالف ترك خضوعاً للشّرع الشّريف. وذلك لأنّ الشّريعة قد تمّ في حياة رسول الله (ﷺ) ولم يبق نسخ لحكم من أحكامه بعد وفاته (ﷺ)، فلو خولف حكم الشّرع بالمنام فقد حكم بالنسخ بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، وذلك باطل بالإجماع. وأيضاً لو حكم بالمنامات لفتح باب لخروج كثير من الفسقة عن الشّرع، إذ يمكن لكلّ أحد أن يترك واجباً أو يرتكب محرّماً، ويقول أمرني بذلك رسول الله (ﷺ) في المنام، فيتلاعب النّاس بالدّين حسب أهوائهم.

حكي أنّ رجلاً رأى في المنام رسول الله (ﷺ) فقال له: إذهب إلى المكان الفلاني وأحضره فإنّ فيه كنزاً فخذه ولا تؤدّ خمسه لبيت المال، فذهب وحضر المكان ووجد له الكنز فأخذه فاستفتى الشّيخ العزّ بن عبدالسلام فقال له: أدّ الخمس لبيت المال فإنّه لا يمكن أن ينهى الرّسول (ﷺ) بعد وفاته عن شيء أمر به في حياته، ولعلّ سمعك أخطأ، فقال الرّسول: أدّ خمسه، فظننت أنّه قال: لا تؤد. وعلى ضوء هذا فلو رأى أحد رسول الله (ﷺ) في المنام في ليلة الثّلاثين من رمضان وقال له غداً عيد لم يجز له أن يفطر ما لم يثبت حسب الشّرع أنّه عيد.

هذا ولقائل أن يقول: قد صحّ أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (من رآني في المنام فقد رآني حقّاً، فإنّ الشّيطان لا يتمثّل بي)[1]. فعلى ضوء هذا الحديث فمن رأى الرّسول (ﷺ) وأمره بشيء أو نهاه عنه يجب عليه أو يسنّ أن يعمل حسبما أمره به في المنام أو نهاه عنه. فنقول في جوابه: إنّ معنى الحديث: من رآني على صورتي الحقيقية فقد رآني حقّاً فإنّ الشّيطان لا يتمثل بصورتي الحقيقيّة. وهذا حقّ. ولكنّ الشّيطان يستطيع أن يتمثل بصورة معجبة ويوهمك أنّه الرّسول ويأمرك وينهاك كما يريد وبما لم ينزل به الله من سلطان، وبذلك يهدم من دينك كثيراً. وقد حدث قبل كتابتي لهذا الموضوع ما يدلّ على صدق هذا التّفسير لهذا الحديث الشّريف، وهو أنّ ابن أخي عيّن له من قبل الدّولة يوم ٢٠/ ١/ ١٩٨١ لمراجعة دائرة التّجنيد لكي يساق إلى الخدمة العسكريّة الإلزاميّة، فحزن أهل البيت جميعاً، فرأت أخته البالغة الثّانية عشرة من عمرها أنّها دخلت المدينة المنوّرة وزارت الرّسول (ﷺ) فسألته أسئلة منها أنّها قالت: يارسول الله سيساق أخي إلى الجنديّة، فأجابها لا تحزني فإنّه لا يؤخذ للجنديّة كثيراً، وحيث كانت معاملة قبوله في الأردن للدّراسة جارية فأملنا بأنّه يقبل في الدّراسة ويتخلّص من العسكريّة في الوقت الحاضر، وحيث تأخّر سيق إلى العسكريّة وتمّ تجنيده، فلو أخذنا بظاهر الحديث للزم أنّ بنت أخي رأت الرّسول (ﷺ) حقّاً وأخبرها خبراً لم يقع كما أخبر، وبذلك نسبنا الكذب إليه وهذا كفر. بل يجب أن نقول: إنّها رأت شخصاً ظنّته الرّسول (ﷺ) وأخبرها خبراً، ولكن لم يكن الرّسول (ﷺ) لأنّ الخبر لم يصدق، فلو كان المريء الرّسول حقّاً لما وقع الأمر بعكس ما أخبر به، فإذا كان رؤية الرّسول (ﷺ) هكذا في المنام غير موثوق به فما بالك برؤية الأولياء والصّالحين. ولعمري يعتمد بعض النّاس على

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٧٧٥ الحديث رقم ٢٢٦٦.

المنامات ويبنون عليها أموراً ما أنزل الله بها من سلطان، حيث لا حجّة للمنام لغير الرّسل، ولكي يجتمع هولاء بمناماتهم جهلاً فلا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.

فإن قيل: قد شرّع الأذان للصّلاة بهذه الكلمات المعروفة إعتماداً على رؤيا جماعة من الصّحابة، حيث رأوا في المنام أنّهم في السّوق يريدون أن يشتروا ناقوساً فتلقّاهم شخص، وقال: ماذا تفعلون به؟ قالوا: نعلم به للصّلاة فقال: أولا أدلّكم على خير من ذلكم؟ قالوا: فما هو؟ قال: قولوا الله أكبر، الله أكبر.... إلى آخر ألفاظ الأذان، فذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال: علّموه بلالاً فليؤذّن به فإنّه أندى منكم صوتاً. قلنا هذا التّشريع جاء من تقرير الرّسول (ﷺ) لا من الرّؤيا فقط، ولا ننكر أنّ كلّ رؤيا قرّرها الرّسول (ﷺ) في حياته فهي حجّة بإنضمام تقرير الرّسول إليها لا بنفسها فقط. فمن أين تجد اليوم أن يقرّر الرّسول (ﷺ) لنا الرّؤيا والمنامات لنحتجّ بها، فالعبرة في الحقيقة في تقرير الرّسول لا في الرّؤيا والله أعلم بالصواب.

* * *

خاتمة: إنّ حكم إلهام الأولياء كحكم الرّؤيا والمنامات فلا يحتجّ به ولا يجوز الإعتماد عليه. إلّا أنّ بعض العلماء يقولون: يحتجّ به الولّي في حقّ نفسه لا في حقّ غيره؛ وذلك بعد عرضه على الشّريعة وكونه موافقاً، وإلّا فهو من الشّيطان لا يجوز العمل به حتّى في نفسه. قال في متن العقائد للإمام النّسفي مانظّمته بقولي:

إلهام الأولياء ليس عندنا ... بسبب للعلم فاعلم موقناً

بأنّ ذا بالنّسبة للغير ... فالملهم يعمل طبق الأمر

إن لم يكن مخالف الشّريعة ... وإن يكن فبئسما الذّريعة

أقول: وحينئذٍ فالعمل يكون لداعي الشّرع لا لداعي الإلهام، فإنّ الشّرع هو الّذي أمرنا باتّباعه فقط، كما لا يخفى على من له فهم سليم بالشّريعة ومقاصدها. هذا ما وجب عرضه في هذا المقام لئلّا تزلّ بك الأقدام.

فإن قيل: فما الفائدة من الرّؤيا والإلهامات بعد هذا؟ وقد تعبت كثيراً في إثبات حقيّة الرّؤيا؟

قلنا: الفائدة منها أنّهما من المبشّرات كالفأل فيشجّعان المرء على الإقدام على عمل

مباح أو تركه، ويبشّرانه بخير ونعمة في المستقبل تحصل له إن كانا من الله تعالى أو لا إن كان من الشّيطان، كما أشار إلى ذلك قوله (ﷺ): إنّ الرّسالة والنّبوّة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبيّ. فشقّ ذلك على النّاس فقال: ولكن المبشرات. قالوا يارسول الله وما المبشرّات؟ قال (ﷺ): رؤيا المسلم وهي جزء من أجزاء النّبوّة. أي ولكنّ المبشّرات باقية وهي الرّؤيا الّتي تبشّر بخير أو تنبّه من غفلة، ومثلها الرّؤيا المنذرة تنذر المرء بشرّ فيستعدّ له بالصّبر الجميل (أنظر تاج الأصول ج٤/ ص٣٠٤).

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾

مجمل المعنى: قسماً بذاتي لقد كان في قصّة يوسف وأخوته عبر وعظات للسّائلين عن تلك القصّة، أو دلائل على صدق نبوّتك يا محمّد حيث أخبرتهم عن القصّة، كما هي في الكتب السّماوية. ولم يكن لك علم بذلك، حيث كنت أميّاً لم يكن لك علم بالكتب والتّواريخ. هذا ما ذكروه في التّفاسير.

وعندي: أنّ هذا لا يتلاءم إلّا مع رواية أنّ سبب نزول هذه السّورة هو السؤال عن قصّة يوسف(ﷺ) والّذي يتلاءم مع كلّ الرّوايات هو: أنّ المعنى لقد كان في حال يوسف وإخوته مع أبيهم علامات كثيرة تدلّ على أنّ أباهم يحبّ يوسف أكثر من سائر إخوته، وكانت تلك العلامات موجودة للسّائلين عن الأمور وأسبابها، وبهذا يكون أكثر تلاؤماً مع قوله تعالى (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين). أي كانت تلك العلامات موجودة وقت قول الإخوة فيما بينهم، والله ليوسف وأخوه بنيامين أكثر محبوبيّة إلى أبينا منّا ونحن جماعة نقوم بأمور البيت، إنّ أبانا لفي خطأ واضح وظاهر. في إيثاره يوسف وأخاه بأكثريّة الحبّ والإعتناء، وهما صغيران لا يقومان بشيء من أمور البيت وحوائجة. وأيضاً لو كان كما قاله المفسرون لكان قوله تعالى في أخر السّورة (لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأولي الْأَلْباب) تكراراً.

تفصيل المعنى: (لقد كان في يوسف) أينما وقعت اللّام في أوّل جملة أسميّة أو فعليّة وقبلها قسم مذكور أو شرط يجاب به عنه، فهي اللّام الواقعة جواباً لقسم مذكور، تقريره هنا قسماً بذاتي **(لقد كان في يوسف وإخوته)** الإضافة للعهد إذ المراد بهم إخوته للأب فقط لا كلّهم، فإنّهم هم الّذين كانوا يهتمّون ويراقبون أباهم في معاملته معهم

ومع يوسف وأخيه الشّقيق **(آيات)** التّنوين للكثير أي آيات كثيرة. **(للسّائلين)** للّذين يسألون عن الأمور وأسبابها، فكانت هذه الآيات موجودة **(إذ قالوا ليوسف وأخوه)** وقت قول الإخوة والله ليوسف وأخوه الشّقيق وهو بنيامين **(أحبّ)** هو أفعل التّفضيل من الفعل المجهول، والمعنى أكثر محبوبيّة **(إلى أبينا)** وهو يعقوب **(منّا)** أي من جميعنا أو من كلّ فرد منّا، كلٌّ محتمل، ويرجّح الأوّل قولهم: **(ونحن عصبة)** أي جماعة نقوم بأمر المعاش وتدبير أمور البيت **(إنّ أبانا لفي ضلال مبين)** أي بالتّأكيد إنّ أبانا لفي خطأ واضح وظاهر، فمبين مشتقّ من أبان المزيد استعمل في معنى (بان) المجرد هنا، وهذا شائع في العربيّة، يعمل ذلك للمبالغة، فكان الخطأ بلغ في الظّهور إلى حدّ هو مبين ومظهر نفسه دون حاجة إلى أمر آخر ليظهره.

توضيح: حكموا على أبيهم بأنّه في خطأ في أمر دنيويّ لا ديني، وهو إيثاره إبنين صغيرين على عشرة بنين آخرين كبار بزيادة الحبّ، مع قيام الآخرين بمهام الأمور وإدارة البيت وهذا خطأ في ظاهر الحال؛ لأنّ الجماعة الكثيرة خير وأنفع من غيرها القليل. فهي أولى بكثرة الإعتناء والحبّ. هذا ما زعم الإخوة، ولكنّهم أخطأوا لأنّ العبرة ليست بالقلّة والكثرة، فإنّ كثيراً من الأفراد خير من جماعات، ويفوق عليهم في الخير والعلم والنّفع، قال الشّاعر:

ليس على الله بمستنكر — أن يجمع العالم في واحد

وكان يعقوب يرى ذلك في مستقبل يوسف حسب رؤياه، وكان حبّه لأخيه بنيامين بتبعيّته لا لذاته، أو لأنّه كان أصغر الأولاد، وأنّ الصّغير دائماً يكون محلّ زيادة العطف عند الوالدين عادة لصغره. ولذلك أرادوا الكيد ليوسف فقط دون أخيه. وهذا وبما حرّرنا يفهم الجواب عن سؤالين:

الأوّل: كيف نسب الأخوة الخطأ إلى أبيهم وهم كانوا مؤمنين يعرفون أنّ أباهم نبيّ وأنّ النّبيّ معصوم. حيث ذكرنا أنّهم نسبوا إليه الخطأ في أمر دنيوي، وأنّ النّبيّ معصوم من الخطأ في أمور الدّين فقط، ويجوز عليه الخطأ في أمور الدّنيا.

الثّاني: كيف أنّ يعقوب يحبّ يوسف وأخاه أكثر من الأخوة ويعتني بهما أكثر منهم وأنّ التّفرقة بين الأولاد حرام، وهو نبيّ معصوم؟

والجواب: أنّ الحبّ ليس إختيارياً، فلا يكون حراماً ما لم يصاحبه التّفرقة في

الحقوق كالأكل واللّباس والعطايا والهبات. ولم يكن يعقوب يفرّق بينهم في ذلك. سيّما وإنّ زيادة الإعتناء والحبّ ليوسف كان لما ينتظر يعقوب منه أن يكون داعية للدّين ونبيّاً لرّب العالمين، لا لذات يوسف ولا لكونه إبناً له، وزيادة الإلتفات لذلك جائز ولا مؤاخذة عليه، وأمّا حبّه لأخيه فكان بتبعيّته أو لصغره ولم يكن ليثير حقد الأخوة عليه.

تنبيه: وهنا ينشأ سؤال آخر وهو: هل أنّ مجرّد الحبّ يثير من الحقد إلى حدّ إرادة القتل من الأخوة ليوسف؟.

والجواب: نعم إنّ مجرّد حبّ الوالدين شيء يرغب فيه الأولاد ويتنافسون فيه، ولكن ليس إلى درجة أن يعزم الأخ على قتل أخيه، فالّذي نعتقد أنّه كان لهذه الأسرة رئاسة دنيويّة، فخاف الأخوة من حبّ أبيهم ليوسف أن يجعله وليّ عهده ويوحي بالرّئاسة له بعد وفاته، فأرادوا أن يحولوا دون ذلك. بإبعاد يوسف عن أبيه بالقتل أو النّفي قبل أن يقوم أبوهم بما يخافون منه، بدليل قوله تعالى حكاية لقول الإخوة للعزيز: ﴿قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ حيث فسر الشّيخ بالطاعن في السّن، والكبير برئيس القبيلة أو كبير القوم[١]

* * *

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾

مجمل المعنى: لما اتّفق الإخوة كلّهم واعترفوا بأنّ أباهم يحبّ يوسف أكثر منهم، أخذوا يبحثون عن أمر يصرفون به وجه أبيهم عن يوسف ويحوّلونه إليهم، فقال بعضهم: اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مهجورة لا يستطيع العودة منها، فإنّ فعلتم ذلك يبق لكم وجه أبيكم خالياً وفارغاً عن الميل إلى غيركم، وتكونوا من بعد ذلك قوماً صالحين من جهة الدّين بالتّوبة إلى الله تعالى أو من جهة الدّنيا، فإنّ يوسف وحبّ أبيه له أشغل بالهم، فأفسد عليهم تدبير أمور البيت وألهاهم عن تنظيم أمور الحياة.

---

(١) لو استدل على هذا الأمر بما جاء من قول الإخوة ليوسف (والله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين) لكان أوفق، لأنّه أدلّ على المراد. حيث آثره الله عليهم بمقام النبوّة والرّياسة. والله أعلم.

تفصيل المعنى: (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم) إقترح البعض قتل يوسف أو إلقاءه في أرض مهجورة بعيدة العمران ومجهولة الطّرق لإخلاء وجه الأب، ولكنّ الإخلاء في صورة القتل واضح حيث لا يبقى يوسف ليتعلّق به وجه الأب؛ فيضطرّ إلى أن يتوجّه إليهم فقط، حيث لم يبق من يأمل فيه وتقرّبه عينه سواهم. وأمّا في صورة طرحه أرضاً مجهولة فليس بظاهر؛ لأنّه مهما كانت الأرض مجهولة وبعيدة يمكن أن يعود إلى بيته، لأنّ عمره كان حينئذ سبع عشرة سنة، فهو شابّ قويّ في السّير والحركة، فالّذي يظهر أنّ قصدهم كان أنّه إذا ألقي في أرض بعيدة فلا يخلو عن أحد الأمور وهي: إمّا أن يأكله السّباع أو يموت جوعاً وعطشاً، أو تمرّ به قافلة فتسرقه وتذهب به إلى غير البلاد، فيشغله الرّق والعبوديّة عن أن يعود، حيث كان من المتّبع أنّ القوافل تستولي على من تستطيع فتسترقّه ويصير بذلك عبداً لهم. وبقي هذا الأمر إلى أن أبطله الإسلام **(أرضاً)** التّنوين فيها للتّنكير أي أرضاً مجهولة لا يعرف يوسف طريق العودة منها إلى بيته وأهله **(يخل)** أصله يخلو حذفت الواو بالجزم لأنّ المضارع إذا كان آخره حرف علّة وهي الألف والواو والياء فإنّه ينجزم بحذف الآخر، وسبب الجزم هنا أنّه وقع جزاء لشرط محذوف تقديره إن تقتلوه أو تطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم. وهنا قاعدة أحبّ ذكرها، فإنّها تفيد في حلّ كثير من آيات القرآن الكريم. والقاعدة هي أنّ الفعل المضارع المجرد عن فاء السّببية إذا وقع بعد أمور فهو ينجزم بتقدير شرط من جنس ما قبله، والأمور هي:

الأوّل: الأمر، مثل يخل في هذه الآية الكريمة وقع بعد الأمر وهو أقتلوه أو أطرحوه أرضاً.

الثّاني: النّهي، مثل لا تدن من الأسد تسلم، أي إنّ لا تدن من الأسد تسلم، ويشترط في النّهي أن يصحّ تقدير إن لا مع فعل النّهي، مثل هذا المثال، وإلّا فلا يصحّ مثل لا تدن من الأسد تهلك، حيث لا يصح إن لا تدن من الأسد تهلك، لأنّ عدم الدّنو من الأسد سبب للسلامة لا للهلاك.

الثّالث: العرض مثل ألا تنزل تصب خيراً، أي إن تنزل تصب خيراً.

الرّابع: التّمني، مثل ليت لي مالاً أنفقه أي أن أرزقه، ويلحق به التّرجّي مثل: لعلّ لي صديقاً أصحبه. أي إن أجده أصحبه.

الخامس: الإستفهام مثل: هل من كتاب أقرأه أي إن أجده أقرأه .

(وتكونوا) أصله وتكونون، حذفت النّون بالجزم، وسبب جزمه نفس السّبب في يخل وهو وقوعه في جواب شرط مقدّر لوقوعه بعد الأمر، وهو: (اقتلوا يوسف أو اطرحوه) والتّقدير إن تقتلوه أو تطرحوه أرضاً تكونوا من بعده ... إلخ. وإنّما حذفت النّون بالجزم لأنّ الأفعال الخمسة وهي: يفعلان وتفعلان ويفعلون وتفعلون وتفعلين وما يكون على أوزانها تجزم وتنصب بحذف النّون يقال لم يفعلا ولن تفعلا ... إلخ. قال تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٤. (من بعده قوماً صالحين) أي وتكونوا من بعد يوسف قوماً صالحين من جهة الدّين بأن تتوبوا إلى الله تعالى، فإنّ الله يقبل التّوبة عن عباده وإنّه غفور رحيم. وهذه وسيلة من وسائل الشّيطان يسوق بها الإنسان إلى الجريمة، وقد نهى الله تعالى عنها فقال: ﴿فلا تغرّنكم حياة الدّنيا﴾ فتعصوا لها ﴿ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾ سورة لقمان الآية/ ٣٣ ـ أي لا يغرّنكم بسبب كثرة عفو الله تعالى الغرور وهو الشّيطان. فيسوقكم على المعصيّة بأمل التّوبة وعفو الله تعالى. أو صالحين من جهة أمور الدّنيا فإنّ قلوبهم كانت مشغولة بيوسف وحبّ الوالد له وشوّش ذلك قلوبهم، فما كانوا يعلمون كيف يعملون وكاد أن يعطّلهم ذلك عن العمل وإدارة شؤون الحياة، فلو قتل يوسف أو أبعد من الأرض فرغ بالهم وأقبلوا على العمل بقلب فارغ سليم.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا اتّفق أكثر الإخوة على قتل يوسف أو طرحه أرضاً مهجورة وهو القتل أيضاً بل أشدّ. قال قائل من الإخوة: **(لا تقتلوا يوسف)** فإن القتل جريمة كبيرة وليس المقصود إلّا إبعاد يوسف عن أبيه وذلك يحصل بغير القتل وإن الأخذ بأهون الشّرين من صفة العقلاء، فـ **(وألقوه في غيابت الجبّ)** أي في قعر البئر، فإذا فعلتم ذلك يمرّ بعض القوافل فيجده عند سحب الماء من البئر فـ **(يلتقطه بعض السّيارة)** ويسترقّه ويذهب به إلى غير البلاد فيمنعه الرّق والعبوديّة من العودة إلى أهله. إستعملوا هذه الطّريقة **(إن كنتم فاعلين)** أي إن كنتم مصمّمين على إبعاد يوسف عن أبيه. أشار هذا الأخ بهذا الكلام إلى نصيحتهم وعدم التّعرض ليوسف بشيء، وإن كان لابدّ منه فافعلوا به ما أقول، فإنّه أهون شرّاً ويحصل منه المقصود.

تفصيل المعنى: **(قال قائل منهم)** لم يذكر القرآن الكريم إسم هذا القائل وهو أحد الإخوة كما لم يذكر إسم أي واحد منهم في القصّة لأنّ قصّة القرآن للعبرة والعظة، وهي حاصلة بدون ذكر للأسماء والأعلام فنسكت عمّا سكت عنه القرآن، ولا نروي ذكر أسمائهم سيّما وإنّ الرّوايات مختلفة في تعيين أسمائهم وزيدت كلمة **(منهم)** كي لا يظن أنّه دخل في مؤامرتهم هذه غيرهم، لأنّه لو قيل: (قال قائل) فقط لاحتمل أن يكون القائل منهم أو من غيرهم. فإن قيل لم لم يقل: قال أحدهم أو واحد منهم أو وقال قائلهم؟ قلنا: لأنّه يقال: قال أحدهم أو واحد فيما إذا كان قول القائل يعتنى بكلامه أوّلا، ويقال: قال قائلهم منهم فيما إذا كان قول القائل هو القول ولا يخالف، ويقال: قال قائل منهم فيما إذا كان القائل يعتنى بقوله إلّا أنّه ليس ملزما ومحتّماً، وهنا كان القائل كبير الإخوة فكان لكلامه وزن وإعتناء فقال: **(لا تقتلوا يوسف)** ولم يقل لا نقتل يوسف لأنّه لم يكن هو راغباً في إيذاء يوسف إلّا أنّ الإخوة اتّفقوا على ذلك ولم يستطع أن يمنعهم فأصبح ينصحهم بعدم قتله صراحة فقال: لا تقتلوا يوسف وأشار إلى ترك التّعرض له بقوله: **(إن كنتم فاعلين)** شيئاً معه، ويدل على أنّه لم يكن راغباً في إيذاء يوسف بدليل قوله فيما يأتي في قوله تعالى عنه: **(قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف)**.

سؤال آخر: لماذا نهى عن قتله ولم ينه عن طرحه أرضاً؟

الجواب: قلنا إنّ النّهي عن أحد المقارنين نهي عن الآخر فكأنّه قال لا تفعلوا ما بدا لكم، بل افعلوا ما أقول لكم إن كنتم فاعلين. أو لأنّ الطّرح كان قتلاً أيضاً، لأنّه كان يؤدّي إلى الموت، فإذا نهى عن القتل فقد نهى عنه (وألقوه في غيابت الجبّ) أراد أيّ جب كان، إذا كان اللّام للعهد الذّهني أو جبّاً معروفاً عندهم، إذا كان اللّام للعهد الخارجي، ويؤيد الثّاني قوله (يلتقطه بعض السّيارة) لأنّه يدل على أنّه أراد بئراً على طريق القوافل وممرّها، فكان معروفاً لديهم (إن كنتم فاعلين) أشار به إلى الأمر بعدم التّعرض له مطلقاً؛ لأنّ إن للتّرديد في الفعل، فأشار إلى أنّ الفعل ممّا يتردّد فيه، وإنّ الأولى تركه بقاعدة: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك)[1].

❊ ❊ ❊

(١) هو حديث عن الحسن بن علي (عليه السلام) عن النبي (ﷺ)، و قال الترمذي عنه حديث حسن صحيح / سنن الترمذي ٤/٦٦٨ الحديث رقم ٢٥١٨.

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢﴾

مجمل المعنى: عندما وافق الإخوة على رأي هذا القائل اتّفقوا على أنّ يذهبوا به إلى الصّحراء فيلقوه هناك في غيابت الجبّ، فذهبوا إلى أبيهم ليأخذوه منه بحجّة التّنزه والرّياضة واللّعب، وقالوا لأبيهم: ما لك؟ أي سبب طرأ لك في أنّك لا تثق بنا ولا تجعلنا أميناً على يوسف فترسله معنا مرّة إلى الصّحراء للتّنزه والرّياضة واللّعب وإنّا له لمخلصون؟ فنلتمس منك هذه المرّة أن ترسله معنا غداً إلى الصّحراء، فإن ترسله معنا يرتع، أي يرعى الماشية معنا فيتدرّب على تربية المواشي، ويلعب معنا فينشط جسمه، ولا تخف عليه أن يصيبه شيء في الصّحراء، فإنّا له لحافظون، نحفظه من السّباع أو التّيه أو غير ذلك ممّا يوجد في الصّحراء من المهالك عادة.

تفصيل المعنى: **(قالوا يا أبانا)** خاطب الوالدَ واحدٌ منهم ونسب إلى الجميع لأنّ الخطاب كان باتّفاق الكلّ **(ما لك لا تأمنّا على يوسف)** يظهر من هذا الكلام أنّ يوسف طلب مراراً أن يذهب معهم للّعب بحكم رغبته الشّبابية فلم يأذن له أبوهم، أو أنّ الإخوة طلبوا أن يخرج معهم فلم يقبل الوالد، فمن ذلك أحسّوا بعدم تأمينه إياهم عليه، وهذا أصحّ ممّا قاله بعض المفسّرين: من أنّهم علموا ذلك من رؤيا يوسف، لأنّ يوسف لم يذكر الرّؤيا لهم امتثالاً لقول أبيه: (لا تقصص ...إلخ). ولم يذكرها أبوهم بالطريق الأولى فمن أين علموا الرّؤيا ليعلموا منها ذلك **(وإنّا له لناصحون)** قالوا هذا الكلام المؤكد بالجملة الإسميّة وإنّ واللّام وتقديم (له) على متعلقه؛ لأنّهم كانوا غير صادقين في قولهم، هذا، والكاذب من عادته أن يؤكّد كلامه لأنّه يتوهّم أن المخاطب يعلم بكذبه، فإنّ الخائن خائف قال الشّاعر:

كــــاد الـــــمـــــريــــب أن يـــــقــــول خــــذونــــي

أو لأنّهم علموا إنكاره لإخلاصهم ليوسف من الطّلب مراراً، ليخرج معهم فلم يقبل ذلك، والنّاصح بمعنى المخلص، وفي الحديث الشّريف: (الدّين النّصيحة، قالوا: لمن يارسول الله (ﷺ)؟ قال: لله ولرسوله)[١] والمعنى: الدّين الإخلاص لله تعالى

(١) الحديث بهذا اللفظ في مسند الإمام أحمد ١/ ٣٥١ الحديث رقم ٣٢٨١، وفي مسلم عن تميم الداري

ولرسوله (ﷺ)، **(أرسله معنا غداً)** الأمر إذا وجّه من العبد إلى الله تعالى، فهو دعاء مع تضرّع إليه وتذلّل، وإذا كان من الأعلى إلى الأدنى فهو طلب مع إستعلاء، وإذا كان من الأدنى إلى الأعلى كما هنا فهو التماس ورجاء، أي نلتمس منك أن ترسله معنا غداً إلى الصّحراء، فإن ترسله معنا **(يرتع)** أي يرعى الماشية فيتدرّب على تربية المواشي، أو معناه: يأكل الفواكه والبقول الموجودة في الصّحراء، أو المراد به كلا المعنيين على القول بجواز إرادة معنيين فأكثر من اللفظ المشترك **(ويلعب)** أي إن ترسله معنا يلعب **(وإنّا له لحافظون)** هذا دفع لمعذرة لعلّ أباهم يعتذر بها من أنّه يخاف أن يصيبه شيء في الصّحراء[1]، فقالوا قبل أن يعتذر بذلك: (وإنّا له لحافظون) ممّا تخاف، كأن يلحقه أذى أو يصيبه شيء، فإنّا جماعة ذات قوّة نستطيع أن نقوم برعايته وحفظه، وعدّوا أباهم بذلك بالتّأكيد .ثمّ أصبح كما يقال: حاميها حراميها، وقد صدقوا في وعدهم فإنّهم وعدوا بحفظه عن غيرهم لا عن أنفسهم. وأنّ القول على تأكيدهم في: وإنّا له لحافظون، كالكلام في وإنّا له لناصحون وقد مرّ.

الحكم: يستفاد من هذه الآية الكريمة وممّا يأتي من إرسال يعقوب يوسف معهم، أنّ بعض الألعاب حلال وليس كما يزعم بعض النّاس أنّ كلّ لعب حرام؛ إذ لو كان كذلك لما أذن يعقوب (ﷺ) ليوسف (ﷺ) أن يذهب معهم للّعب ؛لأنّ النّبيّ لا يسوق أحداً إلى الحرام فضلاً عن إبنه. هذا وإنّ اللّعب الحلال هو كلّ لعب خلا عن كشف عورة وإثارة شهوة وقمار وخلاعة ولم يرد نصّ بتحريمه، ومن الألعاب الحسنة ما يفيد الجسم صحّة كالرّياضة البدنيّة، أو يفيد في الحروب كالمسابقة في الرّمي وكالسّباحة أو دراية في الأمور المشروعة. وقد ورد في الحديث الصّحيح أنّ أهل الحبشة كانوا يلعبون في مسجد رسول الله (ﷺ): هو ينظر إليهم، وعائشة واقفة من ورائه تنظر إليهم[2]، وفي هذا دليل على جواز اللّعب والنّظر إليه للرّجال والنّساء، ولكن في إطار الحشمة والحجاب.

بلفظ:إن النبي (ﷺ) قال: الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم./ صحيح مسلم ١/ ٧٤ الحديث رقم ٥٥.

(١) أو أن دلالة حال والدهم من شدة حبه ليوسف ومعرفتهم به أنه يخاف عليه طمأنوه بأنهم له لحافظون.

(٢) نص الحديث:عن عائشة (ﷺ) قالت رأيت النبي (ﷺ) يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأم فأقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللّهو./ صحيح البخاري ٥/ ٢٠٠٦ الحديث رقم ٤٩٢٨.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣﴾

مجمل المعنى: لمّا طلب الإخوة من أبيهم بإلحاح أن يرسل معهم يوسف إلى الصّحراء للرّعي واللّعب معهم اعتذر فقال: إنّي ليحزنني ذهابكم به حيث يصعب عليّ فراقه. وأخاف أن يأكله الذّئب في وقت وحال تغفلون عنه بسبب السّباق واللّعب وغير ذلك ممّا تشتغلون به.

تفصيل المعنى: **(قال إنّي ليحزنني أن تذهبوا به)** قيل قد كان قلب يعقوب (عليه السلام) متعلّقاً بيوسف (عليه السلام) إلى حدّ كان يصعب عليه فراقه لمدّة يوم واحد، فملأ حبّه قلبه، وإنّ إنشغال القلب بغير الله تعالى لا يليق بمقام الأنبياء (على نبينا وعليهم الصلاة والسلام). فلعلّ الله تعالى أبعد يوسف عنه ليبقى قلبه متعلقاً بالله وحده، أو تنبيهاً له على ما لا يليق به. وقيل إنّه ذبح حملاً أمام عين أمّه فابتلاه الله تعالى بذلك عتاباً على ذلك؛ لأنّه آذى حيواناً بولده فعوتب بمثل ذلك. والأوّل أقوى.

(وأخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون) خاف يعقوب (عليه السلام) من الذّئب أن يأكل يوسف (عليه السلام) حينما يغفل عنه إخوته لسبب من الأسباب؛ فلا مجاز في الآية ولا إستعارة فيها. وقال بعض المفسّرين أراد يعقوب (عليه السلام) في نفسه بالأكل الإهلاك وبالذّئب أحد إخوته وهو شمعون؛ لما كان يجد منه حقداً على يوسف (عليه السلام) وعلّلوا ذلك بأمرين:

الأوّل: أنّ يوسف (عليه السلام) إذ ذاك كان عمره سبع عشرة سنة، ومن كان في مثل هذا العمر لا يخاف المرء عليه من الذّئب، لأنّه يستطيع أن يدفع الذّئب عن نفسه، والذّئب حيوان خوّاف يخاف من الإنسان كثيراً.

الثّاني: إنّ أباه بشّره بالإجتباء بالنّبوة وبإتمام النّعمة عليه، فكيف يخاف عليه أن يأكله الذّئب قبل أن ينال هذه البشارة؟

والجواب عن الأوّل: أنّ من كان في مثل هذا العمر يستطيع أن يدفع عن نفسه ذئباً واحداً أو إثنين، ولكن لا يستطيع أن يدفع عن نفسه إذا هجمت عليه جماعة من الذّئاب، وقال يعقوب: (أن يأكله الذّئب) والمراد بالذّئب هنا الجنس الموجود في ضمن الأفراد، ويصدق بوجوده في فرد واحد أو في مجموعة من الأفراد.

ونجيب عن الأمر الثّاني: بنفس دليلهم ونقول إنّ أباه بشّره بهذه البشارة، فكيف يخاف أن يهلكه شمعون قبل أن ينال هذه البشارة. نعم ورد المجاز في القرآن كثيراً، ولكنّ القاعدة المقرّرة أنّه لا يعدل عن المعنى الحقيقيّ إلى المجازي إلّا اذا كان مانع من إرادة المعنى الحقيقي، وقرينة دالّة على المعنى المجازي، ولا قرينة توجد هنا ولا مانع.

تفريع: فإنّ قيل فكيف خاف يعقوب أن يأكله الذّئب يوسف (عليه السلام) قبل أن ينال ما بشّر به؟ ألم يكن يعقوب مقتنعاً بما قال؟ وإذا لم يقتنع كيف قاله وبشّر به وهو نبيّ معصوم من الكذب، والقول بدون التّيقّن والتّثبت؟

قلنا: إنّ الايمان والإقتناع بالشّيء شيء، والإطمئنان به شيء آخر، فالإنسان يؤمن بشيء ويقتنع به ولكن لا يزال قلبه بحاجة إلى الطمأنينة، وزوال الأوهام. أما سمعت قول الله تعالى حكاية عن سيّدنا إبراهيم (عليه السلام): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٦٢ ـ وانظر إلى سيّدنا زكريّا (عليه السلام) ناداه ربه بقوله: ﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فلم يطمئن بل ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ فقال تعالى له: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ فلم يطمئن إلى أن ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ فأتت الآية وانحبس لسانه عن الكلام كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ سورة مريم الآيات ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١ ـ ثمّ اطمأنّ بعد ذلك وجاءه الولد كما وعده ربّه، فكذلك سيّدنا يعقوب (عليه السلام) كان مقتنعاً بما بشّر به يوسف (عليه السلام) ولكن يداخل قلبه الأوهام حسب الطّبيعة البشريّة ويخاف بسبب تلك الأوهام أن يأكل الذّئب يوسف (عليه السلام)، فالإنسان مهما بلغ من علوّ الدّرجة لا يخرج عن أن يعتريه ما يعتري الإنسان ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٩٦.

أو نقول: إنّ بشارة يعقوب ليوسف كان عن إجتهاد وظنّ ناشئ عن تلك الرّؤيا والظنّ قد يتخلّف إلّا عن وحي فلا يتخلّف فلذلك لم يكن مطمئناً.

الحكم: يستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ الحزن على مفارقة الأحباب لا يعتبر إثماً

ولا يؤاخذ الإنسان عليه لأنّه ليس أمراً إختياريّاً، وإنّما يؤاخذ المرء على ما يفعله المرء من الأمور الإختياريّة عند الحزن، كالجزع والفزع والنّياحة وشقّ الجيوب والإعتراض على الله تعالى، قال (ﷺ) عند موت إبنه إبراهيم: (القلب يحزن والعين تدمع وإنّا لمحزونون عليك يا إبراهيم، ولا نقول إلّا حقّاً)[١]. وإنّ يعقوب (عليه السلام) لم يفعل من المحظورات شيئاً بل قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفون﴾.

حكم آخر: ويستفاد منها حكم آخر أيضاً وهو أنّه حيث خاف يعقوب أن يأكل الذّئب يوسف (عليه السلام)، واعتمد على الإخوة في حفظه، يستفاد من ذلك أنّ الإعتماد على الأسباب جائز والخوف من المحذور عند فوت الأسباب لا حرج فيه، قال (ﷺ): (إعقل بعيرك ثمّ توكل)[٢] وذلك لأنّ الأسباب وربط المسبّبات بها من تقدير الله تعالى وقضائه، فالإعتماد عليه إعتماد على الله تعالى. وإنّ الله تعالى لم يجعل من سنّته أن يخلق شيئاً بدون الأسباب إلّا نادراً، وحينما يريد أن يجعل ذلك معجزة لنبيّ أو كرامة لوليّ أو ليعلم النّاس أنّ الله تعالى يقدر على أن يخلق بدون سبب، وأنّ السّبب شيء عديّ لا دخل له في التّأثير والإيجاد. فالأسباب لها قيمتها في الإسلام، إلّا أنّ من إعتمد على الأسباب وحدها ونسى الله تعالى مسبّب الأسباب، ورأى أنّ الأسباب هي المؤثّرة أو هي الكافية دون الحاجة إلى خلق الله تعالى للمسبّب أو أنّ الأسباب تجبر الله تعالى على الخلق فقد كفر.

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

مجمل المعنى: لما اعتذر لهم أبوهم بأنّه يخاف أن يأكله الذّئب وقت ما يغفلون عنه قالوا: والله لئن أكله الذّئب ونحن جماعة أقوياء؛ إنّا إذاً لخاسرون، أي إنّا إذا أكل الذّئب يوسف لميّتون كلّنا ولسنا بأحياء.

---

(١) عن أنس بن مالك قال: دخلنا مع رسول الله (ﷺ) على أبي سيف القين وكان ظئراً لإبراهيم (عليه السلام)، فأخذ رسول الله (ﷺ) إبراهيم فقبّله وشمّه، ثمّ دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله (ﷺ) تذرفان. فقال له عبد الرّحمن بن عوف (رضي الله عنه): وأنت يا رسول الله! قال: يابن عوف إنّها رحمة ثمّ أتبعها بأخرى فقال (ﷺ): إنّ العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلّا ما يرضي ربّنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون./ صحيح البخاري ١/ ٤٣٩ الحديث رقم ١٢٤١.

(٢) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال قال رجل لرسول الله (ﷺ) أترك ناقتي أو بعيري أو أعقله وأتوكّل قال: بل أعقله وتوكّل./ مسند أبي الجعد ١/ ٣٤٦ الحديث رقم ٢٣٨٦.

تفصيل المعنى: اعتذر لهم أبوهم بأمرين:
أحدهما: أنّه يحزنه فراقه.
الثّاني: خوفه من أن يأكله الذّئب.
فلم يجيبوه على الإعتذار الأوّل لأنّ ذلك لا قدرة لهم على دفعه، فإنّه عارض يعرض على يعقوب (عليه السلام) دون إختياره ولا مجال لدفعه، بل أجابوا عن العذر الثّاني وقالوا: لئن أكله الذّئب ونحن عصبة إنّا إذاً لخاسرون. كلمة إذ أينما وجدته منوّناً في القرآن الكريم فالتّنوين عوض عن المضاف إليه لإذ، حذف تخفيفاً وإختصاراً وهو جملة مفهومة ممّا ذكر قبل إذ، وإذ بمعنى الوقت، تقديره هنا إنّا وقت أن يأكل الذّئب يوسف لخاسرون. ذكر في مختار الصّحاح وغيره من كتب اللّغة: أنّ خسر جاء بمعنى ضدّ ربح، وجاء بمعنى ضلّ، وجاء بمعنى هلك ومات، فهنا بمعنى مات، فالمعنى: إنّا إذا أكل الذّئب يوسف لميّتون، وهذا مثل ما يقول أحد: إنّي أفعل كذا، فيقول الآخر له: إنّي إذاً لميّت، وقصده إنّي أدافع عن ذلك الشّيء ما دمت حيّاً، فإذا فعلته فمعناه أنا ميّت. أراد إخوة يوسف أنّهم يحفظونه من الذّئب ما داموا أحياءً، فإذا أكله الذّئب فمعناه أنّهم أموات غير أحياء، وبذلك اقتنع يعقوب (عليه السلام) وسمح ليوسف أن يذهب معهم، ولقد صدقوا فلم يأكله الذّئب ولكن هم أصبحوا ذئاباً له فغفر الله تعالى لنا ولهم أجمعين.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

مجمل المعنى: بعدما سمح يعقوب ليوسف (عليه السلام) أن يذهب مع الإخوة ضمّوه إليهم، فلمّا ذهبوا به للصّحراء ووصلوا البئر المعهودة لديهم أو بئراً من الآبار، واتّفقوا على أن يجعلوه في غيابت الجبّ، تمّت المؤامرة وجعلوه في قعر البئر وظلمته، فسّلينا يوسف (عليه السلام) وأوحينا إليه وهو في البئر: لا تحزن، فبعزّتي لتنجو وتعلو عليهم، ولتخبرنّهم في المستقبل بعملهم هذا وهم لا يشعرون أنّك يوسف في ذلك الوقت، أو وهم لا يشعرون بما أوحينا إليه.

تفصيل المعنى: (**فلمّا ذهبوا وأجمعوا**) أمرهم (**أن يجعلوه في غيابت الجبّ**) جواب لما محذوف تقديره تمّت المؤامرة وجعلوه في قعر البئر وظلمته.

فائدة: يفهم من قوله تعالى: (أن يجعلوه في غيابت الجبّ) أنّ الإخوة قد برد

غضبهم على يوسف شيئاً مّا، فبدّلوا الإلقاء المأمور به في قوله تعالى (لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابت الجبّ) بالجعل، لأنّ الجعل ينبئ عن وضع شيء في شيء بلطف، أو أقلاً بدون شدّة، بخلاف الإلقاء فإنّه عبارة عن رمي شيء في شيء بشدّة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ سورة الملك الآيتان/٦،٧ ـ ولعلّ ذلك كان أيضاً نتيجة نصيحة القائل: (لا تَقْتُلوا يُوسُفَ... إلخ) فإنّه كان يريد الرّأفة بيوسف والدّفاع عنه قدر الإمكان، وعلى طريقة التّدريج ليكون قوله أقرب إلى القبول. أو لأنّ أصحاب القرابة والرّحم مهما اشتدّ غضبهم على قريبهم فإنّ الرّحم تدعوهم إلى الرّأفة واللّين، وفي المثل العربي: (قريبك وإن أكل لحمك فإنّه لا يكسر عظمك)، وهذا الّذي قلنا هو الحقّ، بعكس ما في بعض التّفاسير من أنّهم حينما أخذوه إلى الصّحراء بدأوا يضربونه ويشتمونه إلى أن القوه في الجبّ، فإنّ ذلك لا يليق برعاع النّاس فضلاً عن أبناء الأنبياء، وأهل الشرق وأصحاب البيوتات، ولكنّ الإسرائيليات شوّهت علينا كثيراً من الحقائق، ويرويها بعض العلماء لحسن الظّن وصفاء النّية في كتبهم **(وأوْحينا إليه لتنبّئنّهم بأمرهم هذا)** الواو في: وأوحينا، للعطف على محذوف تقديره **(فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أمرهم أن يجعلوه في غيابت الجبّ)** ألقوه فيه وأوحينا إليه لتنبّئنّهم.... إلخ، تسلية له وبشارة.

مسألة: جاء كلمة الوحي لمعان شتّى، فقد جاء بمعنى الإشارة كما في قوله تعالى حكاية عن سيّدنا زكريّا (عليه السلام): ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ سورة مريم الآية/١١ ـ أي أشار إلى قومه أن سبحوا... إلخ. لأنّه إنحبس لسانه عن الكلام ولم يطق أن يتكلّم، فأشار وجاء بمعنى: أنطق مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ سورة الزلزلة الآيتان/ ٤،٥ ـ أي تحدّث الأرض يوم القيامة ما وقع عليها من الأخبار والأمور، بسبب أنّ ربّك أنطقها فنطقت وتحدثت. وجاء بمعنى خلق الاستعداد الفطريّ، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ سورة النحل الآية/٦٨ ـ أي خلقنا فيها استعداداً فطريّاً، به تتّخذ من الجبال بيوتاً ومن الشّجر وممّا يعرش لها النّاس. وجاء بمعنى الكلام الخفيّ، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ سورة الأنعام الآية/١١٢، أي يتكلّم بعضهم إلى بعض سرّاً زخرف القول غروراً. وجاء بمعنى تقدير الأمور وترتيبها، مثل قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ

سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ سورة فصلت الآية/ ١٢ ـ أي قدّر ورتّب في كلّ سماء أمورها وشؤونها. وجاء بمعنى الإلهام وقذف الشّيء في القلب، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ١١١ ـ أي قذفت في قلوبهم وألهمتهم الإيمان فآمنوا وقالوا... إلخ. وجاء بمعنى الوسوسة، وهي إدخال الشّر في القلب، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٢١ ـ وجاء بمعنى الأمر، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٧٣ ـ أي أمرناهم فعل الخيرات.... إلخ. وجاء بمعنى التّعليم، مثل قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ سورة هود الآية/ ٣٧ ـ أي اصنع الفلك برعايتنا وتعليمنا لك كيفية صنعها. وجاء بمعنى كلام الله تعالى مع عباده وهو قسمان:

الأوّل: وحي النّبوّة والرّسالة مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ سورة النجم الآيتان/ ٤،٥ ـ وهذا هو الغالب فيما ورد في القرآن الكريم وما عداه قليل.

الثّاني: وحي البشارة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ سورة القصص الآية/ ٧ ـ أي قلنا لها وحي بشارة أن أرضعيه كما في بعض التّفاسير، هذا ما أطلق عليه كلمة الوحي في القرآن الكريم حسبما اطلعت عليه من المعاني، فما هو المراد به في هذه الآية الكريمة.

فنقول: إذا فسّرنا الوحي هنا بالإلهام أو الوحي، وحي بشارة لا نبوّة، فلا إشكال فيه، وأمّا إذا فسرناه بوحي النّبوة فنحتاج إلى مقدمتين:

الأولى: أن يصحّ أن يوحى وحي النّبوة الى أحد قبل بلوغه أربعين سنة.

الثّانية: أنّ يوسف من هؤلاء الّذين أوحى اليهم قبل أربعين سنة من عمره، وذلك لأنّه في ذلك الوقت كان غلاماً لم يبلغ أربعين سنة. بدليل قوله تعالى حكاية عن الوارد: (فأدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلام) والغلام هو الّذي نبت شعر شاربه توّاً، وقال أكثر المفسرين: كان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة. وبدليل قوله تعالى فيه بعد ما

أخرج من الجبّ واشتراه عزيز مصر **(وقال الّذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتّخذه ولداً)** أي نتبنّاه، وليس من العادة أن يتبنّى من بلغ أربعين سنة، بل إنّما يتبنّى الطّفل أو المراهق. وبدليل أنّه تعالى يقول فيه وهو في بيت العزيز: **(ولما بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً)** وبلوغ الأشدّ يكون قبل أربعين سنة أي بين ١٥ و٢٠ سنة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٥٢ ـ وبلوغ اليتيم الأشدّ يكون بين الخامسة عشرة والعشرين من العمر، فثبت أنّ يوسف وهو في الجبّ لم يكن بالغاً أربعين سنة، فاحتجنا إلى إثبات المقدّمتين المذكورتين:

المقدّمة الأولى: هل أصبح أحد نبيّاً قبل بلوغه أربعين سنة؟ اختلف العلماء في ذلك، فمنهم من قال: نعم، وقد تنبّأ يوسف وعيسى ويحيى (عليهم السلام) قبل أربعين سنة، واستدلوا بظواهر الآيات الّتي تدلّ على ذلك، ومنهم من قال: لا، ويؤولون تلك الآيات الّتي تدلّ على خلاف قولهم، فنسرد لك تلك الآيات مع قول المفسّرين فيها لتنتج من ذلك الخلاف والقائل منهم بلا، وبنعم.

ما ورد في يحيى (عليه السلام): قال تعالى في يحيى (عليه السلام): ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ سورة مريم الآية/ ١٢ ـ قال في تفسير روح البيان: قال ابن عباس (رضي الله عنهما) الحكم: النّبوة، واستنبأه الله تعالى وهو ابن ثلاث سنين. وقال في روح المعاني: أخرج أبو نعيم وابن مردويه والدّيلمي عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) عن النّبيّ (صلى الله عليه وسلم): أنّه قال في ذلك أعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين، وجاء في رواية أخرى عنه مرفوعاً أيضاً. قال الغلمان ليحيى بن زكريّا (عليه السلام): إذهب بنا نلعب، فقال: اللّعب خلقنا إذهبوا نصلي، فهو قوله تعالى: ﴿وآتيناه الحكم صبيّاً﴾ والظّاهر أنّ الحكم على هذا بمعنى الحكمة، وقيل بمعنى: العقل، وقيل: معرفة آداب الخدمة، وقيل: القراءة الصّادقة. وقيل: النّبوة وعليه كثير. قالوا: أوتيها وهو ابن سبع سنين أو ثلاث أو سنتين. ولم ينبّأ أكثر الأنبياء قبل أربعين سنة. إنتهى. وقال في الصّاوي حاشية الجلالين: وهو ابن ثلاث سنين، وقيل: المراد بالحكم فهم التّوارة وقراءتها، وأمّا النّبوة فمتأخّرة للأربعين. فبعد ما علمت هذا تبيّن أنّ العلماء لم يتّفقوا على تنبّؤ سيّدنا يحيى قبل أربعين سنة، والّذين قالوا بذلك ليس لهم سند على ذلك حيث إنّ هذه الآية لا تدلّ على إستنبائه وهو صبيّ دون أربعين سنة، لأنّ كلّ ما تفيده أنّ سيّدنا يحيى أوتي الحكم صبيّاً، والحكم ليس

عبارة عن النّبوّة بل هو أمر آخر غير النّبوّة بدليل قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٨٩ ـ وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ سورة الجاثية الآية/ ١٦ ـ فعطف الله تعالى في الآيتين النّبوّة على الحكم، فالحكم غير النّبوة لأنّ الشّيء لا يعطف على نفسه بل على ما يغايره ويخالفه. وحديث ابن عبّاس (رضي الله عنهما) الأوّل يعارضه الحديث الثّاني، حيث فسّر الحكم فيه بالفهم والعبادة وهو أقوى من الأوّل، لأنّ الأوّل: مرسل، والثّاني: مرفوع، وهو أقوى من المرسل، بل إنّ المرسل لا يحتجّ به عند كثير من العلماء. والحديث الثّالث فسّر الحكم بحبّ العبادة والإجتناب عن اللّعب لا بالنّبوّة ولا توجد آية أخرى، ولا حديث متواتر يدلّ على ما قالوا، فتبيّن أنّ من قال بنبوّة سيّدنا يحيى صبيّاً لا دليل له لا من الكتاب ولا من السنّة ولا من الإجماع، بل الكتاب يشير إلى خلاف ذلك كما حررنا في آيتي الأنعام والجاثية، والأصل عدم التّنبّؤ قبل أربعين، فبقي الأمر على أصله وهو تنبّؤه بعد أربعين سنة والله أعلم بحقيقة الحال.

ما ورد في سيّدنا عيسى (عليه السلام)

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ سورة مريم الآية/ ٣٠ ـ قال في تفسيره في روح البيان: الجمهور على أنّ عيسى (عليه السلام) آتاه الله تعالى الإنجيل والنّبوّة في الطّفولة، ويقول الفقير المشهور: أنّه أوحي إليه بعد الثّلاثين، فتكون رسالته متأخّرة عن نبوّته. وقال في روح المعاني: قد صحّ أنّه (عليه السلام) لما ترعرع وفي رواية عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) لما بلغ سبع سنين سلّمته أمّه إلى المعلّم ثمّ قال: واختلف في زمن رسالته فقيل: في الصّبا وهو ابن ثلاث سنين. وفي البحر أنّ الوحي أتاه بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، فكانت نبوّته ثلاث سنين، قيل: وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ثمّ رفع إلى السّماء. أي في عمر ثلاث وثلاثين سنة أو ثلاثة أشهر وثلاثة أيام. وهو القول المشهور. وقال في الصّاوي: (وجعلني نبيّاً) أي في الحال. وقيل: المراد سيجعلني بعد الأربعين قولان للعلماء، والله أعلم بحقيقة الحال.

فعلم من تفسير هذه الآية وأقوال المفسرين فيها واضطراب الروايات أنّ هذه الآية لا تفيد اليقين في نبوّة سيّدنا عيسى قبل أربعين.

وعندي: أنّ القول بأنّ المراد في (يجعلني نبيّاً) سيجعلني بعد الأربعين كما في

الصّاوي هو الرّاجح لأنّه في نفس الآية ورد (وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) وليس من المعقول أنّ سيّدنا عيسى صلّى وزكّى وهو في المهد، بل المراد أمرني بالصّلاة والزّكاة فيما بعد ويستقبل، فهذه الأفعال كلّها مضارع عبّر عنه بالماضي لتحقيق الوقوع، وهذا التّعبير في القرآن كثير جدّاً. ويؤيّد هذا أنّ في بعض الرّوايات أنّ سيّدنا عيسى عليه السلام لمّا تكلّم بهذا الكلام وأنطقه الله لتبرئة ساحة أمّه رجع إلى طبع الطفولة من الصّمت وعدم القدرة على الكلام.

هذا وقد ورد في سيّدنا عيسى قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٤٩ ـ وقال الصّاوي في تفسيره، أي وهو ابن ثلاث سنين أو بعد البلوغ وهو ابن ثلاثين سنة، وكلا القولين ضعيف، والمعتمد أنّه نبّئ على رأس الأربعين وعاش نبيّاً ورسولاً ثمانين سنة، فلم يرفع إلّا وهو ابن مائة وعشرين سنة. فتبيّن من هذا أنّ نبوّة عيسى (عليه السلام) في الصّبا غير متّفق عليه، وليس نصّ في الكتاب ولا الحديث يدلّ على ذلك، والّذي يرتاح له البال القول بعدم نبوّته إلّا بعد الأربعين. لأنّ النّبوّة قيادة النّاس في الدّين والدّنيا، فكيف يقود النّاس طفل أو صبيّ أو من لم يبلغ مبلغ الرّجال وتسلّم إليه القيادة؟

ما ورد في سيّدنا يوسف (عليه السلام):

ورد فيه هذه الآية الكريمة الّتي نحن بصدد تفسيرها، وهي قوله تعالى: ﴿وأوحينا اليه لتنبّئنّهم.....إلخ) قال في تفسيرها في روح المعاني للآلوسي وكان ذلك على ما روي عن مجاهد، أنّه كان بالإلهام، وقيل بالإلقاء في مبشّرات النّوم، وقال الضّحاك وقتادة بإرسال جبريل. إنتهى. وأقول إنّ إرسال جبريل لا يدلّ على تنبّؤ يوسف في ذلك الوقت؛ لأنّ جبريل جاء لأن يؤانسه ويطمئنه، كما يأتي ذلك عن الجلالين، فيكون معنى الوحي على هذا وحي بشارة لا وحي نبوّة. وفي البيضاوي مثل ما في روح المعاني إلّا أنّه زاد وقيل: بالنّبوّة، وقال في روح البيان: هو وحي نبوّة ورسالة، وقد صحّ أنّ الله تعالى أوحى إلى يحيى وعيسى (عليه السلام) قبل إدراكهما أربعين، فأمر النّبوّة والولاية لا تتوقّف على أربعين سنة. وإن لم يتنبّأ أكثر الأنبياء قبل أربعين سنة على ما جرى سنة الله تعالى، إنتهى. أراد صاحب روح البيان أنّه جعل الله تعالى سيّدنا يوسف ويحيى وعيسى (على نبينا وعليهم الصلاة والسلام) أنبياء قبل أربعين؛ معجزة خاصّة بهم فوق المعجزات الأخرى الّتي أوتوها، ولا دليل له على ذلك يذكر شيئاً منه. قال الإمام

الرّازي (رحمة الله تعالى عليه وعلينا)[١] : إنّ المراد منه الوحي والرّسالة، وهذا قول طائفة من المحقّقين، وقال بعض: المراد منه الإلهام وأيّد القول الأوّل بقوله: والأوّل أولى لأنّ الظّاهر من الوحي ذلك، **ونقول**: إنّ الوحي كما سبق مشترك بين عدّة معان، فلا يكون أحد معانيه ظاهراً إلّا بدليل، فمن أين هذا الدّليل أو القرينة؟ وسكت ابن كثير عن بيان معنى الوحي هنا. وقال في الجلالين: (وأوحينا إليه) في الجبّ وحي حقيقة، وهو ابن سبع عشرة سنة تطميناً لقلبه بأنّه سيخلّصه ممّا فيه، ويجعله مستولياً على إخوته، وعلّق عليه الجمل فقال: فهذا ليس إرسالاً بأحكام ولا إنباء، أي إعطاء للنّبوّة لما علمت أنّ سنّه لم يبلغ أوانها الّذي هو الأربعون سنة، بل هو تطمين لقلبه، فجاءه جبريل (عليه السلام) وآنسه .وأمّا الخازن فقد حذا حذو الإمام الرّازي، فذكر القولين وأيّد الأوّل منهما، وكأنّه أخذ ذلك من تفسيره،وكذلك فعل النّسفي (رحمهما الله تعالى). هذا ما قاله هؤلاء المفسّرون في معنى الوحي في هذه الآية الكريمة، والحقّ أنّ القول بأنّ الوحي هنا بمعنى الإلهام أو وحي البشارة لا النّبوّة هو الجدير بالقبول. بدليل أنّ سيّدنا يوسف (عليه السلام) بعدما أخرج من الجبّ ودخل بيت العزيز في مصر، يقول الله تعالى في حقّه: (ولمّا بلغ أشدّه آتيناه حكماً وعلماً) فتفيد هذه الآية الكريمة أنّه في الجبّ لم يبلغ الأشدّ، ومن لم يبلغ الأشدّ والكمال لا يصير نبيّاً بالإتّفاق، فلم يكن في الجبّ نبيّاً حتّى يوحى إليه وحي نبوّة، بل بعدما دخل بيت العزيز وبلغ الأشدّ لم يصبح نبيّاً لأنّ إيتاء الحكم والعلم ليس عبارة عن النّبوّة، بدليل أنّ الله تعالى قال في سيّدنا موسى (عليه السلام) حينما كان في مصر وفي بيت فرعون: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة القصص الآية/ ٢٧ ـ مع الإجماع على أنّ سيّدنا موسى لم يصبح نبيّاً إلّا بعد الهجرة من مصر والبقاء مدّة طويلة في مدين، وفي طريق الرّجوع إلى مصر. هذا وختاماً نكتب ما ذكره الشّيخ سليمان المشهور بالجمل في حاشيته على قول الجلالين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧٥ ـ رفع عيسى وله ثلاث وثلاثون سنة، فقال الجمل ما نصّه

(١) كان رأيه إن يدعو لنفسه أيضا فيقول رحمة الله عليهم وعلينا أو رضي الله عنهم وعنا تسننا بالقرآن الكريم حين يقول ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ لأنه رحمه الله نعالى كان يقول: من دعا لنفسه ولم يدع لغيره فهو بخل، ومن دعا لغيره ولم يدع لنفسه فهو عجب فالصحيح أن يعم الدعاء فيدعو لغيره ولنفسه...

عبارة المواهب مع شرحها للزّرقاني: وإنّما يكون الوصف بالنّبوة بعد بلوغ الموصوف بها أربعين سنة، إذ هو سنّ الكمال ولها تبعث الرّسل. ومفاد هذا الحصر الشّامل لجميع الأنبياء حتّى يحيى وعيسى (على نبينا وعليهما الصّلاة والسّلام) هو الصّحيح. ففي زاد المعاد ما يذكر من أنّ عيسى رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة لا يعرف له أثر متّصل يجب المصير إليه. قال الشّامي: وهو كما قال، فإنّ ذلك إنّما يروي عن النّصارى، والمصرّح به في الأحاديث النّبويّة أنّه إنّما رفع وهو ابن مئة وعشرين سنة. ثمّ قال الزّرقاني: مهمّة وقع للحافظ الجلال السّيوطي في تكملة تفسير المحلّي وشرح الغاية وغيرهما من كتبه الجزم بأنّ عيسى رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وما زلت أتعجب منه مع مزيد حفظه وإتقانه وجمعه للمعقول والمنقول حتّى رأيته في مرقاة الصّعود أنّه رجع عن قوله هذا. انتهى. فإذا علمت هذا وما حرّرناه من قبل في التّفصيل؛ فنقول في معنى الوحي هنا (وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ) أي إلى يوسف وحي بشارة أو إلهام (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُون) وجملة لا يشعرون حالته وقعت حالاً، أمّا عن فاعل أوحينا أخرّت لرعاية الفواصل. ومفعول لا يشعرون محذوف والتّقدير وأوحينا إليه، أي إلى يوسف (ﷺ)، والحال أنّهم أي الإخوة لا يشعرون بهذا الوحي والبشارة إلى يوسف. أو حال عن المفعول لتنبئنهم وهو كلمة هم، ومفعول لا يشعرون محذوف أيضاً، والتّقدير (وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا) في الحال الّتي لا يشعرون أنّك يوسف أو حال عن كليهما، حذف من الأوّل بقرينة الثّاني والتّقدير: وأوحينا إليه وهم لا يشعرون بهذا الوحي إليه، والله لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون أنّك يوسف، وقد حصل ذلك حينما قال لهم وهو عزيز مصر: (هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيوسُفَ وَأَخيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلون) وما كانوا يعرفون أنّه يوسف.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾

مجمل المعنى: بعدما نفّذ الإخوة مؤامرتهم ضدّ يوسف وجعلوه في ظلمة البئر وتركوه هناك، جاؤوا أباهم وقت العشاء يبكون بكاء الثّكلى على ولده.

تفصيل المعنى: كان سيّدنا يعقوب (ﷺ) كالجالس على الجمر في انتظار يوسف (ﷺ) وكالصّائم في تمّوز ينتظر أذان المغرب، فكان ينتظر رجوع الأولاد ليرجع معهم يوسف معقد آماله ومتعلّق حبّه، ولكن الأذن الّتي تنتظر نداء البشارة برجوع يوسف إذ تسمع الأولاد كلّهم يبكون، فماذا يكون موقف سيّدنا يعقوب (ﷺ) حينما يسمع بكاء

الأولاد حين الرّجوع، الموقف معلوم لكلّ من رأى عطوفة الأبّوة هنا وهو أنّه: كيف جاء بكاء الإخوة وهم كانوا مسرورين بتنفيذ خطّتهم غير متأسّفين على يوسف؟ فكيف بكوا بكاءً حقيقيّاً؟ وإذا كان ما فعلوا تباكياً لا بكاءً فكيف قال تعالى فيهم (يبكون)؟

الجواب على هذا السّؤال بأوجه:

الأوّل: أنّهم تباكوا أولاً وتصنّعوا بالبكاء؛ ثمّ صار عليهم بكاءً حقيقيّاً، وذلك موجود، فكثيراً ما يضحك الإنسان أو يبكي تصنّعاً ثمّ يصبح ضحكاً حقيقيّاً وبكاءً صدقاً، بل ربّما يعمل الإنسان شيئاً تصنّعاً فيصبح ذلك الشّيء حقيقيّاً له. وإنّي قد صاحبت طالبين أحدهما ملاّ كريم والآخر ملاّ فتّاح. فكان ملاّ كريم ثقيل اللّسان يكرّر الحروف عند التلّفظ بها فيقول: أأأنا كريم، أأأخي، وهكذا فبدأ ملاّ فتاح يقلّده تصنّعاً فثقل لسانه وأصبح شرّاً منه[1]. وما أكثر ما دخل الإنسان في شيء تصنّعاً لا صدقاً ولا حبّاً فيه، ثمّ يصبح ذلك الشّيء حقيقيّاً ومحبوباً له. ولذلك كان رسول الله (ﷺ) يقبل من الكافر الإسلام ولو كان ذلك تحت بريق السّيف وخوف القتل، لأنّ من دخل في شيء يصبح ذلك الشّيء بالإستمرار حقيقةً ومحبوباً لديه. وكم من أناس أسلموا تصنّعاً أو خوفاً ثمّ أصبح الإسلام أعزّ شيء عليه وضحّى في سبيله بنفسه وماله. فلا يبعد أنّ إخوة يوسف (عليه السلام) بكوا تصنّعاً ثمّ صار البكاء بكاءً حقيقة.

الثّاني: أنّهم ربّما بكوا لما تفكّروا في موقف والدهم ومدى حزنه وتألّمه حينما يخبرونه أنّ يوسف أكله الذّئب فثار حزنهم على أبيهم وبكوا عليه لا على يوسف (عليه السلام).

الثّالث: من طبيعة أكثر النّاس أنّهم إذا سمعوا بكاء باك يسري البكاء إليهم فيبكي، فلعلّ أنّه كان من بين الإخوة من كان له عطف على يوسف فحينما رجعوا تذكّر حاله فبكى وسرى البكاء إلى الباقي منهم. أو لعلّهم حينما وصلوا إلى القرية وقبل الوصول إلى أبيهم أخبروا النّاس بأنّ يوسف أكله الذّئب فبكى النّاس والنّساء والجيران وسرى البكاء إليهم فبكوا وجاؤوا أباهم وهم يبكون.

﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

---

(١) لعله من باب ما روي عن بن جابر قال: ما عاب رجل قطّ بعيب إلّا ابتلاه الله بمثل ذلك العيب.

مجمل المعنى: لمّا سمع يعقوب (عليه السلام) بكاءهم قال: ما بالكم يا أبنائي؟ هل أصاب غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما بالكم؟ وأين يوسف؟ قالوا: يا أبانا إنّا ذهبنا نتسابق في الفروسيّة والرّمي وتركنا يوسف عند أمتعتنا وابتعدنا عنه بسبب السّبق فأكله الذّئب، فلم يصدّقهم أبوهم وأظهر لهم علامات الإنكار والتّكذيب، فقالوا له: وجه العتاب وما أنت بمصدّق لنا ولو كنا صادقين فيما أخبرناك به.

تفصيل المعنى: (وما أنت بمؤمن لنا) أصله وما تؤمن لنا. غير النّظم لفائدتين:

إحديهما: ما في الجملة الإسميّة من الثّبوت والدّوام. فأرادوا أنّك ثابت على عدم تصديقك لنا في هذا الخبر ومستمرّ على ذلك، علموا ذلك من شدّته في الإنكار والتّكذيب لهم، ومن علمهم بأنّه يظنّ فيهم الحسد على يوسف.

الثّانية: التّخصيص، فإنّه في قوّة وما أنت تؤمن لنا، وإذا ولي المسند إليه حرف النّفي أفاد تخصيص المسند والفعل به، والمعنى إنك وحدك لا تصدّقنا في هذا الخبر لا غيرك، فإنّهم كانوا يصدّقونهم لأنّهم كانوا أولاد الأنبياء، وحسني السّمعة والأخلاق عند النّاس، ما جربّهم أحد على الكذب فكانوا يصدقونهم، ولكنّ أباهم كانوا يحسون منه أنّه يحسّ منهم أنّهم يحسدون يوسف، فلذلك علموا أنّه يتّهمهم فلا يصدّقهم هو وحده. هذا وإنّ الكلام خاص بهذا الخبر، أي لا تصدّقنا في ما نقول أنّ يوسف أكله الذّئب فلا يفيد العموم، وإنّ أباهم لا يصدّقهم في الأخبار كلّها. لأنّهم كانوا محلّ ثقته أولا وآخراً كما يفهم ذلك من القصّة. **(ولو كنّا صادقين)** الإنسان الّذي لم يتعوّد الكذب ولم يمهر فيه يشهد في طيّ كلامه بأنّه كاذب، فإخوة يوسف حيث لم يتعوّدوا الكذب شهدوا على أنفسهم بالكذب بقولهم ولو كنّا صادقين، لأنّ كلمة (لو) تفيد إستحالة ما بعدها من الشّرط، فمعنى ولو كنّا صادقين، ولو فرض على سبيل فرض المحال صدّقنا فيما أخبرناك به في يوسف، **أو نقول**: لم يريدوا ب ـ (لو) معناه الموضوع له، وهو الدّلالة على إمتناع الجزاء لإمتناع الشّرط، حيث لو أرادوا ذلك لشهدوا على أنفسهم بالكذب كما قلنا، بل أرادوا به معنى آخر يستعمل فيه كثيراً وهو الدّلالة على وجود الجزاء على جميع التّقادير أي على تقدير وجود الشّرط وعدمه، فالمعنى: وما أنت بمؤمن لنا صدقنا أو لم نصدق، وهذا الإستعمال وارد في القرآن الكريم منه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ سورة لقمان الآية/ ٢٧ ـ إذاً المعنى: ما نفدت كلمات الله تعالى سواء

كانت الأشجار كلّها أقلاماً والبحر مداداً، وانضم إليه سبعة أبحر فكتب بها كلماته أو لم يكن ذلك، لأنّ كلمات الله تعالى أي معلوماته غير متناهية. وهذا المعنى هنا أصّح بالإرادة والله أعلم.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

مجمل المعنى: أكّدوا خبرهم بأن جاؤوا بدم منتشر على قميص يوسف ونسبوا هذا الدّم إلى يوسف كذباً لأنّه لم يكن دمه، بل ذبحوا حيواناً لطّخوا القميص بدمه بعد نزعه منه وقبل جعله في الجبّ، فلمّا نظر يعقوب إلى القميص لم ير أي تمزّق فيه، فتأكّد من كذبهم وأن هذا الدّم ليس دم يوسف، وقال ما أحلم هذا الذئب أكل ولدي ولم يمزّق قميصه، ثمّ وجّه كلامه إلى الأبناء، فقال: لا إنّ يوسف لم يأكله الذّئب، بل سولّت لكم أنفسكم أمراً، أي زيّنت لكم أنفسكم أمراً سيّئاً فعملتموه بيوسف، فأمري تجاه هذه الحادثة المفجعة هو صبر جميل وهو ما لا إعتراض فيه على الله تعالى ولا جزع ولا فزع فيه، والله هو الّذي يستعان به على ما تصفون وتخبرون من أنّ يوسف أكله الذّئب فأستعين به لا بغيره.

تفصيل المعنى: **(وجاؤوا على قميصه بدم)** قدم قميصه على بدم وإن كان من متعلقاته لأنّه لو قال: وجاؤوا بدم على قميصه، لتوهّم قبل ذكر قميصه، أنّهم جاؤوا بدم في ظرف أو إناء فلم يفهم من أوّل الأمر أنّهم جاؤوا بالدّم منتشراً على القميص. فقدّم ليفهم ذلك أوّل الأمر. قوله: **(كذب)** صفة لدم، والكذب لا يوصف به إلّا الأقوال والأخبار فكيف صحّ ذلك؟ **قلنا**: هو صفة المحذوف، هو متعلّق بما هو صفة لدم، والتّقدير: بدم منسوب إلى يوسف نسبة كذباً، فحذفت الصّفة ومتعلّقها وجعل صفة الدّم صفة متعلّق للدّم وأعربت إعرابها **(قال بل سولّت لكم أنفسكم أمراً)** حينما رأى سيّدنا **يعقوب** (عليه السلام) أنّ القميص لم يتمزّق أيقن بأنّ يوسف لم يأكله الذّئب فقال لهم: لا إنّ يوسف لم يأكله الذّئب كما تقولون، بل زيّنت أنفسكم لكم أمراً سيّئاً قمتم به في حقّ يوسف **(فصبر جميل)** بعدما قال سيّدنا يعقوب (عليه السلام)لأبنائه (بل سولّت لكم أنفسكم أمراً) أصبحت قلوبهم تطير من القلق وارتجفت فرائصهم ممّا يتصوّرون ما يقوم به أبوهم من الإجراءات، وفكّروا ماذا يصبّ عليهم من أسواط العذاب، فإنّه كذّبهم في

خبرهم وحكم عليهم بأنّهم عاملوا يوسف معاملة سيّئة وأفقدوه بسبب من الأسباب، وفي المثل: (الخائن خائف) سيّما إذا علم بأنّ صاحب الأمر قد أحسّ بالخيانة، وعلم يعقوب ذلك القلق في أولاده. ولكن ماذا يفعل؟ هل ينتقم من يده اليسرى لليمنى؟ وهل يقطع أكباده من أجل فقدان قلبه؟ فهل إذا فقد يوسف يعمل عملا يفقد به الأبناء الآخرين أيضاً؟ لا، فليس له علاج إلّا الصّبر، فطمأنهم بأنّه لا يختار لأمره هذا إلّا الصّبر الجميل وأنّه يستعين بالله وحده ولا يستعين بغيره أبداً.

مسألة: لقد كان سيّدنا يعقوب (عليه السلام) يعلم أنّ يوسف (عليه السلام) حيّ يرزق لم يقتل ولم يؤكل. فلماذا لم يرسل ليفتّش عنه في الصّحراء؟

الجواب: نعم. قد علم ذلك، ولكن ربّما كان يظن أنّهم باعوه لقافلة مرّت لهم فذهبت به حيث ذهبت. حيث كان هذا الأمر سائداً في زمانهم، أنّ من تغلّب على أحد يسترقه ويبيعه. وبقي هذا النّظام سائداً إلى أن أبطله الإسلام كما أبطل كلّ الأنظمة السّائدة الفاسدة. فكان سيّدنا يعقوب (عليه السلام) يعلم أنّه حيّ ولكنّ لا يعلم أين هو. فلا فائدة في التّفتيش عنه. ولعلمه هذا كان يتحسّس أخباره من هنا وهناك ولم يكن مأيوساً منه.

الحكم: لم يكن لسيّدنا يعقوب (عليه السلام) دليل يحكم به ويستدل به على تكذيبهم إلّا أنّه إعتمد على القرينة. وهي أنّ القميص لم يتمزّق. فحكم بهذه القرينة أنّ يوسف لم يأكله الذّئب فيعلم. بهذا أنّ الحكم بالقرينة جائز، بشرط أن تكون القرينة بحيث لا تبقي مجالاً للشّك، وهذا موجود في الإسلام، فإنّ سيّدنا عمر (رضي الله تعالى عنا وعنه) أفتى بإقامة الحدّ على المرأة إذا حبلت ولم يكن لها زوج، ويحكى أنّ رجلين كانا يغتسلان وكان لأحدهما قطيفة حمراء وللآخر قطيفة خضراء، فخرج أحدهما قبل صاحبه فلبس قطيفته وذهب، فاشتكى صاحبه عند القاضي شريح فقال القاضي: هل عندك بيّنة؟ قال: لا،. فأتى بمشط فمشط رأس أحدهما فخرج منه شعرات حمراء، ومشط رأس الآخر فخرج منه شعرات خضراء، فأعطى الخضراء لصاحب الشّعرات الخضراء، والحمراء لصاحب الشّعرات الحمراء.

فائدة: أجمع المفسّرون على أنّ اخوة يوسف لم يكونوا أنبياء حينما قاموا بهذا العمل، لأنّ الأنبياء معصومون عن إرتكاب الجرائم والكبائر، وأمّا بعد ذلك وقد تابوا وعفا عنهم يوسف (عليه السلام) وأبوهم، فهل أصبحوا أنبياء أم لا؟ اختلف في ذلك العلماء،

فمن منع صدور الذّنب من الأنبياء قبل النّبوّة وبعدها لا يجوز، ولا يقول بنبوّتهم لا قبل هذا العمل ولا بعده. وأمّا من يجوّز صدور الذّنب من الأنبياء قبل النّبوّة فمنهم من قال: قد أصبحوا أنبياء فيما بعد، ومنهم من نفى ذلك وقال: لم يصبحوا أنبياء، هذا والأصل عدم نبوّتهم لأنّ الأصل في كلّ شيء عدمه، فلا ثبت نبوتهم إلّا بدليل قطعي من القرآن الكريم أو الحديث المتواتر نقله عن الرّسول الكريم، ولا يوجد شيء من ذلك. فإنّ أقوى ما إستدلّ به القائلون بنبوّتهم دليلان:

الأوّل: قوله تعالى حكاية عن سيّدنا يعقوب أنّه قال ليوسف(ﷺ): (وكذلك يجتبيك ربّك ويعلّمك من تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إنّ ربّك عليم حكيم). قال: إنّ سيّدنا يعقوب أخبر بأنّ الله تعالى يتمّ نعمته على آل يعقوب وإنّ أبناءه من آله فيكونون معاً أتمّ الله نعمته عليهم، لأنّ يعقوب نبيّ وخبر النّبيّ صادق، فصدق أنّه أتمّ الله نعمته عليهم، وإتمام النّعمة عليهم لا يكون إلّا بجعلهم أنبياء، فثبت أنّهم أصبحوا أنبياء فيما بعد، فيقال لا نسلّم أنّ إتمام النّعمة عليهم لا يكون إلّا بجعلهم أنبياء، بل يكون بإسعادهم في الدّين والدّنيا، وقد سعدوا فيهما لأنّهم صاروا من أمراء مصر وتابوا من عملهم هذا وعفا عنهم أخوهم وأبوهم، وأصبحوا رجالاً صالحين وأئمّة في الدّين. هذا ولو كان المراد بإتمام النّعمة النّبوّة للزم أن يكون جميع المسلمين سيّما أصحاب رسول الله (ﷺ) أنبياء كلّهم لأنّه خاطبهم بقوله: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ سورة المائدة الآية/ ٣ ـ وليس كذلك بداهة، بل يستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ إتمام النّعمة هو إكمال إنزال الشّريعة على الأمّة، وقد حصل ذلك لآل يعقوب حيث أنزل الله الشّريعة على سيّدنا يوسف (ﷺ) وجعله رسولاً إليهم وإلى غيرهم، فإنّ قيل: إنّ يعقوب أخبر بأنّ الله تعالى يتمّ النّعمة على آله إتماماً مثل إتمامه على إبراهيم وإسحاق (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) وإتمام النّعمة عليهما كان بالنّبوّة، فإنّ المشبّه يأخذ حكم المشبّه به، فإتمام النّعمة على آل يعقوب يكون بالنّبوّة. قلنا التّشبيه لا يقتضي مساواة المشبّه للمشبّه به في كلّ الأمور والأحكام، فإنّك حينما تقول زيد كالأسد، لا تريد مساواة زيد للأسد إلّا في الشّجاعة لا في كلّ الصّفات وإلّا لارتفع التّعدد بينهما فلا يلزم أن يكون إتمام النّعمة على آل يعقوب (ﷺ) كإتمام النّعمة على إبراهيم وإسحاق (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) من كلّ الوجوه بل في الإسعاد في الدّنيا وفي الدّين فقط دون النّبوة. ولو سلّم ذلك فلا نسلم أنّ إضافة الآل إلى يعقوب

للإستغراق بل للعهد إلى البعض، فيصدق ذلك بنبوّة يوسف (عليه السلام) وغيره من الأنبياء من بني إسرائيل من بعد يوسف (عليه السلام). حيث لو أريد الإستغراق للزم أن يكون كلّ من ولد من ذرية يعقوب نبياً وليس كذلك، فإنّه كان من ذريّته الكافر والمسلم والصّالح والطّالح. ولو قيل: المراد الإستغراق للآل الموجودين وقت الخطاب، قلنا: فيلزم أن تكون إمرأته نبيّةً أيضاً لأنّها من آله بدليل إستثناء الإمرأة عن الآل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ سورة الحجر الآية/ ٥٩ ـ ولا تكون المرأة نبيّة .ولك أن تقول: المراد إستغراق الآل الموجودين وقت الخطاب، والإمرأة مستثناة بقرينة عدم صلاحيّتها للنّبوّة ولكنّه وجه بعيد. سيّما وقد ذكر إتمام النّعمة مع الإجتباء فلو أريد بكليهما النّبوّة للزم التذكرار، فلا بدّ أن يراد بأحدهما غير النّبوّة. وقد شاع الإجتباء في القرآن الكريم في معنى النّبوّة، فالمراد بإتمام النّعمة غيرها. هذا ما سنح بالبال. والله أعلم بحقيقة الحال.

الدّليل الثّاني: قالوا: إنّ يوسف (عليه السلام) رآهم في المنام في صورة الكواكب وأنّ الكواكب يهتدى بها قال تعالى: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُون﴾ سورة النّحل الآية/ ١٦ ـ فيدلّ ذلك على أنّهم سيكونون ممّن يهتدى بهم والمهتدى به نبيّ لا محالة.

فنقول: أوّلاً أن الكواكب غير النّجوم فإنّه تعالى ذكر في القرآن الكريم الكواكب على حدة والنّجوم على حدة، وذكر لكلّ خاصيّة غير ما للآخر فيقول سبحانه تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ سورة التكوير الآيتان/ ١،٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ سورة الإنفطار الآية/ ١،٢ ـ وأكثر ظنّي أنّ النّجوم إسم للأجرام المضيئة، والكوكب إسم لغير المضيئة منها بقرينة نسبة الإنكدار الى النّجوم، والإنتثار إلى الكواكب. ولو سلم أنّهما بمعنى واحد فنقول: رؤيتهم في هذه الصّورة إنّما تدلّ على شرفهم ولا إشكال في ذلك، وأمّا على كونهم أنبياء فلا؛ لأنّه ليس كلّ من اهتدى به النّاس فهو نبيّ لأنّ العلماء العاملين يهتدى بهم وليسوا أنبياء، فكلّ ما يدلّ عليه رؤيتهم على هذه الصّور أنّهم يهتدى بهم وقد حصل ذلك لهم لأنّهم اهتدوا واهتدى بهم النّاس حيث بلغوا شريعة أخيهم يوسف (عليه السلام) الّتي أوحيت إليه كرسول لا إليهم. ولو استلزم رؤيتهم في صورة الكواكب أن يكونوا أنبياء للزم أن تكون أمّهم أيضاً نبيّة لأنّها رؤيت في صورة الشّمس وهي أكبر وأقوى في الإضاءة، وإهتداء النّاس بها من جميع الكواكب. وهذا باطل. هذا وما ذكروا من باقي

الأدلّة أظهر من هذين الدّليلين في البطلان فإبطالهما يفيد إبطاله فلا حاجة إلى إيراده والرد عليه والله أعلم.

لطيفة: إنّ بعض المفسّرين قدّسوا إخوة يوسف (عليه السلام) وعدّوهم أنبياء وأوّلوا لهم الآيات إلى غير مدلولاتها، وفسّروا عملهم هذا في حقّ يوسف بما هو حسن. وبعض المفسّرين كالوا عليهم من الملامة والذّم حتّى عدّوا كلّ جرائم اليهود إلى الآن موروثة منهم، فنقول للأولين: لا حاجة إلى التّعب في جعلهم أنبياء ولم يثبت في كتاب ولا سنّة ما ينص على نبوّتهم، وليست النّبوّة ملكاً لنا فنهبها لمن نشاء بل هي منحة من الله تعالى يهبها لمن يشاء من عباده، ولا يمكن القول بنبوّة أحد إلّا بدليل قطعي من الكتاب أو السّنّة ولا يوجد شيء من ذلك. ونقول للآخرين: مهلاً يا سادة فإنّ إخوة يوسف (عليه السلام) عفي عنهم، أفلا تعفون عنهم أنتم بعد كلّ ذلك سيّما وأنّهم أصبحوا فيما بعد رجالاً صالحين وقادة في الدّين فسامحوهم يا إخوان وإلّا فإنّ الله تعالى يحاسبكم على ذلك، أفلا تتذكّرون ماذا فعل أهل مكّة برسول الله (ﷺ) من الإيذاء وأرادوا قتله فلم ينجحوا وأخرجوه من بلدته ثمّ أصبحوا بعد ذلك رجالاً كراماً وقادةً شهاماً وأئمّةً أعلاماً، فعاملوا إخوة يوسف كما تعاملون أهل مكّة الّذين أصبحوا أصحاب رسول الله (ﷺ)، ولا يجوز لنا أن نقول فيهم إلّا بقدر ما قال فيهم القرآن الكريم، وأنّهم وقعوا في خطأ فغفر الله تعالى لنا ولهم ولسائر المسلمين آمين.

* * *

وهنا نترك يعقوب (عليه السلام) وأبناءه يستقبلون حياة جديدة بعد يوسف، كما أراد الله تعالى، ونرجع إلى يوسف لنرى ماذا فعل الله تعالى به، وذلك في ضوء الآيات الكريمة فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

مجمل المعنى: بقي يوسف (عليه السلام) في البئر ينتظر الفرج من الله تعالى، فقدّر الله تعالى أن جاءت قافلة نزلت قرب البئر فأرسلوا خادمهم الموكّل بجلب الماء؛ فجاء إلى البئر فأدلى دلوه فيها فتعلّق يوسف (عليه السلام) بالدّلو بدون علم من الوارد أو بعلمه، بأن

ناداه ياعبد الله أخرجني جزاك الله تعالى، فلمّا وصل يوسف إلى حافّة البئر ورآه الوارد فرح فرحاً كثيراً فلم يتمالك نفسه فنادى: يا قوم بشرى لكم هذا غلام وجدته، فأخذوه وأخفوه عن النّاس واتّخذوه عبداً لهم، والله عليم بما يعملون بيوسف في الحال والمستقبل.

تفصيل المعنى: **(وجاءت سيّارة)** أي سيّارة مجهولة لا يعرفون يوسف ولا سلالته، ولو عرفوا ذلك حقّ المعرفة لردّوه إلى أهله وما استرقّوه **(فأرسلوا واردهم)** الوارد هو الّذي عيّن في القافلة لجلب الماء لهم، فذهب الوارد إلى البئر **(فأدلى دلوه)** فيها فتعلق يوسف بالدّلو فلمّا خرج ورآه الوارد **(قال يا بشرى هذا غلام)** لا يخفى أنّ النّداء يوجّه إلى الأشخاص لا المعاني، وإنّ البشرى هو معنى فكيف نودي؟ قلنا: التّقدير يا قوم بشرى لكم هذا غلام، حذف المنادى للإختصار وللإستعجال بذكر المنادى له لكثرة الفرح عند حصوله، والغلام من نبت شعر شاربه توّاً وهو ابن ما بين خمس عشرة وبين عشرين سنة، ويقال: أنّه كان في ذلك الوقت ابن سبع عشرة سنة .(وأسرّوه بضاعة) أي وأخفوه بضاعة، وبضاعة حال عن الضّمير وأسرّوه وحيث لا يصحّ أن تقع البضاعة حالاً، لأنّ الحال يجب أن يكون وصفاً لذي الحال، فيجب أن يكون التّقدير وأسرّوه مُتّخذاً بصيغة المجهول بضاعة فتكون بضاعة مفعولاً ثانياً للحال وهو متّخذاً، أو حال عن الفاعل في وأسرّوه فالتّقدير: وأسرّوه متّخذين إيّاه بضاعة، فحذف الحال على التّقديرين، ووضع مفعوله الثّاني موضعه وأعرب بأعرابه **(والله عليم بما يعلمون)** أي أنّ كلّ ذلك من فعل الإخوة مع يوسف ونيّة القافلة من إسترقاقه وبيعه في ما بعد، يجري كلّ ذلك بعلم من الله تعالى وإرادته، وذلك ليسيّر يوسف في بحر من الأقدار إلى أن يظهر حكمة الله تعالى فيها، ويمتحنه الله تعالى في السّراء والضّراء ليستعدّ لما يريد منه من حمل الرّسالة؛ فإنّ الحديد ما لم يحم لم يعدّل ولا يتّخذ منه العتاد. وقد نجح في كلّ ذلك فنال ما أعدّ له من منزلة الدّنيا والآخرة.

مسألة: قيل: قد كان يوسف قريباً من أهله، ومرّ بالقبائل والعشائر الّتي تعرفه وتعرف سلالته، فلمَ لم يفرّ من القافلة أو لم يتّصل بأحد لينقذه منهم ويرجع إلى أهله؟

فأجيب: بأنّ يوسف (عليه السلام) إنكشف له نوايا إخوته معه وظنّ أنّه لو رجع إليهم فسوف يكيدون له كيداً أسوأ من هذا ويدبّرون له ما يؤدّي إلى قتله؛ فاختار السّلامة في الغربة على حياة في الوطن يملأها القلاقل وكيد الأعداء، وهذا جواب وجيه. ولكن يمكن

أن **نقول**: أنّ النّظام السّائد في ذلك الوقت أنّ من تغلّب على شخص واسترقّه يكون عبداً له ورقيقاً تحت ملكه فلم ير يوسف من الجائز أن يأبق من سادته أو يسلك طريق المخالفة لهم لأنّ مخالفة العبد للسّيد وإباقه منه ليس بجائز. هذا والله تعالى أعلم.

* * *

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

مجمل المعنى: أخذت القافلة يوسف (عليه السلام) وذهبوا به إلى مصر وعرضوه على البيع في سوق الرّقيق وباعوه بثمن قليل بالنّسبة إليه أو بالنّسبة لسعر العبيد، وكان الثّمن دراهم معدودة لقلّتها لا موزونة، وكانوا غير راغبين في بقائه عندهم، فاستعجلوا في بيعه، ولو صبروا لباعوه بأكثر من ذلك بكثير.

تفصيل المعنى: **(وشروه)** أي باع أهل القافلة يوسف (عليه السلام) **(بثمن بخس)** قليل بالنّسبة إلى جمال يوسف وأخلاقه وأمانته وحسن تدبيره للأمور، ولو انتظروا وصبروا لباعوه بأكثر من ذلك الثّمن بكثير، وكان ذلك الثّمن **(دراهم معدودة)**، ذكر هذا لأنّه كان من العادة أن يأخذوا ويعطوا القليل بالعدد والكثير بالوزن. ولماذا باعوه بهذا الثّمن القليل؟ لأنّهم **(وكانوا فيه من الزّاهدين)** غير راغبين في بقائه عندهم، واستعجلوا في بيعه للتّخلص منه، والسّبب في ذلك: إمّا أنّهم كانوا أصحاب أسفار للتّجارة يريدون من العبيد من هو قويّ على وضع المتاع والبضائع وحملها وكان يوسف (عليه السلام) إنسانا ناعماً مدلّلاً لم يتعوّد ولم يستطع القيام بهذه الأمور الشّاقّة، فلذا زهدوا فيه واستعجلوا في بيعه. أو أنّهم رأوا جمال يوسف وسيماه، فقرأوا منه أنّه من أصحاب البيوتات الكبيرة وليس من النّاس العاديّين، وظنّوا أنّ أهله يتفحّصون عنه، فخافوا أن يطلعوا عليه فيأخذوه منهم بدون ثمن بل يعاقبوهم على استرقاقه. أو لأنّ طريق تجارتهم وعبورهم ومرورهم كانت على ديار يوسف، فخافوا أن يفلت من أيديهم في طريق الرّجوع أو يطّلع عليه أهله فيأخذوه منهم، وكلّ هذه الأمور محتمل ولا يناقض بعضها بعضاً، ولعلّ كلّها قد مرّ بخيالهم، ولذا رجّحوا التّخلص منه ببيعه على استعجال ولو بأقلّ ثمن. وأمّا ما قيل من أنّهم حينما وجدوه في البئر عثر عليهم أخوته وباعوه للقافلة وقالوا لهم إنّه سارق فراقبوه، وقالوا ذلك حتّى يشدّوا عليه الرّقابة مخافة الفرار والرجوع إلى إبيه، فلذا زهدوا فيه وباعوه بهذا الثّمن فيخالف نظم القرآن، وأنّه من إختلاق الإسرائيليّات فلا يجوز الإعتبار به ولا ذكره إلّا للتّنبيه على كذبه وافترائه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

مجمل المعنى: إشتراه عزيز مصر وأخذه إلى بيته وأسكنه فيه ليكون خادماً في البيت، ووصّى إمرأته وقال لها أكرمي مثواه أي أحسني مقامه ونزله وأحسني رعايته فإنّه يترجّى منه أن ينفعنا في شؤوننا لما يظهر من سيماه من مكارم الأخلاق والسّيرة الحسنة، بل نتّخذه ولداً حيث لا ولد لنا إذا صدق حسن ظنّي به، وكذلك مثل ما ترى وتعلم هيأنا ليوسف الإقامة في الأرض لندرّبه ولنعلّمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على تنفيذ أمره فلا يحول أحد دون تنفيذ إرادته؛ فينفّذ ما أراد ليوسف من إتمام النّعمة عليه ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون كنه قدرة الله تعالى، فيحاولون أن يغيّروا المقادير بالأسباب، وذلك تعريض بأخوة يوسف عليه السلام حيث إنّهم اعتقدوا أنّهم بإبعاد يوسف عن أبيه يتخلّصون من سيدته عليهم وخضوعهم له.

تفصيل المعنى: (وقال الّذي اشتراه من مصر) لم يعيّن القرآن الّذي اشتراه بإسمه أو لقبه، ولكن يعلم ممّا يأتي بعد من قوله تعالى: ﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ إمْرَأَةُ العَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها﴾ أنّ المشتري له كان عزيز مصر، وإنّما أبهمه هنا لأنّ القرآن إنّما يأتي بالقصّة لحكمة يأخذ بها الإنسان أو لعبرة يعتبر بها النّاس، ولا عبرة ولا حكمة هنا يتعلّق بذكر الشّخص المشتري بإسمه أو لقبه. وإنّما بيّنه فيما يأتي لحكمة نذكرها هناك إن شاء الله تعالى. **(لامرأته أكرمي مثواه)** أي أكرمي مقامه ونزله وأحسني رعايته. ذكرت هذه الفقرة للدّلالة على أنّ العزيز أدخله بيته وجعله أميناً على بيته وأهله وأنّه أولاه ثقةً لا يشوبها أي ظنّة، فأسكنه مع إمرأته كالأخ مع أخته أو كالإبن مع أمّه حيث كان في قلبه أن يتبنّاه فيما بعد كما قال: **(أو نتّخذه ولداً)** فعل العزيز كل ذلك لما قرأ من تباشير وجهه وسيماه كل آيات العفة والأمانه والنزاهة وحسن السلوك. فقد كان العزيز مسلماً صاحب فراسة في الأمور وقد قال (ﷺ): (إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور قلبه)[١] ولقد صدق ظنه وأظهرت الأيام عفة يوسف ونزاهته **(عسى أن ينفعنا أو نتخده ولداً)**

(١) سنن الترمذي ٥/ ٢٩٨ الحدبث رقم٣١٢٧.وقال: هذا حديث غريب.

دلّت الروايات على أنّ العزيز كان عقيماً لم يولد له ولد، فكان بحاجة إلى من يتبنّاه ويجعله أميناً في بيته، ويسلّم إليه إدارة شؤون الأهل، وكان هذا أمله، فلمّا وجد يوسف (عليه السلام) عقد أمله عليه واشتراه وأنزله بيته وقال لإمرأته **(عسى أن ينفعنا)** أي أنّه من الّذين يرجى منهم الخير ويترقّب منهم الإنتفاع، ويتوقّع منه حسن الإدارة والخدمة للبيت**(أو نتّخذه ولداً)** كأنّه وضع العزيز بهذه العبارة مدّة لتجربته والإطلاع على حقيقة سيرته، فإذا نجح يوسف في ذلك الإختبار والتّجربة وصدق ظنّه فيه فإنّه يتبنّاه ويجعله ولداً له، حيث كان التّبنّي شريعة سارية المفعول في ذلك الوقت كما كان موجوداً قبل الإسلام إلى أن أبطله الإسلام، فمعنى **(أو نتّخذه ولداً)** نرجو ونأمل أن نرى فيه ما يتوسّم في وجهه وسيماه فنتّخذه ولداً، حيث إنّ هذا أملنا في أن نجد من نرضاه فنتبنّاه ونجعله إبناً لنا، ولكنّ الله تعالى لم يرد أن يجعل يوسف (عليه السلام) إبناً للعزيز بل أراد أن يجعله عزيزاً أو أعزّ من العزيز فجرى على يوسف ما جرى إلى أن نفّذ الله إرادته فيه وحقّق مقتضى رؤياه له **(إنّ الله لا يخلف الميعاد وكذلك)** أي كما رأيت وعلمت **(مكّنا ليوسف في الأرض ولنعلّمه من تأويل الأحاديث)** الواو في **(ولنعلّمه)** للعطف على محذوف، وكلّ مفسر سلك في تقدير المحذوف حسب رأيه لأنّه لا نصّ على تعيينه، والّذي يرتاح له البال ويناسب المقام أنّ المراد من الأرض ليس أرض مصر كما قال المفسّرون، بل الأرض المطلق، والمعنى: وكما ترى وعلمت جعلنا إقامة يوسف في الأرض غير مستقرّة من البيت إلى الجبّ، ومن الجبّ إلى الأسر ومن الأسر إلى العبوديّة ومن العبوديّة إلى العزيز، وذلك لندرّبه ولنعلّمه من تأويل الأحاديث، أي تعبير المنامات وفهم الكتاب وتحليل الوقائع، أي ليستعدّ لذلك التّعليم فإنّ الإنسان لا يكون مستعدّاً لذلك حتّى يصفو قلبه ويكمل عقله ويتوجّه إلى الله تعالى وحده، ومن رأى السّراء والضّراء واليسر والعسر يعيش مع تجارب كثيرة بها يكمل عقله ويعلم أنّ كلّ شيء من الله تعالى، فيتوجّه إليه لا إلى غيره فيصفو قلبه ويستعد للإستفاضة من أنوار المعارف الإلهيّة والحكم الرّبانية، وبقي يوسف كذلك حتّى كمل عقله وصفا قلبه فاستعدّ ثمّ عُلّم، فَعَلِم ثمّ استقرّ وأتمّ الله تعالى نعمته عليه، وهذا التّفسير يكون أنسب بقوله تعالى بعد: (ولمّا بلغ أشدّه). وأمّا ما قال المفسرون من أنّ معناه أي كما أنعمنا عليه بالسّلامة في الجبّ مكنّاه بأن عطفنا عليه قلب العزيز حتّى توصّل بذلك إلى أن صار متمكّناً من الأمر والنّهي في أرض مصر. فإن أرادوا بذلك التّمكن الأخير حينما أخرجه الملك من السّجن وولّاه الأمور الإقتصاديّة في الدّولة، فلم يحصل ذلك بعد حتّى يخبر

عنه، وسيخبر الله تعالى عنه حينما حصل كما يأتي، ولو كان المراد بهذا هو أيضاً لزم التّكرار على أنّه يكون إخباراً بالشّيء هنا قبل الحصول، وإن كان المراد من التّمكين التّمكين الحاصل في بيت العزيز فأي تمكين لمن هو عبد لا يملك من الأمر شيئاً، وأي تمكين فيما يكون بعده الإتهام بالسّوء والأمر بسجنه نتيجة لذلك **(والله غالب على أمره)** أي إنّ الله تعالى مقتدر على تنفيذ أمره ومراده لا يمنعه من ذلك شيء من الأشياء، ولا أحد من المخلوقين فينفذ في يوسف ما أراد حينما جاء وقته فيعلّمه تأويل الأحاديث ويجعله سيّداً لوالديه وإخوته **(ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون)** فيعتقدون أنّ الوسائل والأسباب يمنع قدر الله تعالى. وهذا تعريض بإخوة يوسف، فإنّهم حينما خافوا أن يسود عليهم يوسف لم يفوّضوا أمرهم إلى الله تعالى، وأرادوا إبعاده عن أبيه مخافة أن يكتب صكّ الوصاية بترئيسه بعده، وأن يوليه عليهم ويتوجّه بتابع ولاية العهد. فإن قيل إنّ إخوة يوسف كانوا مؤمنين فكيف صحّ التّعريض لهم بأنّهم لا يعلمون أنّ الأسباب لا تمنع القدر؟ قلنا: إنّ القرآن كثيراً ما يعبّر عن العمل بخلاف مقتضى العلم بعدم العلم إشارة إلى أنّ العلم بدون العمل على وفقه لا فائدة فيه فهو مع الجهل من هذا الوجه سواء. فيكون معنى قوله تعالى: (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمون) بالنّسبة للكافرين لأنّهم يعتقدون أنّ الأسباب هي المؤثّرة بالذّات، ولا يوجد هناك إله لكي يخالف الأسباب كما هو عند الملحدين، أو هناك إله ولكن لا تنفّذ إرادته في ما يخالف الأسباب وهم الفلاسفة، وبالنّسبة للمؤمنين أنّهم لا يعملون **على** وفق عقيدتهم بأن الله **غالب** على أمره فلا يمنع قدرة الأسباب ولا أصحاب الأسباب. هذا وقد ورد إستعمال اللّفظ في معان مختلفة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ سورة الأحزاب الآية/ ٥٦ ـ فيصلّي ورد بالنّسبة لله تعالى بمعنى يفيض رحمته، وبالنسبة للملائكة بمعنى تستغفر، وبالنّسبة للمؤمنين بمعنى يدعون، فالقول بجواز إستعمال اللّفظ في معنين أو أكثر معاً جائز هو الأصحّ، فاستعمال (لا يعلمون) هنا في المعنيين الحقيقه والمجاز، وهذا جائز أيضاً.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

مجمل المعنى: ولمّا بلغ يوسف حدّ الكمال في قوّة البدن والعقل والصّفاء القلبي واستعدّ لإفاضة الفيوضات الإلهيّة على قلبه آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك أي مثل ما جازينا يوسف لإيتاء الحكم والعلم نجزي كلّ محسن حسب إحسانه ونجاحه بالصّبر

فيما يبتليه به ربّه ورضائه بقضاء الله تعالى في السّراء والضّراء وفي اليسر والعسر تصقيلاً له وإعداداً للجزاء الأخير. ذلك تقدير العزيز العليم.

تفصيل المعنى: قال في روح المعاني في تفسير هذه الآية: أي حكمة: وهي في لسان الشّرع العلم النافع المؤيّد بالعمل لأنّ العمل بدون العلم لا يعتدّ به، والعلم بدون العمل سفه، ومعنى (**بلغ أشدّه**) بلغ زمان إنتهاء جسمه وقوّته وهو سن الوقوف عن النّمو المعتدّ به، أعني به ما بين الثّلاثين والأربعين، وسئل القاضي النّحوي مهذّب الدّين الخيمي فقال: هو خمس وثلاثون وتمامه أربعون، وقال الزّجاج: هو سبعة عشر عاماً إلى نحو الأربعين، وعن مجاهد وقتادة ورواه ابن جبير عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما): أنّه ثلاث وثلاثون سنة أو ثلاثون أو واحد وعشرون، وقال الضّحاك: عشرون، وحكى ابن قتيبة: أنّه ثمان وثلاثون، وقال الحسن: أربعون. هذا وفي باقي التّفاسير ما يشبه هذا، ولم ينص أحد على بيان حدّ بلوغ الرّشد إنّما سرد أقوال وبيان روايات، وإذا أردنا أن نصل إلى ذلك فلا بدّ أن ننظر إلى ما ورد في القرآن الكريم من هذه الجملة (بلغ أشدّه) ثمّ نستنتج من الكلّ حدّاً يطمئن به البال. **فنقول**: قد ورد في القرآن الكريم هذه الجملة في ثماني آيات. وردت في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[1] وفي سورة يوسف في هذه الآية. وفي سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[2] وفي سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[3] وفي سورة الحجّ في قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾[4] وفي سورة القصص في سيّدنا موسى (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[5] وفي سورة الأحقاف في قوله

(١) الآية . ٦.

(٢) الآية . ٣٤ .

(٣) الآية . ٨٢ .

(٤) الآية . ٥ .

(٥) الآية . ١٤ .

تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾(١) وفي سورة المؤمن في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾(٢) هذا ما ورد في القرآن الكريم ممّا يفيد بلوغ الأشدّ، وإذا نظرنا إلى آية القصص وآية الاحقاف نرى أنّ الدّرجات ثلاث: بلوغ الأشدّ والإستواء، وبلوغ أربعين سنة، فالإستواء أقلّ من أربعين سنة، لأنّ سيّدنا موسى كما في آية القصص بلغ الإستواء في مصر بدليل أنّه بعد قوله استوى يأتي: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾(٣) فتدلّ هذه الآية أنّ موسى في ذلك الوقت استوى ولم يبلغ أربعين سنة لأنّه لم يكن نبيّاً في ذلك الوقت بل بعد ذلك بسنين، ولم يصبح موسى نبياً إلّا بعد أربعين سنة بالإتّفاق. وبلوغ الأشدّ قبل الإستواء وقد فسر بلوغ الأشدّ في آية الإنعام والإسراء والكهف والحجّ والمؤمن بالبلوغ، وقد قدّر العلماء ذلك بخمسة عشر عاماً عند البعض وبثمانية عشر عند بعض آخر. حيث لا يوقف اليتيم عن التّصرف إلى أربعين سنة من عمره ولا إلى ثلاثين ولا أكثر من عشرين سنة، فبلوغ الأشدّ يكون بين خمس عشرة وثماني عشرة، والإستواء في ثلاثين وبعده حدّ الكمال وهو أربعون وهو حد الرّسالة والتّوجه إلى الله تعالى والإبتعاد عن أعمال الصّبا والشّباب ومحلّ ثقة النّاس والإعتماد عليه غالبٌ، وقال في مختار الصّحاح وقوله تعالى: ﴿حتّى يبلغ أشدّه﴾ أي قوّته وهو ما بين ثماني عشرة سنة إلى ثلاثين. هذا وإنّ سيّدنا يوسف كان عمره في الجبّ سبع عشرة سنة، ولما بلغ مصر بلغ ثماني عشرة، فبلغ الأشدّ على القولين. وكانت المراودة في ذلك الوقت، وكان قد أوتي الحكم وهو قوّة الإمتناع عن الشّهوات وسفاسف الأمور، والعلم وهو العلم بالحلال والحرام وأحكام شريعة الله تعالى، وليس ذلك نبوّة لأنّه ورد في سيّدنا موسى (عليه السلام) في الآية الّتي مرت آنفاً أنّه أوتي الحكم والعلم في مصر وفي حين لم يكن نبيّاً. فلم يكن سيّدنا يوسف في بيت العزيز وحين وقبل المراودة نبيّاً. بل كان رجلاً

---

(١) الآية . ١٥ .

(٢) الآية . ٥.

(٣) الآية . ١٥ .

صالحاً معدّاً للنّبوّة والرّسالة من قبل الله تعالى فيما بعد. هذا ما يبدو لي في هذا المقام والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾

مجمل المعنى: وحاولت الإمرأة الّتي كان يوسف في بيتها لتأخذ نفسه عنه وتحمله على فعل المنكر معها، وشدّت في المحاولة فغلّقت الأبواب من البيت لكي تتمّ الخلوة الّتي فيها يتمّ هذا العمل، ولكي لا يستطيع يوسف أن يخرج ويتخلّص من يدها، وصارحته وقالت: هيت لك، أي أقبل وبادر بالعمل فأجابها يوسف وقال: معاذ الله أي أعوذ بالله أن أفعل هذا المنكر إنّ الله ربّي أحسن مثواي ومنزلي، وإنّ هذا العمل يخالف أمره ومن خالف أمره فهو ظالم، وإنّ الشأن أنّه لا يفوز الظّالمون بسعادتهم في الدّارين.

تفصيل المعنى: **(وراودته)** المروادة هي المحاولة والمخادعة والذّهاب والإياب لإختطاف شيء من يد أحد، فقامت الإمرأة الّتي كان يوسف في بيتها بهذه المخادعة لتأخذ نفس يوسف منه فتحمله على أن يفعل بها العمل الجنسي **(الّتي هو في بيتها)** لم يذكر الله تعالى الإمرأة بإسمها وعلَمها بل ذكرها بهذه الصيغة، صيغة الصّلة والموصول. وذلك لفوائد:

الأولى: أنّه لو ذكرها باسمها، وقال: راودته راعيل أو زليخا على اختلاف في إسمها لم يعرف أنّ المرأة من هي؟ لأن كثيرا من نساء المدينة كانت تشاركها في الإسم والعلَم.

الثّانية: الإشارة إلى تحقيق وقوع المراودة لأنّ مصاحبة شاب في عنفوان شبابه وفي أعلى درجات الجمال مع امرأة لا تقلّ عنه جمالاً وشباباً في بيت واحد ليل نهار، وفي السّر والعلانية، وفي الخلوة والجلوة، يؤدّي إلى أن يراود أحدهما الآخر حتماً وبدون شكّ، ولذلك حرّم الإسلام إختلاء الرّجل غير المحرم بالمرأة، قال (ﷺ): ما خلى رجل بإمرأة إلّا دخل الشّيطان بينهما[1]، وفي رواية: كان الشّيطان ثالثهما، وهذا يكفي لردّ من

(١) كنز العمال ٥/ ١٢٨ الحديث رقم١٣٠٣٥، وهو بهذا اللفظ ضعيف كما في مجمع الزوائد ٤/ ٣٢٦، ولكن الحديث أورده في الترمذي بلفظ: لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان. / سنن الترمذي ٤/ ٤٦٥ الحديث رقم ٢١٦٥.

يروّج إختلاط الرّجال بالنّساء وإختلائهم بهن، ومن البداهة الفطريّة أنّه لا يخلو الإختلاط والإختلاء بين الجنسين عن المراودة والعمل المحرّم شرعاً، وما أكثر اللّقطاء في البلاد الّتي أباحت ذلك، فمن روّج ذلك وقال لا بأس فيه فهو لا يرى في ذلك العمل بأساً لأنّه في طبيعة البهائم ويحبّ قضاء الشّهوة كيفما كان، ويرى الإباحة في هذا العمل حقاً.

الثّالثة: الإشارة إلى كمال نزاهة يوسف (ﷺ) فإنّ من في هذه الفترة من الشّباب والقوّة تدعوه إمرأة ذات جمال ومنصب ومال إلى نفسها، وهي سيّدتها، وفي مكان مغلوق وجو لا يشعر بالأمر أحد، ولا يوجد أيّ خوف من الفضيحة والشّيوع بين النّاس، علاوة على ذلك أنّه يعلم أنّ الإعراض عنها سيؤدي إلى تكدير في عيشه ويزلزل بقاءه في هذا البيت الّذي أكرم فيه، ومع كلّ ذلك يعتصم ويضبط نفسه فلا يستجيب لدعوتها، فلا شكّ أنّ هذا الشّاب بلغ أعلى درجات النّزاهة ووصل إلى قمّة التّرفع والتّمسّك بالأخلاق. وإلى درجات المراقبة والخشية من الله تعالى، وقد بشّر رسول الله (ﷺ) هذا الطّراز من الشّباب بأنّهم في ظلّ الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه في حديث قال: (سبعة يظلّهم الله تعالى في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه)، فعدّ من هذه السّبعة (من دعته إمرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها فقال: إنّي أخاف الله)[1] فكيف بيوسف وهو نبيّ من الأنبياء، فلمّا دعته إلى نفسها **(قال معاذ الله)** المعاذ مصدر ميمي للعوذ. والعوذ التجاء من العبد إلى الله تعالى لأنّ ينجيه من مكروه ويحفظه من محذور،فالمعنى: قال يوسف: أعوذ بالله تعالى معاذاً، وألتجئ إليه إلتجاءً أن يحفظني من أن أستجيب إلى هذا المحذور، وهذا دعاء من يوسف دعا به ربّه لأن يحفظه من هذا المكروه، وفي نفس الوقت كلمة قالها إعلاماً بالإباء والترفّع من هذا العمل المنكر وعلّل ذلك بقوله: **(إنّه ربّي أحسن مثواي)** الضّمير في (إنّه ربّي) إمّا راجع إلى الّذي اشتراه، فالمعنى: إنّ الّذي اشتراني هو سيّدي وأنا عبده، وقد أحسن مثواي ومنزلي وأكرمني واحترمني، فمقابلة إحسانه هذا بالخيانه ظلم وإنّه لا يفوز الظّالمون بسعادتهم في الدّنيا والآخرة. أو راجع

(١) نص الحديث هو:سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ماتنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه. / صحيح البخاري ٢/ ٥١٧ الحديث رقم ١٣٥٧.

إلى الله أي إنّ الله تعالى ربّي أحسن مثواي ومنزلي، وقد أنعم عليّ، فمقابلة نعمه بالمعصية ومخالفة أمره ظلم، وإنّه لا يفلح الظّالمون، أي لا يفوز من تعدّى حدود الله تعالى بالسّعادة في الدّنيا والآخرة، والأوّل أظهر حسب ظاهر اللّفظ، والثّاني أصحّ لفظاً ومعنى[١]، أمّا لفظاً فلأنّه من القاعدة أنّه إذا دار الضمير بين القريب والبعيد وصلح لهما، فعوده إلى القريب أولى، ولفظ الجلالة أقرب هنا من لفظ الّذي إشتراه، وأمّا معنى: فلأنّ العارف بالله تعالى لا ينسب النّعم إلى غير الله تعالى، بل من آدابهم أنّهم ينسبون الخير إلى الله تعالى، وينسبون ما هو شرّ إلى غيره من أنفسهم أو الشّيطان أو غيرهما. ألا ترى أنّ يوسف (عليه السلام) حينما جمع الله تعالى بينه وبين إخوته ووالديه وسجدوا له قال: ﴿يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ نسب إخراجه من السّجن إلى الله تعالى وقد أخرجه الملك في ظاهر الحال ثمّ قال: ﴿وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ مع أنّهم جاؤوا بأنفسهم في ظاهر الحال وبأمر منه في ظاهر المقال؛ لأنّ الكلّ في الحقيقة لله تعالى. ثمّ إنّه حينما ذكرهم بشرّ وقع بينهم قال: من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي، نسب النّزغ إلى الشّيطان. هذا دأب العارف بالله تعالى حقيقة، فينسب الخير إليه رأساً. ولكنّ الشّر له جهتان: جهة أنّ خلق الله تعالى تعلق به، وأنّ حكمته إقتضت وجوده، وأنّ نظامه يدعو إلى ذلك، فمن هذه الجهة هو خير أيضاً، وينسب إليه تعالى في الحقيقة ولكنّ من حيث وجوده لنا وتعلّقه بنا شرّ فلا ينسبه العارف إلى الله تعالى تأدّباً، ولأنّ العامّة لا يعرفون الحقيقة، فيخاف عليهم أن يعتقدوا أنّ الشّر من حيث شرّيته منسوب إلى الله تعالى، هذا وإنّ هذه المسألة عميقة نكتفي بهذا القدر من الكلام فيها والعاقل يكفيه الإشارة.

---

(١) فضلا عن العلل التي ذكرها الشيخ الوالد في كون الأصحّ رجوع الضّمير إلى الله تعالى، فإنّ فعل الزّنى يعد تعديّا على حقّ الله تعالى لكونه حراما من قبله. بدليل وجوب إقامة الحدّ عليه، والحدود تقام على التّجاوز على حقوق الله تعالى لا حقوق البشر، ولو أنّه جرى العرف بتسميته خيانة زوجيّة فالصّحيح هي خيانة مع الله تعالى، فلو لم يكن حراما لما كان خيانة زوجيّة إلا ترى أنّه يجوز للزّوجة تقديم الطّعام للنّاس والتّصدّق عليهم بالمال وما أشبه ذلك بإذن الزّوج، لكن لا يجوز تقديم عرضها ولو بإذنه لأنّها محرّمة بأمر الله تعالى لا بأمر البشر، وأظنّ أنه لو لم يحرّمه الله تعالى لما كان في ممارسته حرج لدى البشريّة كما هو عند غير المتديّنين بدين إلهي أو غير إلهي.إذن فالصّحيح أنّ الضّمير راجع إلى الله تعالى والمقصود بقول الله المحكي عن يوسف إنّه ربّي أحسن مثواي هو الله تعالى. وإذا كان الضمير راجعا إلى العزيز فذلك حسب منطق امرأته التي ربّما لم تكن تعرف حقّ الله تعالى لكنها كانت تعرف حق زوجها.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾

مجمل المعنى: ولقد همّت الإمرأة بيوسف وهمّ بها يوسف لولا أن رأى يوسف برهان ربّه وقع ما همّ بها، كذلك أريناه برهاننا لنصرف عنه السّوء والفحشاء، حيث إنّه من عبادنا الّذين أخلصوا وهذّبوا ونظّفوا من نزغات الشّيطان واتّباع شهوات النّفس.

تفصيل المعنى: قد ذكر في تفسير هذه الآية الكريمة أقوال كثيرة منها ما لا يليق قوله بمقام الصّالحين من الأمّة، فكيف بمقام من هو نبيّ من الأنبياء أو هو معدّ لأن يكون نبيّاً، فلا يجوز ذكر تلك الأقوال لأنّها من أقوال اليهود الّذين كانوا ينتهكون حرمة الأنبياء في الحياة، فكانوا يؤذونهم ويقتلونهم، وكذلك ينتهكون حرمتهم في الممات، فينسبون إليهم ما يشمئزّ منه القلوب ويكذبون عليهم ما يأباه كلّ عقل وضمير. فالأقوال الّتي تليق بالذّكر أربعة نضعها بين يديك فتختار ما يرتاح له بالك، هذا وإنّ المقام دقيق جدّاً مقام عصمة الأنبياء وتنزيه المرسلين (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) آمين.

القول الأوّل: إنّ في الآية تقديماً وتأخيراً والتّقدير: لقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه همّ بها أيضاً. فالمعنى: لقد قصدت المرأة من يوسف الفعل المنكر، ولولا أن رأى يوسف برهان ربّه لقصد منها الفعل أيضاً، ولكن حيث رأى برهان ربّه وهو أنّه فعل شنيع لم يقصده، فعلى هذا القول لم يوجد من يوسف (عليه السلام) كلّ همّ وقصد وإرادة للسّوء.

القول الثاني: أنّ المرأة لمّا عرضت نفسها على يوسف وألحّت عليه من أن يستجيب الطّلب فامتنع يوسف وأبى، غضبت غضباً شديداً، حيث رأت ذلك عصياناً لأمرها، كيف وهي سيّدته، فأرادت أن تبطش به وتضربه أو توقعه على نفسها جبراً وقهراً، وأراد يوسف أن يدفعها عن نفسه حتّى بالضّرب إن احتاج إلى ذلك، ولكن رأى برهان ربّه وهو أنّ المصارعة مع المرأة شنيعة، فالفرار أحسن والهرب من الشّر أحلى، فالمعنى: ولقد همّت المرأة بيوسف لتضربه أو تجلبه إلى نفسها جبراً، وهم يوسف أن يدفعها عن نفسه ولو بالضّرب، ولولا أن رأى أنّ التّدافع مع المرأة سيما إذا كانت سيّدتها شنيع لضربها ضرباً ولدفعها دفعاً، ولكن لهذا البرهان لم يضرب ولم يدفع، بل فر وهرب تخلّصاً من هذا الموقف الحرج. وعلى هذا القول أيضاً لم يوجد من يوسف

(عليه السلام) همّ بالسّوء لأنّ الهمّ بالضّرب والدّفع دفعاً للصّائل ليس همّاً بالسّوء بل هو أمر واجب.

القول الثّالث: ولقد همّت المرأة بيوسف أن يفعل معها المنكر، وهمّ يوسف بها أن يفعل ما تريد منه لولا أن رأى يوسف برهان ربّه وهو أنّ هذا العمل من الكبائر، لوقع الفعل المحرم، ولكن حيث رأى برهان ربّه لم يفعل وأبى وفرّ تخلّصاً من الموقف، وعلى هذا القول وجد من يوسف همّ بالسّوء حسب الطّبيعة البشريّة وإنّ الهمّ بالسّوء لا يعدّ معصية قال (ﷺ): (إذا همّ العبد بمعصية لم يكتب عليه حتّى يعملها فإذا عملها كتبت عليه سيّئة واحدة، وإذا تركها كتبت له حسنة واحدة)[١]. أو كما قال، **أقول**: ولكن كان فرق بين همّ يوسف (عليه السلام) وهمّها لأنّ همّها إقترنت بمباشرة الأسباب، ولذا عدّ عليها خطأ وذنباً، ولكنّ همّه لم يقترن بشيء فلم يكن منه معصية، هذا مذهب المحدّثين وهو الأصحّ. وأمّا على مذهب المتكلّمين والفقهاء فالهمّ ذنب ومعصية، ولكن صدر ذلك في يوسف قبل النّبوّة والنّبيّ معصوم بعد النّبوّة لا قبلها.

القول الرّابع: المراد بالهمّ الإشتهاء حسب الطّبيعة البشريّة لا قصد الفعل، والمعنى: ولقد اشتهت المرأة مأ ارادت من يوسف، واشتهى يوسف ذلك حسب الطّبيعة البشريّة أيضاً، لولا أن رأى برهان ربّه لاستجاب، لكن امتنع حيث علم أنّ هذا العمل حرام، وذلك كالصّائم في الصّيف الشّديد الحرّ وهو شديد العطش يرى الماء البارد فإنّه يشتهيه حسب الطّبع ولكن يكفّ نفسه عن شربه ولا يأثم بذلك الاشتهاء بل يزيد أجره، فإنّ الإنسان إذا تعوّد الصّوم ولم يجد مشقّة فيه لم يكثر أجره، فإنّ الأجر على قدر المشقّة، ولذا نهى (ﷺ) عن صوم الدّهر لأنّ الصّائم يتعوّد فلا يرى في الصّوم مشقّة، وجعل أفضل الصّيام صوم داود يصوم يوماً ويفطر يوماً، لأنّه بيوم الإفطار يتجدّد شهوته للطّعام والشّراب ويجد المشقّة في تركه يوم الصّوم فيثاب أكثر. هذا وإنّ يوسف لو لم يوجد

---

(١) نص الحديث هو: عن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن النبي (ﷺ) فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يفعلها كتب الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة. متفق عليه، صحيح البخاري ٥/ ٢٣٨٠ الحديث رقم ٦١٢٦، صحيح مسلم ١/ ١١٨ الحديث رقم ١٣١.

عنده أي اشتهاء طبيعي لم يكن في تركه فضل، لأنّ العنين إذا ترك الزّنا لا يعدّ ذلك فضيلة له. ولكن حيث كان فرق بين اشتهاء المرأة واشتهاء يوسف بمقارنة اشتهائها بالطّلب والإلحاح ومباشرة الأسباب وعدم مقارنة اشتهائه بشيء من الأفعال الإختيارية، عدّ اشتهاؤها خطأً دون اشتهائه .والله أعلم بحقيقة الحال.

(كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء) أي مثل ذلك الإراءة للبرهان أرينا يوسف لنصرف عنه السّوء والفحشاء أي لنحول ونبعد عنه السّوء والفحشاء، وفي هذا إشارة إلى أنّ السّوء والفحشاء توجّه إلى يوسف (عليه السلام) فصرفهما الله تعالى عنه. لا أنّ يوسف توجّه إليهما، فيفيد أنّ يوسف (عليه السلام) لم يوجد له ميل ولا توجّه إلى السّوء والفحشاء، والمراد بالسّوء صغائر الذّنوب كالقبلة أو النّظر بشهوة وغير ذلك من مقدّمات الزّنا، وبالفحشاء كبائرها كالزّنا والخيانة مع من أمّنه على ماله وأهله وبيته؛ والدّليل على هذا قوله تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ سورة النساء الآية/ ٣١. قابل تعالى السّيئات بالكبائر فتكون هي صغائر، وفي هذه الآية دليل على أنّ يوسف عصم من صغائر الذّنوب وكبائرها، فبطل قول من قال أنّه وجد الهمّ من يوسف والهمّ ذنب، ولكن كان قبل النّبوّة، فعجباً لمن أثبت ذنباً لمن برّأه الله تعالى من كلّ ذنب **(إنّه من عبادنا المخلصين)** هذه الفقرة في مقام العلّة لصرف الله تعالى السّوء والفحشاء عن يوسف (عليه السلام) كأنّه قال تعالى: صرفنا عنه لأنّه من عبادنا المخلصين، وقد وعد الله تعالى بحفظهم من الشّيطان بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ سورة الحجر الآية/ ٤٢. وقد اعترف الشّيطان بأنّه لا يستطيع أن يظفر بهم حيث قال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ سورة الحجر الآية/ ٤٠.

فائدة: قرأ ابن كثير وإبن عامر وأبو عمرو (رحمة الله تعالى عليهم وعلينا أجمعين) في جميع القرآن (المخلصين) بكسر اللّام إسم فاعل من أخلص أي أنّه كان فرداً من أفراد عبادنا الّذين أخلصوا أنفسهم وعقيدتهم ودينهم أي نزّهوها وطهّروها من كلّ ما يخالف الحقّ والحقيقه، وممّا يصرفها ويوجّهها إلى غير الله تعالى، ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ سورة البيّنة الآية/ ٥. بكسر اللّام في مخلصين، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ

مُخْلِصُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٣٩ ـ وأمثال ذلك كثيرة تجده في مرشد القرآن في كلمة خلص أخلص. وقرأ غيرهم المخلصين بفتح اللّام إسم مفعول من أخلص أي أخلصهم وطهّرهم الله تعالى وهذّبهم من الصّفات الذّميمة والأخلاق السّيئة واتّباع الشّهوات والميل إلى السّيئات. ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى بعد ذكر بعض الأنبياء ﴿إِنّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرى الدّار﴾ سورة ص الآية/ ٤٦. والمال واحد فإنّ من أخلصه الله تعالى أخلص هو أيضاً. ولكنّ في المريد قصد العبد مقدّم على إرادة الله تعالى وفي المراد بالعكس، ويوسف كان مراداً كذا قيل والحقّ أنّه لا يحصل شيء من العبد إلّا بعد إرادة الله تعالى وخلقه، فأفعال العبد مطاوعة لأفعال الله تعالى، والثّواب والعقاب إنّما يردان على الإتّصاف ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْلَمون﴾ سورة الصّافات الآية/ ٩٦.

* * *

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾

مجمل المعنى:فرّ يوسف ليتخلّص منها وتوجّه إلى الباب وتبعته السّيدة وكان كلّ منها يسُرع ليسبق الآخر، يسرع يوسف ليخرج من الدّار وتسرع هي لتمنعه من الفرار، وجذبت قميصه من الوراء لترجعه فانقدّ **(قميصه من دبُر وألفيا)** أي لقيا **(سيدّها)** أي زوج المرأة (**لدى الباب**). فلمّا رأت المرأة زوجها تداركت الموقف وأسندت التّهمة إلى يوسف وقالت: **(ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً)** أي ليس جزاء من أراد بزوجك سوءاً إلّا أحد الشّيئين: إمّا سجن يخفيه أو عذاب أليم يؤدّبه ويؤذيه.

تفصيل المعنى: **دقيقة**: لو وقفت السّيدة على قولها: **(ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً)** كان الكلام إستفهاماً وتفويضاً للحكم إلى زوجها ولكن خافت أن يكون حكم الزّوج التّخلّص من يوسف بالقتل أو البيع ولم تسمح نفسها بفراقه، حيث شغفها حبّاً وغراماً، فقلبت ما إلى النّفي بزيادة الإستثناء وحكمت بنفسها على يوسف بالعذاب الأليم أو السّجن، وقدّم السّجن لأنّه كان أحبَّ إليها لأنّه بالسّجن يبقى تحت يدها، فلعلّه يقنع ويستجيب مقابل تخليصه من السّجن. ولا يقال: أنّ لغتهم لم تكن عربيّة فكيف تؤخذ منها هذه الدّقيقة؟ قلنا إنّ هذا الأسلوب أي قلب الإستفهام إلى النّفي موجود في اللّغات الأخرى أيضاً، ويستفاد من هنا أنّ السّيدة كانت مسيطرة على زوجها، وذلك

لأمر من الأمور اختلف الرّواة في تعيينها ولا حاجة بنا إلى الخوض في ذلك.

معجزة: ثبت في تأريخ مصر القديم أنّ مصريّين كانوا في ذلك الوقت لا يقولون لزوج المرأة زوجها بل يقولون سيّدها، فمن أين درس محمّد (ﷺ) هذا التّأريخ فيعبّر هذا التّعبير الدّقيق وهو أمّي لم يقرأ ولم يكتب؟ فيدلّ ذلك على أنّ هذا القرآن من الله تعالى.

مسألة: يقال أنّ السّيدة غلّقت الأبواب قبل المراودة، فكيف تخلّص يوسف إلى الباب الأخير وألفيا سيدّها لدى الباب؟ فقيل: أنّ الأبواب إنفتحت بنفسها معجزة أو كرامة لسيّدنا يوسف (عليه السلام) ويضعف هذا، أنّه لو كان كذا لعلمت السّيدة بهذه الخارقة ولما أصرّت على مراودته بقولها بعد: لئن لم يفعل ما أمره ليسجننّ....إلخ. بل يقال أنّ السّيدة غلّقت الأبواب لا خوفاً من خروج يوسف لأنّها لم تتصوّر أنّ يوسف يمتنع هذا الإمتناع بل غلّقتها خوفاً من دخول الغير، فوضع المفاتيح بمرأى من يوسف فأخذها وفتح بها الأبواب.

أو **نقول**: إنّ الأبواب كانت تغلق بشيش من الدّاخل وبمفتاح من الخارج فغلّقتها من الدّاخل فقط خوفاً من دخول الغير فقط، وما كانت تتصوّر هروب يوسف، ولكنّ يوسف هرب وجرّ الأشياش وفتح الأبواب.

* * *

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

مجمل المعنى: لما أسندت السيّدة هذه التّهمة إلى سيّدنا يوسف وجب عليه أن يدافع عن نفسه غسلاً للعار الّذي ألحقته به، فقال: (**هي راودتني عن نفسي**) وأنا بريء وهنا وقف العزيز يقلب طرفه على هذا وتلك وتحيّر من هذا الموقف وكان معه رجل من أقارب السّيدة فأبدى رأيه في الموضوع فقال: (**إن كان قميصه**) أي قميص يوسف (**قد من قبل فصدقت**) السّيدة في دعواها ويوسف (**من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ**) وانشقّ (**من دبر فكذبت**) السّيدة ويوسف (**من الصّادقين**).

تفصيل المعنى: (قال هي راودتني عن نفسي) يفهم من هذا أنّ نسبة السّوء إلى الغير بشرط أن يكون صدقاً جائز في مقام الدّفاع والمحاكمة كما مرَّ في قول الشّاعر: (القدح ليس بغيبة في ستةٍ .... إلخ) بل واجب **(وشهد شاهد من أهلها)** الشّهادة جاءت في القرآن الكريم بمعنى الحضور، مثل قوله تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِين﴾ سورة النور الآية/ ٢. أي وليحضر عند حدّ الزّناة جماعة من المؤمنين للعبرة بهما فينزجر النّاس عن الزّنا، وجائت بمعنى الحكم مثل قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٨ ـ أي حكم الله أنّه لا يستحقّ العبادة أحد إلّا هو، وبمعنى عاين مثل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ سورة البروج الآية/ ٧. أي وهم أي أصحاب الأخدود على ما يفعلون بالمؤمنين من العذاب شهود أي معاينون ذلك، حيث قعدوا على الخندق وينظرون إلى المؤمنين كيف يحرقون وكيف يحترقون، وبمعنى الإخبار، مثل قوله تعالى حكاية عن أبناء يعقوب: ﴿وَما شَهِدْنا إلّا بِما عَلِمْنا وَما كُنّا لِلْغَيْبِ حافِظينَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٨٣. أي وما أخبرناك بأنّ ابنك سرق صواع الملك إلّا بما علمنا، ورأينا أنّ الصّواع أخرج من رحله، وبمعنى أداء الشّهادة عند الحاكم مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ سورة النّور الآية/ ٤. أي الّذين يرمون وينسبون الزّنا إلى النّساء المحصنات ثمّ لم يأتوا بأربعة شهداء يشهدون على صدقهم فاجلدوهم واضربوهم ثمانين جلدة حدّ القذف والتّعبير. فأيّ معنى يراد من قوله تعالى: (وشهد شاهد من أهلها) فسّره بعضهم بقوله: وحكم حاكم إن كان قميصه قد... إلخ. وهذا بعيد لأنّ القضيّة لم ترفع إلى المحكمة فيحكم الحاكم ولم ينسبوا حكماً فيحكم في الموضوع، إنّما الشّأن أنّ أحداً من أقارب السّيدة حضر مع سيّدها فأبدى رأيه في الموضوع فقط، سيّما وأنّ الحكم لا يكون بالتّرديد بأن كان وإن كان، بل يجب أن يكون بالجزم الحسم. وفسّر بعضهم بقوله: وأدّى شاهد الشّهادة فقال: إن كان قميصه.... إلخ. وهذا بعيد أيضاً لأنّ الشّهادة يجب أن تكون في محكمة ولم يكن هناك محكمة، كما وأنّ الشّهادة لا تكون بالتّرديد بل بالجزم، وأيضاً أنّ الشّهادة يجب أن تكون عن عيان ومشاهدة للمشهود عليه ولم يكن معهما أحد في البيت ليعاين المراودة فيشهد أنّها منه أو منها. وقد تكلّف بعض بأنّه كان في البيت من لم يشعر به، فرأى المراودة وأدّى الشّهادة حسبة لإظهار الحقّ، فشهد حسب ما عاين وكان من حقّه أن يقول: هي راودته إلّا أنّه غير الأسلوب للإستدلال على شهادته فكأنّه قال هي راودته، بدليل أنّ قميصه قدّ

من دبر ولو كان بالعكس لقدّ قميصه من قبل، ولكن هذا غير معقول سيما وأنّ الشّاهد ليس عليه أن يستدلّ على ما يشهد. وقال بعض معناه: أخبر مخبر، وهذا أيضاً بعيد لأنّ المقام ليس مقام الإخبار والإستفسار، بل مقام التّشاور بين سيّدها وقريبها ومقام الإستدلال بالقرائن على صدق أحدهما ومقام إبداء الرّأي لا الإخبار.

فالّذي يرتاح له البال أنّ معناه: وحضر الموقف حاضر من أهلها فأبدى رأيه في الموضوع وقال: إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت السّيدة؟ وهو أي يوسف من الكاذبين، لأنّ الرّجل إذا هجم على إمرأة وأرادت دفعه تعلقت بالجانب الأمامي من قميصه لتدفعه فينقدّ القميص من القبل، وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت السّيدة وهو أي يوسف من الصّادقين. لأنّ المرأة إذا راودت الرّجل وأعرض عنها وفرّ تعلقت المرأة بالجانب الخلفي من القميص فتجذبه لترجعه فينتقد القميص من دبر.

فائدتان: الأولى: قال: صدقت وهو من الكاذبين، من أنّه كان يكفي أن يقول: صدقت لأنّ تصديق جانب من المتخالفين تكذيب للآخر، وكذا في الفقرة الثّانية كفى أن يقول: فكذبت. لأنّ تكذيب السّيدة تصديق لقول يوسف (عليه السلام)، ولكن حيث إنّ كلّ واحد منهما كان مدّعياً على الآخر، فهي تدّعي أنّه راودها، وهو يدعي أنّها راودته، فلذا يجب التّنصيص في كلتا الدّعويين على ما لكلّ من الصّدق والكذب.

الثّانية: قدّم تقدير صدقها على صدقه لكي يبتعد عن الإتّهام بالحقد عليها، وهذا مثل ما يأتي عن سيّدنا يوسف (عليه السلام) أنّه قدّم رحال الإخوة في التّفتيش على رحل أخيه ثمّ إستخرج الصّواع من رحل أخيه لكي يبتعد عن الإتّهام بالمؤامرة في الموضوع أو أنّ القضيّة مدبّرة.

❊ ❊ ❊

مسألة: اشتهر بين النّاس أنّ هذا الشّاهد كان في المهد صبيّاً، وذكر ذلك بعض المفسّرين، ورووا في ذلك حديثين ضعّفهما العلماء فلا يجوز الإعتماد عليهما، وإنّ ما إشتهر خطأً لا لأنّ الصّبيّ لا يمكن أن يتكلّم لأنّ سيّدنا عيسى (عليه السلام) تكلّم في المهد صبيّاً وكان ذلك معجزة له، بل لأنّ هذا النّزاع لم ينتشر ولم يتجاوز باب بيت السّيدة، فلم يصل إلى البيوت فيسمعه الطّفل في المهد؛ فيشهد هذه الشّهادة بدليل ما يأتي: إنّ العزيز بعد قول هذا الشّاهد وعلّمه بأنّ القميص قدّ من دبر وأنّ يوسف صادق وبريء،

قال ليوسف: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أي أكتم هذا الحديث ولا تفشه عند أحد كي لا يسمع به النّاس فتتشوّه السّمعة، ولو كان واصلاً إلى البيوت والصّبيان في المهد لما كان في توصية العزيز يوسف بالكتم فائدة ولما وصّاه به[1].

* * *

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

مجمل المعنى: بعد أن أبدى قريب السّيدة رأيه في الموضوع، ورأى العزيز أنّ القميص قدّ من دبر تيقّن الأمر والتفت إلى زوجه فقال لها: إنّ الأمر من كيدكنّ أيّتها النّساء. إنّ كيدكنّ عظيم، وإنّ يوسف صادق فيما يقول.

تفصيل المعنى: يتبيّن أنّ العزيز لم ير أنّ القميص قُدّ أو لم يُقد، وأنّه من قبل أو من دبر، حيث إنّه فوجيء بالموضوع، والمتخاصمان واقفان أمامه وجهاً لوجه، فلم ير دبر يوسف ولا قدّ قميصه منه، ولكن لمّا سمع رأي الشّاهد نظر إلى خلف يوسف فرأى قميصه قُدّ من دبر، فاقتنع بهذا الرّأي والتفت إلى أمرأته وقال لها: إنّه من كيدكنّ .... إلخ. خاطبها خطاب الجمع، لأنّ هذا الكيد وقع منها حسب طبيعتها النّسوية لا من حيث ذاتها كذاتها فقط، فهذا النّوع من الكيد من كيد النّساء كافّة لا من كيدها فقط، والكيد كلّ فعل أو قول يراد منه إيقاع الغير في أمر غير محبوب له.

(**إنّ كيدكنّ عظيم**) ذكر المفسّرون هنا لطيفة فقالوا: إنّ الله تعالى قال في حقّ الشّيطان ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعيفاً﴾ سورة النساء الآية/ ٧٦. وفي حقّ النّساء (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظيم) فيلزم أن يكون كيد النّساء أعظم من كيد الشّيطان. وأجابوا عن ذلك

---

(١) هذا رأيه رحمه الله تعالى وذلك على رأيه المذكور في عدم القول بانفتاح الأبواب بنفسها معجزة لأنّه لو كان كذلك لآمنت به زليخا وزوجها ومن حولهم حينئذ ولم يحصل ما حصل بعد ذلك. وقد ذكر أكثر المفسّرين ضمن الأقوال بأنّ الشّاهد كان صبيا في المهد أنطقه الله تعالى معجزة على صدق يوسف (عليه السلام) والتّصديق ببراءته واستدلّوا على ذلك بما روي عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) عن النّبيّ (ﷺ) أنّه تكلّم أربعة وهم صغار: إبن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج وعيسى ابن مريم. / تفسير ابن كثير ٣/ ٤٧٦. والحديث قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه / المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٦٣ الحديث رقم ٦٢٦.

بأجوبة يطول ذكرها مع قلّة الجدوى، فالصّحيح: أنّ هذا القول من العزيز لا من الله تعالى، فالعزيز هو الّذي جعل كيد النّساء عظيماً، والّذي سمّى كيد الشّيطان ضعيفاً هو الله، فلا يلزم أن يكون كيد النّساء أعظم من كيد الشّيطان حقيقة. فإن قيل: قد ذكر الله تعالى قول العزيز وقرّره فيلزم ذلك، قلنا: لا، لأنّ كيد الشّيطان جعل ضعيفاً مقابل إرادة الله تعالى وأمره، ومقابل إرادة من عصمه الله تعالى وتمسّك بدينه وتوكل عليه لا من كلّ جهة، فإنّ كيده عظيم وقويّ حقيقة، وفي حقّ المايعين والتّابعين لهوى النّفس وشهواتها، وأقوى من كيد النّساء، بل إنّ كيد النّساء جزءٌ من كيد الشّيطان وناشيء من وساوسه ودسائسه، أو يقال: إنّ كيد النّساء عظيم بالنّسبة لكيد الرّجال وفي الأمور الجنسيّة فقط لا مطلقاً، فلا يلزم أن يكون أعظم من كيد الشّيطان ولا من كيد الرّجال كلّه، فإنّ كيد الرّجال أعظم في الحروب وتدبير أمور الدّنيا، ولذلك جعل الرّجال قوّامين على النّساء لكثرة عقلهم وقلّة عقلهنّ بالنّسبة إلى الرّجال.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾

مجمل المعنى: بعدما قرّر العزيز بأنّ هذا من كيد السّيدة وأنّ يوسف بريء، انتظر كلّ من الجانبين ماذا يكون إجراءاته بعد ذلك، فلم يكن شيء سوى أن التفت إلى يوسف وقال له: يوسف أعرض عن هذا، أي اكتم هذا الحادث ولا تحدّث به عند أحد ولا تفشه، ثمّ إلتفت إلى السّيدة فقال لها: توبي واستغفري لذنبك، أي اطلبي المغفرة من الله تعالى من ذنبك هذا لأنّك كنت من الخاطئين الّذين ارتكبوا الخطيئة، فأنت خاطئة لا يوسف.

تفصيل المعنى: (يوسف) منادى محذوف الياء يا يوسف **(أعرض عن هذا)** أي أترك هذا الموضوع ولا تحدّث به أحداً، واجعله كأنّه لم يكن شيء، وابق في البيت محترماً مؤمّناً لم يدخل في قلبنا ريب منك، فإنّك نزيه **(واستغفري لذنبك)** طلب من السّيدة أن تتوب من مثل هذا العمل وتستغفر ربّها من هذا الذّنب، حيث راودت يوسف وكذّبت عليه واتّهمته بمراودته إيّاها، وهذا ذنب وبهتان لم يلِق بأن يصدر منها وهي مسلمة مؤمنة بالله واليوم الآخر، ثمّ زجرها ونهرها بقوله: **(إنّك كنت من الخاطئين)** لا يوسف فإنّه نزيه.

مسألة: قال: (إنّك كنت من الخاطئين) والظّاهر أن يقول: من الخاطئات، ولكن

حيث أنّ المراودة غالباً تكون من الرّجال لا من النّساء وقلّ أن تراود المرأة الرّجل قال: من الخاطئين، فكأنّ العزيز كسر حجرين برمية واحدة، فنسب إليها خطيئتين بلفظ واحد، خطيئة المراودة وخطيئة قيامها بما هو من حقّ الرّجال لا النّساء فصار الذّنب ذنبين.

* * *

مسألة أخرى: الخاطئ إسم فاعل من الخطيئة وهي الذّنب قال تعالى: ﴿بلى من كسب سيّئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾ ـ سورة البقرة الآية/ ٨١. وليس إسم فاعل من الخطاء فإنّ إسم فاعله مخطئ والخطأ ليس بذنب ولا يلام المرء عليه.

* * *

ملاحظة: هجم بعض المفسرين على العزيز وشتموه كثيراً ونسبوا إليه كلّ ما يوجب الإهانة والتّحقير، وكذلك لاموا السيّدة أكثر ممّا تستحقّها وقالوا: لِمَ لم يطلّق العزيز إمرأته؟ ولِمَ ولِمَ إلى غير ذلك ممّا يقترحون من العقاب حسب ما يريدون؟ ويقولون أيضاً: كيف أبقى يوسف في بيته معها بعدما رأى ما جرى بينهما؟ واستدلّوا بذلك على دناءته وعدم كرامته وغير ذلك ممّا لا يجوز للمسلم أن ينسب إلى المسلم، بل على المسلم أن يعتذر لأخيه المسلم ما استطاع وأن يؤوّل له ما أمكن. فنقول لهم: ماذا يفعل العزيز أكثر ممّا فعل من تبرئة يوسف وتعزير السّيدة وأمرها بالتّوبه والاستغفار؟ فهل رأيتم في شرع الله تعالى قتل إمرأة إرتكبت صغيرة ولم يصدر منها كبيرة؟ وهل هناك أمر بحدّها؟ وهل يوجد تكليف بطلاقها وفراقها؟ كلّا كلّ ذلك لا يوجد وليس على المرأة في هذه الحالات إلّا التّعزير والزّجر والإستتابة، وقد فعل العزيز كلّ ذلك فاستتاب منها بقوله: واستغفري لذنبك، وزجرها بقوله: إنّك كنت من الخاطئين، ثمّ إنّه أبقى يوسف في بيته مع السّيدة لأنّه ظهر له كمال براءته ونزاهته، وعلم أنّه لا يؤثر فيه كلّ شيء من الدّواعي، فلا يوجد أحسن منه يسلّم إليه بيته ويؤمّنه على أهله، علاوة على ذلك أنّ العزيز أراد أن يبقى هذا الحادث في طيّ الكتمان، وأنّ لا يطّلع عليه أحد، فلو قام بأي عمل تجاه يوسف من إبعاده من البيت وتفريقه عن السّيدة لجلب الإنتباه من النّاس، ولعرف بعض النّاس بالموضوع، فأبقاه على حاله كما كان إخفاء للحادث، وكأنّه ما كان شيء أصلاً ولم يحدث حادث، فما أحلم هذا العزيز وما

أحكمه، فما فعله كان عن حلمه وحكمته لا عن دناءته وقلّة مروءته كما يقولون، وأمّا المرأة فقد تابت فيما بعد وأصبحت من الصّالحات كما يشهد لها القرآن بقوله مخبراً عنها بأنّها قالت: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فكلّ النّاس خطّاؤون، وأفضل الخطّائين التّوّابون فغفر لها ولهم ولنا ولكم أجمعين.

* * *

﴿۞وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

مجمل المعنى: وقال جماعة من النّساء الموجودات في المدينة الّتي حدث فيها هذا الحادث: إنّ امرأة العزيز تراود وتحاول مع فتاها أي عبدها ومملوكها أن يفعل بها ما يفعل الرّجل بالمرأة، قد ستر قلبها حبّه ودخل في أعماق الفؤاد إنّا لنراها أي نظنّها في خطأ واضح وظاهر فيما فعلت.

تفصيل المعنى: أرخى العزيز السّتار على القضيّة فأمر يوسف بالكتمان وأمر السّيدة بالتّوبة والاستغفار، وأبقى يوسف في مكانه لئلّا يظنّ النّاس أنّه حدث شيء وظنّ كلّ الظنّ أنّ القضيّة سترت، ولم يعلم ولا يعلم بها أحد ولكن قد قيل:

كلّ سرّ جاوز الإثنين شاع   كلّ علم ليس في القرطاس ضاع

والحادث جاوز الإثنين فلا بد أن يشيع، ولعلّ سبب الشّيوع والظّهور بين النّاس أنّ الشّاهد حكى ذلك لأهله، وأنّ من طبيعة المرأة أن تشيع ما ظهرت في صواحبها فحكت لصديقاتها، فانتشر الخبر بين سيّدات المدينة واجتمعن فتكلّمن فيما بينهن كما قال تعالى: **(وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها)** النّسوة جمع للمرأة من غير لفظها وليس له مفرد، ولم يذكر القرآن أنّ تلك النّسوة من هنّ؟ والظّاهر أنّهن كنّ نساء الأمراء والوزراء، لأنّ المنافسة والمراقبة إنّما تكون بين المثيلات في القدر والمكانة، بخلاف ما في بعض التّفاسير من أنّهن كنّ إمرأة الخباز والسّاقي والخادم وغير ذلك، لأنّ تلك النّسوة لا يستطعن منافسة إمرأة العزيز والطّعن فيها، بل ولسن ممّن تعتني بهنّ إمرأة العزيز فتدعوهنّ وتعتدّ لهنّ متّكئاً وتقدّم لهنّ الطّعام والفواكه**(إمرأة العزيز تراود**

فتاها) العزيز كان لقب رئيس الوزراء في ذلك الوقت في مصر.

ملاحظة: لم يكن تعجب النّسوة ولومهنّ من أنّ امرأة العزيز تراود شابّاً فلا عجب في ذلك، بل إنّما العجب في أنّ أمرأة رئيس الوزراء تراود من؟ تراود فتاها عبدها ومملوكها وخادمها، فلو راودت كفوءاً لها لا بأس، ولكن راودت فتى عبداً مملوكاً خادماً **(قد شغفها حبّاً)** ستر قلبها حبّه فهذا خطأ واضح واتّجاه غير صحيح، وقلن: **(إنّا لنراها)** ونظنّها **(في ضلال)** وخطأ واضح وظاهر، حيث إنّها نزلت إلى مستوى النّساء العاديات ونساء السّوقة والرّعاع، فتراود فتى وعبداً وخادماً مملوكاً لها. ولهذه النّكتة ذكرها القرآن بهذا العنوان، وهذا اللّقب مع أنّه تعالى لم يذكرها إلى الآن لا بإسمها ولا بلقبها، فكأنّهنّ قلن: سبحان الله إمرأة العزيز في هذه المنزلة الرفيعة تراود من في عداد المملوكين والخدم، حيرة هذه، والله حيرة وضلال أيّ ضلال.

* * *

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

مجمل المعنى: فلمّا سمعت السّيدة بقولهن هذا أرسلت إليهن ودعتهن إلى بيتها، وهيأت لهنّ مكاناً، ووضعت لهن وسائد يتكئن عليها، فأتين واتّكأن وأتت لهن بطعام يشقّ ويقطع بالسّكاكين، وأعطت كلّ واحدة منهن سكّيناً لتقطع به الطّعام، فرفعت كلّ واحدة السّكين لقطع الطعام فلم يضعن السّكين إلّا وقد أمرت السّيدة يوسف بأن يخرج عليهنّ، فخرج فلمّا رأينه تعجّبن منه وتحيّرن من جماله، ووضعن السّكين الّذي رفعنها لقطع الطعام، فوقع على أيديهن بدل الطعام، فقطعنّ أيديهن بدل الطّعام وقلن من الدّهشة والحيرة من جماله **(حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا الّا ملك)** من الملائكة **(كريم)** لأنّه لا يوجد في البشر من بهذا الجمال، ومن بهذا الحسن الجلّاب والجذّاب.

تفصيل المعنى: **(فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ)** المكر هو كلّ قول أو فعل يراد منه إلحاق مكروه بالغير، وأنّ قولهن: **(إنّ إمرأة العزيز تراود فتاها)** كان القصد منه إلحاق العار واللّوم بالسّيدة، فلمّا سمعت السّيدة ذلك القول علمت أنّهن لو رأين يوسف

لعذرنه فيما وقعت فيه من حبّه وغرامه، حيث يشغف حبّه قلبهنّ أكثر ممّا شغف قلبها، فأرادت أن يسكتهنّ، فأرسلت إليهّن تدعوهنّ لوليمة، فلمّا ذهبن وجلسن على مائدة الطّعام وأخذن السّكين بأيديهن ورفعنه لقطع الطّعام قالت ليوسف: أخرج عليهنّ، فخرج فلمّا **(رأينه أكبرنه)** أي تعجّبن من حسنه وجماله ودهشن وذهلن عن الطّعام، وأوقعن السّكين على أيديهنّ بدل الطّعام، فقطعن أيديهنّ كلّ ذلك من الدّهشة والذّهول والحيرة بسبب ما رأين من حسن يوسف (عليه السلام). وقيل: إنّ معنى: **(أكبرنه)** أي حِضن، يقال: أكبرت المرأة إذا حاضت لأنّها بالحيض تخرج من حدّ الصّغر فتدخل في حدّ الكبر، فالمعنى فلمّا رأينه سال دم الحيض منهن لشدّة غرامهنّ بيوسف، ولا يخفى أنّ هذا المعنى لا يليق بأدب القرآن الكريم ونزاهته في التّعبير. **(وقلن حاش لله)** هذه الجملة تقال عند التّعجب من شيء، والمعنى: تنزّه الله تعالى عن العجز عن أن يخلق مثل هذا، فلو كان لله عجز لعجز عن خلق هذا الجمال لفرطه، ولكنّ الله على كلّ شيء قدير. فخلق هذا محيّراً للعقول ومذهلاً للقلوب وذاهباً للأبصار. **(ماهذا بشراً)** نفين أن يكون يوسف بشراً لأنّهن لم يرين ولم يسمعن بشراً في مثل هذا الجمال الباهر والحسن الجذّاب **(إن هذا إلّا ملك كريم)** حكمن على يوسف بأنّه ملك لأنّ من عادة النّاس قديماً وحديثاً ولا يزال يشبّهون الإنسان الجميل بالملك من الجمال، وخاصّة في ذلك الوقت كانوا يصوّرون الملك تصويراً خياليّاً في نهاية الحسن لما انتقش في ذهنهم أنّ الملك أحسن شيء من المخلوقات.

مسألة: إستدلّ بعض النّاس بهذه الآية الكريمة على أنّ الملائكة أفضل من البشر، وقالوا: إنّ النّسوة حينما عظّمن يوسف وأكبرنه قلن ليس هذا ببشر، بل هو أعظم من البشر، فهو من الملائكة. فيكون الملائكة أعظم وأفضل من البشر، ولكنّ هذا الإستدلال في نهاية البطلان. لأنّ هذا قول النّسوة، وقول النّسوة ليس حجّة في هذه الأمور، ولو سلّمنا أنّه حجّة فإنّهن لم يعظّمن يوسف وفضّلنه على البشر وألحقنه بالملائكة في الفضائل المعنوية، بل فضّلنه على البشر في الحسن والجمال، وكان السّائد بين النّاس أنّهم يشبّهون ما يعجبهم في الحسن بالملائكة حسب خيالاتهم وعاداتهم، هذا وإنّ الحقّ أنّ الإنسان الصّالح أفضل من الملائكة وخير منهم عقلاً ونقلاً. أمّا عقلاً فلأنّ الإنسان يعمل الصّالحات مع عائق الشّهوات والنّفس والهوى والشّيطان، ويجاهد كلّ هؤلاء في سبيل أداء صالح من الأعمال، ولكنّ الملائكة لا يجدون كلّ عائق في أداء أعمالهم لأنّهم جبلوا على الطّاعة والإمتثال لا شهوة لهم ولا هوى ولا النّفس الأمّارة، ولم

يسلّط الشّيطان عليهم، وفضل العامل مع العائق أكثر من فضل العامل بدون عائق، لأنّ الأجر على قدر المشقّة، فالفرق كثير وواضح بين من مشى في طريق وعر محفوف بالأشواك لإنجاز عمل فأنجز، وبين من يمشي في طريق مبلّط مزروع فيه الرّياحين لإنجاز نفس العمل فأنجز. وأمّا نقلاً فلأنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسّجود لآدم إعترافاً بفضله عليهم، وأنّه خير منهم ومن غيرهم، بدليل أنّ إبليس لمّا أبى من السّجده وادّعى أنّه خير من آدم لعن وطرد لأنّه أنكر حكم الله بأن آدم خير منه فيجب أن يسجد له، هذا ومن النّقل الصّريح أنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البينة الآية/٧. أي خير المخلوقات، والملائكة من جملة المخلوقات، فالحقّ أنّ خواصّ البشر أفضل من خواص الملائكة، وعوامّ البشر أفضل من عوامّ الملائكة، ولكنّ خواصّ الملائكة أفضل من عوامّ البشر، والمراد بالبشر في أنّهم أفضل أو لا ؟ هم المؤمنون المسلمون وإلّا فالكافرون أخسّ من كلّ شيء حتّى من الكلاب والخنازير، فإنّ الله تعالى قال: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البّينة الآية/٨. أي هم شرّ المخلوقات والكلاب والخنازير من المخلوقات أيضاً. فالكافر شرّ منهم وأخسّ.

* * *

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا رأت السّيدة أنّ السّهم قد أصاب الهدف وكسره، وأنّ النّسوة شغفن به أكثر منها، وعرفت أنّ المعذرة أخذت من القبول مكانها وأنّ الملامة لم يبق لها مجال، قالت لهنّ **(فذلكنّ)** الّذي رأيتُنّه وتعجبتُنّ منه ودهشكنّ بجماله وذهلكنّ عن الطّعام وقطعتنّ الأيدي بدل الفاكهة هو **(الّذي لمتنّني)** في مراودته فلم يبق للومكن مجال، ثمّ اعترفت فقالت: **(و)** الله **(لقد راودته عن نفسه)** وبرّأت بهذا يوسف من التّهمة فقالت: **(فاستعصم)** ثمّ هدّدته بقولها: **(و)** الله **(لئن لم يفعل ما آمره)** به من حسن الإجتماع وتلبية داعية الشّهوة **(ليسجننّ وليكوناً من الصّاغرين)** الاذلّاء بالحبس الشّديد.

تفصيل المعنى: (فذلكنّ) كلمة ذلك وضعت في لغة العرب ليشار بها إلى محسوس بعيد، ويوسف لم يكن بعيداً بل كان واقفاً أمامهنّ، ولكن تستعمل أيضاً في

القريب إشارة إلى تعظيمه، لأنّ الشّيء العظيم بعيد رتبةً ومكانةً لتعظيم يوسف والإكبار بجماله[١] (قالت فذلكنّ) وهذا التّعبير في القرآن كثير مثل ﴿ألم. ذلِكَ الكِتابُ لا رَيْبَ فِيه﴾ سورة البقرة الآيتان/ ١،٢ ـ (الّذي لمتنّني فيه) اللّوم يكون في فعل من أفعال الإنسان لا في ذاته، وهنا كان في فعل من أفعال السّيدة لا من أفعال يوسف، فهنا حذف وتقدير. فقال بعضهم: أي في حبّه، وبعضهم قال: أي في مراودته، وهذا هو الصّحيح لأنّ الحبّ ليس أمراً إختياريّاً فلا يلام المرء عليه، وفي الأثر أو الخبر: من عشق فعفّ فمات كان شهيداً[٢]، ولكن المراودة فعل إختياري يلام الإنسان عليه **(ولقد راودته عن نفسه)** اللّام في **(ولقد)** جواب لقسم محذوف تقديره: والله لقد راودته عن نفسه، ولم يكن هنا حاجة للقسم ظاهراً؛ لأنّ الخبر إنّما يؤكّد بالقسم أو غيره إذا أنكر وجود مضمونه المخاطب، ومراودتها له كانت مسلّمة عند النّسوة كما لا يخفى. ولكن أكّدت بالقسم لأنّ هذا الأمر الّذي أخبرت عنه ممّا ينكر أن يصدر منها معه، إذ هي السّيدة وهو العبد المملوك. فكيف تطمع فيه وتراوده، وهذا بعيد جدّاً وعجيب، ولكنّ سلطان الجمال يذهب بالعقل والكمال، فيجعل السّيد عبداً والعبد سيّداً ولله در من قال:

خذوا بدمي هذا الغزال فإنّه ... رماني بسهمي مقلتيه على عمد
ولا تقتلوه إنّني أنا عبده ... ولم أر حرّاً قطّ يقتل بالعبد

(فاستعصم) هذه أكبر كلمة تقال للتّنزيه أي إمتنع عن الاستجابة والتجأ إلى الله تعالى ليحفظه من هذا المنكر **(ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكوناً من الصّاغرين)** هدّدته بالسّجن والإذلال إن لم يستجب لطلبها، ورأت من نفسها استطاعة ذلك بإغراء

(١) وربما أشارت بذلك بعد انصراف يوسف عن المجلس فالمقصود به ذلك الإعجاب والإنبهار به من قبلكن هو الذي لمتنني فيه وقد تبين منكم عمليا أنني لست في ضلال كما زعمتم.

(٢) كنز العمال الحديث رقم ٦٩٩٩. والحديث ضعّفه الأئمّة، وروي من أكثر من طريق / البدر المنير ٥/ ١٧٠ الحديث رقم ٢٧٧، ولكنّ معناه صحيح، لما ورد عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال:الشّهادة سبع سوى القتل في سبيل الله، المطعون شهيد، والغريق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والّذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع شهيدة./ المستدرك ١/ ٥٠٣ لحديث رقم ١٣٠٠. وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه. فهو يدلّ على شهادة كلّ من يموت بمصيبة خاصّة إذا صبر عليها كالمبطون والمصاب بذات الجنب، ويقاس العشق على ذلك إذا صبر ولم يعص به.

زوجها وحمله على حبسه وإذلاله؛ ولذا أقسمت بالله على ذلك، فإنّ اللّام في: لئن، جواب لقسم محذوف. وأرادت من هذا التهديد أن يطيعها قبل أن يسجن، خوفاً من السّجن أو بعد السّجن طلباً في تخليصه من السّجن. ولكن كلّ ذلك لم يكن من يوسف الأبيّ الشّهم، وهكذا يجب أن يكون الرّجال.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾

مجمل المعنى: قد طلبت النّسوة كلّهن من يوسف (عليه السلام) أن يلبّي طلب مولاته وقد هدّدته المولاة بالحبس، فرأى أنّ الأمر دائر بين شيئين لا ثالث لهما، إمّا الحبس وإما الاستجابة لفعل المنكر، فتوجّه إلى الله تعالى وقال: ربّ إنّ السّجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه من الذّنب والمعصية، وإن لا تصرف وتمنع عنّي كيدهنّ أصب أي أميل إليهنّ وأكن من الجاهلين.

تفصيل المعنى: (قال ربّ السّجن أحبّ اليّ) يقال: لماذا دعا يوسف السّجن حفظاً له من الوقوع في المحظور، وكان بوسعه أن يدعو الله تعالى حفظه بأمر آخر غير السّجن؟ قلنا: إنّ يوسف اعتقد حسب الظّاهر أنّه لا ثالث لهذين الأمرين: إمّا استجابة المحظور، أو الدّخول في السّجن، أو رأى ذلك بنور البصيرة واطلعه الله تعالى عليه، فكأنّه قيل له في الغيب: أيّهما تحبّ المحظور أو السّجن؟ فاختار السّجن على الوقوع في المحظور. أو نقول قد ورد في الحديث القدسي: (لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أحبّه فإذا أحببته أكون سمعه الّتي يسمع بها، وعينه الّتي يبصر بها ويده الّتي يبطش بها......إلخ)[1] والمعنى: إنّه لا ينطلق جارحة من جوارحه إلّا بقدر ما نحبّ ونختار، فلم ينطلق لسان يوسف (عليه السلام) إلّا بما اختاره الله تعالى له من سجنه، وذلك لحكمة

---

(١) نص الحديث هو: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته./ صحيح البخاري ٥/ ٢٣٨٤ الحديث رقم ٦١٣٧.

يعلمها مسبّب الأسباب وربّ الأرباب لا نستطيع أن نعبّر عنها أو نفهمها إلّا أن نقول: إنّه إمتحان.

مسألة: إنّ أفعل التّفضيل يدلّ على أنّ أصل الوصف موجود في المفضّل عليه، ولكن الموجود منه في المفضّل أكثر وأزيد. فلا يقال: زيد أعلم من عمرو إلّا إذا كان عمرو عالماً، ولكن علم زيد أكثر من علمه وأزيد، فعلى هذه القاعدة: هل كان من يوسف حبّ للمحظور أيضاً؟ ولكن كان حبّه للإمتناع منه بالسّجن كان أكثر وأزيد أم لا؟ قلنا: أولاً: إنّ هذه القاعدة أغلبيّة حيث قد يستعمل أفعل التّفضيل فيما لا يوجد الوصف من المفضل عليه أصلاً، يقال زيد أفقه من الحمار وأنطق من الجدار، ولا يوجد فقه من الحمار ولا نطق من الجدار أصلاً، وقد ورد قوله تعالى حكاية عن يوسف (عليه السلام): ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ولا يوجد في الأرباب شيء من الخيريّة أصلاً، وأمثال هذا كثيرة جداً في القرآن الكريم وغيره من كلام الفصحاء. هذا وقد يقال: إنّ الله تعالى خلق الإنسان وخلق فيه داعية الطّبيعة وداعية الشّريعة. أي داعية الشّر وداعية الخير وإن الدّاعيتين متصارعتان دائماً، فإذا تغلّبت في المرء داعية الطّبيعة اتّجه إليها، وإن تغلّبت داعية الشّريعة تمسّك بها، فيوسف (عليه السلام) كان أمامه ما يلبّي به داعية الجبلّة والطّبيعة، وهو الميل إلى النّسوة فيما يردن منه، وما يلبّي به داعية الشّريعة وهو الإمتناع من الميل إلى النّسوة بسبب الحبس والسّجن والإبتعاد منهن. فاختار ما يلبّي فيه داعية الشّرع والخير وهو السّجن على ما يخاف منه من استجابة داعية الطّبيعة والشّر وهو الميل إلى النّساء، فاختار الله تعالى ما اختاره يوسف فسجن وأبعد عن هذا الموقف الخطير فلم يوجد منه ميل إليهن. فعلى هذا إنّ سيّدنا يوسف (عليه السلام) تغلّب حبّه للخير والمنع من الشّر على الحبّ المركوز في الجبلة والطّبيعة من الميل إلى المشتهى وإجتناء ثمرة الطّبيعة، فللّه درّ يوسف حيث إستعصم في هذا الموقف الخطير، ولذلك إجتباه ربّه وجعله من المرسلين.

* * *

(وإلّا تصرف عنّي كيدهن) حاولت كلّ واحدة من تلك النّسوة ظاهراً مع يوسف (عليه السلام) أن يلبي طلب مولاته، وحاولت كلّ واحدة منهن باطناً وخفيةً ورمزاً أن يميل إليها بالذّات، فالمراد بالكيد في كيدهن الجنس ليشمل النّوعين من كيدهن **(أصب إليهنّ)** أصله أصبو بالواو، حذفت الواو بالجزم لوقوعه جزاء للشّرط وهو **(وإلّا تصرف)** أي إن

لا تصرف عنّي كيدهنّ أمل إليهن، خاف من الميل حسب الطّبيعة البشريّة فإنّ الإنسان لا يستطيع أن ينصرف عن مقتضى طبيعته البشريّة إلّا بوقاية من الله تعالى أو عصمة منه وتأييده تعالى له على ذلك بتقوية داعية الخير في نفسه **(وأكن من الجاهلين)** بهذا الميل إليهن، سمّى مرتكب الذنب جاهلاً لأنّ ارتكاب ما حرّم الله تعالى جهل وإن كان فيه منفعة عظيمة جدّاً في الظّاهر؛ لأنّ هذه المنفعة مهما كثرت فهي قليلة لعدم دوامها، ولزوالها بزوال المرء ومماته، وإن طال أمدها، وإنّ المنفعة الحاصلة من ترك المحرّم وهي ثواب الآخرة ونعيم الجنّة، ولو قلّت فهي أكثر ممّا في الدّنيا لدوامها وعدم زوالها ولأبديّتها وذاتيّتها، فاختيار المتاع القليل على الكثير جهل لا ينكر، ولذلك سمّى العاصي جاهلاً وإن كان عالماً.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

مجمل المعنى: بعدما دعا يوسف (ﷺ) أن يصرف الله تعالى عنه كيدهنّ بقوله: **(وإلّا تصرف عني كيدهنّ أصب اليهنّ)** فإنّ هذا دعاء في ضمن الإخبار كأنّه قال: إصرف عنّي يا ربّ كيدهنّ وإلّا تصرف أصب، **(فـ)** بعد هذا الدّعاء البليغ **(استجاب له ربّه)** استجاب الله ليوسف دعوته هذه **(فصرف)** وحوّل **(عنه)** كيدهن **(إنّه)** أي **(هو السّميع)** الّذي يسمع وحده دعاء عبده فيستجيبه **(عليم)** بما في قلبه من الإخلاص؛ فيستجيب من المخلصين أكثر ممّا يستجيب لغيرهم. اللّهم ارزقنا الإخلاص في الدّعاء وإستجب دعواتنا يا ألله.

تفصيل المعنى: **(فاستجاب له ربّه)** الفاء في فاستجاب للتّعقيب والمفعول محذوف وهو دعاؤه، أي فعقب دعاء يوسف استجاب له ربّه دعاءه، ولا ينافي ذلك أنّ الصّرف تأخّر زماناً عن الدّعاء، لأنّ تعقيب كلّ شيء يكون حسب ما يليق به من الزّمان، وأن لا يتأخّر عن الزّمان اللّازم له قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ سورة الأعلى الآيتان/ ٣،٤. فإخراج المرعى لا يعقبه جعله غثاءً فوراً؛ فمعناه لم يتعدّ جعله غثاءً عن الزّمان المقرن له، ويقال: تزوّج فرزق ولداً، وبديهي أنّ الولد لا يأتي إلّا بعد تسعة أشهر من الزّواج لا فوراً، فالمراد: لم يمض بين الزّواج والولد إلّا ما يحتاج من مدة اللّقاح والحمل ولم يتأخّر عن ذلك، وإن جعلنا الفاء للسّببية لا نحتاج إلى هذا. وإنّما قلنا: أنّ الصرف تأخّر عن الدّعاء زماناً؛ لأنّ الصّرف كان بسجنه، وقال تعالى بعد هذه الآية: ﴿ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين﴾ وثمّ يفيد التّراخي

(فصرف عنه كيدهنّ) الفاء في: فصرف للتّفسير فسّر به كيفيّة استجابة دعاء يوسف (ﷺ) بأنّه صرف عنه كيد النّسوة. وجيئ بهذا التّفسير لأنّ يوسف كان له دعوات كثيرة لا هذا الدّعاء فقط، فلو لم يفسّر لم يعلم يقيناً أيّ دعائه استجيب **(إنّه هو السّميع العليم)** توسيط الضّمير بين إسم إنّ وخبره المعرفين يفيد الحصر، أي أنّه هو السّميع لدعاء العباد وحده لا غيره، وهو العليم بدعائهم لا يشاركه في ذلك أحد. فإن قيل: كيف يصحّ هذا الحصر مع أنّه يسمع النّاس دعوات النّاس ويعلمون بها؟ فنقول: إنّ السّمع سمعان: سمع مطلق وسمع الاستجابة، والمراد هنا: سمع الاستجابة، ولا يسمع سمع الاستجابة لأدعية العباد إلّا الله تعالى، وكذلك العلم علمان: علم بالدّعاء فقط وصدوره من العبد، وعلم بما يحيط بالدّعاء من النّيّة الحسنة والإخلاص وباقي شروط الدّعاء الظّاهرة والخفيّة، وهذا العلم لا يحصل إلّا لله تعالى.

ولنا أن نقول أيضاً: إنّ صفات الله تعالى من السّمع والبصر والقدرة والإرادة وغير ذلك صفات قديمة حقيقيّة ثابتة دائمة وذاتيّة لله تعالى كاملة، ولكنّ صفات العباد صفات عرضيّة حادثة زائلة وناقصة، فبهذا الإعتبار صحّ حصر إثبات السّمع والعلم وأيّ صفة كماليّة لله تعالى ونفيه عن غيره، وبهذا المعنى أيضاً صحّ أن يقال: لا موجود إلّا الله أي لا موجود بوجود ذاتي إلّا الله تعالى، وما سواه موجود بوجود عرضي أفيض عليه من وجود الله تعالى. فلله درّ من قال:

الله قل وذر الوجود وما حوى — إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
من لا وجود لذاته من ذاته — فوجوده لولاه عين محال

فجميع صفات الكمال الموجودة لغير الله تعالى كظلال لصفات الله تعالى وليست صفات أصليّة ولله المثل الأعلى.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾﴾

مجمل المعنى: ثمّ ظهر لهم رأي من بعد ما رأوا الآيات والعلامات على أنّ السّيدة لا تترك مراودتها، وأنّ نساء أخريات قد شغفن به: أنّ المصلحة هي أن يسجن يوسف، وقرّروا ليسجننّه حتّى حين، إلى مدّة وإلى إشعار آخر ليبتعد عن مراودتهنّ عن نفسه.

تفصيل المعنى: **(ثمّ)** أي بعدما قطعت النّسوة أيديهنّ وراودن يوسف عن نفسه كلّهن **(بدا لهم)** ظهر للعزيز ومن معه من أزواج السّيدات اللّاتي قطعن أيديهنّ شغفاً

بيوسف ظهر لهم **(من بعد مارأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين)** فسّر بعض المفسرين الآيات بالعلامات الدّالة على نزاهة يوسف (عليه السلام) ولكنّ هذا القول لا يلائم قوله: **(ليسجننّه)** لأنّ ثبوت نزاهته لا يترتب عليه سجنه، بل يترتب عليه تقديره وإخراجه من السّجن لو كان مسجوناً قبلُ بهذه التّهمة إحقاقاً للحقّ، فالحقّ ما قال بعض المفسّرين: المراد بالآيات العلامات الدّالة على أنّ السّيدة لا تترك يوسف ومراودته، وقد زاد في الطّين بلّة حيث ابتلت بما ابتلت به السّيدة سيّدات أخريات في البلد، وكلّ منهنّ يراودن يوسف عن نفسه، فاتّسع الخرق على الرّاقع فلا مجال للحيلولة دونهنّ ودون يوسف، وحفظ يوسف من مراودتهنّ ومنعهنّ من المراودة إلّا إبعاد يوسف وإخفائه عنهنّ بالحبس وإدخاله في السّجن، وهذا المعنى هو الحقّ لأنّ يعوّل عليه. **أقول**: وقد صدر مثل هذا الحكم في الإسلام من أكبر مجتهد في الدّين وهو سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث يروى أنّ عمر رضي الله عنه سمع ذات ليلة إمرأة تقول وتنشده الأبيات:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أو من سبيل إلى نصر بن حجّاج

إلى فتى ماجد الأعراق مقتبل ... سهل المحيّا كريم غير ملجاج

نمته أعراق صدق حين تنسبه ... أخي حفاظ عن المكروب فرّاج

فقالت لها إمرأة كانت معها من النّصر قالت: رجل أودّ لو كان معي طول ليلة ليس معنا أحد، وكان النّصر من أجمل النّاس، فقال عمر: أما وعمري فلا، أي فلا تبيت معه، فدعا بنصر فإذا هو أحسن النّاس شعراً، فأمره عمر بأن يطمّ أي يجزّ شعره، ففعل وخرجت جبهته فعاد أحسن ممّا كان، فأمره عمر أن يعتمّ أي يلبس العمامة، ففعل فازداد حسناً، فقال: لا تساكنّ في بلدة يتمنّاك النّساء بها، ثمّ أمر عمر بما يصلحه من المال وسيره ونفاه إلى البصرة، ولعلّ أنّ البصرة كانت ذاك الوقت معسكراً لا نساء فيها. ثمّ أعاده عمر(رضي الله عنه) بعد مدّة، ويعتبر مثل هذا الحكم من المصالح المرسلة. فرحم الله تعالى عمر حيث لم يترك أمراً من أمور الرعيّة إلّا عالجه وداواه.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾

مجمل المعنى: ودخل مع يوسف في السّجن فتيان حكم عليهما بالسّجن فأصبحا مع يوسف وحسن معاشرتهما له، وكان لهما ثقة بيوسف ودينه وعلمه، فرأى كلّ واحد منهما رؤيا، فعرضا رؤياهما على يوسف، فأمّا أحدهما قال: إنّي أرى نفسي في المنام أعصر العنب ليصير خمراً، وأمّا الآخر فقال: إنّي أرى نفسي أحمل فوق رأسي سلّة من الخبز فتأتي الطّير فتأكل ذلك الخبز، **(نبّئنا)** أي أخبرنا يا يوسف بتأويله إنّا نظنّك من المحسنين.

تفصيل المعنى: **(ودخل معه السّجن فتيان)** أي شابّان حرّان أو عبدان كلّ محتمل ولا ترجيح لأحدهما. فإنّ الفتى أطلق في القرآن الكريم على الحرّ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٦٠. وقال المفسّرون: إنّ فتى موسى كان يوشع (عليه السلام) وأنّ يوشع كان حرّاً، وأطلق على العبد أيضاً كما في هذه السوّرة قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ في الْمَدِينَةِ إمْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ أي تراود عبدها **(قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً)** أي أعصر عنباً لأتّخذه خمراً. فالمراد بالخمر هنا العنب لأنّ الخمر لا يعصر، إنّما يعصر العنب ليصير خمراً، وهذا من باب المجاز اللّغوي، وهو استعمال اللفظ في معنى غير ما وضع له لعلاقة بين المعنى الموضوع له والمعنى المستعمل فيه مع وجود قرنية مانعة عن إرادة المعنى الموضوع له ومعيّنة للمعنى المستعمل فيه، وهنا اللّفظ الخمر، والمعنى الموضوع له المسكر المعلوم، والمعنى المستعمل فيه العنب، والقرينة العصر، فإنّ العصر يكون للعنب لا للخمر والعلاقة بين المعنيين أنّ العنب يصير خمراً، فهذا من باب تسمية الشّيء باسم ما يؤول إليه في المستقبل، والمجاز في القرآن كثير. **(وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله)** الظّاهر أنّ يقال: بتأويلهما، لأنّ الرّؤيا إثنتان، ولكنّ المراد نبّئنا بتأويل ما رأينا، فالضّمير راجع إلى ما في ما رأينا، وهو مفرد عدل عن الأصل للإختصار، لأنّه لو قال على الأصل لقال: بتأويليهما، لأنّ لكلّ رؤيا تأويل، وليس بينهما تأويل واحد مشترك حتّى يقال بتأويلهما، ولفظ بتأويله اختصر من: بتأويليهما أو بتأويلهما، والقرآن يحبّ الإيجاز بل الإيجاز نوع من بلاغته، وأيضاً لو قال: بتأويليهما، لربّما توهّم أنّ لكلّ واحدة تأويلين وأنّه مثل يرى زيد وعمرو لا قبل رأسيهما. **(إنّا نراك من المحسنين)** مأخوذ من الإحسان بالمعنى اللّغوي أي من المحسنين مع المسجونين حيث كان (عليه السلام) يواسيهم ويداويهم ويسليهم ويراعيهم ويقوم بخدمتهم، أو من الإحسان الإصطلاحي وهو: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه

فإنّه يراك) فإنّ يوسف (عليه السلام) كان يقوم اللّيل ويصوم النّهار ويراقب الله تعالى ويخشاه كلّ محتمل، ويجوز أن يراد المعنيان لأنّ يوسف (عليه السلام) كان محسناً بكلّ معاني الإحسان، حشرنا الله تعالى في زمرة المحسنين وغفر لنا ولهم ولوالدينا أجمعين.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ ۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

مجمل المعنى: قال يوسف (عليه السلام) للفتيين قبل أن يعبّر لهما الرّؤيا: لا يخفى عليكما أنّه لا يأتيكما طعام من أي جهة ترزقون منها إلّا أخبرتكما بشرحه قبل أن يصلكما، وإنّ ذلك العلم الّذي أخبر به عن هذه المغيبات جزء ممّا علّمني ربّي من العلوم، وقد علّمني ذلك لأنّي تركت دين قوم لا يؤمنون بالله إيماناً صحيحاً وهم بالحياة الآخرة في يوم القيامة هم كافرون لا يصدّقون بها.

تفصيل المعنى: **(قال لا يأتيكما طعام ترزقانه)** كان الظّاهر أن يقول: ما أتاكم، لأنّ كان يذكرهم بالماضي ويخبر عنه بقرينة قوله: **(إلّا نبأتكما)** ولكن عدل عنه إلى المضارع ليفيد الإستمرار، وإنّ هذا الحال كان مستمراً في الماضي إلى الآن، وذلك لأنّ المضارع يفيد الإستمرار حسب اللّغة **(ترزقانه)** الرّزق من الله تعالى وحده، ولم يقل يرزقكما الله تعالى، إمّا لأنّ الفاعل معلوم والإختصار مطلوب فعبّر بالمجهول. أو لأنّ الصّاحبين كانا مشركين لا يريان الرّزق من الله تعالى وحده. فلم يرد أن يصادم عقيدتهما في أوّل الأمر، بل أراد أن يتدرّج بهما إلى المصارحة بالقول بالتّوحيد: **(إلّا نبّأتكما بتأويله)** قال بتأويله مطلقاً ليفيد العموم، فالمعنى: أخبرتكما بنوعه وكيفيّته وكميّته ومنافعه ومضارّه والجهة الّتي يأتي منها والوقت الّذي يأتي فيه. **(قبل أن يأتيكما)** فيه مجاز لأنّ الطّعام يؤتى به ولا يأتي، وقد شاع هذا المجاز فأصبح كالحقيقة **(ذلكما ممّا علّمني ربّي)** أي من العلم الّذي علّمني ربّي وليس من علم التّنجيم أو السّحر أو الكهانة أو العرافة، بل من علم علّمني ربّي، وإنّ هذه العلوم وإن كانت من تعليم الله تعالى أيضاً إلّا أنّه أصبح من الإصطلاح أنّها لا تنسب إلى الله تعالى مباشرة،وإنّما ينسب إليه تعالى العلم الحاصل بالوحي أو الإلهام، ويسمّى ذلك بالعلم اللّدني وغيره بالعلم الكسبي، فأراد أن يبين لهم أنّ هذا العلم من الوحي وأنّه رسول إن كان في ذلك الوقت نبيّاً أو من الإلهام إن لم يصر بعد نبيّاً في ذلك الوقت.

سؤال: كيف مدح يوسف (عليه السلام) نفسه هذا المدح العجيب؟ ألا يعد هذا عُجباً، وكيف يجوز أن يمدح الإنسان نفسه؟

الجواب: أنّه يجب على الدّاعية أن يذكر للنّاس صفاته الواقعيّة الصّادقة الّتي تنبئ عن شخصيته وعظمته ومدحه بها؛ ليجلب بها ثقة النّاس إليه فيحملهم على الإيمان بصدقه وبشخصيته ليؤمنوا بما يدعو إليه من الإسلام ولذا قال تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم): ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ سورة الضّحى الآية/ ١١. وقد قال نبيّنا عيسى (عليه السلام) : ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٤٩.

(إنّي تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله) ذكر ذلك ليعلمهم أنّ الله تعالى وهبه هذا العلم بسبب أنّه ترك دين القوم الّذين لا يؤمنون بالله حقّ الإيمان من توحيده بالعبادة والإستغاثة به ووصفه بصفات التّقديس والكمال، وإلّا فكان القوم يؤمنون بوجود الله تعالى ولكن يشركون به غيره بقرينة قوله لهم فيما بعد: (ما تعبدون من دونه إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) حيث احتجّ عليهم بأنّه لا دليل لهم على عبادتهم من الله تعالى، فإذاً كانوا مؤمنين بالله ولكن كانوا يشركون به غيره، فيفهم من هذا أنّ كلّ من آمن بالله ولكن أشرك به غيره في صفاته وعبادته وتقديسه فإيمانه به ليس بإيمان وما أكثر هؤلاء. اللّهم اهدهم فإنّهم لا يعقلون.

وذكر ذلك تشجيعاً لهم وحثاً على أن يسلكوا مسلكه ويأخذوا سبيله ويتركوا الكفر والشّرك بالله ويتمسّكوا بحقيقة الإسلام فإنّ من فعل ذلك فتح الله قلبه فيرى من المغيبات بقدر إصلاحه وتوحيده وتوجّهه إلى الله تعالى وعبادته له واستغاثته وندائه في الملمّات وحده دون غيره.

* * *

مسألة: قد يقال: إنّ (تَرَكَ)[١] يقال لمن كان داخلاً في أمر ثمّ أعرض عنه، فهل كان يوسف داخلاً في دين القوم ثمّ تركه؟

---

(١) أي الفعل ترك.

الجواب: كلّا، ولكنّ الله تعالى خلق الإنسان ووهبه قدرة على الأمور واختياراً لأخذ ما يشاء منها من المتماثلين والمتضادّين والمتناقضين، فحينما وقف أمام شيئين فكأنّ الشّيئين في يده ووسعه، فإذا أخذ أحدهما وأعرض عن الآخر صحّ أن يقال تركه. ألّا يرى أنّه لو كان معك صاحب وأمامكما فاكهتان لذيذتان فأكلت أنت منهما ولكن الصّاحب أكل من واحدة فقط، ألا تقول له لماذا تركت هذا؟ وألا يصح قولك هذا؟ الجواب: ليس إلّا بلى. فيوسف حيث كان في وسعه أن يسلك سبيل الإسلام وأن يسلك سبيل القوم واختار سبيل الإسلام والتّوحيد صحّ أن يقول: تركت ملّة قوم.... إلخ، هذا وإنّ في هذا التّعبير لطافة وهي: أنّ الصّاحبين يتوهّمان من التّعبير بتركت أنّه كان على دينهما فلم يكن ليعلم شيئاً، وحينما تركه علّمه الله تعالى هذا العلم؛ فيكون ذلك أبلغ في حثّهما على ترك ما هم عليه والتّمسك بما تمسك به فكأنّه قال: لو تتركون أنتم ما أنتم عليه وتمسّكتم بما أنا عليه فإنّ الله تعالى يعلّمكم مثل ما علمني، والإيهام جائز بدليل أنّه وصل رسول الله (ﷺ) في طريقه قوماً فسألوهم: من أين جئتم؟ فأجاب رسول الله (ﷺ): (من ماء) فظنّوا أنّهم جاؤوا من واد به ماء، ولكن أراد (ﷺ) أنّهم جاؤوا وخلقوا من ماء، وأوهم هكذا لئلا يعرفوه مخافة أن يخبروا الأعداء بهم **(وهم بالآخرة هم كافرون)** أعاد كلمة (هم) إرادة للتّخصيص أي (هم كافرون) بالآخرة لا نحن معاشر المسلمين، أو لتقوية الإسناد إليهم، فإنّهم تعمّقوا في إنكار الآخرة أكثر من إنكار الله تعالى، أو لإرادة التّخصيص والتّقوية معاً، لأنّ كلّ ما يفيد التّخصيص يفيد التّقوية أيضاً، كمّا بيّن ذلك من علم البلاغة. وليس هنا موضع التّفصيل له.

* * *

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

مجمل المعنى: واتّبعت دين آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب (على نبيّنا وعليهم الصّلاة والسّلام) ما كان أي ما ينبغي ولا يليق بنا أن نشرك بالله أي شيء غيره، ذلك الدّين من فضل الله ونعمته، أنزله علينا وعلى النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون نعمة هذا الدّين باتّباعه والتّمسك به وتطبيقه في أمور الحياة كلّها.

تفصيل المعنى: **(واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب)** ذكر آباؤه ودينهم ليعرفوه ديناً ونسباً، حيث كان آباؤه هؤلاء معروفين بدينهم وشرفهم ليزداد الصّاحبان وأهل السّجن ثقة به فيسمعوا ويستمعوا إلى قوله أكثر، ودلّت الآية على صحة إطلاق الأب على الأجداد **(ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء)** وكلمة من: تفيد تأكيداً وتعميماً للنّفي، أي لا يليق بنا وليس من شأننا أن نشرك بالله تعالى أي شيء، سواء كان ذلك الشّيء ملكاً أو انساناً أو حيواناً أو جماداً أو نجوماً أو هياكل. فإنّ غير الله تعالى لا يصحّ له العبادة ولا الإستغاثة به إذ ليس التّشريع ولا التّأثير ولا التّكوين إلّا لله ومن أسند شيئاً من ذلك فقد أشرك بالله تعالى وإن كان مؤمناً به **(ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس)** ذلك الدّين والتّوحيد والإسلام من نعمة الله تعالى أنعم بها علينا وعلى النّاس جمعياً لأنّ الدّين جاء للنّاس كلّهم، وكلّهم مأمورون بالتّمسك به وإنّه نعمة للكلّ لأنّه سبب لسعادة الدّارين أفراداً وأمماً **(ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون)** هذه النّعمة وهذا الدّين، فهم ينحرفون عنه ولا يتمسكّون به ولا يطبّقونه أو يفهمونه على غير وجهه الصّحيح.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾

مجمل المعنى: يا صاحبيّ في السّجن آلهة متفرّقون يتّخذهم الإنسان ويعبدهم خير أم الله الواحد القهار خير لأنّ يتوجّه الإنسان إليه وحده ويعبده ويدعوه ويستغيث به لا بغيره؟ لا شكّ أنّ الله خير وهو الحقّ وما سواه باطل.

تفصيل المعنى: (أأرباب متفرّقون) أي متعدّدون. قال: متفرّقون بدل متعدّدون لأنّ كلّ متعدّد متفرّق في الأوصاف والذّوات والإرادات والخواصّ وإلّا لم يوجد تعدّد، فذكر اللازم بدل الملزوم للإشارة إلى أنّ المعنى أأرباب عاجزون **(خير)** أن يتمسّك بهم الإنسان ويعبدهم أم الله القدير، وذلك لأنّ كلّ متعدّد متفرّق، وكلّ متفرّق عاجز بسبب التّفرقة والاختلاف في الإرادات والمرادات، لأنّه إمّا أن يحصل مراد الكلّ فيجتمع المتناقضات وهذا محال، أو لا يحصل مراد الكلّ فالكلّ عاجز، أو يحصل مراد البعض دون البعض، فالبعض الّذي لم يحصل مراده فهو عاجز، ونفرض ذلك بين إثنين فلا يبقى للألوهيّة إلّا واحد وهو الله الواحد القهّار. فهو الحقّ بالعبادة وهو الخير وما عداه شرّ وباطل ولو اتّفقا. فإمّا أن يوجد الشّيء بإرادة وتأثير واحد فلا حاجة إلى الثّاني، أو بإرادتهما معاً، فإن كانت الإرادتان تامّتين وكافيتين لخلقه يلزم تعدّد الفاعل على مفعول

واحد وهو باطل، وإن كانتا ناقصتين فكلاهما عاجزان وليسا بإله، وإن كانت إحداهما تامّة والأخرى ناقصة، فالتّامة كافية والنّاقصة باطلة، فثبت أنّ الإله واحد قدير.

مسألة: هل يوجد في الأرباب غير الله تعالى خيريّة فيكون الله أكثر خيريّة منهم كما هو مقتضى أفعل التّفضيل من لزوم وجود أصل الوصف في المفضل عليه أم لا؟

الجواب: لا، وإنّما هذه القاعدة لأفعل التّفضيل أغلبيّة كما ذكرنا سابقاً حيث يقال فلان أنطق من الجدار، ولا يوجد للجدار نطق أصلاً، أو نقول المسألة على الفرض والتّقدير، والمعنى: لو وجد الخيريّة في الأرباب فرضاً، فالله أكثر خيريّة، ولكن لا يوجد فيهم الخيريّة أصلاً، فالله خير وهو الحقّ بالعبادة ولنا أن **نقول:** إنّ الخير هنا صفة مشبّهة وليس بأفعل للتّفضيل، فالله خير موصوف بالخيريّة وماعداه لا يوصف بها فهو شرّ والشرّ باطل. فَبَطَل تلك الأرباب وعبادتها.

* * *

﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

مجمل المعنى: يا صاحبيّ في السّجن ما تعبدون من دون الله تعالى إلّا أشياء سمّيت آلهة، وهذه التّسمية ليست إلّا من قبلكم أنتم. لأنّكم أنتم سمّيتموها آلهة وليست بآلهة، بل هي مخلوقة لله تعالى، وسمّاها أيضاً بهذه الأسماء آباؤكم من قبل، وقلّدتموهم في ذلك دون دليل وبرهان، لأنّه **(ما أنزل الله بها من سلطان)** أي ما أنزل بألوهيّة هذه الأشياء أي دليل أو برهان أو أمر بذلك، فتبيّن أنّه لا دليل لكم، ولا سند في عبادة هذه الأشياء لا من العقل ولا من النّقل، وليس الحكم إلّا لله تعالى. وقد حكم بخلاف ما أنتم عليه من الشّرك حيث قد **(أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاه ذلك)** أي عبادة الله وحده دون غيره والاحتكام بحكمه فقط والإمتثال لأمره فحسب والإستغاثة به وحده هو الدّين القيّم المستقيم وما سواه عوج باطل يضلّ فيه الإنسان ولكن أكثر النّاس لا يعلمون، فينحرفون عن هذا المنهج المستقيم وعن هذا الدّين القويم فيضلّون ويُضلّون.

تفصيل المعنى: كان يوسف (عليه السلام) يعرض لهم ولا يصارحهم في الآيات السّابقة ولا يذكر ما يمسّ عقيدتهم صراحة إلى أن تدرّج بهم ورأى منهم حسن الاستماع إليه فصارحهم فقال: **(ما تعبدون من دونه)** وهكذا يجب أن تكون الدّعوة بلين في المقال وتوطئة للكلام، والتّدرج بالمدعو إلى الحقّ والإجتناب عمّا يبغضه ويضرّه قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ سورة طه الآية/ ٤٤.

تنبيه: إنّ معنى الإشراك والعبادة لغير الله تعالى خفيّ على كثير من الأذهان، فلذلك أودّ أن أفصّل في شرح هذا الموضوع تفصيلاً مفيداً، فنقول: العبادة لغير الله تعالى والإشراك به تكون بوجوه:

الأوّل: يكون بالخضوع والتذلّل والإطاعة لشيء لذاته، أي بعقيدة أنّ ذاته تستحقّ هذه الإطاعة والخضوع له؛ فمن خضع أو أطاع غير الله تعالى لإعتقاد أنّ ذاته تستحقّ ذلك فهو عبادة لغير الله تعالى وأشراك به، وإن فعل ذلك لأنّ الله تعالى أمر به وأطاعه داخل حدود أمره؛ فلا يكون عبادة لغير الله تعالى بل عبادة له. فمثلاً من أطاع والديه لذاتهما وبعقيدة أنّ ذاتيهما تستحقّان ذلك فهو عبادة لغير الله تعالى، وإن أطاعهما لأنّ الله تعالى أمر بطاعتهما، وكانت الإطاعة في حدود أوامر الله تعالى؛ فهو عبادة لله تعالى لا لغيره. وإن كانت في غير حدود الشّرع فهو إشراك أيضاً؛ وهكذا فكلّ من أوجب الله تعالى إطاعته يكون إطاعته إمتثالا لأمر الله تعالى وفي حدود ما أمر به الله تعالى عبادة لله، وإلّا بأن إطاعه لذاته أو في غير حدود شريعة الله تعالى فهو عبادة لغير الله تعالى وإشراك به تعالى عن ذلك، فإنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

الثّاني: أن تعتقد أنّ لغير الله تعالى سلطة وتأثيراً بذاته دون ترتيب الأسباب، فهو إشراك بالله تعالى أيضاً. فمثلاً: من اعتقد أنّ الطّبيب ينفع بسبب أنّ الله تعالى خلق الأدوية وعلّمها الطّبيب وإنّ الشّفاء بيده يخلقه عقب استعمال الأدوية إن شاء لا حتماً فليس ذلك شركاً، لأنّ الله هو الّذي خلق الأدوية وعلّمها الطّبيب وجعل من عادته أن يخلق الشّفاء بعد الأدوية[1] غالباً وإن شاء. ولكن الّذي يعتقد أنّ الطّبيب ينفع بذاته وأن الادوية تشفى بذاتها فقد أشرك بالله تعالى. وكذلك من خاف من السّلطان أو طمع فيه لأنّ الله تعالى جعل في يده أسباب الخير والنّفع والضّرر الماديّة وجعله الله تعالى سبباً لذلك فلم يشرك بالله تعالى.

---

(١) أي بعد استعمال الأدوية.

ولكنّ الّذي يخاف منه ويطمع فيه بعقيدة أنّه مؤثّر بذاته ونافع وضارّ حقيقةً لا تسبّباً فقد أشرك وكفر، وأيضاً من أحبّ الصّالحين والأولياء لأنّهم عبّاد الله تعالى الممتثلون لأمره والمجتنبون عن نواهيه، وإنّ الله تعالى يحبّهم ويستجيب دعواتهم إن شاء لا حتماً، فتخاف من دعائهم عليك وتطمع في دعائهم لك وتطلب منهم أن يدعوا لك لا بأس به ولا حرج فيه. وأمّا الإعتقاد فيهم بأنّهم ينفعونك أو يضرّونك بإرادتهم وروحيّتهم فهو شرك قال تعالى لمحمّد رسول الله (ﷺ) وهو خير خلق الله ﴿قُلْ إِنّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا رَشَداً﴾ سورة الجن الآية/ ٢١ ـ فكيف حال غيره. وكذلك الإعتقاد فيهم بأنّهم يقربونك إلى الله تعالى ويوصلونك إليه فهو شرك أيضاً. قال تعالى في مشركي مكّة: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ أي نعظّمهم ونقدّسهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ سورة الزمر الآية/ ٣. وذلك لأنّه لا يوصل العبد إلى الله تعالى ولا يقرّبه إليه إلّا عمله وعبادته وتطبيق شريعته. وكذلك الإستغاثة بهم وطلب الأمور منهم بعقيدة أنّ لهم علماً بالغيب أو قوّة الإغاثة بالغيب أو إعطاء أية قدسيّة لهم غير الصّلاح واستجابة دعواتهم فهو شرك بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلا تَدْعوا مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ سورة الجن الآية/ ١٨. فلا يجوز الإستغاثة ونداء غير الله تعالى في الأمور الغيبيّة الّتي وراء الأسباب، وأمّا داخل الأسباب فيجوز، كأن تقول: يا فلان ناولني هذا الشّيء، أو هذا الكتاب. وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّما أَدْعو رَبّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً﴾ سورة الجنّ الآية/ ٢٠. أي في الدّعاء والإستغاثة، وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ سورة الحج الآية/ ٧٣ ـ فلا يجوز الإستغاثة بغير الله تعالى فيما وراء الأسباب لأنّ غير الله تعالى ليس لهم قدرة على ذلك، قال محمّد فيض الزهاوي مفتي بغداد:

لا تدع في حاجة بازاً ولا أسداً — الله ربّك لا تشرك به أحداً

الثّالث: أن تعتقد أنّ للإنسان أي إنسان كان حقّ التّشريع والتّقنين ووضع الأحكام من عند نفسه دون الرّجوع للإستنباط والتّخريج من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله (ﷺ)، فإنّ ذلك شرك، فإنّ الحكم لله وحده تكويناً وتكليفاً كما قال ﴿إن الحكم إلّا لله﴾ سورة يوسف الآية/ ٤٠.

* * *

مسألة: فإن قيل: فكيف نأخذ الحكم من سنّة رسول الله (ﷺ) وقد قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلهِ﴾؟ **قلنا:** نأخذ منه بإعتبار أنّ كلامه كلام الله تعالى وأنّ حكمه هو حكمه لأنّ الله تعالى قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ سورة النجم الآيتان/ ٣،٤، فكلّ ما قاله الرّسول (ﷺ) من الأحكام فهو إمّا مأخوذ من كتاب الله تعالى أو أوحي إليه بوحي آخر غير القرآن، فإنّ ما يوحى إلى الرّسول ثلاثة أقسام:

القرآن: وهو ما يكون لفظه ومعناه من الله تعالى ويكون معجزاً.

الحديث القدسي: وهو ما يكون لفظه ومعناه من الله تعالى وليس بمعجز وهو المصدر من الأحاديث الشّريفة بقوله (ﷺ): قال الله أو قال ربّي.

الحديث النّبوي: وهو ما يكون معناه من الله تعالى ولفظه من الرّسول.

وإلّا فمن اعتقد أنّ الرّسول له الحكم والتّشريع مستقلاً فقد كفر وأشرك بالله تعالى.

* * *

سؤال: وإن قيل فكيف نقلّد الأئمّة المجتهدين؟

الجواب: نقول: لا نقلّدهم لأنّهم حكّام يحكمون ويشرّعون من عند أنفسهم ولهم ذلك فإنّ ذلك شرك، بل نقلّدهم لثقتنا بهم أنّهم جاهدوا واجتهدوا واستنبطوا هذه الأحكام من كتاب الله تعالى أو من سنّة رسوله، وأنّهم يخطئون ويصيبون، فلهم أجران على الصّواب وأجر على الخطأ كما أخبر بذلك الرّسول (ﷺ)، وقد وصى كلّهم بأنّه إذا ظهر أنّ قولهم مخالف للآية أو للحديث الصّحيح أن يترك قولهم ويضرب به عرض الحائط، وأن يؤخذ بما ظهر من الآية أو الحديث الصّحيح. وليس هذا شركاً بل هو واجب إذ ليس في وسع كلّ أحد أن يأخذ الأحكام من الكتّاب والسّنة، فعليه أن يقلد من يجتهد ويستنبط منهم الأحكام من العلماء الّذين بلغوا رتبة الإجتهاد والإستنباط.

هذا فالأقسام الثّلاثة كلّها شرك يسمّى **الأوّل**: الشّرك في العبادة، **والثّاني**: الشّرك في الخلق، **والثّالث**: الشّرك في الحكم، فاجتنب كلّ ذلك وإلّا فلا تكون موحّداً. ويجمع هذه الأقسام كلّها كلمة (لا إله الّا الله) لأنّ معناه لا حاكم تكويناً ولا تكليفاً يطاع بحقّ إلّا الله تعالى، ويتفرّع من هذا أنّ كلّ من التزم حكماً اختياراً دون كراهة بل بالإعتقاد

بأنّه حقّ، وقد صدر ذلك الحكم بخلاف حكم الله تعالى أو دون الإستناد إلى الكتاب أو السّنة صدر ذلك من أي حاكم فقد أشرك وخرج عن الإسلام، لأنّ الحاكم في الإسلام منفّذ لأحكام الله تعالى، وليس واضعاً للأحكام، وإنّ الإسلام حين ما يعترف بالشّورى فإنّما يعترف به في أمور لم يظهر فيها نصّ لا من الكتاب ولا من السّنة فيتشاورون فيما بينهم للتّفحص عن نصّ ورد فيها أو إلحاقها بما ورد فيها نصّ ممّا يماثلها حين اليأس من وجود النّص، وكذلك يتشاورون في أمور مرسلة لم يتعرّض لها الشّارع كالمصالح المرسلة فيقرّرون حسب ما هو مصلحة لدين الأمّة ودنياها، وذلك في أمور الإدارة والسّياسة وإصلاح الأمّة وغير ذلك.

* * *

(إلّا أسماء سمّيتموها أنتم وآباؤكم) فيه حذف مضاف تقديره، ما تعبدون إلّا مسمّيات أسماء سمّيتم هذه المسميّات بتلك الأسماء وهي الإله أو الرّب أو غير ذلك من أسماء تخصّ الله تعالى ولا يجوز إطلاقها على الغير. وهذه التّسمية هي من عند أنفسكم دون دليل وبرهان حيث **(ما أنزل الله بها من سلطان)** أي لم ينزل الله تعالى بعبادة هذه الأسماء والخضوع والإستغاثة بها والإطاعة لها من سلطان أي دليل وحجّة وبرهان على ذلك أو أمر منه بذلك، ويفهم من هذه الآية أنّ كلّ طاعة للغير في أي أمر من الأمور إذا ورد بها دليل من الله تعالى وأمر به في شرعه فهي إطاعة وعبادة لله تعالى لا للغير ما دام يعمل العبد ذلك إمتثالا لله تعالى، وكلّ طاعة لم يرد به الشّرع أو تعمل لا لداعية الشّرع بل لداعية أخرى فهو عبادة لغير الله تعالى **(إن الحكم إلّا لله)** هذا في معرض الدّليل على أنّ عبدة غير الله تعالى من الأصنام والهياكل والأشخاص وغير ذلك باطلة وذلك، لأنّ الحكم لله وحده وليس لغيره أي حكم، ويجب أن تكون العبادة والإطاعة لمن له الحكم، وأنّ عبادة من ليس بيده الحكم باطلة، فعبادة غير الله باطلة، وأعلم إنّ الحكم حكمان كلاهما خاص بالله تعالى:

أحدهما: الحكم التّكويني وهو ما به الخلق والإيجاد والتّأثير يعبّر عنه بقوله تعالى (كن فيكون) فلا خلق ولا تأثير ولا إيجاد إلّا لله تعالى.

الثّاني: الحكم التّكليفي وهو الإيجاب والنّدب والتّحريم والكراهة والإباحة للأمور، وتشريع الأحكام في العبادات والمعاملات وأحوال الأسرة وتهذيب الأخلاق والشّؤون الإجتماعيّة والإداريّة ووضع الحدود على الجرائم وغير ذلك من كلّ ما به تنظيم حياة

الفرد والأمّة، وهذا أيضاً حقّ لله تعالى وليس لأحد حقّ في ذلك، وإنّما الإنسان حاكم بمعنى منفّذ لأحكام الله تعالى في الأرض لا حاكم إستقلالاً. فلا يجوز لأحد أن يطاع إلّا في داخل حدود شرع الله تعالى، حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(أمر أن لا تعبدوا إلّا أياه) أي لم يصدر بعبادتكم لمن دون الله تعالى أمر من الله تعالى، بل بالعكس صدر أمر منه بخلاف ذلك؛ لأنّه أمر أن لا تعبدوا إلّا إيّاه، أي أن لا تعتقدوا تأثيراً ولا شريكاً لغير الله تعالى، وأن لا تعمل لأحد إلّا في داخل حدود ما أمر الله به، وبالكيفيّة الّتي أمر بها. **(ذلك الدّين القيّم)** أي ذلك الّذي أمرتم به من عبادة الله وحده ونبذ عبادة ما سواه هو الدّين القيّم أي الطّريق المستقيم والمنهج الصّحيح لايضلّ من سلكه ولا يشقى من طبّقه.

(ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون) فينحرفون عن هذا الدّين القويم والمنهج المستقيم، فيضلّون ويُضلّون ويصبحون من الهالكين، حفظنا الله تعالى من ذلك أجمعين.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾

مجمل المعنى: يا صاحبيّ في السّجن أمّا أحدكما فيظهر براءته من التّهمة المسندة إليه، فيطلق سراحه ويرجع إلى عمله، ويسقي سيده وهو الملك خمراً كما كان يسقيه من قبل، وأمّا الآخر فتثبت عليه التّهمة فيخرج فيصلب فتأكل الطّير من رأسه **(قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان)** أي نجز الأمر الّذي تستفتياني فيه كما قلت.

تفصيل المعنى: لم يذكر سيّدنا يوسف (عليه السلام) ولا القرآن الكريم إسم الفتيين فليس لنا حقّ في أن نتعب أنفسنا بذكر إسميهما إستناداً إلى ما ورد من الإسرائيليّات الّتي تحتمل الكذب أكثر من الصّدق، ولكنّ الّذي يستفاد من سياق الآيات الكريمة أنّ أحدهما كان ساقياً للملك، والآخر خبّازاً له، فاتّهما بنوع من المؤامرة، كإدخال السّم في طعام الملك أو شرابه، فسجنا لحين التّحقيق، ونتيجة للتّحقيق ظهر براءة السّاقي، فرجع إلى عمله وثبتت الجريمة على الخبّاز فصلب، وصدق سيّدنا يوسف (عليه السلام) في تعبيره بقوله: **(أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً)** فهنا إيجاز وحذف تقديره: أمّا أحدكما فيظهر براءته ويخرج ويرجع إلى عمله فيسقي ربّه خمراً **(وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطّير من رأسه)** وفي هذا أيضاً إيجاز تقديره: وأمّا الآخر فتثبت عليه الجريمة فيخرج ويصلب

فتأكل الطّير.... إلخ (**قضي الأمر الّذي فيه تستفتيان**) فسّروه بنوعين:

الأوّل: قال يوسف (عليه السلام) بعدما عبّر لهما حكم الله تعالى بالأمر الّذي تستفتيان فيه مثل ما قلت وعبّرت لكما.

الثّاني: أنّه (عليه السلام) قال لهما قد فسّر لكما الأمر الّذي تستفتيان فيه من قبلي وهذا تفسيره لا غيره.

فعلى التّفسير الأوّل أنّ سيّدنا يوسف (عليه السلام) أخبر عن المستقبل إعتماداً على الرّؤيا أو وحي أوحي إليه ليكون ذلك معجزةً له؛ فيؤمن من بالسّجن نتيجة لذلك. وإظهار المعجزات واجب على الأنبياء، بخلاف كرامة الأولياء فإنّه يجب عليهم إخفاؤها إلّا لضرورة داعية إلى إظهارها. ويقال إنّ الأولياء يخفون كراماتهم كما تخفي الفتاة خرقة حيضها.

ملاحظة: لم يعبّر سيّدنا يوسف (عليه السلام) رؤيا الصّاحبين أوّل الأمر، لأنّ المسلم يجب عليه أن يستغل كلّ فرصة وكل مناسبة لنشر دعوته إلى الله تعالى وإراءة سبيل الحقّ ونشر الإسلام والدّين المبين، وحثّ النّاس على عبادة الله تعالى وتوحيده، فاستغلّ يوسف (عليه السلام) هذه الفرصة وثقة أهل السّجن به، فدعاهم ببرهان العقل والنّقل إلى توحيد الله تعالى، ثمّ جعل تعبيره عن الأحلام وعلمه بأمور غيبيّة هو ثمرة توحيده، ولله تعالى إفراده بالعبادة له ليكون ذلك معجزة دالّة على صدقه ووسيلة لاتّباع النّاس له والتّمسك بدينه وعقيدته، حيث إنّ أهل مصر في ذلك الوقت كانوا مسلمين وكانوا يعملون بشريعة سماويّة في الأحكام، ولكن دخل في عقيدتهم الوثنيّة والإشراك بالله تعالى نتيجة لتقديس غير الله تعالى، وهذا كما وقع فيه كثير من مسلمي زماننا، هدانا الله تعالى وإيّاهم أجمعين. وهكذا يجب أن يكون المسلم والدّاعون إلى الله تعالى لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا تشغلهم عن الدّعوة إلى الحقّ أي حال من الأحوال بل همّهم الإرشاد والدّعوة إلى الله تعالى في السّراء والضّراء وفي العسر واليسر جزاهم الله تعالى على ذلك خير الجزاء وجعلنا منهم آمين ثمّ آمين.

* * *

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ الشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

مجمل المعنى: قال سيّدنا يوسف (عليه السلام) للفتى الّذي ظنّ يوسف أنّه ناج من السّجن ويرجع إلى كونه ساقياً للملك، أذكر قضيّتي ومظلوميّتي بالسّجن عند ربّك وهو الملك حينما تسقيه، فأنسى الشّيطان السّاقي أن يذكر يوسف عند ربّه وسيّده، فبقي يوسف في السّجن بعد ذلك بضع سنين. أي عدداً من السّنين وهو ما بين الثّلاث إلى العشرة، أي أكثر من إثنين وأقلّ من عشرة، والأصحّ أنّه بقي في السّجن سبع سنين.

تفصيل المعنى: (وقال للّذي ظنّ أنّه ناج منهما) الضّمير في ظنّ راجع إلى سيّدنا يوسف (عليه السلام) كما فسرنا، أي قال يوسف للّذي ظنّ يوسف أنّه ناج من الصّاحبين وهو السّاقي، فالظّن بمعناه الحقيقي: وهو ترجيح وقوع مضمون الخبر كما هو مع إحتمال التّخلّف، إن كان تعبير يوسف (عليه السلام) لرؤياهما عن إجتهاد منه، وأمّا إن كان تعبيره عن وحي أوحي إليه فالظّنّ بمعنى اليقين: وهو الجزم بوقوع مضمون الخبر جزماً لا يحتمل النّقيض والتّخلف. وقد استعمل الظّن في معنى اليقين في القرآن الكريم كثيراً. وقال بعض المفسّرين الضّمير رجع إلى الّذي، أي قال يوسف للّذي ظنّ أنّ نفسه ناج من السّجن وهو السّاقي أذكرني.... إلخ. فيكون الظّن بمعناه الحقيقي فقط، لأنّ السّاقي لم يحصل له اليقين بنجاته بتعبير يوسف (عليه السلام) لأنّه لم يعتقد فيه النّبوّة، وأنّ خبر الواحد غير النّبيّ لا يفيد إلّا الظنّ فقط. ولكنّ هذا المعنى بعيد؛ لأنّ قول يوسف للسّاقي: أذكرني..... إلخ. نشأ عن ظنّه أنّه ناج لا عن ظنّ السّاقي، وهو ظاهر لمن له الذّوق السّليم (**أذكرني عند ربّك**) أي أذكر قضيّتي ومظلوميّتي عند سيّدك وهو الملك.

الحكم: يؤخذ من هذا جواز التّوسل بالأسباب والتّوسط بالنّاس في الأمور الدّنيوية العائدة إلى النّاس ظهراً بشرط عدم نسيان مسبّب الأسباب، وبعقيدة أنّ الأسباب إنّما تعمل بإرادة الله تعالى لا بنفسها، فالأسباب لها قيمتها في الدّين ولا يجوز إهمالها للمسلمين، ولذلك ضرب عمر بالدّرة جماعة مكثوا في المسجد ليل نهار حينما سألهم من أنتم وأين تعيشون؟ قالوا: نحن متوكّلون، فقال: بل أنتم متأكّلون، إنّ هذه السّماء لا تمطر ذهباً ولا فضّة إذهبوا واعملوا لتحصيل أرزاقكم. هذا **وأقول** قد قال تعالى: ﴿هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النّشور﴾ سورة الملك الآية/ ١٥. وقال (صلى الله عليه وسلم) لمن ترك بعيره: (إعقل بعيرك ثمّ توكّل)[1]. فالتّوكّل إنّما

---

(١) نص الحديث: (قال رجل للنبي أرسل ناقتي وأتوكل قال: أعقلها وتوكل./ صحيح ابن حبان ٢/ ٥١٠ الحديث رقم ٧٣١.

يكون بعد الأخذ بالأسباب لا عند تركها. فمن توكّل على الله في أن يرزقه ولداً ولم يتزوج جنون، ومن أراد أن يحصد بدون أن يزرع مفتون، وإنّما يحتاج المرء إلى التوكّل على الله تعالى بعد الأسباب، لأنّ لله تعالى أن لا يخلق المسبّب ولو اجتمعت الأسباب كلّها إلّا أنّه جعل من عادته خلق المسبّب بعد السبّب وليس ذلك حتماً **(فأنساه الشّيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين)** الضّمير في فأنساه وفي ربّه راجع إلى كلمة الّذي المعبّر به عن السّاقي، فالمعنى: أنسى الشّيطان السّاقي أن يذكر يوسف عند سيّده وهو الملك؛ فبقى يوسف (ﷺ) في السّجن بضع سنين، وأمّا ما قال البعض من أنّ الضميرين راجعان إلى يوسف والمعنى: أنّ في هذه الحالة أنسى الشّيطان يوسف أن يذكر ربّه وهو الله تعالى، فيتوكل عليه فقط ولا يتوسّل بالسّاقي، فلذلك عوقب ببقائه في السّجن بضع سنين فباطل جدّاً، ويظهر بطلانه بأمور:

الأوّل: أنّ هذا القول يعطي تسلّطاً للشّيطان على يوسف (ﷺ)، وأنّ الشّيطان قد تبرّأ بنفسه من ذلك حيث قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ سورة الحجر الآيتان/ ٣٩،٤٠. وأنّ يوسف من المخلصين، بدليل قوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبدِنا الْمُخْلَصين﴾ فمن تبرّأ الشّيطان من تسلّطه عليه كيف يجوز للبعض أن يسلّطه عليه.

الثّاني: أنّ الله تعالى برّأ يوسف من تسلّط الشّيطان عليه بقوله للشّيطان ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين﴾ سورة الحجر الآية/ ٤٢. ويوسف (ﷺ) من عباد الله وليس من الغاوين. حيث قال تعالى في حقه: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمُخْلَصين﴾.

الثّالث: قال هذا البعض بأنّ الله تعالى عقب يوسف (ﷺ) على ترك توكلّه هذا وتوسلّه بالسّاقي، فأبقاه في السّجن بضع سنين. وقد أجمع المسلمون على أنّ الإنسان لا يؤاخذ على الأخذ بالأسباب لأنّها من المشروع الأخذ بها كما حقّقناه آنفاً. سيّما وأنّ المعاقبة لا تكون إلّا على المعصية، فهم يثبتون بقولهم هذا المعصية ليوسف (ﷺ) وقد نزّهه الله تعالى عنها بقوله: (لنَصْرِف عَنْهُ السّوءَ وَالْفَحْشاء....إلخ). وإن قالوا: إنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين. **قلنا**: ولكنّ السّيئات لا يعاقب عليها لأنّها صغائر، والصّغائر معفوّة حين الحذر من الكبائر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ سيما وإنّ الله تعالى نزّه يوسف عن الصّغائر والكبائر كلّها بقوله

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السّوءَ وَالْفَحْشاءَ﴾ لأنّ المراد بالسّوء الصّغائر، وبالفحشاء الكبائر كما حقّقنا ذلك في موضعه.

الرّابع: إنّه يأتي بعد هذه الآية عند ذكر رؤيا الملك قوله تعالى: ﴿وَقالَ الّذي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنا أُنَبِّئُكُمْ﴾ فنصّ الله تعالى على أنّ السّاقي نسي قول يوسف (عليه السلام) واذتكره بعد حين، فثبت بشهادة القرآن أنّ النّسيان وقع من السّاقي لا من يوسف، فسقط قول هذا البعض. وغفر الله تعالى لي ولهم ولسائر المسلمين آجمعين آمين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

مجمل المعنى: قد مضى على بقاء يوسف في السّجن على الأصحّ سبع سنوات، فأراد الله تعالى أن ينجّيه، فرأى الملك رؤيا هالته، فجمع العلماء والحكماء وقال لهم: إنّي رأيت في المنام مراراً سبع بقرات سمان أي سمينات، فجاءت سبع بقرات هزيلات فأكلن تلك السّمينات وبلعنها بلعاً، ورأيت أيضاً سبع سنبلاتٍ خضر أشتدّ حبّها يغشاها سبع سنبلاتٍ يابسات لا حبّ فيها، فسترت اليابسات الخضر، يا أيّها الجمع المحشود من العلماء والحكماء أفتوني في رؤياي هذه إن كنتم للرّؤيا تعبرون، أي تعلمون علم التّعبير للرّؤيا، الألف واللام في الملك للعهد الخارجي أي ملك البلدة وهي مصر.

تفصيل المعنى: (وقال الملك) أنّ في التّعبير عن حاكم مصر بالملك معجزة ظاهرة دالّة على نبوّة محمّد (صلى الله عليه وآله) وأنّ القرآن وحي من الله تعالى، وذلك لأنّ القرآن عبّر عن حاكم مصر في قصّة موسى(عليه السلام) بلقب فرعون، وعبّر عنه في قصّة يوسف (عليه السلام) بالملك، وذلك لأنّه ثبت في تأريخ مصر القديم أنّ المصريين كانوا يلقّبون الحاكم إذا كان منهم بفرعون ويلقّبونه بالملك إذا كان من غيرهم، وسيطر عليهم فكان الحاكم في زمان موسى (عليه السلام) منهم ولكن في زمان يوسف (عليه السلام) كان الهكسوس احتلّوا بلادهم وكان حاكمهم من هكسوس لا منهم، فمن أين علم محمّد (صلى الله عليه وآله) وهو أمّي بهذا الفرق الدّقيق، والّذي لم يطّلع عليه المؤرّخون إلّا أخيراً من كتابات الآثار الّتي وجدوها نتيجة الحفريّات والتّنقيب، فظهر أنّ القرآن من الله تعالى.

(إنّي أرى) ذكر القرآن الكريم خمس رؤى:

إحداها: رؤيا سيّدنا إبراهيم(ﷺ) إذ قال: ﴿يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ سورة الصافات الآية/ ١٠٢.

ثانيتها: رؤيا السّاقي إذ قال: ﴿إِنّي أَراني أَعْصِرُ خَمْراً﴾.

ثالثتها: رؤيا الخبّاز إذ قال: ﴿إِنّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْه﴾.

رابعتها: رؤيا الملك هذه إذ قال: ﴿إِنّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ....﴾ الخ.

فذكر هذه الرّؤى الأربع بلفظ المضارع، وذكر **الخامسة** فقط بلفظ الماضي وهي رؤيا سيّدنا يوسف (ﷺ) إذ قال: (ياأَبَتِ إِنّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً...) فما السّر في ذلك؟[١] نقول ثبت في اللّغة العربيّة أنّ الماضي يقال لشّيء وقع مرة ومضى، ولكنّ المضارع إذا أخبر به عن الماضي يفيد أنّه وقع هذا الشيء واستمرّ وقوعه مراراً، وذلك لأنّ المضارع وضع للحال والإستقبال، فإذا نقل إلى الماضي وأخبر به عنه فلا فائدة للإستمرار فيه، فلعلّ أنّ يوسف (ﷺ) رأى ما رأى مرّة واحدة وقصّها على أبيه وإنتهى، ولكنّ الباقين رأوا ما رأوا مراراً وفي ليالي عديدة؛ فلهذا عبّر عن رؤياهم بالمضارع ليفيد أنّه إستمرّ رؤيتهم لرؤياهم في الماضي.

(سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف) العجف جمع عجفاء وهي الهزيلة، ولا يأتي جمع فعلاء على فعال قياساً، ولكن خولف القياس فيه لمجاورته لسمان، ومخالفة القياس للجوار كثير، فقد قرئ: ﴿وَقالت أُخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ بضم التّاء في قالت؛ لمجاورتها لضمّ الرّاء في أخرج. وقرئ (سَلاسِلاً) بالتّنوين وهو غير منصرف لمجاورته أغلالاً في قوله تعالى: ﴿إِنّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسعيراً﴾ سورة الإنسان الآية/ ٤. وسمّى جزاء الكيد كيداً لمجاورته له في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكيدونَ كَيْداً * وَأَكيدُ

(١) هناك رؤيا أخرى ذكرها القرآن الكريم في سورة الإسراء قال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)﴾** لعل الشيخ الوالد رحمه الله تعالى لم يذكرها للإختلاف في كون المقصود بها حقيقة الرؤية لما شاهده حين أسري به إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء فرآى ما رأى من الآيات، أو رؤيا منام رأى فيها النبي (ﷺ) مصارع قريش قبل معركة بدر أو غيرها.

كَيْداً﴾ سورة الطّارق الآيتان/ ١٥، ١٦ ـ لأنّ الكيد لا يجوز إطلاقه على الله تعالى. وسمّي جزاء الاستهزاء استهزاءً في قوله تعالى: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهون﴾ لوقوعه جواباً لقول اليهود في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ سورة البقرة الآيتان/ ١٤، ١٥. وأمثال ذلك كثير.

(وسبع سنبلات خضر) أي اشتدّ حبّها وهي خضرة ناضرة **(وأخر يابسات)** وسبع سنبلاتٍ يابسات ليس فيها حبّ، وهي كالحشيش اليابس **(يا أيّها الملأ أفتوني في رؤياي)** الإفتاء شاع استعماله في بيان الحكم الشّرعي في حادثة وقعت، ويستعمل في معنى حلّ إشكال أو جواب سؤال، وتعبير الرّؤيا حلّ للإشكال الّذي وقع فيه الرّائي **(إن كنتم للرّؤيا تعبرون)** عبّر الرّؤيا أي فسّرها، يتعدّى بنفسه ولكن زيد اللّام على مفعوله هنا لتقوية عمله فيه. حيث ضعّف بتقديمه عليه.

﴿قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

مجمل المعنى: قال الملأ إنّ هذه الرّؤيا مشتملة على أمور مختلفة إختلط بعضها مع بعض، وما نحن بتأويل وتعبير الأحلام المختلطة بعالمين، بل نحن نعلم تعبير الأحلام المتناسقة والمتناسب بعضها مع بعض.

تفصيل المعنى: (قالوا أضغاث أحلام) الأضغاث جمع ضغث وهو حزمة من حطب أو حشيش مختلطة الأجزاء، فالمعنى: أنّ رؤيا الملك أحلام مختلطة الأجزاء وغير متناسبة الأجزاء، فأضغاث أحلام من إضافة الصّفة إلى موصوفها، وهي كثيرة وما نحن بتأويل الأحلام المختلطة الأجزاء وغير المتناسبة الأجزاء بعالمين، إنّما نحن نعلم الأحلام المتناسبة فقط.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

مجمل المعنى: وقال الّذي نجا من السجن من الفتيين وتذكر بعد مدة طويلة وصية يوسف (عليه السلام) له بقوله: أذكرني عند ربك، قال: أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا فأرسلوني إلى يوسف في السجن لأسأله فإنه متبحر في مثل هذه الأمور فآتيكم بجوابه.

تفصيل المعنى: (وقال الّذي نجا منهما وادّكر) بالدّال المشدّدة أصله إذتكر من الذّكر، قلبت الذّال دالاً، وذلك لأنّ الذّال بعيد المخرج عن التّاء، والدّال قريب منه،

والعرب يبدلّون البعيد بالقريب، ثمّ أدغمت التّاء في الدّال بعد قلبها دالاً. وقرىء وأذكر بالذّال المشدّدة، قلبت التّاء ذالاً وأدغمت فيه، والقراءة الأولى أولى، كما روى الإمام الرّازي عن الحسن (ﷺ). ومآل القراءتين واحد وهو أنّ السّاقي تذكر وصيّة يوسف (ﷺ) له بقوله أذكرني عند ربّك فنسي السّاقي الوصيّة وتذكّرها **(بعد أمّة)** أي بعد مدّة طويلة، يقال للقوم أمّة لأنّه يجتمع بعض أفراده مع بعض، وللزّمان أمّة لإجتماع ساعاتها ودقائقها، وللدّين أمّة لأنّه يجتمع بعض الأحكام فيه إلى بعض أو يجتمع النّاس تحت شعاره. وذكر الإمام الرّازي (رحمة الله تعالى عليه) في لفظ **(بعد أمّة)** ثلاث قراءات:

الأولى: (بعد أُمّة) بضمّ الهمزة وفتح الميم المشدّدة، وعقبها التّاء المدوّرة، كما سبق، وهي القراءة المشهورة.

الثّانية: (بعد إمّة) بكسر الهمزة وفتح الميم المشدّدة يعقبها التّاء المدوّرة، وهي بمعنى النّعمة أي وادّكر بعد نعمة النّجاة من السّجن والصّلب.

الثّالثة: (بعد أَمَة) بفتح الهمزة والميم المخفّفة يعقبها الهاء من أمّه يأمّه أمّهاً إذا نسي أي تذكّر بعد نسيان طويل **(أنا أنبّئكم)** الخطاب إمّا للملأ فيكون على أصله أو للملك، فالعدول عن الإفراد إلى الجمع لتعظيم الملك **(بتأويله)** الضّمير للرّؤيا، وذكر باعتبار أنّه يعود إلى ما رأى الملك، أي أنا أنبّئكم بتأويل ما رأى الملك **(فأرسلون)** أي فأرسلوني إلى يوسف في السّجن فأسأله فآتي بجوابه لأنّه متبحّر في مثل هذا العلم وفي الإخبار عن المغيبات وحلّ المشاكل والأمور، فأرسلوه فجاء يوسف (ﷺ) وقال له كما يرويه لنا جلّ وعلا:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

مجمل المعنى: قال السّاقي ليوسف (ﷺ): **(يوسف أيّها الصّديق)** في الأقوال والأعمال والأخبار عن المغيبات وتعبير الأحلام، **(أفتنا)** وأخبرنا عن تأويل ما رأى الملك **(في)** المنام أنّ **(سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلاتٍ خضر وأخر يابسات لعلّي)** لكي **(أرجع إلى النّاس لعلّهم يعلمون)** لكي يعلموا تأويله فإنّهم متحيّرون فيه، أو لكي يعلمون علمك وفضلك.

تفصيل المعنى: **(يوسف أيّها الصّديق)** فيه حذف والتّقدير: فأرسلوني إلى يوسف فجاءه وقال له: يا (يوسف أيّها الصّديق أفتنا..إلخ). **(لعلّي أرجع إلى النّاس)** أي لكي أرجع إلى النّاس بفتواك، فلعلّ بمعنى لكي وليس للتّرجي، وقال بعض المفسّرين: إنّه للتّرجّي، وإنّما ترجّى والتّرجّي يفيد الشّك لأنّه لمّا رأى أنّ العلماء والحكماء كلّهم عجزوا عن تأويل هذه الرّؤيا خاف وشكّ في أن لا يعرف يوسف تأويلها أيضاً، ولكنّ هذا القول يأباه ويرده أنّه قال أولاً: **(أنا أنبّئكم بتأويله)** على الجزم وبدون الشكّ وبعد أن رأى العلماء والحكماء عجزوا عن التّأويل، فهل وقع في الشّك بعد الجزم، هذا بعيد جداً **(لعلّهم يعلمون)** المفعول محذوف تقديره يعلمون تأويله أو يعلمون فضلك، والكلّ محتمل، ويجوز أن يراد الكلّ حيث لا منافاة بينهما.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

مجمل المعنى: ازرعوا سبع سنين دائبين ومستمرّين على الزّرع، فإنّ هذه السّبع سنين سنوات خصب ورفاه، واحصدوا ما زرعتم ولا تدوسوه، بل ذروه واحفظوه في سنبله؛ لأنّ الحبوب لا يفسد ما دام في السّنبلة ويفسد إذا مر عليه وقت، وهو في المخزن إلّا قليلاً ممّا تأكلون، فكلّما احتجتم لأكل بعضه فدوسوه ساعة الحاجة وذروا الباقي محفوظاً في السّنبل، ثمّ يأتي بعد تلك السّبع سبع سنوات شداد، سنوات قحط وجدب تأكلون فيها ما قدّمتم لتلك السّنين في السّبع السّابقة ولا يبقى شيء إلّا قليلاً ممّا تحصنونه وتدّخرونه للبذر والزّرع، فبذلك تخرجون من الضّيق الّذي يحيط بكم في السّبع الأواخر. إن شاء الله تعالى.

تفصيل المعنى: يقف المرء حائراً حينما يرى هذا الموقف العظيم من سيّدنا يوسف (عليه السلام) من عظيم إحسانه وسعة كرمه، حيث إنّه رغم إساءتهم إليه بسجنه هذه المدّة المديدة دون مبرّر وداع إلى سجنه لم يتوقف في استجابة طلبهم ورفع حيرتهم بتعبير رؤياهم، ولذا قال الرّسول (ﷺ): (عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات السّمان والعجاف، ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتّى اشترطت أن يخرجوني)، أو كما قال.

هذا وإنّ يوسف (عليه السلام) لم يعبّر لهم الرّؤيا فقط بل خطّط لهم ما يعالجون به ما يواجههم من الضّيق والقحط في المستقبل حسب مافهم من هذه الرّؤيا، وجعل التّعبير للرّؤيا ضمن هذا التّخطيط فقال: **(تزرعون)** هذا إخبار قصد به الإنشاء أي إزرعوا بدليل قوله بعده: **(فما حصدتم فذروه في سنبله)** وإنّما عدل عن الأمر إلى الإخبار لأنّ الزّرع هو مقتضى طبعهم وعملهم، وما يوافق الطّبع لا يحتاج إلى الأمر به بل يكفي مجرّد توجيه إليه، ولكنّ إبقاء الحبّ في السّنبل وحفظه فيه كان خلاف عملهم، فلذا أمرهم به بقوله فذروه في سنبله **(سبع سنين دأباً)** مصدر دأب يأدب أي إستمرّ وقع حالاً عن ضمير تزرعون، أي إزرعوا سبع سنين دائبين مستمرين على الزّرع. وبهذا أشار إلى تعبير سبع بقرات سمان إذ المعنى إزرعوا في هذه السّبع، فإنّها تنبت وتدرّ بالخير والبركة، فإنّها سنوات خصب وخير كالبقرات السّمان **(فما حصدتم)** في هذه السّبع **(فذروه)** أي إدّخروه **(في سنبله)** ولا تدوسوه فإنّ الحبّ ما دام في السّنبل يبقى سالماً لا يأكله السّوس، وإذا أخرج وادخر في المخزن تعرض للفساد والسّوس **(إلّا قليلاً ممّا تأكلون)** فدوسوه عند الحاجة وبقدرها فقط **(ثمّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد)** في قوّة التّعليل لقوله: فما حصدتم فذروه...إلخ. أي لأنّه يأتي بعد هذه السّبع، سبع سنوات شداد يشتدّ فيها الجوع والجدب، ولا تنبت ولا تدرّ بالنّبات كالبقرات العجاف **(يأكلن)** فيه مجاز لأنّه نسب الفعل وهو الأكل. إلى الزّمان، والمعنى تأكلون فيها **(ما قدّمتم لهنّ)** وهذا مثل نهاره صائم **(ما قدمتم لهنّ)** أي ما ادّخرتم لأنفسكم في هذه السّنوات، ففيه مجاز أيضاً لأنّ الإنسان لا يدّخر للمستقبل بل لنفسه في المستقبل، وعبّر بالماضي لأنّه علم أنّهم يمتثلون أمره، فيقدّمون ويدّخرون لها، فكأنّ الأمر قد وقع **(إلّا قليلاً ممّا تحصنون)** أي تأكلون كلّ ما ادّخرتم إلّا قليلاً ممّا تحفظونه لبقاء البذر ولأجل الزّرع فيما بعد، وهذا في قوّة الأمر أيضاً، أي كلوا في هذه السّنوات كلّ ما ادّخرتم واتركوا منه قليلاً واحفظوه لبقاء البذر فيما بعد. ثمّ بشّرهم بأنّه بعد هذه السّبع الشّداد يأتي زمان الخصب ويعود الرّخاء فقال: **(ثمّ يأتي بعد ذلك عام فيه يغاث النّاس)** أي يأتي بعد هذه الشّداد عام فيه **(يغاث)** أي يمطر النّاس **(وفيه يعصرون)** الزّيت والعنب وكلّ ما يليق بالعصر في ذلك العام، ويرجع الزّمان إلى ما كان عليه من الخصب والرّفاه، وهذه البشارة وقعت كما قال فأصبحت معجزة له، إن بلغ النّبوّة، أو كرامة إن لم يبلغها في ذلك الوقت، لأنّ هذه البشارة ليس في الرّؤيا ما يشير إليها لتكون إجتهاداً عن تعبير الرّؤيا وقدم **(فيه)** في **(فيه يعصرون)** للمحافظة على الفواصل، وقدّم فيه في **(فيه يغاث النّاس)**

بتبعيّته فقط؛ حيث لا مجال للتّخصيص ولا الإهتمام فيها، وحذف مفعول يعصرون ولإفادة التّعميم، أي يعصرون كلّ ما من شأنه أن يعصر ويغاث من الغيث، فيكون بمعنى الإمطار كما قلنا، أو من الغوث بمعنى الفرج والمآل واحد.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا سمع الملك تعبير يوسف لرؤياه وقع ذلك التّعبير في قلبه، وأعجب بيوسف وبعلمه وبفضله، فأحبّ أن يراه ويتكلّم معه ليزيد معرفته به وبفضله، وقال لخدمه: (**ائتوني به**) فأرسلوا إليه رسولاً ليأتي به (**فلمّا جاءه الرّسول**) من طرف الملك وأخبره بأنّ الملك يدعوه ويريد أن يراه امتنع عن أن يخرج من السّجن وهو متّهم بما يعار به، وأراد أن يجري التّحقيق عن قضيّته ليظهر براءته ونزاهته، فيخرج بريء السّاحة عالي الرّأس فـ (**قال**) لرسول الملك (**إرجع إلى ربّك**) سيّدك واطلب منه أن يحقّق ويعلم ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ، وما سبب هذا القطع، فإنّه كان وراء ذلك كيداً في حقّي، وإنّ ربّي بكيدهنّ عليم، فليعلم الملك ذلك ليتحقّق براءتي ممّا نسب إليّ وإنّي نزيه.

تفصيل المعنى: (**وقال الملك ائتوني به**) قاعدة: إذا ذكر شيء أوّلاً ثمّ أعيد ذكره ثانياً معرّفاً فالمراد بالثّاني عين الأوّل، سواءٌ كان ذكر الأوّل معرفاً كالعسر في قوله تعالى ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ سورة الشرح الآيتان/ ٤،٥. فالمراد بالعسر الثّاني عين العسر الأوّل. أو ذكر الأوّل منكّراً كالرّسول في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ سورة المزمل الآيتان/ ١٥،١٦. فالمراد بالرّسول الّذي عصاه فرعون عين الرّسول الّذي أرسله الله تعالى إليه وهو سيّدنا موسى (عليه السلام). وإذا ذكر شيء ثمّ أعيد منكّراً، فالمراد بالثّاني مثلاً غير الأوّل سواءً كان ذكر الأوّل منكّراً أيضاً كاليسر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ سورة الشرح الآيتان/ ٤،٥. فالمراد باليسر الثّاني غير الأوّل فيلزم أن يكون مع عسر واحد يسران ولذا قال الشّاعر:

إذا ضاقت بك الدّنيا ففكّر في ألم نشرح فعسر بين يسرين إذا أبصرته فافرح

أو إذا ذكر الأوّل معرّفاً كما تقول: بعت الدّار واستأجرت داراً، فهنا ذكر الملك

قبل معرّفاً وأعيد معرّفاً مرّتين. فالمراد به في هذه الآية والّتي ستأتي بعدها هو عين الملك المذكور في الآية السّابقة، وهو ملك البلدة وهي مصر. **(فلمّا جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربّك)** فيه دلالة على عظمة صبر يوسف، حيث بقي في السّجن ما بقي ثمّ دعي ليخرج فلم يخرج حتّى ثبتت نزاهته، وقال الرّسول (ﷺ) عجبت من يوسف ولو لبثت ما لبث يوسف في السّجن لأجبت الدّاعي أي داعي الخروج من السّجن(١). ويفهم منه أيضاً أنّ إطلاق كلمة ربّ بدون الألف واللّام على غير الله تعالى جائز وهو حينئذٍ يكون بمعنى السّيد كما هنا أو المربّي كقول الرّسول (ﷺ): (أن تلد الأمّة ربّتها)(٢) أو المالك كقول عبدالمطلب: إنّما أنا ربّ الإبل وإنّ للبيت ربّاً يحميه. أي قل له: ما بال النّسوة اللّاتي... إلخ. ومثل هذا الإستفهام يراد منه طلب التّحقيق، وقطعن هنا وفيما سبق بالتّشديد في الطّاء للدّلالة على أنّ القطع كان كثيراً ولم يكن جرحاً خفيفاً، وجمع الأيدي بإعتبار المضاف إليه وإلّا فكلّ واحدة قطعت يداً واحدة لها فقط، وهذا مثل ركب النّاس دوابّهم **(إنّ ربّي بكيدهنّ عليم)** أي إنّ هذا القطع كان نتيجة كيد أريد بي، وإنّ ربّي وهو الله بكيدهنّ عليم، فليعلم الملك ذلك ليظهر نزاهتي.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾

مجمل المعنى: فيه حذف إيجاز تقديره: رجع الرّسول إلى الملك وعرض عليه طلب يوسف، فاستجاب له وأحضر النّسوة مع إمرأة العزيز، وقال لهنّ: ما نتيجة خطبكنّ أي أمركنّ الخطر وقت ما راودتنّ يوسف عن نفسه ودعوتنّه إلى أنفسكنّ أو إلى سيّدته، هل كان منه استجابة لذلك قلن **(حاش لله)** تنزّه الله تعالى عن أن يعجز من خلق مثل يوسف في العفّة ما إطّلعنا عليه من أيّ سوء لا صغير ولا كبير. **(قالت إمرأة العزيز الآن حصحص)** ظهر **(الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصّادقين)** في قوله: هي راودتني عن نفسي.

---

(١) تخريج الأحاديث والآثار ٢/١٦٧ الحديث رقم ٦٣٣. بمعناه.

(٢) صحيح مسلم ١/٣٧ الحديث رقم ٨ ضمن حديث طويل عن عمر (رضي الله عنه) حين سأل جبريل (عليه السلام) النبي (ﷺ) في بيان أركان الإيمان والإسلام ومتى الساعة.

تفصيل المعنى: **(قال ما خطبكنّ)** الخطب بمعنى الأمر ويستعمل في الأمر الخطير وهنا حذف مضاف تقديره ما نتيجة خطبكنّ وأمركنّ الخطير **(إذ راودتنّ يوسف عن نفسه)** كان الظّاهر أن يقول الملك لهنّ: هل كانت المراودة منكنّ أو من يوسف؟ لأنّ المقام للتّحقيق عن المراودة من أي جانب كانت لا عن نتيجة المراودة، إلّا أنّه غيّر الأسلوب إيهاماً للنّسوة بأنّه علم بحقيقة الحال حتّى لا يبقى لإنكارهنّ مجال وبأنّ المراودة كانت منهنّ وإنّما السّؤال عن أنّه: هل استجاب يوسف أم لا؟ فَدَهَشُهُنَّ هذا السّؤال بطرازه وعلمن أنّ الملك قد اطّلع على الواقع ولا مجال للإنكار، فاعترفنّ بأنّهنّ طلبن من يوسف أن يلبّي رغبة سيّدتها. كما وطلبن منه من طرف خفي أن يميل إليهن، ولكنّ يوسف أبى عن كلّ ذلك **(وقلن حاش لله)** كلمة تقال حين التّعجب من نزاهة شخص، أي تنزّه الله تعالى عن أن يعجز من خلق مثل يوسف المعجب في العفّة والإباء **(ما علمنا عليه)** تعدّى علم بعلى لأنّه هنا بمعنى إطّلع أي ما إطلعنا عليه **(من سوء)** أكّد النّفي بمن وجيئ بسوء نكرة في سياق النّفي ليدلّ على العموم، فمعناه ما رأينا منه سوءاً لا صغيراً ولا كبيراً وتنزّه عن كلّ سوء تجاهنا وتجاه سيّدته **(قالت إمرأة العزيز)** لمّا رأت امرأة العزيز هذا المشهد وإن صديقاتها شهدن بنزاهة يوسف وعفته لم تر بداً من الإعتراف بالحقّ وعلمت أنّ الإعتراف خير لها فإنّ الإعتراف بالذّنب كمن لا ذنب له، فإن فاتها فضيلة الإعتصام بالنّفس وضبطها أولاً فلا تعمل شيئاً يفوت عليها فرصة النّيل بفضيلة الإعتراف بالحقّ أخيراً. فاعترفت وقالت: **(الآن حصحص الحقّ)** أي الآن جاء وقت إظهار الحقّ لأنّ هذه محكمة فلا يجوز كتم الحقّ فيها لأي مسلم لأنّ الموقف موقف العدالة والإنصاف **(أنا راودته عن نفسه)** لما إستولى عليّ من حبّه المفرط وجماله المعجز الجذّاب، وتقديم أنا لإفادة الحصر وهو حصر القلب، لأنّ الأمر كان دائراً بين مراودتها له ومراودته لها، أي أنا راودته عن نفسه ولم يراودني هو عن نفسي **(وإنّه لمن الصّادقين)** في قوله أوّل الأمر هي راودتني عن نفسي.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾

مجمل المعنى: قالت إمرأة العزيز ذلك الإعتراف صدر منّي ليعلم يوسف أنّي لم أخنه بنسبة السّوء إليه في المحكمة خاصّة وهو غائب عنها وعنّا، لأنّ ذلك خيانة وإنّ الله لا يتوّج كيد الخائنين بالنّجاح.

تفصيل المعنى: **(ذلك ليعلم)** اللّام في ليعلم متعلق بمحذوف يفهم من ذلك وهو

صدر، أي صدر ذلك الإعتراف منّي ليعلم يوسف **(أنّي لم أخنه)** هذه الصّيغة تدلّ على النّفي في عموم الأزمان الماضية، وأنّها لم تنسب إليها السّوء في غيبته قط، وقد صدقت لأنّها لم تسند إليها التّهمة إلّا عندما ألفيا سيّدها لدى الباب، ولم يكن ذلك في غيابه بل كان حاضراً. ألا يرى أنّها شهدت على نفسها عند النّسوة بقولها: **(فذلكنّ الّذي لمتنّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)**، **(بالغيب)** اللّام في الغيب عوض عن المضاف إليه، تقديره في غيبه عنّي أو في غيبي عنه، والباء إمّا بمعنى في، أي لم أخنه في غيبه عنّي أو في غيبي عنه. أو للإلتباس؛ فيكون حالاً إمّا عن فاعل لم أخنه أي لم أخنه ملتبسة بغيبه عنّي أو غيبي عنه. أو عن إلهاء في لم أخنه، أي لم أخنه ملتبساً بغيبه عني أو غيبي عنه... إلخ، فعلّلت السّيدة إعترافها بأمر آخر فقالت: لا أكتم الحقّ لأبرّئ نفسي عن السّوء، حيث وما أبرّىء **(وانّ الله لايهدي كيد الخائنين)** الواو للعطف، فالجملة معطوفة على يعلم، والتّقدير: ولأنّ الله تعالى لا يهدي... الخ. علّلت الإعتراف بأمور:

الأوّل: ليعلم يوسف أنّها لم تخنه بالغيب.

الثّاني: لأنّ كتم الحقّ خيانة، وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين.

الثّالث: قولها وما أبرّئ، فقالت كما يرويه لنا جلّ وعلا:

﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾

مجمل المعنى: عطف على الياء في أنّي لم أخنه، فيكون المعنى صدر منّي الإعتراف ليعلم أنّي ما أبرّئ نفسي، لأنّ النّفس من طبيعتها أنّها تأمر بالسّوء دائماً، **(إلّا ما رحم ربّي)**، أي في حال يرحمها ربّي فيحفظها، أو إلّا نفساً رحمها ربّها فعصمها، إنّ ربّي غفور يغفر **ما** بليتُ به أمر النّفس، لأنّه رحيم، وأنّ الرّحم من صفاته الثّابتة القائمة بذاته تعالى، فرحمه يدعوه إلى المغفرة لمن يشاء.

تفصيل المعنى: **(وما أبرّئ نفسي)** قيل: إنّها من قول يوسف، وكذا قوله ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب، والضّمير في لم أخنه للعزيز، وهذا القول باطل لأنّه **أوّلا**: لا ينسجم مع نظم القرآن لأنّ يوسف ألقى كلمته وانتهت، والمقام مقام كلمة إمرأة العزيز، ثانياً: إنّ

العزيز برّأ ساحة يوسف أوّل الأمر بقوله لإمرأته ﴿إنّه من كيدكّن إنّ كيدكنّ عظيم﴾ وبقوله لها أيضاً: ﴿واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين﴾ فلم يبق حاجة ليوسف إلى أن يبرأ ساحته أو أن لا يزكّي نفسه، فالأصحّ أنّ القولين من امرأة العزيز علّلت بهما إعترافها. وثالثاً: إنّ العزيز كان متوفّى في ذلك الوقت، ونصب الملك يوسف مكانه؛ فلا حاجة لأن يقول يوسف هذا القول، وفي رواية تزوّج بامرأته وقال لها حينما دخل عليها: ألم يكن هكذا خيراً ممّا كنت تطلبين **(وما أبرّئ نفسي)** عن السّوء حيث **(إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء)** الألف واللّام في النّفس إمّا للعهد وهو نفسها، فيكون المعنى: إنّ نفسي لأمّارة بالسّوء دائماً، إلّا في حال يرحمها ربّي فيحفظها فيكون **(ما)** في إلّا ما رحم ربّي بمعنى الوقت والحال. أو للإستغراق أي وما أبرّئ نفسي فإنّ كلّ نفس لأمّارة بالسّوء ولا نفسي فقط، فيكون (ما) في إلّا ما رحم ربّي بمعنى النّفس، أي إلّا نفساً رحمها ربّها فعصمها ولا يمكن (ما) في هذا التّقدير بمعنى الحال، إذ يكون المعنى أنّ كلّ نفس لأمّارة بالسّوء دائماً، إلّا في حال يرحمها ربّي فيحفظها، لأنّ بعض النّفوس لا تأمر بالسّوء أبداً، وهي نفوس الأنبياء المعصومة دائماً ويؤيّد الوجه الأوّل قولها: إنّ ربّي غفور رحيم، لأنّها خصّت هناك فتدلّ على التّخصيص هنا، ويؤيّد الثّاني أنّ النّفس مطلقاً من ضعفها للسّوء إلّا نفوس الأنبياء (على نبيّنا وعليهم الصّلاة والسّلام). ثمّ بعد هذا الإعتراف بالذّنب ترجت مغفرة الله تعالى، وطمعت في رحمته فقالت: إنّ ربّي غفور أرجو أن يغفر لي ما رتكبته، رحيم يدعوه الرّحم إلى المغفرة إن شاء الله، فجمعت السّيدة بين فضيلتين فضيلة الإعتراف بالذّنب، وفضيلة التّوبة والاستغفار من الله تعالى لذنبها؛ فغفر الله لها ولنا ولسائر المسلمين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا تبيّن للملك مدى نزاهة يوسف (عليه السلام) وأمانته حيث لا يمتنع من السّوء من دعته سيّدته إلى نفسها، وهي في القمّة من الجاه والجمال إلّا من بلغ من مراتب النّزاهة أعلاها ومن درجات الأمانة أقصاها، أمر خدمه أن يأتوا به إليه، وقال إئتوني به أجعله خالصاً لنفسي وأسلّمه مهامّ أموري، فذهبوا إليه وأتوا به إليه، فلمّا كلّمه علم من مكالمته فوق الأمانة سعة في عقله وفهمه وذكائه، فقال: إنّك اليوم لدينا ذو مكانة عظيمة ومؤتمن على أمور الدّولة. **(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي)** فيه

إيجاز تقديره كما قدرنا، فذهبوا إليه فأتوا به إليه **(فلمّا كلّمه)** علم سعة فهمه وعلمه وذكائه وعقله **(فقال)** له **(إنّك اليوم لدينا مكين أمين)** أي ذو مكانة عالية، ومؤتمن على أمور الدّولة، وبهذه العبارة أصدر الملك إرادته الملكيّة بتعيينه بوظيفة عالية وجعله أميناً على أمور دولته. وبهذا يجاب عمّا يقال كيف طلب يوسف (ﷺ) من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فإنّ طلب الوظائف غير مستحسن، وقال الرّسول (ﷺ): (لا نولي هذا الأمر من طلبه، أو كما قال)[1] حيث يقال: إنّ الملك قد عيّنه بقوله: **(إنّك لدينا اليوم مكين أمين)** في وظيفة من وظائف الدّولة وجعله أميناً من الأمناء على أمور الدّولة؛ فلم يبق ليوسف إلّا اختيار نوعيّة وظيفته، فاختار أن يكون أمينا عامّاً على خزائن الدّولة في أرض مصر. لما رأى في ذلك من المصلحة وأراد أن يقوم بخدمة النّاس وأن ينفعهم بحسن تدبيره في الأزمة الّتي تستقبلهم من القحط سبع سنوات كما عبّر به الرّؤيا فقال: إجعلني على خزائن الأرض... إلخ. فهذا اختيار لنوعيّة الوظيفة بعد التّعيين لا طلباً للتوظيف. وقيل أيضاً: كيف قبل يوسف الوظيفة من كافر؟ وكيف عمل تحت يد الكافر؟ فإنّ الملك كان كافراً، وأجابوا عن ذلك بأنّه يجوز للمسلم أن يعمل في حكومة فاجر ليصلح بعض الأمور مستدلّاً بعمل يوسف، هذا ولكنّه يردّ هذا الجواب قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا لا تَتَوَلَّوا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ فلا يجوز تولية الكافر أبداً. والتّوظيف والعمل تحت يده تولية له ولا يجوز للمسلم ذلك إلّا إضطراراً، ولم يكن جبر على يوسف في ذلك، فالأصحّ أنّ الملك كان مسلماً أي متديّناً بدين السّماء إلّا أنّ دينه غير دين يوسف، يدلّ على ذلك قوله تعالى: **(وما كان ليأخذ أخاه في دين الملك)** والدّين إسم لنظام جاء من الله تعالى ولم يكن منع من وجود شريعتين يعمل بكلّ واحد منها كلّ في بلد؛ فإنّ توحيد الشّرائع كان بختم النّبوة والرّسالة والإسلام لا قبل ذلك، ألا يرى أنّ شريعة موسى (ﷺ) كانت غير شريعة الرّجل الصّالح، وكانا في زمان واحد، وأنّ ذا القرنين كان على شريعة، واليهود على شريعة أخرى، ولمّا جاء وفتح بابل أطلق سراح أنبيائهم وأعادهم إلى فلسطين، وعمّر لهم المسجد الأقصى ولم يكلّفهم باتّباع شريعته، قال الأستاذ أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر في كتابه أصول الدّين:

---

(١) نص الحديث هو: ماورد عن أبي موسى الأشعري (ﷺ) قال: دخلت على النبي (ﷺ) أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: أمرنا يا رسول الله!وقال الآخر مثل قوله، فقال: إنا لا نولي هذا الأمر من سأله ولا من حرص عليه./ صحيح البخاري ٦/ ٢٦١ الحديث رقم٦٧٣٠.

يجوز عندنا أن يرسل الله تعالى إلى قوم دون قوم، ويجوز أن يرسل الله تعالى إلى قوم دون قوم، ويجوز أن يرسل رسولين إلى أمّة واحدة، ويجوز أن يرسل أحدهما إلى قوم والآخر إلى قوم آخرين، ويجوز إرسال واحد إلى الكافّة، وإذا أرسل رسولين إلى أمّة واحدة وجب اتّفاق الرّسولين فى أحكام الشّريعة. وإنّ أرسلهما إلى أمّتين جاز أن يكون شرع أحدهما غير شرع الآخر في الأحكام والفروع وفى الحلال والحرام، ولا يجوز اختلافهما فى موجبات العقول ودلائلها. إنتهى هذا. إلّا أنّ الإسلام حيث هو دين كامل وصالح لكلّ قوم وزمان ومكان، وأرسل لكافّة النّاس، وختم به سائر الأديان، فلا يجوز جمع دين معه ولا العمل بغيره. وقال في المنار: إنّ أهل مصر في زمان يوسف كانوا مسلمين يعملون بشريعة الله إلا أنّه دخل في عقيدتهم الوثنيّة والشّرك بدليل أنّ يوسف (عليه السلام) كان يعظ صاحبيه في السّجن من جانب العقيدة وينبّههم على الخطأ بأنّه ما أنزل الله بهذه العقيدة من دليل ولا برهان، فكأنّه قال لهم: إنظروا إلى دينكم وشرعكم هل فيه دليل على حقيّة عبدة ما تعبدون من دون الله تعالى، وهذا مثل ما نقول لبعض مسلمي زماننا، هل يوجد في الكتاب أو السّنة دليل على صحّة ما تقولون به من بعض الخرافات أو ما تعتقدونه من أمور، هي أقرب إلى الوثنيّة من التّوحيد كلّا بل فيه ما ينكر ذلك.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا أصدر الملك إرادته بتعيين يوسف (عليه السلام) موظفاً وأميناً في الدّولة وفوّض إليه اختيار نوعيّة وظيفته، إختار أن يكون أميناً عامّاً على الأموال، وقال إجعلني أميناً على خزائن أرض مصر إنّي حفيظ أستطيع حفظ الأموال، عليم أعلم كيفيّة حفظها، فوافق الملك على ذلك.

تفصيل المعنى: **(إجعلني على خزائن الأرض)** كلمة **(على)** متعلّق بمحذوف تقديره وكيلاً أو أميناً، وكلاهما بمعنى واحد، فيدلّ على أنّه قال هذا اختياراً لكونه أميناً على خزائن الأرض لا أميناً، فإنّ تعيينه أميناً قد سبق بقول الملك **(إنّك لدينا اليوم مكين أمين)** فطلب نوعيّة الأمانة بعد تعيينه أميناً **(إنّي حفيظ عليم)** قيل: كيف يمدح يوسف نفسه؟ وإنّ المادح نفسه مذموم، **قلنا:** المدح عند الحاجة والمصلحة ممدوح، ثمّ إنّه لم يقل ذلك مدحاً، بل قال لدفع التّهمة فإنّه حينما طلب أمانة الأموال كان محلّ توهّم بأنّه يحبّ المال وجمعه، وله طمع من وراء هذه الوظيفة، وإلّا لماذا لا يختار وظيفة أخرى؟

فقال(إنّي حفيظ عليم) أقدر حفظ الأموال وأعلم كيفيّة حفظها، فطلبي لهذه الأمانة لمصلحة الدّولة وأموالها لا لمصلحتي، وأيضاً إنّ هذا بيان للإختصاص، كما يصدر اليوم قوائم بتعيين الموظفين كلّ حسب إختصاصهم، ثمّ يقدم كلّ واحد منهم شهادة إختصاصه، لينسّب حسب إختصاصه فوافق الملك، وبذلك مكّن الله تعالى ليوسف في الأرض.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

مجمل المعنى: مثل التّمكين الّذي رأيته مكنّا ليوسف في أرض مصر يتجوّل ويتصرّف فيها حيث يشاء، نهب نعمتنا الدّنيوية من دون الفرق بين المؤمن والكافر والصّالح والفاجر، ولكن حسب المشيئة، ولا نضيع أجر المحسنين من نعم الدّنيا فنهبها لهم حتماً وعموماً.

تفصيل المعنى: (وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض) هذا التّمكين غير التمكين الّذي كان حينما دخل بيت العزيز، فإنّه كان تمكين عبوديّة وأسر، وتمكيناً غير دائم وغير مستقر، تمكين إختبار وبلاء، ولكنّ هذا التّمكين تمكين سيادة وسلطان وحريّة وإنطلاق، تمكين دائم ومستقرّ، تمكين نتيجة النّجاح من الإختبار والإبتلاء، ولذلك لم يقيّده هناك بما قيّده به هنا من قوله: **(يتبوّأ منها حيث يشاء)** قيل معناه: يسكن فيها أين يشاء، وقيل: يتصرف فيها حيث يشاء، والحقّ أن معناه: يتجوّل ويتصرّف منها حيث **يشاء** وكيف يشاء **(نصيب برحمتنا)** أصاب متعدّ إلى مفعول واحد، وإذا أريد تعدّيه إلى ثان توسّل بحرف الجر كما هنا، والمراد بالرّحمة هنا نعمة الدّنيا بقرينة قوله: **(ولأجر الآخرة خير)** أي نهب نعمتنا في الدّنيا **(من نشاء)** لا كلّ أحد، بل لمن نشاء من المؤمن والكافر والصّالح والفاسق، والمراد هنا النّعمة العالية وإلّا فمطلق النّعمة عامّة لكلّ إنسان دون التّقييد بالمشيئة **(ولا نضيع أجر المحسنين)** المراد بالأجر نعمة الدّنيا أيضاً ولنفس القرينة السّابقة، أي ولا نضيع أجر المحسنين من نعم الدّنيا فنهبها لهم كافّة دون التّقيّد بالمشيئة، والمراد بالأجر أجر خاص ونعمة خاصّة لأنّ مطلق النّعمة عامّ للكلّ دون المحسنين فقط. والمراد بهذا يوسف عليه السلام والمعنى: ولا نضيع أجر يوسف، ذكر بلفظ العموم للدّلالة على أنّ يوسف عليه السلام لم ينل هذه النّعمة إلّا بسبب كونه محسناً، وليكون حثّاً للنّاس على الإحسان، فمن أراد النّعم في الدّنيا فليكن محسناً.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

مجمل المعنى: (و) قسماً بعزّتي (**لأجر الآخرة**) ونعمتها (**خير**) من نعم الدّنيا أعدّ (**للّذين آمنوا**) في الدّنيا (**وكانوا يتّقون**) فيها خاصّة.

تفصيل المعنى: اللّام جواب لقسم محذوف تقديره وبعزّتي (**لأجر الآخرة**) أي نعمتها (**خير**) من نعم الدّنيا (**للّذين آمنوا**) أي أنّ نعم الآخرة مختصّة للّذين آمنوا (**وكانوا يتّقون**) مفعول يتّقون محذوف تقديره: إمّا يتّقون الكفر لأنّ مجرد الإيمان موجب للأجر في الآخرة. أو يتّقون المعاصي فضلاً عن الكفر، فيكون المراد نوعاً خاصاً من الأجر حسب مقامات التّقوى، والكلّ خير من نعم الدّنيا لأنّها زائلة وغير دائمة، بخلاف نعم الآخرة فإنّها باقية دون زوال، والمراد بهذا أيضاً يوسف (عليه السلام) والمعنى: ليس أجر يوسف مقصوراً على الدّنيا بل أجره في الآخرة خير ممّا أنعمنا به عليه في الدّنيا ولكن ذكر بهذا الأسلوب أيضاً ليدلّ على أنّ يوسف (عليه السلام) إنّما يستحقّ هذا الأجر بإيمانه وتقواه، فيكون حثّ للنّاس على الإيمان والتّقوى وليفيد العموم. فمن أراد التّنعم في الآخرة فليكن من الّذين آمنوا وكانوا يتّقون، فحسب التّقوى ينال النّعم فيها.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

مجمل المعنى: وجاء مصر إخوة يوسف لشراء الطّعام فدخلوا على يوسف فعرفهم يوسف وهم له منكرون لا يعرفونه.

تفصيل المعنى: إستلم يوسف (عليه السلام) الأمانة العامّة لأموال الدّولة، وأصبح بيده خزائن أرض مصر كلّها، فأمر بالزّرع وادّخر سبع سنوات الخصب ما شاء الله تعالى أن يدّخر، ثمّ جاءت سنوات الجدب والقحط والجفاف وأصاب النّاس المجاعة، واشتهر في البلاد أنّ الطّعام في مصر كثير، وأنّه يباع من قبل الدّولة وبسعر معقول، فتوجّه النّاس إلى مصر، وأصاب آل يعقوب (عليه السلام) ما أصاب النّاس، فتوجّه أبناؤه إلى مصر لشراء الطّعام (**وجاء إخوة يوسف**) مفعول جاء محذوف أي وجاء مصر إخوة يوسف ففتّشوا عمّن بيده الطّعام، فدلّوهم على العزيز وهو يوسف (**فدخلوا عليه فعرفهم**) أوّل ما دخلوا عليه لأنّ صورهم لم تتغيّر كثيراً، وكانوا في مثل الّذي تركهم فيه يوسف (**وهم**) الإخوة (**له**) ليوسف (**منكرون**) لا يعرفونه لأنّه كان في زيّ غير الّذي تركوه فيه، وقد تغيّر صورته فأصبح كهلاً بعد ما كان في أوّل الشّباب، ولم يسمّ لهم باسمه بل سمّوه باسم

العزيز، فلم يعرفوا أنّ هذا العزيز أخوهم ولا أنّه يوسف، وكيف يخطر ببالهم أنّ يوسف الّذي تركوه ليكون عبداً يصبح عزيزاً، وأنّهم يصبحون عبيداً له. وجملة **(وهم له منكرون)** حال عن هم في فعرفهم أي عرفهم، والحال وهم له منكرون وقدّم **(له)** على **(منكرون)** للإهتمام ولرعاية الفاصلة حيث لا مجال للقول بالتّخصيص هنا كما لا يخفى.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾

مجمل المعنى: **(ولمّا جهّزهم بجهازهم)** باعهم ما أرادوا من الطّعام **(قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنّي أوفي الكيل)** أكيل الطّعام وافياً دون بخس **(وأنا خير المنزلين)** المضيّفين والمكرّمين لكم.

تفصيل المعنى: لمّا عرفهم يوسف أنزلهم ضيوفاً عنده وأكرمهم إكراماً كثيراً، وسألهم عن حالهم فذكروا أباهم وأنّ لهم أخاً آخر من أبيهم لم يسمح له أبوهم أن يأتي معهم لفرط حبّه له، فلا يتحمّل مفارقته لأنّ أخاه فقد في الصّحراء فيتسلّى به. وكان يوسف يبيع الطّعام بعدد النّفوس فلم يعطهم حصّته لعدم وجوده **(ولمّا جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم)** ليظهر صدقكم ولأعطي حصّته للمرّتين وحثّهم علي الإتيان به فقال: **(ألا ترون أنّي أوفي الكيل)** أكيل الطّعام وافياً دون بخس، وأنا خير المضيّفين لكم، هذا والظّاهر أن يقول ائتوني بالأخ من أبيكم لأنّ الأخ أصبح معهوداً بينهم ولكنّه حكى قولهم لأنّهم حينما جهّزهم بجهازهم ولم يعط حصّة الأخ قالوا: أعطونا حصّة أخ لنا من أبينا، فقال: ائتوني بأخ لكم من أبيكم لكي نعطي حصّته فأنّا لا أعطي إلّا الحاضر.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

مجمل المعنى: بعدما رغّبهم في الإتيان بالأخ بأنّه يوفي الكيل وهو خير المنزلين، هدّدهم على عدم الإتيان به فقال: فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون.

تفصيل المعنى: **(فلا كيل لكم)** اللّام في **(لكم)** متعلّق بمحذوف تقديره: فلا كيل يكال لكم **(عندي)** كناية عن عدم بيعه الطّعام منهم، لأنّهم بهذا يظهر كذبهم في قولهم: إنّ لهم أخاً من أب، والمعنى: إئتوني به إن كنتم صادقين في وجوده وإلّا فلا كيل لكم

عندي (**ولا تقربون**) أصله ولا تقربونني، حذفت نون الجمع بالجزم بلا، وحذفت الياء للتّخفيف والفاصلة، فبقي تقربون مكسورة النّون، أي ولا تقربوني لأنّكم كاذبون حينئذٍ.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

مجمل المعنى: قالوا سنحاول أشدّ المحاولة لأن نأخذه من أبينا، فنأتي به وإنّا لفاعلون ذلك.

تفصيل المعنى: (وإنّا لفاعلون) مفعول فاعلون محذوف، فتقديره إنّا لفاعلون هذه المحاولة، فإن نجحن فذاك وإلّا فلا عتاب علينا. وعلى هذا لم يثقوا بأنفسهم أن أباهم يلبي طلبهم، أو التقدير: وإنا لفاعلون الإتيان به على تقدير ثقتهم بأنّ أباهم يسلّمهم هذا الأخ كما سلّمهم يوسف من قبل.

﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

مجمل المعنى: وقال سيّدنا يوسف (عليه السلام) لفتيانه اجعَلوا في رحالهم الثّمن الّذي أخذنا منهم بدل البضاعة (**لعلّهم يعرفونها**) إذا رجعوا إلى أهلهم لعلّهم يرجعون إلينا مرّة اخرى.

تفصيل المعنى: (**وقال لفتيانه**) أي عبيده أو خدمه كلّ محتمل (**إجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها**) كلمة لعلّ يحتمل التّعليل، أي لكي يعرفوها، ويحتمل التّرجي أيضاً، أي التّرجي أن يعرفوها لأنّه لم يتأكّد أنّهم يعرفونها، فرّبما يتوهّمون أمراً آخر غير ردّهم لها (**إذا انقلبوا إلى أهلهم**) قيّده بهذا لأنّه عرف أنّهم لا يفتحون رحالهم إلّا عند الوصول للبيت (**ولعلّهم يرجعون**) يحتمل لعلّ أيضاً التّعليل أي لكي يرجعوا إلينا، والتّرجي هنا أيضاً لأنّه لم يتيقّن الرّجوع بعد ذلك إلّا أنّ التّعليل فيهما أصحّ، قيل: ردّ إليهم بضاعتهم ليشجّعهم على الرّجوع بهذا التّكريم وطمعاً في تكريم آخر، وقيل: لأنّه خاف أن لا يكون عندهم ثمن ليرجعوا به مرّةً أخرى، وقيل: لأنّه رأى من المذمّة **أن** يأخذ الثّمن من إخوته وأبيه. فإن قيل: كيف جاز ليوسف (عليه السلام) أن يردّ إليهم ثمنهم وقد أصبح ملكا للدّولة؟ ألا يعتبر هذا خيانة؟

الجواب: لا؛ لأنّه لعلّ يوسف عوّض عنه للخزينة من ماله الخاصّ، أو لأنّ أموال

الدّولة للمستحقّين والمحتاجين، فردّ إليهم حسب حاجتهم واستحقاقهم، ولا يقال أنّهم لم يكونوا من رعايا هذه الدّولة لأنّ الاسلام عامّ لا يعتبر بالحدود المصطنعة ولا بالاختلاف في العائديّة، بل المسلمون كلّهم متكافلون فيما بينهم أينما كانوا وكيف ما كانوا، ويجب عليهم هذا التّكافل وهذا التّضامن قال (ﷺ): (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً)[١] وهذا خبر قصد به الأمر والإنشاء ولا الإخبار بذلك لأنّه لا يصدّق هذا الخبر دائماً فيحمل على الإنشاء حتماً.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾

مجمل المعنى: حينما رجع الإخوة إلى أبيهم قالوا: يا أبانا منع منّا الكيل فلا يبيعوننا الطّعام في المرّة الآتية إلّا أن نأخذ معنا أخانا، فأرسل معنا أخانا، فإن ترسله معنا نكتل ونأخذ الطعام، ولا تخف عليه من مهالك الطّريق ومصائب السّفر، فإنّا معه وإنّا له لحافظون ونراعيه أكمل الرّعاية.

تفصيل المعنى: **(وقالوا يا أبانا منع منّا الكيل)** الألف واللّام في الكيل عوض عن المضاف إليه تقديره: منع منّا كيل الطّعام، وهو كناية عن بيعه، أي منع منّا بيع الطّعام فلا يبيعوننا إلّا أن نأخذ أخانا معنا **(فأرسل معنا أخانا)** الأمر للإلتماس هنا، حيث لم يكن لهم سلطة عليه **(نكتل)** مجزوم بتقدير الشّرط أي إن ترسله معنا نكتل **(وإنّا له لحافظون)** قدّم له لرعاية الفاصلة وللإهتمام، والمراد بالحفظ تسبّبه لا تحصيله؛ لأنّه بيد الله تعالى فقط، ولو قالوا: إن شاء الله لحصل ولم يبتلوا بأخذه منهم جزاءً للسّرقة والله أعلم.

تنبيه: قال بعض المفسّرين في قوله تعالى: **(منع منّا الكيل)** أي منع منّا كيل أخينا، لأنّه لم يكن معهم وهم لا يبيعون إلّا للحاضر، ولكنّ هذا التّفسير خطأ يأباه قوله **(فلا كيل لكم عندي)** فإنّه نفي لكيل الجميع بدلالة وقوع النّكرة في سياق النّفي فإنّه يفيد العموم، وبدليل قوله: **(لكم)** وهو خطاب للجميع. وكذلك يأباه قوله: **(ولا تقربون)** فإنّه نهي عن قرب الجميع منه، وإذا منع القرب منع الكيل بالأولى، هذا ويؤيّدون تفسيرهم

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٨٢ الحديث رقم ٤٦٧.

هذا بقراءة (يكتل) ولا دلالة فيها على مرادهم، فإنّه لا يصرف المنع عن العموم كما لا يخفى، فإنّ معناه: يكتل هو معنا أيضاً، وهذا مثل قولهم: (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب) فإنّ معناه: يرتع معنا ويلعب.

* * *

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

مجمل المعنى: قال سيّدنا يعقوب (عليه السلام) لبنيه هل أثق بكم وأجعلكم أمناء على أخيكم إلّا كما وثقت بكم: فجعلتكم أمناء على أخيه يوسف من قبل، فانتهى الأمر إلى ما ترون، فلا أثق بكم إن سلّمته اليكم، بل أثق بالله تعالى وأجعله وكيلاً عليه، فإنّ الله خير من كلّ أحد حفظاً وهو أرحم الرّاحمين، فبرحمه هذا يحفظه إن شاء.

تفصيل المعنى: (**هل آمنكم عليه**) هل للإستفهام ولكن حيث أريد به الإنكار تضمّن معنى النّفي أي لا آمنكم عليه (**إلّا كما أمنتكم على أخيه من قبل**) والاستثناء من مقدر والتّقدير لا آمنكم عليه أماناً إلّا أماناً مثل أمان أمنتكم به على أخيه، والإضافة للعهد وهو يوسف (**من قبل**) مبني على الضّم لكون المضاف إليه منويّاً ومقدّراً، وإنّه حينما يكون المضاف إليه منويّ يكون مبنيّاً، وتقدير المضاف إليه من قبل هذا الأخ (**فالله خير حافظاً**) الفاء للتّفريع. والمعنى: فلم يفد الأمان على أخيه من قبل، فلا يفيد أمانكم ولا ثقة به، فأثق بالله تعالى إن سلّمتكم، فالله خير حافظاً منكم ومن كلّ أحد، وهو أرحم الرّاحمين، يحفظه برحمه هذا لا لسبب آخر.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

مجمل المعنى: ولمّا فتحوا أوعية متاعهم الّذي جاؤوا به من مصر وجدوا بضاعتهم الّتي دفعوها عن ثمن شراء الطّعام إلى العزيز ردّت إليهم كاملةً ووضعت في رحالهم، فلمّا رأوا ذلك قالوا: يا أبانا ما نبغي وماذا نريد أكثر من هذا تكريماً من العزيز وأعوانه، هذه بضاعتنا وأثماننا ردّت إلينا؛ فأرسل معنا أخانا نذهب ونأتي بالميرة لأهلنا ونحفظ

أخانا ونزداد كيل بعير، حيث وعدنا العزيز بأن يعطينا حصّة أخينا للمرّة الأولى أيضاً، ذلك الكيل كيل سهل على العزيز لكثرة ما لديه من الطّعام ولسعة كرمه وسخائه.

تفصيل المعنى: **(ولمّا فتحوا متاعهم)** أي فتحوا أوعية متاعهم، ففيه مجاز إذ الفتح للأوعية لا للمتاع **(وجدوا بضاعتهم)** أي الثّمن الّذي دفعوه عن شراء الطّعام **(ردّت إليهم)** من قبل العزيز ووضعت في رحالهم **(قالوا يا أبانا ما نبغي)** أي ماذا نريد أكثر من هذا التّكريم من العزيز؟ فإنّ هذه بضاعتنا ردّت إلينا فوق ما أولانا من التّكريم والضّيافة **(ونمير أهلنا)** الواو للعطف على محذوف تقديره: أرسل معنا أخانا نذهب ونأتي بالميرة لأهلنا ونحفظ أخانا **(ونزداد كيل بعير)** وهو كيل أخيهم الّذي يستحقّه في هذه المرة، أو كيله للمرّة السّابقة أن وعد بهم العزيز بالجبر له على شرط الإتيان به **(ذلك)** أي ذلك الكيل الّذي نريده كيل سهل على العزيز لكثرة طعامه ولوفور كرمه وسخائه. أو معناه: كيل ذو يسر وترفيه بالنّسبة لنا في هذه الأزمة وهذا القحط والغلاء.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾

مجمل المعنى: قال لهم أبوهم لن أرسله معكم حتّى تؤتوني عهداً مقبولاً من الله تعالى، وأن تحلفوا لي لتأتنّني به إلّا أن يحاط بكم فتهلكوا جميعاً، أو تمنعوا من ذلك، فلمّا آتوه موثقهم وحلفوا له قال: الله على ما نقول وكيل، أي شاهد وكفى به شهيداً.

تفصيل المعنى: **(قال لن أرسله** معكم) لن، يفيد تأبيد النّفي، أي لن أرسله معكم أبداً **(حتّى تؤتون موثقاً من الله)** من متعلق بمحذوف تقديره حتّى تعطوني موثقا مقبولاً من الله تعالى، أي أعتبر به في شرعه وهو أن تحلفوا لي **(لتأتنّني به إلّا أن يحاط بكم)** أي أن تهلكوا؛ لأنّ الإحاطة جاءت بمعنى الإهلاك، قال تعالى: ﴿وأحيط بثمره فأصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها﴾ سورة الكهف الآية/ ٤٢. ولمّا آتوه موثقهم وحلفوا له **(قال الله على ما نقول)** من ما اتّفقنا عليه من تسليمي لابني إليكم وإيتائكم به **(وكيل)** شهيد وكفى به شهيداً.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

مجمل المعنى: بعدما سلّمهم أبوهم أخاهم **(قال يا بنيّ لا تدخلوا)** مصر من باب واحد بل تفرّقوا وكونوا جماعات، وليدخل كلّ جماعة من باب غير باب الآخرين **(وما أغني عنكم)** بهذا التّدبير من أمر الله وقدره شيئاً، وليس الحكم والقضاء إلّا لله، لا يردّ حكمه شيءٌ من التّدابير والأخذ بالأسباب **(عليه توكّلت)** وحده لا على غيره من الأسباب والخطط والتّدابير، **(وعليه)** وحده **(فليتوكّل)** الّذين يريدون أن يتوكّلوا على شيء لا على غيره، فإنّ غيره لا يقدر على شيء خلاف أمره.

تفصيل المعنى: خاف سيّدنا يعقوب من أن يدخلوا كلّهم من باب واحد معاً وأن يرى النّاس كثرتهم فيحسدهم البعض فتصيبهم العين. أو يخاف من كثرتهم الملك فيلحق بهم أذى، فوضع لهم هذه الخطّة حتّى لا يرى كثرتهم كي لا يصابوا بشيء ويعمّهم السّلامة والأمان. ثمّ نبّههم على أنّ هذا مجرّد التّمسك بالأسباب، وليس ذلك منجياً من قضاء الله تعالى وقدره من شيء فقال **(وما أغني عنكم)** أي وما أدفع عنكم بهذا التّدبير وهذه الخطّة من أمر الله تعالى وتقديره من شيء **(إن الحكم الّا لله)** ليس الحكم والتّقدير إلّا لله تعالى، فلا تأثير ولا خلق ولا تكوين إلّا لله، وبيده الأمر ولا ينفع كلّ الأسباب إذا قدر الله تعالى شيئاً خلاف مقتضى الأسباب **(عليه)** وحده لا على غيره من كلّ ما سواه، توكّلت عليه وحده لا على غيره، فليتوكّل الّذين يريدون التّوكل على شيء، فلا توكّل ولا إعتماد على غير الله تعالى في أمر من الأمور. علم سيّدنا يعقوب (عليه السلام) بنيه وسائر المسلمين قاعدة من قواعد الإسلام، وهي أنّه يجب على المسلم أن يأخذ بالأسباب ويهيّئه ولا يجوز له أن يهملها لأنّها من وضع الله تعالى، ولكن يجب أن لا يكون إعتماده على الأسباب بل على الله تعالى وحده وأن لا يعتقد بأنّ الأسباب كافية دون الله تعالى، حيث إنّ الأسباب كلّها لا تعمل شيئاً ما لم ينضمّ إليها إرادة الله تعالى وخلقه **(يا بنيّ)** أصله بنون أضيف إلى ياء المتكلّم، فحذفت النّون بالإضافة لأنّ نون الجمع تذهب بالإضافة فصار بنويّ، اجتمعت الواو والياء والسّابق منهما ساكن، قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وكسرت النّون، لأنّ الياء تقتضي كسر ما قبلها فصار **(بنيّ)** وناداهم بيا وهو لنداء البعيد، وقد كانوا قريبين مجتمعين معه حرصاً على النّصيحة ليسمعوا فلا يغفلوا **(لا تدخلوا)** أي مصر من باب واحد، وادخلوا من أبواب متفرّقة كي لا يرى النّاس كثرتكم فتصيبكم عين أو حسد أو تهمة من الملك وأعوانه بسبب كثرتكم، وما أغني أي أدفع **(عنكم من الله من شيء)** أي شيئاً من الأقدار، زيدت كلمة من لتأكيد النّفي وتعميمه **(إن الحكم إلّا لله)** وحده لا قدرة لغيره على أمر

من الأمور دون إرادته **(عليه توكّلت وعليه فليتوكّل المتوكّلون)** لم ينصح سيّدنا يعقوب (عليه السلام) هذه النّصيحة في السّفرة الأولى أبناءه إمّا لأنّه لم يكن معهم هذا الأخ الّذي تعلّق قلبه به فاحتاط هذه المرّة أكثر من الأولى لأجله، أو لأنّه كان يرى بنور قلبه حدوث شيء في هذه السّفرة إلّا أنّه لم يتحقّق منها ومن نوعيتها والله أعلم.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

مجمل المعنى: ولمّا دخلوا مصر متفرّقين كما أمرهم أبوهم ما كان يغني ويدفع عنهم دخولهم بهذا النّوع من قضاء الله تعالى شيئاً، لأنّهم ابتلوا في هذه المرّة بالإتّهام بالسّرقة واسترقاق أخيهم، إلّا أنّه أفادهم أداء حاجة في نفس يعقوب أمر بها، وتطبيق قاعدة حكم بها وهو أنّه يجب التّمسك بالأسباب، وأنّ يعقوب لذو علم لما علّمناه من أنّه على المرء أن يهيّيء الأسباب ويأخذ بها، ثمّ بعد ذلك يتوكّل على الله في وجود المسبّب لا على الأسباب، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون هذه القاعدة وهذا الأمر، بل منهم من يرى أنّ الأسباب كافية في وجود الشّيء ناسين مسبّب الأسباب وهو الله تعالى وحكمه وإرادته، ومنهم من لا يرى للأسباب قيمة، وكلا هذين الطّرفين على خلاف حقيقة الإسلام وقواعده المتينة.

تفصيل المعنى: ولمّا دخل الأخوة مصر من حيث أمرهم، أي من الأمكنة والأبواب الّتي أمرهم أن يدخلوا منها، ما كان دخولهم بهذا النّوع يعني ويدفع عنهم من أمر الله تعالى وقضائه من شيء، إلّا أنّه أفادهم أداء حاجة في نفس يعقوب قضاها وحكم بها وهو الأخذ بالأسباب **(وأنّه)** أي يعقوب **(لذو علم لما علّمناه)** من أنّ الحذر لا يدفع القدر، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ذلك، بل يعتقدون أنّ الأسباب كلُّ شيء، وكافية في حصول المطلوب والمسبّب، ولكنّ الحقّ عند الإسلام والمسلمين أنّ الأسباب لازم على المسلم أن يتّخذ بها، ولكن لا يجوز أن يعتقد أنّها كافية، لأنّ الأسباب ليست مؤثرة في تحصيل المسبب كما يعتقده الماديّون، ولا مجبرة لله تعالى على خلق المسبّب كما يدّعي الفلاسفة، بل الله تعالى مختار بعد وجود كلّ الأسباب إن شاء يخلق المسبّب، وإن لم يشأ لم يخلق، ولكن أجرى عادته بخلقه بعدها، ولا يخرق هذه العادة إلّا نادراً،

كأن يريد أن يظهر معجزة لنبيّ أو كرامة لوليّ، أو أن يظهر للنّاس أنّ السّبب ليس مؤثراً، بل الله هو المؤثّر وحده، وإنّما الأسباب أمور عاديّة وضعها الله تعالى، وإن شاء أبطلها أو بدّلها وهو على كلّ شيء قدير.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا دخل الإخوة مصر توجّهوا إلى يوسف، ولمّا دخلوا على يوسف **(آوى)** ضمّ **(إليه أخاه)** وقبله وأنزله معه، قال: أنا أخوك يوسف دون أن يعلم إخوته، فشكا إليه أخوه ما لاقى بسبب فراقه، وما عمل الإخوة في إبعاده عنه، قال يوسف: حيث ترى أنّ العاقبة أصبحت خيراً لنا فلا تبتئس ولا تحزن بما كانوا يعملون، فإنّ الأمر تمّ في صالحنا بإذن الله تعالى.

تفصيل المعنى: **(ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه)** ضمّ إلى نفسه أخاه الشّقيق وقبله وأنزله في منزله و**(قال)** له سرّاً دون أن يعلم به الإخوة **(أنا أخوك)** يوسف وقد جعل الله نتيجة عملهم تجاهي خيراً **(فلا تبتئس)** ولا تحزن **(بما كانوا يعملون)** من إبعادي عنكم والتّفريق بيني وبينكم، فإنّ ذلك أصبح سبب الخير والعزّ لنا، فإنّه لولا طردهم إيايّ لما أصبحت عزيز مصر فأصبح إساءتهم إليّ إحساناً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٦. قال الشّاعر:

رُبّ أمر تتقيه ... جرّ نفعا ترتجيه
خفي المحبوب منه ... وبدا المكروه فيه[١]

وبهذه المناسبة حكي أنّ الشيخ محمد فيضى أفندي الزّهاوي مفتي بغداد المشهور (رحمة الله تعالى عليه) كان مدرساً في بلدة سليمانيّة عند محمود باشا الجاف، وكان

(١) أبيات أرسلها إليه من حلب الشّيخ محمّد أبو الخير زين العابدين جوابا لرسالة بعثها إليه الوالد حين كان في كبيسة، وهو من أبناء عمومتنا يلتقي نسبه مع الشّيخ الوالد في الجدّ الثّاني، هاجر جدّهم من باليسان إلى أنطاكية ثمّ نزح أبناؤه إلى حلب بعد أن ألحقت أنطاكيّة بتركيا بعد التّقسيم.

لديه تلميذ يحسده، فسعى بينه وبين محمود باشا إلى أن أفسد بينهما، فهاجر الزّهاوي إلى كركوك وأصبح مدرّساً في جامع البيات، وقد اتّهم أحد البيكات من قبل الدّولة العثمانية، فذهب به إلى بغداد وحكم عليه بالسّجن من قبل والي بغداد، فذهب الزّهاوي إلى الوالي ليشفع للبيك، فأعجب الوالي بالزّهاوي وعلمّه وأدبّه وفضّله فقال: سأطلق سراح البيك ولكن يجب أن تأتي إلى بغداد وتكون مدرّساً عندنا، فقبل الزّهاوي ذلك، فجاء بغداد وأصبح مفتي بغداد، فأصبح مرجعاً للأكراد في بغداد يساعدهم وينجز لهم أعمالهم، وكان له ديوان مملوء دائماً بالضّيوف وأشراف بغداد، فبمرور الزّمن توفيّ تلميذه في السّليمانية وأصاب أبناءه أزمة، فجاء كبير أولاده بغداد ونزل عند المفتي، فلمّا سأله المفتي عن هويّته قال: أنا ابن فلان، فتوجّه المفتي إلى أهل المجلس: قال يا جماعة أتعرفون من هذا؟ قالوا: لا، قال: هذا ابن من طردني من السّليمانية فقام الولد فوراً وقال أفندي فأنا جئتكم لأخذ مكافأة إحسان والدي هذا. قال المفتي: فأي إحسان أنّه طردني، قال: والله لو لم يطردك أبي من السّليمانيّة لما أصبحت مفتي بغداد، ولما صار لك هذا المقام، فاستحسن المفتي جوابه فجعله مدير النّاحية في الدّولة، فالمسلم يرى الأمور كلّها من الله تعالى، وإنّما الإنسان مظهر ومجرى لهذه الأمور، ولا تخلو هذه الأمور كلّها من حكم ومصالح إمّا للإنسان نفسه أو بالنّسبة للأمر العام والمصلحة العامّة؛ فلذلك يسهل على المسلم المسامحة وترك الإنتقام، وأنّ يوسف (عليه السلام) طبّق هذه القاعدة، فلذا سامح الأخوة أوّل الأمر وقال: **(لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)** وكذلك طبّقها الرّسول، حينما فتح مكّة وقلوب المشركين ترتجف من خوف ما يفعل الرّسول بهم فقال: ماذا ترون أنّي فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم، فقال قولته المشهورة: (إذهبوا فأنتم الطّلقاء)[1] فالمسلم يجب عليه ان لا يحقد ولا يروم إلى الإنتقام، وقد قال (ﷺ): أعف عمّن ظلمك وأعط من حرمك وصل من قطعك وخالق النّاس بخلق حسن[2]، رزقنا الله تعالى هذا الخلق العظيم خلق الأنبياء والمرسلين.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٩/١١٨ الحديث رقم ١٨٠٥٥.

(٢) دمج رحمه الله بين حديثين الأول:عن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ فقال لي: ياعقبة بن عامر صل من قطعك واعط من حرمك واعف من ظلمك / مسند الإمام أحمد ٤/١٥٨ الحديث رقم١٧٤٨٨. والثاني:عن أبي ذر قال قال لي رسول الله: إتق الله حيث ما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن./ سنن الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾

مجمل المعنى: أراد سيّدنا يوسف (عليه السلام) أن يبقي أخوه معه ولا يرجع مع الأخوة، فاتّخذ لذلك حيلة، هي أنّه لمّا جهّزهم بجهازهم وأعطاهم الطّعام ما أرادوا **(جعل السّقاية في رحل أخيه)** وكانت السّقاية وعاءً ثميناً من ذهب أو فضّة كانوا يديرون بها الماء على النّاس ويكيلون بها الطّعام أيضاً، فلذا كانت تسمّى سقاية مرّة وصواعاً مرّة أخرى، ثمّ بعد أن رحل الإخوة وابتعدوا شيئاً قليلاً، نادى مناد لهم أيّتها العير أي القافلة إنّكم لسارقون.

تفصيل المعنى: **(فلمّا جهّزهم بجهازهم جعل السّقاية في رحل أخيه)** كان سيّدنا يوسف (عليه السلام) يعلم أنّ حكم السّارق في شريعتهم أنّ السّارق يسترقّ ويجعل عبداً لصاحب المال المسروق، فأراد أن يجعل أخاه سارقاً لصواعه، في ظاهر الحال، فيأخذه وليسترقه ويرجع به بهذه الحيلة فجعل الصّواع في رحل أخيه.

سؤال: فإن قيل: كيف جاز لسيّدنا يوسف (عليه السلام) أن يتّهم الإخوة بالسّرقة ويجرح شعورهم بهذا النّوع العظيم من الجرح؟

الجواب: إنّه لم يتّهم الإخوة كلّهم بالسّرقة، فإنّ قول المنادي: إنّكم لسارقون: المراد منه أنّ واحداً منكم لسارق مثل قول القائل: قتل بنو فلان فلاناً، ولم يقتله إلّا واحد منهم، وأراد بذلك الواحد أخاه[١]، وأنّه لم يجرح شعوره لأنّ القضيّة كانت مدبّرة بينه وبين يوسف (عليه السلام) فيما يظهر وإلّا فسرعان ما يذهب هذا الشّعور عند الإطلاع على حقيقة الحال، بقي أنّه أليس وصف واحد منهم بالسّرقة كذباً يجب التّحرز منه؟ **قلنا:** لا، لأنّه لم يرد بالسّرقة معناها الحقيقي، وهو أخذ مال الغير خفية في حرز مثله، بل أرادوا به مطلق أخذ مال الغير ووجوده عنده فقط، فلم يكن كذباً في الحقيقة بل صدقاً. فإن قيل: ألم يكن طريقة أخرى يرجع بها أخاه غير هذه الطّريقة؟ فلا يجعل أخوته في قلق على الأخ وخجل من والدهم ولا يحزن أباه بفقده أخاه هذا أيضاً؟

(١) ربما كان المعنى أنكم لسارقون يوسف من أبيه، بدليل استعمال التوكيدات (إن واللام) وهو حقيقة عرّض بها عن سرقة الصواع حسبما فهمها إخوة يوسف.

قلنا: قد عمل سيّدنا يوسف (ﷺ) هذه الطّريقة بإلهام من الله تعالى بدليل قوله تعالى فيما بعد: **(كذلك كدنا ليوسف)** ولعلّ الحكمة فيها أن يشعر يعقوب(ﷺ) بأنّ يوسف في مصر وأنّ العزيز هو هو، فيتحسّس عنه هناك، وبالفعل شعر يعقوب بذلك، بدليل أنّه لمّا حكوا له أنّ العزيز أحبّ هذا الأخ كثيراً وضمّه إلى نفسه وأنزله في منزله الخاصّ، وإنّه حينما ظهر منه السّرقة حكم عليه بشريعتنا قال فوراً: (يا بنيّ إذهبوا) إلى مصر (فتحسّسوا من يوسف وأخيه).

* * *

الحكم: يستفاد من هذه الآية الكريمة أنّ استعمال الحيل للوصول إلى الحقّ جائز وهو كذلك. بشرط أن لا يكون فيه إرتكاب محرم والله أعلم.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾

مجمل المعنى: قال الإخوة وقد توجهوا إلى المنادي وجماعته: ماذا تفقدونه فتتّهموننا بسرقته؟ قالوا: نفقد صواع الملك، أي الّذي عليه ختم الملك، ولمن جاء به مكافأة هي حمل بعير من الطّعام، وأنا به أي بذلك الحمل ودفعه له كمكافأة زعيم أي كفيل.

تفصيل المعنى: **(قالوا وأقبلوا عليهم)** الواو للحال، أي قالوا والحال أقبلوا على المنادي وجماعته وحوّلوا وجوههم إليهم تعجّباً من هذا النّداء، وللحيرة التّي أصابتهم منه، كيف لا وهم يتّهمون بالسّرقة ولم تكن السّرقة من شيمتهم أبداً، ولم تخطر ببالهم قط فكيف يعملونها الآن، وكيف في محلّ أكرموا فيه واحترموا، هذه حيرة والله ما فوقها حيرة **(ماذا تفقدون)** ما للإستفهام، وذا بمعنى: الّذي، ومفعول تفقدون ضمير محذوف راجع إلى ذا أي أيّ شيء تفقدونه فتتّهموننا بسرقته؟ **(قالوا نفقد صواع الملك)** أي الصّاع الّذي عليه ختم الملك ونكيل به الطّعام **(ولمن جاء به)** قبل التّفتيش والثّبوت عليه مكافأة هي حمل بعير من الطّعام **(وأنا به زعيم)** أي أنا كفيل بهذا الحمل أن يعطي مكافأة لمن ردّ الصّواع، وهذا قول المنادي، فيظهر أنّه أصبح متعارفاً معهم وصديقاً لهم، ويثقون به لأنّ الكفيل لا يكون إلّا من يوثق به ويعرف، فإن قيل كيف حكموا عليهم

بالسّرقة ووضعوا لهم مكافأة على ردّ المسروق، والسّارق لا يكافأ بل يحدّ فإنّه لا عفو في الحدود؟ فنقول: المعنى إنّكم لسارقون في ظنّنا، ضمن جاء به قبل ثبوت السّرقة عليه، واعتذر بأمر مّا، كأن يقول: وقع في رحلي دون علم منّي مثلاً، فله المكافأة كذا، لأنّ الحدود تدرأ بالشّبهات، فإنّك مثلاً إن فقدت شيئاً ووجدته عند أحد لا يحكم عليه بالسّرقة، لأنّه ربّما أصبح عنده لسبب من الأسباب إلّا إذا إعترف أنّه سرقه أو شهد عليه الشّهود بأنّه سرق.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

مجمل المعنى: أقسم الإخوة قائلين تالله لقد علمتم من أحوالنا وأخلاقنا ما جئنا لنفسد في الأرض هذه أي بلدتكم وما كنّا سارقين قطّ، ولم تكن السّرقة من خلقنا وأعمالنا.

تفصيل المعنى: **(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض)** الألف واللّام عوض عن المضاف إليه أي في أرضكم أو أرض مصر **(وما كنّا سارقين)** أقسموا هنا القسم وأكّدوا هذا اليمين لأنّهم كانوا متأكّدين من أنفسهم أنّهم لم يأخذوا شيئاً، ومن أين علموا بهذه المؤمرة، وبهذه الحيلة الّتي دبّرت لأمر مّا.

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

مجمل المعنى: قالوا فأيّ شيء جزاء السّارق إن ثبت على واحد منكم و**(كنتم كاذبين)** في قولكم وما كنّا سارقين.

تفصيل المعنى: قالوا للإخوة **(فما جزاؤه)** الضّمير راجع إلى السّارق المفهوم من السّياق أي فما جزاء السّارق **(إن كنتم كاذبين)** في لفظ **(إن كنتم)** إن للتّرديد، إيهام إلى أنّهم لم يكونوا جازمين في أنّهم سارقون، وإنّما ظنّوا بهم ظنّاً، وإذا ثبت الأمر عليهم فإنّهم يحكمون السّارق حسب شريعتهم، فلذا سألوهم عن حكم شرعهم في السّارق وعن جزائه عندهم إذا ظهر المسروق في رحل واحد منهم بعد تفتيش الرّحال.

﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

مجمل المعنى: قالوا جزاء السّارق عندنا هو أنّ من وجد المسروق في رحله فهو

جزاؤه يسترقّ ويجعل عبداً لصاحب المال المسروق. كذلك مثل ذلك الجزاء نجزي الظّالمين بارتكاب السّرقة.

تفصيل المعنى: (**قالوا جزاؤه**) كلمة جزاؤه مبتدأ وخبره جملة (**من وجد في رحله فهو جزاؤه**) أي جزاؤه مضمون هذه الجملة وما يفيده كما نقول جزاء السّارق ﴿والسّارق والسّارقة فاقطعوا أيديهما﴾ سورة المائدة الآية/٣٨. أي جزاؤه الجزاء المذكور في هذه الآية فكأنّهم أخبروا عن النّص الشّرعي الّذي فيه جزاء السّارق عندهم (**كذلك نجزي**) نعاقب (**الظّالمين**) بارتكاب هذا العمل الشّنيع.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

مجمل المعنى: فاتّفقوا على أن يفتّش رحالهم، فمن وجد في رحله يسترقّ ويستعبد، ففتّش أوعية الإخوة قبل وعاء أخيه الشّقيق، ثمّ بعد إتمام أوعية الإخوة فتّش وعاء أخيه، فاستخرج الصّواع من وعاء أخيه، فاسترقّه وضمّه إلى نفسه، كذلك مثل هذا الكيد كدنا ليوسف، أي ألهمناه ذلك الكيد وهو أن يجعل أخاه سارقاً ظاهراً، ويعاقبه حسب شريعة أبيه، لأنّه ما كان ليستطيع أن يأخذ أخاه حسب شريعة الملك، لأنّهم كانوا يعاقبون السّارق بالضّرب وتغريمه ضعفي قيمة المسروق، إلّا أن يشاء الله أن يأخذه فيه. نرفع درجات في العلم والفهم وتدبير الأمور من نشاء أن نرفعه وهو يوسف أو ويوسف منهم، وفوق كلّ صاحب علم عليم يعلمه وهو الله تعالى.

تفصيل المعنى: (**فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه**) نسب التفتيش والبدأ به إلى يوسف مجازاً لأنّه الآمر بذلك كذلك، أو الضّمير في بدأ راجع إلى المنادى إن كان هو المفتّش وفي أخيه ليوسف للعلم به من السّياق، ولا بدّ في أن يكون المفتش نفس يوسف قام به بنفسه لشدّة الإهتمام بالموضوع، وقدّم تفتيش أوعية الإخوة حتّى لا يظنّوا أنّ هذه مؤامرة، حتّى قيل أنّهم حينما وصلوا إلى وعاء أخيه قالوا: لا نفتّش هذا، فقال الإخوة: والله لتفتّشونه حرصاً على إظهار نزاهتهم، ثمّ بعد ما فتّش وعاء أخيه (**إستخرجها**) أي الصّواع وتأنيثها باعتبار أنّها سقاية (**من وعاء أخيه كذلك**) مثل ما علمت ورأيت (**كدنا**

ليوسف) أي علّمناه الكيد وألهمناه له، والكيد هو جعل الأخ سارقاً ومعاقبته حسب شريعة والده لا حسب شريعة الملك لأنّه **(ما كان)** ليستطيع **(أن يأخذ أخاه في دين الملك)** أي الشّريعة الّتي كان الملك يدين بها لأنّهم ما كانوا يسترقّون السّارق **(إلّا أن يشاء الله)** جملة إلّا أن يشاء الله إذا أتت بعد جملة؛ فهي إستثناء عن مضمون الجملة السّابقة، والإستثناء يغاير المستثنى منه، فإن كان المستثنى منه مثبتاً فهو نفي، وإن كان نفياً فهو إثبات. فمثلاً إذا قلت أذهب غداً إلّا أن يشاء الله، أي إلّا أن يشاء الله عدم ذهابي، وإذا قلت لا أذهب الّا ان يشاء الله، أي الّا أن يشأ الله ذهابي. وهنا وقعت بعد قوله: (**ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك)** فقدّر المفسّرون حسبما رأيت إلّا أن يشاء الله أن يأخذه فأخذه حسب شريعتهم، هذا ولكن لا يخفى على من علم ببلاغة الكلام، أنّ القيد الأخير في الكلام هو دائماً محطّ الفائدة، وهو الّذي يصاغ ويصبّ الكلام لأجله، فكأنّ ما قبله لا شيء، إنّما جيئ به للتّوصل إليه، فمثلاً إذا قلت: صلّيت يوم الجمعة، فالمراد الإخبار عن وقوع الصّلاة في يوم الجمعة، وإذا زدت قيد في المسجد وقلت: صلّيت يوم الجمعة في المسجد، فالمراد أنّ الصّلاة وقعت يوم الجمعة في المسجد لا في غيره، فالمقصود الأهمّ يكون الإخبار بأنّها كانت في المسجد، والكلام في هذه الآية سيق للإعلام بأنّه ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه في دين الملك، فقيد في دين الملك هو الأهمّ بالإخبار عنه، ويكون الإستثناء منه، فيجب أن يقدّر ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلّا أن يشاء الله أن يأخذه في دين الملك، وذلك لأنّه لم يكن العقاب في دين الملك للسّارق أخذه واسترقاقه بل ضربه وتغريمه ضعفي قيمة المسروق، ولكنّ الله تعالى شاء أن يأخذه في دين الملك بنوع آخر وهو أنّه كان في دينه أنّه يجوز إدانة المجرم حسب شريعته. فألهم الله يوسف أن يعمل بهذه المادّة في دين الملك فعمل به، فأخذ أخاه في دين الملك بمشيئة الله تعالى وإلهامه له هذه الطّريقة. وهكذا يجب أن تحمل الآية لتستقيم لفظاً ومعنى، أمّا لفظاً فلمّا عرفت أنّ القيد الآخر هو المقصود بالإخبار، فيجب أن يكون الإستثناء منه. وأمّا معنىً فلأنّه لا يمكن ليوسف أن يحكم في دولة بخلاف نظامها، بل هذا غير معقول .فإن قيل: فكيف يعمل يوسف بنظام الملك وهو غير حكم الله تعالى وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٤٤. قلنا: ليس الأمر كما تقول، فإنّ الملك وشعبه كانوا مسلمين وكانوا يعملون بشريعة سماويّة إلّا أنّه دخل في عقيدتهم بعض الأمور الوثنيّة كما يأتي نقلاً عن المنار، ويدلّ على أنّهم كانوا مسلمين متديّنين بدين الله تعالى قول

العزيز لإمرأته أوّل الأمر: (وَاستَغْفِري لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئين) فهذه كلمة المسلم ويصدر من المسلمين، وقول الإمرأة: (وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسّوءِ إِلّا ما رَحِمَ رَبّي إِنَّ رَبّي غَفورٌ رَحيمٌ) ولا مانع من أن توجد شريعتان سماويّتان في زمان واحد، كما نوضّح ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالى، هذا وإنّ هذه المادة الّتي حكم بها يوسف كانت خفيّة في دين الملك إلّا على أهل الفطانة والأذكياء، حيث كانت غير صريحة، بل أمراً إجتهاديّاً تفطّن له يوسف وإستنبطه، ولذلك قال تعالى: (**نرفع درجات من نشاء**) والمراد به يوسف (**وفوق كلّ ذي علم عليم**) يعلمه وهو الله تعالى، ربّ زدني علماً وفهماً وألحقني بالصّالحين.

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾

مجمل المعنى: لمّا رأى الإخوة أنّ السّقاية أخرجت من رحل شقيق يوسف ولم يبق عندهم مجال للشّك في أنّه سرقها غضبوا غضباً شديداً و(**قالوا إن يسرق**) فلا عجب في ذلك (**فـ**) إنّه (**قد سرق أخ له من قبل**) وأنّ الأخ يشابه أخاه وأرادوا بذلك يوسف، (**فأسرّها**) فأخفى (**يوسف في نفسه**) كلمة (**ولم يبدها لهم**)، والكلمة هي أنّه قال: (**أنتم شرّ مكاناً**) منه ومن يوسف لإنّكم فعلتم ما فعلتم بيوسف (**والله أعلم**) من كلّ أحد (**بما تصفون**) به يوسف وأخاه من السّرقة، هل هذا الوصف حقّ، أم لا، كلّا إنّهما ليسا بسارقين.

تفصيل المعنى: (**قالوا إن يسرق**) جزاء هذا الشّرط محذوف تقديره: إن يسرق فلا تتعجّبوا (**فقد سرق له أخ من قبل**) وإنّ الأخ يشابه أخاه، وهذا الكلام علّة لعدم التّعجب، فحذف الشّرط ووضع سببه مكانه. نسبوا السّرقة إلى يوسف لما وجد في روايات:

الأولى: أنّ يوسف كان في حضانة عمّته فلمّا كبر أخذه أبوه وضمّه إلى أهله، فطلبت العمّة من أبيه أن يردّه إليها فأبى، فشدّت العمّة يوماً حزامها وكان من ذهب على بطن يوسف تحت ثيابه، ثمّ أعلنت أنّ نطاقها سرق، فأمر يعقوب بتفتيش من في البيت فوجدوه تحت قميص يوسف، فأخذته العمّة واسترقّته حسب ما كان يحكم به شريعتهم من أنّ السّارق يستعبده صاحب المال، فوصف يوسف بعد ذلك بالسّارق ولم يكن سارقاً في الحقيقة.

الثّانية: إنّه كان يسرق الطعام من البيت فيطعمه المساكين والفقراء.

الثّالثة: إنّه سرق صنماً فكسره.

والكلّ محتمل ولا مانع من أن يكون الكلّ واقعاً، وصار سبب وصفه بالسّرقة **(فأسرّها يوسف في نفسه)** الضّمير في فأسرّها وكذا في **(ولم يبدها لهم)** يرجعان إلى كلمة مبهمة يفسرها قوله: **(قال أنتم شرّ مكاناً)** أي فأخفى يوسف في نفسه كلمة وقالها في نفسه ولم يبدها لهم، والكلمة هي أنّه **(قال أنتم شرّ مكاناً)** من هذا الأخ والأخ قبله لأنّكم عاملتهم يوسف وأباه بما تعرفون **(والله أعلم بما تصفون)** مفعول تصفون محذوف تقديره والله أعلم بما تصفون به هذا الأخ وأخاه من قبل، هل هذا الوصف حقّ أم باطل؟ كلّا بل هو باطل، أمّا هذا الأخ فلأنّه لم يكن سارقاً للصّواع بل أدخل في رحله بعلمه أم لا؟ وأمّا يوسف فلمّا ذكر في الرّوايات الثّلاث وكلّ منها ليس سرقة. أمّا الأولى فظاهر، وأمّا الثّالثة فلقيامه بأمر واجب وحقّ فإنّ كسر الصّنم حقّ، وأمّا الثّانية فلقيامه بما هو واجب من إطعام المساكين، فما وصفوه به كان باطلاً، وأمّا ما فعلتم بيوسف كان واقعاً، فلذا أنتم شرّ....إلخ. وقوله شرّ لا يقتضي أن يوجد فيه الشّرّية لما سبق من أنّ هذا ليس مقتضى أفعل التّفضيل دائماً. أو لأنّ الشّر صفة مشبّهة هنا. وليس بأفعل التّفضيل.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨﴾

مجمل المعنى: تذكّر الإخوة حال أبيهم وتعلّقه بهذا الأخ وكيف يرجعون إليه بدونه، فاسترحموا العزيز وقالوا: يا أيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً شائباً كبيراً رئيس قبيلة، فخذ أحدنا واسترقه مكانه رحمة بوالده، فإنّه لا يتحمّل فراقه، إنّا نراك من المحسنين، فأحسن إلينا هذا الإحسان.

تفصيل المعنى: **(قالوا يا أيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً)** وصفوه بالشّيخوخة والهرم للتّرحم عليه، فلعلّ العزيز يترحّم عليه لشيخوخته **(كبيراً)** رئيس قبيلة أو قوم، ووصفوه بهذا الوصف لأنّ الأمراء والرّؤساء يحبّون الإحسان إلى رؤساء القبائل لجلب قلوبهم وإخضاعهم للسّلطة وتأييدهم لها **(فخذ أحدنا مكانه)** واطلق لنا هذا الأخ لشدّة تعلّق أبينا به **(إنّا نراك من المحسنين)** ثمّ وصفوه بالإحسان، لأنّ من عادة الطّلب أن يقدّم إلى

المطلوب منه ثناء قبل الطّلب أو بعده، وهذا آداب الطّلب من النّاس والدّعاء من الله تعالى، أيضاً قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ثمّ بعد هذا الوصف والثّناء والإعتراف بجلال الله وجماله قال: ﴿إهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ...﴾ إلخ. وهكذا فلا يخلو دعاء في القرآن الكريم عن الإقتران بالثّناء لله تعالى في أوّله أو آخره إلّا نادراً، فإنّ الدّعاء مع الثّناء أقرب إلى الاستجابة، وكذلك الطّلب من النّاس إذا إقترن بالثّناء يكون أقرب إلى القبول والتّلبية.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

مجمل المعنى: قال العزيز معاذ الله أن نأخذ فنسترقّ إلّا من ثبتت عليه الجريمة، وقد وجدنا متاعنا عنده، إنّا إذا أخذنا أحداً مكانه لظالمون قد تعدّينا الشّرع والحقّ، فإنّه لا يؤخذ أحد بجريمة غيره.

تفصيل المعنى: **(قال معاذ الله)** معاذ مصدر ميمي من العوذ وقع مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره نعوذ بالله معاذاً **(أن نأخذ)** متعلّق بمعاذ بتقدير من، أي معاذ الله من أن نأخذ **(إلّا من)** مستثنى من مقدّر تقديره: أن نأخذ أحداً **(إلّا من وجدنا متاعنا عنده)** وفي رحله **(إنّا إذاً)** التّنوين عوض المضاف إليه لإذ، أي إنّا إذا أخذنا غيره **(لظالمون)** حيث خالفنا حدود الشّرع الوارد من الله تعالى، وكلّ من خالف الشّرع في أي أمر كان سيّما الحكم فهو ظالم، بمعنى كافر، إذا كان ذلك إستهانة بحكم الله تعالى وإنكاراً له، أو فاسق إذا لم يكن كذلك، بل كان لداعي شهوة أو لقهر سلطة أو لغير ذلك، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٤٥. وقال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٤٤. وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٤٧. فكأنّ الآيتين اللّاحقتين تفسيران لإعتباري معنى الظّالم في الآية السّابقة والله أعلم. فإنّ مجرّد العدول عن حكم الله تعالى لا يكون كفراً إلّا إذا إقترن بالإنكار لحكمه أو الإستهانة به، بل يكون فسقاً لمن كان مؤمناً به، ولكنّ انحرف عنه لأمر ما، إلّا أنّه يجرّه ذلك إلى الكفر إن لم يأت بالتّوبة والصّلاح لأنّ المعاصي تسوق المرء إلى الكفر بالإصرار، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ سورة المطففين الآيتان/ ١٤،١٥. ولذلك قيل إنّ المعاصي بريد الكفر، أعاذنا الله تعالى منهما أجمعين آمين.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا يئس الإخوة وتبيّن لهم أنّ العزيز لا يطلق سراح أخيهم إنفصلوا عن القوم وبدأوا يناجي بعضهم بعضاً. ماذا نفعل؟ وكيف نقنع أبانا؟ وبأيّ وجه نواجهه وليس معنا أخونا؟، **(قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً)** عهداً **(من الله)** لترجعنّ بأخيكم هذا إليه، وقد حصل ما رأيتم **(ومن قبل ما فرطتم)** ما قصّرتم **(في يوسف)** **(فـ)** والله **(لن أبرح)** أرض مصر ولن أعود إلى أهلي حتّى يأذن لي أبي بالرّجوع إليه أو يحكم الله بموتي أو خلاص أخي وهو خير الحاكمين كلّهم.

تفصيل المعنى: **(فلمّا استيأسوا منه)** أي فلمّا يئسوا زيد فيه السّين للتّأكيد **(خلصوا نجيّاً)** أصله نجيواً فعيل من النّجوى، وهو الكلام الخفيّ والتّشاور سرّاً، اجتمع الواو والياء والسّابق منهما ساكن، قلبت الواو ياءً وأدغمت فيه فصار نجيّاً، وهو حال من فاعل خلصوا، لم يجمع لأنّ معناه يناجي بعضهم بعضاً، ولو جمع لصار المعنى: يناجون فيتوهّم أنّهم ينجون مع غيرهم لا فيما بينهم، وهو خلاف الواقع **(قال كبيرهم)** وهو الّذي لم يكن راضياً بما فعلوا بيوسف ونصحهم أن لا يقتلوه، وأن يلقوه في غيابة الجبّ وكان رجلاً طيّباً إلّا أنّه كان مغلوباً عليه من قبل الإخوة **(ألم تعلموا)** إستفهام على سبيل الإنكار، وإنكار النّفي إثبات أي لقد علمتم **(أنّ أباكم قد أخذ عليكم)** لم يقل علينا لأنّه كان الأخذ والجرّ والأمور بيد الإخوة، والقول قولهم، ولم يكن في يده شيء إلّا النّصيحة وإبداء بعض الآراء الخيّرة، فإنّ أخذوا بها فيها وإلّا فلم يكن له سلطة عليهم **(موثقاً من الله)** لترجعنّ به إلّا أن يحاط بكم، وقد أصبح الأمر كما ترون **(فلن أبرح الأرض)** أي أرض مصر ولا أرجع إلى أهلي خجلاً من أبي **(حتّى يأذن لي أبي)** بالرّجوع إليه، أو يحكم الله كما أراد لي وهو خير الحاكمين أي الحاكمين في الظّاهر وصوريّاً، وإلّا فلا حاكم سوى الله تعالى لا تكويناً ولا تكليفاً في الواقع ونفس الأمر.

﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾

مجمل المعنى: قال كبير الإخوة لهم إرجعوا أنتم إلى إبيكم فقولوا له: يا أبانا إنّ إبنك سرق، فاستعبد لذلك حسب شريعتنا، وما أخبرنا إلّا بما علمنا من أن السّقاية أخرجت من رحله، وما كنّا للغيب حافظين، هل هو سرق فعلا؟ أو حصلت السّقاية في رحله لسبب من الأسباب؟ لا ندري.

تفصيل المعنى: **(إرجعوا إلى أبيكم)** أنتم وحدكم فإنّي لا أرجع إليه، وأخبروه الخبر فقولوا: **(يا أبانا إنّ ابنك)** قال: إنّ ابنك، ولم يقل: إنّ أخانا أو إنّ فلاناً تغليظاً لوالدهم في إفراطه في حبّه، فكأنّهم قالوا: إنّ الّذي اخترته إبناً لك دوننا وآثرته بالحبّ علينا فكأنّه هو إبنك وحده لا نحن، ها هو قد سرق وألحق بنا وبك عاراً **(وما شهدنا)** وما أخبرناك هذا الخبر **(إلّا بما علمنا)** ورأينا أنّ السّقاية أخرجت من رحله **(وما كنّا للغيب حافظين)** بأنّه سرق أم حصل هناك شيء آخر؟ أو معناه: وما كنّا للغيب حافظين فنعلم أنّه يسرق فيسترقّ، فلو علمنا ذلك لما أخذناه منك، وما ذهبنا به، أو أريد المعنيان معاً لعدم التّناقض بينهما.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

مجمل المعنى: فإذا لم تصدّقنا في هذا الخبر فحقّق وأرسل أحداً إلى القرية الّتي كنّا فيها، وهي مصر، فليسأل أهلها واسأل القافلة الّتي كانت معنا وكنا فيها من أهل قريتنا وأقبلنا معهم ليظهر لك صدقنا، وإنّا لصادقون بالتّأكيد ودون إرتياب في هذا الخبر.

تفصيل المعنى: (واسأل القرية الّتي كنّا فيها) أي واسأل أهل القرية ففيه مجاز حذف لأنّ القرية لا تسأل **(والعير الّتي أقبلنا فيها)** العير إسم للإبل، فالمراد به هنا: القافلة من الإبل، **(و)** أي إسأل أهل **(العير الّتي أقبلنا فيها)** من أهل قريتنا فكلّهم يعلمون بما أخبرنا ويصدّقوننا **(وإنّا لصادقون)** في هذا الخبر دون شكّ.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾

مجمل المعنى: رجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما قال لهم أخوهم الكبير فأجابهم وقال: ليس الأمر كما تقولون وإنّ إبني لم يسرق بل زيّنت لكم أنفسكم في الماضي

أمراً سيّئاً فعلتموه فأصاب إبني ما أصابه نتيجة لذلك الفعل، فأمري صبر جميل عسى الله أن يأتيني بأولادي كلّهم إنّه هو العليم بمكانهم الحكيم في كلّ أمر لم يفرّق بيننا إلّا لحكمة هو يعلمها، ونحن عنها غافلون.

تفصيل المعنى: **(قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً)** ماالّذي أراد بالأمر الّذي سولّت لهم أنفسهم تجاه هذا الأخ، قيل: هو أنّهم ذهبوا به لأجل الطّمع وجلب الطّعام فصار ما صار، وقيل: المراد به ظننتم أنّه سرق وليس كذلك. وكلا القولين لا يرتاح له البال، لأنّ تسويل النّفس لأمر هو تزيينها أمراً قبيحاً ومحرّماً، وذهابهم به للطّعام لم يكن قبيحاً، فلو كان قبيحاً كيف سلّمهم إياه؟ وهو نبيّ معصوم عن فعل القبيح أو ترويجه ومعاونته. وإنّ ظنّهم أنّه سرق لم يكونوا آثمين فيه، ولم يكن من تزيين النّفس بل كان من دليل دلّ على ذلك دلالة راجحة، وهو أنّ الصّواع أخرجت من رحله، فالّذي يرتاح له البال أنّ سيدنا يعقوب لما ذكروا حالة العزيز مع الأخ وتكريمه له أكثر منهم ومن أنّ الحكم كان على شريعته بأمر العزيز، شعر بأنّ العزيز هو يوسف نفسه أو أنّ أحداً من حاشيته هو، وأنّ هذه حيلة اتّخذت لأخذ الأخ، حيث إنّ هذه الحيلة لا يعرفها سوى يوسف، تعلّم ذلك من عمّته حينما أخذته بهذه الحيلة، فقال يعقوب: بل سوّلت لكم أنفسكم في الماضي أمراً وهو ما فعلوا بيوسف، فأصاب إبني هذا ما أصابه نتيجة لذلك، وهذا خبر صدق، ولكنّ يعقوب قال هذا دون شرح، إيهاماً ليكون ردعاً لهم ويدلّ على صحّة ما قلت أنّه بعد ما قال: فصبر جميل، قال عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً، أي بيوسف وأخيه وكبير الأخوة كلّهم إنّه هو العليم بمكانهم، الحكيم في تفريقهم وجمعهم، فإنّه لولا شعر بذلك كيف يقول: عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً؟ وقد بعد أمر يوسف هذا البعد، ويدلّ على ذلك أيضاً أنّه بعد ماقالوا له: تفتؤ تذكر يوسف .... إلخ. قال: **(إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون)** وهو أنّ يوسف في مصر، ولولا ذلك لما قال بعد هذا القول فوراً: يابنيّ إذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه... إلخ. فهذا كلّه يدلّ على أنّه شعر أنّ العزيز هو يوسف أنّه أخذ أخاه بهذه الحيلة، ولولا فعلهم مع يوسف أوّل الأمر لما حدث ذلك، فصحّ أنّ هذا الأخ أخذ نتيجة لتسويل أنفسهم أمراً في الماضي مع يوسف ﷺ، لا لتسويل أنفسهم أمراً تجاه هذا الأخ لأنّهم ما عاملوه إلّا خيراً، والكذب على النّبيّ محال لأنّه معصوم، **(فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم)** بأنّ يوسف ابن **(الحكيم)** في أمره فما فرّق بينه وبين بنيه إلّا لحكمة هو يعلمها.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

مجمل المعنى: وتولّى أي أعرض يعقوب عن بنيه وعن الجدال معهم، وتوجّه إلى خلوته وقال: يا أسفا، أي اشتدّ أسفي على يوسف، وبكى إلى أن إبيضّت عيناه وعميتا من الحزن، ولكنّه لا يظهر هذا الحزن، فهو كظيم يكتم حزنه ويبلعه.

تفصيل المعنى: **(وتوَلّىَ عنهم وقال يا أسفا على يوسف)** أي يا أيّها الأسف تعال، فإنّ الوقت وقتك، وهذا كناية عن شدّة التّأسف **(على يوسف)** لم يتأسّف على هذا الأخ، بل تأسّف على يوسف لأنّه تجدّد تذكّره له بهذه الحادثة، وكما يقال: (ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل) ولأنّه لم يفقد هذا الإبن حيث كان يعلم مكانه، وقد ترجّى من حادثته الخير، ولكنّ بكى وتأسّف لمجرّد تذكّره يوسف، وإن كان في وقت حصل له الأمل في الإجتماع القريب. **(وابيضّت عيناه من الحزن)** البياض مرض يعتري العيون من كثرة البكاء، فحصل ذلك ليعقوب من كثرة البكاء والحزن **(فهو كظيم)** يكتم حزنه من النّاس لا من أولاده، فإنّهم كانوا يطّلعون عليه، ولذا قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف ...إلخ.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

مجمل المعنى: قال له بنوه تالله لا تزال تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً أي مشرفاً على الهلاك أو تكون من الهالكين فعلاً، فإلى متى هذا؟ فقلّل من هذا التذكّر وترحّم على نفسك شيئاً ما وقبل أن تهلك.

تفصيل المعنى: **(قالوا تالله تفتؤ)** أصله لا تفتؤ حذف لا للتّخفيف وللعلم به أي لا تزال **(تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين)** قالوا له: هذا القول رجاء أن يخفّف عن نفسه بعض الحزن والتّذكر الّذي يهيّجه، وأن يتأسّى قليلاً بتناسي يوسف (عليه السلام) وذلك شفقة لهم عليه، أو كانوا لم يزالوا يحسدون يوسف، فلا يروق لهم أن يذكره ويتأسّف عليه كلّ محتمل والله أعلم.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

مجمل المعنى: قال أبوهم إنما أرفع حالي وحزني إلى الله تعالى وحده ليدفعه عني

وأعلم من الله ما لا تعلمون من أن يوسف حي يرزق وأن الله يجمع بيننا ولكن لا أدري متى وأين.

تفصيل المعنى: (**إنّما أشكو**) الشّكاية رفع أمر إلى أحد ليحلّه ويدفعه عنك (**بثي**) جاء البثّ بمعنى الحال والحزن، فإذا ذكر مع الحزن إختصّ بالحال (**وحزني إلى الله**) لا إليكم ولا إلى غيركم من النّاس (**وأعلم من الله ما لا تعلمون**) لعلّ يعقوب (عليه السلام) علم أنّ العزيز هو يوسف، وهم ما كانوا يعلمون ذلك، فأراد ذلك بقوله: (**وأعلم من الله ما لا تعلمون**) بدليل أنّه قال فوراً: (يا بنيّ إذهبوا) إلى (فتحسّسوا من يوسف وأخيه) فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾

مجمل المعنى: يا بنيّ أعتقد أنّ الفرج قريب، إذهبوا إلى مصر ففتّشوا عن يوسف وأخيه لعلّكم تجدونهما، ولا تيأسوا من رحمة الله تعالى، فإنّه لا ييأس من رحمة الله تعالى إلّا القوم الكافرون، فإنّ المؤمن يؤمن بالله تعالى وسعة رحمته فيرجوها ولا ييأس منها، والكافر لا يؤمن بالله فضلاً عن رحمته فكيف يرجوها، أو يؤمن به ولا يؤمن برحمته.

تفصيل المعنى: (**يا بنيّ إذهبوا**) أي إلى مصر، هذا دليل واضح على أنّ يعقوب شعر بيوسف ولذا قال إذهبوا (**فتحسّسوا من يوسف وأخيه**) وإلّا فكيف يأمرهم بالتّحسّس من يوسف مع أخيه، وفي مصر بالذّات إن لم يشعر بذلك، بل شعر وأظهر ذلك لبنيه، بدليل أنّهم ذهبوا فوراً، ولمّا دخلوا على يوسف وقال لهم: هل علمتم ما فعلتم بيوسف؟ قالوا فوراً وبدون توقّف: (تالله أئنّك لأنت يوسف) فهذا كلّه يدلّ على أنّ يعقوب شعر بأنّ العزيز هو يوسف، فأرسل بنيه للتّعارف معه هذه المرّة (**ولا تيأسوا من روح الله**) فإنّ اليأس من رحمة الله كفر، بمعنى إنكار رحمة الله تعالى، لأنّ في ذلك تكذيباً لله تعالى؛ فإنّه أخبر عن سعة رحمته وأنّه لا يجوز اليأس منه، أو لأنّ اليائس من الرّحمة يعمل كلّ شيء ويرتكبه، فيسوقه ذلك إلى الكفر، وأمّا من آمن بسعة رحمة الله تعالى ولكنّ أيس منه لأنّه يرى ذنبه كثيراً، ومع ذلك يراعي إحترام شعائر الله، فذلك يسمّى شدّة الخوف، ولا أعتقد أنّه يدخل في الكفر (**إنّه لا ييأس من روح**

الله إلّا القوم الكافرون) فمنهم من لا يعتقد بالله فكيف يرجو رحمته؟ ومنهم من يؤمن به وينكر رحمته مطلقاً، وهذا تكذيب للدّين فيكفر، ومنهم من يصرّ على الكفر، وأهل الكفر لا يشملهم الرّحمة في الآخرة فقط لا في الدّنيا، حيث قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنّسبة للدّنيا ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي أخصّها بالنّسبة للآخرة ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ سورة الأعراف الآيتان/ ١٥٦،١٥٧. فالرّحمة يوم القيامة خاصّة بالمسلمين، وغيرهم محروم منها كما تفيد هذه الآية الكريمة.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

مجمل المعنى: إمتثلوا أمر أبيهم وذهبوا إلى مصر فوراً، وتوجّهوا إلى يوسف، فلمّا دخلوا عليه قالوا: يا أيّها العزيز أصابنا وأهلنا الجوع، وجئناك ببضاعة مزجاة، أي ثمن رديء وقليل، فأعطنا الطّعام وافياً بقدر حاجتنا وتصدّق علينا بالزّائد على ثمننا، إنّ الله يجزي المتصدّقين بالخير والبركة في الدّنيا والآخرة.

تفصيل المعنى: **(فلمّا دخلوا عليه قالوا يا أيّها العزيز مسّنا)** أصابنا **(وأهلنا الضّر)** الجوع **(وجئنا ببضاعة)** البضاعة المتاع والمراد بها هنا ثمن شراء الطّعام **(مزجاة)** أي قليلة أو رديئة أو هما معاً **(فأوف لنا الكيل)** أي أعطنا الكيل وافياً وتماماً بقدر ما نريد **(وتصدّق)** بالزّائد على ثمننا **(علينا)** فإنّا مستحقون **(إنّ الله يجزي المتصدّقين)** إمّا إخبار ذكروه لتحريضه على ذلك، أو دعاء له منهم، ثمّ إنّ هذا التّضرع وطلب التّصدق عليهم لم يكن لائقاً بهم، لأنّهم أبناء الأنبياء، وبيت العزّ وشمّ الأنوف، ولا ينطلق لسانهم بهذه العبارات ولا تقبل عزّة أنفسهم هذا التّذلّل وإن هلكوا، إلّا أنّهم علموا أنّه يوسف، فذكروا ذلك على سبيل الملاطفة والمجاملة أو ليرقّ قلبه بذلك فيظهر لهم نفسه ويعترف بأنّه يوسف، وفعلاً رقّ قلبه وأظهر نفسه لهم.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

مجمل المعنى: بعد ما قالوا هذا الكلام رقّ لهم قلب يوسف فأراد أن يتعبهم أكثر من ذلك، فأظهر بعض علاماته الّتي كان يعرف بها، وقال مبتسماً: هل علمتم ما فعلتم

بيوسف من إلقائه في الجبّ وتركه هناك ليهلك؟ ومافعلتم بأخيه بتفريقكم بينه وبين أخيه حينما كنتم جاهلين، وفعلتم ذلك جهلاً؟

تفصيل المعنى: **(قال هل علمتم)** إستفهام للتّقرير أي حملهم على الإقرار والمعنى قد علمتم **(ما فعلتم بيوسف وأخيه)** هنا عتاب عاتبهم به وبعدما عاتبهم اعتذر لهم بقوله: **(إذ أنتم جاهلون)** أي وقتما كنتم جاهلين وصدر منكم هذا العمل جهلاً، وإنّ ما يصدر عن المرء جهلاً لا يلام عليه، أو لأنّ كلّ عمل سيئ يحصل من الإنسان، فهو جهل لأنّه مخالف لمقتضى العلم والعقل، ومدحهم في عين الوقت، حيث نسب جهلهم إلى الماضي، وجعله ممّا يضاف إليه، إذ وهي تضاف لما حصل في الماضي وذهب، فكأنّه قال لهم ولكن أنتم الآن عاقلون عاملون، والعبرة بالحاضر لا بالماضي، وتوسّم ذلك ممّا رأى منهم في السّفرتين السّابقتين من حسن سيرتهم وأخلاقهم وأعمالهم وأفكارهم.

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾

مجمل المعنى: لمّا رأى الأخوة بعض العلامات من العزيز تأكّدوا أنّه يوسف وقالوا: أإنّك لأنت يوسف؟ فاعترف لهم وقال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله تعالى وأنعم علينا بأن جمع بيننا، إنّه أي إنّ الشّأن أنّ من يتّق ويجتنب المنكرات ويصبر على تحمّل المشاق في الابتلاء وأداء الواجبات فهو محسن، وأنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، بل يجزيهم في الدّنيا فيحصل مآربهم ويزيل عنهم متاعبهم، وفي الآخرة فيعفو عنهم الزّلات ويسكنهم الجنّات.

تفصيل المعنى: **(قالوا أإنّك لأنت يوسف)** قراء على الخبر بهمزة واحدة **(أإنّك لأنت يوسف)** تأكّدوا من كونه يوسف وأكّدوا الكلام بأنّ، والجملة الإسميّة واللّام على الخبر وتكرير الضّمير بأنت، فلمّا رأى يوسف أنّهم عرفوه وتأكّدوا من ذلك قال: أنا يوسف ولم ينكر كلامهم هذا، ومن قرأ بهمزتين على الإستفهام، فهو إستفهام تقرير فيرجع إلى معنى الخبر. **(قال أنا يوسف وهذا أخي)** كان يكفي في الجواب أن يقول: نعم، ولكنّ قال: أنا يوسف للتّنصيص على المقصود ولإبراز المقصود باسمه الّذي يتلذّذ بسماعه، كما يتلذّذ به وبرؤيته كما قال الشاعر:

ألا فـــاســـقـــنـــي خـــمـــراً وقـــل لـــي هـــي الـــخـــمـــر

قيل له: لماذا طلبت أن يقول هي الخمر؟ قال: أردت أن تتلذّذ بها سمعي كما يتلذّذ بها عيني وذوقي ولمسي وشمّي، وقال: **(وهذا أخي)** كي لا يتوهّم الإشتراك في الإسم، وأنّه يوسف آخر بل إنّه يوسف أخو هذا **(قد منّ الله علينا)** أنعم الله تعالى علينا بأن جمع بيننا **(إنّه)** الضّمير عائد للشّأن أي أنّ الشّأن هو أنّ **(من يتّق)** الله فلم يرتكب المحرّمات **(ويصبر)** ولم يجزع على البليّات ولم يعترض على الله ورضي بما قضى عليه؛ فينعم الله تعالى عليه، فمن يتّق ويصبر شرط، جوابه: ينعم الله تعالى عليه، ووضع موضع الجزاء. علّة الجزاء فالمعنى: ينعم الله تعالى عليه لأنّه محسن، وإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، وقصد بذلك نفسه، فإنّه اتّقى الله تعالى فلم يلبّ طلب سيّدته خوفاً من الله تعالى، وصبر على ما ابتلي به من كونه في الجبّ ثمّ الأسر ثمّ العبوديّة للعزيز، ثمّ في الحبس ولم يصدر عنه أي خاطر تجاه ربّه إلّا الصّبر والرّضا، وأنّ الإنسان ملك لله يفعل به ما يشاء، ولذلك أنعم عليه هذه النّعمة فإن قيل: كيف جاز له أن يمدح نفسه بالتّقوى والصّبر؟ أليس ذلك عجباً؟ والعجب من الصّفات الرّذيلة، وتزكية للنّفس ونهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[1] قلنا: يجوز ذلك في مقام التّحدث بنعمة الله تعالى وللنّصيحة وحضّ النّاس على الخير، فكأنّ يوسف قال لإخوته: لم أفز بهذه النّعمة إلّا بالتّقوى والصّبر فاتّقوا واصبروا حتّى ينعم الله تعالى عليكم ويؤجركم ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[2] من كان؟ وأين كان؟ ومتى كان؟ بل يؤجرهم في الدّنيا بالعزّ والسّعادة، وفي الآخرة بما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين في مقعد صدق عند مليك مقتدر، رزقنا الله تعالى التّقوى والصّبر وجعلنا من المحسنين، ومتّعنا بأجرهم آمين ياربّ العالمين.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾

مجمل المعنى: بعدما قال العزيز: أنا يوسف وهذا أخي، وقع الإخوة في ما لا يدرك مداه من الخجل والنّدامة، فرأوا الإعتراف بالخطأ أحسن من كلّ عذر وقالوا: قسماً

(١) سورة النجم الآية . ٣٢ .

(٢) سورة هود الآية . ١١٥ .

تالله لقد آثرك الله، وإختارك علينا وقد كنّا خاطئين فيما قمنا به في حقّك وحقّ أخيك.

تفصيل المعنى: (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) في هذا إعتراف بفضله عليهم، حيث اختاره الله تعالى عليهم، كما وفي قولهم: **(وإن كنّا لخاطئين)** إعتراف بخطئهم، فجمعوا بذلك بين فضيلتين: الإنقياد للحقّ والإعتراف بالخطأ.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾

مجمل المعنى: لقد أدرك يوسف خجلهم وما وقعوا فيه من خوف إنتقامه، فاستعجل بالتّخفيف عنهم وتسليتهم، فقال فوراً: لا تثريب أي لا لوم ولا عتاب ولا إنتقام منّي إليكم اليوم، ولقد عفوت عنكم، فاليوم وهو الدّنيا ليس عليكم شيء، وبالنّسبة للآخرة يغفر الله لكم فلا يعذّبكم وهو أرحم الرّاحمين، فهو أرحم منّي، فإن عفوت عنكم أنا فهو يغفر لكم بالأولى.

تفصيل المعنى: **(قال لا تثريب عليكم اليوم)** كان على الإخوة حقّان:

الأوّل: حقّ النّاس وهو حقّ يوسف فعفا يوسف عن حقّه.

الثّاني: هو حقّ الله تعالى، فقال لهم في هذا الحقّ **(يغفر الله لكم)** إمّا دعاء من يوسف بأن يغفر لهم، أو خبرٌ منه بأنّ الله يغفر لهم، فإن كان دعاء فهذا واضح وتعليم للّذين يعفون النّاس عن حقوقهم **أن** يترجّوا من الله تعالى أن يغفر لهم حقّه أيضاً، وإن كان خبراً فعرف ذلك بالإلهام أو لوعد الله تعالى بالعفو عن التّائبين، وقد صحّت عنده توبتهم، أو استدلّ بعفوه على عفو الله تعالى، حيث قال: **(وهو أرحم الرّاحمين)** أي إذ رحمتكم أنا وعفوت عنكم فهو يغفر لكم بالأولى، فإنّه أرحم منّي لأنّه أرحم الرّاحمين كلّهم، وهذا خلق الأنبياء والمرسلين، وهو العفو عند المقدرة والإحسان إلى من أساء، فما أجدر بنا نحن المسلمين أن نتخلق بهذا الخلق العظيم خلق القرآن وخلق سيّد المرسلين.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

مجمل المعنى: علم يوسف ما لقي أباه من الحزن، وأنّه عميت عيناه من أثر ذلك،

فاستعجل بمعالجته فسلّم قميصه لإخوته وقال: إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يرجع بصيراً، ويذهب عنه العمى ولا تتأخّروا بعد ذلك بل ارتحلوا وائتوني بأهلكم أجمعين، لنسكن مصر ونستوطنها ونعيش فيها أجمعين.

تفصيل المعنى: **(إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً)** كان في هذا القميص سرّ وهو أنّه يذهب به العمى عن يعقوب، فهل هذا السرّ كان خاصّاً بيعقوب أم لا ؟ وما هو ذلك السرّ؟ قال في كثير من التّفاسير: أنّه كان من كسوة الجنّة، فما ألقي على مبتلى إلّا عوفي، فيكون عامّاً، وقيل: إنّ من المسلّمات العمليّة أنّ بعض النّاس تعمى عيونهم نتيجة للصدّمات النّفسية الحادّة، ويرجع البصر إليهم بصدمات عكسيّة، فسيّدنا **يعقوب** أصابه العمى بفقدان يوسف (عليه السلام) ورجع إليه بصره حينما وجده، وقد ذكر مثل هذا القول الإمام فخر الدّين الرّازي في تفسيره، كما ذكر القول الأوّل، وكذا ذكره الخازن في تفسيره، **وعندي**: إنّ هذا القول ليس بوجيه، حيث لو كان الأمر كذلك لم يكن لإرسال القميص وجه، لأنّ مجرّد الإخبار بوجوده وحاله كان يكفي لحصول صدمة السّرور عند يعقوب (عليه السلام) ثمّ لا وجه لتخصيص قميص بالإرسال، فكلّ قميص كان يفيد ذلك، ولم يكن لقميص خاصّ دخل في الموضوع كما يفيده الإشارة بقوله: **(إذهبوا بقميصي هذا)** لأنّ معناه إذهبوا بهذا لا بغيره، ثمّ ما هو الدّاعي لإلقائه على وجهه إن لم يكن له خاصيّة، أما كان يكفي أن يأخذه فيلمسه ويشمّه. فكل ذلك يدلّ على أنّه كان في القميص سرّ. وإن فسّرت بأنّه كان فيه مادّة كيمياويّة تذهب بالعمى أو بنوع خاص منها فلك ذلك، إن لم تصطدم مع رواية من الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، قال الإمام الرازي في تفسيره، روى الواحدي باسناده عن أنس ابن مالك عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنّه قال، أمّا قوله **(اذهبوا بقميصي هذا وألقوه على وجه أبي يأت بصيراً)** فانّ نمرود الجبّار لمّا ألقي ابراهيم في النّار نزل عليه جبريل (عليه السلام) بقميص من الجنّة وطنفسة من الجنّة، فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدّثه. فكسا إبراهيم (عليه السلام) ذلك القميص إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف (عليه السلام)، فجعله في قصبة من فضّة وعلّقها في عنقه، فالقى في الجبّ والقميص في عنقه، فذلك قوله **(إذهبوا بقميصي هذا)** وذكر الخازن مثل هذا عن مجاهد، فإن صحت هذه الرّواية فلا يمكن العدول عنها، وإلّا فلا داعي أيضاً للهرب من التّفاسير الرّوحية إلى تفاسير ماديّة، سيّما وأنّ عصرهم كان عصر خوارق العادات،هذا، والله تعالى أعلم. **(وائتوني بأهلكم)** أي ذريّة يعقوب **(أجمعين)** لنسكن مصر فإنّها أحسن من بلادنا ومن كثير من البلاد، قال الشّاعر في مدح مصر:

ما مصر إلّا بلدة مستحسن فاستوطنوها مشرقاً ومغرباً

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾

مجمل المعنى: أخذت الإخوة القميص وتحرّكوا نحو مقرّهم، ولمّا جاوزت قافلتهم سور مصر قال يعقوب لبني بنيه ومن عنده وهو جالس في بيته: إنّي لأشتمّ ريح يوسف لولا أن تفنّدوني وتنسبوا كلامي إلى السّفه لصدّقتموني في ذلك، قالوا أي أحفاده وأهله: تالله إنّك لفي خطئك القديم حيث تعتقد أنّ يوسف حيّ وقد أكله الذّئب بشهادة أبنائك كلّهم أفلا تصدّقهم إن هذا إلّا خطأ واضح وما زلت فيه إلى الآن.

تفصيل المعنى: **(ولما فصلت العير)** العير الإبل والمراد بها القافلة، ومفعول فصلت محذوف تقديره سور مصر **(قال أبوهم)** الضّمير راجع إلى الإخوة المفهوم من السّياق **(إنّي لأجد)** أي لأشمّ ريح يوسف **(لولا أن تفنّدون)** بكسر النّون لأنّ أصله لولا أن تفنّدونني ذهبت نون الجمع بالنّصب بأن فبقي تفنّدوني، حذفت الياء للإختصار فبقي تفنّدونِ بكسر النّون **(قالوا)** الضّمير راجع لمن في البيت وهو أحفاده بقرينة المقام والسّياق **(تالله إنّك لفي ضلالك القديم)** أي لا زلت في خطئك القديم، وهو أنّ يوسف حيّ، حيث كأنّهم كانوا يعتقدون أنّ يوسف أكله الذّئب اعتماداً على قول آبائهم، ولكنّ يعقوب كان يعلم غير ذلك من أنّ يوسف حيّ وأنّ الوصال حتماً يكون، ولكن متى وأين؟ وهذا كان يحزنه، فإنّ الفراق مرّ والإنتظار أشدّ مرارة.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

مجمل المعنى: ولمّا جاء البشير وبشّر بأنّ يوسف حيّ وهو عزيز مصر الآن، وقد اجتمع مع إخوته على مائدة المحبّة والوئام، وألقى القميص على وجه سيّدنا يعقوب، فارتدّ ورجع بصيراً، فله رؤية تامّة ونظر صحيح، إلتفت إلى من حوله من أبنائه وأبنائهم، وقال: ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون بأنّ يوسف حيّ ولم يأكله الذّئب، وإنّ الوصال يكون حتماً قريباً أو بعيداً.

تفصيل المعنى: **(فلمّا أن جاء البشير)** مفعول جاء محذوف تقديره جاء يعقوب

(ألقاه) الضّمير راجع للقميص المعلوم من السّياق **(على وجهه)** الضّمير ليعقوب لأنّه مفهوم من المقام **(فارتدّ بصيراً)** الفاء في (فارتدّ) للتّفريع على ألقاه أي فارتدّ بصيراً بعد الإلقاء مباشرة، وألقاه جواب لمّا، وقوله: قال إنّي أعلم جواب آخر (للمّا) ويجوز تعدّد الأجوبة (للمّا) بعطف وبدون عطف كالخبر؛ فإنّه يقال زيد عالم فاضل وذكيّ وغنيّ وصالح، قال لأبنائه وأبنائهم تنديماً لهم وتخطئة وعتاباً: **(ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله)** أي من أمور الله ومقاديره ما لا تعلمونه، أو أعلم علماً حاصلاً لي من الله بما لا تعلمونه أنتم، وهو أنّ يوسف حيّ وأنّ الاجتماع سيكون بإذن الله تعالى.

لطيفة: قيل ليعقوب:

شممت ريحه في مصر هلا   شممت ريحه في بئر كنعان؟

فأجاب:

لنا وقت نرى فوق السّماء   ووقت نحن فيه مثل عميان

إذا ما الله لم يظهر لعبده   فما أُذن وما قلب وعينان

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾

مجمل المعنى: إستولى الخجل والنّدامة على الإخوة مرةً أخرى ولم ينفعهم، إلى أن قالوا: يا أبانا إستغفر لنا من الله تعالى **(ذنوبنا)** ومن ضمنه طلبوا أن يعفو عنهم هو أيضاً وإعترفوا بذنبهم فقالوا: **(إنّا كنّا خاطئين)** مذنبين تجاهك وتجاه يوسف وتجاه الله تعالى.

تفصيل المعنى: **(قالوا يا أبانا استغفر لنا)** لم يقولوا: اعف عنّا أنت، واستغفر لنا الله تعالى وإن كان حقّ النّاس مقدّماً على حقّ الله تعالى، ولذلك قدّم يوسف عفوه قال: لا تثريب عليكم اليوم، ثمّ قال: يغفر الله لكم، إمّا لأنّ قولهم استغفر لنا يتضمّن ذلك، لأنّ الإنسان لا يستغفر الله لأحد من حقّه إلّا بعد أن يعفو هو عنه، فطلبوا أمرين بلفظ واحد، أو لعلمهم بأنّ أباهم يعفو عنهم، لأنّ حنان الأبوّة الّذي رأوا منه دلّهم على ذلك، أو لأنّهم استحبّوا أن يواجهوا أباهم بهذا الطّلب صراحة لكثرة ما آذوه بسبب يوسف، فلذا طلبوا منه ضمناً لا صراحة و **(قالوا استغفر لنا ذنوبنا)** صيغة جمع الذّنوب تدلّ على الكثرة، لأنّهم أفقدوا يوسف ﷺ، وكثيراً ما كانوا يؤنّبون أباهم حينما يذكر

يوسف، أو لأنّ نفس إبعاد يوسف بهذا النّوع، وإن كان ذنباً واحداً فهو بمثابة الذّنوب الكثيرة، أو لأنّ ظلم الأقارب يضاعف كما أنّ الإحسان إليهم يضاعف لوجود الرّحم بينهم وقطعها بالظّلم. إنّا كنّا خاطئين مذنبين بما قمنا به، فالآن مقام التّوبة وإنّ الله لا يردّ التّوبة حتّى تطلع الشّمس من مغربها أو ما لم يغرغر التّائب حين يتوب.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

مجمل المعنى: لم يستعجل أبوهم بالاستغفار لهم بل سوّف الأمر إلى حين فقال: سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الّذي يغفر لعباده، الرّحيم الّذي يرحم فيغفر لأنّه يرحم لا لأمر آخر.

تفصيل المعنى: **(سوف أستغفر لكم ربّي)** قيل: سوفه لوقت الصّبح، لأنّ الدّعاء فيه أقرب إلى الاستجابة. وقيل: إلى يوم الجمعة، لأنّ الدّعاء فيه مستجاب، وأقول: ليس ببعيد أنّ تسويفه كان لأجل أن يرى رأي يوسف في ذلك ولم يرق له أن يستغفر لهم بدون علمه، وإذنه له **(إنّه هو الغفور)** كثير المغفرة. ولا أحد يغفر الذّنوب إلّا هو، لا كما يعتقد بعض المذاهب والملل حيث يذهبون إلى رؤسائهم الدّينيّين فيعترفون بذنوبهم فيغفر لهم الرّؤساء. فإنّ ذلك شرك ظاهر وكفر واضح؛ لأنّ الذّنب ذنب مع الله لا مع غيره، ولا حقّ لأحد في المغفرة **(الرّحيم)** وافر الرّحمة وبرحمته هذه يغفر لعباده لا لحاجته إليهم، ولا لأيّ أمر آخر سوى مجرّد الرّحمة منه، وإنّه أرحم الرّاحمين. لا كما يزعم بعض المذاهب بأنّ المغفرة واجبة عليه تعالى بالتّوبة، ولا يجوز له ذلك بدون التّوبة فإنّ ذلك حكم على الله تعالى والحكم على الله جهل.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

مجمل المعنى: ارتحل يعقوب مع ذريته ووصلوا مصر فلمّا دخلوا على يوسف ضمّ إليه أبويه وقبلهما وقال: ادخلوا مصر إن شاء الله أو استوطنوها إن شاء الله تعالى آمنين من الخوف والجوع ومن الملك، لأنّه كان لا يرضى أن يسكن مصر أحد إلّا بجوار ممّن يعتمد عليه.

تفصيل المعنى: **(فلمّا دخلوا على يوسف)** هنا حذف إيجاز تقديره كما قدّرنا

إرتحل يعقوب مع ذرّيته ووصلوا مصر، فلمّا دخلوا على يوسف **(آوى إليه أبويه)** أي ضمّهما وقبلهما **(وقال ادخلوا مصر)** ادخلوا مصر إمّا مجاز أريد به الإقامة والإستيطان، أو قال لهم: هذا القول خارج مصر لأنّه استقبلهم إلى مسافة خارج البلدة **(إن شاء الله)** يحتمل أن يكون إستثناء من ادخلوا مصر أو من قوله آمنين أو منهما معاً، حذف من أحدهما بقرينة الآخر وذلك في الكلام كثير.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

مجمل المعنى: ورفع أبويه وأجلسهما على سريره، وخرّوا أي وقع أبواه وبنوهما ليوسف ساجدين. وقال يوسف: يا أبت هذا الّذي رأيته تأويل رؤياي من قبل الّتي ذكرتها لك بقولي إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، قد جعلها ربّي اليوم حقّاً وواقعاً، وقد أحسن الله تعالى بي إذ أخرجني من السّجن وجاء بكم من طريق البادية سالمين دون أن يتعرّض لكم أحد، وجمع الله بيني وبين إخوتي من بعد أن دخل الشّيطان بيننا وكدّر بعض الصّفو منّا، إنّ ربّي لطيف خفي تدبيره لما يشاء، لا يدري به غيره ماذا يفعل، إنّه هو العليم الّذي يعلم كيف يدبّر الأمور، الحكيم الّذي لا يعمل عملاً إلّا وفيه حكمة باهرة وبحكمة وإتقان.

تفصيل المعنى: **(ورفع أبويه على العرش)** الألف واللام عوض عن المضاف إليه، أي على عرشه الّذي يجلس عليه، وهي عبارة عن تعظيمهما وإحترامهما، حيث كان لا يجلس أحداً على سريره وعرشه **(وخرّوا)** أي سقطوا على الأرض **(له)** ليوسف **(سجّداً)** ساجدين، فالسّجود هنا إن كان بمعنى الإنقياد فلا إشكال، وإن كان بمعنى السّجود الإصطلاحي، فقد أوقع المفسّرون فيه إشكالاً. قالوا: كيف جاز لهم أن يسجدوا له؟ وكيف جاز لسيّدنا يوسف أن يقبل أن يسجد له أبويه؟ وإنّ أباه فضلاً عن الأبوة أكبر منه في النّبوة؟ وذكروا لذلك أجوبة: فذكر في الجلالين أنّه كان مجرد إنحناء وكان ذلك تحيّتهم، ولكن يردّ هذا أنّ الله تعالى قال: وخرّوا لأنّ معناه وقعوا على الأرض، فإنّ

الإنحناء لا خرور فيه، كما ويفيد أنّ المراد به السّجود الحقيقي لا الإنقياد فقط، وذكر بعضهم أنّ السّجدة كانت لله تعالى، وكان يوسف قبلتهم، وهذا بعيد في الفهم لأنّ هذا كان تعظيماً ليوسف، ولا تعظيم في ذلك سيّما وقد قال يوسف: يا أبت هذا تأويل رؤياي، والرّؤيا كانت أن رأى أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر ساجدين له، والتّعجب كان من الرّؤيا من السّجدة له لا إليه، وذكروا أجوبة أخرى كلّها لا يزيد في القلب إلّا ظمأً ولا يشفي من الغليل شيئاً، والحقّ هو أنّ الجواز وعدم الجواز والحرمة والوجوب كلّها مربوط بأمر الله تعالى ونهيه، فإذا أوجب شيئاً وجب، وإذا حرّمه حرم، فلا يوجد واجب لذاته ولا حرام لذاته، بل الحرام يصير واجباً بأمر الله تعلى والواجب يصير حراماً بنهيه عنه، ونه ذلك، فإنّه مختار في التّكليف كما هو مختار في التّكوين، فسجود أبوي يوسف وإخوته له كان بأمر الله تعالى فصار واجباً لا حراماً، وأمثلة ذلك كثيرة، أليس ذبح الولد حراماً ولكنّ عزم إبراهيم على ذبح إسماعيل (عليه السلام) حيث وجب عليه بأمر الله تعالى له بذلك، ألم يكن قتل النّفس حراماً لأنّ الله تعالى أمر به فصار واجباً لا حراماً، وكذلك قتل صاحب موسى غلاماً زكيّاً بدون نفس لم يكن له حراماً؛ لانّ الله تعالى أمر به فصار واجباً، إلى غير ذلك من الأمثلة يطول ذكرها، أو يقال إنّ السّجدة لغير الله تعالى كانت حلالاً في شريعتهم، كتحيّة يحيى بها المرء من يحترمه ويبالغ في تقديره، فاندفع الإشكال من أصله **(وقال يا أبت)** وقال يوسف لأبيه بعد ما رأى سجودهم له: **(يا أبت هذا)** أي ما قمتم به **(تأويل رؤياي من قبل)** الّتي ذكرتها لك بقولي إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين **(قد جعلها ربّي حقاً)** واقعاً وثابتاً كما رأيت **(وقد أحسن بي)** ربّي **(إذ أخرجني من السّجن وجاء بكم من البدو)** فسّر بعضهم من البدو فقالوا: كان يعقوب (عليه السلام) يسكن البادية ويرعى المواشي والأغنام، ولكنّ هذا التّفسير يناقض قوله تعالى الّذي يأتي في هذه السّورة إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ سورة يوسف الآية/ ١٠٩. فإنّه ينصّ على أنّ الرّسل كلّهم كانوا يسكنون القرى والحضر لا البادية والقرى والصّحراء، فلا بدّ أن يقال: إنّ أهل مصر كانوا يقولون لغير مصر من بلاد فلسطين وقراها البدو، أو يقال معناه: وجاء بكم من طريق البدو، ووصلتم إلينا سالمين دون أن يتعرّض لكم أحد، لأنّ الزّمان كان زمان السّلب والنّهب **(من بعد أن نزغ الشّيطان بيني وبين إخوتي)** نسب ما وقع بينهم إلى الشّيطان كي لا يتكدّر قلبهم وكأنّهم لم يفعلوا شيئاً وإنّما فعُل فهو من الشّيطان لا منهم **(إنّ ربّي لطيف)** تدبيره لما يشاء لا

يدري به أحد (**إنّه هو العليم**) الّذي يعلم كيف ينفّذ أمره وينجز تقديره (**الحكيم**) الّذي لا يعمل شيئاً إلّا وفيه حكمة باهرة، وبهذا سلّى إخوته أيضاً؛ حيث أشار إلى أنّ ما عملوا في حقّه كان فيه حكمة باهرة ونتيجة حسنة؛ إذ أصبح عزيز مصر من وراء ذلك، فكان عملهم هذا إحساناً إليه لا إساءة في الحقيقة والواقع، ولكنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾

مجمل المعنى: ثمّ توجّه يوسف (عليه السلام) إلى الله تعالى بالشّكر على نعمه التّي أسبغ عليه في الدّنيا وتضرّع إليه، لأنّ يحقّه برحمته في الآخرة. وقال ربّ قد أعطيتني من الملك كثيراً وعلّمتني من تأويل الأحاديث ما تحمد عليه وتشكر يا خالق السّماوات والأرض. أنت صاحبي وناصري في الدّنيا والآخرة، وبيدك كلّ أموري، توفّني أمتني مسلماً وألحقني واحشرني يوم القيامة في زمرة الصّالحين واجعلني منهم.

تفصيل المعنى: (**ربّ قد آتيتني من الملك**) من للتّبعيض لأنّه آتاه بعض الملك لا كلّه، وقال: آتيتني أي سلمتني دون أعطيتني لأنّ الإعطاء بمعنى التّمليك، وليس شيء ممّا في يد الإنسان ملكاً له، بل إنّما هو أمانة من الله تعالى عنده، يأخذها متى شاء ويبقيها إن شاء، ولله درّ من قال:

وما المال والأهلون إلّا وديعة فلا بد يوماً أن تردّ الودائع.

(**وعلّمتني من تأويل الأحاديث**) من للتّبعيض أيضاً لأنّه (**وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً**) ، (**فاطر السّموات والأرض**) الفطر بمعنى الشّق أي شقّ العدم وأخرجهما منه (**أنت وليّي**) صاحبي وبيدك توليتي وزمام أموري كلّها (**في الدّنيا والآخرة**).

ثمّ لما شكر الله تعالى على نعم الدّنيا واعترف بها توجّه إليه ليحقّه بنعم الآخرة أيضاً، فقال: (**توفّني مسلماً**) أي حينما توفّيتني فتوفّني مسلماً، وليس دعاء للوفاة كما زعم البعض من أنّه دعا للوفاة فتوفّى، لأنّه عاش بعد هذا الدّعاء مع أبويه وإخوته أعواماً كثيرة (**وألحقني بالصّالحين**) أي اجمعني معهم يوم القيامة في جنّاتك النّعيم، وفي هذه الآية دليل على وحدة الأديان في أصولها ومقاصدها وإن اختلفت في بعض فروعها

حسب الأزمان والأحوال، وذلك الدّين هو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩. أللّهم توفّني مسلماً واحشرني في زمرة المسلمين برحمتك يا أرحم الرّاحمين آمين.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

مجمل المعنى: ذلك النبأ الّذي أنبأناك وأخبرناك به من ما جرى بين يوسف وإخوته وما آل إليه أمرهم، هو من الأنباء الّتي غابت عنك وعن قومك؛ حيث لم تكن لتقرأ الكتب ولم تخرج إلى البلاد والأسفار لتطلّع على مثل هذه الأخبار، وما كنت حاضراً لدى إخوة يوسف إذ وحّدوا كلمتهم في حقّ يوسف وهم يمكرون ليجعلوا يوسف في الجبّ ويتركوه للهلاك. وكيف يقنعون أباهم بأنّ يوسف أكله الذّئب وهم عنه غافلون.

تفصيل المعنى: **(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك)** هذه الآية تلفت أنظار النّاس إلى ما في هذه السّورة من المعجزة الّتي حصلت لرسول الله (ﷺ) حيث أخبر عمّا جرى بين يوسف وإخوته وما صار إليه النّتيجة كما هو في التّوارة غير المحرّفة والكتب السّابقة، وكيف ما وقع وهو أمّي لم يعلم بالكتب والرّوايات، وكانت أمثال هذه الأمور غائبة عنه وعن أهل بلدته، فعلمه بهذا ليس إلّا من وحي من الله تعالى يقول تعالى: **(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك)** حيث لم تطّلع على هذه القصّة في الكتب **(وما كنت لديهم)** أي عند إخوة يوسف **(وهم يمكرون)** أي حينما يمكرون ويدبّرون لإلقاء يوسف في الجبّ وإقناع أبيهم بأنّ الذّئب أكله. فمن أين علمت هذا يا محمّد إن لم يكن وحياً من عند الله تعالى، فاشهدوا بأنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسول الله (ﷺ).

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

مجمل المعنى: أي لقد أظهرنا لك يا محمّد هذه المعجزات، فكان من واجبهم أن يؤمنوا ومع ذلك لم يؤمنوا فتبيّن أنّه **(وما أكثر النّاس ولو حرصت)** على إيمانهم وأظهرت لهم كلّ المعجزات لا يؤمنون لخبث طويّتهم وسوء نيّتهم وحسدهم على ما أنعم الله تعالى به عليك.

تفصيل المعنى: **(وما أكثر النّاس)** إنّ الله تعالى يسلّي رسوله ويوصيه بأن لا يحزن على كفر من كفر ولا يتعب وراء القوم أكثر ممّا نريد من التّبليغ الصّريح والثّبات على الدّعوة، فلا حاجة إلى هذا الحرص على إيمانهم، فإنّ الشّأن وما أكثرهم **(ولو حرصت)** على إيمانهم **(بمؤمنين)** لو هنا ليس للشّرط لأنّه لو كان للشّرط لدلّ على إمتناع الجزاء لإمتناع الشّرط فيدل على إمتناع وجود حرصه (ﷺ) على إيمانهم، والأمر كان بالعكس، فإنّ حرصه عليهم كان يتعبه، فأراد الله تعالى أن يخفّف من حرصه فقال: **(وما أكثرهم ولو حرصت بمؤمنين)**. فلا داعي لهذا الحرص ففوّض الأمر إلى الله تعالى وليس عليك إلّا التّبليغ، فمن آمن فنعم وإلّا فلا تحرص عليهم. فمعنى (لو) هنا الدّلالة على تحقّق الجزاء على جميع التّقادير، أي سواء وجد الشّرط أم لا، فالمعنى: وما أكثرهم حرصت أم لم تحرص بمؤمنين. ومثل هذا القول قوله (ﷺ): (نعم العبد صهيب، لو لم يخف الله لم يعصه)[1] أي لا يعصيه خاف الله أو لم يخفه، ومثل هذا الكلام كثير، وقد مرّ هذا التّحقيق في قوله تعالى: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين﴾.

﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

مجمل المعنى: وما تطلب منهم على هذا التّبليغ والدّعوة إلى اتباع القرآن من أي أجر وثمن لقاء ذلك حتّى يكون ذلك الثّمن سبباً لتثاقلهم وتخلّفهم عن الإيمان والإتّباع، فلا أجر ولا ثمن على التّبليغ، وليس ما تبلغه من ما يدعو إليه القرآن إلّا ذكر وتنبيه للعالمين على أمور هي معلومة لدى عقولهم ومسلّمة عندهم لو صرفوا عقولهم واستعملوا على الطّريق الصّحيح.

تفصيل المعنى: **(وما تسألهم عليه من أجر)** الضّمير في تسألهم راجع للأكثر من وما أكثرهم، أي وما تسأل الكافرين **(عليه)** الضّمير راجع إلى التّبليغ المستفاد من السّياق، أو إلى القرآن المعلوم من الكلام، فالمعنى ما تسأل وتطلب الكافرين على التّبليغ أو على القرآن واتّباعه من أجر أو ثمن مقابل ذلك **(إن هو)** ليس تبليغك أو القرآن **(إلّا ذكر للعالمين)** تذكير وتنبيه على ما ركّز في قلوب النّاس كلّهم من الإيمان بالله تعالى وتوحيده والقيام بما يأمر به القرآن، فإنّ كلّ هذه الأشياء موافقة لفطرة

---

(١) كنز العمال ١٣/ ١٨٩.

الإنسان وتوجد الدّلائل عليها من قبل العقل السّليم، بحيث لو استعمل أي إنسان عقله استعمالاً صحيحاً لاعترف بذلك وآمن به، فلم يبق حاجة الإنسان إلّا إلى التّذكير والتّنبيه على ما ركّز في فطرته وما هو مسلّم عند عقله، حيث غفل عنها بتقاليد أو عادات توارثها، أو لشهوات حجبت على عقله، فنسي ما هو مقتضى فطرته ومسلّم عند عقله، فأرسل الله تعالى الرّسل لذلك التّنبيه والتّذكير، فلم يأت الرّسل بشيء غريب عن الإنسان وبعيد عن عقله السّليم، ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون إمّا لغلبة التّقاليد والعادات والوراثة عليهم، أو لإستكبارهم وإستنكافهم عن اتّباع الغير أو لمصالح يخافون عليها إن آمنوا، أو لعدم قيمهم بالتّدبير والتّفكير الصّحيح وتقليدهم الأعمى في الأمور، فلا يخلو المعاند عن سبب من هذه الأسباب والله أعلم بالصّواب. وفي هذه الآية دليل على أنّ دعوة الإسلام عامّة للعالم كلّه وليست مختصّة بقوم دون قوم ولا ملكاً لناس دون آخرين، بل هي عقيدة. فمن أخذ بها فهي له من كان؟ وأين كان؟ ومن لا فهو من الضّالين كيف كان حاله ونسبه وشخصيّته. فالجنّة لمن أطاعه ولو عبداً حبشياً والنّار لمن عصاه ولو شريفاً قريشيّاً، فهذا مبدأ الإسلام النّاس متساوون في الحقوق والوجبات ﴿وإنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ سورة الحجرات الآية/١٣ ـ فمن أين لك مبدأ كهذا، ولكنّ أكثر النّاس لا يعرفون ما هو الإسلام، وما ذلك إلّا لجهل الموجّهين أو سوء توجيههم، فهدانا الله تعالى أجمعين.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

مجمل المعنى: ليس الدّليل على صدق دعوتك يا محمّد محصوراً فيما تأتي لهم بالمعجزات، بل كثير من الآيات الكونيّة الدّالة على صدقك في الدّعوة إلى الله تعالى وتوحيده موجودة في السّموات والأرض، يعيشون معها ليل نهار، ومحيطة بهم، ويمرّون عليها ويدركونها وهم عنها معرضون لا يستندون إليها أو لا يفكرون فيها أصلاً، لسوء نيّتهم وخبث طويّتهم أو لجهلهم أو لإستكبارهم عن الحقّ واتّباع أهله.

تفصيل المعنى: **(وكأين)** بمعنى كم ويدلّ على الكثرة أي وكثير **(من آية)** جنس أريد به الأفراد أي وكثيراً من الآيات **(في السّموات والأرض)** متعلّق بمقدر تقديره موجودة في السّموات والأرض **(يمرّون عليها)** يعيشون فيها وهي محيطة بهم ليل نهار لو تفكّروا فيها لاهتدوا إلى الإيمان بالله وتوحيده، ولكن **(وهم عنها معرضون)** الضّمير في عنها راجع إلى الآية، فالمعنى وهم عن التّفكر في الآيات معرضون لا يفكرون فيها،

فيكون دليلاً على أنّ التفكّر في معرفة الله واجب حيث لامهم لعدم التّفكر في الآيات ليهتدوا بها، واللّوم لا يكون إلّا على ترك واجب أو إرتكاب محرّم؛ فظهر أنّ ترك التفكّر حرام، وكلّ ما كان حراماً فضدّه واجب فالتّفكر واجب. أو المعنى: وهم عن العمل بمقتضاها معرضون من التّوحيد وتصديق ما جاء به الرّسول (ﷺ) فالأوّل: يفيد أنّهم كفروا عن جهل، والثّاني: يفيد أنّهم كفروا عن علم، ويحتمل أن يراد به الوجهان معاً، فالأوّل بالنّسبة لإتّباع المقلّدين فلا يتفكّرون في الدّلائل أبداً، والثّاني بالنّسبة للعلماء المضلّين الّذين لا يعملون موافقاً للأدلة ولا يتّبعونها وإن ظهرت لهم، وذلك حفظاً على رئاستهم ومصالحهم فيما هم فيه من الضّلال والتّضليل، والآيات الّتي يمرّون عليها هي كلّ ما في الكون، فإن كلّ ما في الكون من سموات ونجوم وشموس وأقمار وأراض ومياه وعيون وأنهار وجبال ووديان ونبات ودواب وأشجار وتراب وهواء ورمل ومعادن وأحجار لو تفكّر الإنسان فيه يكون دليلاً على الله تعالى وعلى وحدته قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه الواحد

قيل لأعرابي: بماذا تعرف الله تعالى؟ فقال: إذا دلّت البعرة على البعير، وأثر الأقدام على المسير، أفسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج لا تدلّان على اللّطيف الخبير، وإلى هذه الدّلائل كلّها يشير القرآن الكريم، وينبّه الإنسان عليها في مواضيع كثيرة، وما أكثر ذلك في سورة الرّعد والحجر والنّحل، وسيأتي بيانها إن شاء الله تعالى عند تفسيرها إذا وفّقني الله تعالى على ذلك، وإلّا فاقرأ هذه السّور وتدبّر فيها، فإنّ فيها شفاءاً لسقام العقول وزماماً لأهل النّكول.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

مجمل المعنى: أي ولعدم تفكّرهم في الآيات أو لعدم صحّة تفكّرهم أو لعدم الاعتماد والعمل بالآيات ما يؤمنون، وإن آمنوا فلا يؤمن أكثرهم إيماناً صحيحاً لأنّه وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون به غيره فيما يختص به من الألوهية أو الخلق أو التّأثير أو التّشريع أو الإنعام أو الإمداد المعنوي، وكلّ ذلك يقدح في صحّة الإيمان فلا إيمان صحيحاً إلّا إذا خلا من هذا الإشراك كلّه وأكثر النّاس لا يخلو إيمانهم عن هذا.

تفصيل المعنى: **(وما يؤمن أكثرهم)** الضّمير راجع إلى النّاس في قوله: **(وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين)** ذكر تعالى أولاً أنّ أكثر النّاس لا يؤمنون وإن أحاطت بهم

الآيات وأظهرت لهم المعجزات. ثمّ ذكر هنا أنّ أكثرهم وإن آمنوا فلا يؤمنون إيماناً صحيحاً حيث لا يؤمنون (**إلّا وأكثرهم مشركون**) في إيمانهم، وإنّ الإيمان مع الشّرك لا يعتدّ به، وصاحبه لا يعتبر مؤمناً فضلاً عن أن يكون مسلماً، وقد ذكرنا الشّرك وأقسامه في قوله تعالى (**ما تعبدون من دونه إلّا أسماءً سمّيتموها أنتم وآباؤكم**) فلا نعيد ذكره هنا، فارجع إليه وإنّ أكثر المؤمنين اليوم دخل فيهم أحد أقسام الشّرك، فالآية سارية المفعول في كلّ زمان، وهذا من إعجاز القرآن فإنّه ينطبق في كلّ وقت وفي كلّ مكان.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾

مجمل المعنى: بعدما ذكّرهم الله تعالى بالمعجزات الّتي أتى بها الرّسول (ﷺ) وبالآيات الكونية الّتي تدلّ على صدقه فيما جاء به وأصرّوا على الكفر وعدم الإيمان أنذرهم في صورة إستفهام جاء لإنكار ما هم عليه فقال: أفأمنوا وهم على هذا الحال مصرّون وعلى الكفر ثابتون وفي عقيدة الشّرك متوغّلون، أفأمنوا بعد هذا أن تأتيهم عقاب على ذلك بليّة من عذاب الله تغشاهم أو تأتيهم القيامة فجأةً، وهم غافلون لا يشعرون بمجيئها فلا حقّ لهم أن يأمنوا من ذلك وهم على ما هم عليه، فإنّ عذاب الله تعالى نازل بهم حتماً وبدون شكّ وإرتياب.

تفصيل المعنى: (**أفأمنوا**) إستفهام على سبيل الإنكار، وإنكار الإيجاب نفي، فالمعنى فلا يأمنوا وهم على هذا الحال من عدم الإيمان أو الإيمان المخلوط بالشّرك (**أن تأتيهم غاشية**) هي البليّة الّتي تغشى النّاس وتعمّهم (**من عذاب الله**) متعلّق بمحذوف تقديره غاشية ناشئة من عذاب الله لهم، أو من للبيان فتكون متعلّقة بكائنة (**أو تأتيهم السّاعة**) المراد بها السّاعة الكبرى وهي القيامة واليوم الآخر أو السّاعة الصّغرى وهو يوم هلاكهم، فإنّ لكلّ قوم ساعة معيّنة لهلاكهم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٣٤. (**بغتةً**) من بغت الأمر أي فاجأ وأتى بدون ترقّب ومقدّمات (**وهم لا يشعرون**) مفعوله محذوف تقديره وهم لا يشعرون بمجيئها فيكون تأكيداً لقوله: (**بغتةً**) أو عطف بيان لها وقد جاءهم ذلك في حرب بدر، وهكذا لابدّ من يوم لكلّ جيل منحرف عن منهج الله تعالى ودينه والعمل بنظامه وشريعته، يلاقون فيه عصارة إنحرافهم وعقاب تعنّتهم أسوة بمن مضى قبلهم، وهذه سنّة الله في عباده ولن تجد لسنّة

الله تبديلاً. فليعتبر بذلك من له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾

مجمل المعنى: أي صارحهم بعقيدتك وبيّن لهم حقيقة دعوتك، ولا تبال بإنكارهم ولا يهمّك أراجيفهم، وقل هذه الدّعوة طريقتي وإنّي أدعو إلى الإيمان بالله وحده والإتّباع لشريعته، وأنا على بصيرة وعلم ويقين بحقيّة ما أدعو إليه ومن اتّبعني هو على هذه البصيرة والعقيدة واليقين أيضاً، وتنزّه الله تعالى عن كلّ شريك وما أنا من الّذين يشركون بالله تعالى شيئاً لا في تكوين ولا في تكليف ولا عبادة ولا تقديس.

تفصيل المعنى: **(قل هذه)** إشارة إلى ما يرون منه من الدّعوة أي قل هذه الطّريقة والدّعوة الّتي ترونها من **(سبيلي)** أسير عليها مدى الحياة، ولا أنحرف عنها، أمر بأن يقول هذا ويصارحهم به؛ لكي لا يبقي منهم طمع فيه في أن يرجع إلى مذهبهم وطريقتهم، فإنّهم كانوا لا يزالون يحاولون لإرجاعه إلى ملّتهم ويغرونه بالملك والمال والنّساء ويخوّفونه بسلطانهم فصارحهم بهذا، والسّبيل الطّريق سمّي الدّين سبيلاً؛ لأنّه يؤدّي بالإنسان إلى منزل الآخرة من الجنّة أو النّار، كما أنّ الطّريق يؤدّي به إلى منازل الدّنيا ثمّ صرّح بكيفية الدّعوة فقال: **(أدعو إلى الله)** أي أدعو النّاس إلى الإيمان بالله والعمل بأحكامه والحياة وفق نظامه **(على بصيرة)** وإنّ هذه الدّعوة قائمة على يقين في حقّيّته وإيمان بوجوب اتّباعها، ولا يشوبه الشّك ولا الإرتياب أنا ومن اتبعني على هذه البصيرة ندعو هذه الدّعوة **(وسبحان)** مصدر من سبح، وهو بمعنى المشي على الماء، ثمّ استعمل لشدّة السّير وسرعته؛ لأنّ السّابح يسرع في المشي، قال الشاعر:

وتصعدني من غمرة بعد غمرة   سبوح لها منها عليها شواهد

أي فرس شديد العدو كالسّبوح، ثمّ استعمل للإبتعاد لأنّ من أسرع في المشي ابتعد، ثمّ استعمل في التّنزه فإنّ من ابتعد عن شيء تنزّه عنه، فسبحان هنا بمعنى التّنزه أي أنّ التّنزه لله تعالى عن كلّ ما هو نقص وعن الشّريك خاصّة فلا شريك له **(وما أنا من المشركين)** فلا أشرك بالله أحداً في أيّ صفة تختصّ به. وفي هذه الآية إشارة إلى وجوب المصارحة بالدّعوة في الإسلام، لا كأصحاب المبادئ الأخرى يأتون بشعارات برّاقة للأمّة وبمسلّمات من المجتمع، فيجعلون ذلك شبكة يصيدون بها البسطاء، ووراء

ذلك أمور تشمئزّ منها العقول لو صارحوهم بها أوّلاً لما استجاب لهم أحد ولما انزلق النّاس في مستنقعهم المستور ومصيدتهم المنصوبة، وفيها إشارة أيضاً إلى أنّ الدّاعي يجب أن يكون على بصيرة ممّا يدعو إليه وعلم ويقين به، ففي ذلك نجاح الدّعوة وثوابها الجزيل من الله، وفيها إشارة أيضاً إلى أنّ من عمل شيئاً ممّا فيه شائبة الشّرك فليس من أتباعه، بل هو بريء منه، وإلى أنّ أتباعه يجب أن يكون كلّهم دعاة، فليست الدّعوة وقفاً على جماعة، بل كلّ مسلم يجب عليه أن يدعو إلى الإسلام بشرط الفهم الصّحيح له والتّفهم، وكونه على بصيرة منه وبقدر ما يستطيع أن يدعو، قال (ﷺ): (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فلينكره بقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1] وقال تعالى: ﴿والعصر* إنّ الإنسان لفي خسر * إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصّبر﴾ فالتّواصي بالحقّ والتّواصي بالصّبر هو الدّعوة، وهو واجب كلّ مسلم لا بعضهم وبقدر إمكانهم وفهمهم في الدّين، فلا يجوز الدّعوة من الجاهل لأنّ من لا يعرف الحقّ كيف يهدي إليه وكيف يقود النّاس أعمى، وما أفسد الدّين إلّا الدّعاة الجهلة والّذين انتصبوا للدّعوة حسب الوراثة والنّسب وهم عن العلم مفلسون وللهوى تابعون فضلّوا وأضلّوا كثيراً، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

مجمل المعنى: كان بعض المشركين يستنكفون من اتّباع رجل منهم وبشر مثلهم، ويقترحون أن يرسل إليهم ملك، فردّ الله تعالى عليهم فقال: (**وما أرسلنا من قبلك**) يا محمّد (**إلّا رجالاً**) ولم نجعل من عادتنا أن نرسل لتبليغ البشر الدّين والشّرائع ملكاً من الملائكة، بل نرسل إليهم بشراً لوجود الألفة بين المرسل والمرسل إليهم وسهولة التّفاهم بينهم، ونرسل رجالاً لا نساءً نوحي إليهم بأوامرنا وتكاليفنا (**من أهل القرى**) لا البادية (**أفلم يسيروا في الأرض**) ويتجوّلوا فيها (**فينظروا**) ويتدبّروا (**كيف كان عاقبة الّذين من**

(١) صحيح مسلم ١/٦٩ الحديث رقم ٤٩.

قبلهم) وذلك بأن أهلك الكافرون بالرّسل وانتصر المؤمنون، وليس جزاء وثواب المؤمنين محصوراً في الدّنيا بل **(ولدار الآخرة خير)** من حيث الأجر والثّواب من دار الدّنيا وأعدّت تلك الدّار وثوابها **(للّذين اتّقوا)** تكذيب الرّسل **(أفلا تعقلون)** يا أهل مكّة فتعتبروا بمن قبلكم فتؤمنوا ولا تكفروا، لكي لا يصيبكم ما أصاب الأوّلين من الأمم من الهلاك في الدّنيا والعذاب الدائم في الآخرة. هذا وأنّه وإن كان مورد الخطاب أهل مكّة إلّا أنّه يعمّ الخطاب النّاس أجمعين إلى يوم القيامة.

تفصيل المعنى: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً) أي بشراً لا ملائكةً لأنّه لا يمكن التّفاهم والتّجاوب بين البشر والملائكة إلّا لمن أعطاه الله تعالى قوّة ذلك من النّبيين، ولا يكون كلّ إنسان نبيّاً ولو أرسلوا في صورة البشر لالتبس عليهم ولاعترضوا عليهم نفس الإعتراض وهو: لماذا لم ينزّل ملائكة؟ فلذلك أرسل الله تعالى البشر إلى البشر لسهولة التّفاهم والتّرابط بينهم، ولم يرسل من البشر إلّا رجالاً لا نساءً؛ لأنّ النّساء حسب خلقتهن لا يصلحن للرّسالة ولا يستطعن أن يتحمّلن عبئها؛ وذلك لإبتلائهن بالحيض والنّفاس؛ وإشتغالهنّ بالحمل والوضع والرّضاع وتربية الأولاد وغير ذلك ممّا ذكروه من الأسباب، ولعمري أنّ تعليل أمور الله تعالى بالعلل والأسباب إنّما هو لإقناع ضعاف الإيمان وإلّا فمن آمن بالله كحاكم مختار يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ويتصرّف في ملكه كيف يشاء لا يقول في أمور الله تعالى: لم؟ ولا يحاول إستخراج العلل لذلك؛ لأنّ هذه الطّريقة طريقة الفلاسفة الّذين لا يرون لله تعالى اختياراً، بل يجعلون للأسباب بعثاً لله تعالى على أفعاله وخلقه، وذلك جهل عظيم لأنّ الأسباب من أين؟ حتّى تبعث الله على فعله، فإنّه هو الّذي يخلق الأسباب والمسبّبات، فإن أراد غير الأسباب وغير المسبّبات أو خلق المسبّب بدون الأسباب لفعل، ففي مثل هذه الأمور يقول المؤمن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وهو الّذي يختار ما يشاء لما يشاء بيده الأمر كلّه وهو على كلّ شيء قدير **(نوحي إليهم من أهل القرى)** لا من أهل البوادي، فإنّ طبعهم جبلت على الخشونة والجفاء والشّدة، بخلاف أهل القرى فإنّهم ألين طبعاً وأنعم فطرةً وأكثر تحملاً وصبراً وألطف كلاماً، وبذلك هم يستطيعون أداء الرّسالة وتحمّل أعبائها دون البدوي الّذي لا يعرف إلّا القوّة والشّدّة والقسوة والجفاء، وهنا أيضاً نقول ما قلنا في: (إلّا رجالاً) ذلك تقدير العزيز العليم، حيث لو أراد الله أن يرسل منهم للّين طبعهم ووسّع صدرهم ولطف كلامهم وأعطاهم ماهو من مقتضيات الرّسالة ولكنّ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فلا إعتراض في أفعاله وليس للعبد أن

يقول: لم؟ في خلقه وأعماله (**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم**)، ليروا هل أرسل ملك إلى أمّة؟ كلّا، بل أرسلنا إليهم بشراً فينظروا كيف كان عاقبتهم حينما كذّبوا رسلهم من الهلاك والدّمار، وكيف كان عاقبة من آمن بهم واتّبعهم من النّصر والتّوفيق والعزّ والسّعادة في الدّنيا، وليس أجرهم محصوراً على ما في الدّنيا بل فبعزّتي (**ولأجر الآخرة خير للّذين اتّقوا**) تكذيب الرّسل والإنحراف عن منهجهم (**أفلا تعقلون**) أي أفبعد كلّ مارأيتم وسمعتم من أحوال الأمم لا تعقلون؟ فتعتبروا بهم فتؤمنوا لتفوزوا الفلاح والفوز في الدّارين ولا تكفروا فتخسروا سعادة الدّنيا والآخرة. وفي هذه الآية وعيد بالدّمار والهلاك لمن انحرف عن منهج سيّد المرسلين وابتعد عن شريعة محمّد خاتم النّبيين، ووعد للمؤمنين الّذين يتّبعون منهجه ويطبّقون شريعته بأنّ الله يثيبهم العزّ والنّصر في الدّنيا والسّعادة في حياة الدّنيا والآخرة إن استقاموا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾

مجمل المعنى: أي قد جاء الرّسل الأمم السّابقة فذكروهم وأرشدوهم إلى الطّريق الحقّ المستقيم. وبلّغوهم ما أنزل الله تعالى إليهم، فكفروا ولم يؤمنوا، وبقي الصّراع بينهم حتّى إذا يئس الرّسل من إيمانهم وظنّوا، أي تيقّن الرّسل أنّهم قد كذّبوا من قبل أمّتهم تكذيباً لم يبق معه أمل في إيمانهم، ففي ذلك الوقت جاءهم نصرنا، وأرسلنا على القوم عذاباً، فنجّي من نشاء من ذلك العذاب، وهم الأنبياء ومن اتبعهم، وأهلك الّذين كفروا بالرّسل وكذّبوهم ولا يردّ بأسنا أي عذابنا الشّديد عن القوم المجرمين الخارجين عن حدود الله تعالى والمنحرفين عن منهج الأنبياء والمرسلين، أي لا أحد يستطيع أن يدفع عنهم عذابنا إذا جاء.

تفصيل المعنى: (حتّى إذا استيأس الرّسل وظنّوا أنّهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين) قرئ كذّبوا بتشديد الذّال وكسرها وضمّ الكاف على صيغة الماضي المجهول، وفسّر على هذه القراءة بوجوه:

الأوّل: إنّ الرّسل جاؤوا أقوامهم فبلّغوهم وبشرّوهم وأنذروهم وأخبروهم بأنّهم إن لم يؤمنوا فإنّ العذاب سينزل بهم، فدام الصّراع بين الرّسل والكافرين حتّى إذا يئس الرّسل من إيمانهم وظنّوا، أي تيقّنوا، أنّهم كذّبهم قومهم الكافرون تكذيباً لا أمل بعده

في إيمانهم، ففي ذلك الوقت جاءهم نصرنا وأنزلنا العذاب، فنجّي من العذاب من نشاء وهم الرّسل والّذين آمنوا بهم، ولا يستطيع أحد أن يردّ عذابنا عن القوم المجرمين وهم الّذين أصرّوا على الكفر ومعاداة الرّسل وإيذائهم فأهلكوا جميعاً، وهذا المعنى صحيح لا غبار عليه أبداً.

الثّاني: حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّوا أنّهم قد كذبوا من قبل الكافرين في وعيدهم بالعذاب، جاءهم نصرنا في مثل هذا الوقت الحرج فنجّي.....إلخ، وهذا المعنى صحيح إلّا أنّه لا وجه في تقييد تكذيب الكافرين للرّسل في الوعيد بوقت اليأس، فإنّهم كذّبوهم أولاً وآخراً.

الثّالث: حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّوا أنّهم قد كذبوا من قبل المؤمنين بهم في وعدهم بالنّصر حيث تأخّر، ففي ذلك الوقت جاءهم نصرنا... إلخ، وهذا المعنى فيه أنّ هذا الظّنّ من خواصّ أمّتهم وهم صحابتهم المعاصرون لهم بعيد.

الرّابع: حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّوا أنّهم قد كذبوا من قبل الله تعالى في الوعد بالنّصر للمؤمنين والوعيد بالعذاب للكافرين، فلا يرسل الله تعالى عذاباً، ففي ذلك الوقت الضّيق جاءهم نصرنا، كما يقال في أضيق الوقت يأتي الله بالفرج، وهذا المعنى بعيد جدّاً لأنّ تكذيب الله تعالى رسله في الوعيد بالعذاب لمن كفر وإن كان جائزاً بناءً على أنّ الخلق في الوعيد فضل وجائز، ولكنّ في الوعد فلا، كما يقول الشّاعر:

وإنّي وإن أوعدتهم أو وعدتهم لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

إلّا أنّ ذلك بعيد، وظنّ الرّسل هذا لا يكون سيّما وإنّ هذا فيه إخلاف الوعد بالنّصر للمؤمنين وإخلاف الوعد محال على الله تعالى.

الخامس: حتّى إذا استيأس الرّسل من نصر المؤمنين وتعذيب الكافرين وظنّوا أنّهم قد كذبوا من قبل الله تعالى، فلا يرسل العذاب، وهذا بعيد لأنّ هذا الظّن من الرّسل لا يكون كما مرّ، كما وإنّ يأس الرّسل من النّصر لا يكون لأنّهم أخبروا به وحياً، والوحي لا يتخلّف.

السّادس: حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر لتأخيره، وظنّوا أنّهم قد كذبوا من قبل قومهم المؤمنين في وعدهم بالنّصر جاءهم نصرنا، وهذا بعيد أيضاً. لأنّ هذا اليأس من

الرّسل لا يكون، كيف؟ وقد وعدهم الله تعالى به، كما وإنّ صدور هذا الظّنّ من خواص أمّتهم لا يكون كما مرّ، فإن قيل قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٤ - أليس هذا يأساً من الرّسل والمؤمنين من النّصر؟

قلنا: كلّا، بل هو إستبطاء واستعجال بالعذاب، فإنّه حينما تأخّر العذاب إستبطأوه واستعجلوا به فقالوا هذا القول.

السّابع: حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّوا أنّهم قد كذبوا من قبل الكافرين في وعيدهم بالعذاب جاءهم نصرنا، وهذا أيضاً فيه يأس الرّسل من النّصر وهو بعيد، وتقييد تكذيب الكافرين لهم بحال اليأس وهو بعيد أيضاً كما مرّ.

وقريء أيضاً: كذّبوا، بتشديد الذّال وفتحها وفتح الكاف على صيغة الماضي المعلوم، وفسر على هذه القراءة أيضاً بوجوه:

أ. حتّى إذا يئس الرّسول من إيمان القوم وتيقّنوا أنّ قومهم قد كذّبوهم تكذيباً لا أمل في الإيمان منهم، بعد ذلك جاءهم نصرنا، وهذا المعنى لا غبار عليه كما مرّ في قراءة المجهول.

ب. حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّوا أنّ قومهم الكافرين كذّبوهم في الوعيد بالعذاب، جاءهم نصرنا في ذلك الوقت، وهذا وإن كان صحيحاً إلّا أنّ فيه تقييد تكذيب الكافرين بحال اليأس، وهو بعيد أيضاً كما سبق.

ج. حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّوا أنّ قومهم المؤمنين كذّبوهم في الوعد بالنّصر، وهذا فيه الظّن بتكذيب المؤمنين للرّسل وهو بعيد وقد عُرفت.

د. حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّوا أنّ قومهم الكافرين كذّبوهم في الوعيد للعذاب جاءهم نصرنا، وهذا فيه نسبة اليأس إلى الرّسل وهو بعيد، وتقييد تكذيب الكافرين بحال اليأس وهو بعيد أيضاً.

هـ. حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّوا أنّ قومهم المؤمنين كذّبوهم في الوعد بالنّصر جاءهم نصرنا، وهذا فيه نسبة اليأس إلى الرّسل وهو بعيد، ونسبة الظّن إليهم بارتداد المؤمنين وهو أيضاً بعيد.

وقرئ كذبوا بتخفيف الذّال وفتحها وفتح الكاف على صيغة الماضي المعلوم من المجرّد، وفسّر على هذه بوجوه أيضاً:

الأوّل: حتّى إذا استيأس من إيمان القوم وظنّوا أنّهم كذبوا قومهم في الوعيد بالعذاب جاءهم نصرنا، وهذا بعيد لأنّ الرّسل لا ينذرون أحداً إلّا من وحي، ولا يتصور أن يتخلّف الوحي ليكون وعيدهم كذباً ويظنّوا ذلك.

الثّاني: حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّ قومهم الكافرون أنّ الرّسل كذبوا في الوعيد جاءهم نصرنا، وهذا صحيح لاغبار عليه إلّا أنه فيه تقييد ظنّ الكافرين الكذب بالرّسل بحال اليأس وتأخّر العذاب، وهو بعيد لأنّ هذا كان منهم أولا وآخراً.

الثّالث: حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّ قومهم المؤمنون أنّ الرّسل كذبوا في وعدهم بالنّصر جاءهم نصرنا، وهذا فيه نسبة هذا الظّن يخصّ المؤمنين وهو بعيد.

الرّابع: حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّ قومهم الكافرون أنّ الرّسل كذبوا في وعد المؤمنين بالنّصر ووعيدهم بالعذاب جاءهم نصرنا، وهذا فيه نسبة اليأس إلى الرّسل وهو بعيد، وتقييد ظنّ الكافرين الكذب بالرّسل بحال اليأس وهو أيضاً بعيد.

الخامس: حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّ قومهم المؤمنون أنّ الرّسل كذبوهم في الوعد بالنّصر جاءهم نصرنا.... إلخ، وهذا أيضاً فيه نسبة اليأس إلى الرّسل هذا الظّن إلى المؤمنين، والكلّ بعيد كما عرفت.

السّادس: حتّى إذا استيأس من النّصر وظنّوا بأنفسهم أنّهم كذبوا قومهم في الوعد والوعيد جاءهم نصرنا، وهذا فيه نسبة اليأس إلى الرّسل وظنّهم بأنفسهم الكذب وهما بعيدان وقد عرفت.

وقرئ كُذبوا بضمّ الكاف وتخفيف الذّال وكسرها على صيغة المجهول، وفسّر بوجوه أيضاً:

الأوّل: حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّ قومهم الكافرون أنّهم قد أخبروا كذباً من قبل الرّسل فيما يدّعون إليه جاءهم نصرنا، وهذا لا غبار عليه أبداً.

الثّاني: حتّى إذا استيأس الرّسل من إيمان القوم وظنّ قومهم المؤمنون أنّهم قد أخبروا كذباً من قبل الرّسل نصرهم جاءهم نصرنا، وهذا بعيد إذ فيه نسبة الظّنّ إلى المؤمنين وهو بعيد.

الثّالث: حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّ قومهم الكافرون أنّهم قد كذبوا من قبل الرّسل في الوعيد بالعذاب جاءهم نصرنا، وهذا بعيد لنسبة اليأس إلى الرّسل من الوعيد، ولتقييد ظنّ الكافرين بالرّسل الكذب بوقت اليأس.

الرّابع: حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّ قومهم المؤمنون أنّهم قد أخبروا كذباً من قبل الرّسل بالنّصر جاءهم نصرنا، وهذا بعيد أيضاً لنسبة اليأس من الوعد للرّسل وهذا الظّنّ إلى المؤمنين.

الخامس: حتّى إذا استيأس الرّسل من النّصر وظنّوا أنّهم أخبروا بالنّصر كذباً من قبل الله تعالى، حيث تأخّر جاءهم نصرنا، وهذا المعنى كفر، ولإيهام هذه القراءة لهذا المعنى أنكرت السّيدة عائشة هذه القراءة وقالت: لا يظنّ الرّسل بربّهم هذا، وحاشاهم فرض الله تعالى عنها وعنّا ببركاتها آمين. وهذه الآية جاءت كبيان لقوله تعالى: ﴿كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم... إلخ). فالمعنى: كانت عاقبتهم أنّه حينما يئس الرّسل من إيمانهم جاء نصرنا للمؤمنين وسلّطنا العذاب على الكافرين، وفيها وعد للمؤمنين بالرّسول (ﷺ) والتّابعين لمنهجه بالنّصر في آخر الأمر حتماً، ووعيد لكلّ جيل انحرف عن دينه وشريعته بالعذاب والهلاك والدّمار عاجلاً أو آجلاً، وفيه تسلّ لرسول الله (ﷺ) بأنّ هذه سنّة الله في المرسلين وأنّهم يبتلون بالضّيق والشّدة ومعاداة النّاس، ويلاقون الصّعوبات في طريق الدّعوة أولاً، وإنّ العاقبة لهم وأنّهم سينتصرون وأنّ عدوّهم سيسلّط الله عليهم العذاب فلا بدّ من الصّبر وتحمّل المشاق في سبيل الدّعوة لكلّ داعية، فإنّ النّصر حليفهم كما وعد الله تعالى فقال: ﴿وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين﴾ سورة الزمرالآية/ ٤٧.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

مجمل المعنى: بعدما انتهت قصّة سيّدنا يوسف (عليه السلام) ذكر الله تعالى فائدة القصص الّتي تذكر في القرآن، وهي أن تكون عبرة للجيل الحاضر بمن سبقه، ليأخذ الدّرس منهم، وأن يستلهم ممّا جرى عليهم سبيل الخير فيسلكوه وسبيل الشرّ فيجتنبوه،

والأخلاق الكريمة فيتخلّقوا بها والرّذيلة فيجتنبوا عنها فقال: لقد كان في قصص الأنبياء والمرسلين والأمم السّابقة عبرة وموعظة لأصحاب العقول السّليمة، حيث يعتبرون بها ويتّعظون فيسلكون سبيل من أنعم الله تعالى عليهم من الرّسل واتّباعهم، ويتركون أعمال من انحرفوا عن منهجهم فأهلكوا، وليكون دليلاً على أنّه ما كان هذا القرآن مفترىً وكذباً جاء به محمّد وإختلقه، ولكنّه كان مصدّقاً لما بين يديه من التّوارة والإنجيل والكتب السّماوية غير المحرّفة، وموافقاً لها في الأصول والعقائد وأمّهات الأحكام، ولما فيها من الأنباء والإخبار وفي أنّهما أخبرا عن مجيء محمد خاتم الأنبياء وعن أوصافه وأخلاقه وأنّه ينزل عليه كتاب كذا، فجاء القرآن موافقاً لكلّ ذلك فلا يكون هذا إلّا عن وحي وإلّا فأين لمحمّد أن يأتي بمثل هذا وهو أمّي لم يدرس ولم يقرأ ولم يعرف أنّ يكتب شيئاً مدّة حياته، وكان القرآن مفصّلاً لكلّ شيء يحتاج إليه الإنسان من الأحكام والشّرائع والأخلاق الحسنة، وكان هداية لمن تمسّك به ورحمة لقوم يؤمنون به، وأمّا من كفر به فهو الّذي حرّم نفسه من هذه الهداية والرّحمة وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

تفصيل المعنى: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) الضّمير في قصصهم راجع إلى الرّسل المارّ في الآية قبلها، أي لقد كان في قصص الرّسل المذكورة في القرآن عبرة لأولي الألباب يعتبرون بها، فلا يرتكبون ما ارتكب من قبلهم من الجرائم الّتي أهلكوا بسببها، ليسلكون سبيل الإتّباع والإستسلام لأوامر الله تعالى والتّخلق بأخلاق الرّسل والمؤمنين فيفوزوا بسعادة الدّارين. وقيل: إنّ الضّمير راجع ليوسف وإخوته أي لقد كان في قصص يوسف وإخوته عبرة لأولي الألباب، ولكنّ هذا خطأ لفظاً ومعنىً، أمّا لفظاً فلأنه ابتعد ذكر يوسف وإخوته عن هذا المقام إبتعاداً كثيراً وصار بينهما بون بعيد وفصل كثير بحيث لا يفهم رجوعه إليه إلّا الأذكياء، ولكنّ الرّسل هو بجنبه وإنّ الضّمير إذا دار بين القريب والبعيد فللقريب أولى، وأمّا معنىً فلأنّ في قصّة جميع الرّسل عبرة بل عبر لأولي الألباب، فتخصيص الكلام بقصّة يوسف مع أخواته لا معنى له، وثانياً: إنّ القصّة هي قصّة يوسف لا قصّة يوسف وأخواته، فلا وجه لرجوع ضمير الجمع إليه، ولو قيل إنّ القصّة تتعلّق ببيان بعض أحوال الإخوة أيضاً فيصحّ أنّها قصّتهم، **قلنا:** قد تعلّق بها بيان بعض أحوال السّيدة والملك والفتيين أيضاً، فليقال قصّة يوسف وزليخا والملك والإخوة والفتيين وهذا بعيد لأنّ ما سيق له القصّة هو ذكر حال يوسف (عليه السلام) فقط، وذكر غيره بالاتباع فهو قصّته لا قصّة غيره فلا يعود إليه ضمير

الجمع **(ما كان حديثاً يفترى)** إشارة إلى أنّ هذه القصص تدلّ على أنّ هذا القرآن ليس كلاماً يفترى على الله ومختلقاً من قبل محمّد فإنّ قرآناً يأتي به أمّي غير قارئ ولا كاتب ولا دارس وتذكّر فيه هذه القصص كما هو موجود في الكتب السّابقة لا يمكن إلّا بوحي من الله فحقّ، وثبت أنّه ما كان القرآن حديثاً يفترى ولكن كان تصديق أي مصدّق الّذي بين يديه، أي كان القرآن مصدّقاً للكتب الّتي من قبله وهي التّوارة والإنجيل والزّبور، يصدّقها ويوافقها في العقائد والأصول وأمّهات الأحكام، وفي الإخبار عن الأمم السّابقة والأنباء عنهم وفي أنّها ذكرت وصف الرّسول ومجيئه ونزول القرآن عليه؛ فجاء كما هو فيها فصدّقها، وهذا دليل آخر على أنّ القرآن ليس مفترىً بل هو كلام الله تعالى أوحي إلى محمّد (ﷺ)، **(وتفصيل كلّ شيء)** أي وكان القرآن تفصيلاً أي مفصّلاً لكلّ شيء ممّا يتعلّق به غرض القرآن من الأحكام الإعتقادية كوجود الله تعالى ووحدته وبيان صفته الذّاتية، وما يكون دليلاً على ذلك من الآيات الكونيّة وآيات الأنفس والآفاق وكوجود الرّسالة بين الله تعالى والبشر ورسالة محمّد (ﷺ) والدّلائل على ذلك من الإخبار عن المغيبات بما لا يعلمه إلّا رسول، وكوجود يوم للجزاء وهو يوم القيامة، والدّلائل على إمكان مجيئه وعلى مجيئه، وكذكر أحوال بعض الأنبياء والمرسلين وبعض الأمم السّابقة ليعتبر بهم النّاس فيتخلقوا بما كان سبب فلاح المفلحين منهم ويجتنبوا عمّا كان سبب هلاك المهلكين من تكذيبهم للرّسل والإنحراف عن منهجهم ونظامهم وشرائعهم، والإصرار على الفسق والفجور، وما نهاهم عنه الرّسل والأنبياء، وكبيان الأحكام العمليّة ومن بيان الأخلاق الحسنة الّتي يجب أن يتخلّق بها الفرد والأمّة والأخلاق السّيئة الّتي يجب أن يجتنب عنها الشّخص والجماعة، وأحكام العبادات والمعاملات وأحوال الأسرة وغير ذلك من كلّ ما يتعلّق بتنظيم حياة الفرد والأمّة من حيث الإدارة والسّياسة والإقتصاد وتدبّر الأمور وكيفيّة التّعامل والتّبادل والحدود على الجرائم، فالقرآن نظام كامل وشامل ومبين لمّا يتعلّق بجميع نواحي الحياة الفردية والإجتماعية، فإنّه جاء لهذا الغرض ولكونه نظاماً شاملاً للحياة من حيث العقيدة والعمل، فهو مفصّل لكلّ ذلك، وليس مفصّلا لكلّ شيء عموماً، حتّى يقال: أنّه كتاب شامل للكيمياء والفيزياء والفلك والنّجوم والرّياضة والهندسة والتّاريخ والصّناعة وغير ذلك من العلوم العقليّة والنّقليّة، فإنّه من البداهة أنّ القرآن ليس فيه تفصيل لكلّ ذلك حيث لم يأت هو لذلك فيفصّله ويبيّنه، وإنّما أتى لما قلنا من تنظيم العقيدة والعمل والحياة للنّاس حسب ما أمر الله تعالى به ورضي به تشريعاً وديناً ونظاماً. إلّا أنّه يوجد

في القرآن إشارات إلى هذه العلوم ونبذة منها كلّها، وأمر وتشجيع للمؤمنين بالتّزوّد من كلّ علم وإقتناء لكلّ فنّ وأن لا يكون المؤمنون أقلّ تقدّماً من غيرهم في العلوم، بل يجب أن يكونوا أئمّة في الدّين والدّنيا وفي العلم والمعرفة والإختراع والصّنعة وفي السّياسة وإدارة أنواع الحياة في العالم كلّه. فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٦٠. وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة الزمر الآية/ ٩. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٤٣. أي حكّاماً عليهم، وقال: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٨. والآيات في مثل هذا النّوع كثيرة من تأمّل فيها تيقّن بأنّ الإسلام دين علم وإختراع وصنعة وتقدّم وفنّ، ودين ينظّم الحياة في الدّنيا والآخرة، ودين القيادة والسّيادة لا دين الذّلّ والخضوع للغير، ودين العزّة والشّرف لا دين السّفاهة والمذلّة، ولو تمسّك المؤمنون بدينهم هذا لما آل أمرهم إلى ماآل إليه اليوم، فلا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم **(وهدىً)** وكان القرآن هدىً وإرشاداً إلى طريق الحياة المستقيم من جميع الوجوه والنّواحي **(ورحمة لقوم يؤمنون)** به ويتمسّكون به ويطّبقونه في حياتهم، فهو هدىً ورحمةٌ لهم، وأمّا من لم يؤمن به فقد حرّم هو نفسه عن هذه الهداية الّتي خلافها ضلالة، وعن هذه الرّحمة الّتي عكسها شقاء في الحقيقة، وإن كان ظاهره سعادة ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ سورة النّحل الآية/ ١١٨، فالتّأريخ يشهد بأنّ المسلمين حينما كانوا متمسّكين بهذا القرآن ومطبّقين لأحكامه كانوا في سعادة الدّنيا والدّين، وأصبحوا سادة العالم وقادة الأمم كلّهم، وحينما انحرفوا خسروا هذه السّعادة المرموقة والسّيادة الشّاملة، وأصبحوا أذلّة بعد العزّ ومسوّدين بعد السّيادة ومقودين بعد القيادة، فما أحوج بهم أن يتفطّنوا لما هم فيه من الذّل ويغيّروا ما هم عليه من الأعمال ليغيّر الله ما بهم من الأحوال فـ ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ سورة الرعد الآية/ ١١. وقال تعالى: ﴿وإن عدتم عدنا﴾، أللّهم أعدنا إلى دينك لتعيد إلينا العزّة والسّعادة وألهمنا العمل بشريعتك لتعيد لنا القوّة والسّيادة آمين يا أرحم الرّاحمين.

تنبيه: نسب الله تعالى هذه الأمور إلى القرآن من أنّه ليس بمفترىً ولكنّه تصديق الّذي بين يديه من الكتب وتفصيل لكلّ شيء وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين، فنسب إليه هذه

الأمور بدون تأكيد للنّسبة وبلا إستدلال على ذلك، إشارة إلى أنّ القرآن يشهد بنفسه على ذلك، فإنّ من تدبّره وقارن بينه وبين غيره وفهمه حقّ الفهم لوجد فيه هذه الصّفات كلّها واضحة لا تحتاج إلى دليل ولا تأكيد، وإنّ هذا القرآن حقّ ومن عمل به فاز بسعادة الدّارين وكتبت له السّعادة في المبدأ والختام.

* * *

تمّ تحريره في ١٨/ شوال من سنة ١٤٠١ من هجرة سيّدنا محمّد سيّد المرسلين الموافق ١٨/ آب من سنة ١٩٨١ من ميلاد سيّدنا عيسى ابن مريم (صلوات الله تعالى عليه وعلى نبيّنا وعلى باقي إخوانهما من الأنبياء والمرسلين والصّحابة والتّابعين والشّهداء والصّالحين ومن اهتدى بهديهم وإقتفى إثرهم أجمعين).

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، كتب الله تعالى لنا حسن الأعمال وختم بالخير لنا الآجال آمين وهو على كلّ شيء قدير، وبيده الأمر والتّقدير في الظّاهر والباطن والأوّل والآخر.

سورة الرّعد

(مكيّة، وقيل مدنيّة، وآياتها ثلاث وأربعون، نزلت بعد سورة محمّد، وسمّيت بالرّعد لما فيها من قوله تعالى: ويسبّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته)

إنّ هذه السّورة تدور حول خمسة مقاصد كبيرة:

الأوّل: إثبات أنّ هذا القرآن من الله تعالى وليس من عند غيره.

الثّاني: أنّ الله تعالى موجود.

الثّالث: أنّ محمّدا رسول الله (ﷺ).

الرّابع: أنّ الله واحد لا شريك له لا في الإيجاد ولا في التّكليف.

الخامس: أنّ القيامة تأتي.

فبدأ تعالى أولاً بإثبات المقصد الأوّل فقال جلّ وعلا:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

(المر) تقدّم الكلام فيه في سورة البقرة **(تلك)** أي هذه الآيات الّتى تتلى عليك يا محمّد **(آيات الكتاب)** وهو اللّوح المحفوظ **(والّذي أنزل إليك)** من العقائد والأحكام في ضمن هذه الآيات **(من ربّك)** هو **(الحقّ)** وما سواه من كلّ عقيدة وحكم هو باطل

(ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون) به لأنّهم لا يتفكّرون في الحقّ حيث لا يريدونه وإنّما يريدون ما هم عليه لما يوافق أهواءهم ومصالحهم فقط.

سؤال: أخبر الله تعالى بأنّ هذا القرآن هو من عند الله تعالى دون أن يستدلّ ويبرهن بما يثبت ذلك فكيف ذلك؟

الجواب: إنّ الله تعالى أشار في الآية إلى دليل إثبات ذلك بوجهين:

الأوّل: إنّ عظمة القرآن وبلاغته وإعجازه وإخباره عن كلّ ما يخبر كما هو كافية للإستدلال بها على أنّ هذا القرآن من الله تعالى، وأشار تعالى إلى هذا بقوله: (تلك) لأنّ تلك يشار به إلى أمور عظام ومعاني سامية، فمن تفكّر في القرآن وتدبّره وطبّقه مع العلم والعقل والتّاريخ لا يبقى له مجال إلّا أن يقول أشهد أنّ هذا القرآن من الله تعالى، وقد فصّلنا الكلام حول ذلك في تفسير سورة يس[1]، فالقرآن نفسه يدل على أنّه من الله تعالى ولا يحتج إلى دليل آخر.

الثّاني: هو تصدير الآية بقوله: (المر) فإنّ ذكر هذه الحروف المقطّعة في أوائل بعض السّور إشارة إلى الإستدلال على أنّ القرآن من الله تعالى بوجهين:

أ. أنّه من المسلّم أنّه يستطيع أن يتكلّم بحروف التّهجّي كلّ من القارئ والدّارس والكاتب والجاهل والعالم والأمّي، فإنّ كلّ واحد من العرب يستطيع أن يقول: أَلْمُرُّ لا يذاق مثلاً، ولكن لا يعلم التّلفّظ بأسماء هذه الحروف بأن يقول: (ألف لام ميم را) إلّا القارئ أو الدّارس أو الكاتب، وكان النّاس كلّهم يعلمون أنّ محمّداً أميّ لم يمارس قطّ كتابة ولا دراسة ولا قراءة، فتلفّظه باسماء هذه الحروف وتعداده لها يدلّ على أنّه أوحي إليه من الله تعالى.

ب. قال بعض العلماء أنّه ذكر هذه الحروف في أوائل بعض السّور لدليل على أنّ القرآن من الله تعالى، فكأنّه يقول تعالى إنّ هذا القرآن مركّب من هذه الحروف الّتى تركبون منها أشعاركم وخطبكم، وليست من حروف أجنبيّة أو لغة غير عربيّة، فحيث ما استطعتم معارضته ولو بمثل أقصر سورة منه مع حرصكم على ذلك ومن نفس الحروف

---

(١) لأنه فسر سورة يس قبل هذه السورة لاحتياج الناس إليها لكونهم يقرؤونها على الموتى، ثم تكونت لديه فكرة تفسير جميع القرآن.

فلا شكّ أنّ ذلك يدلّ على أنّه ليس من كلام البشر، لأنّ البشر يستطيع معارضة كلام البشر ولكنّ لا يستطيع معارضة كلام الله تعالى. فهو إذاً من الله تعالى وليس من البشر كما تزعمون(١)

وحينما ثبت أنّ القرآن من الله تعالى، ثبت أيضاً أنّ محمّداً رسول الله (ﷺ) فإنّ الله لا يوحي إلّا إلى من أختاره وجعله رسولاً، فبعد ما أثبت تعالى أنّ القرآن من الله تعالى أراد أن يثبت المقصد الثّاني، وهو أنّ الله تعالى موجود مبتدئاً بالإستدلال على وجوده من العلويّات فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

ألفت الله تعالى نظر الإنسان إلى العالم العلوي للإستدلال به على وجوده ووحدته

(١) وذلك لأنّ واقع الحال يثبت أنّ كلّ جهد بشري مهما بلغ مستواه ودرجته من الإبداع والرّقي والإتقان والمتانة والصّحّة لا يتوقّف عند ذلك المستوى والدّرجة، بل لابدّ من أن يأتي من يقدّم ماهو أحسن منه وأعلى مستوى وأرفع درجة منه، لذلك لم تقف الجهود البشريّة منذ زمن آدم (ﷺ) إلى يومنا هذا في مستوى لم يتغيّر إلى أحسن منه، ولا يتوقّف إلى يوم القيامة وصولاً إلى الحقيقة والكمال، وهو يدلّ على أنّ كلّ ما يأتي به بشر بقدرته البشريّة يمكن أن يأتي غيره بمثله أو بغيره أحسن منه، ولمّا كان القرآن بمستواه الرّاقي المعروف ثابت على الحال الّذي صدر عليها من الرّسول محمّد (ﷺ) ولم يستطع أحد أن يأتي بمستواه ولا بأحسن منه لا من المؤمنين به من الّذين حاولوا محاكاة القرآن في التّعبير تبرّكا وإعجابا ومحبّة ولا من أعدائه الّذين حاولوا تفنيده لأجل ردّه، دلّ على أنّ القرآن في درجة الكمال الّتي لا يمكن أن تتغيّر إلى غيرها لأنّه ما بعد الكمال إلّا النقصان. كما دلّ على أنّ هذا القرآن ليس جهدا بشريّا لأنّ الكمال ليس من صفة البشر فهو من غير البشر. ولا يتصوّر أن يتخلّى أي إنسان عن الإفتخار بصناعة لنفسه في منتهى الإبداع فينسبه إلى غيره، مع أنّ جميع المحيطين به ممّن حاربوه ويعرفون حقيقة حاله لم يدّعوا أنّه جاء به من عنده وإنّما ادّعوا أنّه يعلّمه غيره من البشر فكذّب القرآن ادّعاءهم. ولأنّه لم يدّع أحد من البشر في العالم أجمع أنّ القرآن من عنده. وظهر هذا القرآن على يدّ محمّد (ﷺ) وهو أخبرنا أنّه من الله تعالى لا من عنده دلّ على أنّه من الله تعالى لا من غيره وأنّ محمّدا (ﷺ) رسوله حقيقة وواقعا.

ومجيء يوم البعث؛ فقال جلّ وعلا: **(الله)** هو**(الّذي رفع السّماوات)** أي خلق الأجرام العلويّة كلّها من العرش والكرسيّ والسّماوات السّبع الطّباق والنّجوم والكواكب والشّمس والقمر وجعلها رفيعة عالية، وأوقفها في هذا الفضاء كلّ في مقامه **(بغير عمد)** أي بغير أعمدة تقف هذه الأجرام عليها **(ترونها)** ففيه معنيان:

الأوّل: أنّكم ترونها واقفة بغير عمد فهي جملة مستقلة.

الثاني: أنّها صفة لعمد أي إنّ هذه الأجرام واقفة في الفضاء بغير عمد مرئيّة لكم، بل بعمد لا ترونها وهي الجاذبيّات الّتي خلقها الله تعالى فأوقف بها كلّ جرم في مكانّه وحسب مقتضى الحكمة والنّظام.

(ثمّ) بعد كمال خلق هذه الأجرام **(استوى)** الله تعالى إستواءً يليق به دون أن نعرف كيفيّته وحقيقته كسائر صفاته، فاستوى بهذا الإستواء **(على العرش)** وهو فوق الكون كلّه **(وسخّر الشّمس)** فجعلها واقفة لا تزول وتدور الأرض حولها في كلّ أربع وعشرين ساعة لإيجاد اللّيل والنّهار بذلك لكلّ من يسكن في الأرض، ولأمور أخرى تجري في الكون وربطها تعالى بالشّمس ووجودها **(وسخّر)** الله تعالى **(القمر)** أيضاً فجعله يدور حول الأرض والشّمس للإنارة في اللّيل، ولأمور أخرى جعلها الله تعالى مربوطة بالقمر في هذا الكون، وكذلك سخّر الله تعالى كلّ كوكب وكلّ سماءٍ وكلّ نجم لأمور تحدث في هذا الكون، إلّا أنّه ذكر الشمس والقمر فقط لظهورها وظهور منافعها لكل الناس. وأمّا الأجرام الأخرى فلا يعلم فوائدها إلّا المختصّون من علماء الفلك والنّجوم **(كلّ)** من الأجرام العلوية من السّماوات والنّجوم والكواكب و**الشّمس** والقمر **(يجري)** أي يعمل في هذا النّظام الكوني لبقاء هذا ولترفيه حياة الإنسان على الأرض ودوامه **(لِأجل)** لوقت **(مسمّى)** معيّن وأيّام محدودة، وهو إلى أن يأتي يوم القيامة فيقضي الله تعالى على هذا الكون وهذا النّظام ويأتي بنظام آخر وكون غير هذا الكون **(يدبّر)** أي يدبر الله تعالى **(الأمر)** أي الأمور في هذا الكون فيحوّل مادة إلى أخرى وشيئاً إلى شيء ويخلق ويغني ويبرئ ويعيد، وبهذا التّدبير والتّصريف والإبداء والإعادة **(يفصّل الآيات)** أي يبيّن الدّلائل الدّالة على قدرته القاهرة **(لعلكم بلقاء ربّكم)** يوم القيامة وبالإحياء بعد الموت **(توقنون)** أي لكي توقنوا وتؤمنوا بذلك بسبب هذه الدّلائل، ففي هذه الآية استدلال على وجود الله تعالى وعلى مجيء يوم القيامة أيضاً كما يلي:

١- حينما ينظر الإنسان ويتفكّر في هذا الكون وهذا النّظام العلوي كمجموعة يعلم

ويتيقّن أنّ هذا الصّنع العجيب لا يمكن أن يأتي إلى الوجود بنفسه بل إنّما يمكن وجوده بإيجاد صانع بلغت قدرته النّهاية، وعلمه الحدّ الأعلى فإنّ كلّ مصنوع يحتاج صانعه إلى قدرة وعلم بقدر ذلك المصنوع، وإنّ هذا النّظام أكبر من كلّ مصنوع وأعظم وأعجب، فيدلّ على أنّ قدرة صانعه أعظم من كلّ قدرة وعلمه أشمل من كلّ علم، وأنّ الطّبيعة لا علم لها ولا قدرة، فلا تصلح لأن توجد هذا النّظام بل ولا شيئاً، فدلّ ذلك على أنّ صانع هذا النّظام هو العليم والقدير وهو الله تعالى.

٢- إنّ هذه الأجرام لكلّ منها مزايا وصفات وخواص ومواقف، فهذا منير وهذا مضيء وهذا ليس بمنكر وهذا بطيء وهذا سريع وهذا متوسط وللمتوسّطات درجات لا تعدّ، وهذا قريب وهذا بعيد وهذا متوسّط وللمتوسّط درجات اختص بكلّ منها جرم من الأجرام إلى غير ذلك من المزايا والصّفات الّتى يطّلع عليها العباد والّتى لا يطلع عليها إلّا علام الغيوب، فتخصيص كلّ جرم بما له من المزايا والصّفات والخواص ليس من ذاته لأنّ نسبة كلّ جرم إلى كلّ صفة ومزايا ومواقف متساوية، فيحتاج للتّخصيص إلى فاعل مختار يخصّ كلّاً بمواقفه وصفاته ومزاياه وإلّا لزم التّرجيح بلا مرجّح وهو محال، وهذا المخصّص هو الله الفعّال لما يريد.

٣- ينظر الإنسان ويتفكّر في تدبير الله للأمور وإبداءاته وإعاداته وإيجاداته وإفناءاته وتبديلاته وتحويلاته، فالماء يصير بخاراً ثمّ البخار يعود ماءً فينزل مطراً، والنّبات ينبت ثمّ يفنى ثمّ يعود على منبته، والشّجر يورّق ثمّ يثمر ثمّ ييبس ثمّ يعود إلى الإيراق والإثمار على أصله، وهكذا كثير من الأشياء إبداء ثمّ إفناء ثمّ إعادة له، فحينما نظر الانسان إلى هذه الأمور وتدبّر فيها يعلم أنّ إعادة الإنسان بعد إفنائه ممكن كهذه الأشياء، فبعد ثبوت إمكانه يرى أنّ الله الّذى خلق هذا النّظام الكوني الكبير، وهذا الصّنع العجيب وكلّ ذلك لحياة الإنسان على هذه الأرض لا يتصوّر منه أن يترك الإنسان دون نظام تكليفى يعيّن له كيفيّة حياته في الأرض ومعاشرته مع الأهل والاولاد والجيران وأهل بلدته، وكيف يتعامل مع النّاس وكيف يكون موقفه مع الله تعالى الخالق له، فإنّ كلّ حاكم يضع نظاماً لمن هو تحت حكمه والله أحكم الحاكمين، فلا يترك هو خلقه دون نظام، وأنّ النّظام يحكم بثواب المطيع وعقاب العاصى وأنّه لا يوجد في الدّنيا كليّاً فلابدّ أنّ يأتي يوم يبعث فيه النّاس ويلقى كلّ إنسان جزاء عمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ إظهاراً لعدالة الله تعالى، وأنّ من قدر على خلق هذا الكون العظيم

فلا يصعب عليه خلق الإنسان ثانياً بل هو أهون عليه من حيث نظر الإنسان. وبهذه التّفكيرات يتمّ الإعتراف بوجود الله تعالى وببعثه للنّاس بعد الموت وحسابهم حينئذ وفق العقائد والأعمال.

ثمّ بعد أن وجّه الله تعالى نظر الإنسان إلى العالم العلوي للاستدلال به على وجود الله وقدرته أراد أن يوجّه نظره إلى العالم السّفلي وهو الأرض وما فيها ليستدلّ به أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

(وهو) الّذي **(مدّ)** أي فرش **(الأرض)** ليسكن ويعيش عليه نوع الإنسان **(وجعل فيها)** أي في الأرض **(رواسي)** جمع راسية أي ثابتة، والمراد بها الجبال الثّابتة المجعولة على الأرض لكي لا تميل الأرض ولا تضطرب، كما تجعل في السّفينة المرساة لمنعها من الإضطراب والميلان. فمدّ الأرض وإيقافها في الفضاء دون أعمدة وخلق هذه الجبال عليها آية على وجود صانع حكيم وعليم وقدير وهو الله تعالى **(وأنهاراً)** أي وجعل تعالى في الأرض أنهاراً جارية لسقي المزارع والمواشي والحيوان والإنسان **(ومن كلّ)** نوع من أنواع **(الثّمرات جعل فيها زوجين اثنين)** قال المفسّرون: أي صنفين أحمر وأصفر أو حلو ومر إلى غير ذلك من الصّفات، ولكنّ هذا التّفسير غير مقبول، لأنّه إذا تأتي على هذه الصّفات فهي كثيرة وليست زوجين فقط؛ فإنّ العنب مثلاً منه أسود وأبيض وأحمر وأصفر إلى غير ذلك، والرّمّان حلو وحامض ومرّ أي متوسط بين الأمرين، فالحقّ أنّ المراد جعل تعالى من كلّ نوع من الشّجر المثمر **(زوجين)** أي فردين ليتزاوج أحدهما الآخر وهما الذّكر والأنثى فتثمر الأنثى بعد تلقيحها ببذر من الذّكر وإنّ التّلقيح يجري بالرّياح كما في سائر الأشجار والنّباتات أو بعمل الإنسان كما في النخل، ولذلك أكّد الله تعالى **(زوجين)** فبقوله **(إثنين)** أي فردين إثنين متزاوجين، وحيث إنّ وجود الثّمار لا تكون إلّا بوجود اللّيل والنّهار، فلو كان الزّمان كلّه نهاراً أو كلّه ليلاً لما وجد أي ثمر من الثّمرات، فلذلك قال تعالى بعد ذلك **(يغشي اللّيل النّهار)** فخلق تعالى اللّيل يأتي فيستر النّهار، وكذلك يغشي النهّار اللّيل أيضاً، فحذفت هذه الجملة للعلم بها من معادلها، فبوجود اللّيل والنّهار تتولّد العيونُ والأنهار والثّمار وبِمَدّ

الأرض ودورانها حول الشّمس وجد اللّيل والنّهار **(إنّ في ذلك)** الصّنع العجيب والنّظام البديع **(لآيات)** تدلّ على وجود الله تعالى والبعث أيضاً. وذلك كما ذكرنا في الآية الأولى أنّ هذا الصّنع لا يكون إلّا بوجود صانع عليم قدير، والصّانع هو الله وأنّ من صنع هذا النّظام للإنسان لا يتركه دون نظام وشريعة يفرض عليه العمل بها، والنّظام يوجب الثّواب والعقاب وهما لا يوجدان في الدّنيا كليّاً، فلابدّ أن يأتي يوم لذلك الثّواب والعقاب، وإنّ من له القدرة على خلق هذا النّظام لا يصعب عليه خلق الإنسان وإعادته بعد الموت وحسابه بعد الفوت، فبهذا الدّليل يثبت وجود الله تعالى وبعثه للعباد، وكذلك يكون ما في الآية الأولى وهذه الآية دليلاً على وحدة الله تعالى حيث **نقول**: إنّ من له هذه القدرة القاهرة والعلم الشّامل ومن له هذا الملك العظيم لا يحتاج إلى شريك ولا شريك له ولا يقبله، فإنّ الشّريك إنّما يقبله العاجز عن عمله أو الجاهل به، وتعالى الله عن كلّ ذلك فلا شريك له. وقال تعالى: **(لآيات)** لأنّ هذا النّظام كما يدلّ بمجموعه على وجود الله وقدرته ووحدته وبعثه للنّاس، فكذلك يدلّ كلّ ما إشتمل عليه على ذلك، فتكون هناك آيات كثيرة لا آية واحدة ولذا قال الشّاعر:

وفـــي كـــلّ شـــيء لـــه آيـــة   تـــدلّ عـــلـــى أنّـــه الـــواحـــد

ثمّ أشار الله تعالى إلى دلائل أخرى توجد في الأرض تدلّ على وجود الله تعالى بأوضح ممّا سبق فقال جل وعلا:

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

أشار الله تعالى في هذه الآية إلى أمور في الأرض لا يمكن وجودها تخصيص بعضها ببعض الخواصّ دون بعض إلّا بوجود خالق مختار يخصّص حسب إرادته هذا بهذه الصّفات، وتلك بغيرها فقال جلّ وعلا: **(وفي الأرض)** أي وتوجد في الأرض **(قطع)** منها **(متجاورات)** بعضها لبعض وكلّها من عنصر واحد هو عنصر الأرض، مع أنّ هذه مجدبة لا تنبت شيئاً، وهذه خصبة تنبت مختلف النّباتات والزّرع وتعطي أفضل الثّمار وبعضها ينبت بعض الثّمار، وبعض الزّروع خاصّة دون أخرى وبعضها ينبت هذه الأخرى دون البعض الأوّل، فيدلّ هذا على أنّه يوجد خالق مختار خصّص هذا البعض

بهذه الثّمار والزّرع وخصّص البعض الآخر بنوع آخر من الثّمار والزّرع وإلّا فالأرض كلّها أرض لا اقتضاء لجزء منها في ذاتها ببعض الثّمار والزّرع دون البعض، وإذا قيل إنّ هذه الأرض لا تنبت هذه الثّمار أو هذه الزّروع لوجود هذا السّبب فيها فنقول: فلماذا لا نجد هذا السّبب في غير هذه القطع؟ فإن قيل: لهذا السّبب، نقول: لِمَ يوجد هذا فيها دون أخرى؟ وهكذا إلى أن ينتهي الأسباب ولا يستطيع الجواب فلا يبقى مجال إلّا أن نقول: خصّص تعالى هذه بهذه وتلك بأولئك بإرادته المحضة أو بخلقه هذه الأسباب، فلم؟ هو الموصل إلى الله تعالى، فقل لهم: إلى أن ينتهي بك إلى فوق الأسباب وهناك تؤمن بمسبب الأسباب ولذا قيل: من لم يقل لشيخه لم؟ فلا يفلح أبداً. وهذا هو الصّحيح، وما قيل: من قال لشيخه لم فقد كفر؟ خطأ فإنّ كلّ شيخ محلّ للخطأ والغلط والسّهو والنّسيان إلّا الله تعالى ومحمدّ(ﷺ) سيّد الإنس والجان[١] (وجنّات) أي وتوجد في الأرض جنّات أي بساتين **(من أعناب وزرع)** فمختلف بعضها عن بعض في النّماء والإثمار، وفي طعم ثمارها أو زرعها وجودتها ولذّتها وكثرتها وقلّتها، مع أنّ كلّها نوع واحد في أرض واحدة وتسقى بماء واحد أيضاً **(ونخيل)** أي وتوجد في الأرض نخيل أي أشجار نخل **(صنوان)** أي بعضه له فروع منتشرة **(وغير صنوان)** ليس له فروع **(يسقى)** كلّ ذلك **(بماء واحد)** وفي أرض واحدة **(ونفضل بعضها على بعض في الأكل)** أي في ثمرته الّتي تؤكل وفي طعمها وحلاوتها وجودتها ولذّتها وشكلها وكبرها وصغرها إلى غير ذلك من الصّفات، فالنّخل أو غيره من الشّجر أي شجرة كانت تكون في أرض واحدة ويسقى بماء واحد مع اختلافها فيما ذُكر وفُضِّل، فلولا أنّه يوجد خالق مريد يخصص هذا لذاك وهذه بتلك لما اختلفت الاشجار من نوع واحد، وفي أرض واحدة ولها ماء واحد في ثمارها وأثمارها وغير ذلك؛ لأنّ ذات الأرض والماء لا تقتضي أمراً من الأمور لأنّها متّحدة في حقيقتها وعنصرها. وإن قيل: اختلف لهذا أو ذاك، نقول: لم؟ ولم؟ ولم؟ إلى أن ننتهي بالقائل إلى إرادة الله تعالى وحده فيعترف بأنّ هنا مسبّب الأسباب وموجدها وهو الله تعالى[٢] (إنّ في ذلك) الصّنع والاختلاف في

---

(١) لأنّ الله تعالى له الكمال المطلق في كلّ صفاته، والرّسول ﷺ لكونه: (ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) فهو أيضا يخبر عمّا يعلمه الله تعالى لا عمّا عند نفسه.

(٢) سؤال لم ولماذا وكيف وإلى أين وغير ذلك يؤدّي إلى معرفة حقائق الأشياء التي تورث أمرين: **الأوّل:** الوصول إلى حقيقة الإيمان بالله تعالى وحكمة شريعته الّتي تخدم الإنسانيّة. **والثّاني:** الوصول إلى التّقدم العلمي والتّقني الّذي يخدم البشر.

منتجات العناصر المتّحدة **(لآيات)** تدلّ على وجود الفاعل المختار **(لقوم يعلمون)** أي يريدون العلم ويسعون للوصول إليه فيتفكّرون في الدّلائل فيصلون إلى حلولها، وأمّا غيرهم فكالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً.

ثمّ بعد أن أثبت الله تعالى إمكان البعث ووقوعه بهذه الآيات وأصرّ النّاس على إنكاره، ذكر الله تعالى أنّ حالهم هذا عجيب ولامهم عليه فقال جلّ وعلا:

﴿۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾

(إن تعجب) أيّها النّبيّ وأيّها السّامع من إنكار الكفّار للبعث أي مجيء يوم القيامة فعجبكم هذا حقّ حيث (فـ) في الحقيقة والواقع **(عجب قولهم)** إنكاراً للحياة بعد الموت **(أإذا كنّا تراباً)** في القبر وبعد الموت **(أإنّا لفي خلق جديد)** فنخلق ويعاد الينا الحياة مرة أخرى؟ فأنكروا وجودهم ثانياً من التّراب بعد أن علموا أنّ وجودهم أو لا بل وجود كلّ ما في الأرض هو من التّراب وإلى التّراب ثمّ إلى الحياة وإلى التّراب مرة أخرى، فالنّبات والأشجار من التّراب ثمّ إلى التّراب ثمّ إلى الحياة ثمّ إلى التّراب وهكذا، فحينما علموا ذلك ويشاهدونه دائماً فإنكارهم لعودة الإنسان من التّراب إلى الحياة عجب يليق بأن يتعجّب منه **(أولئك الّذين كفروا بـ)** قدرة **(ربّهم)** على الإحياء بعد الموت، أو المراد كفروا بوجود ربّهم لأنّهم ينسبون الأمور إلى الطّبيعة وأنّ الطّبيعة لا تحيي بعد الموت **(وأولئك)** لكفرهم بربّهم أو بقدرته **(الأغلال)** توضع **(في أعناقهم)** يسحبون بها إلى النّار **(وأولئك أصحاب النّار)** أي أهلها الدّاخلون فيها **(هم فيها خالدون)** أبداً. ثمّ إنّ منكري رسالة الرّسول كانوا يقولون ألّلهم إن كان هذا أي ما يقوله محمّد (ﷺ) (هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو إئتنا بعذاب أليم﴾ سورة الأنفال الآية/ ٣٢. فلامهم الله تعالى على ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٦﴾

(ويستعجلونك) أيها النّبيّ هؤلاء الكفّار فيطلبون منك أن تأتي لهم **(بالسّيئة)** أي العذاب **(قبل الحسنة)** أي دون الحسنة، حيث كان من واجبهم أن يقولوا أللّهم إن كان هذا هو الحقّ فاهدنا إليه ووفّقنا على الإيمان به إلّا أنّهم قالوا هذا استهزاءً بإنذار الرّسول (ﷺ) ولم يكن من حقّهم هذا حيث **(وقد خلت)** أي مضت **(من قبلهم)** في الأمم الأولى **(المثلات)** أمم أمثالهم عوقبوا وأهلكوا حيث كذّبوا رسلهم واستهزأوا بهم فكان من حقّهم أن يتّعظوا ويعتبروا بهم، فلا يكذبوا بل يؤمنوا ويتّبعوا الرّسول (ﷺ) **(وانّ ربّك لذو مغفرة للنّاس على ظلمهم)** أي مع ظلمهم فلا يستعجل بعقوبتهم وإن كانوا مستحقّين لذلك، بل يؤخّر العقوبة ويمهلهم لعلّهم يؤمنوا أو يتوبوا، وإذا أصرّوا على الكفر ولم يؤمنوا يأتيهم العذاب **(وإنّ ربّك لشديد العقاب)** لهم إذا جاء وقت عقابهم المحدّد في الدّنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى احتجاج الكافرين في عدم إيمانهم بالرّسول وأن يردّ تلك الاحتجاجات ويفنّدها فقال جلت قدرته وجلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

(ويقول الّذين كفروا) لك أيّها النّبيّ في سبب عدم إيمانهم وتكذيبهم لك **(لولا)** لماذا لم يأت بمعجزات الرّسل السّابقين أو **(أنزل عليه آية من ربّه)** أي معجزة تقهرنا وتجبرنا على الإيمان ولعلّ الرّسول (ﷺ) أراد ذلك لإقناعهم رحمة بهم وزيادة في شوكة الإسلام، فقال تعالى له: **(إنّما أنت منذر)** أي إنّما بعثناك للإنذار والتّبشير فقط والمجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة والأدلّة العقليّة، وما أرسلناك لأن تجبر النّاس على الإيمان وتقهرهم عليه بالمعجزات وخوارق العادات الّتي يريدونها، فدم على وظيفتك وأنذرهم وبشّر ولا تطلب ما يريدون من خوارق العادات حيث **(ولكلّ قوم هاد)** ورسول ولكلّ رسول معجزاته وخوارقه الخاصّة به كما يريد الله تعالى لا كما يريدها النّاس، وقد أعطيناك من المعجزات ما تكفي، فإذا لم يؤمنوا بعد ذلك فلا يؤمنون وإن أتيت لهم بكلّ ما يريدون لأنّ سؤالهم وإنكارهم ليس للإقتناع وطلب ما يقنع بل لمجرد التّعنّت والإنكار والحسد، ومن كان كذلك فلا علاج له وقيل: إنّ قوله: **(ولكلّ قوم هاد)** عطف على قوله: **(منذر)** فالتّقدير إنّما أنت هاد لكلّ قوم. فيفيد عموم بعثة الرّسول

لكلّ الأقوام والشّعوب إلّا أنّ السّياق يرجّح المعنى الأوّل، وعموم البعثة مفهوم من آيات أخرى والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض صفاته الجليلة، وذلك لأمور نذكرها بعد تفسيرنا لتلك الآيات، فبدأ تعالى بذكر علمه الشّامل فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

(الله يعلم) علماً يقينياً لا يداخله الشّك فيعلم بهذا العلم **(ما تحمل كلّ أنثى)** في جميع أطواره وقبل أن تدخل النّطفة في رحمها بدليل التّعبير بالمضارع (تحمل) حيث تفيد أنّه يعلم ما تحمله حالاً وفي الإستقبال وقبل أن تدخل فيها النّطفة، فيعلمه بكلّ صفاته من أنّه ذكر أو أنثى أو خنثى، ذكيّ أو بليد، حسن أو لا، طويل أو قصير، إلى غير ذلك من صفات ما تحمله ويعلم أيضاً **(ما تغيض)** أي ما تنقصه الأرحام من البويضات ومن مدد الحمل وأشهره وعدد الأولاد ومدد الحمل وأشهره **(وما تزداد)** من هذه الأمور كلّها **(وكلّ شيء عنده بمقدار)** معيّن عنده لا يتجاوز ذلك المقدار **(عالم الغيب)** أي كلّ ماغاب على الخلق **(والشّهادة)** وكلّ ما يشاهدونه **(الكبير)** قدراً ومنزلة **(المتعال)** أصله المتعالي حذفت الياء للفاصلة ومعناه المتسلّط على من سواه. **(سواء)** أي مستوياً للنّظر إلى علمه كلّ شيء، فليس يعلم أموراً أكثر معلومية من غيرها بل مساوٍ عند علمه **(منكم من أسرّ القول)** أي أخفاه **(ومن جهر به)** أي أظهره بصوت رفيع **(ومن هو مستخف باللّيل)** متخفّي باللّيل **(و)** من هو **(سارب)** أي مظهر نفسه بالنّهار، فيعلم كلّ ذلك علماً مستوياً وكلّه مساوٍ بالنّسبة إلى علمه الشّامل هذا. وأنّه كثيراً ما يسأل ويقولون: إنّ أطباء التّوليد يعلمون ما في الأرحام من أنّه ذكر وأنثى أو يعلمون ذاك وتلك، فكيف خصّ تعالى علم ذلك بنفسه؟ **فنقول:** إنّ الله تعالى يعلم **ما في** الأرحام بالتّفصيل الّذى ذكرناه وليس أحد يصل علمه إلى ذلك ولا إلى عشره.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مدى علمه وشموله أراد أنْ يذكر قدرته فبدأ بذكر قدرته المحيطة بالأنفس فقال جلّ وعلا:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

(له) فيحتمل أن يرجع الضّمير إلى الله تعالى فيكون المعنى لله **(معقّبات من بين يديه)** أي يَدَي الانسان، ويحتمل أن يرجع إلى الإنسان فمعناه: للإنسان **(معقّبات من بين يديه)** والمعني على التّقديرين: أنّه يحيط بالإنسان **(معقّبات)** أي ملائكة يعقب بعضها بعضاً ويكونون **(بين يديه)** أي أمام الإنسان **(ومن خلفه)** أي وراءه فهم **(يحفظونه)** أي الإنسان من المهلكات والمؤذيات وذلك صادر**(من أمر الله)** تعالى حيث أمرهم بذلك وعيّنهم لحفظه ورعايته. وهنا ينشأ سؤال وهو: أنّه إذا كان الأمر كذلك وأنّ الإنسان محاط بالملائكة ويحفظونه ويراعونه فكيف يبتلى الإنسان، بل الأقوام بمهلكات تمحيهم من وجه الأرض؟ فقال تعالى جواباً لهذا السّؤال: **(إنّ الله لا يغيّر مابقوم)** من صحّة أو حياة أو نعمة أو قوّة أو رفاه **(حتّى يغيّروا ما بأنفسهم)** من العقيدة الصّحيحة أو العمل الصّالح فيبدّل بعقائد باطلة أو بأعمال فاسدة، وحينئذ يأمر الله تعالى حفظته أن يتركوا رعايته وحفظه ممّا يريد بهم من مهلكة **(وإذا أراد الله بقوم سوءاً)** ضرراً في المال أو في الأنفس **(فلا مردّ)** مصدر ميمي أي فلا ردّ **(له)** من عند أحد أي لا يستطيع أحد أن يردّه عنه **(ومالهم)** أي للقوم الّذين أراد الله تعالى ضرّهم ليس لهم **(من دون)** غير الله تعالى **(من وال)** أي نصير ينقذهم من الضّر الّذي أراد الله تعالى بهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى القدرة المحيطة بالأنفس أراد أن يذكر قدرته المحيطة بالآفاق فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

(هو الّذي يريكم البرق) وهو لَمعَان يظهر من خلال السّحاب، فالله تعالى خلق هذا البرق ويريه النّاس فيخافون منه **(خوفاً)** من أن يصبح صاعقة فيصيب أنفسهم أو

زرعهم أو مواشيهم ويطمعون فيه **(طمعاً)** أن يأتي بعده المطر فيسقي زرعهم ومواشيهم **(وينشئ)** ويوجد **(السّحاب الثّقال)** بالماء الّذي ينزل منه مطراً. والثّقال جمع وصف به السّحاب وهو مفرد لأنّه إسم جنس فيشمل الكثير والقليل، فهو إذاً بمعنى السّحب والسّحاب من السّحب بمعنى الجرّ سمّي المزن به لأنّه يجرّ بالرّيح فتسوقه إلى حيث شاء الله تعالى كما وأنّه يجرّ الماء في جوفه **(ويسبّح الرّعد)** وهو الصّوت الّذي يظهر من السّحاب عقب البرق، ومعنى تسبيحه أنّ هذه الظّاهرة تدلّ على نزاهة الله تعالى من العجز عمّا يريد؛ فإنّ من أنشأ هذه المصنوعات لابد وأن يكون متّصفاً بقدرة لا تعجز عن شيء، فتدلّ على نزاهة الله ملتصقة هذه النزاهة **(بحمده)** أي بوصفه بالكمال في ذاته وفي جميع صفاته وأفعاله وأعماله **(والملائكة)** أي وتسبّح الملائكة **(من خيفته)** أي من خيفة الله تعالى الّذي خلق هذا الخلق العجيب، أو من خيفة الرّعد حيث تخاف أن تصبح صاعقة فتصيب عباد الله، فيدّعون الله حفظ العباد والبلاد منها، أو ينزل منه مطراً يدمر سيله البقاع والوديان فيدعون الحفظ والسّلامة من الله تعالى منه، وهذا المعنى الأخير أنسب لقوله: **(ويرسل الصّواعق)** أي ويخاف الملائكة حيث إنّ الله بالبرق يرسل الصّواعق، وهي جمع صاعقه وهي نار تخرج من السّحاب فتنزل إلى الأرض فتحرق ما أصابته وتختلف إصابتها بقدر قوّتها وضعفها، فمنها ما يدمّر بلدة أو أكثر أو يقتل حيواناً أو أكثر **(فيصيب)** الله تعالى **(بها من يشاء)** من عباده فتهلكه أو ما يشاء فتدمّره حسب قوّتها وضعفها. فهذه هي قدرة الله تعالى ومقدوراته وهي مشاهدة ومعلومة بالبداهة غير مجهولة **(و)** فمع ذلك **(هم)** أي الكفّار **(يجادلون في الله)** أي في وجوده أو قدرته أو وحدته **(وهو)** أي الله تعالى **(شديد المحال)** أي المعاقبة لمن أنكره أو أنكر وفور قدرته أو أنكر وحدته. أشار الله تعالى إلى أنّ البرق والرّعد والصّواعق والسّحب ونزول المطر وهذا النّظام البديع يدل على وجود الله وقدرته ووحدته وإحيائه بعد الموت فمن أنكر هذا فإنّ الله يعاقبه عقاباً شديداً.

تنبيه: دلالة هذه الأشياء على ما ذكر واضحة لأنّ من تفكّر في هذا النّظام البديع وهذا الصّنع العجيب يعلم أنّ هذا النّظام لا يوجد إلّا من صانع حكيم وعليم وقدير وهو الله تعالى، ومن له هذه القدرة الّتي يخلق بها هذا النّظام لا يحتاج إلى شريك ولا يقبله؛ لأنّ الشّريك إنّما يريده العاجز أو الجاهل، وإنّ من خلق مثل هذا النّظام لحياة الإنسان لا يترك الإنسان دون نظام يأمره فيه وينهاه، والنّظام يقضي الثّواب والعقاب، وهما لا يوجدان لكلّ أحد في الدّنيا؛ فلابدّ وأن يأتي يوم يطبّق فيه هذا الثّواب والعقاب

تحقيقاً لعدالة الله تعالى، ومن استطاع خلق هذا النّظام لا يصعب عليه إعادة الإنسان بعد الممات وحسابه بعد الوفاة، بل وما ذلك على الله بعزيز، قال تعالى: ﴿زعم الّذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربّي لتبعثنّ ثمّ لتنبّئنّ بما عملتم، وذلك على الله يسير﴾ سورة التغابن الآية/ ٧.

* * *

سؤال: ما هو الرّعد والبرق والصّواعق وكيف توجد هذه الأشياء؟

الجواب: قال المفسّرون: الرّعد هو ملك يسوق السّحاب حيث يأمره الله تعالى، وهذا الصّوت تسبيحه والصّاعقة نار تنزل من السّحاب فتُصيب من شاء الله تعالى فتحرقه إن وصلت إلى الأرض، وإلّا فتنمحي في الفضاء، ورووا في ذلك حديثاً عن الرّسول (ﷺ) ولكنّ الحديث ضعيف فلا يعوّل عليه، فهذا المعنى ضعيف. وقالت الفلاسفة القدامى: تصعد مع البخار أجزاء أرضيّة خفيفة فتتكاثر فتصل إلى طبقة حارّة فتحترق فتنزل فتشقّ السّحاب ومن هذا الشّق يحدث لمعان وهو البرق وصوت وهو الرّعد ونارها النّازلة هي الصّاعقة، فإن كانت ضعيفة إنمحت في الجوّ وإن كانت قويّة تصل إلى الأرض فتحرق ما أصابته أو تدمّر بقدر قوّتها وضعفها. وقال بعضهم: الرّعد صوت إحتكاك أجزاء السّحاب والبرق ما ينقدح منه، وهذا قريب من قول الفلاسفة الجدد حيث يقولون: تكون السّحب أحياناً كثيفة ومحمّلة بشحنات كهربيّة، فإذا اقتربت سحابتان، إحداهما شحناتها موجبة والأخرى سالبة، حدث بينهما تفريغ كهربائي يصحبه سلسلة من الشّرارات الكهربائيّة ينبعث عنها ضوء ساطع هو البرق، ويسمع منها صوت شديد هو الرّعد، وقد يحدث التّفريغ الكهربائي بين السّحب والأرض أو بين ما عليها من منشآت عالية فتحدث الصّاعقة الكهربائيّة. هذا وإنّ قول الفلاسفة القدامى والجدد نظريّات فإن وصلت إلى اليقين فذاك وإلّا فننتظر ماذا يكشفه العلم من هذا الصّنع العجيب وذلك تقدير العزيز العليم.

* * *

تذكرة: قد قلنا قبل تفسير هذه الآيات أنّ الله تعالى ذكر بعض صفاته لأمور، وتلك الأمور هي ما يلي:

١. أن يعرف النّاس مدى علمه، وأنّه لا يخفى عليه شيء من حركاتهم وسكناتهم

وأفعالهم في السّر والعلن وفي الظّلام وغيره، وأنّه يجازيهم على وفقها.

٢. أن يعلموا مدى قدرته وأنّه لا يعجز عن الإحياء بعد الموت والبعث، وجزاء كلّ إنسان وفق عمله بالثّواب إن كان خيراً وبالعقاب إن كان شرّاً.

٣. ليعلم النّاس أنّ هذه الصّفات هي صفات الإله وإنّ من لم يتّصف بهذه الصّفات لا يليق بالألوهيّة فما عداه من الآلهة الّتي يدّعونها باطلة، ولا توجد فيها شيء من صفات الألوهيّة ولذا قال تعالى بعد ذكر هذه الصّفات فوراً.

* * *

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾

(له) أي لله الموصوف بهذه الصّفات وحده لا لِغيره **(دعوة الحقّ)** من إضافة الموصوف إلى الصّفة أي لله الدّعوة الحقّ فمعناه: أنّ الله تعالى هو الحقّ أن يُدعى، وأن يتّجه إليه النّاس بالدّعاء والعبادة، وأن يطلبوا منه قضاء الحوائج ودفع الملمّات **(والّذين يدعون)** أي ينادونهم المشركون ويستغيثون بهم في جلب الخيرات ودفع المكاره **(لا يستجيبون)** أي لا يقدرون أن يفعلوا لهم شيئاً فليس حالهم **(إلّا كباسط)** أي كالّذي يبسط **(كفيه إلى الماء)** الموجود في عين أو بئر ويشير إليه **(ليبلغ فاه)** أي فمه **(وما هو ببالغه)** حيث لا يصعد الماء إلى الأعلى بدون ما يصعده، فشبه الله تعالى طلب الخير ودفع الشّر من غير الله تعالى كمن يريد أن يصعد الماء إلى فمه بنفسه وبدون ما يصعده في عدم الإستفادة من هذا الدّعاء والطّلب. ثمّ أكّد ذلك وأوضحه بقوله: **(وما دعاء الكافرين)** أي طلبهم من غير الله تعالى وإستشقائهم في أي شيء ولأي شيء **(إلّا في ضلال)** أي في خسارة وضياع، حيث لا يستفيدون منه شيئاً سوى أنّهم يكفرون بذلك ويسجّلون أنفسهم في دائرة المشركين. أعاذنا الله تعالى منهم، ثمّ بيّن الله تعالى الدّليل على أنّ غير الله لا يليق بالدّعاء وطلب الحاجات منه، فقال جلّ وعلا: **(ولله)** أي ولإرادة الله تعالى وحده **(يسجد)** أي يخضع **(كلّ من في السّماوات والأرض طوعاً)** اختياراً كإنقياد المكلفين المؤمنين في أداء واجباتهم وأوامر الله التّكليفيّة

(وكرهاً) أي وجبراً وذلك في كلّ الأمور التّكوينيّة، فإنّ كلّ شيء حتّى آلهتهم منقادون لتكوين الله تعالى، فيفعل بهم حيث يشاء؛ فلا يخرج شيء عن إرادة الله تعالى وقدرته فهم **(وظلالهم)** مسخّرون تحت أمر الله دائماً، وحينما تتبدّل ظلالهم **(بالغدوّ)** أي في الصّباح وهو من طلوع الشّمس إلى الزوال **(والآصال)** جمع أصيل وهو المساء من بعد الزّوال إلى غروب الشّمس، فإنّ ظلّ كلّ شاخص يكون في الصّباح في جانب الغرب وفي المساء يكون في جانب الشّرق وذلك بأمر الله تعالى، حيث جعل الشّمس تكون في الصّبح في المشرق من سمت رأس الشّاخص، فتحدث الظّل في جانبه الغربي ثمّ بعد الزّوال تكون غربيّ الشّاخص فيتحوّل ظلّه إلى الجانب الشّرقي وذلك تقدير العزيز العليم. وحصل معنى الآية أنّ الكون كلّه منقاد وخاضع لإرادة الله طوعاً وكرهاً فلا يقدر شيء أن يكون إلّا بإرادته وخلقه، فإذا كان الأمر كذلك فهو الحقيق بأن يدعى ويعبد ويتضرّع إليه لا يعبد لا غيره الّذي لا يقدر شيئاً وهو منقاد لأمر الله تعالى أيضاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الدّليل على إبطال الشّرك وعدم استحقاق غير الله بالعبادة والدّعاء والتّضرع إليه والإستغاثة، به أراد أن ينبّه المشركين على ما هو موجود في قرارة أنفسهم ممّا يدل على حقيّة التّوحيد وبطلان الإشراك، وأن يشار لهم بما هو مسلّم عندهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

(قل) للمشركين أيّها النّبيّ وأيّها الموحّد **(من)** هو **(ربّ السّماوات)** أي مالكهنّ وخالقهنّ **(والأرض)** والمراد بالسّماوات: كلّ ما علا فوق الأرض، وبالأرض: الأرض وكلّ ما فيها **(قل)** أنتَ بدلًا عنهم **(الله)** هو ربّها لأنّهم لا ينكرون ذلك **(قل أفـ)** بعد هذا **(اتّخذتم)** اعتقدتم **(من دونه)** أي غير الله **(أولياء)** وجعلتموهم أصحاب أموركم، وأنّهم ينفعونكم أو يضرّونكم، والحال أنّهم **(لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً)** فإذا لم يملكوا لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً فماذا يقدّرون لغيرهم **(قل)** فإذا ظهر هذا الأمر ظهور

الشّمس في رابعة النّهار فمن لم يعمل وفق ذلك فهو كالأعمى وغيره كالبصير، ولذا قال تعالى: ﴿قل هل يستوي الأعمى﴾ وهو الّذي لا يعمل وفق ما ظهر من الأدلّة وهو التّوحيد **(والبصير)** وهو الّذي يرى الأدلّة وينفع بها وهو الموحّد **(أم هل تستوي الظّلمات)** كناية عن الشّرك والضّلال في الأحكام **(والنّور)** وهو التّوحيد وشرائع الله تعالى، لأنّ كلّ من تفكّر في شريعة الله تعالى يعلم أنّه نور وهداية إلى الحقّ، وأنّ غيرها إذا تفكّر فيه العاقل فهو ظلمات وضلال عن الحقّ. **(أم)** أي هل جعلوا **(لله شركاء خلقوا)** بعض أشياء **(كخلقه)** تعالى للأشياء **(فتشابه الخلق)** أي فاختلط خلق الله وخلق الشركاء، ولذلك أشركوهم بالله تعالى، والإستفهام للإنكار أي ليس هناك من خلق شيئاً إلّا الله تعالى فلا شريك له، ولذا قال تعالى: **(قل الله خالق كلّ شيء)** وهذا كان مسلّم الجميع، فإذا كان هو الخالق وحده فاذاً **(وهو الواحد القهّار)** على العباد كلّه فلا يليق أن يخضع أحد لغيره لأنّ من شرط الإله أن يكون خالقاً وموجداً للأشياء.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الأدلّة على حقيّة ما جاء به الرّسولﷺ من التّوحيد والشّرائع وأصرّ الكافرون على الكفر والإشراك به، أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله ويعدّه بأنّ النّصر والغلبة له، وضرب لذلك مثلاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

(أنزل) الله تعالى **(من السّماء ماءً)** أي مطراً **(فسالت أودية)** جمع واد أي جرى كلّ وادٍ بالماء **(بقدرها)** أي بقدر ما يسع الماء ويجمعه **(فاحتمل السّيل)** فوقه **(زبداً رابياً)** مرتفعاً وعالياً، وهذا كناية عن الكثرة وغلبة الزّبد على الماء الصّافي **(و)** أي ويوجد **(ممّا يوقدون عليه في النّار)** فمن المعادن كالذّهب والفضّة والحديد وغيرها من المعادن، فيوقدون عليها النّار لتحمى فتلين ويبتغون بذلك **(ابتغاء)** صنع **(حلية)** من الذّهب والفضّة **(أو)** صنع متاع كالأواني والسّيوف وغير ذلك ممّا يحتاجه النّاس من أمتعة الدّنيا وحوائجها، ويشمل ذلك كلّ ما يصنع من المعادن كالطذائرات والسّيّارات

وغيرها ممّا سيحدث ويصنع، فحينما يحمون المعدن يعلو فوقه **(زبد مثله)** أي بقدر ذلك المعدن. أو المراد يعلوه الزّبد أي الصّدأ مثل ما يعلو الماء الزّبد **(كذلك)** مثل ماسمعت **(يضرب)** أي يمثل **(الله الحقّ والباطل)** فالحقّ كالماء الصّافي والمعدن، والباطل كالزّبد الّذي يعلوهما **(فأمّا الزّبد)** وإن علا أو غلب على الماء أو المعدن **(فيذهب جفاءً)** أي متلاشياً ولا يبقى **(وأمّا ما ينفع النّاس)** وهو الماء الصّافي **(فيمكث)** فيستقرّ ويبقى **(في الأرض كذلك مثل)** ما ترى **(يضرب)** أي يذكر **(الله)** تعالى **(الأمثال)** لإيضاح الأمور وتفهيم الأذهان، وهذا مثال للحقّ الّذي جاء به الرّسولﷺ فهو كالماء والمعدن، والكفر والإشراك وما عليه الكفرة كالزّبد والصّدأ، فكأنّ الله تعالى يقول يا أيّها النّبيّ وأيّها المؤمنون لا تحزنوا من كفر الكافرين وإنكار المكذّبين للإسلام ومعاداتهم، فإنّه ما من حقّ نزل إلّا وبجانبه باطل يعلو عليه كالزّبد الّذي على الماء والمعدن، ولكنّ كما أنّ الزّبد يذهب بعد قليل ويبقى الماء الصّافي والمعدن الخالص وينتفع منهما النّاس فكذلك الباطل الّذي يجابه الحقّ يذهب ويتلاشى، وأمّا الحقّ الّذي ينفع النّاس وهو العقائد الصّحيحة والشّرائع النّافعة الّتي جاء بها النّبيُّ تدوم وتبقى في الأرض، ووقع الأمر كما أخبر به القرآن هنا، فانتصر الإسلام والحقّ على كلّ الشّرائع ورفع رايته فوق كلّ عنيد ووطيد، ولولا تكاسل المسلمين وتفرّقهم وإنحرافهم عن حقيقة الدّين لما كان لعقيدة صولة ولا لنظام جولة إلّا نظام الإسلام وعقيدته و﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ سورة الرعد الآية/ ١١. فهل للمسلمين من عودة إلى دينهم؟ وهل للمؤمنين من يقظة من سباتهم ليعيدوا مجدهم؟ أللّهم إرحم وأنت أرحم الرّاحمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن عاقبة الّذين يتّبعون الحقّ الّذي نزل على الرّسول (ﷺ) وهو دين الإسلام، ويبيّن ثوابهم ويبيّن مصير الّذين كفروا به وعقابهم فقال جلّ وعلا:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

(للّذين استجابوا لربّهم) أي لدعوته وهو الإسلام واعتنقوه، قال تعالى ذلك للدّلالة على أنّ الإسلام ودعوة الرّسول إليه هي دعوة الله تعالى، أمر الرّسولﷺ بتبليغها

للنّاس. فالّذين استجابوا لهذه الدّعوة لهم **(الحسنى)** أي العاقبة الأحسن من كلّ عاقبة **(والّذين لم يستجيبوا له)** أي لهذه الدّعوة فلم يؤمنوا، يكون عاقبتهم من السّوء بحيث **(لو أنّ لهم)** كلّ **(ما في الأرض جميعاً)** مجتمعاً عنده **(ومثله معه لافتدوا به)** أي بكلّ ذلك لينجوا من هذه العاقبة السّيّئة، وحالهم السيّئ إلّا أنّه لا يقبل منهم كلّ ذلك رغم أنّهم لا يملكون هناك شيئاً. ثمّ بين حالهم السيّئ فقال جلّ وعلا: **(أولئك)** الّذين لم يستجيبوا لله **(لهم سوء الحساب)** أي الحساب السيّئ **(ومأواهم جهنّم وبئس المهاد)** هي أي جهنّم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن استحقاق كلّ طائفة من المؤمنين والكافرين لمصيرهم هذا. وأنكر على من يريد التّسوية بينهم في العاقبة والمصير فاستفهم إستفهام إنكار فقال جلّ وعلا:

﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

(أفمن يعلم) أي يؤمن ويزعم **(أنّ ما أنزل إليك من ربّك الحقّ)** فيتّبعه ويطّبقه أفهذا **(كمن هو أعمى)** أي كالّذي لا يلتفت إليه فلا يراه كالأعمى، أيستويان في العاقبة والجزاء؟ والجواب: كلّا، فإنّ التّسوية بين المطيع والعاصي لا توافق العدل والمنطق والإنصاف، وأنّ الله أعدل العادلين فلا يسوّي بينهما، وهذا الأمر واضح ولكنّه **(إنّما يتذكر)** ويتفكّر في الأمور ولا يصل إلى حقيقتها **(إلّا أولوا)** أي أصحاب **(الألباب)** جمع لب وهو العقل، فيفيد أنّ المنحرف عن الإسلام وأحكامه لاعقل له وإن بلغ من الثّقافات ما بلغ. ثمّ عرّف تعالى أولي الألباب بصفات ليعرفهم النّاس فيتّصفوا بصفاتهم فيصبحوا منهم لينالوا أجرهم وثوابهم فقال تعالى: **(الّذين يوفون بعهد الله)** وهو العهد الّذي أخذ الله تعالى من آدم وحواء أسكنهما في الأرض والّذى ذكره فقال: ﴿قلنا إهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم منّى هدي فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ سورة البقرة الآية/ ٣٨. وقال كذلك: ﴿قلنا اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض

عدوّ فإمّا يأتينّكم منّي هدى فمن اتبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾ سورة طه الآية/ ١٢٣. وهذا هو العهد الّذي أخذ من أبناء آدم وتناقلها الأنبياء والرّسل والعلماء جيلاً بعد جيل، وهو عبارة عن عبادة الله وحده والعمل بشريعته فقط. وقد صرّح تعالى بذلك فقال: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدوّ مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾ سورة يس الآيتان/ ٦٠، ٦١. فالّذين يوفون بهذا العهد ولا ينحرفون عن هدي الله ونظامه **(ولا ينقضون الميثاق)** وهو الّذي أخذ من النّبيّين أن يؤمنوا بالرّسول المبشّر به وهو محمّد (ﷺ) ويأمروا أممهم بذلك، وقد ذكر الله تعالى ذلك الميثاق فقال: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النّبين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين﴾ سورة آل عمران في الآية/ ٨١. وكان هذا الميثاق مسطوراً في التّوراة والأنجيل وسائر الكتب السّماوية الأخرى، فالّذين يوفون بالعهد الّذي ذكرنا فلا يعبدون غير الله تعالى ولايعملون بغير شريعته، والّذين لا ينقضون الميثاق فيؤمنون بالإسلام الّذي أتى به الرّسول (ﷺ) هم أولو الألباب، ولهم صفات أخرى ذكرها الله تعالى فقال: ﴿والّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ سورة الرعد الآية/ ٢١. فيشمل ذلك إيصال كلّ حقّ إلى أهله فيصلون الإيمان بالرّسول (ﷺ) بالإيمان بالرّسل السّابقين (صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليهم) ويصلون الرّحم مع الأقارب بالقول والمال، ويشمل أداء حقوق الفقراء والمساكين والأقارب والوالدين، وحقوق الجار والمؤمنين المسلمين جميعاً، وحقوق الله تعالى بأداء ما فرض عليه من أداء الواجبات وإجتناب المحرّمات، وحيث إنّ أداء هذه الحقوق يتوقّف على أمور ذكر تعالى هذه الأمور: منها الخشية من الله تعالى فقال جلّ وعلا: **(ويخشون ربّهم)** أن يغضب عليهم فيصيبهم بالمصائب في الدّنيا **(ويخافون سوء الحساب)** أي الحساب السّيّئ في الآخرة وهو ما كان وراءه العقاب، فبهذه الخشية ينساقون إلى أداء الحقوق ووصل ما أمر الله به أن يوصل. ويتوقّف أداء الحقوق أيضاً على الصّبر وتحمّل المشاق. وطلباً لرضاء الله تعالى وثوابه، ولذا قال جلّ وعلا: **(والّذين صبروا)** أي تحمّلوا المشقّة على أداء الواجبات والإجتناب عن المحرّمات فإنّها ثقيلةٌ على النّفس جدّاً فلا يمكن إلّا بتحميلها المشقّة وجهادها في سبيل ذلك، وابتغوا بهذا الصّبر**(إبتغاء)** أي طلب **(وجه)** أي رضاء الله تعالى في الدّنيا والآخرة. ثمّ ذكر الله تعالى أهمّ الواجبات الّتي ينساق إليها الإنسان بالخشية والصّبر وطلب رضاء الله تعالى، فقال جلّ

وعلا: **(وأقاموا الصّلاة)** فأدّوها بأنفسهم وأمروا بها من تحت سيطرتهم وأمرهم **(وأنفقوا ممّا رزقناهم)** من المال والقوّة والجاه في سبيل إسعاف المحتاجين إلى ذلك **(سرّاً وعلانيّةً)** فيفعلون ذلك سرّاً وقاية من الدّخول في الرّياء، وعلانية حثّاً للنّاس على ذلك وليقتدوا بهم **(ويدرؤون)** أي ويدفعون **(بالحسنة)** فيعاملون من أساء إليهم بالإحسان ويعملون بحديث الرّسول (ﷺ): (صل من قطعك وأعط من حرمك وأعف عمّن ظلمك)[١]، **(أولئك)** المتّصفون بهذه الصّفات ويعملون هذه الأعمال **(لهم عقبى الدّار)** أي الدّار المحمودة عاقبتها وهي الجنّة.

تنبيه: قال تعالى: ﴿وينفقون ممّا رزقناهم﴾ إلى أنّ كلّ ما لديهم هو ملك لله تعالى وهبه إيّاهم ووضعه عندهم أمانة، فإذا أمرهم بالإنفاق منه فليس لهم حقّ في أن يمتنعوا من ذلك، وإذا امتنع فللّه أن يعاقبه، لأنّ الوكيل إذا خالف أمر الموكّل له أن يحاسبه ويعاقبه بقدر المخالفة والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يشرح ويبيّن عقبى الدّار فقال جلّ وعلا:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾

(جنّات) أي أن عقبى الدّار هي **(جنّات عدن)** أي إقامة لا يخرج من دخلها **(يدخلونها)** هم **(ومن صلح)** أي آمن، فكلّ من آمن يدخل الجنّة عاجلاً إن لم يستحقّ العذاب أو آجلاً إن استحق بعد تطهّره من الذّنوب **(من آبائهم وأزواجه)** فجمع زوج يطلق على الذّكر والأنثى قال تعالى: ﴿وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنّة﴾ سورة البقرة الآية/ ٣٥. **(وذريّاتهم)** يشمل الأولاد وأولاد الأولاد **(والملائكة)** بأمر الله تعالى **(يدخلون عليهم)** للتّهنئة **(من كلّ باب)** من أبواب الجنّة ويقولون لهم: **(سلام)** أي أمان من كلّ مكروه **(عليكم)** أيّها المؤمنون وذلك الأمان حصل لكم **(بما صبرتم)** ما مصدريّة تؤول ما بعدها مصدراً أي بسبب صبركم **(فنعم عقبى الدّار)** الّتي نزلتموها هي هذه الدّار وهي الجنّة.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢٨/ ٦٥٤.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مصير الّذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل أراد أن يذكر الّذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

(والّذين ينقضون عهد الله) الّذي عهد إلى آدم وأبنائه أن يعبدوا الله ويحكموا ويعملوا بهدية وشريعته **(من بعد ميثاقه)** أي توثيق ذلك العهد بإرسال الرّسل والأنبياء والدّعاة **(ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل)** فلا يوصلون الإيمان بالرّسول(ﷺ) الإيمان بالرّسل السّابقين. ولا يؤدّون حقوق الله وحقوق النّاس **(ويفسدون في الأرض)** بإرتكاب المعاصي والإنحراف عن منهج الله تعالى **(أولئك لهم اللّعنة)** أي البعد من رحمة الله تعالى **(ولهم سوء الدّار)** أي الدّار السّيّئة وهي دار جهنّم وبئس المصير.

ثمّ إنّ كلّ الإنحرافات الّتى يرتكبها الإنسان فإنّما يرتكبها لمصالح ومنافع دنيويّة وطلباً لسعة الرّزق وهرباً من ضيقه فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾

(الله يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر) فلا ينبغي أن يعصي العبد ربّه خوفاً من ضيق الرّزق أو طمعاً في سعته، بل عليه أن يطيعه ويطلب منه سعة الرّزق وحفظه من ضيقه، وكذلك حينما يبسط الرّزق لعبد فعليه أن يشكره ولا ينساه ويتّبع أوامره ولا يعصيه، ولكنّ هؤلاء الكافرين بل وأكثر من بسط في رزقه عكس الآية حيث **(وفرحوا بالحياة الدّنيا)** فرح بطر واستكبار ونسوا الآخرة والعمل لها، وعصوا الله تعالى وانحرفوا عن طاعته وشريعته وقد خسروا حيث **(وما الحياة الدّنيا إلّا متاع)** أي تمتّع قليل، فيذهب ويفنى بالمصائب أو بالموت، فعلى العبد أن يجعلها وسيلة لتحصيل حياة أبديّة في الآخرة ولا يجعلها سبباً لنسيان الآخرة أو ضياعها.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نقض العهد وقطع ما أمر الله تعالى به أن يوصل ومن جملة ذلك عدم الإيمان بالرّسول (ﷺ) أراد الله تعالى أن يذكر حجّة الّذين يكفرون به وأن يدحض حجّتهم فقال جلّ وعلا.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

(ويقول الّذين كفروا) بمحمّد بعد ما رأوا من المعجزات القاهرات والآيات الباهرة الدّالة على رسالته دون شكّ، وذلك من المعجزات الموجودة في القرآن الكريم من بيانه للحكم النّاصعة والأحكام النّافعة والعلوم الوفيرة والأخبار عن المغيبات الماضية كما هي والمستقبلة كما تقع، والإعجاز في النّظم والتّأليف، يقولون بعد هذا كلّه: **(لولا أنزل عليه)** أي على محمّد (ﷺ) **(آية)** أي معجزة كعصا موسى وناقة صالح (ﷺ) ولم يكتفوا بكلّ هذه المعجزات الموجودة في القرآن وفي خلقه ومنطقه وأسلوبه في الحكم والرّسالة والتّبليغ **(قل)** لهم أيّها النّبيّ: أنّ الضّلال والهدي ليسا مربوطين بالآيات والمعجزات وإلّا لاهتديتم بهداية القرآن ومعجزاته، بل الضّلال والهدي مربوطان بمشيئة الله تعالى وإرادته حيث **(إنّ الله يضلّ من يشاء)** وهو الّذي علم بخبث طويّته وسوء نيّته، ولا ينظر إلى الحقّ ليؤمن به، بل هو مصرّ على كبريائه وغطرسته ووقاية مصالحه ومنافعه **(ويهدي إليه)** أي إلى دينه وإطاعته **(من أناب)** أي من يحبّ الحقّ ويسعى الوصول إليه فإذا علم به **(أناب)** أي رجع إليه ممّا كان عليه من الباطل أو الفساد، ثمّ بيّن تعالى هؤلاء فقال جلّ وعلا: **(الّذين آمنوا)** أي أحبّوا الحقّ فلمّا وجدوه آمنوا **(وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله)** تعالى، والمراد بذلك أنّ دين الله وشريعته توافق عقولهم وتتقبّلها **(ألا بذكر الله تطمئن)** أي ترتاح وتستقرّ وتخرج عن القلق **(القلوب)** الطّاهرة والّتي تشتاق إلى الحقّ، ولنضرب لك مثالاً لما في هذه الآية فتقول: ربّما تجد تلميذين أحدهما طيّب النّفس ويحبّ الحقّ ويريده والآخر خبيث الطويّة ولا يسعى للفهم، فأشكل عليهما مسألة فأتاهما ثالث من زملائهم فشرح المسألة موافقاً للحقّ، فترى الّذي يريد الحقّ وله نفس طيّبة ينقاد فوراً ويستسلم لمن شرح المسألة، وأمّا الآخر فلا يزال يجادل ولا يقبل لما فيه من العتوّ والاستكبار. ثمّ أراد تعالى أن يذكر جزاء هؤلاء المنيبين للحقّ حينما أدركوه فقال: **(الّذين آمنوا)** بالحقّ **(وعملوا الصّالحات)** وفق ما بيّن لهم الله تعالى وعده صالحا **(طوبى)** أي حالة أطيب من كلّ الحالات **(لهم)** يوم القيامة **(وحسن مآب)** من إضافة الصّفة إلى الموصوف أي مرجع ومأوى حسن وهو الجنّة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يخبر رسوله بأنّه لم يرسل لإظهار الخوارق والآيات، وإنّما وظيفته التّبليغ والإرشاد فقال جلّ وعلا:

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

(كذلك) أي كما أرسلنا في الأمم السّابقة رسلاً **(أرسلناك في أمّة قد خلت من قبلها أمم)** أرسلنا إليهم الرّسل وهم يعرفون ذلك، فلست بدعاً من الرّسل ولا رسالتك أمراً جديداً فيستبعد، وقد أرسلناك لتبلّغ اليهم أحكامنا و**(لتتلو عليهم الّذي أوحينا إليك)** فهذه وظيفتك ولست مرسلاً لتظهر لهم الخوارق والآيات الّتي يريدون، وأنّ إرسال الرّسل رحمة من الله تعالى على عباده؛ فيرسل تعالى الرّسل لأنّه رحمان بهم **(وهم يكفرون بالرّحمن)** يقولون وما الرّحمن **(قل هو ربّي عليه توكّلت)** في نصرة ديني وإعزازه **(وإليه متاب)** أصله متابي أي رجوعي في كلّ أمر، وإليه رجوعي يوم القيامة فيحاسبني على التّبليغ وعدمه، حذفت ياء متابي لرعاية الفاصلة.

ثمّ إنّ الرّسول والمؤمنين لوفور شفقتهم على النّاس وحبّهم في إيمانهم ليسعدوا في الدّنيا والآخرة كانوا يحبّون نزول الآيات حسبما يطلبون ليؤمنوا فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

(ولو أنّ قرآناً) أنزلنا عليك **(سيّرت به الجبال)** كما طلبوا وقالوا: يا محمّد إن أردت أن نؤمن لك فانقل هذه الجبال عن مكّة ليتّسع لنا الفضاء فنزرع فيه البساتين **(أو قطّعت به)** بالقرآن **(الأرض)** كما قالوا: إقطع لنا الأرض وفجّر العيون **(أو كلّم به**

الموتى) بأن أحيوا فشهدوا بصدقك ورسالتك كما طلبوا ذلك، لو فعلنا كلّ ذلك بالقرآن لما كان ذلك القرآن أعظم من هذا القرآن في الإعجاز، ولما آمنوا به كما لم يؤمنوا بهذا القرآن لأنّ كفرهم ليس لعدم أدلّة الصّدق والإعجاز، بل لحسدهم وكبريائهم، فلو أنزل عليهم كلّ آية لما آمنوا، وأنّ الله تعالى لا ينزل الآيات حسب إقتراحاتهم **(بل لله الأمر)** في اختيار الآيات **(جميعاً)** فيخصّص كلّ رسول بنوع من الآيات وحسبما يلائم زمانه ومكانه. ثمّ خاطب المؤمنين الّذين كانوا شديدي الحرص في إيمان القوم لشوكة الدّين وزيادة قوّته، فقال جلّ وعلا: **(أفلم ييأس)** أي أفلم يعلم **(الّذين آمنوا أن)** أي أنَّ الشأن هو أنّه **(لو يشاء الله)** الهداية جبراً وقهراً وبالخوارق والآيات **(لهدى النّاس جميعاً)** قهراً وجبراً إلّا أنّه لم يشأ ذلك، بل خلق النّاس وجعل لهم الأبصار ليروا الآيات، والسّمع ليسمعوا البراهين، والعقل ليفكروا به، ونصب لهم الأدلّة ونبّههم عليها بالرّسل والدّعاة، ثمّ جعل الاختيار في أيديهم، فمن شاء فكّر ووصل إلى الحقّ فآمن به فينال أجراً عظيماً، ومن عطّل عقله عن التّفكير فكفر فله العذاب الأليم. ثمّ أنذر الله تعالى الكافرين بالخيبة والذّلّ وبشّر المؤمنين بالنّصر والسّيادة، فقال جلّ وعلا: **(ولا يزال الّذين كفروا)** كما ترون فإنّهم **(تصيبهم بما)** أي بسبب **(ما صنعوا)** من الكفر والإنكار لدين الله تعالى فتصيبهم دائماً **(قارعة)** أي داهية وبلاء **(أو تحلّ)** القارعة مكاناً **(قريباً من دارهم)** ليعتبروا ويتّعظوا. وإنّ هذه القوارع تدوم **(حتّى يأتي وعد الله)** تعالى بالنّصر التّام للمؤمنين والهزيمة النّهائية للكافرين. وإنّ هذا الوعد يأتي حتماً حيث **(إنّ الله لا يخلف الميعاد)** أي وعده إذا وعد بشيء وجاء ذلك الوعد فكان النّصر للمؤمنين، وانهزم الكافرون يوم بدر وحنين والأحزاب والفتح وغيرها من أيّام الفتوحات الإسلاميّة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله ويأمره بالصّبر إلى أن يأتي ذلك الوعد فقال جلّ وعلا: **(ولقد استهزئ برسل)** كثيرين **(من قبلك)** فصبروا **(فأمليت)** فأمهلت **(للّذين كفروا)** وأخرّت عنهم العذاب ليعتبروا ويتّعظوا **(ثمّ)** بعد أن لم يفدهم العظات والعبر وحصل للرّسل اليأس منهم **(أخذتهم)** أي عاقبتهم وأهلكتهم **(فكيف كان عقاب)** أي عقابي، والإستفهام للتّهويل أي كان عقابي عظيماً ومهولاً، فاصبر يا محمّد كما صبر تلك الرّسل إلى أن يأتيك النّصر المبين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يظهر ويثبت ضلال المشركين فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾﴾

(**أفمن هو قائم**) أي مسيطر (**على كلّ نفس**) وعالم (**بما**) بكلّ ما (**كسبت**) ويجازيها عليه، أفهذا وهو الله تعالى كغيره الّذي لا قدرة له على شيء، ويجهل كلّ أمر إلّا ما شاء الله، والإستفهام للإنكار أي ليس مثله فلا يليق بعاقل أن يعبد غيره، ومع ذلك ضلّ هؤلاء (**وجعلوا لله شركاء**) عبدوهم فأطاعوهم في أوامر خلاف أمر الله تعالى، أو اعتقدوا فيهم النّفع والضّر (**قل**) لهم أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم (**سمّوهم**) أي صفوا شركاءكم بصفاتهم ليتبيّن هل جعلتم لله شريكاً يدانيه في العلم والكمال والجلال والجمال، وإنّ ذلك غير ممكن (**أم**) بل (**تنبئونه**) أي تخبرون الله تعالى (**بما**) بشريك حينما تصفونه (**لا يعلم في الأرض**) شيئاً أو المعنى تخبرون الله حين إثبات الشّريك له (**بما لا يعلم**) هو وجوده (**في الأرض**) كناية عن عدم وجوده لأنّه لو وجد لعلمه الله تعالى (**أم**) ليس لكلامهم حقيقة بل تخبرون (**بظاهر من القول**) الّذي لا أصل له ولا تحقّق في الواقع ونفس الأمر؛ فهو كذب محض، فبعد هذه الإستفهامات تبيّن بطلان قولهم وعقيدتهم. وإنّه لا دليل لهم فيها (**بل زيّن للّذين كفروا مكرهم**) أي ضلالهم الّذي هم فيه من الشّرك فزيّن لهم الشّيطان أو التّقليد أو الإنتفاع بهذه العقيدة أو الإستعلاء والكبرياء أو الحسد أو الخوف من السّيادة والكبراء أو غير ذلك من أسباب كلّ ضلال وكفر وانحراف عن الحقّ (**وصدّوا**) أي منعوا منهم تلك الأسباب (**عن السّبيل**) الحقّ وهو التّوحيد ودين الإسلام (**ومن يضلل الله**) إياه لاتّباعه أسباب الضّلال (**فما له من هاد**) يهديه ويأتي به إلى الحقّ. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن عاقبتهم السّيئة فقال جلّ وعلا: (**لهم عذاب**) كبير (**في الدّنيا**) بالقتل والأسر والبلايا والمصائب (**ولعذاب الآخرة**) أي يوم القيامة (**أشقّ**) من عذابهم في الدّنيا (**وما لهم من الله من واق**) فيه تقديم وتأخير. فالتّقدير: (**وما لهم من واق**) يقيهم ويحفظهم (**من**) عذاب الله تعالى إذا أراد بهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مصير المشركين أراد أن يذكر ثواب المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿۞مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

(**مثل**) أي حال (**الجنّة الّتي وعد المتّقون**) بها هي أنّها (**تجري من تحتها الأنهار أكلها**) أي ما يؤكل من الأطعمة والفواكه (**دائم**) لا يفنى ولا يغيب (**وظلّها**) دائم أيضاً فلا حرّ ولا برد في الجنّة (**تلك**) العاقبة الحسنة هي (**عقبى الّذين آمنوا**) وثوابهم (**وعقبى**) وعقاب (**الكافرين النّار**) في جهنّم وبئس المصير.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى موقف المشركين من الرّسولﷺ أراد أن يبيّن موقف أهل الكتاب منهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

(**وَالَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ**) وَهُمُ اليَهودُ وَالنَّصارى (**يَفْرحونَ بِما أُنزِلَ إلَيك**) يا محمّد لأنّه يصدّق كتبهم الصّحيحة وغير المحرّفة، ولذلك يتّبعونه ويؤمنون بك إلّا أنّ بعضهم الّذين لا يحبّون الحقّ لا يؤمنون حيث (**ومن الأحزاب**) أي وبعض من أحزاب أهل الكتاب (**من ينكر بعضه**) أي بعض ما أنزل إليك ممّا يخالف هواهم وتحريفاتهم (**قل**) مبيّناً لهؤلاء موقفك (**إنّما أمرت**) من قبل الله تعالى (**أنّ أعبد الله**) وحده دون المسيح والعزير الّذي اتّبعتموه وحرّفتم كتبكم لذلك (**ولا**) أي وأمرت أنّ (**لا أشرك به**) بالله كما أشركتم زوراً وبهتاناً (**إليه**) أي إلى عبادته وحده أدعو (**وإليه**) لا إلى غيره (**مآب**) مآبي ومرجعي يوم القيامة، فهو الّذي يحاسب ويثيبُ ويعاقب فليس في قدرة غيره ممّا تزعمونه شيء من ذلك، ولذلك أدعو إليه فقط دون من سواه.

ثمّ إنّ بعض أهل الكتاب كانوا يطعنون في رسول الله بأنّه أنزل إليه الكتاب بغير اللّغة الّتي أنزل بها الكتب السّماوية السّابقة زعماً منهم أنّ لغة الوحي لغة خاصّة لا تتبدّل ولا تتغيّر، فردَّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

(وكذلك) أي وكما أنزلنا الكتب السّابقة بلغة الرّسل الّذين أنزل عليهم ليفهموها ويبلغوها للنّاس **(أنزلناه)** أي القرآن **(حكماً عربيّاً)** أي حكماً بلغة العرب لتفهمه أنت يا محمّد وتبلّغه للنّاس، فإنّه ليس من المعقول أن ينزل كتاب إلى رسول بلغة لا يفهمها ويكلف بتبليغه وبيانه للنّاس **(فاتّبع)** أيّها السّامع هذا القرآن **(ولئن اتّبعت أهواءهم)** أي أحكام اليهود والنّصارى **(من بعد ما جاءك من العلم)** بأنّ ما في القرآن هو حكم الله تعالى **(مالك من)** عذاب الله على هذا الإنحراف **(من ولي)** ينصرك **(ولا واق)** يقيك من عذابه. وهذا الخطاب يراد به الأمّة فإنّ الرّسولﷺ معصوم من اتّباعهم، فكلّ مسلم اتّبع في حكمٍ من الأحكام أنظمة اليهود والنّصارى يبتلى بعذاب من الله تعالى لا ينقذه منه أحد أبداً ويكون كافراً أعاذنا الله تعالى.

تنبيه: قد يظنّ بعض النّاس من هذه الآية أنّ أحكام القرآن أحكام عربيّة قررها القرآن وأثبتها، وذلك كفر وضلال لأنّه لو كان الأمر كذلك، فلماذا عارض القرآن العرب وعادوه ولم يقبلوه بل نزل القرآن، وكان في العرب عادات وتقاليد وأحكام وكانت هذه أقساماً[(١)] فبعض منها كانت موروثة من دين إبراهيم وإسماعيل (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) ولم يطرأ عليه أي تغيير وتبديل فقرّرها القرآن والإسلام كما هي، وبعضها كانت من دين إبراهيم وإسماعيل (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) إلا أنّه أدخل الجاهليّون فيها أموراً وحرّفوا منها أموراً أو غيّروها وبدلّوها، فأعادها الإسلام إلى حقيقتها وطهرها ممّا ألصق بها من تحريفات الجاهليّة ثمّ قرّرها، وبعضها كانت أموراً جاهليّة محضةً لا علاقة لها بدين إبراهيم وإسماعيل (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام) فأبطلها الإسلام وحرّمها شرعاً باتاً وعد بعضها شركاً وبعضها كفراً وبعضها فسقاً، فالإسلام والقرآن أتيا بدين الله وهو الإسلام الدّين الأزلي الأبدي دين إبراهيم (عليه السلام) وأعاده إلى حقيقته وطهروه ممّا ألصق به قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة آل عمران ـ ٩٥. والآيات في أنّ الرّسول (ﷺ) جاء بدين الله دين جميع الأنبياء والمرسلين كثيرة وعلى الفطن غير خفيّ، والله الموّفق وهو يهدي السّبيل.

ثمّ قد كان بعض الكافرين من أهل الكتاب يطعنون في رسول الله (ﷺ) بأنّه يتزوّج وله أولاد، وبأنّه لم يأت بالمعجزات الّتي أتى بها الرّسل السّابقون، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

---

(١) أي التقاليد والأحكام كانت على أقسام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

(و) أي وبعزّتي **(لقد أرسلنا رسلاً)** كثيرين من الّذين هم يؤمنون بهم كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم (على نبيّنا وعليهم الصّلاة والسّلام) وكلّهم كانوا **(من قبلك)** أيّها النّبيّ **(وجعلنا لهم أزواجاً)** فرادى ومتعدّدات **(وذريّةً)** ذكر تعالى ذلك على أنّهم جامعوا أزواجهم، فالأزواج وما بين الأزواج ورجالهنّ ممّا ينشأ منه الذّرية لا ينافي رسالتك ونبوّتك، كما لم ينافي رسالة ونبوّة السّابقين الّذين هم يؤمنون بهم، وبالنّسبة للإثبات بالمعجزات قال تعالى: **(وما كان)** أي وما أمكن **(لرسول أن يأتي بآية)** أي معجزة من أي نوع كانت**(إلّا بإذن الله)** تعالى وإرادته وحسبما يخصّصها له، فليست المعجزات حسب اختيار الرّسول أو أمّته، بل كلّ ذلك مرهون بإرادة الله تعالى، وقد خصّ كلّ نّبيّ بنوع من المعجزات حسب ما يلائم مكانه وزمانه وحسب ما تقتضي حكمة الله تعالى **(ولكلّ أجل)** أي زمان **(كتاب)** تقدير من الله تعالى وتخصيص للمعجزات وفق حكمته وإرادته. ثمّ قد كان من بعض مطاعنهم أنّ الرّسول نسخ بعض الأحكام الموجودة في كتبهم فقال تعالى: **(يمحو الله ما يشاء)** من الأحكام **(ويثبت)** ما يشاء منها، أي أنّ الحكم والتّشريع بيد الله تعالى واختياره، فيمحو بعض الأحكام ويثبت بعضها حسب ملاءمة الزّمان أو لاختبار عباده **(وعنده أمّ الكتاب)** الّذي هو أصل لكلّ كتاب، فيتنزل منه الكتب والأحكام في أوقات معينة إلى أن ختمت الكتب والرّسالة والشّرائع بمحمّد (ﷺ) وشريعته ورسالته، فشريعته خالدة لا يقرّر بها نسخ لأنّها تصلح لكلّ زمان ومكان ولكلّ قوم من الأقوام، وأمّ الكتاب هو علم الله تعالى أو اللّوح المحفوظ، وكلاهما متّفقان إلّا أنّ الأصل هو علم الله تعالى، وينقش اللّوح منه فيطّلع عليه الملائكة فيقومون بالعمل بما فيه.

ثمّ إنّه لقد كان يخالج قلب الرّسول (ﷺ) بعض الحبّ والاستعجال بأن ينزل الله تعالى بعض العذاب على الكافرين ليؤمنوا في إسعادهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

(وإمّا نرينّك بعض الّذي نعدهم) أي بعضها نخوّفهم به من العذاب في حياتك **(أو نتوفّينّك)** فتلتحق بالملأ الأعلى دون أن ترى عذابهم، فلا يهمنّك عذابهم ولا يثبطنّك عن الدّعوة غرورهم وإمهالنا لهم، فإنّه ليس من واجبك إيمانهم أو عذابهم **(فإنّما عليك)** واجبك **(البلاغ)** التّبليغ فقط **(وعلينا الحساب)** والإنتقام وإنزال العذاب وعدمه وتقديمه أو تأخيره.

ثمّ بعد أن أكّد الله تعالى في هذه الآية أنّ العذاب يأتي سواء في حياة الرّسول (ﷺ) أو بعدها، ألفت أنظار الكفّار إلى ذلّهم وهوانهم ونصرة المسلمين وعزّهم، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

(أو لم يروا) أي أو لم ينظر ويتفكّر الكافرون في **(أنّا نأتي الأرض)** أي أرض الكافرين ونتصرف فيها حيث **(ننقصها)** منهم ونضمّها إلى أرض المسلمين فنفتحها عليهم ويدخل أهلها في هذا الدّين، ألم يروا ذلك فيعلموا أنّ الله تعالى يريد نصر الإسلام والمسلمين وهزيمة الكفر والكافرين، والإستفهام للأمر أي فليروا وليفكّروا في ذلك فيعتبروا ويؤمنوا قبل أن يذلّوا بالقتل والأسر ويعذّبوا **(والله يحكم)** بعزّ الإسلام والمسلمين إن عملوا وأخلصوا في العمل **(لا معقّب)** أي لا رادّ لحكمه وقضائه **(وهو سريع الحساب)** أي العقاب لمن أراد عقابه.

ثمّ بعد أن ألفت الله تعالى أنظار الكافرين إلى الحاضر أراد أن يلفت أنظارهم إلى الماضي ليعتبروا فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

(وقد مكر) أي حاول وعمل **(الّذين من قبلهم)** من الأمم السّابقة لصدّ النّاس عن دين الله تعالى ومعاداة رسلهم وإبطال أمرهم فلم ينجحوا فلا ينجح أيّ أمة في معاداتها لرسولهم حيث **(فللّه المكر)** التّقدير للأمور **(جميعاً)** وهو يؤيّد رسله ويخزي أعداءهم

(يعلم ما تكسب كلّ نفس) تريد الإساءة بالرّسل وإبطال دينه فينتقم منهم في الدّنيا **(وسيعلم الكفّار)** في الآخرة **(لمن عقبى الدّار)** أي الدّار الحميدة عاقبتها هل لهم؟ كلّا، أم للمؤمنين؟ بلى ونعم.

ثمّ سلّى الله رسولهﷺ فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

(ويقول الّذين كفروا) لك يا محمّد أنّك **(لست مرسلاً)** من الله تعالى فلا تحزن بذلك ولا تحادّ في الجدال بل **(قل)** لهم **(كفى)** أي أكتفى **(بالله شهيداً بيني وبينكم)** بأنّي رسول من الله تعالى **(ومن عنده علم الكتاب)** أي العلم بالكتب السّماويّة السّابقة وبالتّوارة، فإنّهم يعلمون ذلك، وإنّي رسول الله حيث يجدون الأخبار برسالتي وأوصافي في التّوراة، وأنّ الصّادقين منهم يشهدون بذلك ولا يكتمونه وفاءً بالعهد والميثاق الّذي أخذ منهم في التّوراة وفي الإنجيل، وقد اعترف بهذا الحقّ كثير من أحْبار اليهود ورهبان النّصارى، وأوفوا بالعهد وأسلموا، ولكنّ الّذين أعمى حبّ الرّئاسة أبصارهم وأطفأت الأطماع والكبر والإستعلاء نور قلوبهم، كتموا هذه الشّهادة فكفروا، وإنّ الله يضل مَنْ يَشاء ويهدي من يشاء وبيده حسن الخاتمة وطيّب الختام، أللّهم ارزقنا وارحمنا وتوفّنا، وأتِهِ أعمارنا وأعمالنا بحسن الخاتمة وحسن الختام.

آمين.

سورة إبراهيم

(مكيّة، نزلت بعد سورة نوح، وآياتها إثنتان وخمسون، سميّت بهذه التّسمية لما فيها من ذكر نبذة من حياة إبراهيم (عليه السلام))

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾

(ألر) قد ذكرنا مراراً أنّ هذه الحروف المقطّعة تأتي في أوائل بعض السّور للدّلالة على أنّ هذا القرآن من الله تعالى، وأنّ محمّداً رسوله، وذلك بوجهين:

الأوّل: كأنّه يقول تعالى إنّ هذا القرآن هو من هذه الحروف الّتي تركّبون منها خطبكم وأشعاركم، وليس من حروف غريبة أو لغة أجنبيّة، وما استطعتم ولن تستطيعوا بكلّ بلغائكم أن تأتوا بمثل أقصر سورة منه مع حرصكم على ذلك، فدلّ ذلك على أنّه من الله تعالى، فإنّ الإنسان يستطيع معارضة كلام الإنسان ولكن لا يستطيع معارضة كلام الله تعالى.

وثانياً: إنّ التّعبير عن أسماء الحروف لا يعلمه إلّا القارئ أو الدّارس أو الكاتب، فتعبير الرّسول وهو أمّي لم يمارس شيئاً من القراءة والكتابة عن أسماء هذه الحروف يكون دليلاً على أنّ القرآن من الله تعالى.

ويؤيد هذين المعنيين أنّه كلّما ذكرت هذه الحروف ذكر بعدها الأخبار بأنّ محمّداً

رسول الله أو الإشادة بالقرآن، كما هنا حيث قال: **(كتاب)** أي هذا الّذي تتلوه يا محمّد هو **(كتاب)** عظيم **(أنزلناه)** بواسطة جبريل **(إليك)** لتبلّغ النّاس بما فيه وتعظهم به وترشدهم إلى الحقّ **(لتخرج)** بتبليغ هذا القرآن والوعظ والإرشاد والتّعليم به **(النّاس)** كلّهم **(من الظّلمات)** أي من العقائد الباطلة والأحكام الفاسدة **(إلى النّور)** وهو عقائد الإسلام وأحكامه. وفي جمع الظّلمات وإفراد النّور إشارة إلى أنّ حكم الله ودينه وسبيله واحد، وهو نور أي كالنّور في أنّه يهتدي به النّاس به إلى الحقّ والعدل كما يهتدي النّاس بالنّور إلى مقاصدهم ومنازلهم، وما عدا دين الله تعالى وسبيله توجد أنظمة وعقائد وشرائع كثيرة وكلّها ضلال وباطل يتيه فيها الإنسان كما يتيه ويضلّ في الظّلمات، وعن ابن مسعود (رضي الله عنه) قال: خطّ لنا رسول الله (ﷺ) خطّاً وقال: هذا سبيل الله، ثمّ خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: هذه سبل على كلّ سبيل شيطان يدعو إليه، ثمّ قرأ (ﷺ): ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1] سورة الأنعام الآية/ ٥٣.

(بإذن ربهم) أي بإرادته، أفادت الآية إلى أنّ وظيفة كلّ رسول أو نبيّ أو مرشد أو عالم أو رجل من الصّالحين أو الدّعاة إنّما هي الوعظ والإرشاد بما أنزل من الله تعالى إلى الرّسول من الكتاب والسّنة، وأمّا الهداية بمعنى الإيصال إلى الحقّ والإخراج من الباطل فهو من وظيفة الله تعالى فقط. وقال: (بإذن ربِهم) ولم يقل بإذن الله إشارة إلى أنّ التّربية هي حقّ الله سواء كانت تربية روحيّة أو ماديّة أو معنويّة فهو المربّي، وكما أنّ أحداً لا يستطيع أن يربّي أحداً في جسمه فيحسّنه إذا كان مشوّهاً، أو يطوّله إذا كان قصيراً أو بالعكس، أو يسمّنه إن كان ضعيفاً أو بالعكس، أو يجعله ذكيا إذا كان بليداً أو بالعكس، إلى غير ذلك من أوصاف الإنسان الجبليّة، فكذلك لا يستطيع أن يربّي أحد فاسقاً فيجعله صالحاً أو ضالاً فيجعله مهتدياً إلّا الله، وإنّما على الإنسان العظة والإرشاد والبيان، وأمّا الإدخال في القلب أو جرّ المرء إلى الحقّ فهو بيد الله تعالى، وكذلك تفسير الآية إلى أنّ التّربية الأخلاقيّة والفرديّة والإجتماعيّة والتّشريعات كلّها الّتي تتعلّق بتحسين تربية النّاس أفراداً وجماعات لله يرسلها إلى الرّسل وهم يبلّغون النّاس بها ليعلموا ويتربّوا بها، وكلّ تربية خارجة عن تربية الله تعالى فهو كفر وضلال، لأنّ الله هو الربّ فله التربية لا لأحد غيره، إلّا وفق تربيته الّتي أنزلها على الرّسول الأكرمﷺ.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٣٤٨ الحديث رقم ٣٢٤١.

ثمّ بين النّور الّذي يخرج الرّسول النّاس من الظلمات إليه فقال: **(إلى صراط)** أي إلى دين وحكم وشريعة **(العزيز)** أي القويّ الّذي ينتقم ممّن حاد عن دينه وانحرف عن شريعته، ويثبت من استقام على طاعته والعمل وفْقَ منهجه وطريقته **(الحميد)** أي المحمود في كلّ شؤونه، فهو محمود في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وفي أحكامه، فأحكامه محمودة؛ فمن انحرف عنها فقد انحرف إلى ما هو قبيح وغير محمود، فانتقامه منه محمود إذاً، وهو حميد يحمد في ذلك ويثنى عليه، فهو محمود إذا عاقبَ العاصي وإذا أثاب المطيع أو عفا عمّن شاء من العباد، فكلّ ذلك منه جميل يحمد هو عليه، فالحمد لله على كلّ حال.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ على ما ذكر في هذه الآية فقال جلّ وعلا **(الله)** أي المستجمع لجميع صفات الكمال، ومن كان كذلك فسبيله نور وما عداه ظلام وله التّربية دون غيره وإنّه قوي يستطيع الانتقام **(الّذي له ما في السّماوات وما في الأرض)** مُلكاً ومِلكاً أي ملكيّة ومالكيّة وخلقاً، فمن كان مالك كلّ شيء وخالقه فهو يعرف مصلحة ملكه ومملكته وخلقه ومفسدته، ونظامه هو الحقّ فهو النّور وما سواه ظلمات، وهو يعرف التّربية؛ فله التّربيّة دون من سواه، ومن له هذا الملك فهو القويّ ولا يعجز عن انتقام من حاد عن منهجه وشريعته، ويحمد على كلّ ما فعل في ملكه وعباده، فإنّه لا يعمل شيئاً إلّا لحكمة يكون بها ذلك العمل محموداً وحسناً **(وويل للكافرين)** بهذا المالك والمال والرّبّ والهادي، والمنحرفين عن حكمه ونظامه **(من عذاب شديد)** يناله في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما حسبما يقدر ويشاء الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض أوصاف الكافرين ليُعرفوا فيجتنب العباد عنهم وعن صفاتهم الّتي تورث هذا العذاب الشّديد فقال جلّ جلاله وعمّ نواله وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

(الّذين) أي الكافرون المستحقّون لهذا العذاب الشّديد هُمْ **(الّذين يستحبّون)** أي

يختارون (**الحياة الدّنيا على الآخرة**) فيعملون أعمالاً تضرّهم في الآخرة لمصالح ومنافع دنيوية أو لأداء شهوات بطنيّة أو جنسيّة أو كبريائيّة، وذلك يكون سبباً لبعدهم عن دين الله الّذي ينهاهم عن ذلك فيكرهون الحقّ (**ويصدّون عن سبيل الله**) أي يمنعون النّاس عن دينه الّذي يخالف هواهم وكبرياءهم والخوض في الشّهوات (**ويبغونها**) أي شريعة اللّه (**عوجاً**) يميل ويتبدّل حسب رغباتهم وشهواتهم ومصالحهم ومنافعهم فيتركونها ويبتعدون عنها، ويكفرون بها أو يؤولون نصوصها حسب ما يريدون ويبغون (**أولئك**) الّذين يتّصفون بهذه الصّفات (**في ضلال مبين**) واضح لا يخفى على من له قلب أو القي السّمع وهو شهيد. ثمّ إنّه قد كان بعض أهل الكتاب يشكّكون النّاس في هذا الدّين ويصدّونهم عنه بأنّهم يقولون: لماذا أنزل هذا القرآن باللّغة العربيّة خلاف الكتب السّماويّة السّابقة؟ فإنّ كلّها بغير هذه اللّغة، فيوهمونهم أنّ لغة الوحي هي لغة التّوراة وغيرها من الكتب المقدسّة فقال تعالى ردّاً عليهم: (**وَما أرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إلّا بِلِسانِ قَوْمِهِ**) الّذين يعيش هو فيهم ويتكلّم بلغتهم ليفهم هو ما أنزل إليه ويفهمه للقوم و(**ليبيّن**) لهم، كيف لا وأنّه من المحال أن يكلّف رسول بتبليغ ما لا يفهمه ولا يدري معناه (**فـ**) بعد أن فهم الرّسول ما أنزل إليه وبلّغ قومه وفهمهم (**يضلّ الله من يشاء**) أي يحكم عليه بضلاله وهو الّذي استكبر عن الحقّ وتولّى عنه لخبث طويّته وسوء نيّته وعدم حبّه للحقّ واتّباعه لهواه ومصالحه (**ويهدي**) أي يحكم بهداية (**من يشاء**) وهو الّذي يحبّ الحقّ فيتّبعه إذا سمعه ويبحث عن الهدى فيهتدون به ويجعلون هواهم تابعاً للحقّ ولا يريدون أن يتّبع الهدى هواهم وأن يعوجّ على وفقه (**وهو**) أي الله (**العزيز**) الغالب والقويّ القادر على عقاب من ضلّ دينه وثواب من اهتدى بهديه (**الحكيم**) الّذي لا يعمل عملاً إلّا وفيه حكمة، فعقاب من يعاقبه لحكمة، وثواب من يثيبه لحكمة، غفل عنها من غفل وعلمها من أطلعه عليها، وهو بكلّ شيء عليم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الهدف من إرسال محمّد (ﷺ) هو إخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور أراد أن يذكر رسالة موسى (عليه السلام) والهدف منها وهو نفس الهدف، وذلك ليبيّن أنّ دعوة كلّ الرّسل (على نبيّنا وعليهم الصّلاة السّلام) وإن اختلفت في بعض من الفروع والأحكام حسب حكمة الله تعالى إلّا أنّها متّحدة في الهدف والأصول والمبادئ وأمّهات الأحكام، وإنّ الهدف منها كلّها هو إخراج النّاس من الأنظمة الأرضيّة الباطلة الّتي هي ظلمات بالنّسبة إلى شريعة الله الحقّ الواضح كالنّور. وذكر أيضاً بعض ما وصّى موسى (عليه السلام) به قومه وما لاقاه منهم ليتسلّى الرّسول (ﷺ) ويعلم أنّ الرّسل

قبله لاقوا ما يلاقيه هو من تعنّت القوم وتجافيهم، ولأمور أخرى تتّضح عند تفسير الآيات فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

(و) أي وبعزّتي أقسم **(لقد أرسلنا موسى)** ابن عمران **(بآياتنا)** أي بمعجزاتنا الدّالة على رسالته وبأحكام ديننا وشريعتنا وأمرناه **(أن أخرج قومك من الظّلمات إلى النّور)** أي من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمة الشّرك إلى نور التّوحيد، ومن ظلمة الشّرائع الأرضيّة إلى نور شريعة الله العليم الخبير **(وذكّرهم بأيام الله)** أي بالأيّام الّتي أنعم الله تعالى فيها على عباده حينما كانوا مستقيمين على عبادة الله، والأيام الّتي أهلك الله تعالى فيها أقواماً حيث عدلوا وانحرفوا عن نظام الله ربّ العالمين **(إنّ في ذلك)** أي في تذكّر أيام الله تعالى والّتي ملؤها العبر **(لآيات)** لدلائل تدلّ على أنّ الخير كلّه مربوط بطاعة الله، والضّرر مربوط بالإنحراف والإبتعاد عن دينه، إلّا أنّ هذه الآيات لا تفيد إلّا **(لكلّ صبّار)** يصبر حينما امتحنه الله تعالى بالبلايا **(شكور)** حينما أنعم عليه، والمعنى للّذي يرى المقادير كلّها من الله تعالى وأسبابها من سوء سلوك العبد وحسنه. ثمّ أراد تعالى أن يذكر بعض ما وصّى موسى (عليه السلام) به قومه ليتّعظ بها المؤمنون فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾

(وإذ) أي واذكر أيّها النّبيّ لقومك **(إذ قال موسى لقومه يا قومي اذكروا نعمة الله)** الّتي أنعم بها **(عليكم)** ثمّ بين تلك النّعمة العظيمة فقال: **(إذ أنْجاكم)** وحرّركم **(من)** بطش وظلم **(آل فرعون)** وجنوده؛ فإنّهم كانوا **(يسومونكم)** يلحقون بكم **(سوء العذاب)** العذاب السيّئ والشّديد حيث كانوا يعادونكم **(ويذبّحون أبناءكم)** أي يقتلونهم ذبحاً **(ويستحيون)** ويبقون **(نساءكم)** فلا يقتلونهن لاستخدامهنّ **(وفي ذلكم)** أي فيها يفعل

بكم فرعون وجنوده (**بلاء**) امتحان ونعمة (**من ربّكم عظيم**) ذلك الإمتحان وتلك النّعمة، فإنّ الإضطهاد يكون سبباً ليقظة الأمّة المضطهدة ويحملها للتّحرّر، فلولا إضطهاد فرعون لبني اسرائيل لما قاموا وما عملوا، فلم تقم لهم دولة وسلطان تمتّعوا به أزمنة عديدة، فعلى المسلمين أن يتيقّظوا ويعملوا ليعيدوا لهم مجدهم وسلطانهم المرموق (**و**) أي وقال موسى لقومه واذكروا (**إذ تأذن**) أي أعلن حكم ربّكم وقال (**و**) بعزّتي (**لئن شكرتم**) نعمة الله تعالى من إنجائكم وتحرّركم من فرعون وذلك باتّباع شريعته وتطبيق أحكامه وتوحيده في الذّات والصّفات والأحكام (**لأزيدنّكم**) في الإنعام عليكم وإبقاء عزّتكم وسيادتكم (**و**) بعزتي (**لئن كفرتمّ**) عدلتم عن ديني وحكمي وشريعتي وانحرفتم عن أحكامي لأعذبنّكم (**إنّ عذابي**) لمن أردت تعذيبه حيث استحقّ ذلك (**لشديد**) شدّة لا يدركها إلّا من ذاقها. ثمّ بين موسى لقومه بأنّ دعوة الله تعالى لعباده إلى توحيده والعمل بشريعته ليس لحاجة الله تعالى إلى ذلك، بل إنّما دعاهم إلى ذلك لما فيه مصلحة العباد وسعادتهم في الدّارين، وإلّا فإنّ الله تعالى غنيّ عن عبادة العباد فلا يضرّه كفر من كفر ولا ينفعه إيمان من آمن، وإنّ الله تعالى حميد سواء حمده النّاس أو لا، فذكر تعالى ذلك وقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

(**وقال موسى**) لقومه ليس دعوة الله تعالى إيّاكم إلى شكره بالتّوحيد وتطبيق أحكامه لحاجته إليكم، بل لحاجتكم إلى ذلك فإنّه (**إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً**) فلا يضرّ الله تعالى كفركم (**فإنّ الله لغنيّ**) عن إيمان النّاس وليس بحاجة إلى ذلك فلا يضرّه كفرهم ولا ينفعه إيمانهم (**حميد**) في ذاته وصفاته سواء حمده النّاس أو لم يحمدوه، قال رسول الله (ﷺ) قال الله تعالى: يا عبادي لو أن أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد في ملكي شيئاً، ياعبادي لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ إنسان مسألته ما نقص ذلك في ملكي شيئاً الّا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر)[١]. هذا وإنّما دعا عباده إلى عبادته والعمل بشريعته لمصلحة

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٤ الحديث رقم ٢٥٧٧ وهو جزء من الحديث.

النّاس حيث إنّ سعادتهم في الدّنيا والآخرة مربوطة بالعمل بشريعة الله وتطبيق أحكامه والحياة وفق أوامره ونواهيه كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ سورة طه الآية/١٢٣. هذا وقد مرّ ذكر قصّة موسى (عليه السلام) في سورة الأعراف بتفصيل.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى لرسوله (ﷺ) ما أمر به موسى (عليه السلام) قومه ليتّعظ النّاس فيؤمنوا بالرّسل ولا ينكروه، أراد تعالى أن يذكر أنباء الأمم الّتي أهلكوا نتيجة كفرهم ومعاداتهم لرسلهم الّذين أرسلهم الله إليهم وعدم إيمانهم وإنحرافهم عن حكم الله تعالى وشريعته، وذلك ليتّعظ النّاس فيؤمنوا لكي لا يهلكوا مثل تلك الأمم لكفرهم وتكذيبهم للرّسل فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)﴾

(ألم يأتكم) الإستفهام للإنكار فيفيد الإثبات فالمعنى: قد أتاكم **(نبأ)** أي أخبار **(الّذين من قبلكم)** مثل **(قوم نوح و)** قوم **(عاد)** وهم عاد الأولى أي عاد إرم **(و)** قوم **(ثمود و)** الأقوام **(الّذين)** جاؤوا **(من بعدهم لا يعلمهم)** عدداً وقوة **(إلّا الله)** فهؤلاء الأقوام كلّهم **(جاءتهم رسلهم)** الّذين أرسلهم الله تعالى إليهم **(بالبيّنات)** أي المعجزات والدّلائل الدّالة على أنّهم رسل من الله تعالى وبالأحكام الواضحة في حقيتها ونصاعتها **(فردّوا)** أي ادخلوا **(أيديهم)** أي أناملهم **(في أفواههم)** تغيّظاً وغضباً على الرّسل وما يدعونهم إليه، وتفكّراً فيما يجيبون به الرّسل، فإنّ الإنسان إذا غضب أدخل أنمله في فيه وعضّ عليه، وكذلك يفعل إذا تفكّر في شيء، فبعد أن عضّوا على أناملهم أجابوا الرّسل **(وقالوا إنّا كفرنا بها)** أي بالمعجزات الّتي أرسلتم بها وأنّها ليست معجزات، بل هي نوع من السّحر والشعوذة أو الأجل أو أمور أخرى تقع خلاف العادات وتخرقها **(وإنّا لفي شكّ)** أي إنكار **(ممّا تدعوننا إليه)** من توحيد الله بالعادة وترك عبادة الآلهة،

ومن الأحكام والشّريعة الّتي أتيتم بها (**مريب**) ذلك الشّك، ذكر ذلك للمبالغة فإنّ الشّيء إذا وصف بنفسه يفيد المبالغة مثل هذا الرّجل رجل، أي كامل في الرّجولة. ثمّ بعد إنكارهم هذا للرّسل أجابهم الرّسل كما قال تعالى: (**قالت رسلهم أفي**) وجود الله ووحدته (**شكّ**) والإستفهام للإنكار أي لا شكّ في وجوده ووحدته. ثمّ برهن على ذلك بقوله (**فاطر السّماوات والأرض**) والمعنى أنّ وجود السّماوات والأرض يدلّ على وجود مبدع وصانع عليم وقدير لها وهو اللّه تعالى، وإنّ من له القدرة على صنع هذا الصّنع العجيب لا يحتاج إلى شريك، فإنّ الشّريك لا يتّخذه إلّا العاجز أو الجاهل وتعالى الله عن ذلك، فوجود السّماوات والأرض يدلّ على وجود صانع حكيم وقدير عليم لا شريك له، دلالة لا تُبقي شكّاً ولا ريباً، وإنّ هذا الخالق (**يدعوكم**) إلى عبادته واتّباع شريعته لا لحاجته إليكم ولا إلى عبادتكم بل (**ليغفر لكم من ذنوبكم**) أي ينقذكم من الذّنوب الّتي وقعتم فيها بسبب الإتّباع لأنظمتكم الباطلة (**ويؤخرّكم**) بسبب عودتكم إلى دين الله تعالى ويبقيكم (**إلى أجل مسمىً**) مقدّر لكم فلا يهلككم بذنوبكم قبل هذا الأجل، وبعد هذه الحجّة المقنعة والنّصيحة العادلة استكبر النّاس فلم يؤمنوا بل (**قالوا**) للرّسل (**إن**) أي ما (**أنتم إلّا بشر مثلنا**) وليس لكم فضل علينا، فلا يرسل إلى البشر أناساً منهم، بل يكون الرّسل إلى البشر من الملائكة، وهذه كانت حجّة جميع الأمم الكافرة أجابوا بها رسلهم، فكأنّ السّابقين نفخوا في أفواه اللّاحقين الحجج الباطلة، فالكفر ملّة واحدة وقد أبطلنا حجّتهم هذه، وتكلّمنا عليها بتفصيل في سورة التّغابن. ثمّ قالوا للرّسل: (**تريدون**) أيّها الرّسل بدعوتكم هذه (**أن تصدّونا**) أي تمنعوننا وتصرفوننا (**عمّا كان يعبد**) هم (**آباؤنا**) وهي الأصنام من الهياكل أو الملوك والزّعماء (**فأتونا بسلطان**) أي معجزة ودليل (**مبين**) واضح في الدّلالة على أنّكم رسل من الله تعالى فأجابتهم الرّسل كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

(**قالت لهم**) أي للكافرين (**رسلهم**) في جواب قولهم لستم إلّا بشر مثلنا لقد

صرفتم في قولكم **(إن)** أي ما **(نحن إلّا بشر مثلكم)** وكذّبتم في قصدكم إنّ البشر لا يكون رسولاً من الله تعالى حيث لا تنافي بين البشريّة والرّسالة من الله تعالى، فإنّ البشر كلّهم وإن كانوا سواء في البشريّة **(ولكنّ الله)** تعالى **(يمنّ)** أي ينعم **(على من يشاء من عباده)** بالرّسالة فيختاره ويجعله رسولاً إليهم، فإنّ الرّسول يجب أن يكون مجانساً لمن يرسل إليهم وإلّا فلا يمكن التّفاهم والتّعايش بين الرّسل والمرسلين إليهم **(وما كان)** أي وما يمكن لنا **(أن نأتيكم بسلطان)** بمعجزة كما تريدون **(إلّا بإذن الله)** تعالى وإنّ الله تعالى قد أعطانا ما أظهرنا من المعجزات ممّا فيه الكفاية لمن أراد الحقّ وأحبّه، ومن استكبر وعاند فلا يغيّره كلّ المعجزات وخوارق العادات، فإنّ داء الكبر والحسد لا دواء له. ثمّ إنّ الكافرين تمادوا في الغيّ وخرجوا عن المحاججة باللّسان والإقتناع بالبرهان، والتجأوا إلى القوّة والسّلطان كما هو دأب كلّ عاجز عن الحجّة والبيان، فهدّدوا الرّسل بالإيذاء فقال الرّسل: **(وعلى الله توكّلنا)** في دفع وإبطال ما تريدون بنا من الإيذاء والمعاداة **(وعلى الله)** وحده لا على غيره **(فليتوكّل المؤمنون)** بالله من اتّباعنا؛ فإنّ الله ينصرهم وهو يكفيهم شرّ الكافرين إن صدقوا في الإيمان وعملوا وفق الإيمان **(وما)** أي وأي عذر وحجّة **(لنا)** في **(أن لا نتوكّل على الله)** والإستفهام للإنكار أي ليس لنا حجّة في ترك التوكّل عليه **(وقد هدانا سبلنا)** الحقّ وهو أنّه لا نافع لاضارّ إلّا الله وَوالله **(لنصبرنّ على ما آذيتمونا)** إلى أن يأتي الله تعالى بنصرنا وخذلانكم **(وعلى الله)** وحده لا على غيره **(فليتوكّل المتوكّلون)** أي الّذين يريدون التّوكّل على شيء فليتوكّلوا على الله لا على غيره، فإنّه هو الحسب والوكيل، وما سواه لا يقدر على شيء أبداً إلّا بأذنه وإرادته تعالى.

ثمّ بلغت المحادة بين الكفار والرّسل إلى أن هدّد الكفار الرّسل وأتباعهم بإخراجهم من الأرض وفي هذا قال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

(وقال الّذين كفروا لرسلهم) بعد عجزهم عن المحاججة بالعقل والمنطق والبرهان وإفحام الرّسل إيّاهم **(لنخرجنّكم)** أي وبمقدّساتنا لنخرجنّكم أيّها الرّسل وأتباعكم **(من**

أرضنا) أي البلاد التّابعة إلينا **(أو لتعودنّ)** أي لترجعنّ عن دينكم فتدخلنّ **(في ملّتنا)** في ديننا، فبعد ما بلغ الوقاحة من الكفار هذا الحد قدّر الله إهلاكهم وطمأن رسله **(فأوحى إليهم ربّهم)** لا تخافوا ولا تحزنوا واثبتوا؛ فبعزّتي **(لنهلكنّ الظّالمين)** أي الكافرين بكم وبشريعتي والمتجاوزين حدّهم بتهديدهم الرّسل وإيذائهم المؤمنين.

سؤال: قوله: **(أو لتعودنّ في ملتنا)** يفيد أنّ الرّسل كانوا قبل أن يرسلوا مثلهم مشركين وكافرين، لأنّ العودة معناها الرّجوع إلى شيء كان فيه، ثمّ خرج منه، فكيف يلائم هذا وعصمة الإنبياء؟

الجواب: المراد بالعودة هنا الدّخول في الملّة فقط مجرداً عن إفادة كونه داخلاً فيه قبل، وخرج عنه بدليل تعدّيها بفي؛ فإنّ العودة بالمعنى الأوّل تتعدّى بإلي فيقال: عاد إليه. والتّجريد في كلام البلغاء كثير. أو يقال: إنّ الكافرين حينما رأوا الرّسل من بني جلدتهم وقد ولدوا من آباء كانوا على دينهم، ويحكم على الأولاد بدين الآباء إلى أن يظهر منهم خلاف ذلك، فلذلك قالوا: أو لتعودن ظانّين أنّهم كانوا على دينهم حسب الظّاهر وإن لم يكونوا كذلك في الواقع والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

ثمّ بعد أن وعد الله تعالى الرّسل أن يهلك أعداءهم الكفرة وعدّهم بأنّ يسكنهم وأتباعهم في الأرض، وأن يهبهم القوّة والغلبة والسّلطان والحياة الرّغيدة في الأرض فقال: **(ولنسكننّكم الأرض من بعدهم)** أي من بعد الكفار ونجعلكم خلفاء فيها، وإنّ هذا الوعد من إهلاك الظّالمين وإستخلاف المؤمنين في الأرض ليست مختصّة بزمان أو أمّةٍ، بل ذلك سنّة الله تعالى في عباده، فيهلك الظّالمين دائما ويستخلف المؤمنين إن صدق المؤمنون وعملوا واستقاموا، ولذلك قال: **(ذلك)** أي ذلك الوعد من إهلاك الظّالمين وإبقاء المؤمنين هو وعد **(لمن)** لكلّ من **(خاف مقامي)** أي مقامه بين يديه يوم القيامة فلم يعص ولم ينحرف عن شريعتي **(وخاف وعيد)** أي وعيدي، حذفت الياء لموافقة الفاصلة وخوف الوعيد يكون باتّباع شريعة الله وتطبيق نظامه وأحكامه، فكلّ فرد أو أمّة لم ينحرف عن أمر الله واتّبع شريعته وطبّق أحكامه فانّ الله تعالى ينصره ويذلّ أعداءه، فتفيد الآية أنّ عدم إنتصار المسلمين اليوم هو لأنّهم ليسوا مسلمين حقّاً ولا يعملون للإسلام وإنّما هم مسلمون حسب الجنسيّة، ويعملون لأغراضهم ومنافعهم بل لمنافع غيرهم، والّا فإنّ الله تعالى لا يخلف وعده ولا يبدّل سنته ولن تجد لسّنة الله تبديلاً، فهل للمسلمين من الرّجوع إلى دينهم حقّاً والعمل له صدقاً ليعود إليهم مجدهم وسلطانهم. أللّهم فافعل يا أرحم الرّاحمين.

ثمّ بعد أن اشتدّ العداء بين المرسلين والكافرين دعا كلّ جانب النّصر على الآخر فانتصر المؤمنون وهلك الكافرون، كما قال تعالى: **(واستفتحوا)** أي دعا كلّ جانب النّصر على الجانب الآخر، فاستجاب الله تعالى دعاء المؤمنين فانتصروا **(وخاب)** وذلّ وهلك **(كلّ جبار عنيد)** أي معاند لدين الله تعالى ورسله، وهذه سنّة الله في العباد من إهلاك أهل الكفر والظّلم والفساد، ونصر المؤمنين الصّادقين أهل الحقّ والرّشاد والقائمين بأمر الله والمتّبعين لمنهج ربّ العباد، أللّهم اجعلنا منهم آمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ الجبارين والمعاندين لا ينجون بعذاب الله لهم في الدّنيا وإهلاكهم فيها، بل إنّهم يعذّبون في الآخرة أيضاً، فقال جلّ وعلا:

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ﴿١٧﴾﴾

(من ورائه) أي بين يدي كلّ جبّار عنيد **(جهنّم)** يدخلونها **(ويسقى)** في جهنّم **(من ماء صديد)** وهو الماء الّذي يسيل من بطون وجروح أهل النّار **(يتجرّعه)** أي يشربه جرعة بعد جرعة **(ولا يكاد يسيغه)** أي يشقّ عليه بلعه **(ويأتيه الموت)** أي أسباب الموت من الإحراق والتّعذيب **(من كلّ مكان وما هو بميت)** فيستريح من هذه التّعذيبات **(ومن ورائه)** أي زمن بعد هذا النّوع من التّعذيبات **(عذاب غليظ)** جدّاً وهو الخلود في النّار.

هذا وبعدما ذكر الله تعالى هذا النّوع من العذاب للكفار كأنّ سائلاً يقول: إنّ هؤلاء الكفار كان لهم بعض مكارم الأخلاق والأعمال الصّالحة والإحسان إلى النّاس فكيف لا يثابون على تلك الأعمال، فيخفّف عنهم بعض العذاب، فجواباً لهذا السّؤال قال جلّ وعلا:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

(مثل الّذين) أي مثل وحال أعمال **(الّذين كفروا بربّهم كرماد إشتدّت به الرّيح)** فذهبت به وأبادته، شبّه تعالى أعمالهم بالرّماد وكفرهم بالرّيح فكما أنّ الرّيح تذهب

وتفنى الرّماد **(في يوم عاصفٍ)** أي شديد الرّياح، فكذلك كفرهم يفنى ويذهب بأعمالهم **(لا يقدرون)** أي لا يحصلون **(ممّا كسبوا)** من الخيرات **(على شيء)** من الثّواب لأنّ شرط الثّواب هو الإيمان بالله إيماناً صحيحاً لا يخالطه إشراك ولا كفر برسله وشرائعه **(ذلك)** أي عدم حصولهم على أيّ فائدة من أعمالهم **(هو الضّلال)** أي الخسران **(البعيد)** من الفائدة والرّبح.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى يوم القيامة وعذابه وإحياء النّاس فيه للثّواب والعقاب، يمكن أن يدخل في قلب بعض النّاس الإستبعاد لإعادة الإنسان بعد أن مات وأصبح تراباً، فلذا أشار تعالى إلى إمكان ذلك وقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

(ألَمْ تر) أي ألم تعلم وتنظر أيّها المستبعد للإعادة بعد الموت والإحياء بعد الموت **(أنّ الله خلق السّماوات والأرض)** وأوجدهما من العدم، فمن قدر على ذلك فيقدر على خلق الإنسان مرّة أخرى وإعادته إلى الحياة بعد أن صار تراباً، لأنّ خلق الإنسان أسهل من خلق هذا الكون العظيم، لأنّ المراد بالسّماوات ما في العلوّ كلّه وبالأرض ما في السّفل جميعه، فيكون المراد بهما خلق هذا الكون كلّه. وقد خلق الله هذا الكون **(بالحقّ)** أي لإقامة الحقّ والعدل، ولأن يعمل النّاس بشريعته ونظامه، فالّذي خلق هذا الخلق قادر على إعادة الإنسان بعد الموت وإنّه **(إنْ يشأ يذهبكم)** ويميتكم كلّكم **(ويأت بخلق جديد)** مكانكم وهو حاصل يوم القيامة فيعيدكم إلى خلق جديد **(وما ذلك)** أي إفناؤكم وإعادتكم في خلق جديد **(على الله بعزيز)** بصعب لأنّه إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له: كن فيكون، وإنّ من لم يصعب عليه خلق هذا الكون كلّه لا يصعب عليه إعادة هذا الإنسان إلى حياته مرةً أخرى.

ثمّ بعد أن أثبت الله تعالى سهولة يوم القيامة عليه وإحياء النّاس فيه أراد أن يذكر مشهداً من مشاهد الكفار في ذلك اليوم فقال جلّ وعلا:

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾

(وبرزوا) أي خرج الكفار من قبورهم ظاهرين من غير خفاء وحشروا **(لله جميعاً)** وحكم عليهم بالعذاب **(فقال الضّعفاء)** أي الأتباع الّذين أضلّهم السّادة والكبراء ودعاة الشّر والضّلال **(للّذين استكبروا)** عن الحقّ وأضلّوا من تحت أمرهم ومن اتّبعهم **(فهل)** أي فبعد أن أضللتمونا في الدّنيا **(هل أنتم مغنون)** أصله مغنيون أي دافعون **(عنّا من عذاب الله من شيء)** ولو كان قليلاً، فأجابهم الدّعاة المضلّون والسّادة المنحرفون عن شريعة الله تعالى **(لو هدانا)** لو أوصلنا **(الله)** تعالى إلى شيء من الخير والنّجاة من العذاب **(لهديناكم)** أي لأوصلناكم إلى شيء من الخير ودفع العذاب، لأنّ دعاة الخير النّاجون ينفعون أتباعهم بالشفاعة، فيدفع الله بشفاعتهم العذاب عن أتباعهم، ولكن حالنا أسوء من حالكم. فكلّنا في النّار **(سواء أجزعنا أم صبرنا)** أي يستوي بالنّسبة إلينا الجزع والصّبر في عدم الفائدة حيث **(ما لنا من محيص)** من نجاة من العذاب الّذي وقعنا فيه فلا بالجزع يدفع ولا بالصّبر يخفّف.

ثمّ بعد أن تبرّأ السّادة المضلّون من أتباعهم الضّالين ولعن بعضهم بعضاً، يتوجّه الضّالّون والمضلّون كلّهم إلى الشّيطان فيلعنونه لأنّه هو الّذي كان داعياً إلى ضلالهم وإضلالهم، فيتبرّأ الشّيطان منهم أيضاً ويجعل العتبة عليهم كما أخبر عنه تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

(وقال الشّيطان) لأتباعه **(لمّا قضي الأمر)** أي حكم الله تعالى على الشّقاة بالعذاب **(إنّ الله وعدكم)** على لسان رسله بالجنّة إن آمنتم برسله واتّبعتم شريعته وعملتم بها وكان وعد الله **(وعد الحقّ)** أي وعداً حقّاً **(ووعدتكم)** أنا وعداً باطلاً **(فأخلفتكم)** وعدي لأنّي كنت كاذباً في وعدي **(وما كان لي عليكم من سلطان)** من قوّة أجبركم بها على اتّباعي، بل كان بيدكم الاختيار والقدرة على اتّباعي واتّباع رسل الله تعالى؛ فما كان لي **(إلّا أن دعوتكم)** إلى الشّر والضّلال **(فاستجبتم لي)** وما أستجبتم دعوة الرّسل

حيث كان دعوتي ملائمة للهوى والشّهوات فلهواكم اتّبعتموني **(فلا تلوموني)** لأنّي ما أجبرتكم بل **(ولوموا أنفسكم)** لأنّكم باختياركم ولهواكم وقضاء شهواتكم اتّبعتموني، فاليوم كلّنا في النّار **(ما أنا بمصرخكم)** أي بمنجيكم من العذاب **(وما أنتم بمصرخيّ)** أصله بمصرخين أضيف إلى ياء المتكلّم فحذف النّون للإضافة وأدغم ياء الجمع في ياء المتكلّم فصار بمصرخيّ أي بمنجيّ إياي من العذاب **(إنّي)** في الدّنيا وحينما كنت أدعوكم إلى الضّلال والشّرّ كنت **(كفرت)** أي أنكر **(بما أشركتمون)** أصله أشركتموني حذفت الياء للتّخفيف وما في بما مصدريّة تؤول ما بعدها مصدراً فالتّقدير: إنّي أنكرت إشراككم إياي بالله تعالى **(من قبل)** أي في الدّنيا وذلك باستجابة دعوتي دون دعوة الله تعالى ورسله، فتفيد الآية أنّ كلّ إنحراف عن شريعة الله وأحكامه اتّباع للشّيطان وإشراك له بالله تعالى، فالشّرك ليس عبارة عن السّجود لصنم فقط بل كلّ ما أطعته دون إطاعة الله، أي تركت إطاعة الله لأجله، فقد اتّخذته إلهاً لك وأشركته بالله، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتّخذ آلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ سورة الفرقان الآية/ ٣٤. **(إنّ الظّالمين)** باتّباع غير الله تعالى **(لهم عذاب أليم)** أي مؤلم جدّاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين جمعاً بين الوعد والوعيد فقال جلّ وعلا:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾

(وأدخل الّذين آمنوا) بالله ورسله واليوم الآخر **(وعملوا)** الأعمال **(الصّالحات)** وهي الأعمال الّتي اعتبرها الشّرع صالحة لا العقول والهوى فأدخل هؤلاء **(جنّات)** بساتين **(تجري من تحتها الأنهار خالدين)** مؤبدّين فيها **(بإذن)** أي إرادة وتقدير **(ربّهم)** وقضائه **(تحيّتهم فيها سلام)** أي سلام عليكم، والمراد بالسّلام هو الأمان من كلّ أذىً ومكروه. فيحيّيهم الله تعالى بهذه التّحيّة قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ سورة (يس) الآية/ ١٩. ويحيّيهم الملائكة بها قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ سورة الرعد الآية/ ٢٤. ويحيّي بعضهم بعضاً بهذه التّحيّة قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة يونس الآية/ ١٠. وقال تعالى: ﴿

فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ سورة الواقعة الآية/ ٩١. فطوبى لمن حيّاه الله تعالى والملائكة والمؤمنون بهذه التّحية، فاجعلنا اللّهم منهم برحمتك يا أرحم الرّاحمين، وهذه تحيّة المسلمين في الدّنيا وتبقى تحيّة لهم في يوم القيامة أيضاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المؤمنين وثوابهم بسبب كلمة الإيمان ومصير الكافرين وعذابهم بسبب كلمة الكفر، أراد أن يذكر فائدة الكلمات الطّيّبة ومضارّ الكلمات الخبيثة في صورة تشبيه فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

(ألم تر) أي ألم تعلم **(كيف ضرب الله مثلاً)** الإستفهام للتّعجب، فالمعنى: إعلم أنّ الله تعالى **(ضرب)** أي ذكر **(مثلاً)** عجيباً والمثل هو أنّ **(كلمة طيّبة)** كالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإصلاح ذات البين وعلى رأسها كلمة الإيمان **(كشجرةٍ طيبةٍ)** في الفائدة والأثمار النّافعة وحسن العاقبة **(أصلها ثابت)** في الأرض تستقرّ فتثمر ولا تزول **(وفرعها)** يرتفع ويعلو **(في السّماء)** فكما أنّ شجرة كهذه تفيد وتثمر فكذلك الكلمة الطّيّبة تفيد صاحبها وتثمر لها السّعادة في الدّنيا والآخرة **(ومثل)** وحال **(كلمة خبيثة كشجرة خبيثة)** في عدم الفائدة والضّرر **(اجْتُثَّتْ)** أصلها **(من فوق الأرض مالها من قرار)** فلا تثمر ولا تفيد، ثمّ بين تعالى وجه الشّبه ببيان حال المؤمنين والكافرين فقال جلّ وعلا: **(يثبّت الله الّذين آمنوا)** ويرصّن كيانهم **(بالقول)** أي بسبب القول **(الثّابت)** وهو الإيمان والعمل الصّالح والجهاد في سبيل نشر الإسلام وإعزازه، فيثبّتهم الله تعالى بسبب ذلك **(في الحياة الدّنيا)** بالنّصر والغلبة والسّيادة إن عملوا بصدق **(وفي الآخرة)** بالعفو والمغفرة والجنّة والنّعيم المقيم **(ويضلّ الله الظّالمين)** عن طريق النّصر والسّيادة في الدّنيا وعن الجنّة في الآخرة بسبب كلمتهم الخبيثة وهي الكفر والإشراك **(ويفعل الله ما يشاء)** أي ينجز وعده ووعيده لا يردّه عن ذلك أحد. وهكذا وعد الله

المؤمنين بالسّعادة في الدّنيا والآخرة وأنجز الله وعده حينما عمل المؤمنون بصدق وإخلاص وتفان في سبيل الله، وجعلهم سادة الأرض وأئمّة العالم، وحينما انحرفوا زالت عنهم هذه النّعمة (**إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم**) فهل للمسلمين من إنابة ورجوع؟ ألّلهم فافعل يا أرحم الرّاحمين. هذا وقد فسّر البعض التّثبيت في الآخرة بجواب القبر ورووا فيه حديثاً وهو أنّه قال رسول الله (ﷺ): (إنّ هذه الأمّة تبتلى في قبورها، فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهار فيقول: ما كنت تقول في هذا الرّجل؟ فأمّا المؤمن فيقول: إنّه رسول الله وعبده، فيقول له الملك: انظر إلى مقعدك الّذي كان لك في النّار وقد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الّذي ترى من النّار مقعدك الّذي ترى من الجنّة فيراهما كليهما، فيقول المؤمن: دعوني أبشّر أهلي، فيقال له: لا أسكن، وأمّا المنافق فيقعد إذا تولّى عنه أهله فيقال: ما كنت تقول في هذا الرّجل؟ فيقول: لا أدري أقول كما يقول النّاس، فيقول له: لا دريت هذا مقعدك الّذي كان في الجنّة أبدلت مكانه مقعدك من النّار)[1] والأمر أهمّ والحديث لا يفيد الحصر والله تعالى أعلم.

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى فائدة الإيمان وضرر الكفر وأنّ الله تعالى أنعم على النّاس بإرسال الرّسل وهدايتهم إلى طريق الإيمان النّافع وإنذارهم من الكفر الضّار قال جلّ وعلا:

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾

(**ألم تر**) أي ألم تنظر أيّها المخاطب، والإستفهام للتّعجب فالمعنى انظر لتتعجّب (**إلى الّذين بدّلوا**) شكر (**نعمة الله**) وهو الرّسول الدّاعي إلى الإيمان فلم يشكروا هذه النّعمة بأن يؤمنوا، فبدّلوا هذا الشّكر الواجب عليهم (**كفراً**) أي كفراناً للنّعمة فكفروا بالرّسول (**وأحلّوا**) أي وأنزلوا (**قومهم دار البوار**) أي دار الهلاك، ثمّ فسر الله تعالى دار البوار فقال: (**جهنّم**) أي دار البوار هو جهنّم (**يصلونها**) يدخلونها بسبب كفرهم بالرّسول

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٣/ ٥٨٥ الحديث رقم ٦٧٤٤.

وما جاء به **(وبئس القرار)** هو قرارهم في جهنّم. ثمّ بين الله تعالى أنّ هؤلاء الّذين كفروا برسالة الرّسول (ﷺ) زادوا في كفرهم لأنّهم **(وجعلوا)** أي واتّخذوا **(لله أنداداً)** شركاء يعبدونهم ويطلبون منهم قضاء الحوائج ودفع المكاره، ويقدمون إليهم القرابين وينذرون لهم يتقرّبون إليهم بذلك **(ليضلّوا)** اللّام لام العاقبة فالمعنى: كان عاقبة اتّخاذهم الأنداد أنّهم يضلّون النّاس **(عن سبيله)** أي عن دين الله دين التّوحيد وشريعته وهي شريعة الإسلام **(قل لهم)** أيّها المسلم **(تمتّعوا)** أي عيشوا في الدّنيا ما قدّر لكم من العمر، ولا فائدة في حياتكم هذه حيث **(فإنّ مصيركم)** بعد الموت **(إلى النّار)** وهي جهنّم، يقال لهم هذه المقولة لأنّهم كانوا ضلّوا وأضلّوا لمنافع دنيويّة ومصالح يكسبونها من هذا الضّلال والإضلال.

ثمّ بعد أن أنذر الله تعالى الكافرين بالنّار أراد أن يبيّن للمؤمنين طريق النّجاة من هذه النّار والخلاص منها فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

(قل) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم الدّاعي إلى الله تعالى قل **(لعبادي)** أي النّاس لأنّ كلّهم عباد الله تعالى، لأنّهم من خلقه وأذلاء تحت قدرته وإرادته إلّا أنّه خصّ المؤمنين منهم بقوله: **(الّذين آمنوا)** لأنّ الخطاب خطاب تكريم وتشريف وتكليف، ولا يكرم بالتّكليف الآلهي إلّا المؤمنون، فإنّ الملوك، ولله المثل الأعلى، لا يستخدمون إلّا من أحبّهم ويحبّونهم **(يقيموا الصّلاة)** تقديره قل لهم: ليقيموا الصّلاة حذفت اللّام للقرينة وهي قل؛ لأنّه بمعنى: أُمرهم ليقيموا الصّلاة **(وينفقوا)** أي ولينفقوا **(ممّا رزقناهم سرّاً)** أي في السّر والخفاء إذا كان المنفق عليه لا يجب أن يطّلع النّاس على أخذه وفقره أو إذا أخيف الرّياء **(وعلانية)** إذا أمن من الرّياء وأحبّ أن يرى النّاس ذلك ليقتدوا به (من **قبل)** أي فليفعلوا ذلك **(من قبل ان يأتي يوم لا بيع فيه)** للجنّة والخلاص من النّار فيشتريها **(ولا ضلال)** ولا محاباة ومهاداة فيهدي له الجنّة والخلاص من النّار، وإنّما ذلك البيع والشّراء في الدّنيا قال تعالى: ﴿إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة﴾ سورة التوبة الآية/ ٩. فليشتر المؤمن ذلك في الدّنيا قبل أن يفوت وقت هذا البيع والشّراء.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أمّهات نعمه الّتي أنعم بها على عباده فلم يشكروها فيؤمنوا ويوحدّوه بالعبادة واتّباع شريعته فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾

(الله) هو **(الّذي خلق السّماوات)** الأجرام العلويّة كلّها **(والأرض)** وما في السّفل كلّه **(وأنزل من السّماء)** من العلوّ **(ماء)** وهو المطر **(فأخرج به)** بذلك الماء وإختلاطه مع الأرض وسقيه للأشجار والنّباتات **(من الثّمرات رزقاً لكم)** فيه تقديم وتأخير، وتقديره: أخرج به رزقاً لكم وذلك الرّزق من الثّمرات الّتي لا تعدّ ولا تحصى عدداً ونوعاً، أو رزقاً حال من الثّمرات فالتّقدير: أخرج أنواعاً من الثّمرات رزقاً لكم، أو مفعول مطلق لمحذوف تقديره فيرزق بالثّمرات رزقاً لكم، والتّقدير الأوّل أولى من الكلّ والله تعالى أعلم **(وسخّر لكم الفلك)** أي السّفن **(لتجري)** اللّام لام العاقبة أي فصارت عاقبة تسخيرها تجري وتسير **(في البحر)** وعلى الماء حيث شئتم، وذلك **(بأمره)** وتقديره فتسافرون بالسّفن للكسب والتّجارة ونقل الأمتعة والمال إلى حيث شئتم من البلاد **(وسخّر لكم الأنهار)** فتجري فيها المياه وتوصلها من منابع العيون إلى الصّحارى الّتي لا ماء فيها يسقى بها البساتين والمزارع والمواشي والأنعام، وكذلك سخّر الأنهار لتجري عليها السّفن الصّغيرة الّتي ينقل بها المتاع من بلدة إلى أخرى **(وآتاكم)** أي وخلق لكم وأعطاكم بخلق هذا النّظام **(كلّ ما سألتموه)** أي تحتاجون إليه، ففي الأرض كلّ ما يحتاجه المجتمع الإنساني للحياة عليها **(وإن تعدّوا نعمة الله)** أي نعمه الّتي أنعم بها على النّاس أفراداً وجماعات **(لا تحصوها)** أي لا تقدرون على إنهاء عدّها لأنّه لا ينتهي ذلك لكثرته، وبالرّغم من أنّ الله تعالى أنعم على الإنسان هذه النّعم لم يشكر الإنسان ربّه، حيث أشرك به واتّبع غير شريعته **(إنّ الإنسان لظلوم)** كثير الظّلم والتّجاوز عن الحدّ بكفره والإبتعاد عن شريعة الله تعالى **(كفّار)** لنعم الله تعالى هذه بهذا الظّلم والتّجاوز عن الحقّ.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه لا معبود سواه، وأنّه لايجوز بأي حال أن يعبد النّاس غيره، أمر تعالى أن يذكر للنّاس عقيدة إبراهيم (عليه السلام) لأنّ النّاس كلّهم كانوا يؤمنون بإبراهيم (عليه السلام) ويعتزّون به وذلك إشارة إلى أنّهم كاذبون في الإيمان بإبراهيم (عليه السلام) والإعتزاز به؛ فإنّهم لو صدقوا فهذه عقيدته فليقتدوا به فيها ولا يشركوا، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾

(و) أي واذكر يا محمّد (إذ قال إبراهيم) حينما بنى الكعبة متضرّعاً إلى الله تعالى ودعا فقال: (ربّ اجعل هذا البلد آمنا) من إعتداء النّاس وغاراتهم عليه (واجنبني) أي وابعدني (وبنيّ) وأبعدني من (أن نعبد الأصنام) جمع صنم، وهو كلّ ما عبد غير الله تعالى من الهياكل والأشخاص والنّفس والهوى والشّيطان، ومعنى العبادة الإطاعة أو التّقديس (ربّ إنّهن) أي الأصنام (أضللن كثيراً من النّاس) أي أصبحن سبباً لضلال كثير من النّاس حيث يعبدونها ويقدّسونها ويستغيثون بها (فمن تبعني) بأن عبدك وحدك ودعاك وصدّك وترك تبع غيرك والإستغاثة بغيرك (فإنّه منّي) أي من أتباعي (ومن عصاني) فانحرف عن عقيدتي هذه فليس منّي وأنا بريء منه، وأمّا بالنّسبة إليك (فإنّك غفور) تغفر لهم إن شئت (رحيم) ولرحمك تغفر لا لأمر آخر، إلّا أنّ الله تعالى أعلن بأنّه لا يغفر لهم، فقال جلّ وعلا: ﴿إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ سورة النساء الآية/ ١١٥، ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى أنّ هذه النّعم الّتي يعيش فيها أهل مكّة كلّها من الرّخص ووجود كلّ ما يحتاجون إليه في مكّة وجلب النّاس إليهم كلّ ما يريدون، إنّ كل ذلك أعطاهم الله تعالى بسبب دعاء إبراهيم (عليه السلام) فمن الحماقة أنْ ينحرفوا عن دين إبراهيم (عليه السلام) وعقيدته عقيدة التّوحيد ودين الإسلام، فحكاية عن إبراهيم (عليه السلام) قال جلّ وعلا:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

(ربّنا) قال هنا ربّنا لأنّ الدّعاء كان لذريّته وأنّ الله ربّه وربّهم طلباً في استجابة الدّعاء لربوبيّته لهم فقال: **(ربّنا)** أي ياربّ وربّ ذريّتي **(إنّي أسكنت)** بعضاً **(من ذريّتي)** وهو إسماعيل وذريّته. والباقي من إسحاق وذريّته أبقاهم في فلسطين فأسكن إسماعيل **(بواد غير ذي زرع)** وهو وادي مكّة الّذي فيه الكعبة **(عند بيتك المحرّم)** أي المحرّم والممنوع من إعتداء النّاس **(ربّنا)** فعلت ذلك **(ليقيموا الصّلاة)** وإقامة الصّلاة هي أداؤها والأمر بأدائها لمن تحت ولايتك وأمرك. فأداؤك وحدك لها دون الأمر بها لا يكون إقامة لها، ثمّ المراد بإقامة الصّلاة هو الإتيان بجميع الأوامر والإجتناب عن النّواهي، فإنّ الصّلاة رمز الإطاعة فيكنّى بها عنها ﴿إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ سورة العنكبوت . ٤٥. **(فاجعل)** يا ربّنا **(أفئدة)** أي قلوباً **(من النّاس تهوي)** أي تحبّ وتقصد وتميل وتأتي **(إليهم)** لزيارة هذا البيت **(وارزقهم من)** كلّ **(الثّمرات)** بسبب كثرة زيارة النّاس إليهم وجلبهم المتاع اليهم للتّجارة والبيع والشّراء **(لعلّهم يشكرون)** أي لكي يشكروا نعمتك هذه، فيوحدّوك ولا ينحرفوا عن دينك وتوحيدك.

ثمّ أشار سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) إلى أنّ من لم يشكر فأشرك وانحرف عن دين الله فإنّ الله يعاقبه وينتقم منه لا محالة.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾

(رَبَّنا إِنَّك تَعْلَمُ ما نُخْفي) من الأعمال **(وما نعلن)** منها **(وما يخفى على الله من شيء)** سواء في العقيدة والعمل وغيرها، فلا يخفى عليه شيء **(في الأرض ولا في السّماء)** فيعلم ما في الكون كلّه من جواهر وأعراض وعقائد وأعمال، ويجزي صاحب كلّ عمل وفق عمله، إن خيراً فبثواب ونعيم وإن شرّاً فبعذاب وجحيم.

فائدتان: ففي هذه الآية فائدتان:

الأولى: هي الإخبار بعلم الله بكلّ ما يعمله العباد، وذلك يتضمّن الوعد بالثّواب لفاعل الخير، والوعيد بالعذاب لفاعل الشّر؛ لأنّ الإخبار عن علمه بالأعمال كناية عن مجازاته عليها لا الإخبار عن العلم؛ لأنّ ذلك معلوم لا فائدة في الإخبار عنه، وذلك مثل ما تقول للغير مهدّداً له: إنّني أعلم ما تفعل ولا يخفى عملك علينا.

الثّانية: الإخبار بأنّ الله و المعبود هو ما لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السّماء فكيف يعبد النّاس مالا علم لهم أصلاً؟ أو لهم علم قليل وهو من تعليم الله إيّاهم لا من ذاتهم؟ فإنّهم خلقوا لا يعلمون شيئاً فعلمهم الله ما شاء، هذا، ويدلّ قوله: (عند بيتك المحرّم) أنّ البيت كان موجوداً قبل، وإنّ إبراهيم وإسماعيل (على نبينا وعليهما الصلاة والسلام) قاما بإعادة بنائه لا بإنشائه، وقد فصّلنا القول على ذلك في سورة البقرة والله أعلم. وقد ورد في فضل البيت الحرام أنّ رسول الله (ﷺ) قال (الصّلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصّلاة في مسجدي بألف صلاة، وصلاة في البيت المقدس بخمسمائة صلاة)[1].

* * *

ثمّ قوّى إبراهيم (ﷺ) أمله في استجابة دعواته هذه بأنّ الله تعالى استجاب دعاءه سابقاً، حيث رزقه الولد وشكر الله تعالى على ذلك؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾

(**الحمد لله**) الحمد في مقابلة النّعمة يكون شكراً، وهنا هو في مقابلة النّعمة حيث قال (**الّذي وهب لي على الكبر**) أي في وقت كبري وشيخوختي ويأسي من الولد (**إسماعيل وإسحاق**) في تقديم إسماعيل على إسحاق إشارة إلى أنّه أكبر منه سنّاً ورتبة والله تعالى أعلم، وقد وهبني بعد أن دعوته فآمل استجابة دعواتي هذه كاستجابة دعائي ذلك حيث (**إنّ ربّي لسميع**) اي لمستجيب (**الدّعاء**) أي دعوات عباده عند إستيفاء شروطها إن شاء وهو على كلّ شيء قدير.

ثمّ بعد أن تقوّى أمل سيّدنا إبراهيم (ﷺ) في استجابة الله دعواته أراد أن يدعو من الله تعالى أموراً أخرى فقال جلّ وعلا:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

(١) كنز العمال ١٢/٨٩ الحديث رقم ٣٤٦٣٢.

(**ربّ اجعلني مقيم الصّلاة**) وفي هذا إشارة الى عظمة الصّلاة وأهميّتها في الدّين حيث إنّ رسولاً كإبراهيم (عليه السلام) وهو من أولي العزم يدعو أن يُوَفِّقَهُ اللّهُ تعالى عَلى إقامَةِ الصَّلاةِ وَلِذلِكَ قال الرّسول (ﷺ): (ألصّلاة عِمادُ الدّينِ فَمَنْ أقامَها فَقَدْ أقامَ الدّينَ وَمَنْ تَرَكَها فَقَدْ هَدَمَ الدينَ)[١] (ومن ذرّيّتي) من هنا للتّجريد فالمعنى: إجعل ذرّيّتي مقيم الصّلاة أيضاً، فدعا إبراهيم (عليه السلام) لكلّ ذريته إلّا أنّ الله تعالى لم يقبل دعاءه في كلّ الذّرية لأنّه سبق في علمه ضلال البعض، وكذا حينما قال له: ﴿إنّي جاعلك للنّاس إماما﴾ فقال: ﴿ومن ذريتي﴾ قال: ﴿لا ينال عهدي الظّالمين﴾ فتبيّن أنّ دعوات العباد حتّى المرسلين إنّما تستجاب إذا إستوفت الشّروط، ومن شروطها أن لا يخالف قضاء الله الأزلي المبرم والله تعالى أعلم. هذا إذا جعلنا من للتّجريد، وأمّا إذا جعلناه للتّبعيض فقد استجيب دعاؤه تماماً، حيث لا يزال إلى يوم القيامة بعض من ذرّيته مقيماً للصّلاة، ولكن لا يعقل أن يدعو المرء لبعض ذرّيته ويترك البعض؛ لأنّ الكلّ إلى رحمه سواء (**وتقبّل دعاء**) أصله دعائي حذفت الياء للتّخفيف أي تقبل ياربّي دعائي هذا (**ربّنا اغفر لي ولوالديّ**) وكذلك لم يقبل دعاؤه هذا تماماً لأنّه لم يغفر لوالده، حيث كان مشركاً فتبيّن أنّ شرط قبول الدّعاء أن لا يخالف القضاء الأزلي المبرم (**وللمؤمنين**) أي والمؤمنات فإنّ عادة القرآن أنّه يذكر الرّجال ويراد بهم الرّجال والنّساء بقرينة أن التّكليف يعمّهما. (**يوم يقوم الحساب**) أي يوم القيامة، وفي هذه الدّعوات إرشاد للمسلمين أن يدعوا الله تعالى ويتضرّعوا إليه في أمورهم الدّنيويّة والدّينيّة، وإنّهم إذا دعوا فليدعوا لأنفسهم ولوالديهم ولسائر المسلمين؛ وذلك لأنّ من ترك الدّعاء لنفسه فقد وقع في العجب، ومن دعا لنفسه وترك غيره فقد وقع في البخل والعجب، والبخل من رذائل الصّفات يجب تركهما، وهذا فيما إذا لم يكن الدّعاء خاصّاً كأن يقول المرء: ربّ يسّر لي الزواج مثلا.

ثمّ بعد أن أوضح الله تعالى لأهل مكّة اتجاه إبراهيم (عليه السلام) وكانت طريقتهم متضادّة لإتجاهه من التّوحيد. وتعب الرّسول (ﷺ) حول إعادتهم إلى طريقة إبراهيم (عليه السلام) وإلى حظيرة الإيمان بالله وحده وإلى ملّة إبراهيم (عليه السلام) وأصرّ الكافرون

---

(١) لم يرد الحديث بهذا اللفظ بل ذكر ذلك شرحا في فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٥/٦.والحديث ورد بلفظ (الصلاة عماد الدين والجهاد سنام العمل والزكاة تثبت ذلك)/ أنظر كنز العمال ٧/ ١١٥ الحديث رقم ١٨٨٩١. حسنه الترمذي في العلل / أنظر تلخيص الحبير١/ ١٧٣ الحديث رقم ٢٤٢.

على ما هم عليه من الضّلال والإشراك بالله تعالى، أعلن تعالى لرسوله أنّه ينتقم منهم لا محالة، وأنّ الإمهال لا يوجب الإهمال فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾

(**وَلَا تَحْسَبَنَّ**) أي ولا تعتقدنّ أيّها النّبيّ وأيّها المسلم (**الله غافلاً عمّا يعمل الظّالمون**) من الشّرك والفسوق والإنحراف عن شريعة الله، أي تاركاً انتقامهم، فإنّ أيّ مسلم لا يعتقد في الله الغفلة عن شيء، وإنّما أريد هنا لازم الغفلة وهو عدم الانتقام، فالله تعالى ينتقم منهم لا محالة، ولكنّ (**إنّما يؤخّرهم**) أي يؤخّر انتقامهم (**ليوم تشخص**) تبيضّ وتذلّ (**فيه الأبصار**) من هول ذلك اليوم وممّا يقع فيه من عذابهم، وذلك اليوم يكون في الدّنيا كاليوم الّذي يريد الله فيه إهلاك الظّالم، كاليوم الّذي أهلك فيه قوم نوح وعاد وثمود وفرعون، وكيوم بدر الّذي عذّب فيه أهل مكّة ويوم الفتح الّذي أذلّوا فيه، ويكون في القيامة أيضاً حينما يساقون إلى النّار إن لم يتوبوا ولم يؤمنوا، وانظر أخي إلى التّأريخ ترى أنّه ما من ظالم إلّا وابتلى بعاقبة ظلمه إلّا أنّه ولكلّ أمّة أجل، ولكلّ أجل كتاب، فلا تغترّ بما فيه الظّالمون، فإنّ عاقبتهم الخيبة والخسران في الدّنيا والآخرة (**مهطعين**) أي والحال أنّهم يكونون في ذلك اليوم مهطعين أي مسرعين إلى داعي العذاب (**مقنعي رؤسهم**) أي رافعين رؤسهم إلى السّماء فينظرون ما يقع عليهم (**لا يرتدّ**) لا يرجع (**إليهم طرفهم**) بل يكون متّجهاً إلى السّماء فقط (**وأفئدتهم**) وقلوبهم (**هواء**) خالية من الأمل مضطربة من خوف ما يوقع عليهم من العذاب، وهذا الإنذار عام لكلّ من انحرف عن دين الله تعالى وابتعد عن شريعته سواء في العقيدة كان الإنحراف أو في الاحكام، فهل لنا أيّها المسلمون من الرّجوع إلى الله والعمل بشريعته اللّهم فافعل وأنت أرحم الرّاحمين. ثمّ أراد الله تعالى أن يبلّغ الرّسول الكافرين بهذا الإنذار فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ

لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

(وأنذر) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم والدّاعي إلى الله تعالى **(النّاس)** المنحرفين عن دين الله تعالى كلّهم **(يوم يأتيهم العذاب)** في الدّنيا أو في الآخرة **(فيقول الّذين ظلموا أنفسهم)** حيث جعلوها مستحقّة للعذاب بسبب الكفر أو المعاصي أو الإبتعاد عن دين الله تعالى **(ربّنا أخّرنا)** أي أخر عذابنا وأبقنا **(إلى أجل)** وقت وزمان **(قريب)** قليل فإنّ أخّرتنا **(نجب دعوتك)** إلى دينك وعبادتك **(ونتّبع الرّسل)** الّذين أرسلتهم إلينا ولا نخالفهم، فيجيبهم الله تعالى على لسان الملائكة ويقول لهم كيف اعترفتم **(أو لم تكونوا)** قبل نزول العذاب **(أقسمتم)** حلفتم **(من قبل)** أي قبل هذا الوقت ومعاينة العذاب وقلتم **(ما لكم من زوال)** في الدّنيا لقوّتنا وسلطاننا ولا إلى يوم نحاسب فيه يوم القيامة والمعنى: إنّكم غرّكم سلطانكم فما خفتم عذاب الدّنيا وكفرتم باليوم الآخر، فما خفتم عذاب الله تعالى هناك، هذا وإنّ كلّ كافر يقول هذا القول حين ما عاين هلاكه في الدّنيا، وعند معاينته للموت ولكن النّدم والتّوبة حال اليأس لا يقبل ولا يفيد.

(وسكنتم في مساكن الّذين ظلموا أنفسهم) فأهلكناهم نتيجة ظلمهم هذا **(وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم)** من الهلاك والتّدمير وعلمتم ذلك من التّأريخ والرّوايات، فما اعتبرتم ولا اتّعظتم بحالهم بل سلكتم نفس مسلكهم **(وضربنا)** وذكرنا **(لكم الأمثال)** الكثيرة من أمثال الأمم الّذين أهلكوا، وذلك لتتّعظوا فما اتّعظتم بل سلكتم مسلكهم فتهلكون مهلكهم إن لم تتوبوا، عن النّعمان بن بشير قال خرج علينا رسول الله (ﷺ) ونحن في المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السّماء ثمّ خفض حتّى ظننّا أنّه قد حدث في السّماء أمر فقال: (إنّها ستكون بعدي أمراء يظلمون ويكذبون فمن صدّقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم فليس منّي ولا أنا منه، ومن لم يصدّقهم بكذبهم ولم يمالئهم على ظلمهم فهو منّي وأنا منه)[١]. ثمّ بين الله تعالى سبب هلاك تلك الأمم فقال جلّ وعلا: **(وقد مكروا)** أي وقد دبّروا **(مكرهم)** أي كلّ حيلهم لمعاداة الرّسل وإبطال أمرهم **(وعند الله)** تعالى عقاب وإبطال **(مكرهم)** فأبطل تعالى كلّ حيلهم ونصر

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٦٧ الحديث رقم١٨٣٧٩.

الرّسل وخذلهم **(وإن)** أي وقد **(كان مكرهم)** في الشّدّة **(لتزول منه)** أي بسببه **(الجبال)** ولكن عزم المؤمنين كان أقوى من الجبال فصبروا أمام مكرهم إلى أن نصرهم الله تعالى وأهلك أعداءهم، وهكذا إذا عمل المؤمنون بعزم فإنّ الله تعالى يبطل كلّ حيل الكافرين وينصر المسلمين ويهلك أعداءهم.

ثمّ أشار تعالى إلى أنّ الله تعالى كما يهلك الأمم في الدّنيا بسبب كفرهم فانّه يعذّبهم في الآخرة أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾

(فلا) أي فبعد هذا الإنذار الشّديد **(لا تحسبنّ اللّهَ)** أيّها المخاطب أن يكون الله **(مخلف وعده رسله)** بأن لا ينصرهم أو لا يعذّب من يعاديهم ويكذّبهم وينحرف عن دينهم فالله لا يخلف وعده هذا حيث **(إنّ الله عزيز)** لا يعجزه عن إنجاز وعده شيء **(ذو إنتقام)** لمن كذّب رسله وانحرف عن منهجه، فبعزّته هذه ينصر رسله وينتقم من أعدائهم **(يوم)** أي في يوم **(تبدّل الأرض)** هذه بأرض **(غير)** هذه **(الأرض)** حيث تمدّ فيها ولا يبقى عليها جبل ولا تلول فتصير ﴿قاعا صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا﴾ سورة طه الآيتان . ١٠٦ . ١٠٧. وتبدّل **(السّموات)** هذه بسماوات أخرى غير ما نراها **(وبرزوا)** أي خرج النّاس من قبورهم جميعاً وأوقفوا **(لله)** أي لحساب **(الله الواحد)** الّذي لا شريك له ينقذ النّاس من عذابه **(القهّار)** أي الّذي لا يستطيع مقاومته أحد؛ فينفذ إرادته ولا مانع يمنعه من ذلك أبداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال المجرمين هناك فقال جلّ وعلا:

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾

(وترى) أيّها المخاطب **(المجرمين)** في ذلك اليوم وهم المنحرفون عن دين الله والخارجون عن أحكامه وشريعته تراهم **(مقرّنين)** مقيّدين كلّ قرين مع قرينه حسب العقيدة والعمل **(في الأصفاد)** وهي السّلاسل يسحبون بها إلى النّار وبئس المصير

(سرابيلهم) أي ثيابهم **(من قطران)** وهي مادّة بالغة الحدّ الأعلى من الحرارة **(وتغشى)** أي وتعلو **(وجوهم النّار)** نار جهنّم، ثمّ بين تعالى حكمته في إثباته بهذا اليوم يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

(ليجزي) أي يبدّل الله تعالى الأرض بغير الأرض والسّماوات بغير ما نراها، ويأتي بيوم الحساب **(ليجزي الله كلّ نفس ما كسبت)** إن خيراً فبثواب ونعم وإن شرّاً فبعذاب وجحيم **(إنّ الله سريع الحساب)** أي الجزاء في ذلك اليوم **(هذا)** أي الّذي ذكر في هذه السّورة من دلائل وحدة الله تعالى وكمال قدرته ودلائل إمكان البعث ومجيئه، وحقيّة الرّسالة والنّبوّة وإنّ الفوز للمؤمنين والتّابعين لمناهج الرّسل والأنبياء، وإنّ الخسارة والنّدامة كلّها لمن خالف الإسلام واتّبع الهوى، وابتعد عن شريعة المصطفى(ﷺ)، فهذه الأمور كلّها **(بلاغ)** أي تبليغ وإعلان من الله **(للنّاس)** كلّهم بما ينفعهم من الإيمان وما يضرّهم من الكفر والمعاصي، بلّغناهم بذلك ليعملوا على وفقه **(ولينذروا)** يُخَوَّفُوا **(به)** فلا يكفروا بالله ولا ينحرفوا عن شريعته **(وليعلموا أنّما هو)** أي المعبود **(إله واحد)** فلا شريك له يستحقّ العبادة ولا أحد يُنجيهم من عذابه يوم القيامة كما يزعم المشركون وأشباههم **(وليذّكّر)** أي يتّعظ ويتّبع ما بلّغناه **(أولو الألباب)** أي أصحاب العقول السّليمة لكي يضمنوا لأنفسهم السّلامة من عذاب الله في المبدأ والختام، والسّعادة في الدّنيا والآخرة.

سبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

خاتمة: (بيان قصّة سيّدنا إبراهيم (عليه السلام)):

كان إبراهيم فتىً من أهل فدّان آرام بالعراق، وكان قومه أهل أوثان، وكان أبوه نجّاراً ينحت ويصنع الأصنام ويبيعها ممّن يعبدها، وكان إبراهيم قد أنار الله تعالى بصيرته وهداه إلى الرّشد؛ فعلم أنّ الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تجيب دعاءً، ولا تنفع ولا تضرّ شيئاً، فناقش قومه وأعلمهم أنّ عبادة هذه الأصنام باطلة، وأنّها ليست بآلهة، وقد ذكر تعالى هذه المناقشة فقال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ

وَكُنّا بِهِ عالِمينَ * إذْ قالَ لأبيهِ وَقَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثيلُ الَّتي أَنْتُمْ لَها عاكِفونَ * قالُوا وَجَدْنا آباءنا لَها عابِدينَ * قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآباؤكُمْ في ضَلالٍ مُبينٍ * قالوا أجِئْتَنا بِالحَقِّ أمْ أَنْتَ مِنَ اللاعِبينَ * قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالأرْضِ وَأَنّا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشّاهِدينَ﴾ سورة الأنبياء الآيات/٥١-٥٦. ثمّ بعد أن ناقش إبراهيم (عليه السلام) قومه فلم يفدهم الحجّة والبرهان القولي، بل أصرّوا على كفرهم وعبادتهم للأصنام، نوى الشرّ والكيد بالآلهة، فأقسم أنّه يلحق بهم الأذى ليريهم أنّها ليست بآلهة، فإنّ من لم يستطع دفع الأذى عن نفسه كيف يكون إلهاً، وبهذا أراد أن يقيم لهم البرهان العملي ليقع في نفوسهم موقعاً، وذكر تعالى ذلك فقال جلّ وعلا: (و) أي قال إبراهيم: ﴿تالله لأكيدَنَّ أصْنامَكُمْ بَعْد أنْ تَوَلُّوا مُدْبِرينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إلا كَبيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إلَيْهِمْ يَرْجِعونَ * قالُوا مَنْ فَعَلَ بِآلِهَتِنا إنَّه لَمِنَ الظّالِمينَ * قالُوا سَمِعْنا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إبراهيمُ﴾ ففتّشوا عنه فوجدوه فقرّبوه إلى المحاكمة كما قال تعالى: ﴿قالُوا فَأْتوا بِهِ عَلى أعْيُنِ النّاسِ لَعَلّهُمْ يَشْهَدونَ * قالُوا أأنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إبْراهيمُ * قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هذا فَاسألوهُمْ إنْ كانوا يَنْطِقونَ * فَرَجَعوا إلى أنْفُسِهِمْ فَقالُوا إنَّكُمْ أَنْتُمُ الظّالِمونَ*﴾ باتّخاذكم هذه الجمادات الّتي لا تقدر على شيء آلهة فعبدتموهم ﴿ثمّ نُكِسوا عَلى رُؤوسِهِمْ﴾ أي رجعوا إلى ضلالهم بعد إعترافهم هذا، فقالوا لإبراهيم (لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤلاءِ يَنْطِقُونَ*﴾ فَأجابَهُم إبْراهيمُ لإلْزامِهِمْ الحجّة: ﴿قالَ أفَتَعْبدونَ مِنْ دُونِ اللّهِ ما لايَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلايَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللّهِ أفَلا تَعْقِلونَ*﴾ فلمّا أعيتهم الحيلة ولم يقدروا على مقابلة الحجّة بالحجّة إلتجأوا الى القوّة كما هو شأن كلّ مبطل جبار لا دليل له لا من العقل ولا من النّقل، وأرادوا أهلاكه بالاحراق، كما قال تعالى عنهم: ﴿قالُوا حَرِّقوهُ وَانْصُروا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فاعِلينَ *﴾ فَأشْعَلوا ناراً عَظيمَةً وَألْقوه فيها، فأمر الله تعالى النّار أن تبرد على ابراهيم، فلا تحرقه كما قال تعالى ﴿قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً عَلى إبْراهيمَ﴾ ﴿وَأرادُوا بِهِ كَيْداً﴾ وهو إحراقه (فَجَعَلْناهُمْ الاخْسَرينَ﴾ سورة الأنبياء الآيات/٥٧-٧٠. حيث أصبحت النّار روضة يتنعّم فيها إبراهيم (عليه السلام) ثمّ جهد إبراهيم كلّ الجهد في سبيل هداية قومه، وحاول أن يقنعهم بكلّ جهده وقوته، ودخل معهم مناقشات كثيرة ملؤها الحكمة والشّجاعة والإخلاص والثبات على الحقّ والدّعوة الى الله تعالى وهذه مناقشاته.

١ ـ مناقشته مع أبيه والّتي يذكرها الله تعالى في سورة الأنعام فيقول: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه﴾ حينما أتاه الله تعالى الرّشد وعلم أنّ هذه الأصنام لا تكون آلهة: ﴿أَتَتَّخِذُ

أَصْناماً آلِهَةً إنِّي أراكَ وَقَوْمَكَ في ضَلالٍ مُبينٍ) فأجابه أبوه بأنّهم ما يعبدون هذه الأصنام إلّا لأنّها تماثيل للشّمس والقمر والكوكب الّذي كانوا يعتقدون فيها آلهةً، فألهمه الله تعالى بطلان ألوهيّة تلك الأجرام أيضاً، كما قال تعالى: ﴿وَكذلِكَ﴾ أي وكما أريناه بطلان ألوهيّة هذه الاصنام ﴿نُري إِبْراهيمَ مَلَكوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ بأنّها ليست آلهة بل هي مخلوقة لله تعالى ذليلة تحت قدرته وإرادته (وَ) نريه ذلك مستمرّاً ﴿لِيَكونَ مِنْ الْموقِنيْن﴾ بأنّها لا تكون آلهة، ففكّر في الكوكب الّذي اتّخذوه آلهاً ﴿فَلَمّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً﴾ وهو الّذي كانوا يعبدونه ﴿قالَ هذا رَبّي﴾ وقال ذلك ليجعله مقدمّة الاستدلال لا للاعتراف بالوهيّته ﴿فَلَمّا أَفَلَ﴾ علم أنّه متغيّر وكلّ متغيّر حادث والحادث لا يكون إلهاً فلذا ﴿قالَ لا أُحِبُّ الآفِلين﴾ ولا أتّخذهم آلهة. ثمّ تفكّر في القمر ﴿فَلَمّا رأى القَمَرَ بازِغا قالَ هذا رَبّي فَلَمّا أَفَلَ﴾ علم انّه ليس إلهاً ﴿قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِني رَبّيج الّذي هو الآله الواقع ﴿لَأَكونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضّالِين﴾ ثمّ تفكّر في الشّمس ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ﴾ الأجرام العلويّة كلّها ﴿وَالْأَرْضَ﴾ أي والأجرام السّفلية كلّها ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً إلى الحقّ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (وَحاجَّهُ) أي جادله ﴿قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُونّي في اللهِ وَقَدْ هَدانِ﴾ أصله هداني حذفت الياء للتّخفيف، ثمّ خوّفوه من الآلهة بأنّها تُصيبه بالضّرر والأذى فقال: ﴿ولا أخافُ ما تُشْرِكونَ بِهِ إلّا أنْ يَشاءَ رَبيّ شَيْئاً وَسِعَ رَبي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أفَلا تَتَذَكَّرونَ * وَكَيْفَ أخافُ ما أشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أنَكُمْ اَشْرَكْتُمْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأيّ الفَريقَيْنِ أحَقُّ بِالأمْنِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمون* اَلّذينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمُ بِظُلْمٍ (أي بشرك) أولئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُم مُهْتَدونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءَ إنْ رَبَّك حَكيمٌ عَليمٌ *﴾ سورة الأنعام الآيات/ ٧٤-٨٣. فراجع سورة الأنعام لمعرفة تفسير هذه الآيات.

٢ ـ مناقشته مع أبيه أيضاً، وهي ما ذكره تعالى فقال جلّ وعلا: ﴿وَاْذكُرْ في الْكِتابِ اِبْراهيمَ اِنَّهُ كانَ صدّيقاً نَبيّاً * إذْ قالَ لأبيهِ يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لايَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلايُغْنى عَنْكَ شَيْئاً * يا أبَتِ اِنّي قَدْ جاءَني مِنَ الْعِلْمِ مالَمْ يَأتِكَ فَاتَّبِعْني أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيّا * يا اَبَتِ لا تَعْبُد الشَّيْطانَ اِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلّرَحْمنِ عَصِيّاً * يا أبَتِ اِنّي اَخافُ أن يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكونَ لِلشَّيْطانِ وَلَيّاً * قالَ أراغِبٌ أنْتَ عَنْ آلِهَتي يا إِبْراهيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْني مَلِيّاً * قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبيّ إنَّهُ

كانَ بي حَفِيّاً * وَأَعْتَزِ لُكُمْ وَماتَدْعونَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَأَدْعُو رَبيّ عَسى أنْ لا أكونَ بدُعاءِ رَبيّ شَقِيّاً *﴾ سورة مريم الآيات/ ٤١-٤٦. راجع سورة مريم لتفسير الآيات.

٣ ـ ما ذكره تعالى فيقول جلّ وعلا: ﴿وَانَّ مِنَ شيعَتِهِ لإبْراهيمَ * إذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَليمٍ * إذْ قالَ لأبيهِ وَقَوْمِهِ ماذا تَعبُدونَ * أإفْكاً آلِهَةً دُونَ اللّهِ تُريدُونَ * فما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجومِ * فَقالَ إنّي سَقيمٌ * فَتَوَلَّوا عَنْهُ مُدْبِرينَ * فَراغَ إلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ ألا تَأكُلون * ما لَكُمْ لا تَنْطِقونَ * فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمينِ * فَأقْبَلوا إلَيهِ يَزِفّونَ * قالَ أتَعْبُدونَ ما تَنْحِتُونَ * وَاللّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلونَ * قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَألْقوهُ في الْجَحيمِ * فَأرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُم الأسْفَلينَ * وَقالَ إنّي ذاهِبٌ إلى رَبيّ سَيَهْدينِ *﴾ سورة الصافات الآيات/ ٨٣ - ٩٩. فراجع سورة الصّافات لتفسير الآيات.

٤ ـ ما ذكره الله تعالى في سورة الشّعراء فقال جلّ وعلا: ﴿وَاْتلُ عَلَيْهم نَبَأ إبْراهيمَ * إذْ قالَ لأبيهِ وَقَوْمِهِ ما تَعبُدُونَ * قالُوا نَعْبُدُ أصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفينَ * قالَ هَلْ يَسْمعونَكُمْ إذ تَدْعُونَ * أوْ يَنْفَعونَكُمْ أوْ يَضُرُّونَ * قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلونَ * قالَ أفَرَأيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أنْتُمْ وَآباؤكُمُ الأقْدَمونَ * فإنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إلّا رَب العالَمينَ * الّذي خَلَقني فَهُو يَهدينِ. وَالّذي هُو يُطْعِمُني وَيَسْقينِ * وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفينِ * وَالّذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيينِ * وَالّذي أطْمَعُ اَنْ يَغْفِرَ لي خَطيئَتي يَوْمَ الّدينِ * رَبِّ هَبْ لي حُكْماً وَألْحِقْني بِالصّالِحينَ * واجعل لي لِسانَ صِدقٍ في الآخرينَ * واجْعلْنى مِنْ وَرَثَةِ جَنّةِ النَعيم * وَأغْفرْ لأبي اِنَّه كانَ مِنَ الضّالّينَ * وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثونَ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلابَنُون * إلّا مَنْ أتى اللّهَ بِقَلْبٍ سَليمٍ *﴾ سورة الشعراء الآية/ ٦٩-٨٩.

٥- مناقشته مع الملك نمرود الّذي كان يدّعى الألوهية، وهي ما ذكره جلّ وعلا: ﴿ألَمْ تَرَ إلى الْذي حاجَّ إبْراهيمَ في رَبِّهِ أنْ آتاهُ اللّه الْمُلْكَ إذْ قالَ إبْراهيمُ رَبِّيَ الَّذي يُحْيي وَيُميتُ قالَ أنا أحيِ وَأميتُ قالَ إبْراهيمُ فَإنَّ اللّهَ يَأتي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذي كَفَرَ وَاللّهُ لا يَهْدي الْقَوْمَ الظّالِمينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٨. فبعد أن ناقش إبراهيم هذه المناقشات الرّهيبة والمليئة بالحجّة والبرهان وتعب في نصح القوم وأصرّ القوم على شركهم وضلالهم، فلم يؤمن به إلّا لوط ابن أخيه وزوجته سارّة، ويئس إبراهيم من إيمان القوم، وأصبح القوم يكيدون له كلّ كيد ويلحقون به الأذى والسّخرية والاستهزاء، إرتحل هو وإبن أخيه لوط وزوجته سارة، فذهب إلى أور الكلدانيين، وهي كانت مدينة قرب الشّاطئ الغربي من فرات، ثمّ ارتحل إلى حاران ثمّ

إرتحل إلى بلاد فلسطين، فأقام في شكيم وهي مدينة نابلس، وكان للوط وإبراهيم (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسّلام) مواش كثيرة فضاق المقام في نابلس، فاتّفقا على أن يفترقا، فذهب لوط إلى سادوم في دائرة الأردن وبقي إبراهيم (عليه السلام) في شكيم.

رحلته إلى مصر: حدث جدب في الأرض فانتقل إبراهيم إلى مصر وذلك في عهد العماليق، ويسمّون ملوك الرّعاة ويسمّيهم الرّومان هكسوس، فأظهر أنّ سارة هي أخته وأراد الملك أخذها زوجة له، فأري في المنام أنّها ذات بعل هو إبراهيم، وأعطاها أموالاً وماشية وجواري وعبيداً، وعاد إبراهيم كما بدأ، وفي البخاري في باب أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال: لم يكذب إبراهيم النّبيّ قطّ إلّا ثلاث كذبات، أي بحسب الظّاهر وإلّا ففي الواقع لم يكن ولا واحدة منها كذبة، فتبيّن في ذات الله تعالى قوله (إنّي سقيم) وذلك حينما طلب منه قومه أن يخرج معهم يوم العيد إلى الصّحراء فقال (إِنّي سَقيمٌ) ومعناه في الحقيقة إنّي متألّم القلب من عقيدتكم وأعمالكم، وحينما كسر الأصنام فسألوه أأنت فعلت هذا بآلهتنا فقال: (بَلْ فَعَلَهُ كَبيرُهُمْ هذا) وكان قصده بل فعله إبراهيم على وجه الإلتفات: (كَبيرُهُمْ هذا فَاسْأَلوهُمْ إِنْ كانوا يَنْطِقُون) فيجيبون من فعل بهم هذا، وواحدة في شأن سارة فإنّه قدِم أرض جبّار ومعه سارة، وكانت أحسن النّاس فقال لها: إنّ هذا الجبّار إن يعلم أنّك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريّه أنّك أختي، فإنّك أختي في الإسلام، فإنّي لا أعلم في الأرض مسلماً غيرك وغيري (أي في أرض مصر) فلمّا دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له: لقد قدم أرضك إمرأة لا ينبغي لها أن تكون إلّا لك، فأرسل إليها فأتي بها، فقام إبراهيم إلى الصّلاة، فلمّا دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها؛ فقبضت يده قبضة شديدة، فقال: إدعي الله أن يطلق يدي ولا أضرّك، ففعلت، فعاد فقبضت أشدّ من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد فقبضت أشدّ من القبضتين الأوليين، فقال: إدعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرّك، ففعلت فأطلقت يده، ودعا الّذي جاء بها فقال له: إنّك إنّما أتيتني بشيطانة ولم تأتني بإنسان؛ فأخرجها من أرضي، وأعطاها هاجر قال: فأقبلت تمشي، فلمّا رآها إبراهيم (عليه السلام) إنصرف فقال لها: مهيم[1]، فقالت: (خيرًا، كفّ الله يد الفاجر

---

(١) أي ما وراءك / أساس البلاغة ٢/ ٥٠٠.

وأخدمني خادماً) قال أبو هريرة فتلك أمّكم يا نبي السّماء[1].

ولادة إسماعيل (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام): كانت سارة زوجة إبراهيم (عليه السلام) عاقراً لا تلد وتألّمت سارة حيث لم تجد لإبراهيم (عليه السلام) نسلاً وهي قد شاخت لا يرجى لها أن تلد، فأذنت لإبراهيم (عليه السلام) أن يدخل على هاجر فأتت هاجر بغلام سمّاه إسماعيل (عليه السلام).

ذهاب إبراهيم بهاجر وإبنها إسماعيل (عليه السلام) إلى مكّة المكرّمة: في البخاري عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنّ النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) قال: أوّل ما أُتخذ المنطق (أي النّطاق) من قبل أمّ إسماعيل (عليه السلام) اتّخذت منطقاً لتخفي أثرها (أي حملها) على سارة ثمّ جاء بها إبراهيم وبإبنها إسماعيل (عليه السلام) وهي ترضعه حتّى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، ووضعهما هناك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثمّ قفى ابراهيم منطلقاً فتبعته أمّ إسماعيل (عليه السلام) فقالت: يا ابراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الّذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: آالله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيّعنا، ثمّ رجعت فانطلق إبراهيم (عليه السلام) حتّى إذا كان عند الثنيّة حيث لا يرونه، إستقبل بوجهه البيت ثمّ دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: (رَبَّنا إنِّيّ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِك الْمُحرمِ رَبّنا لِيُقيموا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرونَ). وجعلت أمّ إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتّى إذا نفذ الماء عطشت وعطش إبنها وجعلت تنظر إليه (تبلوى)، أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهيّة أن تنظر إليه فوجدت الصّفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثمّ استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصّفا حتّى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثمّ سعت سعي الإنسان المجهود حتّى جاوزت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرّات قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) فذلك سعي النّاس بينهما، فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه تريد نفسها، ثمّ تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث؟ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال بجناحه حتّى ظهر الماء، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا، أي زمزم، وهو بمعنى: قف، وجعلت تغترف من الماء في سقائها وهو يفور

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٢٥ الحديث رقم ٣١٧٩.

بعدما تغترف، قال ابن عبّاس (رضي الله عنه) قال النّبيّ (ﷺ): (يرحم الله أمّ اسماعيل لو تركت زمزم أو لو لم تغترف من الماء لكانت زمزم عينا معيناً) وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضّيعة فإنّ هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإنّ الله لا يضيّع أهله. وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرّابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت (أي أمّ إسماعيل) كذلك حتّى مرّت بهم رفقة من (جرهم) أو أهل بيت من جرهم مقبلين على طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكّة فرأوا طائراً عائماً فقالوا: إنّ هذا الطّائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء. فأقبلوا قال: وأمّ اسماعيل عند الماء فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم، ولكن لا حقّ لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عبّاس (رضي الله عنه): قال النّبيّ (ﷺ): فألقى ذلك أمّ إسماعيل وهي تحبّ الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم، فنزلوا معهم حتّى إذا كان بها أهل أبيات منهم فشبّ الغلام (أي إسماعيل) وتعلّم العربيّة منهم، وهو أنفسهم وأعجبهم حين شبّ، فلمّا أدرك زوّجوه إمرأة وماتت أمّ إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوّج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل إمرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا، ثمّ سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرّ! نحن في ضيق وشدّة! فشكت إليه، قال لها: إذا جاء زوجك فاقرئيه السّلام وقولي له يغيّر عتبة بابه، فلمّا جاء إسماعيل كأنّه آنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك؟ فأخبرته، وسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته: أنا في جهد وشدّة، قال إسماعيل: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني: أن أقرأ عليك السّلام ويقول غيّر عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك إلحقي بأهلك فطلّقها، وتزوّج أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثمّ أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على أمرأته فسألها عنه؟ فقالت: خرج يبتغي لنا؟ قال: كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم؟ فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله تعالى، فقال: وما طعامكم؟ قالت: اللّحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: ألّلهم بارك لهم في اللّحم والماء، قال النّبيّ (ﷺ): ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال: فهما لا يخلو عليها أحد بغير مكّة إلّا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فأقرئيه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلمّا جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك؟ فأخبرته، فسألني: كيف عيشنا؟ فأخبرته: أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السّلام ويأمرك أن تثبّت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت

العتبة أمرني أن أمسكك، ثمّ يمسك عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثمّ جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له قريباً من زمزم، فلمّا رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثمّ قال: يا إسماعيل إنّ الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربّك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإنّ الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال(ﷺ): فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبنى حتّى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: (ربّنا تقبل منّا إنّك أنت السّميع العليم) قال (ﷺ): فجعلا يبنيان حتّى يدورا حول البيت وهما يقولان: (ربّنا تقبل منّا إنّك أنت السّميع العليم).

ذبح إبراهيم ولده إسماعيل (على نبيّنا وعليهما الصّلاة والسّلام): إتّفق العلماء على أنّ رؤيا الأنبياء وحي من الله تعالى وأمر مباشر لهم بما يرون، وقد رأى إبراهيم في منامه أنه أمر أن يقدم إبنه قرباناً لله تعالى ويحرقه كما تقدم القرابين وتحرق وأنه كان يفعل ذلك وكان ذلك الولد إسماعيل (عليه السلام) فصدع إبراهيم (عليه السلام) بذلك الأمر الصادر إليه في المنام وعرض الأمر على إسماعيل (عليه السلام) فتقبل القضاء بالرضاء وقال: (يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين) فلما عزم على العمل وأضجع إسماعيل (عليه السلام) على جبينه وأهوى بالمدية إلى محل ذبحه ناداه الله تعالى بالكف عن ذبحه وأن هذا العمل الذي قاما به يكفي تصديقاً للرؤيا ولإطاعة الله تعالى وأرسل الله تعالى إليه كبشاً ليذبحه ويجعله قرباناً فداءً عن إسماعيل. وهذه القصة مذكورة في القرآن كما قال جلّ وعلا: وقال (أي إبراهيم) ﴿إِنيّ ذاهِبٌ إِلى رَبيّ سَيَهْدينِ * رَبِّ هَبْ لي مِنَ الصّالِحينَ * فَبَشَّرناهُ بِغُلامٍ حَليم * فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيّ اِنيّ أرى في الْمَنامِ أنيّ أذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرى قالَ يا أبَتِ افْعَلْ ماتُؤْمَرُ سَتَجِدُني إنْ شاءَ اللّهُ مِنَ الصّابِرينَ * فَلَمّا أسْلَما وَتَلَّه لِلْجَبينِ * وَنادَيْناهُ أنْ يا إبْراهيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا اِنّا كَذلِك نَجْزي الْمُحْسنينَ * إنَّ هذا لَهُو الْبَلاءُ الْمُبينُ * وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظيمُ * وَتَرَكْنا عَلَيْهِ في الآخِرينَ * سَلامٌ عَلى إبْراهيمَ * كَذلِكَ نَجزْي الْمُحْسنينَ * اِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمؤمنينَ﴾ سورة الصافات الآيات ٩٩-١١١.

ولادة إسحاق (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام): كان إبراهيم (عليه السلام) يحبّ الأضياف وقراهم؛ فكان قبل أن يحضر الطّعام يذهب إلى الطرق ليجد ضيفاً فيأتي به إلى داره ليأكل معه، فرأى يوماً ثلاثة رجال فاستقبلهم ودعاهم إلى بيته، فمالوا إليه فصنع لهم طعاماً وعمد إلى عجل سمين فذبحه وشوّاه في النّار وجاء به وقرّبه إليهم، فرأى أن أيديهم لا تمتدّ إليه، فارتاب في شأنهم وخاف منهم، حيث إنّه كان من العادة

أن الضّيف إذا لم يأكل طعام المضيف كان ذلك دلالة على أنّهم يريدون شرّاً بالمضيف، فخاطبهم وقال: ألا تأكلون؟ فأجابوه بأنّهم ملائكة لا يأكلون، وقد جاؤوا ليذهبوا إلى سادوم قرية لوط للانتقام من قومه ولإهلاكهم. وكان سادوم وعامورة في مكان البحر الميت المعروف اليوم ببحر لوط، فخاف إبراهيم (عليه السلام) من ابن أخيه لوط فقالوا له: إنّا نجّيه وأهله أجمعين إلّا امرأته فإنّها قدّر الله تعالى أن تكون من الهالكين، فأخذت الشّفقة إبراهيم (عليه السلام) فأصبح يجادل عن قوم لوط (عليه السلام) ويشفع لهم ويطلب منهم الرّحمة بهم، فقالت الملائكة: إنّ الأمر قد قُضّ وإنّهم لمهلَكون، وقالوا له: إنّما جئنا إليك لنبشّرك بغلام عليم. وهذه القصة فصلها القرآن فقال جلّ وعلا: ﴿وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهيمَ بالبشرى قالوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ اَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنيذٍ * فَلَماّ رَأى أيْدِيَهُمْ لاتَصِلُ اِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً قالوا لاتَخَفْ اِنّا اُرْسِلْنا اِلى قَوْمِ لوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقوبَ * قالَتْ يا وَيْلَتا أأَلِدُ أنا عَجوزٌ وَهذا بَعْلي شَيْخاً اِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجيبٌ * قالُوا اَتَعْجَبينَ مِنْ اَمْرِ اللّهِ رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أهْلَ الْبَيْتِ اِنَّه حَميدٌ مجيدٌ * فَلَمّا ذَهَبَ عَنْ اِبْراهيمَ الرَّوْعُ وَجاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا في قَوْمِ لوطٍ * إن إبْراهيمَ لَحَليمٌ أوّاهٌ مُنيبٌ * يا اِبْراهيمَ أعرِضْ عَنْ هَذا اِنَّهُ قَدْ جاءَ أمْر رَبِّكَ وَاِنَّهُمْ آتيهِمْ عَذابٌ غَيْر مَرْدودٌ﴾ سورة هود الآية/ ٦٩-٧٦. ووردت القصّة في سورة الذّاريات أيضاً فقال جلّ وعلا: ﴿هَلْ اَتاكَ حَديثُ ضَيْفِ إِبْراهيمَ الْمُكْرَمينَ * إِذْ دَخلُوا عَلَيْهِ فَقالوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرونَ * فَراغَ إلى أهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ ألا تَأكُلون * فَأوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَليمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأتُهُ في صُرَّةٍ فَصَكَّتَ وَجْهَها وَقالَتْ عَجوزٌ عَقيمٌ * قالُوا كذلِكَ قالَ رَبُّكَ إِنَّه هُوَ الْحَكيمُ الْعَليمُ * قالَ فَما خَطْبُكُمْ أيُّها الْمُرْسَلونَ * قالُوا إِنّا أرْسِلْنا إلى قَوْمٍ مُجْرِمينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْد رَبِّكَ لِلْمُسْرِفينَ * فَأَخْرَجنا مَن كانَ فيها مِنَ الْمُؤْمِنينَ * فَما وَجَدْنا فيها غَيرْ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمينَ * وَتَرَكْنا فيها آيَةً لِلَذينَ يَخافُون الْعَذابَ الأليمَ﴾ سورة الذاريات الآيات/ ٢٤-٣٧ ـ . هذه خلاصّة قصّة سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) كما ورد في القرآن الكريم، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين وعلى أممهم وآلهم والحمد لله ربّ العالمين.

كملت الكتابة اليوم الأوّل لعيد الأضحى المبارك عام ١٤٠٧ من هجرة سيّد المرسلين، أعاده تعالى علينا بالخير والبركة والإحسان والتّوفيق على خير الأعمال وحسن الخاتمة آمين.

سورة الحجر

(مكيّة، وهي تسع وتسعون آية، نزلت بعد سورة يوسف (عليه السلام)، سميّت بالحجر لما فيها من قصّة أصحاب الحجر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

(**الر**) أشار الله تعالى بهذه الحروف المقطّعة الى الدّليل على أنّ هذا القرآن من الله تعالى، وذلك بوجهين:

الأوّل: أنّ هذا القرآن مؤلّف من هذه الحروف العربيّة الّتي يؤلّف النّاس منها خطبهم وأشعارهم، فلو لم يكن من الله تعالى لما عجز كلّ بلغاء العرب عن الإتيان ولو بمثل أقصر سورة منه، وقد جاء به رجل أمّي وهو محمّد (صلى الله عليه وسلم) الّذي لم يمارس قطّ الكتابة والقراءة ولا الشّعر والخطابة.

الثّاني: أنّ محمّداً أمّي ولا يعرف التّعبير عن أسماء الحروف إلّا القارىء أو الدّارس أو الكاتب، فحينما يعبّر محمّد عن هذه الأسماء وهو أمّيّ يدلّ ذلك على أنّ هذا القرآن من الله تعالى.

وبعد أن أثبت الله تعالى بهذا الدّليل أنّ هذا القرآن من الله تعالى أراد أن يصرّح

بالمدلول فقال جلّ وعلا: (**تِلْكَ**) أي هذه الآيات الّتي يتلوها محمّد هي (**آيَاتُ الْكِتَابِ**) اي اللّوح المحفوظ (**وَ**) آيات (**قُرْآنٍ مُّبِينٍ**) فأشار بذلك الى أنّ القرآن موافق للّوح المحفوظ وأنّه جاء منه. ثمّ بعد أثبت أنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسوله وأنّ الاسلام حقّ وهو دين الله تعالى أراد أن يذكر حال الّذين لم يؤمنوا ولم يعتنقوا الاسلام فقال جلّ وعلا: (**رُّبَمَا يَوَدُّ**) أي يتمنّى (**الَّذِينَ كَفَرُواْ**) بالقرآن ولم يسلموا فيتمنّون ويقولون (**لَوْ كَانُواْ**) أي ليتهم كانوا في الدّنيا (**مُسْلِمِينَ**) وذلك حينما لقوا مصيرهم ودخلوا جهنّم نتيجة عدم اسلامهم.

تنبيه: (ربما) يستعمل للقلّة والكثرة، فان أريد به هنا الكثرة فالأمر واضح إذ المعنى كثيرا مايتمنّى الكافرون لو كانوا مسلمين، وإذا أريد به القلّة فلأنّهم قليلاً مايتنبّهون من شدّة العذاب عليهم، فكلّما تنبّهوا تمنّوا ذلك وهو قليل. والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن أنذرهم الله تعالى بعذاب الآخرة أراد أن ينذرهم بعذاب الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا: (**ذَرْهُمْ**) اتركهم ولاتستعمل معهم القوّة (**يَأْكُلُواْ**) أي فليأكلوا ماشاؤوا (**وَيَتَمَتَّعُواْ**) بما يريدون من الدّنيا (**وَيُلْهِهِمُ**) ويشغلهم (**الأَمَلُ**) في الازدياد من الدّنيا والقوّة والثّروة عن اتّباع الحقّ، والأمر هنا للتّهويل والتّخويف وإلانذار، أي فليفعلوا كلّ ذلك ولا تستعمل معهم القوّة فإنّا نحن ننتقم منهم (**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**) مايلقونه من العذاب نتيجة هذا الأكل والتّمتّع والانشغال به عن الحقّ ودين الله تعالى، وليس معنى قوله تعالى (**ذرهم**) أن يترك الرّسول أو الدّعاة الدّعوة، بل معناه أن لا يحزنوا على مايفعلون ولايستعملوا القوّة فإنّ واجبهم الإنذار والتّبليغ، وأنّ استعمال القوّة له وقت آخر. ثمّ بعد أن أنذر الله تعالى الكافرين بعذاب الدّنيا وقد تأخّر ذلك فربّ من سائل يقول: فمتى يأتي ذلك العذاب؟ فقال جلّ وعلا: (**وَمَا أَهْلَكْنَا**) وعذّبنا (**مِن**) أهل (**قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ**) أي أجل ووقت (**مَّعْلُومٌ**) محدّد عند الله تعالى مكتوب لايتقدّم ولا يتأخّر كما صرّح تعالى بذلك فقال: (**مَا تَسْبِقُ**) ماتتقدّم (**مِنْ**) عذاب (**أُمَّةٍ**) عن (**أَجَلَهَا**) أي وقتها المعلوم (**وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ**) ولايتأخّر عذابهم عن الوقت المحدّد له حينما جاء.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سفه الكافرين وما يجيبون به الرّسول (ﷺ) حينما يدعوهم الى الإيمان فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾

(**وَقَالُواْ**) أي قال الكافرون للرّسول حينما كان يدعوهم الى الإيمان (**يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**) كما تدّعي وتقول (**إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**) ولست بمرسل والّا فان كنت مرسلاً (**لَوْ مَا**) أي لماذا لا (**تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ**) يشهدوا أنّك رسول الله (**إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**) في ادّعائك النّبوّة والرّسالة؟ فردّ الله تعالى على قولهم هذا فقال: (**مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ**) اي لم نجعل من عادتنا أن ننزّل الملائكة (**إِلّا بِالحَقِّ**) اي بالعذاب الّذي حقّ على النّاس وأردنا أن نعذّبهم (**وَمَا كَانُواْ**) أي النّاس (**إِذًا**) أي حين نزلنا الملائكة بالعذاب (**نُظَرِينَ**) ممهلين، فلا يمهل أحد بل يهلك فورا ودون تأخير. ثمّ ربما خالج قلب الرّسولﷺ بعض الحزن حينما رأى أنّ الكافرين يحاولون بكلّ وسيلة لأن يقضوا على الاسلام وأن يطفئوا نوره، فطمأنه الله تعالى فقال جلّ وعلا: (**إِنَّا نَحْنُ**) القادرون والغالبون (**نَزَّلْنَا**) هذا (**الذِّكْرَ**) وهو الإسلام[1] (**وَإِنَّا**) بقدرتنا وغلبتنا (**لَهُ**) لهذا الذّكر (**لَحَافِظُونَ**) من أن يقضي عليه الكافرون أو يطفئوا نوره، هذا وقد حقّق الله تعالى هذا الوعد إذ أنّ أعداء الإسلام خلال التّأريخ بالرغم من محاولاتهم الكثيرة الدّائبة لم يستطيعوا القضاء على هذا الاسلام ولا تحريف لفظ من هذا القرآن العظيم، وسيبقى هذا الدّين ساطعاً يشع أنواره الى يوم الدّين رغم كيد الكائدين ومحاولات الملحدين والكافرين، قال رسول الله (ﷺ): (لاتزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ حتّى يأتي أمر الله)[2] أي القيمة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله ويذكر له أنّ هذه سنّة الله تعالى في الرّسل فما من رسول إلّا وأوذي وعودي واستهزئ به، فقال جلّ وعلا:

---

(١) فسّر الذّكر بالإسلام لأنّه فعلا حفظ الله تعالى كلّا من القرآن والسّنة كليهما من التّحريف وما اتّبع من طرق علميّة دقيقة لبيان الثّابت عن النّبيّ (ﷺ) من المنسوب إليه يشهد به الأعداء قبل الأصدقاء؛ إذ قالوا إن جاز للمسلمين الإفتخار بشيء فليفخروا بعلم الإسناد الّذي لا مثيل له في العالم القديم والحديث.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٦٧ الحديث رقم ٦٨٨١.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

(وَ) بعزتي (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ**) رسلاً كثيرين (**فِي شِيَعِ**) جمع شيعة بمعنى الطّائفة أي في أقوام وطوائف (**الأَوَّلِينَ**) السّابقين (وَ) كان من عادتهم أنّهم (**مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئونَ**) ويكذّبونهم فلا تحزن أيّها النّبيّ من تكذيب القوم للايمان، هذه سنّة كلّ قوم، وانّ كلّ رسول يجب أن يلقى الاستهزاء والتّكذيب (**كَذَلِكَ**) أي مثل ما نقول (**نَسْلُكُهُ**) أي ندخله (**فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ**) بسبب إجرامهم وهو أنّهم (**لَا يُؤْمِنُونَ**) أي القوم لا يؤمنون (**بِهِ**) بالرّسول (**وَقَدْ خَلَتْ**) أي وقد مضت (**سُنَّةُ الأَوَّلِينَ**) من تكذيب الرّسل وقصصنا عليك، وبذلك أنذر تعالى مجرمي هذه الأمّة وهم الّذين لايؤمنون بالرّسول ولا يدينون بدينه، إذ المعنى قد خلت سنّة الله في الأولين من تعذيبهم وإهلاكهم، فنعذّب المجرمين من أمّتك كما عذّبنا من قبلهم، فإنّه لا تبديل لسنّة الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر شدّة كفر بعض النّاس وغلوّهم في ضلالهم فقال جل وعلا:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

(**وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم**) أي على هؤلاء المجرمين (**بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ**) فأصبحوا (**فِيهِ**) في ذلك الباب (**يَعْرُجُونَ**) يصعدون الى السّماء ورأوا أنّ الوحي ينزل عليك بأمّ أعينهم (**لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ**) خدّرت (**أَبْصَارُنَا**) وإنّ ما رأيناه ممّا يدل على صدق محمّد ليس حقيقة (**بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ**) فسحرنا ورأينا ذلك نتيجة هذا السّحر وليس حقيقة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ هؤلاء الكافرين لايؤمنون، وإن رأوا كلّ ملكوت السّماء، وأنّ الوحي ينزل على الرّسول (ﷺ) ذكر أنّه يحيط بهم ممّا يشاهدونه دلائل

واضحة تدلّ على صدق ماجاء به الرّسول (ﷺ) من وحدانيّة الله تعالى وقدرته، وأنّ هذه الدّلائل أوضح من هذه المشاهدة، فإن لم يؤمنوا بهذه الدّلائل لا يؤمنون، وإن عرجوا إلى السّماء.

ثمّ إنّ هذه الدّلائل موجودة في العالم العلوي والسّفلي وفي مابينهما، فبدأ أوّلاً بما في العالم العلوي فقال جل وعلا:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

(و) بعزّتي **(لَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا)** جمع برج، والبرج: هو القصر، والمراد به هنا منازل الشّمس والقمر، فللشّمس اثناعشر برجاً، كلّ برج ثلاثون درجة، ومن كلّ درجة يتشكّل خطّ حول الأرض تكون الشّمس كلّ يوم مقابل خط من هذه الخطوط الّتي تسمّى مدارت، فتكون الشّمس كلّ شهر مقابل برج وتقطع كلّ البروج في سنة شمسيّة، وهذه البروج هي: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو والحوت. وكذلك للقمر ثمان وعشرون منزلاً يقطعها في شهر واحد ويقطع البروج في هذه المدّة أيضا، فالشّمس تقطع البروج في كلّ سنة مرّة والقمر في كلّ شهر مرة، وهناك منازل وبروج للكواكب الأخرى. **(وَزَيَّنَّاهَا)** أي السّماء بهذه البروج وبتلك الكواكب والنّجوم **(لِلنَّاظِرِينَ)** إليها **(وَحَفِظْنَاهَا)** أي السّماء **(مِن)** صعود **(كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ)** فيها واليها فلا يستطيع الشّياطين الصّعود إلى الملأ الأعلى **(إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ)** بأن ذهب بسرعة فأخذ خبراً من السّماء، وذلك لايستطيع الرجوع به الى الأرض حيث **(فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ)** أتبعه قبس من النّار **(مُّبِينٌ)** واضح فتحرقه قبل أن يصل إلى الأرض. هذا وانّ الشياطين كانوا قبل بعثة الرّسول (ﷺ) يصعدون الى السّماء فيأتون بالأخبار الغيبيّة فيخبرون بها الكهنة، فبعد بعثة الرّسول منعوا من ذلك، قال تعالى في سورة الجنّ حكاية لقول الجنّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ سورة الجن الآيتان(٨،٩) ـ وبذلك أبطل الله تعالى الكهانة وعمل الكهان.

ثمّ بعد أن وجّه الله تعالى أنظار النّاس إلى العالم العلوي ليستدلّوا به على وحدانيّة الله تعالى وقدرته، أراد تعالى أن يوجّه أنظارهم الى العالم السّفلي فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

(وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا) أي خلقناها ممدودة ومفروشة لتصلح لسكن الإنسان والحيوان عليها **(وَأَلْقَيْنَا)** أي وثبّتنا **(فِيهَا رَوَاسِيَ)** جبالاً راسيةً ترسي وتمنع الأرض من الحركة والإضطراب **(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)** يوزن ويعلم مقداره بالوزن كالحبوب والثّمار والمعادن وغير ذلك ممّا يحتاج اليه الانسان والحيوان، هذا وإنّ فرش الأرض لا ينافي كرويّتها، حيث لامانع من كون سطح الكرة الكبيرة صالحة للافتراش والسّكن عليها سيّما وأنّ الارض ليست كرة حقيقيّة **(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا)** في الأرض **(مَعَايِشَ)** أسباباً للمعيشة من الحبوب والثّمار والمعادن كلّ ذلك لمعيشتكم **(وَ)** لمعيشة **(مَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ)** من الأحياء الموجودة فوق الأرض بل الله تعالى يرزقهم **(وَإِن)** أي وما **(مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ)** وبيدنا مفاتيحها **(وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ)** اي بمقدار **(مَّعْلُومٍ)** محدّد عند الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يوجّه الأنظار الى مابين العلويّ والسّفليّ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) حاملة للسّحب المجتمعة بين السّماء والأرض **(فَأَنزَلْنَا)** بسبب هذه السّحب **(مِنَ السَّمَاء مَاء)** من فوق الأرض **(فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ)** بهذا الماء **(وَ)** أسقينا به **(مَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)** تخزنونه من ثمار النّباتات والأشجار.

ثمّ بعد أن وجّه الله تعالى الأنظار إلى الاستدلال بما في الآفاق، أراد أن يوجّهنا إلى الاستدلال بما في الأنفس فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

(**وَإِنَّا لَنَحْنُ**) وحدنا (**نُحْيِي**) نعطي قوّة الحياة لمن أردنا حياته (**وَنُمِيتُ**) ونسلب تلك القوّة ممّن أردنا موته، ولا أحد يستطيع أن يعمل ذلك (**وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ**) المالكون لكلّ مايتركه النّاس بعد فنائهم، فالملك كلّه لله يعطي لمن يشاء مايشاء ثمّ يسلبه منه (**وَ**) أي وبعزّتي (**لَقَدْ عَلِمْنَا**) اي أحاط علمنا (**الْمُسْتَقْدِمِينَ**) أي السّابقين (**مِنكُمْ**) من الأمم السّابقة (**وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ**) من الأمم الّتي تأتي بعدكم ونعلم أحوالهم وأعمالهم (**وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ**) للحساب والجزاء وفق أعمالهم وأحوالهم، ولا يخفى عليه شيء (**إِنَّهُ**) أي إنّ ربّك (**حَكِيمٌ**) لايعمل شيئاً إلّا وفيه حكمة (**عَلِيمٌ**) ويعمل كلّ شيء وفق علمه الغزير وموافقاً لحكمته الوفيرة، هذا وإن دلالة السّماء وما فيها والأرض وما عليها وما بين السّماء والأرض من السّحب والأمطار والهواء وغيرها على وجود الله وقدرته ووحدته واضحة، فإنّ هذا الكون العظيم العجيب المدهش للعقول لايمكن أن يوجد إلّا بصنع صانع عليم قدير وحكيم وهو الله تعالى، وإنّ من له هذه القدرة والعلم والحكمة الّتي صنع بها هذه العجائب لا يحتاج الى شريك وغنيّ عنه فلا يتّخذ شريكاً ولاشريك له. ثمّ يدلّ هذا الكون أيضاً على البعث والإحياء والموت والحساب وفق الأعمال، فإنّ هذا الكون مليء بالإعادة بعد الفناء، فلا غرابة إذن في أن يعيد الله الإنسان بعد فنائه. وإنّ من قدر على هذا الصّنع العجيب لقادر على ذلك، وإنّ من صنع هذا الكون لا يعقل أن يترك النّاس بدون نظام وتكليف، وإنّ النّظام يقتضي الثّواب والعقاب، وأنّهما لا يحصلان كلّيّاً في الدّنيا، فلا بد من أن يأتي يوم يجري فيه هذا الثّواب والعقاب.

ثمّ أشار الله تعالى الى أن حشر النّاس وإحياءهم بعد الموت سهل على الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

(**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ**) أي الإنسان الأوّل وهو آدم عليه السّلام خلقه تعالى (**مِن صَلْصَالٍ**) أي من طين يابس كالكوز له صوت وصلصلة حينما يدخله الهواء وأخذ الله تعالى ذلك الصّلصال (**مِّنْ حَمَإٍ**) من طين أسود (**مَّسْنُونٍ**) مصوّر على صورة الانسان صوّره تعالى (**وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ**) كذلك خلق الجنّ من قبل خلق الانسان (**مِن نَّارِ**

السَّمُومِ) أي من نار شديدة الحرارة، فمن قدر على خلق الإنسان من التّراب والطّين وخلق الجان من النّار لايصعب عليه إعادة الإنسان من التّراب ومن أجزائه الّتي أصبحت تراباً، وما ذلك على الله بعزيز.

ثمّ إنّ كلّ ما يرتكبه الانسان من الكفر والمعاصي والذّنوب والآثام إنّما هو بتحريض من الشّيطان له وبحثّه عليه، فلذلك أراد تعالى أن يذكر عداوة الشّيطان له أوّل ماخلق، وأنّ العدوّ لا يريد لعدوّه إلّا الشّر وما يضرّه، وذلك ليتجنّب ما يحثّه الشّيطان عليه من المعاصي والآثام؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾

(وَ) واذكر للنّاس **(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ)** إخباراً لا إستشارةً فقال لهم **(إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا)** أي جسماً كثيفاً ظاهر البشرة **(مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ)** مرّ معناه **(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ)** أي أتممت خلقه **(وَنَفَخْتُ)** وأدخلت **(فِيهِ مِن رُّوحِي)** أضيف الرّوح اليه لأنّه من عالم الأمر وليس من عالم الخلق والأسباب، وماكان بدون سبب بل بأمر كن فيكون، يضاف إليه تعالى مثل ناقة الله وروح الله مثلا **(فَقَعُواْ)** أصله أوقعوا أمر من الوقوع وهو الخرور على الأرض، حذفت الواو واستغنى عن الهمزة لأنّها جاءت للإبتداء، وما بعده وهو القاف متحرّك فلا حاجة إليه، فالمعنى خرّوا **(لَهُ)** لهذا البشر **(سَاجِدِينَ)** احتراماً له وتقديراً، فخلقه الله تعالى كما أراد ونفخ فيه الرّوح **(فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ)** له **(كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ)** ولم يتخلّف أحد **(إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى)** أي امتنع تكبراً **(أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ)** لآدم فلم يسجد وقد شمله الأمر وإن لم يكن من الملائكة بدليل قوله تعالى: ﴿كان من الجنّ﴾ سورة الكهف الآية/ ٥٠. لأنّ المراد من قوله تعالى: (فقعوا له) أي أنتم ومن معكم وكان الشّيطان معهم، أو لأنّه إذا كان الملائكة مأمورين بالسّجود لآدم فالجنّ يكونون مأمورين به بالطّريق الأولى، لأنّ الملائكة أشرف من الجنّ، ومعنى كلّهم أجمعون أنّ الكلّ سجدوا مجتمعين لا فرادى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عدم سجود إبليس لآدم أراد أن يبيّن سبب ذلك؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

(**قَالَ**) تعالى لإبليس (**يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ**) أي أيّ سبب حملك على (**أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ**) لآدم (**قَالَ**) ابليس لله (**لَمْ أَكُن**) أي لا يليق بي (**لأَسْجُدَ**) لأن أسجد (**لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**) وأنا من النّار وهي مضيئة والحمأ مظلم، فكفر ابليس لا لأنّه لم يطع الأمر؛ فإنّ الخروج عن الأمر معصية والمعصية لا تخرج العبد عن الايمان ولا يدخله في الكفر، إلّا أنّه كفر لأنّه إعترض على حكم الله تعالى ورأى أنّ حكمه أحسن من حكم الله؛ وذلك يوجب نسبة الجهل الى الله تعالى، وذلك كفر لا كفر أشدّ منه. وما أكثر اليوم هؤلاء الكافرون حتّى من بعض المسلمين حيث ينحرفون عن أحكام الله تعالى لأنظمة وضعها العباد ويعدّون تلك الأنظمة أحسن من نظام الله تعالى. فهم مثل الشّيطان الّذي (**قَالَ**) تعالى له (**فَاخْرُجْ مِنْهَا**) أي من حظيرة القدس وهي الملأ الأعلى (**فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**) مطرود قضي بطردك منها (**وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ**) الحرمان من رحمة الله تعالى (**إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**) وهو يوم القيامة. وإلى بمعنى: مع، فالمعنى محروم في ذلك اليوم أيضاً وإلى الأبد.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

(**قَالَ**) الشّيطان لله تعالى (**رَبِّ فَأَنظِرْنِي**) أي أمهلني ولا تمتني (**إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**) وهو يوم القيامة (**قَالَ**) تعالى له (**فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ**) الممهلين ولا أميتك (**إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**) المحدّد لقيام السّاعة.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

(**قَالَ**) إبليس لله (**رَبِّ بِمَا**) كلمة (ما) مصدريّة، أي فبسبب إغوائك إياي أي حيث

(**أَغْوَيْتَنِي**) لأنّي لم أسجد لآدم (**لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ**) أي أزيّن لمن يوجد من هذا النّوع الذّنوب والآثام (**فِي الأَرْضِ**) فيفسدون فيها (**وَلأُغْوِيَنَّهُمْ**) ولأضلّنّهم عن صراطك المستقيم (**أَجْمَعِينَ**) أي كلّهم (**إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**) فيه تقديم وتأخير فالتّقدير: إلّا عبادك المخلصين منهم، أي من بني آدم (والمخلَصين) يقرأ بفتح اللام أي الّذين أخلصتهم واخترتهم لطاعتك وعبادتك، فهؤلاء لا أقدر عليهم، ويقرأ بكسر اللّام أيضاً أي الّذين أخلصوا قلوبهم وطهّروها من الرّذائل وزيّنوها بالفضائل، فهؤلاء لا يؤثّر فيهم وساوس الشّياطين ولادسائس الضّالين والمضلّين، فيكونون معصومين أو محفوظين برعاية الله تعالى لهم. ألّلهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

(**قَالَ**) الله تعالى لإبليس (**هَذَا**) أي الّذي أذكره (**صِرَاطٌ**) أي قضاء ومنهج منّي (**عَلَيَّ**) تنفيذه (**مُسْتَقِيمٌ**) أي حقّ وعدل وذلك القضاء هو (**إِنَّ عِبَادِي**) كلّهم (**لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) أي قوّة تجبرهم بها على الغواية (**إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ**) باختياره (**مِنَ الْغَاوِينَ**) وهم الّذين يحبّون الشّهوات ويتّبعون هواهم، فهؤلاء باختيارهم يتّبعونك ويعطونك السّيطرة عليهم (**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ**) أي مكان وعيدهم وعذابهم (**أَجْمَعِينَ**) فكلّهم معك يجتمعون ويعذّبون فيها (**لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ**) متعلق بقوله جزء أي لكلّ باب (**جُزْءٌ مَّقْسُومٌ**) أي معين ليدخل من ذلك الباب، وإنّ هذه الأبواب موجودة في الدّنيا، فإنّ كلّ إنسان يدخل جهنّم بصفة من الصّفات وهي الرّذائل السّبع فتصير كلّ صفة باباً من باب الجحيم، فبعضهم يدخلها بسبب الكبر وبعضهم بالعجب وبعضهم بالحسد وبعضهم بالحقد وبعضهم بالطّمع وبعضهم بالبخل وبعضهم بالرّياء، وهذه هي أسباب دخول جهنّم فيفتح لكلّ سبب باب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ**) أي المجتنبين عن الغواية واتّباع الشّيطان هم (**فِي جَنَّاتٍ**) طيّبة الثّمار (**وَعُيُونٍ**) جرية وعذبة المياه، ويقال لهم من قبل الملائكة (**ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ**) أي بسلام الله تعالى عليكم وأمنكم من كلّ مكروه (**آمِنِينَ**) من الخروج منها (**وَنَزَعْنَا مَا**) كان (فِي صُدُورِهِم) في صدورهم في الدّنيا (**مِّنْ غِلٍّ**) من كراهيّة، وبغض لبعض (**إِخْوَانًا**) أي صائرين إخوانٌ (**عَلَىٰ سُرُرٍ**) جالسين على سرر (**مُّتَقَابِلِينَ**) أي يقابل بعضهم بعضاً، وهذا النّوع من الجلوس أطيب من التّكاتف لأنّه لايحتاج حين المخاطبة إلى الالتفات (**لَا يَمَسُّهُمْ**) أي لايصيبهم في الجنّة (**نَصَبٌ**) أي تعب ولو قليلاً، كما يشير إليه لفظ المسّ (**وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ**) بل مؤبّدون فيها.

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى بعذاب الغواة اتّباع الشّياطين وبثواب المتّقين أمر تعالى رسوله بأنّ يخبر ويعلن للنّاس كافّة بمغفرة الله للمؤمنين وعذابه للكافرين، وانّ هذا هو منهج الله في النّاس أجمعين، فقال جلّ وعلا:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

(**نَبِّئْ**) أخبر أيّها الرّسول وأيّها المسلم (**عِبَادِي**) كلّهم (**أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ**) لمن اجتنب الهوى والغواية واتّبع الشّيطان (**وَأَنَّ عَذَابِي**) لمن انحرف عن ديني ومنهجي (**هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمَ**) أي المؤلم جدّاً.

ثمّ بعد أن أعلن الله هذا المنهج أراد أن يذكر قصصاً تثبت رحمته بالمؤمنين وعذابه الأليم للكافرين. فبدأ تعالى بذكر ابراهيم ولوط ورحمة الله تعالى بهما، وبذكر قوم لوط وعذاب الله تعالى لهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾

(**وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ**) عليه السّلام وهم كانوا ملائكة (**إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ**) نسلّم عليكم (**سَلاَمًا**) كثيرا (**قَالَ**) ابراهيم لهم بعد أن ردّ عليهم السّلام (**إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ**) خائفون حيث لم تأكلوا طعامنا، وإنّ الضّيف إذا لم يأكل في بيت المضيف فمعناه أنّه يريد بهم شراً (**قَالُواْ لَا تَوْجَلْ**) لاتخف (**إِنَّا**) ملائكة جئنا (**نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ**) يولد (**عَلِيمٍ**) وافر علمه (**قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى**) حالي هذا وهو (**أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ**) ولا يؤمل منّي أن يكون لي ولد (**فَبِمَ**) فبأيّ شيء (**تُبَشِّرُونَ**) أي تبشّروني بالولد؟ فهذا أمر عجيب جداً (**قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ**) أي بما هو يثبت ويوجد (**فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ**) اليائسين من رحمة الله تعالى (**قَالَ وَمَن**) الاستفهام للإنكار فيفيد النّفي فالمعنى وما (**يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّآلُّونَ**) عن طريق الحقّ والإيمان بقدرة الله تعالى، وأمّا المؤمنون فلا يقنطون، قال رسول الله (ﷺ): يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ماكان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السّماء ثمّ استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثمّ لقتيني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة[١].

ثمّ بعد أن اطمأنّ ابراهيم وفرح بهذه البشارة خاطب الملائكة كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ ۙ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

(**قَالَ**) ابراهيم للملائكة (**فَمَا خَطْبُكُمْ**) أي فبعد بشارتي هذه ماشأنكم (**أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ**) إلى الأرض من قبل الله تعالى (**قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى**) إهلاك وتدمير (**قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ**) وهم قوم لوط فنهلكهم (**إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ**) فلا نهلكهم (**إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ**) الهالكين مع الكفرة لأنّها كافرة مثلهم.

ثمّ بعد ذلك تودع الملائكة من ابراهيم وتوجّهوا الى قرية لوط ووصلوا بيت لوط كما قال جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ

(١) سنن الترمذي ٥/٥٤٨ الحديث رقم ٣٥٤٠.

جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(**فَلَمَّا جَاء**) وصل (**آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ**) الملائكة (**قَالَ**) لوط لهم (**إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ**) مجهولون لانعرفكم (**قَالُواْ**) نحن لسنا منكرين (**بَلْ**) نحن ملائكة (**جِئْنَاكَ بِمَا**) بالعذاب الّذي (**كَانُواْ**) أي القوم (**فِيهِ يَمْتَرُونَ**) يشكون ويكذبونك حينما تنذرهم به (**فَأَسْرِ**) فاذهب (**بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ**) بقسم (**مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ**) أنت (**أَدْبَارَهُمْ**) أي إمش وراءهم كي لايتخلّف أحد منهم ولا يرجع (**وَلَا يَلْتَفِتْ**) إلى القرية (**مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ**) إذهبوا (**حَيْثُ**) في الجهة الّتي (**تُؤْمَرُونَ**) بالذّهاب إليها (**وَقَضَيْنَا**) وأوحينا (**إِلَيْهِ**) إلى لوط (**ذَلِكَ الأَمْرَ**) العظيم وهو (**أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء**) القوم (**مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ**) أي في وقت الصّباح، ويقال: قطع دابر الشّيء أي أهلك كلّه ولم يبق منه شيء.

ثمّ لمّا علم القوم بأنّ في بيت لوط شبّاناً حساناً مرداً أسرعوا اليهم ليفعلوا بهم السّوء كما قال جلّ وعلا:

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾

(**وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ**) بيت لوط (**يَسْتَبْشِرُونَ**) يبشر بعضهم بعضاً بوجود هؤلاء الشّبان المرد الحسان فاجتمعوا حول بيت لوط (**قَالَ**) لهم لوط (**إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ**) أي فلا تخزوني واتركوا ضيوفي ولا تتعرّضوا لهم (**وَاتَّقُوا اللّهَ**) بترك المنكر(**وَلَا تُخْزُونِ**) أصله تخزوني حذفت الياء للفاصلة مثل تفضحون (**قَالُوا**) للوط (**أَوَلَمْ نَنْهَكَ**) عن أن تمنعنا (**عَنِ الْعَالَمِينَ**) اي عن الّذين ليسوا من أهلك وأقاربك (**قَالَ**) لهم لوط مشيراً إلى أزواجهم (**هَؤُلاء بَنَاتِي**) فافعلوا بهن ما يقضي شهوتكم ويسكّنها (**إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**) أي مريدين قضاء الشّهوة واتركوا ضيوفي، فكأنّ قائلاً هنا يقول فهل أخذ النّاس بنصيحة لوط وتركوا ضيوفه فقال جلّ وعلا:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

(**لَعَمْرُكَ**) أي قسماً بحياتك أيّها النّبيّ (**إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ**) ضلالتهم بقوا (**يَعْمَهُونَ**) يتردّدون ولم يأخذوا بقول لوط (ﷺ) (**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ**) أي صيحة ملك أو صيحة صاعقة حال كونهم (**مُشْرِقِينَ**) داخلين في وقت شروق الشّمس (**فَجَعَلْنَا**) القرية (**عَالِيَهَا سَافِلَهَا**) وسافلها عاليها، أي قلبنا قريتهم رأساً على عقب (**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ**) أي من طين متحجّر فوقع على كلّ حيّ منهم حجر فمات فوراً (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) العذاب (**لَآيَاتٍ**) لمعجزة وعلامة على أنّ الله تعالى وإن أمهل فانّه لايهمل وينتقم من الظّالمين عاجلاً أو آجلاً (**لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**) للّذين يتفكّرون في الآيات فيتّعظون بها (**وَإِنَّهَا**) وإنّ آثار قرية لوط (**لَبِسَبِيلٍ**) لفي طريق (**مُّقِيمٍ**) دائم ويمرّ النّاس عليها ويرون تلك الآثار فليعتبروا ويتّعظوا بها (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الّذي جرى على لوط وقومه من نجاة لوط وهلاك قومه (**لَآيَةً**) لدليلاً (**لِّلْمُؤْمِنِينَ**) على أنّ الله ينصرهم ويهلك أعداءهم إن استقاموا وعملوا وأخلصوا، وبهذه القصّة أثبت الله تعالى أنّه هو الغفور الرحيم، وأنّ عذابه هو العذاب الأليم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر قصّة قوم شعيب (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

(**وَإِنْ**) أي وقد (**كَانَ أَصْحَابُ**) أهل الأيكة (**الْأَيْكَةِ**) والأيكة هي البساتين ذات الأشجار الكثيرة الملتف بعضها ببعض، سمّيت قرية قوم شعيب بالأيكة لكثرة بساتينها وأشجارها، فقد كان أصحاب هذه البساتين (**لَظَالِمِينَ**) اي كافرين (**فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ**) فأهلكناهم بسبب كفرهم (**وَإِنَّهُمَا**) أي آثار القرية وأصحابها (**لَبِإِمَامٍ**) لفي طريق (**مُّبِينٍ**) واضح يمرون عليها فلماذا لا يعتبرون بهم، وسمّي الطّريق إماماً لأنّه يقتفى ويتّبع كما يقتفي الإمام ويقتدى به.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال قوم ثمود الّذين كانوا يسكنون الحجر وهو واد بين الشّام والمدينة المنوّرة فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

(**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ**) أي أهل (**الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ**) وكان رسولهم صالحاً إلّا أنّه جمع المرسلين؛ لأنّ تكذيب رسول واحد هو تكذيب كلّ الرسل؛ لأنّ دعوتهم واحدة وعقيدتهم واحدة وهي عقيدة التّوحيد، وأنّ الحكم لله تعالى واحد تكويناً وتكليفاً أي إيجاداً وتشريعاً (**وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا**) معجزاتنا وأحكامنا (**فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ**) فلا بالمعجزات عتبروا فيؤمنوا ولا بالأحكام عملوا وتخلّقوا (**وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا**) يسكنون فيها (**آمِنِينَ**) يعتقدون أنّهم يأمنون فيها من المصائب لحصانتها (**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ**) صيحة العذاب وهي صيحة ملك أو صاعقة، فأخذتهم تلك الصّيحة (**مُصْبِحِينَ**) وقت دخولهم في الصّباح (**فَمَا أَغْنَى عَنْهُم**) فما دفع عنهم العذاب (**مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**) لا من الأمور المادّيّة كتحصين البيوت ولا من الأمور المعنويّة من عبادتهم للأصنام زعماً منهم أنّها تنفعهم وتمنع عنهم البلايا والمصائب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ عذاب الأمم الضّالة ليس في الدّنيا فقط بل إنّهم في الآخرة سيعذّبون أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

(**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**) أي لحكمة هي أن يعبد الله تعالى من يسكنها ويعمر الأرض حسب شريعة الله تعالى، وأن يخترعوا فيظهروا أسرار قدرة الله تعالى الّتي أودعها في هذا الكون (**وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ**) لثواب من عمل في هذه الأرض وفق شريعة الله تعالى وعقاب من انحرف عن منهجه ودينه (**فَاصْفَحِ**) عن المعرضين والمنحرفين عن دين الله (**الصَّفْحَ**) الإعراض (**الْجَمِيلَ**) وهو ما لا يورث بغضاءً يؤدي إلى القتال وإبطال السّلم والسّلام بين العباد (**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ**) للعباد (**الْعَلِيمُ**) بأعمالهم، فهو الّذي ينتقم منهم.

ثمّ إنّه كان هناك بعض الأغنياء والأقوياء، وكان الرسول يحبّ أن يؤمن هؤلاء لازدياد شوكة الإسلام والمسلمين بهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ) أيّها النّبيّ **(سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي)** وهي سورة الفاتحة، سمّيت سبعاً لأنّها سبع آيات، وسمّيت بالمثاني لانّها تثنّى في الصّلاة وتكرّر، ولأنّها نزلت مرّتين: مرّة في مكة عندما فرضت الصّلاة ومرة في المدينة حينما تحوّلت القبلة **(وَ)** آتيناك **(الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)** في حكمه وأحكامه وأخلاقه وعقائده وعبره وعظاته، فالّذي أوتيت أيّها النّبيّ وأيّها المسلم خير من الدّنيا وما فيها، ومن كلّ ثروة، لأنّ كلّ ثروة تفنى وهي للدّنيا فقط، ولكنّ هذه الثّروة تبقى وتدوم إلى يوم القيامة، وهي ثروة تنفع في الدّنيا والآخرة جميعاً، فاذا كان الأمر كذلك **(لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ)** أي لا تنظر **(إِلَى مَا)** أي الأموال والثّروة والجاه الّذي **(مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا)** أي أصنافاً **(منهم)** من الكافرين ولا يعجبك ما عندهم **(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ)** إن لم يؤمنوا فإنّ قوّة الاسلام وشوكته لا يكون بالغنى والأغنياء والأقوياء، ولا بالثّروة والجاه بل تكون بقوّة إيمان المؤمنين والثّبات على العقيدة والصّمود أمام الباطل، فاقنع بمن آمن **(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ)** اي إرحمهم وتلطّف وليكن منك تقدير **(لِلْمُؤْمِنِينَ)** الّذين آمنوا، وإن كانوا فقراء فإنّهم أقوياء الإيمان والمتفانون فيه والمضحّون في سبيل إعزاز الإسلام ونشره، فهم أفضل من هؤلاء الأغنياء والأقوياء، وليس معناه أن تترك دعوة الأغنياء والأقوياء، بل معناه عدم الحرص عليهم وعدم الحزن عليهم إن لم يؤمنوا، فالمعنى فلا تحرص عليهم ولاتحزن عليهم **(وَقُلْ)** لهم **(إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ)** فأنذركم بعذاب الدّنيا والآخرة إن لم تؤمنوا **(كَمَا)** الكاف متعلّق بقوله: آتيناك.... الخ، فالمعنى أنزلنا إليك الشّريعة والأحكام **(كَمَا أَنزَلْنَا)** الشّريعة والاحكام **(عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)** المقتسمين هم أهل الكتاب الّذين قسّموا الشّريعة، فما كان حسب هواهم عملوا بها وما خالف هواهم ومصالحهم غيّروها وتركوا العمل بها، وهم **(الَّذِينَ)** عملوا بما أنزلنا إليك مثل ماعملوا بكتابهم حيث **(جَعَلُوا الْقُرْآنَ)** الّذي أنزل عليك

(**عِضِينَ**) أقساماً فيؤمنون ببعضها الّذي يوافق مصالحهم ويتركون غير ذلك (**فَوَرَبِّكَ**) فقسماً بربّك يامحمّد (**لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ**) كلّهم (**عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) من تحريف دينهم حسب هوهم وعن عدم الإيمان بالقرآن كلّه.

ثمّ أمر الله تعالى نبيّه بالجهر بالدّعوة وعدم الخوف من الكافرين ومتاركة المشركين، وبشّره بأنّه يكفيه شرّ أعدائه فقالّ جلّ وعلا:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

(**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ**) فاجهر بالدّعوة جهراً يؤذي قلوب الكافرين ويوجع رؤوسهم ويرغم أنوفهم (**وأعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ**) واترك موالاتهم كلّهم في عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولا تخف حيث (**إِنَّا كَفَيْنَاكَ**) حفظناك من شرّ (**الْمُسْتَهْزِئِينَ**) الّذين يستهزئون بك وبدينك (**الّذين يَجْعَلُونَ**) يعبدون (**مَعَ اللّهِ إِلـٰهًا آخَرَ**) وهو أصنامهم الّتي كانوا يعبدونها فيقدّسونها ويتقرّبون إليها بالنّذور والقرابين، ويترقّبون منها النّصح ودفع البلايا ورفعها (**فَسَوْف يَعْلَمُونَ**) هؤلاء عاقبتهم وما يصابون به في الدّنيا والآخرة من عذابنا الأليم، وهؤلاء المستهزئون كانوا خمسة نفر من صناديد قريش وهم:

١- الوليد بن المغيرة المخزومي.

٢- العاص بن وائل السهمي.

٣- الأسود بن المطلب بن الحرث.

٤- الاسود بن يغوث بن وهب.

٥- الحرث بن قيس بن الطلاطلة.

فأتى جبريل (عليه السلام) إلى النّبيّ (ﷺ) حينما كان يطوف هؤلاء بالبيت، فقام جبريل بجنب رسول الله (ﷺ) فمرّ به الوليد فأومأ جبريل إلى ساقه، فأصابتها شظيّة من نبل كان يريشه رجل فخدّشته فمرض منها فمات. ومرّ العاص بن وائل فأشار جبريل إلى أخمص قدمه، فخرج ومعه إبناه يتنزّه، فوطىء شيرقة فدخل منها شوكة في أخمص رجله فانتفخت فمات بها. ومرّ الأسود فأشار جبريل إلى عينيه، فعمي، فجعل يضرب رأسه

الجدار حتّى هلك، ومرَّ الأسود بن يغوث فأشار جبريل إلى بطنه فاستسقى فمات. ومرَّ الحرث بن قيس فأشار جبريل الى رأسه فامتخط قيئاً فقتله[١].

ثمّ كان رسول الله (ﷺ) يحزن أحياناً بما يقول المشركون فيه وفي دينه وباستهزائهم بالحقّ والاستهانة به فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

(**وَلَقَدْ نَعْلَمُ**) أيّها النبيّ وأيّها المسلم الدّاعي الى الله تعالى وعبادته والى دينه الحقّ الإسلام فنعلم (**أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ**) فتحزن (**بِمَا يَقُولُونَ**) هؤلاء الكافرون فيك وفي دينك (**فَسَبِّحْ**) أي فلا تحزن ونزه الله عن أن يعجز عن الانتقام منهم، وليكن تسبيحك مصاحباً (**بِحَمْدِ رَبِّكَ**) أي بوصفه بالكمال في كلّ صنعاته، فصبّره تعالى عن انتقام الكافرين إنّما هو لحكمة ومن صفة الكمال (**وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**) من المصلّين، فإنّ الصّلاة تقويّ الإنسان على الصّبر وتحمّل المشاق والأذى، ويخفّف آلام القلب حيث قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وكان الرّسول (ﷺ) اذا حزبه أمر فزع إلى الصّلاة (**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**) وهو وقت مجيء العذاب على الكافرين، وهو قد يكون في الدّنيا حينما يأتيهم الهلاك المقدّر لهم ويكون في الآخرة حتماً، ولذا فسّروا اليقين بالموت. إذ بالموت يحصل اليقين بالله ومعرفته حقّ المعرفة وبحقيّة الإسلام وبسوء العاقبة للكافرين، وحسن الخاتمة لمن آمن بالله ورسوله واتّبع شريعته وفوزه بالسّعادة في الآخرة.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، وعلى أممهم أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) السيرة الحلبية ١/ ٥١٢.

سورة النّحل

(مكيّة. وهي مائة وثمان وعشرون آية، نزلت بعد سورة الكهف، سميّت بالنّحل لما فيها من قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ... الى آخر ماورد في النّحل﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

كان كفر مكّة يكذّبون الرّسول فيما يخوفّهم به من عذاب الله تعالى لهم في الدّنيا والآخرة، ويستعجلون به استهزاءً وإنكاراً ﴿وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ـ سورة الأنفال الآية ٣. فقال جلّ وعلا:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾﴾

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ) أي أتى عذابه، وإنّ العذاب وإن لم يأت بعد، إلّا أنّه أخبر عنه بالماضي لتحقّق وقوعه، وإنّ ما تحقّق وقوعه فكأنّه قد جاء ومضى، وهذا الأسلوب في القرآن وكلام البلغاء كثير وبليغ **(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)** فإنّه آت بدون شكّ، وقد أتى ذلك العذاب في حرب بدر وأحد وفتح مكّة بالقتل والأسر والذّلة ولمن مات على الكفر

بالنّار، فإنّ القبر إمّا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّيران[١]، وكان الكافرون يعتقدون أنّ آلهتهم تدفع عنهم العذاب، فلو كان إنذار محمّد بالعذاب صادقاً فإنّ الآلهة تدفعه عنهم، ولذا قال تعالى: **(سُبْحَانَهُ)** اي تنزّه الله تعالى عن أن تكون هناك آلهة غيره تنفع وتضرّ **(وَتَعَالَى)** وتعاظم **(عَن)** شركة **(مَّا يُشْرِكُونَ)** به هؤلاء الكفار المجرمون، وحيث إنّ الله لا يقبل الإشراك من العباد، فلا يزال **(يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ)** بالوحي والحكم الصّادر **(مِنْ أَمْرِهِ)** وقضائه **(عَلَى مَن يَشَاء)** ويختارهم للرّسالة **(مِنْ عِبَادِهِ)** ويأمرهم **(أَنْ أَنذِرُواْ)** النّاس كلّهم **(أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ)** وحدي؛ فلا إله غيرى يقدر تكويناً أو نفعاً أو ضرّاً أو يحقّ له الحكم والتّشريع **(فَاتَّقُونِ)** أصله فاتّقوني، حذفت الياء للفاصلة، أي فاتّقوا غضبي وعذابي الّذي أعددته لكلّ من أشرك فعبد غيري. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما يدلّ على أنّه لاشريك له، فاستدلّ أوّلاً بالسّماء والأرض لأنّهما أعظم وأهيب في عقول النّاس؛ فقال تعالى: **(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ)** والمراد بها الأجرام العلويّة كلّها **(وَالأَرْضَ)** وهي الأجرام السّفليّة جميعها، فخلق هذا الكون **(بِالْحَقِّ)** لا باطلاً وعبثاً، بل لحكمةٍ هي أن يعبد فيه وأن يعيش النّاس فيه حسب أوامره وتشريعاته، ومن له هذه القدرة الّتي خلق بها هذا الكون العظيم لايحتاج إلى شريك ولا يقبله، فإنّ الشّريك إنّما يريده العاجز أو الجاهل، ومثل هذا القدير والعليم **(تَعَالَى)** أي تعاظم واستغنى **(عَمَّا يُشْرِكُونَ)** عن شركة كلّ ما يشرك به الجاهلون والضّالون.

ثمّ أشار الله تعالى إلى الدّليل في الأنفس، وأنّ خلق الإنسان هو الدّليل على وحدة الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَـةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيـمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾

(خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ) ومن يقدر أن يخلق هذا الإنسان العظيم من هذا الماء المهين غنيّ عن كلّ شريك، ولا يليق بالإنسان أن يشرك به إلّا أنّ الإنسان يتجاهل هذه الحقيقة أو يجهلها **(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ)** عدوّ لله تعالى **(مُّبِينٌ)** مظهر لهذه العداوة باتّخاذ غيره شريكاً له.

---

(١) إشارة إلى قوله (ﷺ) (إنما القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّار) / سنن الترمذي ٤/ ٦٣٩ الحديث رقم ٢٤٦٠، وقال حديث حسن.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الدّليل من الآفاق والأنفس على وحدته، وذكر ضلال المشركين، أراد أن يستدلّ بما يحيط بالإنسان ويعيش معه، وهو ممّا أنعم الله تعالى به عليه وجعله تحت تصرّفه ورعايته، ولولا هذه الأشياء لشقّت على الإنسان الحياة، ولصعب عليه البقاء في الأرض فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾

(وَالأَنْعَامَ) وهي الإبل والبقر والضّأن والمعز**(خَلَقَهَا)** الله تعالى **(لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ)** دفء ماتدفّئون به أنفسكم من البرد وتحفظون به أبدانكم من الحرّ، وذلك باتّخاذ الألبسة من أشعارها وأصوافها وأوبارها **(وَ)** فيها لكم **(مَنَافِعُ)** أخرى **(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)** من اللّبن ومشتقّاتها واللّحم والشّحم **(وَلَكُمْ فِيهَا)** في الأنعام **(جَمَالٌ)** زينة تفرحون بها **(حِينَ تُرِيحُونَ)** ترجعون بها إلى محلّ راحتهم **(وَحِينَ تَسْرَحُونَ)** تذهبون بها إلى المراعي **(وَتَحْمِلُ)** طائفة منها وهي الإبل والبقر **(أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ)** قصدتموه **(لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنفُسِ)** فتحملكم وتحمل أمتعتكم ممّا لاتستطيعون إيصالها إلى ذلك البلد، فالله تعالى سهّل لكم هذه التّنقّلات والأسفار بهذا الحيوان الّذي سخّره لكم، ولولا تسخير الله له لما استطعتم قيادته ولا سوقه ولا استعماله، ألا ترون أنّه حينما تشرد إبل لاتقدرون عليها **(وَالْخَيْلَ)** وخلق الله تعالى الخيل **(وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا)** للأسفار **(وَزِينَةً)** وجعلها سبب زينة لكم **(وَيَخْلُقُ)** الله تعالى من أسباب السّفر والزّينة **(مَا لَا تَعْلَمُونَ)** وهذا من إعجاز القرآن، فإنّه أخبر بأنّه يخلق الله تعالى أسباباً أخرى، وعلى استمرار الزّمان ما لا تعلمونها، وقد حصل ذلك فصنعت القطارات والسّيارات والطّائرات وكلّ ذلك بإلهام الله تعالى وتعليمه صنعها واختراعها، وستستمرّ هذه الإختراعات بإلهام الله تعالى إلى يوم القيامة وفناء العالم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى من دلائل قدرته ووحدته، وما أنعم به على الإنسان ممّا لا يمكن أن يعيش بدونه، أراد أن يذكر نعماً أخرى كذلك إلّا أنّها ليست داخلة تحت تصرّف الإنسان ورعايته فقال جلّ وعلا:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

(**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء**) أي مطراً بأن كوّن سحباً ورياحاً تسوق تلك السّحب إلى حيث يشاء الله تعالى، فينزل من تلك السّحب أمطار من الماء الّذي كانت تحمله؛ فتسيل أودية وتجري أنهار وتتفجّر عيون وفي كلّ ذلك ماء (**لَّكُم**) لانتفاعكم به حيث (**مِّنْهُ**) من ذلك الماء (**شَرَابٌ**) تشربون منه (**وَمِنْهُ**) من الماء (**شَجَرٌ**) اسم جنس أي تنبت أشجار تأكلون منها (**فِيهِ**) في الأشجار وأوراقها (**تُسِيمُونَ**) ترعون أنعامكم ومواشيكم وكذلك (**يُنبِتُ**) الله (**لَكُم**) لانتفاعكم (**بِهِ**) بالماء (**الزَّرْعَ**) المزروعات كلّها (**وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**) الموجودة في الأرض فإنّ كلّ هذه المذكورات ينبتها الله تعالى بالماء الّذي يختلط بالتّراب (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الخلق لهذه النّعم (**لآيَة**) على قدرة الله التي تغنيه عن الشريك، وعلى النعم التي توجب على الإنسان وتفرض عليه أن لايشرك بهذا المنعم شيئاً ولا يعبد ولايطيع غيره إلّا أنّها آيات (**لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) فإنّهم المستفيدون منها، وأمّا غيرهم فكالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً (**وَسَخَّرَ**) الله تعالى (**لَكُمُ**) لإنتفاعكم (**اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ**) فيجريان دائماً، ففي اللّيل تستريحون وفي النّهار تعلمون (**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**) أيضاً سخرهما الله تعالى لكم فتعملان دائبين، وقد أنيط بهما أمور ومنافع لا تحصى لهذا الإنسان الّذي يعيش على هذه الأرض (**وَالْنُّجُومُ**) كلّها (**مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ**) بأمر الله تعالى، ولمنافع يحتاج إليها حياة الإنسان في هذا الكون (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الخلق والتّسخيرات(**لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) الأمور ويفهمونها وما عداهم كالبهم بل هم منها أشرّ (**وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ**) أي وخلق الله تعالى كلّ ماذرأ ونشر لكم (**فِي الأَرْضِ**) من النّباتات والحيوانات والمعادن (**مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ**) وطعومه ومنافعه فلكلّ شيء

منفعة لا توجد في غيره، ولكلّ شيء لون ولكلّ مأكول طعم **(إِنَّ فِي ذَلِكَ)** الخلق **(لآيَةً)** على قدرة الله تعالى ونعمته ووحدته **(لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ)** أصله يتذكّرون قلبت التّاء ذالا فادغمت فيه فصار يذّكّرون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نعمه الّتي في السّماء وفي الأرض وفيما بينهما أراد أن يذكر نعمه في البحر أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ) لكم لتغوصوا فيه **(لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ)** أي من الأسماك الّتي فيه **(لَحْمًا طَرِيًّا)** لذيذاً **(وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً)** أسباب زينة **(تَلْبَسُونَهَا)** من الجواهر والإسفنج **(وَتَرَى الْفُلْكَ)** أي السّفن **(مَوَاخِرَ)** جمع ماخرة أي شاقة تشقّ البحر وتسير **(فِيهِ)** في البحر فتوصّلون بها النّاس والمتاع الى البلاد، وبذلك اتّسعت نطاق التّجارة لتعملوا **(وَلِتَبْتَغُواْ)** بالعمل والتّجرة **(مِن فَضْلِهِ)** أي من رزق الله تعالى الّذي يرزقكم في التّجارة **(وَ)** أنعم الله تعالى عليكم بهذه النّعم **(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** أي لكي تشكروا الله تعالى عليها بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

ثمّ ذكر الله تعالى مثلاً آخر للدّلالة على عظمة خلقه فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

(وَأَلْقَى) الله تعالى **(فِي الأَرْضِ)** وخلق فيها وعليها **(رَوَاسِيَ)** جمع راسية وهي ما يحفظ السّفينة من الاضطراب، والمراد بها هنا الجبال؛ لأنّها تحفظ الأرض من الاضطراب أيضاً كما قال تعالى: **(أَن)** خلق الجبال منعاً من أن **(تَمِيدَ بِكُمْ)** أن تتحرّك الأرض وتضطرب بكم **(وَأَنْهَارًا)** وخلق الله تعالى في الأرض أنهاراً لسقي المزارع والبساتين والمواشي **(وَسُبُلاً)** وخلق لكم سبلاً **(لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)** لكي تهتدوا بالسّبل

والأنهار إلى ما تقصدون من البلاد، فإنّ النّاس يهتدون إلى الأماكن ويعرفونها بالأنهار وبالسّبل في النّهار وهي العلامات، لذا قال تعالى: **(وعلاماتٍ)** وهي الأنهار والسّبل، وأمّا باللّيل فبالنّجم كما قال تعالى: **(وَبِالنَّجْمِ)** أي وبالنّجوم **(هُمْ يَهْتَدُونَ)** فيصلون بها الى أماكن يريدونها.

تنبيه: أشار الله تعالى في هذه الآيات إلى أمرين:

الأمر الأول: أنّ قدرة الله تعالى وعلمه بلغا حدّاً لايحتاج إلى شريك ولا يقبله، فإنّ الشّريك إنّما يقبله العاجز عن العمل أو الجاهل به، وتعالى الله عن ذلك كلّه، فإذن يجب على الإنسان أن يعلم قدرة الله هذه وعلمه ذلك، فيعلم أن لا شريك له، فلا يتّخذ شريكاً له، ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾

(أَفَمَن يَخْلُقُ) هذه الأمور العظيمة والكون العظيم وهو الله تعالى **(كَمَن لَّا يَخْلُقُ)** كالّذي لا يخلق شيئاً، بل هو مخلوق لله أيضاً وهم الشّركاء؟ والجواب: كلّا، ليس المخلوق كالخالق ولا العاجز كالقادر **(أَفَلا تَذَكَّرُونَ)** أفبعد هذه الأدلة لا تتذكّرون الحقّ فتنقادوا له، ولاتعلمون أنّ الله واحد فتوحّدوه ولا تشركوا به غيره المخلوق والعاجز.

الأمر الثّاني: ذكر الله تعالى في هذه الآيات هذه النّعم العظيمة والكثيرة ممّا لا دخل للإنسان فيه، وممّا فيه شيء من كسب الإنسان وإختراعه الّذي ألهمه الله تعالى، إشارة الى أنّ من أتمّ على الإنسان هذه النّعم يجب على الإنسان أن يشكره فلا يعبد غيره، ولا يطيع من سواه ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾

(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ) أي نعم **(اللّهِ)** تعالى **(لَا تُحْصُوهَا)** أي لا تقدرون على إنهاء عدّها لكثرتها جدّاً، فعليكم بشكره على هذه النّعم بتوحيده بالعبادة والطّاعة، ثمّ وعد الله تعالى لمن شكر هذه النّعم فقال جلّ وعلا: **(إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ)** لمن شكر هذه النّعم، فعبد الله ولم يشرك به **(رَّحِيمٌ)** وبرحمه يغفر فقط لا لأمر آخر، ثمّ أنذر الّذين لا

يشكرون نعمه فيشركون به ويعصونه؛ فقال جلّ وعلا: **(وَاللَّهُ يَعْلَمُ)** كلّ **(مَا تُسِرُّونَ)** من العقائد والأعمال **(وَمَا تُعْلِنُونَ)** من ذلك فيعاقبكم عليه.

* * *

ثمّ بعد أن أشار الله تعالى في قوله: (أفمن يخلق كمن لا يخلق) إلى أنّ آلهتهم لا يخلقون شيئاً، أراد أن يصرح بذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ) أي يدعونهم المشركون **(مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ)** لايوجدون **(شَيْئًا)** من الأشياء قليلاً ولا كثيراً ولا صغيراً ولا كبيراً بل **(وَهُمْ)** أنفسهم **(يُخْلَقُونَ)** يوجدون بإيجاد الله تعالى وخلقه، فكيف يساوى المخلوق العاجز عن كلّ شيء فيشرك بالخالق القادر الّذي كلّ شيء من خلقه وإيجاده.

تنبيه: قوله **(يَدْعُونَ)** من الدّعاء، والدّعاء ومشتقّاته جاء في القرآن الكريم بمعنى الإستغاثة وطلب قضاء الحوائج، وبمعنى التّقديس والتّعظيم، وكلاهما مختصّ بالله، فمن طلب من غيره قضاء الحاجة أو دفع المضرّة بالسّلطة الغيبيّة أو عظّمه أوقدّسه فقد أشرك بالله تعالى، فكان المشركون يفعلون كلا الأمرين مع الأصنام والأوثان والبشر الّذين كانوا يعبدونهم **(أَمْوَاتٌ)** كلّ هؤلاء الّذين يدعونهم المشركون، إذ الأصنام جمادات لا حياة لها، والمسيح ميّت بالفعل فيما مضى أو فيما يستقبل، وعزير مات، وهكذا غيرهم من الّذين يدعونهم بعض المشركين أموات فعلا أو يموتون **(غَيْرُ أَحْيَاء)** حياة لا موت فيها **(وَمَا يَشْعُرُونَ)** وما يعلمون **(أَيَّانَ)** أيّ وقت **(يُبْعَثُونَ)** ليسأل عنهم كيف عبدوا؟ وليسأل النّاس كيف عبدوهم؟ وذلك مثل ماقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ سورة المائدة الآية/ (١١٦). وهكذا يحيي الله المشركين وشركاءهم فيتبرّأ الشّركاء من عبادتهم لهم، ويصيرون أعداءً لهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ

آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا*﴾ سورة مريم الآيتان/ ٨١،٨٢.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الأدلّة على وحدته، أراد أن يصرّح بالمدلول والنّتيجة فقال جلّ وعلا: (**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**) لا إله إلا هو (**فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) فلا يخافون العقاب على شركهم (**قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ**) للتّوحيد (**وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**) فلاستكبارهم لايتّبعون دعاة التّوحيد من الرّسل وورثتهم من العلماء الصّادقين، ثمّ أنذر الله تعالى هؤلاء المشركين المستكبرين فقال جلّ وعلا: (**لَا جَرَمَ**) أي لاشكّ (**أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ**) من العقائد الباطلة والأعمال القبيحة (**وَمَا يُعْلِنُونَ**) منها؛ فيعاقبهم عليها وعلى استكبارهم حيث (**إِنَّهُ**) أي الله تعالى (**لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**) بل غضب عليهم وسينتقم منهم عاجلاً أو آجلاً، وما الله بظلّام للعبيد.

ثمّ ذكر الله تعالى أنّ هؤلاء المشركين نتيجة لاستكبارهم يكذبون بما أنزل الله تعالى على رسوله المصطفى (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(**وَإِذَا قِيلَ لَهُم**) أي للمشركين (**مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ**) على محمّد (**قَالُواْ**) استكباراً وعتوّاً هو أي ما أنزل (**أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**) أي حكايات وخرافات الأقدمين (**ليحملوا**) اللّام لام عاقبة، فالمعنى: إنّ هؤلاء بجوابهم هذا وإنكارهم رسالة الرّسول (ﷺ) يحملون (**أَوْزَارَهُمْ**) آثامهم أي يعاقبون عليها (**كَامِلَةً**) دون نقص (**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أي يوم الحساب والجزاء (**وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم**) من أتباعهم، يحملون ما يعاقبون عليه بسبب إضلالهم. قال الرّسول (ﷺ): (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجر من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)[١] (**بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاء مَا يَزِرُونَ**) هؤلاء الدّعاة الى الشّرك والضّلال والى كلّ مبدأ يخالف مبدأ الاسلام وشريعة الله الّتي هي أقوم.

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٠ الحديث رقم ٢٦٧٤.

سؤال: أليس هذا مخالفاً لقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾؟

الجواب: لا. لأنّهم يحملون هذه الأوزار لعملهم وإثمهم ووزرهم وهو الإضلال[١].

سؤال آخر: إنّ هذه الآيات والأدلّة لا تفيد إلّا لمن يؤمن بأنّ هذه المخلوقات والإنعامات من الله تعالى، وهناك أناس لا يؤمنون بالله، فكيف يستدلّ لهم بها على وحدته وقدرته تعالى؟.

الجواب: إنّ هذه الآيات خوطب بها المشركون وموجّهة اليهم أوّلاً لإعادتهم إلى توحيد الله تعالى وعدم الاشراك به، وهم كانوا مؤمنين بأنّ هذه المخلوقات والإنعامات من خلق الله تعالى وإرادته، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ سورة الزخرف الآية/ ٩. وتكون هذه الآيات أدلّة للملحدين على وجود الله ووحدته أيضاً، فإنّ كلّ من تفكّر في هذه المخلوقات العظيمة والأنعامات الكثيرة يتيقّن حقّا بأنّ هذا الخلق العظيم يحتاج إلى صانع حيّ وقدير وعليم، وأنّ الطّبيعة ليس لها حياة ولا قدرة ولا علم، فلا تصلح لأن توجد هذه الأشياء، فالموجد له حيّ عليم وقدير وهو الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الأدلّة على وجوده ووحدته، أراد أن يذكر لأهل مكّة والمشركين كنّهم مجرى على الأمم السّابقة نتيجة لتكذيبهم الرّسل وانحرافهم عن دين الله تعالى ومنهجه القويم؛ ليعتبروا بهم فيتّبعوا الرّسول ويحكّموا ماجاء به من الأحكام؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ

(١) وذلك لأنهم كانوا سبب إضلالهم والمسبّب من نتاج السبب فهو من كسبهم غير المباشر فيعاقبون بها وكما جاء عن النبي (ﷺ) أنه قال: من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّة سيّئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء./ صحيح مسلم ٢/ ٧٠٥ الحديث رقم ١٠١٨.

ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

(**قَدْ مَكَرَ الذين**) أي قد دبّر الكفّار الّذين كانوا (**مِن قَبْلِهِمْ**) من قبل من كفر بالرّسول محمّد ﷺ، فدبّروا ما قد استطاعوا من الحيل والدّسائس لإبطال دعوة الرّسل وصدّ النّاس عن الإيمان بهم، إلّا أنّهم لم يفلحوا، بل أهلكوا بسبب تلك الحيل ومعاداة الرّسل (**فَأَتَى اللَّهُ**) أتى جنوده (**بُنْيَانَهُم**) الّتي بنوها (**مِّنَ الْقَوَاعِدِ**) أي من الأساس (**فَخَرَّ**) فهدموها فسقط (**عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ**) فأهلكوا (**وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ**) المهلك لهم (**مِنْ حَيْثُ**) من الطّريقة الّتي (**لَا يَشْعُرُونَ**) أنّ العذاب يأتيهم من هذه الجهة، والمراد بإتيان الله البنيان وهدمه لها من القواعد ووقوع السّقف عليهم، إمّا تمثيل لهدمه تعالى مكرهم وحيلهم وإهلاكهم، أو حقيقته تشير إلى إهلاك تلك الأقوام الّذين قلبت عليهم قراهم فوقعت بيوتهم عليهم وما توا تحتها، ثمّ ذكر الله تعالى أنّ هؤلاء الأقوام لم ينجوا بهذا الإهلاك والتّدمير من سوء عاقبتهم، حيث يعذّبون في الآخرة أيضاً بأشدّ من هذا العذاب؛ فقال جل وعلا: (**ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ**) يذلّهم الله تعالى ويفضحهم على رؤوس الأشهاد (**وَيَقُولُ**) لهم (**أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ**) تجادلون (**فِيهِمْ**) في إثبات ألوهيتهم فليأتوا لينجوكم، ويقال لهم هذا زجراً وتبكيتاً، فيسكت المشركون خجلاً، فيجيب المؤمنون كما قال تعالى: (**قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ**) بوحدة الله وهم الموحّدون (**إِنَّ الْخِزْيَ**) العار والفضيحة (**الْيَوْمَ**) في هذا اليوم (**وَالْسُّوءَ**) نازل (**عَلَى الْكَافِرِينَ**) الّذين كفروا بالرّسل وكذّبوهم حينما دعوهم إلى التّوحيد والعمل بشريعة الله تعالى، ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن سوء حالهم فقال جلّ وعلا: (**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ**) أي تأخذ أرواحهم (**الْمَلائِكَةُ**) حال كونهم (**ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ**) حيث جعلوها مستحقّة للعذاب بسبب الشّرك والكفر والفسق والفجور (**فَأَلْقَوُاْ**) للملائكة (**السَّلَمَ**) الانقياد وما استطاعوا الهروب ولا الفرار وقالوا للملائكة (**مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ**) من معصية فقال الملائكة لهم: (**بَلَى**) قد خضتم في السّوء وانغمستم فيه (**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) فلا تستطيعون كتمه بالكذب أو انكاره بالباطل (**فَادْخُلُواْ**) جزاء لما عملتم (**أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**) قال

أبواب جهنّم وإنّ المرء يدخلها من باب واحد لأنّهم يستحقّون الدّخول من كلّ باب، لأنّهم فعلوا كلّ سوء، أو لأنّ كلّ فرقة منهم تدخل من باب (**خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى**) مأوى (**الْمُتَكَبِّرِينَ**) عن الحقّ هو جهنّم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكفرة أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(**وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ**) اجتنبوا الكفر والإشراك (**مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ**) أنزل (**خَيْرًا**) وهو أنّه هيأ (**لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ**) أي آمنوا (**فِي هَذِهِ الدُّنْيَا**) حياة (**حَسَنَةٌ**) طيبة، فحياة المؤمن كيفما كانت سواء كان قويّاً أو ضعيفاً غنيّاً أو فقيراً صحيحاً أو سقيماً هي حياة طيّبة لأنّه راض بما وهبه الله تعالى، وشاكر لنعمه وصابر على بلاياه ومطمئن القلب، ويرجو من وراء ذلك مايرجو من الله تعالى، والحياة هي إطمئنان القلب وراحة الضّمير والوجدان، وأمّا الكافر فمهما كان حاله، فحياته سيّئة لأنّه لايشكر النّعم ولا يصبر على السّقم ولا يرجو وراء هذه الحياة شيئاً، فيبقى قلق النّفس مضطرب البال معذّباً بين التّلهف والتّأسف والتّمني والتّرجي بليت ولعلّ دائماً، وإنّ قلق البال هي أسوأ الأحوال، والحياة معه من أتعس الحياة (**وَلَدَارُ الآخِرَةِ**) للمؤمنين (**خَيْرٌ**) من الحياة الدّنيا (**وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ**) وهي (**جَنَّاتُ عَدْنٍ**) أي إقامة دائمة حيث لا يخرجون منها (**يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤونَ**) من الأطعمة والفواكه والثّمار والحور (**كَذَلِكَ**) مثل ما ذكر لك (**يَجْزِي اللّهُ الْمُتَّقِينَ**) المجتنبين عن الكفر والفسق والفجور (**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ**) حال كونهم (**طَيِّبِينَ**) بالإيمان والأعمال الصّالحة (**يَقُولُونَ**) يقول الملائكه لهم: (**سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) في الدّنيا من صالح الأعمال، هذا وتفيد الآية أنّ النّجاة كلّ النّجاة يوم القيامة بالعمل الصّالح والإيمان الصّادق، ولذا قال رسول الله (ﷺ) حينما جمع قريشاً فعمّ وخصّ فقال: (يا بني مرّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النّار، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النّار، يا بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النّار،

يا فاطمة أنقذي نفسك من النّار، فإنّي لا أملك لكم من الله شيئاً)[١] فاذا كان الرّسول لايملك شيئاً، فمن الّذي يملك أيّها المغرورون بالآباء والأجداد وبالصّالحين وأهل الأمجاد، فما أجهل الجاهلين، وخذل الله الدّعاة إلى الباطل والمضلّين آمين.

ثمّ بعد ما أوضح الله تعالى البراهين الّتى لم تبقي أي عذر للكافرين في إصرارهم على الكفر وعدم الإيمان وخوفهم بأحوال الأمم الماضية ونزول العذاب، فكان هناك مظنّة سؤال وهو: فماذا يكون عاقبتهم؟ فشرحاً لحالهم ولسوء عاقبتهم قال جلّ وعلا:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

(**هَلْ**) الاستفهام للإنكار فيفيد النّفي فالمعنى: ما (**يَنظُرُونَ**) ماذا يترقّبون هؤلاء بعد هذه الأدلّة الواضحة والبراهين الموقنة (**إِلَّا**) أحد الأمرين:

الأوّل: (**أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ**) فيشهدوا برسالة الرّسول، وهذا لا يكون لأنّه ليس من عادة الله ذلك.

الثّاني: وهو الّذي يكون وهو (**أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ**) عذاب (**رَبِّكَ كَذَلِكَ**) مثل ما فعل هؤلاء (**فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**) فطلبوا مجيء الملائكة أو العذاب فأتاهم العذاب فأهلكهم (**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ**) باهلاكهم (**وَلـكِن كَانُواْ**) هم (**أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُون**) حيث جعلوها مستحقّة للعذاب بسبب الإصرار على الكفر والضّلال بعد وضوح الأدلّة والبراهين (**فَأَصَابَهُمْ**) انتقام (**سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ**) وأحاط (**بِهِم**) نزل بهم عقاب (**مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) من الرّسول ودينه وبشريعة الله الّتي جاء بها، أللّهم احفظنا آمين يارحيم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر براهين الكفرة الباطلة والّتي أحتجوا بها على عدم إيمانهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ

(١) صحيح مسلم ١/١٩٢ الحديث رقم ٢٠٤.

ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

(**وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ**) للإعتذار عن شركهم (**لَوْ شَاء اللّهُ**) أن لا نعبد من دونه (**مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا**) أرادوا بذلك أنّ الشّرك والتّوحيد إنّما يوفّق العبد إليهما بمحض إرادة الله تعالى له جبراً ولا دخل للعبد في ذلك، فلوشاء الله أنّ نوحّده ولا نعبد غيره (**ماعبدنا نحن ولا آباؤنا من شيء**) ولا أشركنا به ولكن الله تعالى أراد منّا الشّرك فأشركنا، وكذلك لوشاء الله تعالى أن لانحرّم ولانحلّل ولا نحكّم من دون حكمه مافعلنا ذلك (**وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ**) إي من دون حكمه (**مِن شَيْءٍ**) مثل البحيرة والحامي والسّائبة وغير ذلك من أحكام الجاهلية، واحتجّوا بهذا الاحتجاج على كفرهم وشركهم وحكمهم خلاف حكم الله تعالى، وهذا جهل عظيم بأمر الله تعالى وسنّته في الكون والعبد، فإنّه تعالى لم يجعل من عادته أن يهدي النّاس إلى سبيل الحقّ جبراً ولا أن يضلّهم قهراً، بل جعل من عادته أنّه خلق للإنسان السّمع ليسمع الآيات والدّلائل القوليّة، ووهبه البصر ليرى آيات الله ودلائله الكونيّة، ومنحه العقل الّذي يفكّر به في تلك الآيات والدّلائل، وأرسل الرّسل ينبّهونهم ويوقظونهم من الغفلة ويذكرونهم بالحقّ وآياته ودلائله، ونصب أدلّة الحقّ أمامهم بحيث لو تفكّروا فيها لعلموا الحقّ وأنقادوا له، ثمّ ترك اختيارهم في أيديهم، فمن أحبّ الحقّ وسعى له هداه إليه وثبّته عليه، ومن لم يحبّ الحقّ ولم يسمع له تركه وضلالـه (**كَذَلِكَ**) أي مثل مافعلوا (**فَعَلَ**) وقال الأقوام (**الَّذِينَ**) مضوا (**مِن قَبْلِهِمْ**) فقالوا لوشاء الله ما أشركنا، هذا وكما أنّ الله تعالى لم يجعل الجبر لنفسه لم يجعله لرسله أيضاً كما قال تعالى: (**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ**) الإستفهام للإنكار فيفيد النّفي فالمعنى ليس على الرّسل (**إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ**) الواضح وقد فعلوا ذلك وبلّغوا وليس لهم الجبر كما أراد الكافرون ذلك حيث طلبوا أن يجبرهم الله على الحقّ بإرادته القاهرة، أو يجبرهم الرّسل بالآيات والمعجزات الخارقة الّتي لا تدع مجالاً للعبد إلّا أن ينقاد

لمدلولاتها ويؤمن بها. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ الله تعالى قام بما هو عليه فبعث الرّسل، وإنّ الرّسل قاموا بواجبهم فبلغوا، فلم يبق العتب الّا على المرسلين إليهم فقال تعالى: (**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً**) وبلغوهم (**أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ**) صيغة مبالغة للطاغي وهو كلّ من دعا إلى عبادة غير الله تعالى ونظام غير نظام الله وشريعة غير شريعة الله تعالى، فبلّغ الرّسل الحقّ إلى النّاس وأظهروا المعجزات والدّلائل العقليّة والنقليّة (**فَمِنْهُم**) فبعد تبليغ الرّسل ودعوتهم النّاس (**مَّنْ**) أي بعضهم (**هَدَى اللّهُ**) إيّاه لحبّه الهداية وسعيه لها (**وَمِنْهُم**) وبعضهم (**مَّنْ حَقَّتْ**) ثبتت (**عَلَيْهِ الضَّلالَةُ**) لحبّهم لها أو عدم سعيهم للحقّ، أو لاستكبارهم أو عتوّهم أو اتّباعهم لهواهم أو لسادتهم وكبرائهم وطواغيتهم الّذين ساقوهم إلى الضّلال. ثمّ أنذر الله تعالى كلّ من انحرف عن هداية الرّسل وعن منهج الله تعالى فقال جلّ وعلا: (**فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ**) للنّظر والاعتبار بمن سبقكم (**فَانظُرُواْ**) وتحقّقوا (**كَيْفَ كَانَ**) أي كيف صار (**عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**) للرّسل والمنحرفين عن منهجهم منهج الله ربّ العالمين فأهلكهم الله تعالى وأبادهم، واعلم أنّ السّير سيران: سير بالسّفر إلى أماكن الكافرين والنّظر إلى آثارهم، وسير لتتبّع التّواريخ الصّحيحة وأخبارهم من هلاكهم وسبب هلاكهم، فالسّير والعلم بذلك مأمور به للعبرة والاتّعاظ لا للسّياحة والاستطلاع فقط، فإنّ ذلك هو من صفات البهائم والأنعام. ثمّ بعد هذه المناقشة الطّويلة وإصرار بعض الكافرين على الضّلالة وشدّة حرص الرّسول (ﷺ) على هدايتهم أراد الله تعالى أن ينبّه الرّسول (ﷺ) على أنّهم لايؤمنون تقليلاً لحرصه عليهم ولما يجد من الآلام على كفرهم؛ فقال جلّ وعلا: (**إِن تَحْرِصْ**) أنت ايّها النّبيّ (**عَلَى هُدَاهُمْ**) أي إيمان هؤلاء كلّ الحرص فلا يمنع ذلك الحرص شيئاً (**فَإِنَّ اللّهَ**) تعالى (**لاَ يَهْدِي**) جبراً (**مَن يُضِلُّ**) الله إياه لحرص ذلك الضّال على الباطل وعدم حبّه للحقّ، وإنّ الله تعالى سينتقم منهم على حبّهم لهذا الضّلال (**وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**) ينصرونهم من عذاب الله ويحفظونهم من شدّة عذابه.

ثمّ إنّ هؤلاء الكافرين انتقلوا من مجادلتهم في التّوحيد وكفرهم به إلى كفرهم بالبعث والحشر والحساب، وإنكاره لما أخبر الله تعالى عنهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

(**وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ**) أي حلف هؤلاء الكفرة بالله (**جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**) من إضافة الصّفة إلى الموصوف، أي حلفوا أيمانهم الجاهدة أي الغليظة وقالوا: (**لَا يَبْعَثُ**) أي لا يحيي (**اللَّهُ مَن يَمُوتُ**) مرّة أخرى ولا حشر ولاحساب بعد الموت، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا: (**بَلَى**) إنّ الله تعالى يبعثهم وكان ذلك (**وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا**) ثابتاً وآتياً لا محالة (**وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) أي لايؤمنون بذلك. ثمّ بيّن الله تعالى عاقبة هذا البعث فقال (**لِيُبَيِّنَ**) اللّام لام عاقبة، فالمعنى يكون عاقبة هذا البعث أنّه (**يبيّن الله**) تعالى (**لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فيه**) من التّوحيد والإشراك والبعث وعدمه وحقّيّة الرّسل والدّعاة إلى دين الله تعالى، وغير ذلك من كلّ مايختلف فيه النّاس، فيبيّن الله تعالى الحقّ بثواب من كان عليه، والباطل بعقاب من كان عليه ويدعو له (**وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كفروا**) وتكون العاقبة أنّه يعلم الّذين كفروا بالتّوحيد والإسلام والبعث والرّسل (**أَنَّهُمْ كَانُوا**) في كفرهم هذا (**كَاذِبِينَ**) ويعترفون باستحقاقهم للعذاب الأليم، وأنّ الّذين آمنوا هم الّذين صدقوا فلهم الثّواب العظيم. ثمّ بيّن الله تعالى أنّ الإحياء بعد الموت والحشر والحساب لا يصعب علينا، بل هو سهل جدّاً فقال جلّ وعلا: (**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ**) أي لأي شيء كان (**إِذَا أَرَدْنَاهُ**) أردنا وجوده سواء من البعث وغيره (**أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**) ذلك الشّيء دون تأخير، فمن كان قدرته هذه فلا يصعب عليه الإحياء بعد الموت ولا الحشر ولا الحساب، كيف وإنّه قد أوجد الإنسان من العدم وجعله حيّاً بعد موته حينما كان تراباً ثمّ نطفةً كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ (٢٨).

ثمّ إنّه في خضمّ ما كانت من هذه المناقشات الّتي تجري في مكّة المكرّمة بين المؤمنين والكافرين حول الإيمان بالرّسول وتوحيد الله تعالى والإيمان بالبعث ولحوق الأذى بالمؤمنين، نتيجة لتلك المناقشات هاجر بعض المؤمنين الى الحبشة فراراً بدينهم وابتغاء لوجه الله تعالى وتخلّصاً من ايذاء المشركين، فبشّر الله تعالى هؤلاء المهاجرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(**والَّذِينَ هَاجَرُواْ**) أوطانهم وديارهم وإخوانهم (**فِي اللَّهِ**) أي في سبيل الحفاظ على دين الله تعالى (**مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ**) أي من بعد أن ظلمهم المشركون وآذوهم (**لَنُبَوِّئَنَّهُمْ**

فِي الدُّنْيَا) لنسكننّهم منزلةً **(حَسَنَةً)** وبلدة يأمنون فيها على أنفسهم ودينهم وأهليهم ويرزقون فيها رزقا واسعاً وانتصاراً على الأعداء **(وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ)** أي يوم القيامة **(أَكْبَرُ)** من هذا الّذي وهبهم في الدّنيا **(لَوْ كَانُواْ)** أي المشركون **(يَعْلَمُونَ)** عاقبة المؤمنين في الدّنيا والآخرة لما آذوهم ولما عادوهم، أو لو يعلم المؤمنون ذلك لما حزنوا على ما أصابهم. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر للمهاجرين صفات أخرى غير الهجرة يستحقّون بها هذه المنزلة الحسنة في الدّنيا والأجر الأكبر في الآخرة فقال: **(الَّذِينَ صَبَرُواْ)** وتحمّلوا إيذاء المشركين فلم يزحزحهم كلّ ذلك عن الإيمان، وتحمّلوا هجر الأوطان وما يحبّون حفاظاً على دينهم **(وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)** في أمورهم ويفوضون أمورهم إلى الله تعالى فلا يهمّهم عداوة الظّالمين وإيذاء المعتدين إيماناً منهم بأنّ الله تعالى يرعاهم إذا أراد حفظهم وإلّا فذلك خير لهم، لأنّ الوكيل الصّادق يعمل ما هو الأصلح للموكّل ومن أصدق من الله تعالى في وكالته لمن وكّل إليه أمره.

ثمّ أثار الكافرون بعد هذه المناقشات مناقشة أخرى، وهي أنّهم أنكروا أن يرسل الله أحداً من البشر إلى النّاس لتبليغ دينه وشرائعه، وادّعوا أنّ الرّسول يجب أن يكون ملائكة، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ) يا محمّد **(إِلَّا رِجَالاً)** لا ملائكةً ولا نساءً **(نُّوحِي إِلَيْهِمْ)** الشّرائع والأحكام ليبلّغوها للنّاس **(فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ)** اسألوا أهل التّوارة والإنجيل، هل أرسلنا ملائكة في يوم من الأيام لتبليغ النّاس الشّرائع والاحكام؟ فاسألوهم **(إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** كيفيّة الرّسالة ومن الّذي يرسل، وقوله: **(بِالْبَيِّنَاتِ)** متعلق بمحذوف تقديره أرسلنا رجالاً **(بِالْبَيِّنَاتِ)** أي الأحكام الواضحة والدّلائل الدّالة على صدقهم **(وَالزُّبُرِ)** أي والكتب الّتي فيها أحكام الله تعالى ومواعظه **(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ)** وهو القرآن كما أنزلنا على من قبلك ذكرا **(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)** من الأحكام والواجبات والحلال والحرام **(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)** فيعملوا بما تبيّن لهم ويطبّقوه على أنفسهم وعلى من تحت سلطانهم. قال رسول الله (ﷺ): (لا ألفينّ أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه أمر من أمري

ممّا أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه)[١] فإنّ السّنة جاءت مفسّرة للكتاب، فمن أخذ بالكتاب من غير معرفة بالسّنة زلّ عن الكتاب كما زلّ عن السّنة، وقال (ﷺ): (صلّوا كما رأيتموني)[٢] وقال أيضاً: (خذوا عنّي مناسككم)[٣].

ثمّ خوّف الله تعالى الّذين لايؤمنون بهذا الذّكر المنزّل على رسوله، ودبّروا الدّسائس ضدّ الرّسول (ﷺ) ودينه فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾

(أَفَأَمِنَ) الإستفهام للإنكار ويفيد النّهي، فالمعنى فلا يأمن **(الَّذِينَ مَكَرُوا)** يعملون الدّسائس **(السَّيِّئَاتِ)** ضد رسول الله (ﷺ) ويحيكون المؤامرات الدّنيئة لصدّ النّاس عن الدّخول في الاسلام فلا يأمنوا **(أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ)** كما خسفها ببعض من سبق **(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ)** من نوع آخر **(مِنْ حَيْثُ)** من الجهة الّتي **(لَا يَشْعُرُونَ)** أنّ العذاب يأتيهم منها **(أَوْ يَأْخُذَهُمْ)** العذاب **(فِي تَقَلُّبِهِمْ)** في وقت حركاتهم للكسب والعمل **(فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ)** أي بمانعين ذلك العذاب ولا دافعيه عن أنفسهم إذا جاء **(أَوْ يَأْخُذَهُمْ)** العذاب **(عَلى تَخَوُّفٍ)** في حال خوفهم منه فلا يأمنوا من أحد هذه الأنواع من العذاب، لأنّهم يستحقّونه بسبب أعمالهم القبيحة وأخلاقهم الدّنيئة إلّا أنّ الله تعالى لا يستعجل بالعقوبة **(فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ)** بالنّاس **(رَّحِيمٌ)** بهم، ولذلك يؤخّر عنهم العذاب ولكنّه وإن أمهل فإنّه لايهمل، فليتوبوا قبل أن يأتيهم العذاب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّ إرساله للعذاب عليهم بأي نّوع كان من الأنواع المذكورة أو غيرها لا يصعب عليه، فإنّه قاهر على الكون كلّه، وأنّ الموجودات كلّها منقادة له فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح الترمذي ٥/ ٣٧ الحديث رقم ٢٦٦٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٢٦ الحديث رقم ٦٠٥.

(٣) سنن البيهقي الكبرى ٥/ ١٢٥ الحديث رقم ٩٣٠٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

إعلم أنّ الظّل لكلّ شيء إنّما يعتبر عند وصول الشّمس إلى سمت الرّأس للإنسان وهو متّجه إلى المغرب، وهذا هو منتصف النّهار، فهذا هو الظّل المعتبر عند الفلكيّين، وهذا الظّل يختلف باختلاف البقاع، فالشّاخص إذا كان في بقعة فوق مدار السّرطان يكون ظلّه يمينياً أبداً، وإن كان وراء مدار الجدي فظلّه شمالي أبداً، وإن كان بين هذين المدارين يكون ظلّه يمينياً إذا كانت الشّمس شماليّة منه، وشماليّاً إذا كانت يمينيّة منه، وإذا كانت الشّمس على مدار تمرّ بسمت رأسه، وذلك كمن كان تحت خط الاستواء والشّمس كانت فوق خط معدّل النّهار، فلا ظلّ له في ذلك اليوم، وإنّ اختلاف هذا الظّل ناشيء عن كيفيّة تنظيم حركة الارض تحت الشّمس وحركة الشّمس في البروج لتنظيم الفصول الأربعة والحركة اليوميّه للأرض لتنظيم اللّيل والنّهار، وإنّ هذا التّنظيم يدلّ على انقياد الكون لمن نظّمه وهو الله تعالى، وبهذا يعلم أنّ الكون كلّه منقاد لأمر الله تعالى، فلا يعجز عن شيء فلذا قال تعالى: (**أَوَ لَمْ يَرَوْاْ**) أي أولم ينظروا، والأمر للإنكار فيفيد الأمر بالنّظر، فالمعنى فلينظروا (**إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن**) كل (**شَيْءٍ**) فإنّه يرى أنّ كلّ شيء (**يَتَفَيَّؤُا**) أي يميل (**ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ**) إذا كان ظلّه يمينياً إلى المغرب صباحاً وإلى المشرق مساءً (**وَ**) يميل عن (**الْشَّمَآئِلِ**) إذا كان ظلّه شماليّاً إلى المغرب صباحاً والى المشرق مساءً، حال كونها (**سُجَّدًا**) منقادة (**لِلّهِ**) تعالى وقدرته وحسب النّظام الّذي خلقه وقدره (**وَهُمْ**) أي أصحاب الظّلال أيضاً (**دَاخِرُونَ**) أذلّاء تحت قدرة الله تعالى، فلينظروا ليعلموا أنّ الكون كلّه وأنّ كلّ شيء منقاد للّه تعالى، وأنّه لا يعجز عن شيء (**وَلِلّهِ يَسْجُدُ**) أي ينقاد كلّ (**مَا فِي السَّمَاوَاتِ**) وجميع (**وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ**) أي من كلّ الدّواب (**وَالْمَلآئِكَةُ**) يسجدون وينقادون لأمره (**وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**) عن السّجود له (**يَخَافُونَ رَبَّهُم**) الّذي هو (**مِّن فَوْقِهِمْ**) فوقيّة تليق به تعالى (**وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**) به فلا يعصونه في شيء.

تنبيه : إنّ هذه الآيات تفيد ثلاثة أمور:

الأوّل: أنّ من إنقاد له هذا الكون كلّه والملائكة يجب أن يطاع ولا يعصى، وأنّ من عصاه يستحقّ العذاب.

الثّاني: أنّ من له هذه القدرة الّتي انقاد لها هذا الكون لايعجز من أن يعذّب من شاء بما شاء وكيف شاء.

الثّالث: أنّ من له هذه القدرة لايحتاج الى شريك ولا ينبغي أن يشرك به شيء.

* * *

ثمّ بعد أن أثبت الله تعالى وجوده ووحدته في التّكوين والخلق والإيجاد أراد أن يذكر وحدته في المعبوديّة واستحقاق التّشريع فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾

(وَقَالَ اللّهُ) تعالى أي وحكم **(لَا تَتَّخِذُواْ)** أيّها النّاس **(إِلـهَيْنِ)** معبودين **(اثْنَيْنِ)** ولا أكثر لأنّ أصل النّهي يتوجّه الى التّعدد، فإذا كان باثنين فبأكثر بالطّريق الأولى **(إِنَّمَا هُوَ)** أي المعبود بحقّ في الكون **(إِلهٌ)** معبود **(وَاحِدٌ)** فلا يستحقّ العبادة سواه، فالآلهة المدّعاة سواه باطلة كلّها لايستحقون الإطاعة ولا التّقديس؛ لأنّها مخلوقة مثلكم أذلّاء تحت قدرة الله تعالى، فحيث لا معبود سواي **(فَإِيَّايَ)** وحدي **(فَارْهَبُونِ)** فخافون لأنّه لاينفع ولايضرّ أحد سواي.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر وحدته في المالكية فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(وَلَهُ) تعالى ملك كلّ **(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)** فيهب مايشاء لمن يشاء ويسلب عمّن يشاء ما يشاء، وكلّ ملك يسلبه عن المالك المجازي بالموت أو بالآفات ولا معارض له، فإذن فله العبادة والطّاعة، وله حقّ التّشريع، لأنّ صاحب الملك أحقّ بالحكم في ملكه وبيان كيفيّة الحياة والعمل فيه **(وَلَهُ الدِّينُ)** أي الدّينونة والإطاعة **(وَاصِبًا)** أي دائماً، والمراد بالدّين هنا الإطاعة التّكوينيّة فلا أحد يستطيع أن يغيّر التّكوين حتّى في شخصه، فإذا كان الإنسان تحت تصرّف أحد تكويناً فيجب عليه أن يكون له إطاعته تكليفاً أيضاً، ولذا قال جلّ وعلا: **(أَفَ)** بعد وضوح كلّ ذلك **(غَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ)** تخافون وتعبدونه بإطاعته وتنفيذ أوامره.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر وحدته في الإنعام، وأنّ كلّ نعمة فهي منه تعالى لا منهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(**وَمَا بِكُم مِّن**) أي (**نِّعْمَةٍ**) كانت من الصّحة والعافية والجمال والأهل والأولاد والقوّة والمال فذلك كلّه (**فَمِنَ اللّهِ**) تعالى أنعم به عليكم، وإنّ الّذي ترون من غيره مثل الوالد أو الأمير أو من سواهما وإحسانهم إليك؛ فذلك أيضاً من الله تعالى، لأنّه لولا تسخير الله تعالى لهؤلاء وسوقهم إلى الإنعام عليك وتقديره ذلك لما فعلوا، فكم من ولد تركه والده جائعاً، وكم من أمير جعل من تحت إمرته محروماً، وهذه الحقيقة وهي أنّ كلّ شيء من الله مركوزة في أعماق قلوبكم وضمائركم، ألا ترون أنّه حينما تكونون في يسر تغفلون عن الله وترون ما أنتم فيه من غيره (**ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ**) وانقطعت منكم الأسباب تتذكرون الله (**فَإِلَيْهِ**) لا إلى غيره (**تَجْأَرُونَ**) أي ترفعون أصواتكم بالدّعاء والتّضرع وطلب النّجاة (**ثُمَّ**) بعد تنبّهكم هذا والشّعور بأنّ لا منعم ولا منجي إلّا الله تعالى تراكم (**إِذَا كَشَفَ**) الله تعالى (**الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ**) الّذي نجّاكم (**يُشْرِكُونَ**) فينسبون النّجاة إلى كذا وكذا من الأسباب أو غيرها ممّا تعوّدها النّاس (**لِيَكْفُرُواْ**) اللّام لام عاقبة، فالمعنى أنّ عاقبة شركهم هذا أنّهم (**يكفرون**) ينسون ولا يشعرون (**بِمَا آتَيْنَاهُمْ**) من النّعم وكشف الضر عنهم (**فتمتّعوا**) فقل لهم أيّها النّبيّ وأيّها المسلم تمتّعوا بما أوتيتم في الدّنيا ماقدّر لكم التّمتّع به (**فَسَوْفَ**) حينما جاءكم العذاب في الدّنيا أو الآخرة (**تَعْلَمُونَ**) أنّ هذه النّعم كانت من الله أو من غيره وتعلمون نتيجة كفركم بعطايا ونعم الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنواعا من أعمال كفرهم الّتي يقومون بها؛ فقال جل وعلا:

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

(**وَيَجْعَلُونَ لِمَا**) أي للأصنام الّذين (**لَا يَعْلَمُونَ**) لايعلمون شيئاً، ونفي العلم مستلزم لنفي القدرة، فالمعنى لا يعلمون ولا يقدرون على شيء (**نَصِيبًا**) أي قسماً (**مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ**) فيجعلون أموالهم وقفاً أو نذراً لسدنة تلك الأصنام؛ لاعتقادهم أنّ هذه الأصنام ينفعونهم أو يضرّون، فأنكر الله تعالى عملهم هذا فقال جلّ وعلا: (**تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ**) يوم القيامة (**عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ**) من قولكم واعتقادكم أنّ هذه الأصنام تنفع أو تضرّ (**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ**) فيقولون إنّ الملائكة بنات الله تعالى (**سُبْحَانَهُ وَلَهُم**) أي ويحبّون لأنفسهم (**مَّا يَشْتَهُونَ**) من البنين، فما قدّروا الله بقدر ما قدّروا أنفسهم، لأنّهم يجعلون لله ما يستنكفون هم منه كما قال: (**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى**) بأنّه ولدت إمرأته أنثى له (**ظَلَّ**) من هذه البشارة (**وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**) يبلغ حزنه ويكتمه على النّاس (**يَتَوَارَى**) أي يتستر من النّاس (**مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ**) وهو الأنثى فإنّه سوء حسب عاداتهم وعرفهم، ويفكّر في نفسه ماذا يفعل بما بشّر به وبهذا الأنثى (**أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ**) على تحمل عارٍ وذلّ (**أَمْ يَدُسُّهُ**) يدفنه حيّاً (**فِي التُّرَابِ**) كما هو (**أَلَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ**) من أن إبقاء البنات ذلّ وعار؛ لأنّ بقاء نوع الإنسان يحتاج إلى الذّكر والأنثى، فليس للذّكر فضل في بقاء النّوع أكثر من الأنثى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنّ الفضائلَ الأخرى أيضاً ليست مربوطة بالذّكورة، فربّ أنثى أشرف من مائة ذكر، وخير منه لحسن سلوكها وعملها واستقامة أخلاقها، وربّما أفادت أنثى والديها أو قومها أكثر من الذّكور، فساء مايحكمون من كره البنات ووأدهنّ حيّات وتحقيرهنّ، ومن أنّهم ينسبون البنات إلى الله مع الإستنكاف منهنّ، والله تعالى سبحانه منزّه عن الأبناء والبنات لأنّه (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) ويقولون للملائكة: بنات الله وهم من خلقه تعالى (**لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ**) وهم المشركون (**مَثَلُ السَّوْءِ**) أي الوصف السيّئ وهو حاجتهم إلى الأبناء والبنات وكرههم للأنثى ووأدهم للبنات مع حاجتهم إليها لبقاء النّوع (**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ**) وهو تنزّهه عن الولد ذكراً كان أو أنثى وعدم حاجته إليه، وخلقه الذّكر والأنثى للتّزاوج والتّناسل وبقاء نوع الإنسان (**وَهُوَ الْعَزِيزُ**) الغالب على أن يكثر من نوع الإنسان بدون تزاوج ونكاح (**الْحَكِيمُ**) ولا يفعل شيئاً إلّا لحكمة، فجعل بقاء النّوع بسبب التّزاوج بين الذّكر والأنثى لحكمة هو يعلمها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر للنّاس صبره على عباده وأنّه لو نظر إلى أعمال عباده هذه الّتي ذكرت وغيرها لأهلك كلّ من في الأرض ولكنّ الله تعالى جعل لكلّ شيء أجلاً ولكلّ أجلٍ كتاباً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(**وَلَوْ يُؤَاخِذُ**) أي ولو يعاقب (**اللّهُ**) فورا (**النَّاسَ بِظُلْمِهِم**) بسبب ظلمهم من الكفر والمعاصي والفسق والفجور (**مَّا تَرَكَ**) أي لما أبقى (**عَلَيْهَا**) على الأرض (**مِن دَآبَّةٍ**) من كلّ مايمشي عليها من الحيوانات، أمّا النّاس فلظلمهم، وأمّا الحيوانات فلأنّ كلّها خلقت لما فيها من مصلحة للنّاس، فاذا أهلك النّاس لا تبقى حكمة في بقاء الحيوانات الأخرى (**ولَكِن**) وإن أمهلهم الله تعالى فلا يهملهم وأنّه يؤاخذهم ولا يبقى على الأرض من دابّة فقدر أنّه (**يُؤَخِّرُهُمْ**) أي أخّر هلاك الكلّ (**إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**) معين وهو يوم القيامة (**فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ**) المحدد لهم عند الله (**لَا يَسْتَأْخِرُونَ**) أي لا يقدرون أن يؤخّروا الأجل (**سَاعَةً**) أي لحظة، وإذا لم يجيء الأجل (**وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**) لايقدرون تقديمه أو لا يريدون تقديمه حيث لا أحد يحبّ هلاكه، وكلا المعنيين صحيح ومفاد. ثمّ ذكر الله من حال الكافرين فقال: (**وَيَجْعَلُونَ لله**) وينسبون ويصفون لله (**مَا**) أي الشّيء الّذي (**يَكْرَهُونَ**) لأنفسهم أن يتّصفوا به وهو قولهم بأنّ لله بنات ويكرهون البنات وكذلك ينسبون إليه الشّريك في ملكه وهم يكرهون أن يشاركهم أحد (**وَتَصِفُ**) أي وتقول (**أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ**) وهو قولهم وادّعاؤهم (**أَنَّ لَهُمُ الحسنى**) العاقبة الحسنى على هذه العقيدة الباطلة وأعمالهم السّيئة، ويقولون لئن رجعنا الى الله لنجدنّ ماهو أحسن من الدّنيا، فردّ الله تعالى على كذبهم هذا فقال جلّ وعلا: (**لَا جَرَمَ**) أي لاشكّ (**أَنَّ لَهُمُ النَّارَ**) يدخلونها بدل الحسنى (**وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ**) يقرأ بكسر الرّاء، أي مفرطون في كذبهم وكفرهم ومضيّعون لسعادتهم فيكون كدليل لدخولهم النّار، ويقرأ بفتح الرّاء أيضاً، والمعنى أنّهم متركون فيها ولا يخرجون منها.

هذا وقد أصبح الرّسول (ﷺ) يضيّق صدره من تعنّت الكافرين وإصرارهم على الكفر، فكان يكاد أن لا يضبط أعصابه وأن يقابلهم بالشّدة، فأراد الله تعالى أن يسلّيه ويهدّيء أعصابه الشّريفة فقال جلّ وعلا:

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾

(**تَاللّهِ**) قسمي (**لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ**) رسلاً مثلك للدّعوة إلى توحيد الله واتّباع شريعته (**فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**) من الشرك والعمل بغير دين الله تعالى واتّخذوا الشّيطان وليّاً لهم فاتّبعوه وما اتّبعوا الرّسل (**فَهُوَ**) أي الشّيطان (**وَلِيُّهُمُ**) أي وليّ قومك (**الْيَوْمَ**) مثل ما كان وليّ الأمم الأخرى، فلا تحزن فإنّ هذه عادة كلّ أمّة وإنّ الله سينتقم منهم وفي الأجل الّذي حدّد لهم (**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) حينما جاء وقت عذابهم (**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ**) وهو القرآن (**إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ**) للنّاس (**الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ**) بأنّ هذا هو الحقّ وهذا هو الباطل (**و**) وأنزلنا القرآن (**هُدًى**) أي إرشاداً إلى الحقّ والمعرفة بالباطل (**وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) به، وما أنزلناه لتأتي بالنّاس إلى الحقّ جبراً وقهراً، فإنّ الإيمان بالجبر لا يفيد، وإنّ الّذي يؤمن جبراً يكون ضرره على المؤمنين أكثر من نفعه، فلا تحزن ولا تتعب أعصابك ودم على دعوتك، فمن اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها، وماعليك إلّا البلاغ المبين، وقد قمت به أحسن القيام، وأنّ الله لا يضيع أجر الدّاعين سواء قبل منهم أم لا، واتّبعهم النّاس أم لا، فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين، ولا إحسان أفضل من الدّعوة إلى الله تعالى وما فيه الفلاح في اليوم الآخر.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أموراً أخرى تدلّ على وجوده ووحدته وعظيم قدرته وجلائل نعمه، وهذه الأمور نوعان: فالأول: من الآفاق فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(**وَاللّهُ**) تعالى بقدرته وعلمه نظّم عمل السّحب والرّياح وحركة الأمطار، وبهذا التّنظيم (**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء**) أي من فوق الأرض من السّحب (**مَاء**) مطراً (**فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ**) أي حرّك بإنماء قوى الأرض الإنباتيّة (**بَعْدَ مَوْتِهَا**) في هذا الصّيف أو برد الشّتاء وتعطيل القوى الإنباتيّة عن الإنبات، فأنبت الله تعالى بتحريك القوى الإنباتيّة للنّباتات والأشجار وغير ذلك ممّا تنبت من الأرض (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) التّظام والتّدبير في الكون (**لآيَةً**) لدليلاً باهراً وحجّة ظاهرة على وجود الله وقدرته ووحدته ووفرة إنعاماته على النّاس إلّا أنّه آية (**لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ**) يحاولون لسماع الحقّ ويحبّون ظهوره ليؤمنوا به، وأمّا من ركب على متن هواه وما أحبّ رشده ولا هداه، فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ ويصدق فيهم قول الشّاعر إذ يقول:

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لا حياة لمن تنادي

(**وَإِنَّ لَكُمْ**) أيّها النّاس (**فِي الأَنْعَامِ**) وهي الإبل والبقر والضّأن والمعز (**لَعِبْرَةً**) أي ما توجب العبرة وما لو تفكّرتم فيه لآمنتم بوجود الله تعالى وقدرته ووحدته ووفرة إنعاماته حيث إنّنا (**نُّسْقِيكُم**) أيّها النّاس (**مِّمَّا فِي بُطُونِهِ**) من الموادّ الغذائيّة (**مِن بَيْنِ فَرْثٍ**) وهو الزبل[١] (**وَدَمٍ**) فمن بين هذين نسقيكم (**لَّبَنًا**) حليباً (**خَالِصًا**) طاهراً نظيفاً لايختلطه شيء من الفرث ولا الدّم (**سَآئِغًا**) سهل التّناول والشّرب (**لِلشَّارِبِينَ**) له، فالغذاء يتحوّل بعضه بعد الهضم الى فرث، أي فضلات يدفعها الحيوان إلى الخارج وبعضه إلى دم، فالدّم يذهب إلى كلّ خليّة في الجسم، فاذا صار إلى غدد اللّبن في الضّرع يتحوّل إلى لبن ببديع صنع الله تعالى، وإنّ هذه العمليّة، عمليّة خروج اللّبن من بين فرث ودم، لم تكن معروفة لأي واحد من البشر حينما نزل القرآن، فالقرآن حينما يعبّر عن هذه الحقائق العلميّة، وفي وقت ومكان لم يكن أحد ليعرف هذه الحقائق أو يتصوّرها يشهد بنفسه على نفسه بأنّه من الله تعالى، ولا يملك الإنسان حين يعلم بهذه الحقائق الّتي يعبّر عنها القرآن قبل أربعة عشر قرناً، ويأتي العلم بعد ألف سنة من نزوله

---

(١) يقصد الزبل الذي داخل الكرش بعد تحول الطعام إليها.

أو أكثر فيصدق ما أخبر عنه القرآن، فلا يملك إلّا أن يقول ويعترف بأنّ هذا القرآن من الله تعالى (**وَمِن**) أي ونسقيكم من (**ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ**) ثمّ بيّن كيّفيّة سقيه منها فقال: (**تَتَّخِذُونَ**) بإلهام وتعليم منّا (**مِنْهُ**) أي من الّذي ذكرنا وهو ثمرات النّخيل والأعناب (**سَكَرًا**) ما تسكرون به من الخمر والنّبيذ مثلاً (**وَرِزْقًا حَسَنًا**) كالتّمر والعنب والدّبس والخلّ، وفي مقابلة المسكر بالرّزق الحسن إشارة إلى أنّ المسكر ليس رزقاً حسناً، وكان هذا مقدّمة لتحريمه، وقد تركه بعض الأصحاب حين ورود هذه الآية لفهمهم أنّه ليس بحسن (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) أي في خلق ثمرات النّخيل وما يتخذّ منه من الأشربة والأطعمة (**لآيَةً**) لدليلاً عظيماً على وجود الله تعالى وقدرته ووحدته ووفرة إنعاماته إلّا أنّه آية (**لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) أي يفهمون المدلولات من الدّلائل وأمّا غيرهم فحكمهم حكم البهائم بل هي خير منهم (**وَ**) من دلائل قدرة الله ووحدته وإنعامه على النّاس أنّه (**أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**) أي ألهمها وجعل في فطرتها وأمرها أمر تكوين (**أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ**) أي من الشّقوق الموجودة بين أحجار الجبال وفراغاتها (**بُيُوتًا**) تسكن فيها (**وَمِنَ**) الشّقوق الّتي تحدث من (**الشَّجَرِ**) أي شجر كان (**وَمِمَّا يَعْرِشُونَ**) أي وممّا يصنع النّاس لك من العرائش فعيشي في هذه البيوت (**ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**) الّتي تجدها وتقدر عليها (**فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ**) الّتي جعلها الله تعالى لك (**ذُلُلاً**) ذليلة فتذهب فيها وتأتي وتتحرّك من بين النّباتات والثّمار، وبعمل النّحل الدؤوب وأكلها من الثّمار (**يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ**) عسل (**مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ**) فمنه الأسود والأصفر والأبيض (**فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ**) من بعض الأمراض لا من كلّها (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الخلق العظيم والعمل العجيب للنّحل والشّراب المفيد الّذي تعمله النّحل (**لآيَةً**) لدليلاً على وجود الله تعالى ووحدته وإنعاماته الوفيرة على النّاس إلّا أنه آية (**لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) في الدّلائل ليصلوا إلى المدلولات، وأمّا غيرهم فهم صمّ بكمّ عميٌ فهم لايعقلون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الآيات من الآفاق أي من خارج ذات الإنسان أراد أن يذكر آيات في الأنفس أي في داخل نفس الإنسان؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

(**وَاللّهُ خَلَقَكُمْ**) الخطاب للمشركين لأنّهم كانوا يعترفون بأنّ الله تعالى خلقهم، وللملحدين أيضاً فإنّ أي عاقل حينما يتفكّر في هذا الإنسان العجيب خلقه والعظيم نوعه والدّقيق تركيبه وصنعه، يعلم جدّاً أنّ الإنسان لم يوجَد بنفسه وإنّ الطبيعة الّتي لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم لا تخلق هذا المخلوق الّذي يسمع ويبصر ويعلم، فيعترف بأن موجد وخالق هذا النّوع يجب أن يكون حيّاً عليماً قديراً عظيماً، وهو الله تعالى (**ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ**) فإنّ العلماء كلّهم حينما تفكّروا في الموت يعلمون أنّ وراء الإنسان وفوقه سلطة قاهرة تسلب منه هذه الحياة ويتوفّى روح من له هذه الحياة (**وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ**) أي يبقى فلا يموت إلى أن يصل (**إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ**) وهو الحال الّذي يضعف فيه قواه فلا يقدر شيئاً وتضعف أحاسيسه فلا يعلم شيئاً ويؤخّره الله تعالى الى هذا الحال (**لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ**) ذلك الانسان (**بَعْدَ عِلْمٍ**) أي بعد علمه (**شَيْئًا**) فينسى كلّ شيء ولا يستطيع أن يتعلّم شيئاً، فيعلم النّاس بذلك أنّ الحواسّ والعقول وإدراكاتها كلّها من الله تعالى يهبها لمن يشاء قدر ما يشاء ويسلبها منه متى يشاء فيعترف (**إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ**) لا يفنى علمه (**قَدِيرٌ**) لاتنفد قدرته كما يفنى علم الانسان وتنفد قدرته (**وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ**) فأعطى البعض من المال والثّروة أكثر من بعض آخر، ووجود هذه التّفرقة في الرّزق لدليل واضح على وجود الله تعالى وأنّ الرّزق بيد الله تعالى، لأنّك أحياناً ترى إنسانين متساويين في العقل والقوّة والعمل، ويعملان عملاً واحداً وفي مكان واحد وزمان واحد فتزداد ثروة هذا وتقلّ ثروة الآخر، بل ربّما تجد من هو أكثر عقلاً وعلماً وقوّة يكون أقل مالاً وثروة عمّن هو دونه في العلم والعقل بكثير، فيدل كلّ ذلك على أنّ توزيع الرّزق وزيادته وتقليله هو بيد الله تعالى وليس بيد العبد والكسب، فيصادف أنّ إنساناً يحفر بئراً فلا يجد منه شيئاً، وآخر يحفر بجنبه بئراً فيطلع منه كنز يكون به من أثرى النّاس، وآخر بئراً يقع فيه فيموت.

حكاية: يحكى أنّ أحد العلماء كان عنده إشكال في العلم، فأصبح يمشي في

الشّارع ويفكّر فيه، فصادف أن مرّ بباب حمّام فناداه من يدخل الزبل في كور الحمّام ويشعل به النّار: في ماذا تتفكّر أيّها العالم؟ فقال العالم: يا أخي أنت صانع حمّام وأنا عالم فماذا تريد من إشكالي؟ فقال الصّانع: ولماذا؟ فربّما يلهم الله تعالى إيّاى حلّ إشكالك وإنّك لا تخسر شيئاً، فأعرض عليّ إشكالك فإن حللته فذاك وإلّا فأنت لم تخسر شيئاً، فذكر له الإشكال فحلّه وحلّ له إشكالات أخرى كثيرة، فقال له العالم: أنت مع علمك الوفير هذا كيف تعمل هذا العمل! فلم لا تخرج إلى البلدة وتقوم بالعلم وتنشره؟ فقال له صانع الحمّام: هذا ممّا قسم الله تعالى لي. فأطال العالم معه الكلام على هذا الموضوع فقال الصّانع: تعال نجرّب، وكان خطّاطاً، فكتب له رقعة بخطّه المليح الجيّد فأعطاها للعالم، فقال: هذه لك فبعها لك، فذهب بها العالم إلى السّوق، فاجتمع عليها النّاس وزايدوا إلى أن باعها بمبلغ وفير، فطلب النّاس منه أن يأتي لهم بمثلها وبأي مبلغ شاء. فكتب الصّانع رقعة أخرى أجود بكثير من الأولى، وقال له: إذهب بها وبعها لي، فما اشتراها أحد رغم طلبهم فاضطّر أن يعطيها لأحد بثمن رخيص جدّاً، فلمّا رجع قال له: ألم أقل لك إنّ هذه قسمتي. ثمّ خرج العالم من عند الصّانع وذهب إلى سلطان البلدة فجلس عنده، فرأى صائغاً أتى بخاتم صنعه للسّلطان فسلّمه إليه، فلبس السّلطان الخاتم وجعل فصه في باطن الأصبع، فقال للصّائغ: إنّ الخاتم جميل جداً إلّا أنّ فيه عيباً، قال: وماذا؟ قال: إنّ فصّه في باطن الأصبع وليست في طرفه، قال: ياسيّدي إنّي أستطيع أن أصلحه وهو في يدك، فقال: كيف؟ فأتى الصائغ وحرّك الخاتم إلى أن جعل فصّهُ في ظهر الأصبع! فقال السّلطان: أعطوه جائزة قدره كذا من الدّنانير على مهارته في الصّنعة، فلمّا رأى العالم ما لهذا الجاهل من السّلطان والملك والثّروة وما في صانع الحمّام العلّامة من الفقر أنشد هذه الأبيات:

سبحان من جعل الأشياء موضعها ... وفرّق العزّ والإذلال تفريقاً

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الّذي ترك الأوهام حائرة ... وصيّر العالم النّحرير زنديقاً[1]

---

(١) نسب هذا إلى ابن الرّاوندي بصيغة: كم عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبه... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا... هذا الّذي ترك الأذهان حائرة... وصيّر العالم النّحرير زنديقا / أنظر شرح لامية ابن الوردي ١/ ٩٥.

كما نسب ذلك إلى نصر بن أحمد المعروف بالخبزأرزي بصيغة: سبحان من قدّر الأشياء منزلها... وصيّر النّاس مرفوضاً زمرموقا... فعاقل فطن أعيت مذاهبه... وأحمق جاهل تلقاه مرزوقا... هذا الّذي ترك=

ويقال إنّ هذا العالم إرتدّ وأصبح زنديقاً. ولكن إن أصبح هذا العالم زنديقاً بهذا الأمر فغيره يكون صدّيقاً به، لأنّه بهذا يعلم أنّ الرّزق ليس بالعلم أو بالعقل أو الأسباب، وإنّما هو بيد الله تعالى، فكان الأليق بهذا العالم أن يقول: (وصيّر العالم النحرير صدّيقاً) وإنّ حكمة تفضيل البعض على البعض في الرّزق ذكرناها في تفسير الآية (٣٢) في سورة الزّخرف. فالله هو الّذي يفضّل البعض على البعض في الرّزق (**فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ**) وأعطوا الزّيادة في الرّزق (**بِرَآدِّي**) مافضل من (**رِزْقِهِمْ**) على الغير فلايردّونه (**عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**) من العبيد والخدم والعمال (**فَــ**) يكون الأمر بحيث (**هُمْ فِيهِ**) في ما أعطوا (**سَوَاء**) متساوون لاتفاضل بينهم. فاذا كان الأمر كذلك فلا تقبلون مساواة من دونكم معكم في الرّزق أو القوّة أو الجاه أو السّلطان، فكيف تقبلون أن يتساوى من هو من خلق الله تعالى ومن هو عبده يكون متساوياً لله، فيعبد كما يعبد الله ويدعى كما يدعى الله ويقدّس كما يقدّس الله تعالى، هل هذا إلّا جهل عظيم وضلال مبين؟ بلى ثمّ بلى(**أَفَــ**) بعد هذه الحجّة وظهور الحقّ (**بِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ**) فينسبون ما أنعم الله تعالى به عليهم إلى غيره (**وَاللّهُ جَعَلَ**) خلق (**لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ**) من نوعكم وجنسكم (**أَزْوَاجًا**) تجامعونهن (**وَجَعَلَ**) وخلق (**لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم**) بعد الإتّصال الجنسي (**بَنِينَ**) وبنات (**وَحَفَدَةً**) أولاد البنين أو البنات (**أَفَــ**) بعد هذه النّعم الّتي أنعم الله تعالى بها عليهم (**بِالْبَاطِلِ**) وهو الآلهة غير الله تعالى (**يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ**) بسبب هذا الإيمان الباطل والإيمان بالباطل، والإستفهام للإنكار والتّعجب، فالمعنى ما كان يليق بالانسان أن يصدر منه هذا، وإنّ هذا ممّا يتعجّب منه. ثمّ فسر الله تعالى كفرانهم بنعمة الله تعالى فقال جلّ وعلا: (**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا**) بأن يمطر لهم (**مِّنَ السَّمَاوَاتِ**) (**وَ**) لا من الأرض بأن ينبت لهم مايرتزقون منه من النّباتات والأشجار (**وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ**) شيئاً من دفع البلايا عنهم أو قضاء الحوائج لهم (**فَــ**) بعد أن ظهر لكم من هذه الأدلة بطلان الشّرك (**لاَ تَضْرِبُواْ**) اي لاتعتقدوا (**لِلّهِ الأَمْثَالَ**) فلا تجعلوا له مثلاً ولا نظيراً ولا شبيهاً ولا شريكاً (**إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ**) عاقبة هذا الشّرك منكم وشدّة ما تلقونه من العذاب على ذلك (**وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**) ذلك حيث لاتؤمنون به ولا تتفكّرون في الأدلّة لتعلموا ذلك، فاللّوم على عدم التفكّر والأخذ بأسباب العلم لا على عدم العلم، فإنّ التّفكر واجب في الدّين ومن لم يتفكّر يقع في الضّلال المبين.

= الأوهام حائرة... وصيّر العالم النّحرير زنديقا./ أنظر غرر الخصائص الواضحة ١/ ٧٠.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مثلاً يشبّه فيه المشركين في ضلالهم وعبادتهم لغير الله بمن يسوّي بين غنيّ قادر ينفق على النّاس سرّاً وجهراً وبين عاجز فقير لايستطيع أن يفيد نفسه شيئاً فضلاً عن أن يفيد غيره، فقال جلّ وعلا:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(ضَرَبَ) أي ذكر (**اللّهُ**) تعالى (**مَثَلاً**) على وجه المثال (**عَبْدًا مَّمْلُوكًا**) لغيره ذليلاً تحت يده وتصرفه (**لا يقدر على شيء**) لا يقدر أن ينفع أحداً لا نفسه ولا غيره (**وَمَن**) وآخر هو حرّ(**رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا**) وكثيراً (**فَهُوَ**) يتصرّف فيما رزقناه حيث (**يُنفِقُ مِنْهُ**) على نفسه وأهله وعلى المحتاجين (**سِرًّا وَجَهْرًا**) في السّر والعلانية (**هَلْ يَسْتَوُونَ**) أي هل يستويان هذا العبد المملوك العاجز وهذا الحرّ؟ والجواب كلّا، وإنّما قال: يستوون، بلفظ الجمع، لأنّ المراد جنس القادرين وجنس العاجزين (**الْحَمْدُ لِلّهِ**) أي الكمال المطلق لله تعالى، فهو كامل في كلّ صفاته، وقادر قدرة ثابتة على كلّ شيء، فكيف يساوى هذا القادر العظيم بهذه الآلهة الّتي لا تقدر شيئاً ويعبدونها معه، إنّ هذا لضلال مبين (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) أنّهم في هذا الضّلال حيث لا يفكرون ولا يتدبّرون ولا يحبّون الهدى فيسعوا له، فاللّوم على عدم التّفكر وعدم السّعي إلى الهداية لا على عدم العلم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مثالاً لقدرته الشّاملة وعجز الآلهة الباطلة عن كلّ شيء أراد أن يذكر مثالاً لعلمه الشّامل لكلّ شيء، وجهل تلك الآلهة بكلّ شيء، فقال جلّ وعلا:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾

(**وَضَرَبَ**) أي وذكر (**اللّهُ**) الله تعالى (**مَثَلاً**) على وجه مثال (**رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ**)

أي أبكم جاهل وعاجز عن الكلام (**لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ**) من الأشياء (**وَهُوَ كَلٌّ**) مجرد ثقل (**عَلَى مَوْلاهُ**) على سيّده أو من هو وليه كالوالد مثلاً (**أَيْنَمَا يُوَجِّههُ**) ويرسله (**لا يَأْتِ بِخَيْرٍ**) أي بما ينفع (**هَلْ يَسْتَوِي هُوَ**) أي هذا الجاهل العاجز (**وَمَن**) أي مع من هو عالم (**يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ**) أي منهج (**مُسْتَقِيمٍ**) لاعوج فيه.

فحاصل المثل الأوّل: أنّ الله تعالى قادر ثابت قدرته على كلّ شيء، وتلك الآلهة عاجزة لا تقدر على أي شيء فكيف يساوي بينهما ويعبدون هذه الآلهة الباطلة مع الله القدير العزيز.

وحاصل المثل الثّاني: أنّ الله تعالى عالم بكلّ شيء وغيره من الآلهة جاهل بكلّ شيء، فكيف يساوي بينهما، فيعبدون هذه الجهلة المضلّين، إنّ هذا لضلال مبين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سعة علمه ووفرة قدرته فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

(**وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**) كلّه فكلّ ماغاب عن الانسان ولم يعلمه فهو لله وملكه، وهو عالم به سواء كان في السّماوات أو في الأرض وأنّ علمه بكلّ شيء ومالكيّته لكلّ شيء بلغت بحيث (**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ**) أي شأنها وإيجادها بالنّسبة الى قدرة الله تعالى (**كَلَمْحِ**) أي كتقليب (**الْبَصَرِ**) البصر في السّهولة (**أَوْ هُوَ**) أي بل أمر السّاعة (**أَقْرَبُ**) وأسهل من لمح البصر، فمن كان تبديل هذا النّظام والكون بكون ونظام آخر أسهل عنده من لمح البصر منّا فهو على كلّ شيء قدير، ولذا قال: (**إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) قدرة شاملة وثابتة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى علمه وقدرته المتعلّقين بما في السّماوات والأرض أراد أن يذكر علمه وقدرته المتعلّقين بذات الإنسان فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ**) جهلاء (**لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**) من الأشياء ثمّ علّمكم

الله تعالى (**وَجَعَلَ**) وخلق (**لَكُمُ السَّمْعَ**) لتعلموا ما يقال (**وَالأَبْصَارَ**) لتعلموا مايرى (**وَالأَفْئِدَةَ**) لتفكّروا بها في المعلومات فتصلوا إلى المجهولات، وخلق لكم هذه الأشياء (**لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) أي لكي تشكروا الله على هذه النّعم فتسمعوا بالأذن الحقّ وتروا بالأبصار الحقّ وتصلوا بتفكير القلوب إلى الحقّ ولا تنحرفوا عن منهج هذا الخالق المنعم عليكم ولاتنحرفوا عن شريعته.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى إحاطة قدرته وعلمه بما في السّماوات والأرض وبما في ذات الانسان، أراد أن يذكر علمه وقدرته في مابين السّماوات والأرض؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

(**أَلَمْ يَرَوْاْ**) أي أولم ينظروا (**إِلَى الطَّيْرِ**) بجميع أنواعها حال كونها (**مُسَخَّرَاتٍ**) موجودات (**فِي جَوِّ السَّمَاء**) أي في الفضاء العالي المتباعد عن الأرض تبسط أجنحتها وتنشرها (**مَا يُمْسِكُهُنَّ**) أي مايوقفهن في السّماء ويحفظهن من السّقوط على الأرض (**إِلَّا اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الخلق (**لآيَاتٍ**) على سعة علم الله تعالى وقدرته (**لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**).

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سعة علمه وقدرته المتعلّقين بما في الأرض والّتي هي كلّها نعمٌ أنعم الله تعالى بها على النّاس؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

(**وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سكناً**) متعلّق بما بعده، فالتّقدير جعل الله لكم سكناً من بيوتكم الّتي ألهمكم بناءها فتسكنون فيها (**وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا**) كالخيم تبيتون تحتها و(**تَسْتَخِفُّونَهَا**) أي وهي خفيفة تنقلونها من مكان إلى مكان (**يَوْمَ ظَعْنِكُمْ**) أي رحيلكم من مكان الى مكان وتنصبونها (**وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ**) في مكان (**وَمِنْ أَصْوَافِهَا**) وهي ماعلى ظهر الضّأن (**وَأَوْبَارِهَا**) وهي ما على ظهر الإبل (**وَأَشْعَارِهَا**) وهي ما على ظهر المعز، جعل الله لكم من هذه الأشياء (**أَثَاثًا**) ماتؤثّثون به البيت من الفرش والبسط (**وَمَتَاعًا**) أي ماتتمتّعون به من اللّباس والزّينة (**إِلَى حِينٍ**) من الزّمان، فإنّ اللّباس إنّما يبقى زماناً ثمّ يبلى، وكذلك الفرش والبسط، أو أشار تعالى إلى أنّ الأثاث واللّباس يتّخذ من هذه الأشياء إلى حين، ثمّ يظهر الله تعالى أشياء أخرى تتّخذ منه الأثاث واللّباس كالمواد النّفطية والإسفنج والبلاستيك وغيرها الّتي أظهرها تعالى في هذا الزّمان، فيتّخذ منها الأثاث واللّباس، وهذه الإشارة العلميّة معجزة من معجزات القرآن الكريم (**وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا**) أي من بعض ما (**خَلَقَ ظِلاَلاً**) تستظلون بها من الحرّ، فإنّ بعض الأشياء لاظلّ لها كالزّجاج مثلاً (**وجعلَ**) الله تعالى (**لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا**) جمع كن وهو ما يتستر الإنسان فيه من المطر وغيره، وذلك كالكهوف والمغارات (**وَجَعَلَ**) الله (**لَكُمْ سَرَابِيلَ**) ملابس (**تَقِيكُمُ الْحَرَّ**) في الصّيف والبرد في الشّتاء (**وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ**) أي تحفظكم من تأثيرات أدوات الحرب، وتلك السّرابيل مثل الدّروع وكلّ مايلبس لدفع مضار الحرب كالكمّامات مثلاً (**كَذَلِكَ**) مثل ماترى من خلق هذه النّعم (**يُتِمُّ**) الله تعالى (**نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ**) ويخلق لكم على استمرار الزّمان ماتحتاجون إليه حسب تطلّب الزّمان وتغيّره فيلهمكم صنع مايلائم الزّمان والمكان من الحوائج للحرب والسّلم (**لَعَلَّكُمْ**) أي ينعم الله تعالى نعمه هذه لكي (**تُسْلِمُونَ**) أي تنقادوا لأمره فتمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه (**فإن**) أي بلغت أيّها النّبي وأيّها المسلم الكافرين بهذه المواعظ والأدلّة فلم يقبلوا منك و(**تَوَلَّوْاْ**) ولم يسلموا بعد كلّ هذه الأمور فلا تحزن (**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ**) الواضح وقد قمت به وليس عليك هداية النّاس وإيصالهم إلى الحقّ. (**يَعْرِفُونَ**) هؤلاء الكافرون (**نِعْمَتَ اللّهِ**) كلّها ويعترفون بها (**ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**) بالكفر والإشراك ونسبة النّعم إلى غير الله تعالى (**وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**) حيث ينسبون النّعم إلى الطّبيعة أو التّطور أو الأشخاص أو الأصنام أو غير ذلك، ولا يشعرون أنّ التّطور والطّبيعة ومن يخترع بعض هذه النّعم كلّها من خلق الله تعالى وتقديره وإلهامه وتدبيره، كما قال تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ سورة الصافات الآية/ ٩٦.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الكافرين الّذين كفروا وأصرّوا على ماهم عليه من الضّلال رغم ذكر هذه الأدلّة والبراهين؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾

(**وَيَوْمَ نَبْعَثُ**) أي نرسل إلى عرصات الحشر والحساب (**مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً**) يشهد لهم وعليهم، وذلك الشّهيد هو رسولهم الّذي أرسل إليهم وورثته من العلماء (**ثُمَّ**) بعد أن شهد الشّهيد بالكفر على الكافرين (**لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ**) أن يذهبوا بل يساقون إلى النّار (**وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**) أي لا يقبل منهم الأعذار (**وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ**) أي كفروا وعصوا (**الْعَذَابَ**) الّذي أعدّ لهم فدخلوه (**فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ**) العذاب شيئاً (**وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ**) ولا يمهلون (**وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ**) في النّار (**قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلَاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ**) هم (**مِن دُونِكَ**) فنعبدهم وننحرف عن أمرك لأمرهم (**فَأَلْقَوْا**) أي فأجاب الشّركاء (**أَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ**) الجواب فقالوا: (**إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ**) في زعمكم إنّا كنّا آلهة أو شركاء لله تعالى، أو إنّا نقدر على دفع المضار ورفعها عنهم وجلب المنافع وقضاء الحوائج للنّاس (**وَأَلْقَوْاْ**) أي الأتباع والمتبوعون من دعاة الباطل (**إِلَى الله يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ**) الانقياد للّهِ تعالى (**وَضَلَّ عَنْهُم**) ضاع وبطل كلّ (**مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**) في الدّنيا ممّا كانوا يعتقدون فيه أنّه ينفعهم وينجيهم من عذاب الله تعالى (**الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ**) النّاس (**عَن**) الدّخول في (**سَبِيلِ اللّهِ**) دينه وشريعته وهم دعاة الباطل وكلّ مبدأ يخالف الاسلام (**زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ**) المعدّ للكافرين، أي يعذّبون ضعف الكافر عذاباً لأجل الكفر والضّلال، وعذاباً لأجل إضلالهم النّاس كما قال تعالى: (**بِمَا**) أي يزاد عذابهم بما (**كَانُواْ**) ما مصدرية فالمعنى بسبب كونهم (**يُفْسِدُونَ**) النّاس فيضلّونهم عن الحقّ ويجرّونهم إلى الباطل.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أحوال الأمم أراد أن يذكر حال أمّة محمّد وأنّ حالهم مثل حال الأمم فيما ذكر وتلا آنفاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)﴾

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ) أي من بني جلدتهم وهو رسولهم وصار حال الكافرين كما ذكر آنفا **(وَجِئْنَا بِكَ)** يا محمّد **(شَهِيدًا عَلَى هَـؤُلاء)** وهم أمته فيكون حالهم كحال السّابقين، فالّذين كفروا لا يؤذن لهم ولا يقبل منهم معذرة وهم في النّار لا يمهلون، ويتبرّأ الشّركاء من عبادتهم ويزاد للمضلّين عذاب فوق عذاب الضّالين، إلى غير ذلك ممّا ذكر آنفا في الآية السّابقة، ويذكر الله تعالى سبب عدم قبول المعذرة من الكافرين وعذابهم هذا؛ فقال جلّ وعلا: **(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ)** أي القرآن **(تِبْيَانًا)** ذكر بلفظ المصدر، والمراد به إسم الفاعل للمبالغة، مثل رجل عدل أي عادل، فالمعنى مبيناً **(لِّكُلِّ شَيْءٍ)** من العقائد الصّحيحة والأحكام الإلهيّة وبُلغوا بهذا القرآن فلم يؤمنوا ولذلك لم يبق لهم معذرة واستحقّوا العذاب **(وَهُدًى)** أي هادياً إلى الحقّ من العقائد والأحكام **(وَرَحْمَةً)** لكلّ النّاس، لأنّ ما فيه من عمل به فإنّه يسعد في الدّنيا والآخرة **(وَبُشْرَى)** وبشارة **(لِلْمُسْلِمِينَ)** به والعاملين به بالجنّة وبدخول الكافرين به في النّار. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الأسس الّتي يدعو اليها القرآن؛ فقال جلّ وعلا: **(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ)** في كلّ شيء، العدل في العقيدة وفي العمل وفي القول وأداء كلّ ما فرضهُ الله تعالى، فيدخل فيه جميع ما أوجب الله تعالى من حقوق الله وحقوق العباد **(وَالإِحْسَانِ)** إلى الغير حسب القدرة والاستطاعة **(وَإِيتَاء)** أي وإعطاء **(ذِي الْقُرْبَى)** أصحاب القرابات حقوقهم كلّها كحصّة وارثيهم والإنفاق على من وجب إنفاقه عليك ومواساتهم عند الحاجة **(وَيَنْهَى)** الله تعالى **(عَنِ الْفَحْشَاء)** وهو كلّ ما كان قبيحاً حسب شريعة الله تعالى **(وَالْمُنكَرِ)** وينهى الله تعالى عن المنكر وهو ما أنكره الشّرع في الدّين **(وَالْبَغْيِ)** وهو التّعدي على النّاس وترك الأداء لحقوقهم والإهمال في حقوق الله تعالى، وباعتبار التّقابل يكون البغي ترك العدل، والمنكر ضدّ الإحسان وتركه، والفحشاء هو

البخل وعدم المواساة لأهل القرابة وحرمانهم من العطاء أو هضم حقوقهم (**يَعِظُكُمْ**) الله تعالى الإلتزام بما أمر به (**لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) أي ويجب عليكم التّذكر والعمل حسب موعظة الله تعالى وتذكيره هذا.

وإنّ ممّا أمر الله تعالى به هو الوفاء بالعهد والأيمان، وقد ذكر هذا بخصوصه ومفصّلاً فيه لأهميّته وشدّة مساس حاجة النّاس إلى ذلك في حياتهم الاجتماعية والسّياسيّة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

(**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ**) أي بكلّ عهد، وأضيف إلى الله لأنّ كلّ عهد هو عهد الله تعالى من حيث محاسبته على عدم الوفاء به، والمراد كلّ التزام من النّذر والوعد والعهد واليمين؛ ولذا قال تعالى (**وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ**) بالحنث وعدم العمل وفقها (**بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**) أي انعقادها والعزم عليها، فأخرج بذلك لغو اليمين الّتي لاقصد فيها، فإنّها لاتنعقد ولايلزم برّها (**وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً**) رقيباً وشاهداً على العهود والأيمان (**إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**) من نقض العهود والأيمان أو الوفاء بها وبرّها فيثيبكم على فعل ماهو واجب ويعاقبكم على فعل مانهى عنه.

تنبيه: هذا كلّه في العهود والوعود والنّذور والأيمان والإلتزامات ممّاهو غير محرّم وغير معصية، وإلّا فلا يجوز الوفاء بها ولا العمل وفقها؛ لقول الرّسول (ﷺ): (من حلف يميناً ثمّ رأي غيره خيراً منه فليأت الّذي هو خير وليكفّر عن يمينه)[١] وقال

---

(١) مسند الربيع ٢٥٧/١ الحديث رقم ٦٥٦.

أيضاً: (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه)[١]. إلى غير ذلك من الأحاديث الّتي تحرّم الوفاء بالعهد أو الوعد أو اليمين أو النّذر الحرام.

❊ ❊ ❊

ثمّ إنّها كانت إمرأة من قريش يقال لها ربطة بنت عمرو، وكانت خرقاء حمقاء عندها وسوسة، وكانت اتّخذت مغزلاً فتغزل الغزل من الصّوف أو الشّعر أو الوبر وتعمل جواريها الغزل لها إلى نصف النّهار، فاذا انتصف النّهار أمرت الجواري بنقض غزلها وغزلهّن وسوسة منها أنّ هذا الغزل غير جيد، وأنّ ما تفعل بعد أحسن منه، فقال تعالى: (**وَلَا تَكُونُواْ**) أيّها النّاس في العهود (**كَالَّتِي**) كالمرأة الّتي (**نَقَضَتْ غزلها من بعد قوّة**) نقضت غزلها من بعد قوّة (**أنكاثاً**) أي أجزاء متفرّقة، فلا تكونوا مثلها تنقضون عهودكم وأيمانكم بعد توكيدها، فإنّ ذلك حماقة وخرق في العقل أو في الدّين. ثمّ علّل الله تعالى نقض النّاس العهود بعد توكيدها، فقال جلّ وعلا: (**تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ**) وعهودكم ووعودكم (**دَخَلاً**) أي سبب دخل وربح (**بَيْنَكُمْ**) حيث تخدعون بها النّاس، وذلك (**أَن تَكُونَ أُمَّةٌ**) غير معاهدة معكم وأخرى معاهدة فتنقضون عهدكم مع المعاهدة وتعاهدون مع غير المعاهدة حيث (**هِيَ**) أي غير المعاهدة (**أَرْبَى**) أقوى (**مِنْ أُمَّةٍ**) وهي المعاهدة، فلا تفعلوا ذلك لأنّه لاعبرة بالقوّة والكثرة في النّصر والغلبة، وأنّ الله إذ يجعل أمّة أربى من أمّة (**إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ**) أي بهذا التّبديل ليختبركم هل تغرّكم قوّة هذه الأمّة فتنقضون العهد مع الضّعيفة وتعقدون مع القويّة أم لا (**وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ**) نتيجة هذه المعاملة الدّنيئة (**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) بعقابكم عليه ويبيّن كلّ (**مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**) بثواب المحقّ وعذاب المبطل، فهذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

ثمّ بعد هذه المناقشات الطّويلة والكثيرة وهذه الإنذارات الشّديدة لربّما يقول قائل: مالحاجة إلى هذا؟ فليهد الله تعالى الخلق جميعاً وليجعلهم أمّة صالحة كلّها فقال تعالى: (**وَلَوْ شَاء اللّهُ**) أن يجعلكم أمّة واحدة جبراً وقهراً (**لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**) مسلمة (**وَلكِن**) لم يجعل الله من عادته الجبر على الخير ولا على الشّر لأحد، بل خلق الله تعالى الإنسان ووهبه عقلاً يفكّر به ويدرك به الحقّ من الباطل، ونصب له أدلّة واضحة لو تفكّر فيها لاهتدى إلى الحقّ، وعلاوة على ذلك أرسل رسلاً ينبّهونهم على الحقّ

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٤٦٣ الحديث رقم ٦٣١٨.

والخير وعلى الاستدلال بتلك الأدلّة وينذرونهم بالعذاب على الباطل والثّواب على الحقّ، وبعد ذلك جعل الاختيار في أيديهم، فمن أراد الضّلال وركن اليه أبقاه الله تعالى على الضّلال، ومن أحبّ الحقّ وسعى له وتفكّر في الأدلّة، خلق له الهداية كما قال جلّ وعلا: (**يُضِلُّ مَن يَشَاء**) وهو من ركن إلى الضّلالة وما أحبّ الهدى ولم يسع له (**وَيَهْدِي مَن يَشَاء**) وهو الّذي أحبّ الهداية وسعى لها سعياً، ثمّ بعد ذلك (**وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) من الأعمال في الدّنيا، فمن اختار منكم الهداية وسلك سبلها وعمل بمقتضاها أثيب على ذلك الثّواب الجزيل، ومن اختار الضّلالة وركن إليها ولم يحبّ الهداية فترك السّعي لها عوقب على ذلك بالعذاب الوبيل، وحكمة جعل الاختيار بيد العبد هو أنّه إن لم يكن هناك اختيار للعبد وكان الهدى جبراً لما بقي الفضل لأحد على أحد، ولا استحقّ العبد الثّواب ولا العقاب والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يعيد الكلام على الإيمان والعهود لشدّة الاهتمام بها؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

(**وَلَا تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً**) وسيلة لجلب المصلحة (**بَيْنَكُمْ**) فتخدعوا بها النّاس (**فَـ**) يكون ذلك سبباً لأن (**تَزِلَّ قَدَمٌ**) أي تزول منكم (**بَعْدَ ثُبُوتِهَا**) وذلك بأن يغضب الله تعالى عليكم فيسلب النّعم الّتي أنعم بها عليكم (**وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ**) أي العذاب في الدّنيا (**بِمَا صَدَدتُّمْ**) أي منعتم أنفسكم (**عَن**) اتّباع (**سَبِيلِ اللّهِ**) تعالى بإعراضكم عن مقتضى العهود والإيمان من الوفاء بالعهد وبرّ اليمين (**وَلَكُمْ**) بعد عذاب الدّنيا (**عَذَابٌ عَظِيمٌ**) على ذلك (**وَلَا تَشْتَرُواْ**) أي ولا تأخذوا (**بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً**) وذلك بأن تنقضوه لمصلحة دنيوية أو منفعة، وإنّ المنافع الدنيويّة وإن كانت كثيرة فإنّها قليلة بالنّسبة لمنافع الآخرة لأنّ الدّنيا ومنافعها زائلة، ومافي الآخرة باق كما قال تعالى: (**مَا عِندَكُمْ**) أي كلّ ماعندكم (**يَنفَدُ**) أي يفنى ويزول (**وَمَا عِندَ اللّهِ**) من الثّواب والنّعم (**بَاقٍ**) لايزول

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ) على عهودهم وأيمانهم ومواثيقهم **(أَجْرَهُم)** ثوابهم **(بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)** بثواب الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ويزيد الله لمن يشاء.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه يجزي جزاءً كثيراً على الموفين بالعهد والبارّين يمينهم، أراد أن يذكر أنّه يجزى على كلّ عمل صالح يعمله الإنسان؛ فقال جلّ وعلا:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

(**مَنْ عَمِلَ**) عملاً (**صَالِحًا**) وهو ما يعتبره الشّرع صالحاً سواء كان العامل (**مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى**) لا فرق بينهما،(**فَلَنُحْيِيَنَّهُ**) في الدّنيا (**حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ**) في الآخرة (**بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**) الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة (**وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**) لمن شاء الله المضاعفة له في الأجر والثواب.

سؤال: إنّ كثيراً من الصّالحين هم فقراء معوزّين فكيف قال تعالى: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)؟

الجواب: قال في تفسير الخازن: واعلم أنّ عيش المؤمن في الدّنيا وإن كان فقيراً أطيب من عيش الكافر وان كان غنياً، لأنّ المؤمن لمّا علم أنّ رزقه من عند الله وذلك بتقديره وعرف أنّه محسن كريم متفضّل لا يفعل إلّا الصّواب، يكون راضياً عن الله وراضياً بما قدّره الله تعالى له ورزقه وعرف أنّ له مصلحة في ماقدّر له، فاستراحت نفسه من الكدّ والتّعب والحرص فطاب عيشه. وأمّا الكافر أو الجاهل بهذه الأصول لحريص على طلب الرّزق، فيكون أبداً في حزن وتعب وحرص، فظهر أنّ عيش المؤمن القنوع وإن قلّ أطيب من عيش الكافر الطموع وإن كثر[1].

---

(١) اختلف المفسّرون في هل أنّ الوعد بالحياة الطّيبة في الدّنيا أو الآخرة؟ منهم من قال في الدّنيا ومنهم من قال في الآخرة ومنهم من قال في كليهما. فإذا كان الأوّل فطيب الحياة ليس بالغنى بل براحة البال واطمئنان النّفس وانعدام المشاكل في النّفس والعرض والعقل وغيرها، والفقر ليس مشكلة إذا كان عنده الكفاف قال النّبيّ (ﷺ): من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدّنيا. وإن كان الثّاني كان ما بعده (ولنجزينّهم أجرهم..الخ) تأكيداً لها، وإن كان الثّالث كان جمعاً بين نعيمي الدّنيا والآخرة كلّ بحسبه وشتّان بينهما...!

أقول: وإنّ المسلم الصّحيح لاتصيبه فاقة حيث قال رسول الله (ﷺ): إنّ الله لايظلم مؤمناً حسنة يعطي بها في الدّنيا ويجزي بها في الآخرة، وأمّا الكافر فيطعم بحسناته في الدّنيا حتّى اذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يجزي بها[1] ؛ وذلك مصداقاً قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة النور الآية/ ٣٩.

❊ ❊ ❊

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما هو أحبّ الى الله تعالى من الأعمال الصّالحة ويبيّن كيفيّة القيام به فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(**فَإِذَا قَرَأْتَ**) أي فإذا أردت أن تقرأ (**الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**) من أن يوسوس إليك في قراءتك أو يشوّشها، فالإستعاذة قبل القراءة مشروعة، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في تفسير سورة الفاتحة والحمد لله، فإذا استعذت بالله من الشّيطان فإنّه لا يقدر على أن يمسّك حيث (**إِنَّهُ**) الشّيطان (**لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ**) قدرة (**عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ**) بقدرة الله تعالى وذلّ الشّيطان تحت قدرته (**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**) في أن يعيذهم من الشّيطان ووساوسه ودسائسه (**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ**) وتأثيره (**عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**) يتّبعونه ويسلّمون إليه قيادتهم (**وَالَّذِينَ هُم بِهِ**) أي بالله (**مُشْرِكُونَ**) أو المعنى (**بِهِ**) أي بتوليهم الشّيطان واتّباعهم له مشركون، فإنّ كلّ من أطاع أحداً في أمر يخالف أمر الله تعالى فقد أشركه بالله وعبده، وهذا المعنى عندي أولى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ للشّيطان سلطاناً على المشركين أراد أن يذكر بعض توجيهات الشّيطان للمشركين حسب سيطرته عليهم؛ فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٦٢ الحديث رقم ٢٨٠٨.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾

(**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً**) أي حكماً فجئنا به (**مَكَانَ آيَةٍ**) مكان حكم آخر حسب الحكمة أو التّدريج التّربوي (**وَاللَّهُ أَعْلَمُ**) من كلّ أحد (**بِمَا يُنَزِّلُ**) وبمنافع ومصالح تتعلّق بالمنزل فلا ينزل إلّا ما فيه مصلحة (**قَالُواْ**) أي المشركون لك أيّها النّبيّ (**إِنَّمَا أَنتَ**) مفتر إفتريت على الله تعالى، وقولهم هذا باطل (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) أي لا يؤمنون بكلّ ما نزل وإن لم يكن فيه تبديل لحكم بحكم، أو لا يعلمون الحكمة من التّبديل، والمراد من تبديل حكم بآخر هو: نسخ الله تعالى لبعض الأحكام الواردة في الإسلام، عند من يثبت النّسخ، وأمّا من لا يثبته يقول: إنّ المراد به تبديل حكم من أحكام الجاهليّة بحكم إسلاميّ صحيح (**قُلْ**) لهم أيّها النّبيّ ليس هذا التّبديل افتراءً منّي بل (**نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ**) وهو جبريل عليه السّلام (**مِن رَّبِّكَ**) أيّها القائل لي: إنّما أنت مفترٍ (**لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ**) اللّام لام عاقبة؛ فالمعنى أنزله روح القدس من ربّك، وعاقبته أنّه يثبّت أي يظهر ثبات المؤمنين الصّادقين على الإيمان، فإنّهم يقولون حينما يبدّل حكم بآخر إنّه من حكيم عليم، فما بدله إلّا لحكمة هو يعلمها (**وَهُدًى**) وإنّ هذا التّبديل يكون هدى وارشاداً الى ماهو أصلح ممّا بدّل (**وَبُشْرَى**) وبشارة (**لِلْمُسْلِمِينَ**) لأنّه إن كان التّبديل إلى أثقل، فيكون بشارة بزيادة الأجر، وإن كان أخف فبشارة بالتّخفيف عنهم، ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر قولاً آخر وجّههم الشّيطان الى القول والاعتقاد به؛ فقال جلّ وعلا: (**وَلَقَدْ نَعْلَمُ**) جداً ونسمع (**أَنَّهُمْ**) أي الكافرون بك (**يَقُولُونَ**) فيك وفي القرآن (**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ**) أي يعلم محمّداً القرآن (**بَشَرٌ**) وليس هذا من الله تعالى، فردّ الله تعالى عليهم؛ فقال جلّ وعلا: (**لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ**) أي ينسبون ويشيرون (**إِلَيْهِ**) أنّه علّم الرّسول (**أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ** مُّبِينٌ) أي واضح العربيّة، فكيف يعلّم العجميّ العربيّ ما هو عربيّ أفصح من كلّ كلام عربيّ وأبلغ منه، فهذا يدلّ على أنّهم كاذبون في قولهم هذا.

ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) كان حريصاً كلّ الحرص على هداية النّاس ويسبّب ذلك تعباً في قلبه؛ فأراد تعالى أن يقلّل من حرصه ويخفّف من تعبه؛ فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**) لايختارون الإيمان ولايريدونه وصمّموا على الكفر (**بِآيَاتِ اللّهِ**) أي معجزاته ودلائله الدّالة على وحدته وعلى صدق رسالتك أيّها النّبيّ (**لَا يَهْدِيهِمُ اللّهُ**) جبراً الى الإيمان (**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) يوم القيامة، ثمّ نزّه الله تعالى نبيّه عن أن يفتري على الله الكذب؛ فقال جل وعلا: (**إِنَّمَا يَفْتَرِي**) أي إنّما يرتكب جريمة الافتراء سواء كان على الله أو على غيره (**الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ**) وهم المشركون، فإنّهم يفترون بنسبة الشّرك الى الله تعالى ونسبة الافتراء الى الرّسول (ﷺ) وأمّا المؤمن فبعيد كلّ البعد عن الافتراء، فكيف بالرّسول وهو أكبر من كلّ مؤمن في الأرض من الأزل إلى الأبد.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المرتدّين، وقد وقعت حادثة عظيمة وهي: أنّ المشركين أخذوا عمّار بن ياسر وأباه وأمّه سميّة وصهيباً وبلالاً وخبّاباً وسالماً فعذّبوهم. فأمّا سميّة فربطوها بين بعيرين ووجئوا قُبُلها بحربة فقتلوها، وقتلوا زوجها ياسراً وهما أوّل قتيلين وشهيدين في الإسلام، وأمّا عمّاراً فطلبوا منه أن يكفر، فكفر بلسانه مكرهاً، فسأله رسول الله (ﷺ): كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالايمان، فقال رسول الله (ﷺ): فإن عادوا فعد، وقال (ﷺ): إنّ عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه[١] فنزلت هذه الآيات فقال جلّ وعلا:

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ

(١) كنز العمال ١١/٣٣١ الحديث رقم ٣٣٥٤١.

لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

(**مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ**) خبره يأتي بعد وهو قوله: (**فعليهم غضب من الله** ... الخ) فكلّ من كفر بالله من بعد الإيمان وارتدّ عن الإسلام فعليه غضب من الله (**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ**) على الكفر فكفر ظاهراً فقط (**وَقَلْبُهُ**) باطناً (**مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**) كاره للكفر كعمّار بن ياسر (رحمه الله تعالى) فهؤلاء لا إثم لهم ولا عقاب عليهم (**وَلَـكِن مَّن**) كفر ظاهراً وباطناً بعد الايمان و(**شَرَحَ**) واطمأن (**بِالْكُفْرِ صَدْرًا**) أي قلباً ورضي به قلبه (**فَعَلَيْهِمْ**) أي فعلى أولئك (**غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ**) تعالى، والغضب: هو ثوران في الدّم من الغاضب يحمل الغاضب على الانتقام من المغضوب عليه، وحيث إنّ هذا المعنى لا يوصف به الله تعالى فيراد به لازم المعنى وهو الانتقام، وهكذا فكلّ صفة لا تليق بالله تحمل على غير معناها الحقيقيّ. فالمعنى هنا ينتقم الله تعالى منهم انتقاماً مثل انتقام الغاضب غضباً شديداً من المغضوب عليه (**وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**) عظماً لا يدري كنهه إلّا من لاقاه، حفظنا الله تعالى منه (**ذَلِكَ**) أي ذلك الغضب والعذاب أعدّ لهم (**بِأَنَّهُمُ**) أي بسبب أنّهم (**اسْتَحَبُّواْ**) أي اختاروا (**الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا**) فكفروا لأجلها ولمنافعها ومصالحها فاختاروها (**عَلَى**) الحياة (**الآخِرَةِ**) وهي حياة القيامة في الجنّة (**وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي**) أي لايثبت (**الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**) على الإيمان جبراً، فمن اختار الكفر على الإيمان من المؤمنين وكّله الله اليه وما جبره على الثّبوت على الايمان، فلا جبر لله تعالى للعبد على الإيمان لا إبتداء ولا دواماً، بل كلّ ذلك موكول الى اختيار العبد وإرادته (**أُولَـئِكَ**) الّذين يكفرون من بعد الإيمان هم (**الَّذِينَ طَبَعَ**) أي ختم (**اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**) فلا يثبت فيها الإيمان (**وَ**) على (**سَمْعِهِمْ**) فلايسمعون الحقّ سماع اتّباع (**وَ**) على (**أَبْصَارِهِمْ**) فلا يرون الحقّ رؤية الاتّباع (**وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**) عن الحقّ لحبّهم الدّنيا والشّهوات (**لاَ جَرَمَ**) أي لاشكّ (**أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ**) الّذين خسروا الجنّة الّتي أعدّت لهم بسبب إيمانهم خسروها بالكفر بعد الإيمان.

ثمّ بعد هذه الحادثة وكثرة ايذاء المشركين لضعفاء المسلمين أذن رسول الله (ﷺ) للمؤمنين أن يهاجروا فراراً بدينهم وتخلّصاً من الفتنة، وأمرهم بالهجرة الى الحبشة؛ فنزل قوله جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

(**ثُمَّ**) بعد هذه الفتنة (**إِنَّ رَبَّكَ**) يا محمّد (**لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ**) وخرجوا من بلادهم وأوطانهم وتركوا الأحبّة والأموال (**مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ**) ما مصدريّة، فالمعنى: من بعد فتنة الكفّار إيّاهم أي إيذاءهم على الإيمان، وسميّ ذلك فتنة، والفتنة بمعنى الاختبار والإمتحان، لأنّه يختبر المؤمن ويعلم صدق إيمانه بالصّبر على الايذاء وعدم الرّجوع الى الكفر وعدم صبره والارتداد نتيجة التّعذيب والايذاء، فالّذين هاجروا من بعد الفتنة (**ثُمَّ جَاهَدُواْ**) فصبروا على الإيمان واستمرّوا في الدّعوة إلى الحقّ أينما كانوا (**وَصَبَرُواْ**) فلم يزحزحهم كلّ الظّروف والحالات عن الثّبات على العقيدة والإسلام (**إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا**) أي بعد الفتنة أو الهجرة أو كليهما (**لَغَفُورٌ**) لهؤلاء (**رَّحِيمٌ**) بهم رحمة واسعة. ثمّ بيّن الله تعالى زمن مغفرته لهم؛ فقال جلّ وعلا: (**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ**) تدافع (**عَن نَّفْسِهَا**) عمّا عملت (**وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ**) جزاء (**مَّا عَمِلَتْ**) إن خيراً فبخير وإن شرّاً فبشر (**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**) فلا ينقص من المطيع شيء من عمله الصّالح ولا يضاف إلى العاصي شيء ممّا لم يعمل من السّيئات.

ثمّ بعد أن وعد الله المؤمنين الصّابرين أن يجزيهم في الدُّنيا والآخرة، وأنذر الكافرين بالعذاب فيهم، أراد تعالى أن ينبّه النّاس على ما لاقاه أهل بلدة، نتيجة لكفرهم وتكذيبهم للرّسل وابتعادهم عن شريعة الله تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾

(**وَضَرَبَ**) أي وذكر (**اللّهُ مَثَلاً**) على سبيل المثال ومشابهة حال الأمّة الموجودة بأمّة

سبقت وأهلكت لتعتبر بهم الأمّة الموجودة، فلا يقع فيما وقعوا فيها من الخطايا لكي لا يلاقوا ما لاقاهم من الهلاك، فذكر تعالى على سبيل المثال: **(قَرْيَةً)** قيل: المراد بها بلدة معيّنة كان أهل مكّة يعرفونها، وقيل: المراد بها بلدة مكّة، والقول الثّاني ساقط غير مقبول لأنّ المثال جاء لأهل مكّة فلا يراد بالمثال مكّة، والأوّل ضعيف؛ لأنّ المثال جاء لكلّ جيل وكلّ زمان، فالمراد به الجنس، فيشمل كلّ بلدة عرفت في التّأريخ أنّها أهلكت نتيجة لتكذيبهم الرّسول الّذي جاء إليهم كبلاد ثمود ولوط وشعيب وعاد وغيرهم ممّن أهلكوا نتيجة الكفر والمعاصي، فهذه البلاد كلّها **(كَانَتْ آمِنَةً)** من آفات السّماء والأرض **(مُّطْمَئِنَّةً)** مستقرّاً أهلها فيها لايخافون شيئاً **(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ)** من البلاد الأخرى ومن بساتينها ومزارعها **(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ)** حيث أشركوا به وانحرفوا عن شريعته **(فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)** أي أطعم أهلها الجوع وألبسها الخوف **(بِمَا كَانُواْ)** أي بسبب الأمور الّتي كانوا **(يَصْنَعُونَ)** يعملونها من الكفر والفسق والمعاصي والآثام، ولم يعذّبهم الله تعالى إلّا بعد تبليغهم وإنذارهم كما قال تعالى: **(وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ)** فنصحهم ووعظهم وبلّغ إليهم شريعة الله، ووعدهم على الايمان بالخير في الدّارين وعلى الكفر بالعذاب في الحياتين **(فَكَذَّبُوهُ)** ولم يؤمنوا به وبقوا على كفرهم وفسادهم **(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)** أنفسهم لأنّهم هم الّذين عملوا ما يورث هذا العذاب واستمروا عليها رغم وعيد الرّسول وإنذارهم وبيان الخير والشّر لهم، فلتعتبر كلّ أمّة بهذه القرية أو هذه القرى، فلا ينحرفوا عن دين الله ليسلموا ويعصموا أنفسهم من عذاب الدّنيا والآخرة، أو المراد بالقرية قرية غير معلومة ابتليت بهذا البلاء وذكرت للعبرة والإتّعاظ. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه القرية مثالاً خاطب النّاس فقال جلّ وعلا: **(فَكُلُواْ)** أنتم في قريتكم الّتي هي آمنة مطمئنّة **(مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ)** تعالى من الثّمار والأطعمة وغير ذلك ممّا أنعم الله تعالى عليكم بشرط أن يكون **(حَلالاً)** في شرع الله **(طَيِّبًا)** في دينه **(وَاشْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ)** هذه الّتي أنعم بها عليكم بالتّوحيد والعمل بشريعته **(إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)** أي تعرفون الله تعالى وذلك لكي لاتبتلوا بما ابتلى به أهل تلك القرية من الهلاك والعذاب والتّدمير، قال رسول الله (ﷺ): (أيّكم مال وارثه أحبّ إليه من ماله؟ قالوا: يارسول الله مامنّا أحد الّا ماله أحبّ اليه، قال (ﷺ): فانّ ماله ماقدّم ومال وارثه ما أخّر)[١]. **هذا ودخل النّبيّ (ﷺ) على بلال**

(١) صحيح البخاري ٥/٢٣٦٦ الحديث رقم ٦٠٧٧.

يعوده وعنده صبرة من تمر فقال: ما هذا يا بلال؟ قال: ادّخرته لك يارسول الله، قال: أما تخشى أن يجعل لك بخاراً من نار جهنّم؟ أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش الإقلال)[١].

ثمّ لمّا أمر الله تعالى وأباح الأكل من الطّيبات أراد أن يذكر بعض الخبائث الّتي حرّمها عليه، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

(**إِنَّمَا حَرَّمَ**) الله تعالى فيما يتعلّق باللّحوم والذّبائح (**الْمَيْتَةَ**) وهي ما مات حتف أنفه بدون ذبح (**وَالْدَّمَ**) المسفوح أي السّائل لا المتجمّد كالكبد والطّحال فإنّهما حلالان (**وَلَحْمَ الْخنزير وَمَآ أهِلَّ**) أي افتتح ذبحه باسم (**لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ**) أي افتتح بذلك الاسم (**فَمَنِ اضْطُرَّ**) الى أكل هذه المحرّمات أو غيرها فأكلّ (**غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ**) فلا يعاقبه الله تعالى على ذلك الأكل للاضطرار (**فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ**) يغفر لعباده ما اضطرّوا إليه (**رَّحِيمٌ**) بهم ولذلك يغفر لهم فيجوز للمضطرّ الأكل من كلّ ما اضطرّ الى أكله من المحرّمات حفظاً للنّفس، هذا وقد فصّلنا الكلام على هذه الآية وما يستنبط منها من الأحكام في سورة البقرة، لأنّ هذه الآية موجودة هناك أيضاً والحمد لله تعالى.

ثمّ بعد أن بيّن الله تعالى بعض المحرّمات أراد أن يذكر أنّ الحكم بالحلّ والحرمة هو لله تعالى وحده وليس لأحد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام إلّا بعد السّماع من الكتاب أو سنّة الرّسول (ﷺ)، فإنّ الحكم بالحلّ والحرمة تشريع، والتّشريع خاصّ لله تعالى، فمن شرّع فقد كفر، ومن عمل بتشريعه فقد كفر وأشرك بالله تعالى، ولذلك قال تعالى: (**وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ**) أي لما تذكره (**أَلْسِنَتُكُمُ**) فلا تقولوا فيه القول (**الْكَذِبَ**) وهو أن تقولوا (**هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ**) الّا بعد الاستنباط من الكتاب أو السّنة تصريحاً

(١) المعجم الكبير للطبراني ١/ ٣٤٢ الحديث رقم ١٠٢٥.

أو التزاماً وحسب الأصول المقرّرة للاستنباط والاجتهاد (**لِّتَفْتَرُواْ**) اللاّم لام عاقبة فالمعنى فتكون عاقبة هذا القول أن تفتروا (**عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ**) في تحريمكم أو تحليلكم فإنّ قولكم: هذا حلال أي عند الله وهذا حرام أي عنده، افتراء على الله إنّ لم يكن مأخوذاً من الكتاب والسّنة، فيكون كفراً إن أراد أنّه حرام هو حرّمه أو حلال هو حلّله فقد أشرك بالله تعالى؛ لأنّ التّحليل والتّحريم هو لله فقط، واعلموا (**إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ**) أو يقومون بأمر هو لله فقط فهم (**لاَ يُفْلِحُونَ**) اي لا يفوزون بالخير. وذلك لأنّ حياتهم في الدّنيا وانتفاعهم بها (**مَتَاعٌ قَلِيلٌ**) فإنّ حياة الدّنيا قليلة وإن كثرت. لأنّها زائلة بالموت أو بغيره. (**وَلَهُمْ**) بعدما خرجوا من الدّنيا فماتوا (**عَذَابٌ أَلِيمٌ**) بسبب هذا الكفر والافتراء وحكمهم دون حكم الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه لم يحرّم من الحيوانات واللّحوم إلّا هذه المذكورات، وقد حرّم الله على اليهود بعض الحيوانات أو بعض أجزاء الأنعام، أشار تعالى إلى أنّ هذا التّحريم ليس تحريماً ذاتياً وعامّاً، وإنّما هو تحريم على اليهود فقط بسبب عصيانهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

(**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ**) وهم اليهود (**حَرَّمْنَا**) عليهم خاصّة (**مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ**) في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٤٦. (**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ**) بتحريم هذه الأشياء عليهم (**وَلَـكِنْ كَانُواْ**) هم (**أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) حيث ارتكبوا معاصي أدّت إلى تحريمها عليهم (**ثُمَّ**) أي بعد ذكرنا الحلال والحرام والحقّ والباطل (**إِنَّ رَبَّكَ**) أيّها العبد (**لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ**) قبل بياننا هذا (**بِجَهَالَةٍ**) اي بسبب جهله بشريعة الله تعالى (**ثُمَّ تَابُواْ**) فتركوا ماحرّمنا (**مِن بَعْدِ ذَلِكَ**) البيان (**وَأَصْلَحُواْ**) أي وعملوا كما أمرناهم وامتثلوا أحكام الله تعالى (**إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا**) اي من بعد هذه التّوبة (**لَغَفُورٌ**) يغفر لهم لأنّه (**رَّحِيمٌ**) فللرّحمة فقط يغفر عن عباده لا لأمر آخر. ثمّ إنّ الآية عامّة لكلّ من تاب عن

المعاصي، والمراد من قوله: (**بِجَهَالَةٍ**) هو اتّباع الهوى وترك التّمسك بحكم الله تعالى. اللّهم اغفر لنا ذنوبنا الّتي ارتكبناها وارحمنا آمين. ثمّ إنّ المشركين واليهود كانوا يدّعون: أنّهم يتّبعون إبراهيم (عليه السلام) ويعتزّون به، وكان اليهود يقولون: إنّ ابراهيم كان يعظّم السّبت، فأراد الله تعالى أن يردّ عليهم ويفنّد زعمهم، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

(**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا**)[١] عابداً مطيعاً (**لِلَّهِ**) ولم يكن ليعصيه قطّ (**حَنِيفًا**) مائلاً عن الباطل إلى الحقّ (**شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ**) أي نعم الله الّتي أنعم بها عليه، فكان يصرف كلّ ما وهبه الله فيما هو له (**اجْتَبَاهُ**) أي اختاره الله تعالى للنبوّة والرّسالة (**وَهَدَاهُ**) وأوصله (**إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) أي منهج ودين لا عوج فيه وهو الإسلام (**وَآتَيْنَاهُ**) بسبب شكره (**فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً**) من الإسلام والأموال والأولاد الصّالحين والنّبوة والرّسالة (**وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ**) أي يوم القيمة (**لَمِنَ الصَّالِحِينَ**) للدّخول في الجنّة ورضوان الله تعالى. وبهذا أثبت الله تعالى أنّ ابراهيم لم يكن من المشركين ولا المشركون من أتباعه في شيء. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ المسلمين هم من أتباع ابراهيم؛ فقال جلّ وعلا: (**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**) أيّها النّبيّ (**أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ**) دين ومنهج (**إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**) إما حال عن الضّمير في (**اتّبع**) أي اتّبعه حال كونك حنيفاً، أو حال عن إبراهيم، أي حال كون إبراهيم

---

(١) في معنى كون إبراهيم (عليه السلام) كان أمّة أقوال: **الأوّل**: أنّه كان مؤمناً وحده والنّاس كلّهم كفّار. **الثاني**: أنّه كان مقتدى يقتدي به النّاس. **الثالث**: أنّه كان مؤتمّاً به لأنّه من الفعلة بمعنى مفعول كالبغيّة ومنه قوله تعالى (إنّي جاعلك للنّاس إماماً). **الرابع**: أنّه كان وحده أمّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير كما في قول الشّاعر: وليس على الله بمستنكر..أن يجمع العالم في واحد. والآخير هو الأصح./ أنظر الكشاف ٢/ ٥٩٩. والتفسير الكبير للرازي ٢٠/ ١٠٧.

حنيفاً، وكلا المعنيين صحيح، أو حال عن الاثنين على التّنازع والله تعالى أعلم. فالرّسول هو الّذي تبع ابراهيم لا اليهود ولا المشركون، كما قال تعالى: (**وَمَا كَانَ**) إبراهيم (**مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) في شيء. ثمّ أراد الله تعالى أن يردّ قول اليهود في السّبت؛ فقال جلّ وعلا: (**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ**) أي في السّبت وهم اليهود ولم يكن السّبت يوم إبراهيم ولا كان معظّماً عنده، واختلاف اليهود في **السّبت** هو ما روي أنّ موسى ﷺ أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوماً للعبادة فيه، وأن يكون هو يوم الجمعة فأبوا عليه، وقالوا نريد اليوم الّذي استراح الله تعالى فيه من الخلق وهو يوم السّبت، لأنّ الله تعالى بدأ بالخلق يوم الأحد، وأكمل الخلق يوم الجمعة فاستراح يوم السّبت، ولم يوافقوا موسى على الجمعة إلّا قليل من أتباعه، وهذا هو اختلافهم في السّبت لأنّ بعضهم أرادوه، وبعضهم أرادوا يوم الجمعة، فأذن الله تعالى لهم في السّبت وحرم عليهم صيد الأسماك فيه، فأطاع أمر الله هذا الّذين رضوا بالجمعة ولم يطع الّذين اختاروا السّبت فاصطادوا فيه (**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ**) أي بين الفريقين (**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) يوم الحشر والحساب (**فِيمَا كَانُواْ فِيهِ**) أي في السّبت وفي الاصطياد فيه (**يَخْتَلِفُونَ**) فيثيب الّذين امتنعوا عن الاصطياد فيه ويعاقب من اصطاد فيه.

ثمّ بعد هذه المناقشات الطّويلة وإصرار الكافرين على كفرهم كاد أن يحمل رسول الله (ﷺ) غيرته في الحقّ وكراهيّته للباطل على أن يستعمل القوّة في الدّعوة والشّدّة على من وقف ضدّها، فأراد الله تعالى أن يهدّئ قلبه الشّريف فقال جلّ وعلا:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

(**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ**) دين ومنهج (**رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**) وهي الإتقان في العلم والعمل (**وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**) وهي أن يتكلّم مع النّاس بما يلين قلوبهم ويتجنّب ما ينفّرهم، وأن يظهر لهم بأنّه لايريد وراء هذه مالاً ولا سلطاناً، بل يريد إيصال الخير والحقّ والصّلاح

اليهم، وأنّه يريد لهم مايريد لنفسه من الخير والفلاح **(وَجَادِلْهُم)** أي وناقشهم فيما يخالفونك **(بِالَّتِي)** بالطّريقة الّتي **(هِيَ أَحْسَنُ)** أفضل الطّرق في المناقشة، وذلك بأن يحترم المرء الطّرف المقابل، وأن يبتعد عمّا يجرح شعوره، وأن يأتي بالدّلائل المسلّمة بين الجانبين لمناقشة أهل الكتاب بما في كتبهم، وبالدّلائل العقليّة الّتي يعترف بها الطّرفان، ثمّ بعد هذه الدّعوة لا يكون حريصاً على قبولهم لها، فإنّه ليس كلّ النّاس يجتمع على أمر ولا كلّ النّاس يهتدون بل **(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ)** فلا يهتدي ذلك فلا تحرص عليه **(وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)** أي الّذين فيهم حبّ الهداية والسّعي لها، فهؤلاء يهتدون حرصت عليهم أو لم تحرص، فعليك بالدّعوة فقط، وأمّا الهداية والضّلال فهو موكول إلى اختيار النّاس وإرادتهم وخلق لهم ذلك. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الدّعوة إلى الله لابد وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا مجال لاستعمال القوّة، ذكر الله تعالى أنّه إذا وقف المنكرون للدّعوة في طريقها واستعملوا القوّة ضدّ الدّعاة، ولم ينفع فيهم إلّا المقابلة بالمثل، فيجوز حينئذٍ أن يستعملوا القوّة دفاعاً، وبشرط أن لا يفرّطوا فلا يزيدوا على ما يجب فقال تعالى **(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ)** الّذين يسيئون إليكم **(فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ)** بقدر **(مَا عُوقِبْتُم)** أي ما أوذيتم **(بِهِ)** ولا تتجاوزوا فتفرّطوا وتعاقبوا أكثر ممّا أصابوكم به **(وَلَئِن صَبَرْتُمْ)** فتركتم العقاب والمقابلة بالمثل **(لَهُوَ)** أي الصّبر **(خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ)** من الانتقام والمقابلة بالمثل، وذلك إذا لم يؤدِّ الصّبر إلى غرور الكافرين وزيادتهم في التّعدي، إذ حينئذٍ يجب العقاب والانتقام؛ ولذلك أمر الله تعالى المؤمنين بالقتال حينما لم يقف الكافرون عند حدّهم ولم يفدهم الصّبر عنهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ سورة الحج الآية/ ٣٩. هذا ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالصّبر، وذكر أنّ الصّبر خير أمره تعالى بالصّبر؛ فقال جلّ وعلا: **(وَاصْبِرْ)** وتحمّل الأذى ولا تقابل بالمثل لعلّهم يهتدون **(وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)** وما صبرك إلّا بخلقه وإرادته.

سؤال: لماذا أنّه تعالى بعد قوله: فاصبر، قال: وما صبرك إلّا بالله؟

الجواب: إنّ هذه الأوامر موجّهة إلى الرّسول (ﷺ) ولكنّها يراد بها الأمّة والدّعاة أيضاً؛ فعليهم بالتزام هذه الأوامر، والرّسول (ﷺ) كان يعرف الحقائق ولكنّ ربّما يظنّ بعض النّاس بعد قوله (فاصبر) أنّ عمل العبد هو بخلقه وارادته، ولاحاجة إلى الله، فلذلك قال: (وما صبرك) أي خلقه للصّبر (إلّا بالله) بإرادته وإنّما يطلب منك الميل

والكسب للصّبر، فيخلقه الله تعالى بعد الكسب والميل هذا، أو المعنى (وما صبرك) واجباً إلّا بأمر الله تعالى، فإذا أمرك بالصّبر فاصبر، واذا أمرك بعدم الصّبر فلا تصبر وانتقم، كما كان الأمر كذلك، حيث بعد ما أمره بالقتال لم يصبر فقاتل ولم يقبل السّماح، والحاصل كن مع أمر الله في كلّ شيء، فإن أمر بالصّبر فاصبر، وإن أمر بعدم الصّبر فلا.

❊ ❊ ❊

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) على ضلال من ضلّ، فإنّ الله تعالى قد هيّأ لك من يهتدي وهم خير منهم **(وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)** أي ممّا يعملون من الدّسائس ضدّك وضدّ دينك وضدّ من اتّبعك، فإنّ الله تعالى سيبطل كلّ مكرهم في الدّنيا وينصرك ويخزيهم وينتقم منهم في الآخرة. ثمّ أكّد الله تعالى هذا الوعد وصرّح به؛ فقال جلّ وعلا: **(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ)** الشّرك واجتنبوه فينصرهم إن عملوا بصدق وهو مع **(والَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)** باتّباع شريعة الله تعالى وأداء واجباته إلّا أنّ كلّ شيء مرهون بوقته، وانّ العبرة في الأمور بخواتيمها، وزاد قوله: **(والَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)** للإشارة إلى أنّ مجرّد الإيمان والتّوحيد لا يكفي، بل لابدّ من الجمع بين الإيمان والتّوحيد والعمل وفقهما، وذلك باتّباع ما أمر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه والجهاد، فمن كان جامعاً بين الإيمان والعمل فهو الّذي ينصره الله تعالى في الدّنيا ويرضيه بالجنّات في الآخرة ويرزقه حسن الختام.

اللّهم اجعلنا منهم آمين.